البرهان في نظام القرآن

في الفاتحة والبقرة وآل عمران

الدكتور
محمد عناية الله أسد سبحاني

قدم له

العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي　　العلامة الدكتور محمد أديب الصالح

الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم

دار عمار

البرهان في نظام القرآن

في الفاتحة والبقرة وآل عمران

الدكتور
محمد عناية الله أسد سبحاني

قدم له

العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

العلامة الدكتور محمد أديب الصالح

الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم

دار عمار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والسلام على سيدنا رسول الله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فلست هنا بصدد إيراد بعض ما ورد في هذا الكتاب القيم الذي أسماه صاحبه: "البرهان في نظام القرآن" معقباً بالثناء عليه والإطراء على الكنوز التي يزخر بها، فقد كفانا صديقنا الدكتور محمد أديب الصالح مؤونة هذا.

ثم إن الكتاب بنصوصه الموثقة وفصوله المحققة وعلومه الغزيرة ولفتاته البارعة ونظراته الثاقبة وعباراته المشوقة هو وحده الذي سيحكم القارئ به على الدكتور سبحاني أو له.

وأما أنا فلا أزيد على أن أقول: جزاه الله عن القرآن وأهله خير الجزاء وبارك في جهده ويسر له إتمام هذا العمل الخير المبارك الذي بدأ فيه، والله وليّ التوفيق.

ندوة العلماء - لكناؤ - الهند

١٥-من رمضان المبارك ١٤١٤ هـ

الداعي



أبو الحسن علي الحسني الندوي

تصدير

بقلم الباحث الإسلامي الكبير والعلامة الجليل سماحة الشيخ الدكتور / محمد أديب صالح - رئيس قسم السنة وعلومها - الأسبق بكلية أصول الدين - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وشاء بحكمته أن يكون هذا القرآن كتابَ هداية إلى كل ما تتحقق به سعادة الدارين، ومعجزة دالة على أن محمداً ﷺ رسول من عند الله يوحى إليه، وأن الكتاب العزيز كلام الله وليس بكلام البشر، والصلاة والسلام الأتمَّانِ الأكملان على البشير النذير، سيدنا ونبينا محمد المؤتمن على بيان ما نُزل عليه للناس وعلى آله وصحابته ومن سار على هديه في خدمة هذا الكتاب وبيانه من السنة المطهرة إلى يوم الدين.

وبعد: فقد تحدى ربنا جلَّ شأنه العربَ - وهم أرباب الفصاحة واللسن - أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم، فعجزوا عن ذلك مع توافر الدواعي عندهم على معارضته لما أنه نزل بلغتهم وعلى معهودهم في الخطاب، وهم مَنْ هم في العالمين يومذاك، تميزاً بالبلاغة والفصاحة، وكونهم أرباب البيان بلا منازع. أجل عجزوا عن أن يأتوا ولو بسورة قصيرة من مثل الفرقان الحكيم، وصدق فيهم وفي غيرهم من الإنس والجن قول الله تباركت أسماؤه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ [الإسراء].

كان هذا: علماً بأن المتحدى به هو التعبير والأسلوب، وأنه صحب التحدي ائتمانهم هم على الحكم، فكان الإعجاز البياني هو الأصل في الإعجاز وما سواه من الأنواع - وما أكثرها - تَبعٌ له، لأن التحدي لم يكن بمتعلقاتها.

ولست بسبيل الحديث عن الإعجاز والهداية من حيث هما في هذه العجالة بين يدي كتاب أخينا الدكتور محمد عناية الله، فالإعجاز البياني تصحبه ألوان الهداية التي تفيض بها مضمونات آي الكتاب، والنَّظم الكريم ثوبها المشرق الأخاذ، ولكني بسبيل الإشارة إلى أن إنزال القرآن بلسان عربي مبين جعل العلاقة وطيدة بين النظم وبين الإعجاز والهداية جميعاً، لما أنه مشرق بهما.

فالمتبصِّرْ بكتاب الله على نور من ربه، وأخذٍ بالأسباب المطلوبة، بغية الوصول إلى الفهم السليم لمعانيه ومبانيه، والإحاطة الممكنة للبشر بمرامي الهداية فيه. الهداية التي شاء ربنا جل شأنه أن يخرج الناس - أن لو استمسكوا بها - من الظلمات إلى النور، والوقوف على مناط الإعجاز وصوره الآسرة في بيانه الفريد الذي لا يجارى، وأسلوبه الفاذ الذي حاشا أن يُبارى مع الانفعال الصادق والتذوق... المتبصرُ بكتابِ الله على هذا النحو يدرك - والله أعلم - ما للنظامِ في آياتهِ وسوره من أثرٍ بالغ في ذلك.

ولقد عني علماؤنا بهذه القضية الكبرى - على تفاوت بينهم في النظرة وتبين موقع الآية من الآية أو الآيات، والسورة من السورة، بل وُجِدَ فيهم - جزاهم الله عن الأمة كل خير - مَنْ خَصَّ بالتصنيف مناسبة ترتيب سور القرآن الكريم، ومنهم من تجاوز إلى مناسبات الآيات والسور، لما لذلك من علاقة وثيقة - في نظرهم - بإدراك مرامي النظام وأسراره.

وللإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٤هـ في تفسيره «التفسير الكبير ومفاتيح الغيب» وقفات بارعات عند كثير من الآيات، وُفق عند استلهام النظم في العديد منها. وقد أشار العلامة بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ في كتابه «البرهان في علوم القرآن» إلى ذلك واستحسنه، وحذا حذوه السيوطي في «الإتقان».

وممن صنفوا في ترتيب السور للغرض الذي نومىء إليه: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير الأندلسي المتوفى ٨٠٧هـ فقد صنف كتاباً أسماه «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن» ولعل الكتاب الجامع المتداول في موضوع المناسبات للآيات والسور جميعاً كتاب «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» لمصنفه الإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى ٨٨٥هـ على مآخذ لبعض العلماء عليه. والبقاعي نسبة إلى البقاع في لبنان من بلاد الشام.

وللإمام حميد الدين الفراهي المتوفى ١٣٤٩هـ جهود طيبة غزيرة النفع في هذا الباب وقد خَلَّفَ عدة مؤلفات عالمية الشأن منها: نظام القرآن، ومفردات القرآن، ودلائل النظام.

وللشهيد سيد قطب أجزل الله مثوبته في كتابه القيّم «في ظلال القرآن» لفتات بارعات على هذه الساحة ووقفات غاية في الدقة والاستنارة لا تخفى على منصف له قلب.

إن العناية بالكشف عن المناسبات هذه دون تَمحُّلٍ وتعسف، أوليٌّ لأعناق النصوص

- كما يقولون - لها آثارها الطيبة عند النظرات المتبصرة في النظام القرآني وما قد يلهم المتأمل من دلالات تغني في تلمس الإعجاز وتبين المعاني، وبخاصة عندما تتعدد وجوه التأويل عند العلماء.

ولعل مما يزيد الأمر وضوحاً ملاحظة أن الاشتغال بنظام القرآن المجيد، والنظر المحكم في مسالكه النيرة المباركة ببصيرة مصحوبة بالأخذ بكل ما هو من وسائل التبيين بسبب اشتغال بما يسعف في المزيد من فقه الكتاب الكريم، والقدرة - بعون الله - على حسن تدبره، كما يكون ذلك مَدْعاةً لأن ينال الدارس حظه من علومه وكنوزه التي لا تنفد، ويكون ذلك - كما يقول باحثنا الفاضل - بقدر الإخلاص واهتمام الدارس وعنايته بهذا العلم.

ولقد تتشعب المسالك على المفسر أحياناً بسبب التكرار أو الاشتراك في الألفاظ وما إلى ذلك، ويكون المعتصم من التعثر في الفهم بإدراك بنية النظام القرآني في الآيات التي هي مدار التأويل والاستنباط، لما أن ذلك يُسلم إلى تحديد المعاني والمقاصد، ويومىء بوضوح إلى حكمة الله جل شأنه فيما بدا للناظر من التكرار وما إليه.

ثم إن إدراك الوجوه البلاغية في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يكفي له دراسة تلكم القواعد النظرية - على أهميتها بل لا بد من اصحطاب ما يوحيه النظم لتمثُّل تلك الوجوه وتذوقها، وقد يكون ذلك طريقاً نيرة تزلف إلى حسن التذوق وعميق الإدراك لمحاسن الكتاب، في كمال نظمه وروعة أسلوبه المتميز، وسحره الفريد.

هذا: والذين رزقوا أن يألفوا النظر في معاني الآي من كتاب الله ومدلولاتها، وارتباط ذلك في كثير من الأحيان بأسباب النزول، يدركون الأهمية لرعاية النظام في فهم تلك الأسباب - على مختلف أحوالها - ووضعها مواضعها من ساحة التأثير في تبين المعنى المراد، واتساق الجزئيات مع الكليات على محور الهداية في الفرقان الحكيم، والتخلي عن ذلك قد يوقع فيما هو عكس المقصود.

وإني مُوردٌ هنا بعد تلكم الإشارات الموجزة واحداً من الأمثلة تم اختياره من كلام الإمام الرازي على النظم ووجوهه في الوقفات اليت أشرت إليها من قبل. فعند الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ . . . ﴿٢٨٥﴾ ﴾ الآية، قال رحمه الله: في الآية مسائل. وخصَّ المسألة الأولى بكيفية النظم، وأتى

لذلك بوجوه أربعة، نقتصر هنا على ذكر ثلاثة منها:

الأول: وهو أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة كمال الملك وكمال العلم وكمال القدرة لله تعالى - وذلك يوجب كمال صفة الربوبية - أتبع ذلك بأن بين كون المؤمنين في نهاية الانقياد والطاعة والخضوع لله تعالى، وذلك هو كمال العبودية. وإذا ظهر لنا كمال الربوبية وقد ظهر منا كمالُ العبودية، فالمرجو من عميم فضله وإحسانه أن يُظهر يوم القيامة في حقنا كمالَ العناية والرحمة والإحسان. اللهم حقق هذا الأمل.

الوجه الثاني: أنه تعالى لما قال: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ... ﴿٢٨٤﴾ ﴾ [البقرة] بين أنه لا يخفى عليه من سِرِّنا وجهرنا، وباطننا وظاهرنا، شيء البتة، ثم إنه تعالى ذكر عقيب ذلك ما يجري مجرى المدح والثناء علينا، فقال: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة] كأنه - بفضله - يقول: عبدي أنا وإنْ كنتُ أعلم جميع أحوالك، ولا أذكر منها إلا ما يكون مدحاً لك وثناءً عليك، حتى تعلم كما أنا الكاملُ في الملك والعلم والقدرة، فأنا الكامل في الجود والرحمة، وفي إظهار الحسنات والستر على السيئات(١).

الوجه الثالث: أنه بدأ السورة بمدح المتقين الذي يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وبيَّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ، فقال: ﴿ ... وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ... ﴾ وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة]، ثم قال ههنا: ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة] ثم قال ههنا: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة] وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة] ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] إلى آخر السورة، وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة]. فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها»(٢).

ومهما يكن من أمر: فإن ما ذكرته - وهو ليس كل ما في الباب - مما فصل القول

---

(١) «التفسير الكبير»: (٧/١٣٨).

(٢) المصدر السابق: (٧/١٣٨-١٣٩).

فيه باحثنا الدكتور محمد عناية الله من قبل، يأخذ بأيدينا إلى تقرير أن رعاية النظام على الوجه الذي لا تشويه شائبة التخطي لمدلولات النصوص، أو تحميلها ما لا تحمل، تفتح على الدارس - وهو يجمع بين الإيمان وسلامة التدبر في ظلها - ما تَقرُّ به عينُه ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين الذي لا يتزلزل، وينفي - بتوفيق الله - أي شك أو اشتباه. وجميل قول أخينا في خاتمة المطاف: (الوقوف على نظام الآيات يؤدي بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها من لا يهتم بنظامها: فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس، تزداد بقدر زيادة المعرفة بمحاسن الكلام، وحُسْنِ النظام وقوة البرهان).

غير أن من الأهمية بمكان ملاحظة ما أشرت إليه عرضاً من قبل، وهو أن النظر في هذا النظام بحيث يراعى ويستفاد منه على صعيد الهداية فوق ما يؤخذ من ظاهر اللفظ... مطلوب فيه - بجانب الاحتكام إلى الضوابط الشرعية واللغوية عند النظر في الآية أو الآيات بغية الوصول إلى المعنى - البعدُ عن التكلف والتعسف وتسوّر النصوص تجاوزاً لإخضاع الكلام إلى مرادٍ سبقَ تَصوُّره أو تصور ما هو منه بسبب، وعندها يكون ما وصل إليه الدارس باستنارة قلب ويقظة عقل من الفهم الذي يعطيه الله العبد تفضلاً منه سبحانه ومِنّةً، وإلا كان أجدرَ بعدم القبول.

ومن الجدير بالذكر التنبيه على أن لبعض العلماء موقفاً يحمل طابع الاستنكار لعلم المناسبات الذي هو جدّ لصيق بهذا العلم كالذي نرى عند الشوكاني رحمه الله إذ نَدَّد بمن انتهجوه - عموماً - وخص بالذكر منهم الإمام البقاعي رحمه الله، وقد يكون مرد الاستنكار عند الشوكاني ما رأى من التعسف والتكلف في بعض الأحيان، ولكن قد يخالف في تعميم الحكم.

هذا، وقد آن أن أشير إلى أن الكتاب الذي أُقدّمُ له - على بضاعتي المُزجاة - بهذه الكلمات هو في صلب موضوع النظام الذي حوله نُدندن، لما أنه بمثابة تطبيق عملي لما ذكر، وهذا التطبيق العملي مساحته ثلاث سور مباركات - والقرآن مباركٌ كله - هي الفاتحة والبقرة وآل عمران كما جاء ذلك واضحاً في عنوان الكتاب وهو: «نظام سور الفاتحة والبقرة وآل عمران». وكان الباحث الفاضل أخونا الدكتور محمد عناية الله محمد هداية الله قد نال بهذا البحث درجة «الدكتوراه» في القرآن وعلومه من جامعة الإمام بالرياض.

والناظر المتأني يرى في هذا البحث إسهاماً ملحوظاً لا ينكر على هذه الساحة

المباركة. وإنما تأتي أهميته من أهمية موضوعه، ثم أهمية المنهج وطريقة المعالجة والتطبيق، ذلك بأن قضية النظم في حقيقتها - كما سلف - تتعلق بالإيمان والمعرفة جميعاً لما أنها على صعيد الهداية التي هي قوام المنهج الرباني المشرق بدقته وشموله، من العناصر المهمة في الوصول إلى المعنى المراد وما قد يتصل به، كما أنها تعين في استشعار ما تضيء به آي الكتاب من إعجاز القرآن الكريم ووجوه البلاغة الفاذة من خلال الأمرين أو متعلّقاتهما.

ولقد كان من توفيق الله تعالى، وتيسير التكامل بين الفكر النظري العلمي وبين التطبيق المنهجي العملي، أن هذا البحث الذي يعالج فيه الدكتور محمد عناية النظم القرآني في أم الكتاب والزهراوين عنايةً بالنظام وإخراجاً لمضمونه الفكري إلى الحيز العملي قد سبق ببحث كان محوره المجال النظري في النظم القرآني حصل هو نفسه على درجة الماجستير وعنوانه: «إمعان النظر في نظام الآي والسور»[1] وبذلك أصبح موضوع الكتاب الذي بين أيدينا وهو يتسم بالطابع التطبيقي امتداداً لسابقه الذي يحمل سيما التحديد النظري العلمي.

وقد حرص الباحث في الموضوع الأول أن تكون المعالجة على أساس منهجي دقيق، لا يعوزه التوثيق، ولا يَجفوهُ العمقُ قدر المستطاع وبذلك كان هو أقدر منه على تناول ما تناوله من البحث في نظام السور الثلاث المذكورة، مما لو كان لم يقطع تلك المرحلة السابقة بالدراسة والتقعيد. وهكذا حصل التكامل المفيد، حيث استقام لأخينا عمود التطبيق العملي لما سبق واجتهد في تحريره مشكوراً من قبل، فكان له من اصطحاب أم القرآن والزهراوين - ويا لها من صحبة مباركة - برهان عملي هنا على ما أوضحه بصورة نظرية هناك.

ولا نكران أنه قد أحسن الإفادة من صنيع من سبقوه، وكان موفقاً في كثير مما وافق، أو خالف، أو ناقش وحاور، بل في كثير مما زاد وأضاف. وقد استطاع - بحمد الله أن يؤكد أهمية النظم القرآني في تحسس مواطن الإعجاز - وما أكثرها إذ القرآن كله معجز - والمعاونة على الوصول إلى ما تزخر به نصوص الفرقان الحكيم في مبانيها ومعانيها من الهداية الربانية، التي تفيض بها كلمات اللهالتي لا تنفد. ناهيك عن تفتيح الأبصار والبصائر على عقود تنتظم ما تشرق به لآلىء تلك المعاني، الأمر الذي

---

(١) طبع في دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن ٢٠٠٣.

يسمو بمدرك ذلك قلباً وعقلاً إلى حيث رحاب أهل القرب الذين يرفعهم الله بكتابه الكريم، ويهديهم بنوره على الصراط المستقيم.

وجميل ما أخذ الباحث به نفسه في رحلته الطويلة المباركة مع النظام في تلكم السور الثلاث من البعد - في أحكامه وما يذهب إليه - عن ليِّ أعناقِ النصوص والتكلف لحملها على ما يريد، أو التعسف في استنطاقها وفق فكرة تجفوها الضوابط الشرعية أو اللغوية أو كلا النوعين؛ فهو - كما يبدو - لا يطلق الكلام بمحض الرأي دون دليل كما أنه لا مكان - عنده فيما يذهب إليه - للروايات الضعيفة أن ترفع إلى مستوى صرفِ آية أو آيات عن وجهها، الأمر الذي قد يكون حائلاً دون الدارس ودون الوصول إلى صحيح التأويل الذي يعقب سلامة الإفادة من النظم.

وكان ذلك وفاءً منه لِمَا وعد أن يلتزم به من أن هذا العلم ليس بالرأي المحض بل الأصل فيه العكوفُ على كتاب الله وتدبر آياته والتأمل في نظمه وسياقه، ومتابعته متابعة دقيقة من غير تكلف ولا تعسف، حتى ينكشف ما خفي من معانيه، ويتجلى - على حد قوله - كما يتجلى القمر في ليلة تمامه. ولذلك - كما يقول - يرفض منهجه التكلف رفضاً باتاً، ولا يلتفت إلى تأويل تُشَمُّ منه رائحةُ التكلف. وليس هذا فحسب: فكما أنه لا مكان عنده للقول بمحض الرأي، فكذلك لا مكان لما يشبهه من الروايات الضعيفة التي تصرف الآيات عن وجهها وتكون حجاباً دون التوصل إلى صحيح تأويلها.

وبناءً على ذلك كان اعتماد المنهج على ثلاث مراحل: أولاها - التأكد من صحة تأويل الآيات، بعرض هذا التأويل على المعايير العلمية الدقيقة الثابتة. ثانيتها - التماس المناسبة بين الآيات وبين أجزاء السورة وفقراتها دون تكلف. الثالثة - استخراج عمود السورة وهو المحور الذي ترتد إليه المعاني على سلم الهداية في الكتاب الكريم.

ولم يدع الأخ الباحث أن يوضح للقارىء أن هذه المراحل الثلاث، وإن كان يوجد بينها ترتيب، فإن هذا الترتيب لا يظهر إلا في أول الطريق، وبعد ذلك - وهذا لفظه - تتداخل الثلاث بعضها في بعض، وتتعاون فيما بينها وتتعاضد حتى تتحقق الغاية المنشودة وتَقَرُّ بها عينُ الباحث بإذن الله.

هذا: وبعد الكلام على المنهج وتحديد مراحله، نجد أن الباحث - شكرَ اللهُ له -

اختار أن يقوم بين يدي بحث النظام في السور الثلاث، برحلة طيبة مع كتاب البقاعي رحمه الله «نظم الدرر..» أتاحت له - على وجه العموم - دراسة موضوعية لكتاب ذي أهمية بالغة في بابه، وهي دراسة كبيرة النفع للقارىء إن شاء الله، وإن كان قد يخالف في جملة من أحكامه على صنيع البقاعي والشدة في ذلك.

وقد تبع هذا التمهيد الباب الأول الذي أفرده لسورة الفاتحة، حيث كشف في الفصل الأول - على هامش السورة - عن شيء مما ورد في فضلها، وأزاح الستار عن مكانتها في الصلاة حتى كأنها هي الصلاة نفسها، وأنها العهدُ والميثاق بين العبد وربه سبحانه. ثم سلط الأضواء على الربط بين الآيات ووجوه هذا الربط. وقد أحسن فيما تلا ذلك من بيان ارتباط السورة بما بعدها، ووصل باجتهاده في ذلك إلى ستة وجوه، لم يجزم بأنها هي الروابط كلها، بل قد يفتح الله تعالى بجديد.

وَدعَتْهُ فضائلُ هذه السورة المباركة ومضموناتها الكريمة بوصفها أم القرآن أو أم الكتاب، والسبع المثاني إلى بيان موقعها من القرآن جملة، أو من جملة القرآن - على حد تعبيره - ومما جاء في كلامه على هذه النقطة المهمة:

«إن هذه السورة مع قِصَرِها ووجازتها تضمنت العلومَ والمبادىء الأساسية التي عولجت في القرآن جميعه، وبذلك صارت أم القرآن.. فالناظر المتأمل فيها، لا يفوته أن يطلع من خلالها إلى جميع مطالب القرآن، أو يستحضر في ذهنه رؤوس المعاني التي جاء بها القرآن».

على أن الإمام الفراهي رحمه الله قد سبق إلى شيء من ذلك ويَسَّر له مزيداً من تذوق عظمتها، فكان من الأمانة أنْ نقلَ جملة طيبة من كلامه في ذلك.

وبعد هذه الرحلة لم يأل جهداً في أن يكشف عن علاقة فاتحة الكتاب بخواتيمه على صورة تدعو إلى الإعجاب بحسن مخالطته للآيات، والتقدير للوجهة التي اتجه إليها في ذلك.

ولعل هذه الإشارات العجلى إلى نظرات أخينا الباحث في نظام أم الكتاب - على قلة عددِ آيها - بعد التأويل وتبيين المدلول، تسعف في تصور ما يلي ذلك من بحث في النظم القرآني، وتنبيه على المناسبات بين الآيات في الزهراوين واستيحاء هذا النظم - بعد الوصول إلى ما تشتمل عليه الآية أو الآيات من المعاني عند المفسرين أهل التأويل - من توجيهات دقيقة، ولفتات عميقة، ما كان يمكن إزاحة الستار عنها لولا

معاناة النظم وقراءة المناسبة دون تكلف ولا تعسف.

ولقد نكون أكثر إنصافاً إذا ذكرنا أن مجموع الآيات في السورتين الكريمتين ست وثمانون وأربعمائة آية من القرآن المدني، لسورة البقرة منها ست وثمانون ومئتان، ولسورة آل عمران مائتان.

وهذا عدد مبارك حمل الباحث طول المسافة فيه مع تنوع الموضوعات ووفرتها في النور الهادي، على أن يسلك في البحث والإفادة من دلالات النظام، مسلك تقسيم الآيات إلى مقاطع أو جمل - على حد تعبير بعضهم - ولم يكن التقسيم على هذا النحو بالأمر السهل، إذ لا بد له من دقة النظر فيما يمكن أن يكون - ضمن شتات المسائل والأحكام والقضايا المنثورة على سلم الهداية - حداً فاصلاً - ولو مجازاً - بين المقطع وأخيه، ومعيناً على الإحساس بذلك الناظم النوراني الذي ينتظم الآيات عن طريق المناسبة دون تنطع أوليٍّ لأعناقِ النصوص. وهكذا نرى في مواجهة سورة البقرة مثلاً: نظم الآيات: ٨٣-٨٧، نظم الآيات ١٦٣-١٧٦ وهلم جراً، وعلى هذا السنن كانت مواجهة الأمر في سورة آل عمران.

ولقد كان واضحاً أن الباحث الفاضل لم يرغب في مرحلة من مراحل البحث - على ثقل المهمة وطول مسافة السير فيها - عن الأمانة في إيراد الأقوال والآراء والحوار والمناقشة عند الاقتضاء، والموافقة أو المخالفة لقولِ مَنْ سبقه بالدليل. مضافاً ذلك إلى ما يلهمه من الفهم لكتاب الله نتيجة العمق في النظرة إلى النظام والأدب مع كلام الله. ذلك بأنه لم يُعْفِ نفسه من التدقيق فيما تُعطيه الآيات بجملتها أو في مقطع من المقاطع أو آية بمفردها، مع استيحاء النظام، وبيان المناسبات قدر المستطاع في التزام للمنهج الذي رسمه لنفسه بين يدي البحث الذي يضطلع به ولا يغض من قدر هذا المنهج والنتائج التي يصل إليها الباحث أن يخالف في رأي، أو واحدة من تلك النتائج.

وكانت حصيلة ذلك كله - بحمد الله - ثمرات طيبة زاخرة بالنفع، يرضى عنها العقل ويطمئن إليها القلب - إن شاء الله - وتُزكي في روح المؤمن صادقَ الرغبة في مخالطة القرآن الكريم بصدق وصفاء قلب، والاستنارة بهديه على صعيد العبادة والعمل والجهاد بشتى صنوفه وأنواعه، والانتظام في زمرة السالكين إلى مولاهم عز وجل، على نورٍ منه سبحانه وبصيرة. ناهيك عما تحققه من وضع الأمور مواضعها في مواجهة التحديات الجاهلية من المستشرقين وأبناء جلدتنا من المستغربين. ولا أجدني بحاجة

إلى تبيان ما لذلك من آثار تسهم في استئناف الحياة الإسلامية الحقة على صعيد مجتمعاتنا بل الأمة جمعاء.

والأمثلة في كلامه وافرة - والحمد لله - على هذا، وأترك للقارىء الكريم أن ينظر فيها ويصحبها في الرسالة مطبوعة إن شاء الله.

جزى الله أخانا الدكتور / محمد عناية خير الجزاء على ما بذلَ واجتهد وصبر في خدمة الكتاب الكريم منبعِ الهداية وكُلِّي الشريعة وأصلِ الأصول، وأخذَ بيد القارىء إلى كثير من القضايا التي له - إن شاء الله - أجرُ تَجْليتها وحُسْن عرضها والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب القارىء، والدارس، والباحث المنصف - على وجه العموم - من أولئك الذين يحدوهم الصدق في طلب الحقيقة، إلى التعقل عند القراءة ويُسلمهم إلى الاستعلاء على الرواسب الدفينة في أعماق النفوس. والله الهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه واستمسك بسنته إلى يوم الدين.

محمد أديب الصالح

قسم الثقافة الإسلامية - كلية التربية

جامعة الملك سعود

الرياض في ٣/ ٥/ ١٤١٣هـ

تقديم

(بقلم الباحث الإسلامي الكبير فضيلة الدكتور / مصطفى مسلم أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد: فإن كنوز القرآن لا يدركها إلا الغواصون، وإن الثمرات اليانعة من رياض الذكر الحكيم لا يجتنيها إلا مَنْ ملك حِساً جمالياً مرهفاً، ولا يسبرُ أعماق بحار الكتاب المنزل إلا من عايش التنزيل وأدام التدبير والتفكر وكان على حظ كبير من علم العربية عامة وعلوم البلاغة خاصة.

إن من يعايش القرآن الكريم يستشِفُّ معاني ثَرَّة من خلف الألفاظ وتشع أنوار الهداية من خلال الوشائج التي تربط الكلمات بعضها ببعض ولقد كانت هذه الوشائج وهذه الروابط تلفت نظر كثير من المفسرين فيطلقون أحكاماً عامة كقولهم: إن آيات القرآن وسوره مترابطة بإحكام وهي كالسلسلة الذهبية آخذة حلقاتُها برقابِ بعض. ولكنهم كانوا يضربون أمثلة قليلة لما يقولون يسوقونها نماذج للاستدلال على هذه الفكرة.

وقد اهتم بعض المتقدمين بهذا الجانب وكان أبو بكر النيسابوري المتوفى ٣٢٤هـ يقول في مجالسه: لِمَ وضعت هذه الآية بجوار تلك. وكان يزري على علماء بغداد انصرافهم عن هذا اللون من التفسير والبيان ولجهلهم وجوه المناسبة بين الآيات.

وقد وردت شذرات من هذا اللون في التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ولكن لم يتخذ هذا البحث قاعدة ينطلق منها؛ بل وقف حيث يكون الترابط ظاهراً وتجنب الخوض في المواطن غير واضحة الترابط والتلاحم.

وجاء الإمام البقاعي في نهاية القرن التاسع الهجري ليؤلف كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» في اثنين وعشرين مجلداً. كان جلُّ اهتمامه ينصب على ذِكر المناسبات بين الآيات، وقد ذكر وجوهاً دقيقة في الربط بين كثير من الآيات ولم يخل عمله من شيء من التكلف أحياناً نظراً لدقة الموضوع وجلالته وعمقه.

وفتح البقاعي بعمله هذا آفاقاً جديدة للباحثين في وجوه المناسبات.

وخصص الزركشي باباً في برهانه تحدث فيه عن علم المناسبات، وكتب السيوطي كتاباً سماه «تناسق الدرر في تناسب السور»، وكلها جهود في إبراز وجوه المناسبات بين الآيات والسور.

وفي القرن الرابع عشر الهجري ظهرت جهود في تعميق هذه النظرة إلا أنها أعمق من قضية المناسبات لظواهر الآيات المتتالية، وحاول الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله أن يضع ركائز ومنطلقات لوضع لَبناتٍ لنظرية نظم القرآن وحاول أن يبين منطلقات السور الكريمة ويسير وفق محاورها ويربط الموضوعات الجزئية والاستطرادات الجانبية كلها بنظم السورة ومحورها الأساسي. وجاء سيد قطب رحمه الله بعد ذلك ليلقي أضواء في «ظلاله» على هذه الدراسة ويعرّف بشخصية كل سورة وأهدافها ويحدد محاورها في مقدمة تفسيره لكل سورة.

وممن اهتم بالمناسبات بين الآيات والسور في عصرنا الحاضر الشيخ سعيد حوى رحمه الله في كتابه «الأساس في التفسير» إلا أن اهتمامه انصب على إبراز التناسب بين ألفاظ وردت في آيات وسور، ولم تخل دراسته من تكلف.

ولقد أُشبع الشيخ محمد عناية الله محمد هداية الله بهذه الفكرة وعايشها وقرأ حولها الكثير واضطلع على ما كتبه السابقون فأراد أن يضيف عمقاً جديداً لهذا الموضوع - موضوع المناسبات - بل وسَّع الموضوع أكثر عندما برز له أن هناك نظاماً دقيقاً ترتبط الآيات به.

وعندما سنحت للشيخ محمد عناية الله فرصة الكتابة في مرحلة التخصص (الماجستير) أراد أن يُخرجَ فكرته إلى حيز العمل، فسجل رسالته بعنوان (إمعان النظر في نظام الآي والسور) جعلها تدور حول تقعيد هذه الفكرة ووضع معالمها وأسسها للبناء عليها فيما بعد.

وقد أجاد في هذه الرسالة ونالت إعجاب كل من اطلع عليها مما شجع الشيخ محمد عناية الله على الاستمرار في هذا المنهج، فسجل رسالته في الدكتوراه في نفس المجال ولتكون دراسة تطبيقية للقواعد التي أرسى دعائمها في رسالة الماجستير، فجعل عنوان رسالة الدكتوراه (نظام سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران).

حيث تعرف على محور هذه السور، وربط بين مقاطعها بعضها ببعض، وبين هذه المقاطع ومحور السورة ، ووقف وقفات دقيقة عند هذه الروابط والوشائج ولقد أجاد

وأفاد في دراسته هذه أيضاً. إلا أنني - ومن خلال قراءتي لرسالة الدكتوراه - لاحظت بعض الأمور أرى من المصلحة تنبيهه عليها:

١- استخدامه بعض الألفاظ الشديدة في حق بعض العلماء عند مناقشته آراءهم، كالقول بأن هذا الرأي محضُ تكليفٍ وتعسف وهذا خطأ... وأرجو أن لا يكون ذلك هو محاولة الحط من قدر العلماء الذين حصروا أنفسهم لخدمة كتاب الله[١]. فجزاهم الله خيراً على نواياهم سواء أصابوا أم أخطأوا، ولا أقول إن العجمة غلبت الشيخ محمد عناية الله فلم يستطع التعبير عن مراده تجاه آراء الآخرين فقد أوتي الباحث ملكة بيانية يغبطه عليها أبناء الضاد.

٢- حصره إعجاز القرآن على إدراك هذا النظام في السور. نحن مع الباحث أن إدراك سر النظام في القرآن وجه من وجوه إعجاز القرآن، ويضفي شعوراً باللذة والجمال والبهجة على متدبر القرآن الكريم ويميط اللثام عن وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن لا تحصى، وكل جيل من الأجيال سيميط اللثام عن وجوه جديدة بحيث تقام عليهم الحجة، أنه كلام الله المنزل على قلب رسوله وليس من وضع البشر. وليتحقق وعدُ الله في كل جيل ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

٣- جرأة الباحث الكبيرة في اقتحام معمعة الآراء، وتبني رأي يخالف فيه المفسرين، ولو كان هذا الرأي مستنداً إلى دليل لهان الأمر ولكن بعض هذه الآراء يعوزها الدليل النقلي أو البرهان العقلي وإنما هو مبني على دراسة السياق والسباق للآيات فهو مبني على مطلق الاجتهاد، وما كان كذلك لا ينبغي الحماسُ الشديد له وإلا لوقعنا فيما وقع فيه غيرنا، ولَصحَّ قولُ الآخرين عنا أنه مُطلقُ تكلفٍ وتعسف لا يسنده الدليل.

هذه الملحوظات القليلة أبديها للأخ الشيخ محمد عناية الله وأرجو أن يتسع لها صدره[٢]، وليس في ذلك تقليل للجهد الذي بذله في هذه الرسالة القيمة وإنني من

---

(١) شهد الله لم تخطر ببالي قط هذه الخاطرة القبيحة المرذولة. وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

(٢) لمن يتسع صدري إذا لم يتسع لكَ ولملحوظاتك القيمة الغالية يا أستاذي الحبيب؟!
إلا أني أريد أن أقول يا والدي الحنون.

المشغوفين بالبحث في علم المناسبات. ولي كتابات في ذلك.

والله شهيد على ما أقول إني وجدت فوائد عظيمة في هذه الرسالة استفدت شخصياً منها.

وهناك آراء سديدة ونظرات ثاقبة للباحث لم أجدها عند غيره ونصيحتي للأخ الشيخ محمد عناية الله أن يتمم هذا المشوار وأن يكمل المسيرة مع سور القرآن الكريم، وأن يخرج هذا الجهد طباعة لطلاب العلم، على أن يجعل رسالته في الماجستير مقدمة لدراسته هذه، بحيث يكون بين يدي الباحثين القواعد أو المنهج ثم التطبيق العملي للمنهج. فيكون بذلك قد أسدى خدمة عظيمة لكتاب الله وأرسى دعائم لبنة قوية في صرح الدراسات القرآنية المعاصرة.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا الجهد في ميزان حسنات الباحث وأن يجزيه عن العلم وأهله خير الجزاء. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

د. مصطفى مسلم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

في ٢/ ٤/ ١٤١٣هـ - ٢٨/ ٩/ ١٩٩٢م)

= أريد أن أقول على تأدب وتَهيب واستحياء.

أريد أن أقول، إذا سمحت، إن نظم الآيات وسياقها وسباقها أكبرُ دليل وأقوى برهان في نظري لترجيح رأي دون الآخر، فإن دليل النظم دليل من داخل القرآن وليس من شأن أي دليل آخر أن يكون معارضاً لهذا الدليل.

وأما قضية الاختلاف مع المفسرين فلنا أسوة فيما قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن شيخه الهروي: «شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا ولكن الحق أحبُّ إلينا منه».

وأما موضوع حصر الإعجاز في نظم الآيات فلا شك أن وجوه الإعجاز في القرآن، وإن كانت كثيرة ومتنوعة، إلا أنها كلها ترجع إلى نقطة نظم الآيات والقول بأن سر الإعجاز في القرآن هو نظمه الحكيم لا يتنافى أبداً مع سعته وشموله ورحابة أفقه واستمراريته إلى ما شاء الله - بل الأمر على العكس كما سيظهر ذلك بعد الاطلاع على الكتاب بإذن الله.

وعلى أية حال فوالدنا الجليل مأجور مشكور على ما أبدى من ملاحظات. والاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية إن شاء الله.

مقدمة

حمداً وشكراً لمن أنعم علينا، فخلقنا في أحسن تقويم. ثم مَنَّ علينا ففضَّلنا على سائر الأمم بكتابه الكريم وذِكْرِه الحكيم. وأودع في نظمه المتّين القويم ما يسر الناظرين ويقر عيون الباحثين.

والصلاةُ والسلام على مَنْ كان خُلقهُ القرآن، ورايته القرآن وآيته القرآن، ليبني به جيل القرآن، ويشيد به حضارة القرآن، فبنى به جيلاً، وشيد به حضارة لم يسبق لهما مثيل في الزمان.

فطوبى لمن قدَّره حق قدره، وعض عليه بنواجذه، وقام به آناء ليله ونهاره، فهو العروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهو المحجة البيضاء، التي ليلها كنهارها. ومَنْ زاغ عنها فقد خسر الدنيا والآخرة.

وبعد:

فهذه رسالة أسميتها: (البرهان في نظام القرآن).

وتناولت فيها ثلاث سور عِظام من سور القرآن، وتكلمتُ فيها عن روعة نظامها وحسن المناسبة في آياتها وفقراتها، وكشفت فيها القناع عن قدر طيب مما أودعه ربنا في نظم كلماتها ومبانيها من علوم غزيرة وحكم زاخرة.

ولقد سبق لي قبل ذلك بخمسة أعوام أن قدمت رسالة بعنوان (إمعان النظر في نظام الآي والسور).

وكانت تلك الرسالة بحثاً منهجياً أصولياً يتناول كل ما يتعلق بالموضوع من ناحية نظرية علمية.

ولقد قلت فيها: إن الاشتغال بنظام القرآن ليس من الأعمال الترفيهية، التي تقصد بها المتعة والتسلية وإزجاء الوقت أو قتل الوقت، كما يقولون. بل الاشتغال به هو الطريق الوحيد لفهم القرآن. ويأخذ الدارس نصيبه من علومه وكنوزه بقدر اهتمامه وعنايته بهذا العلم.

ولقد ذكرت هناك أهم تلك المزايا، التي تحصل لمن يُعنى بهذا العلم ويتبناه ويعيره من الاهتمام ما يستحقه، وكانت كما يلي:

١- النظام يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته، والذي يغفل عن نظام الآيات يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.

٢- النظام هو الدليل إلى صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات.

٣- النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سر من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحراً لا يُسبر غوره ولا ينفد كنزه.

٤- النظام يُجلي الأمور في أكمل صورها، ويكشف عن قدرها وأهميتها. وإذا لم ننتبه لنظام الآيات، فكثير من الأمور لا ندركها، ونظر غافلين عن قدرها وأهميتها.

٥- النظام يُشخِّص معاني الآيات المكررة، ويحدد مراميها، لكن الذي يغفل عنه يتعثر ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر.

٦- النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن. لكن الذي لا يهتم به يتعذر عليه أن يتذوق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.

٧- رعاية النظام تفتح على الدارس ما تَقرُّ به عينهُ ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع.

٨- رعاية النظام تُمكِّن من فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها.

٩- رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هي المحكُّ الناجح لنقد الروايات التفسيرية، فبها تتميز الضِّعافُ من الصحاح ويتميز السقيم من السليم.

١٠- رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن، فإن جملة كبيرة من الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نص عليه فريق من جلَّةِ العلماء.

١١- الوقوف على نظام الآيات يؤدي بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها من لا يهتم بنظامها، فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بقدر زيادة

المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان[1].

وسيجد القارىء الكريم من هذه الرسالة المتواضعة سجنجلاً مصقولاً يعكس له كل هذه المزايا ويحكيها بدقة ووضوح بإذن الله.

ومن الجدير بالذكر أن تصوري للنظام والمناسبة يختلف عن تصور الكثيرين ممن سبقوني بالكتابة في هذا المجال.

فليس المراد به عندي أن نربط الآية بالآية، أو الفقرة بالفقرة، أو السورة بالسورة بأيّ رابط كان، حتى ولو كان رابطاً واهناً، كما نلمسه في كتابات الناس.

وإنما الذي يهمّني منه أن نلتمس تلك الروابط التي تكسب الكلام رونقاً وبهاء وتزيده قوة ورصانة، وتفجر خلاله أنهاراً من المعاني والحكم.

فإن النظام ليس شيئاً مطلوباً بذاته، إذا لم يقدم إلينا شيئاً جديداً.

وإنّي إنما أنوّه بشأنه وأشيد بذكره لأنني أعتقد أنه هو سر إعجاز القرآن، كما أنه هو مفتاح فهمه. ومعظم كنوزه وأسراره مودعة في طي نظامه.

فهذا النظام الذي يحتل ذروته القرآن هو الذي أعجز فرسان الكلام وفحول البيان، وهم أدركوا ذلك إدراكاً جيداً وإن كنا لا ندركه نحن.

فكم من آية في القرآن قد جعلها حسن نظامها وروعة رباط معانيها في فم المتذوق أحلى من العسل المصفى، وفي نظرة أبهج من القمر الساطع في الليلة الظلماء، ولكننا لا نحس فيها من البلاغة أكثر مما نحسه في كلام أي شاعر من الشعراء أو أي أديب من الأدباء!

وأوضح مثال لذلك ما كتبه أبو حيان وهو يكشف القناع عما تتضمنه خواتيم سورة آل عمران من ضروب البلاغة حيث يقول:

وتضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع والاستعارة، عبَّر بأخذ الميثاق عن التزامهم أحكام ما أنزل عليهم من التوراة والإنجيل، وبالنبذِ وراء ظهورهم عن تركِ عملهم بمقتضى تلك الأحكام، وباشتراء ثمنٍ قليل عن ما تعوَّضوه من الحطام على كتم آيات الله، وبسماعِ المنادي أن كان القرآن عن ما تلقوه من الأمر والنهي والوعد

---

(١) إمعان النظر في نظام الآي والسور: ص١١٩-١٢٠.

والوعيد، وبالاستجابة عن قبول مسألتهم، وبانتفاء التضييع عن عدم مجازاته على يسير أعمالهم، وبالتقلب عن ضربهم في الأرض لطلب المكاسب، وبالمهاد عن المكان المستقر فيه، وبالنزل عما يعجل الله لهم في الجنة من الكرامة، وبالخشوع الذي هو تهدم المكان وتغير معالمه عن خضوعهم وتذللهم بين يديه، وبالسرعة التي هي حقيقة في المشي عن تعجيل كرامته. قيل: ويحتمل أن يكون الحساب استعير للجزاء كما استعير ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لأن الكفار لا يقام لهم حساب كما قال تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ...﴾ والطباق في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ...﴾ وفي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴿١٩٠﴾﴾ فالسماء جهة العلو والأرض جهة السفل والليل عبارة عن الظلمة والنهار عبارة عن النور وفي قياماً وقعوداً ومن ذكر أو أنثى. والتكرار في ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ وفي ﴿رَبَّنَا ﴿١٩١﴾﴾ في خمسة مواضع وفي ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴿١٩٣﴾﴾ إن كان المعنى واحداً. وفي ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وفي ﴿ثَوَابًا﴾ و﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ والاختصاص في ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ وفي ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وفي ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ وفي ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١٩٤﴾﴾ وفي ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾. والتجنيس المماثل في ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴿١٩٣﴾﴾ وفي ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴿١٩٥﴾﴾ والمغاير في ﴿مُنَادِيًا يُنَادِى ﴿١٩٣﴾﴾ والإشارة في ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴿١٩١﴾﴾ والحذف في مواضع»(١) [آل عمران].

فهذه النواحي التي نبه إليها أبو حيان من الطباق والتجنيس والحذف والتكرار وما شابه ذلك لانعدامها في كلام المتنبي ومقامات الحريري فأي ميزة إذاً لهذه الآيات؟

مع أن الواقع الذي لا مِريةَ فيه أن هناك بوناً شاسعاً بين هذه الآيات وبين تلك (المقامات) أو تلك (المتنبيات) بل لا نسبة بينهما. فأين الثرى من الثريا وأين السمك من السماك!!

والوضع الذي نراه عند أبي حيان ليس مقصوراً عليه، فكلُّ مَنْ غفلَ عن نظام الآيات أو تناوله تناولاً قاصراً عابراً لا يمكنه أن يستمتع بجمال القرآن ولا يمكنه أن يدرك ميزته التي تخصه من بين سائر أنواع الكلام، ولا يمكنه أن يستوعب ما يرمي إليه قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٣/١٤٩-١٥٠.

نعم، لا يمكنه أن يستوعب ذلك ويقتنع به اقتناعاً علمياً كاملاً حتى يلج الجمل في سم الخياط. ولذلك نرى الناس تَحيَّروا في إدراك وجه الإعجاز في هذا القرآن، ولم يأتوا فيه بشيء تطمئن إليه النفس.

ويرى كاتب هذه الكليمات المتواضعة أن سر إعجاز القرآن هو هذا النظام.

فهذا النظام هو الذي جعل من تلك الآيات التي لا نرى فيها من ضروب البلاغة إلا التجنيس والطباق والحذف والتكرار وما شابه ذلك، عالماً عجيباً من الروعة والجمال وبحراً زاخراً من المعاني والحكم، بحيث تهتز لها النفس اهتزازاً وتمتلىء بها بهجة وسروراً، ولا تدري كيف تعبر عما تجد فيها من لطائف البلاغة وروائع البيان.

وسيرى القارىء شيئاً من ذلك حين ندرس تلك الآيات في موضعها بإذن الله.

وليس هذا الشيء مقصوراً على تلك الآيات، فالقرآن كله - نزل بهذا الشكل، ولا تفارقه هذه الميزة في أي موضع من مواضعه، وإن كان هناك تفاوت في مقاديرها حسبما يقتضيه الأمر.

ولقد سجلت هذه الرسالة ولم يكن القصد بها إلا أن تكشف هذه الجوانب التي ما زالت في خفاء، وما زالت تنتظر من يُبيِّنها ويجلِّيها للناظرين.

وما كان لمثل هذا العمل العظيم أن ينجز على يد هذا العبد المتواضع المسكين، الذي لا يضم بين بُرديه إلا الضعف والعجز وقلة العلم وقلة التقوى والعياذ بالله!

ولكن كم أحمده - سبحانه وتعالى - وكم أثني عليه.

ومن أين لي ذلك اللسان الذي يحصي الثناء عليه!!

فقد كان لي في هذه الفترة من عونه - تعالى - ومن نصره وفتحه حظ وافر.

فكم اعترضتْ لي عقباتٌ في الطريق ولكن سرعان ما ذُللت!

وكم واجهتني معضلات ومشاكل في هذا العمل ولكنها ما لبثت أن حُلَّتْ وانكشفت!

وكم حدث أن يئست من إنجاز هذا العمل، وكاد اليأس يقعد بي عن الاستمرار فيه، ثم شعرت كأن يداً حانية مشفقة تمسح عن قلبي اليأس وتفتح أمامي نوافذ الأمل!

وهكذا في ظل رعاية الله وعنايته وفضله وتوفيقه تم هذا العمل واستوى على سوقه!

فلك الحمد يا رب ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد!!

وأما خطة هذا البحث فهي عبارة عن تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

فأما التمهيد فهو عبارة عن دراسة موجزة لتفسير الإمام البقاعي (رحمه الله) وهو: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور).

ولقد بينت في هذه الدراسة منهج البقاعي في تناول علم المناسبات، وبينت الفرق بين منهجه وبين منهجي الذي حاولت أن أطبقه في هذه الرسالة.

فالفارق الأساسي بين منهج البقاعي وبين منهج هذه الرسالة هو أن منهجه لا يعتمد على أسس علمية واضحة ثابتة، بل يعتمد في أكثر مواقفه على محض الرأي، ولذلك يغلب على أسلوبه طابع التكلف والتعسف بشكل واضح.

بينما هذا المنهج الذي سرت عليه في هذه الرسالة يعتمد من أول أمره على أسس علمية واضحة ثابتة، ولا مكان فيه للقول بمحض الرأي.

ولقد قصرت هذه الدراسة على السور الثلاث الأولى، التي هي موضوع بحثي، لكيلا يطول بنا الحديث، ولكي يتمكن القارىء من المقارنة بين المنهجين إذا أراد.

ويتبع هذا التمهيد الباب الأول، وهو نظام سورة الفاتحة.

وهذا الباب يتضمن ستة فصول:
الفصل الأول: على هامش السورة.
الفصل الثاني: عمود السورة.
الفصل الثالث: وجوه الارتباط بين الآيات.
الفصل الرابع: ارتباط السورة بالتي بعدها.
الفصل الخامس: موقع السورة من جملة القرآن.
الفصل السادس: المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه.

ثم يأتي الباب الثاني، وهو: نظام سورة البقرة.
والباب الثالث هو: نظام سورة آل عمران.

ولم أفعل في هذين البابين مثلما فعلت في الباب الأول من تقسيمه إلى عدة فصول، وذلك للفرق الذي يوجد بين سورة الفاتحة وبين هاتين السورتين من ناحية الحجم.

بل تناولتُ كل مجموعة من الآيات واحدة واحدة وبينتُ مناسبتها فيما بينها ولما قبلها، ثم إن كانت هناك حِكَمٌ تُستفاد من نظم تلك الآيات من غير تكلف ولا تعسف، أشرت إليها.

وأيضاً إن كانت هناك آية أو آيات قد التبس على الناس أمرها ولم يكن لي بد من الوقوف عندها، وقفت عندها، وأدليتُ بدلوي في بيان تأويلها حتى يستقيم لنا فهم نظمها.

وبعدما انتهيت من بيان المناسبة في آيات السورة وفي أجزائها في كل من البابين عدت إلى السورة مرة أخرى، لأبين عمودها، الذي تدور السورة حوله بجميع أجزائها.

وفي نهاية الباب الثالث بينت وجوه المناسبة بين البقرة وآل عمران. وأما مناسبة البقرة لسورة الفاتحة، فقد انتهيت من بيانها في الباب الأول في أثناء حديثي عن سورة الفاتحة.

ثم تأتي الخاتمة.

والخاتمة عبارة عن تمني العودة الصادقة الواعية إلى تدبر كتاب الله والتأمل في نظمه الحكيم الذي يزخر بعالم من المعاني والحكم.

وتنبيه إلى أن هذا هو سر سعادة هذه الأمة، وسر تقدمها وازدهارها، فإن كانت الأمة حريصة على سعادتها وتقدمها وازدهارها فلا سبيل لها إلا أن تعود إلى كتاب ربها كما عاد إليه سلفها، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

* * *

وبعد: فهذه لمحة سريعة إلى منهج هذه الرسالة وإلى موضوعاتها.

ولا يسعني هنا إلا أن أتقدم بالشكر والعرفان بالجميل إلى جامعتنا العزيزة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - حرسها الله ورعاها - التي أتاحت لي هذه الفرصة السعيدة، فقد كانت هذه لحظات إيمانية مباركة عشتها في ظلال هذا القرآن العظيم.

ثم لم أكن لأنعم بتلك اللحظات الطيبات المباركات لولا أن جلة أساتذتي وخُلَّص إخواني ساعدوني في التغلب على المشكلات التي كانت جاثمة في طريقي ولم تكن تسمح لي بمواصلة دراستي.

فجزاهم الله جميعالله عني وعن هذه الرسالة كل خير وبارك في حياتهم ونشاطهم، وأسقاهم من فضله ماء غدقاً، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً.

هذا وأسأل الله ربي أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. إنه تعالى جواد كريم ملك بر رؤوف رحيم.

محمد عنايت الله أسد سبحاني
جامعة الفلاح - بليريا كنج
أعظم كَره - الهند

التمهيد

دراسة موجزة لتفسير البقاعي والفرق بين منهجه ومنهج هذه الرسالة

لقد سألني كثير من الناس حين وقع اختياري على هذا الموضوع، موضوع نظام الآيات والسور: لماذا اخترت هذا الموضوع؟ فقد كتب فيه الناس كثيراً، وأشبعوا فيه الكلام، وعلى رأسهم الإمام البقاعي رحمه الله الذي أفرد هذا الموضوع بتفسير كامل مبسط، أسماه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) فقد تناول فيه كل ما يتعلق بالموضوع، ولم يترك للمتأخر إلا أن يغترف من هذا البحر الزاخر، ويستكثر مما فيه من الثمين الزاهر.

فما الذي حملك على أن سجلت هذا الموضوع؟

وهل عندك جديد تريد أن تضيفه إليه؟

لقد وجه إليّ هذا السؤال كثيراً؟

والذين وجهوه لم يكونوا من عامة الناس، بل كانوا ممن يُعتزُّ بهم من أولي العلم وأصحاب الفضل.

وهذا الوضع يؤكد لنا أهمية هذا السؤال، ويفرض علينا أن نأخذه بعين الاعتبار.

ثم يزداد هذا السؤال أهمية إلى أهميته حين نرى الإمام البقاعي نفسه قد نوه بتفسيره تنويهاً وعظَّم من شأنه تعظيماً حيث قال:

«وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها. ولقد شفاني بعض فضلاء العجم وقد سألته عن شيء من ذلك فرآه مشكلاً ثم قررت إليه وجه مناسبته وسألته هل وضح له؟ فقال: يا سيدي كلامك هذا يتسابق إلى الذهن. فلا تظنن أيها الناظر لكتابي هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفع لستورها، فربَّ آية أقمتُ في تأملها شهوراً، منها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴿١٢١﴾﴾ في آل عمران ومنها: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ... ﴿١٢٧﴾﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴿١٧٦﴾﴾.

ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئاً من الآيات قبل أن ينظر ما قلته ثم لينظره يظهر له مقدار ما تعبتُ وما حصل لي من قبل الله من العون، سواء كان ظهر له وجه ذلك عند تأمله أو لا. وكذا إذا رأى ما ذكر غيري من مناسبات بعض الآيات[١].

ويقول رحمه الله:

«وقد ذكر الزركشي نحو أربع ورقات من مناسبات بعض الآيات، وإذا تأملتها عظم عندك ما في هذا البحر الزاخر من نفائس الجواهر وبدائع السرائر»[٢].

إذاً فأصبح من الضروري جداً - بعد هذا السؤال الذي وجه إليّ وبعد هذه الكلمات التي عرّف بها البقاعي تفسيره - أن أبدأ عملي هذا بتقديم دراسة موجزة لهذا التفسير الضخم الكبير وأن أبين الفرق بين منهج صاحبه وبين منهجي الذي أريد أن أتبعه، وأن أبين الفرق بين النتائج التي تترتب على المنهجين، حتى يكون لي مبرر لاختيار هذا الموضوع مع وجود هذا التفسير الضخم العظيم.

وأما الناس الآخرون الذين عنوا بهذا الموضوع، وبذلوا جهدهم المشكور في هذا المجال، فلا يسمح لي المقام بأن أتناول عملهم بالدراسة والتقويم في هذا التقديم المختصر.

إلا أنني سأفسح لهم المكان في غضون هذه الرسالة وأضعافها، وسيكون لي معهم حوار ونقاش كلما اقتضى الأمر وكلما دعت إليه المناسبة.

منهج البقاعي في التماس مناسبات الآيات:

إذاً فلنبدأ حديثنا الآن عن عمل البقاعي ومنهجه في تفسيره.

يقول البقاعي وهو يحدث عن منهجه في التماس مناسبات الآيات:

قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل محمد ابن العلامة القدوة أبي عبدالله محمد ابن العلامة القدوة أبي القاسم محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي علامة الزمان سقى الله عهده سحائب الرضوان وأسكنه أعلى الجنان: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج

---

(١) نظم الدرر: ١/١٤-١٥.

(٢) المصدر السابق: ١/١٦.

إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة، والله الهادي - انتهى.

وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مُترجِمٌ عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تُظهِرُ المناسبةُ بينه وبين مُسَمَّاهُ عنوانَهُ الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه. وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه الصلاة والسلام عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام. ومقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها، فأذكر المقصود من كل سورة، وأطبّق بينه وبين اسمها، وأفسر كل بسملة بما يوافق مقصود السورة ولا أخرج عن معاني كلماتها»(١).

هذا ما حرره البقاعي وهو يبين لنا منهجه في التماس وجوه المناسبة بين الآيات. والمتأمل في كلامه يوقفنا أمام نقطتين رئيسيتين، وهما كما يلي:

١- اسم كل سورة مُترجِم عن مقصودها.

٢- مقصود كل سورة هاد إلى تناسبها، فليكن أول خطوتنا في هذا الطريق أن نحدد مقصود السورة، وأن نحدد المقدمات التي يحتاج إليها ذلك المقصود، وبعد ذلك نلتمس مناسبات الآيات.

هاتان نقطتان أساسيتان في منهج الإمام البقاعي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة عندهما.

أما النقطة الأولى فيحوم حولها سؤالان:

١- هل هذه الأسماء التي ترويها لنا الآثار لكل سورة من سور القرآن، كلها توقيفية حتى نعتبرها إقليداً لمقاصد السورة، أم أنها اجتهادية وضعها الناس حسب ما ظهر لهم من المناسبات؟

٢- لو افترضنا أنها كلها توقيفية - على خلاف القول الراجح في هذا الموضوع -

---

(١) نظم الدرر: ١/١٧-١٩.

فهل هناك شيء ثابت في كون هذه الأسماء عناوين لمقاصد السور التي سميت بها؟

قد يقال: هذه ظاهرة يؤيدها الواقع، وإن لم تَرِدْ بها الآثار. وإذا كان الشيء يؤيده الواقع فلا يضره، إن لم ترد به الآثار.

ويبدو أن البقاعي كان جل اعتماده على ما ظهر له من دليل الواقع، كما نعلم مما سبق من كلامه، حيث قال:

«وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها».

إذاً فلتكن لنا وقفة عند ما ظهر له من دليل الواقع حتى نقول ما نقول عنه عن بَيّنة وعلى بصيرة، ولا نكون متسرّعين في الحكم له أو الحكم عليه.

مقصود سورة الفاتحة كما يراه البقاعي:

يقول - رحمه الله - وهو يذكر مقصود سورة الفاتحة ودلالة أسمائها عليه:

فالفاتحة اسمها «أم الكتاب» والأساس والمثاني والكنز والشافية والكافية والوافية والواقية والرُّقية والحمد والشكر والدعاء والصلاة. فمدار هذه الأسماء كما ترى على أمر خفي كاف لكل مراد وهو المراقبة التي سأقول إنها مقصودها، فكل شيء لا يفتتح بها لا اعتدادَ به، وهي أم كل خير، وأساس كل معروف، ولا يعتد بها إلا إذا ثُنِّيت، فكانت دائمة التكرار، وهي كنز لكل شيء، شافية لكل داء، كافية لكل هم، وافية بكل مرام، واقية من كل سوء، رقية لكل مُلِم، وهي إثباتٌ للحمد الذي هو الإحاطة بصفات الكمال، وللشكر الذي هو تعظيم المنعم، وهي عين الدعاء فإنه التوجه إلى المدعو، وأعظم مجامعها الصلاة.

إذا تقرر ذلك فالغرض الذي سيقت له الفاتحة، وهو إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة والاستعانة، بالسؤال في المَنِّ بإلزام صراط الفائزين والإنقاذ من طريق الهالكين مختصاً بذلك كله. ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم، لإفراده بالعبادة فهو مقصود الفاتحة بالذات وغيره وسائل إليه. فإنه لا بد في ذلك من إثبات إحاطته تعالى بكل شيء، ولن يثبت حتى يعلم أنه المختص بأنه الخالق الملك المالك، لأن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب نصب الشرائع، والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على

الحق والمقصود من جمعهم تعريفهم الملك وبما يرضيه، وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول ولن يكون ذلك إلا بما ذكر علماً وعملاً»[1].

هذا ما حرره البقاعي في بيان مقصود هذه السورة، ودلالة أسمائها عليه.

ومما نلاحظه في هذا المقال أنه يذكر لنا مقصود هذه السورة العظيمة، ولكنه لا يبين لنا أن هذا الذي توصل إليه من مقصود هذه السورة، كيف يُستنبط منها، وما هي الملامح التي ترشدنا إلى هذا المقصود.

وكذلك لا نجد في كلامه شيئاً مما يبين لنا أن هذه الأسماء الكثيرة المتعددة التي وردت بها الآثار كيف تترجم جميعها عن هذا المقصود الذي نص عليه، مع أن هذا أمر يحتاج إلى بيان وتفصيل، ولا يقبل منه قبل أن يظهر له دليل.

مقصود سورة البقرة كما يراه البقاعي:

ثم يقول - رحمه الله - وهو يذكر مقصود سورة البقرة ودلالة أسمائها عليه:

«مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث، الذي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب، فلذلك سميت بها السورة، وكانت بذلك أحق من قصة إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)، لأنها في نوع البشر ومما تقدمها في قصة بني إسرائيل من الإحياء بعد الإماتة بالصعق وكذلك ما شاكلها لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر بمباشرة من كان من آحاد الناس، فهي أدل على القدرة ولا سيما وقد أُتبعت بوصف القلوب والحجارة بما عَمَّ المهتدين بالكتاب والضالين، فوصفها بالقسوة الموجبة للشقوة، ووصفت الحجارة بالخشية الناشئة في الجملة عن التقوى المانحة للمدد المتعدي نفعُه إلى عباد الله، وفيها إشارة إلى أن هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولي العزم من الرسل، يرشدنا في كل أمر إلى صواب المخرج منه، فمن أعرض خاب، ومن تردد كاد، ومن أجاب اتقى وأجاد.

وسميت بالزهراء لإنارتها طريق الهداية والكفاية في الدنيا والآخرة، ولإيجابها إسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالغيب ولم يكن في شك مريب، فيحال بينه وبين ما يشتهي.

---

(١) نظم الدرر: ١/١٩-٢١.

وبالسنام لأنه ليس في الإيمان بالغيب بعد التوحيد الذي هو الأساس الذي ينبني عليه كل خير، والمنتهى الذي هو غاية السير، والعالي على كل غير بأعلى ولا أجمع من الإيمان بالآخرة، ولأن السنام أعلى ما في بطن المطيّة الحاملة. والكتاب الذي هي سورته هو أعلى ما في الحامل للأمر، وهو الشرع الذي أتاهم به رسولهم ﷺ(١).

هذا ما حرره البقاعي في بيان مقصود سورة البقرة ودلالة أسمائها عليه.

والذي يستفاد من كلامه هو أن هذه السورة إنما سميت بهذا الاسم، لأن قصة البقرة، التي وردت في هذه السورة تدل على البعث بعد الموت، وهي بذلك تدل على مقصود هذه السورة وتترجم عنه، حيث أن مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى، وأعظم ما يهدي إليه هذا الكتاب هو الإيمان بالغيب. والإيمان بالغيب يتصل - في معظمه - بالإيمان بالآخرة، والإيمان بالآخرة مبني على الإيمان بالبعث، وهو الذي تُعرب عنه قصة البقرة.

غير أننا لو أنعمنا النظر لوجدنا: أن الاستدلال بقصة البقرة على مقصود سورة البقرة تكلف محض. فالذي يَثبتُ بقصة البقرة - على حد قوله - هو البعث بعد الموت، والقصة التي تعرب عن البعث بعد الموت كيف يمكن أن تعتبر مترجِمةً عن مقصود هذه السورة، إذا كان مقصودها: إقامة الدليل على أن الكتاب هدى.

ولذلك فما أحسبني مغالياً حين أقرر أن كلامه يغلبه لون التكلف والتعسف بحيث يكاد يُلمس بالراح.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قصة البقرة لا صلة لها بقضية البعث بعد الموت، كما أنه لا صلة لها بقصة إحياء النفس المقتولة فهما قصتان مستقلتان منفصلتان، والذين جعلوهما قصة واحدة ذهلوا عن أمور كثيرة لا تسمح بذلك.

وسأبين ذلك وأُفصّله حين أدرس تلك الآيات في موضعها.

وستكون لي لمحات سريعة إلى هذا الموضوع في هذا التقديم أيضاً بإذن الله.

وأما الاسمان الآخران لهذه السورة - وهما الزهراء والسنام - فلم يذكر عنهما البقاعي إلا ما يعتبر تعليلاً للتسمية بهما، وليس في كلامه ما يثبت أنهما يترجمان عن مقصود السورة.

---

(١) نظم الدرر: ١/ ٥٥-٥٨.

مقصود سورة آل عمران كما يراه البقاعي:

ثم يقول - رحمه الله - وهو يذكر مقصود سورة آل عمران ودلالة أسمائها عليه:

«المقاصد التي سيقت لها هذه السورة إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، والإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، وأن ما أُعِدَّ للمتقين من الجنة والرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه والمسارعة إليه.

وفي وصف المتقين بالإيمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار ما يتعطف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة.

هذا ما كان ظهر لي أولاً، وأحسن منه أن نخص القصد الأول، وهو التوحيد، بالقصد فيها، فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه، وذلك لأن الوصف بالقيومية يقتضي القيام بالاستقامة، فالقيام يكون على كل نفس، والاستقامةُ: العدلُ كما قال: (قائماً بالقسط) أي: بعقاب العاصي وثواب الطائع بما يقتضي للموفق ترك العصيان ولزوم الطاعة».

ويزيد فيقول:

«ومما يدل على أن القصد بها هو التوحيد تسميتها بآل عمران، فإنه لم يعرب عنه في هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه، فهو التاج الذي هو خاصة الملك المحسوسة، كما أن التوحيد خاصته المعقولة، والتوحيد موجب لزهرة المتحلي به، فلذلك سميت الزهراء»[1].

هذا ما حرره البقاعي في بيان مقصود هذه السورة ودلالة اسمها عليه.

فأما مقصود هذه السورة فلسنا الآن بصدد الكلام عليه، فلنفترض أن القصد بها هو التوحيد كما يراه البقاعي - ثم لننظر هل اسم هذه السورة يترجم عن هذا المقصود؟

إن التأمل في قصص آل عمران وفي جوّه وسياقه لا يشجعنا على القول بما قال به البقاعي، فإن الجو الذي يسوده ليس جو الدلالة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد،

---

(١) نظم الدرر: ٤/ ١٩٥-١٩٧.

وإنما هو جو الاصطفاء والتكريم، ثم جو الإعزاز والتأييد لآل عمران، على رغم أعدائهم الذين كانوا يمكرون بهم ويبغون لهم السوء.

ولقد نبه سبحانه وتعالى إلى هذه الظاهرة في مطلع هذه القصص حيث قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران].

نعم، إن القدرة التامة هي التي يتم بها الاصطفاء والتكريم والإعزاز والتأييد، كما تتم بها الأعمال كلها، إلا أن السياق لا يبرزها هنا، بل يبرز ما أشرنا إليه.

فالقارىء لا ينتهي من قراءة هذا القصص إلا وهو مغتبط بما خص الله به آل عمران من السيادة والوجاهة والاصطفاء والتكريم. وسنبين ذلك ونفصله حينما ندرس تلك الآيات في موضعها بإذن الله.

إذاً فالقول بأن تسمية هذه السورة بآل عمران تترجم عما قصد بها، وهو التوحيد، تكلف محض لا ينهض به دليل.

وأما تسمية هذه السورة بالزهراء، فالوضع هنا لا يختلف عما مر معنا في سورة البقرة، حيث أنه لم يذكر عنها إلا ما يُعتبر تعليلاً للتسمية بها. وليس في كلامه شيء مما يثبت أن هذا الاسم يترجم عن مقصود هذه السورة.

وبالجملة فهذا المبدأ الذي سار عليه البقاعي في تفسيره لا يساعدنا في تحديد مقاصد السور؛ بل يبعدنا عنها ويتركنا في حيرة من الأمر.

ولقد جربنا هذا المبدأ في ثلاث سور عظام، فوجدناه لا يسعفنا بالمقصود، والوضع نفس الوضع في سائر السور إلا أن المقام لا يسمح لنا بأن نتنفس في سرد الأمثلة بعد ما وضح الأمر وتبلور.

فلننتقل الآن إلى النقطة الأخرى من منهجه - رحمه الله - وهي أن مقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها، فليكن أول خطوتنا في هذا الطريق أن نحدد مقصود السورة، ونحدد المقدمات التي يحتاج إليها ذلك المقصود، وبعد ذلك نلتمس مناسبات الآيات.

المناسبة بين السور الثلاث كما يراها البقاعي:

وانطلاقاً من هذا المبدأ يبدأ البقاعي، فيحدد مقاصد السور، ثم يلتمس في ضوئها المناسبة بين الآيات والآيات، والسور والسور.

فلقد مر معنا آنفاً ما قاله رحمه الله في مقاصد السور الثلاث، حيث أفاد عن سورة الفاتحة أن مقصودها: مراقبة العباد لربهم.

وأفاد عن سورة البقرة أن مقصودها: إقامة الدليل على أن الكتاب هدى.

وأفاد عن سورة آل عمران أن مقصودها: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى.

ثم يقبل إلى تلك السور الثلاث ليبين المناسبة بينها في ضوء مقاصدها، التي أشار إليها، فيقول: «وهذا الوجه أوفق للترتيب، لأن الفاتحة لما كانت جامعة للدين إجمالاً، جاء ما به التفصيل محاذياً لذلك، فابتدىء بسورة الكتاب المحيط بأمر الدين، ثم بسورة التوحيد الذي هو سرّ حرف الحمد، أول حروف الفاتحة، لأن التوحيد هو الأمر الذي لا يقوم بناء إلا عليه، ولما صح الطريق وثبت الأساس، جاءت التي بعدها داعية إلى الاجتماع على ذلك.

وأيضاً فلما ثبت بالبقرة أمرُ الكتاب في أنه هدى، وقامت به دعائم الإسلام الخمس، جاءت هذه لإثبات الدعوة الجامعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴿٢١﴾ ﴾ فأثبت الوحدانية له بإبطال إلهيةِ غيره بإثبات أن عيسى (عليه الصلاة والسلام) الذي كان يحيي الموتى، عبده، فغيره بطريق الأولى.

فلما ثبت أن الكلَّ عبيده دعت سورة النساء إلى إقبالهم إليه واجتماعهم عليه».

ويزيد فيقول:

«ومناسبة هذا الأول بالابتدائية لآخرِ ما قبلها أنه لما كان آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي وما بعدها إنما هو بيان، لأنها أوضحت أمر الدين بحيث لم يبق وراءها مرمى لمتعنت، أو تعجب من حالِ مَنْ جادل في الإلهية، أو استبعد شيئاً من القدرة، ولم ينظر فيما تضمنته هذه الآية من الأدلة مع وضوحه، أو إشارة إلى الاستدلال على البعث بأمر السنابل في قالب الإرشاد إلى ما ينفع في اليوم الذي نفى فيه نفع البيع والخلة والشفاعة من النفقات، وبيان بعض ما يتعلق بذلك، وتقرير أمر ملكه لما منه الإنفاق من السماوات والأرض والإخبار بإيمان الرسول وأتباعه بذلك، وبأنهم لا يفرقون بين أحد من الرسل المشار إليهم في السورة، وبصدقهم في التضرع برفع الأثقال التي كانت على مَنْ قبلهم من بني إسرائيل وغيرهم، وبالنصرة على عامة الكافرين / لما كان ذلك على هذا الوجه ناسب هذا الاختتام غاية المناسبة ابتداء هذه السورة بالذي وقع الإيمان به سبحانه وتعالى ووجهت الرغبات آخر تلك إليه.

وأحسن منه أنه لما نزل إلينا كتابه فجمع مقاصده في الفاتحة على وجه أرشد فيه إلى سؤال الهداية، ثم شرع في تفصيل ما جمعه في الفاتحة، فأرشد في أول البقرة إلى أن الهداية في هذا الكتاب، وبين ذلك بحقية المعنى والنظم كما تقدم - إلى أن ختم البقرة بالإخبار عن خُلَّصِ عباده بالإيمان بالمنزل بالسمع والطاعة وأفهم ذلك مع التوجه بالدعاء إلى المنزل له أن له سبحانه وتعالى كل شيء وبيده النصر، علم أنه واحد لا شريك له حي لا يموت قيوم لا يغفل وأن ما أنزل هو الحق. فصرح أولُ هذه بما أفهمه آخرُ تلك، كما يصرّح بالنتيجة بعد المقدمات المنتجة لها، قال: (الله) أي الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه لأن له الإحاطة بجميع أوصاف الكمال والنزاهة الكاملة من كل شائبة نقص.

وقال الحرالي مشيراً إلى القول الصحيح في ترتيب السور من أنه باجتهاد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إقراراً لله سبحانه وتعالى لهذا الانتظام والترتيب السوري في مقرر هذا الكتاب: هو ما رضيه الله سبحانه وتعالى فأقره، فلما كانت سورة الفاتحة جامعة لكلية أمر الله سبحانه وتعالى فيما يرجع إليه، وفيما يرجع إلى عبده، وفيما بينه وبين عبده، فكانت أم القرآن وأم الكتاب، جعل مثنى تفصيل ما يرجع منها إلى الكتاب المنبىء عن موقعه في الفاتحة مضمناً سورة البقرة إلى ما أعلن به، لألأ نور آية الكرسي فيها، وكان منزل هذه السورة من مثنى تفصيل ما يرجع إلى خاص علم الله سبحانه وتعالى في الفاتحة، فكان منزلة سورة آل عمران منزلة تاج الراكب وكان منزلة سورة البقرة منزلة سنام المطية. قال ﷺ: «لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة، لكل شيء تاج وتاج القرآن سورة آل عمران».

وإنما بدىء هذا الترتيب لسورة الكتاب لأن علم الكتاب أقرب إلى المخاطبين من تلقي علم أمر الله، فكان في تعلم سورة البقرة والعمل بها تهيؤ لتلقي ما تضمنته سورة آل عمران ليقع التدرج والتدرب بتلقي الكتاب حفظاً وبتلقيه على اللقن منزل الكتاب بما أبداه علنه في هذه السورة. وبذلك يتضح أن إحاطة ﴿الٓمٓ ۝١﴾ المنزلة في أول سورة البقرة إحاطة كتابية بما هو قيامه وتمامه، ووصلة ما بين قيامه وتمامه، وأن إحاطة ﴿الٓمٓ﴾ المنزلة في أول هذه السورة إحاطة إلهية حيايية قيومية مما بين غيبة عظمة اسمه (الله) إلى تمام قيوميته البادية في تبارك ما أنبأ عنه اسمه ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وما أوصله لطفه من مضمون توحيده المنبىء عنه كلمة الإخلاص في قوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلذلك كان هذا المجموع في منزله قرآناً حرفياً وقرآناً كلمياً أسمائياً وقرآناً كلامياً تفصيلياً مما هو اسمه الأعظم كما تقدم من قوله ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين

الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة] ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران].

وكما وقعت الإحاطة في سورة البقرة لما وقع به الإفصاحُ في سورة آل عمران كذلك وقع في آل عمران من نحو ما وقع تفصيله في سورة البقرة ليصير منزلاً واحداً بما أفصح مضمون كل سورة بالإحاطة الأخرى فلذلك هما غمامتان وغيايتان على قارئهما يوم القيامة - كما تقدم - لا تفترقان. فأعظم ﴿الم﴾ هو مضمون ﴿الم﴾ الذي افتتحت به هذه السورة، ويليه في الرتبة ما افتتحت به سورة البقرة، ويليه في الرتبة ما افتتحت به سور الآيات نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿الم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [لقمان] فللكتاب الحكيم إحاطة قواماً وتماماً ووصلة، ولمطلق الكتاب إحاطة كذلك، وإحاطة الإحاطات وأعظم العظمة إحاطة افتتاح هذه السورة»[1].

ثم يقول وهو يبين المناسبة بين بداية سورة آل عمران وبين ما ورد في أثنائها، وينبه إلى سر الاختلاف الذي نلاحظه في صدر السورتين: البقرة وآل عمران.

«ومناسبة ابتدائها بالتوحيد لما في أثنائها أنه لما كان خلق عيسى (عليه الصلاة والسلام) من أنثى فقط، وهي أدنى أسباب النساء كان وجوده إشارة إلى أن الزيادة قد انتهت وأن الخلق أخذ في النقصان، وهذا العالم أشرف على الزوال، فلم يأت بعده من قومه نبي؛ بل كان خاتم أنبياء بني إسرائيل وكان هذا النبي الذي أتى بعده من غير قومه خاتم الأنبياء مطلقاً، وكان مبعوثاً مع نفس الساعة وكان نزوله هو في آخر الزمان عَلَماً على الساعة. وصُدِّرت هذه السورةُ التي نزل كثير منها بسببه بالوحدانية إشارة إلى أن الوارث قد دنا زمان إرثه، وأن يكون - ولا شيء معه - كما كان، وأن الحين الذي يتمحض فيه تفرد الواحد قد حان، والآن الذي يقول فيه سبحانه: له الملك اليوم، قد آن. ويوضح ذلك أنه لما كان آدم (عليه الصلاة والسلام) مخلوقاً من التراب الذي هو أمتنُ أسباب النماء، وهو غالب على كل ما جاوره، وكانت الأنثى مخلوقة من آدم الذي هو الذكر وهو أقوى سببي التناسل كان ذلك إشارة إلى كثرة الخلائق ونمائهم وازديادهم، فصدر أول سورةٍ ذكر فيها خلقه وابتداء أمره بالكتاب إشارة إلى أن ما يشير إليه ذكره من تكثر الخلائق وانتشار الأمم والطوائف داع إلى إنزال الشرائع وإرسال الرسل بالأحكام والدلائل فالمعنى أن آدم (عليه الصلاة والسلام) لما كان منه الابتداء

---

(١) نظم الدرر: ٤/١٩٩-٢٠٢.

وعيسى عليه الصلاة والسلام لما كان دليلاً على الانتهاء اقتضت الحكمة أن يكون كل منهما مما كان منه، وأن تُصدَّرَ سورة كلّ بما صُدّرت به. والله سبحانه وتعالى الموفق»[1].

تقويم رأي البقاعي:

هذا ما كتبه البقاعي وهو يريد أن يكشف القناع عما يوجد من المناسبة بين هذه السور الثلاث.

ومما لا يخفى أن هذه المناسبات، التي ذكرها بين هذه السور الثلاث، كلها ترجع إلى ما حدد لها من المقاصد. وقد عرفناها قبل قليل.

والمتأمل في كلامه هذا، لا يلبث أن يثور في ذهنه سؤال: إن هذه المقاصد التي يركز عليها البقاعي، ويعتبرها مفتاحاً لمعرفة المناسبات بين الآيات والسور، من أين عرفها ومن أين استخرجها؟

وهل هناك طرق معلومة للتوصل إلى تلك المقاصد، ويستطيع كل باحث أن يتوصل إليها باتباع تلك الطرق، أم أنها من قبيل الأسرار، التي لا يعرفها إلا من تفتح عليه؟

والذي يظهر من صنيعه هو الوجه الثاني، حيث إنه لم يذكر في تفسيره إلا تلك المقاصد، ولم يبين لنا شيئاً مما يعتبر دليلاً إليها، فكأنما ألقيت هذه المقاصد في روعه إلقاء حتى تكون له أداةً ومفتاحاً لما انغلق على الناس من علم المناسبات، فهو يعتمد عليها اعتماداً كلياً، ويستعين بها في التماس المناسبات.

وبعبارة أخرى، فهو لا يعتمد في عمله هذا على أسس علميةٍ ثابتة واضحة، بل لا نحيفُ عليه إذا قلنا: إنه في عمله هذا أشبه برجلٍ يَبني على جُرفٍ هار، لا يدري ما ليل من نهار.

وتلك النقول التي نقلناها من تفسيره أصدق شاهد وأثبت حجة عليه.

فتلك النقول منها ما يشتمل على شيء يتعارض مع صريح النص وصريح العقل، كما نشاهد ذلك في العبارة الثالثة الأخيرة، فالذي يطلع على هذه العبارة يحتار ويسائل نفسه:

---

(١) نظم الدرر: ٤/ ٢١١-٢١٣.

هل كان ما في هذه السورة هو أن عيسى (عليه السلام) خلق من أنثى فقط، حتى يعتبر ذلك دليلاً على مناسبة أول السورة لما في أثنائها؟ وحتى يحمل ذلك محملاً يتيه منه اللبّ ويَشْدَهُ منه الجنان!

لا شك أن هذه الإشارة التي استنبطها البقاعي في غاية البعد، فسيدنا عيسى كان آية الحياة وآية النمو، كما يدل عليه كلامه في المهد، وكما يدل عليه لقبه الخاص به، وهو كونه روحاً من الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴿١٧١﴾﴾ [النساء]. وكما تدل عليه الآيات التي خُصَّ بها من بين سائر الأنبياء والرسل من خلق الطير وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

ولعل البشرية التي خُلقت بعده أكثر بكثير مما خلقت قبله.

ثم إن كان خلق آدم إشارة إلى كثرة الخلائق ونمائهم وازديادهم - على حدّ قوله - فذكره لا يشير إلى ذلك.

وكذلك إن كان خلق عيسى إشارة إلى انتهاء الزيادة - على حد قوله - فذكره لا يشير إلى ذلك، وإلا سيحصل هناك تعارض بين دلالة السورتين، حيث إن سورة البقرة ستدل على كثرة الخلائق ونمائهم وازديادهم، وستكون داعية إلى إنزال الشرائع وإرسال الرسل بالدلائل والأحكام، لكونها مشتملة على ذكر خلق آدم، بينما سورة آل عمران ستدل على عكس ذلك تماماً لكونها مشتملة على ذكر خلق عيسى (عليه السلام).

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن إنزال الشرائع وإرسال الرسل بالدلائل والأحكام لا يرجع إلى كثرة الخلائق، بل لا صلة له بها أصلاً.

إذاً فهذه المناسبة التي ذكرها، ليس لها قوائم، وليس عليها دلالة في السياق، أو شهادة من الواقع؛ بل هي تتعارض مع صريح النص وصريح العقل.

وأيضاً فيما نقلناه من كلامه ما هو كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، أو كالمورد الملح الذي لا يزيد وارده إلا حرارة العطش، كالذي اقتبسه من كلام الحرالي. فلا شك أنه أشبه بالألغاز منه بالمناسبات. والقارىء كلما تأمل فيه لم يزدد منه إلا حيرة وعمى.

وأيضاً فيما نقلناه من كلامه ما هو مثال واضح لضعف الاستدلال فقوله في الفقرة

الثانية من العبارة الثانية: (فصرح أول هذه - أي سورة آل عمران - بما أفهمه آخرُ تلك - أي سورة البقرة - كما يصرح بالنتيجة بعد المقدمات المنتجة لها) من هذا النوع حيث أن المخاطبين بأوائل سورة آل عمران غير الذين وردت فيهم خواتيم سورة البقرة، فقد وردت الخواتيم تحكي حال الصفوة المختارة من المؤمنين بينما أوائل سورة آل عمران ناظرة إلى كفار أهل الكتاب.

إذاً فالمناسبة التي أشار إليها لا تصح ولا تستقيم.

وأيضاً فيما نقلناه من كلامه ما يعتمد على افتراضات ليس لها أساس، فالقول بأن آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي قولٌ يحتاج إلى دليل لا يقل في وضوحه عن وضوح الشمس، وذلك مطلب دونه خرط القتاد!

وأيضاً من هذا النوع ما قاله في الفقرة الثانية من العبارة الأولى، حيث أنه لم يبين لنا أن هذه السورة كيف تثبت تلك الدعوة الجامعة الواردة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة].

وأما ذكر عيسى (عليه السلام) فلم يرد في هذه السورة لإبطال إلهيّته - كما سنبينه في موضعه - ولو افترضنا أن الأمر كما قال فإن ذكر عيسى لا يشغل إلا مساحة قصيرة من هذه السورة، فهذا الأمر وحده لا يكفي للقول بأن السورة كلها جاءت لإثبات تلك الدعوة الجامعة.

وبالجملة فهذا الضعف والتكلف الذي نلاحظه عند البقاعي في التماس المناسبات نتيجة طبيعية لذلك النقص الذي يوجد في منهجه، حيث أنه لا يعتمد على قواعد علمية واضحة ثابتة، وإنما هو عبارة عن مبدأين، لا نصيب لهما من الدقة والمتانة.

وبعدما انتهينا من دراسة منهجه في التماس المناسبة بين سورة وسورة، وبين مقصد السورة وما في أثنائها، وبين ختام السورة وأوائل السورة التالية لها، نود أن تكون لنا وقفة عند تناوله الآيات والتماسه المناسبة فيما بينها بشكل عام، حتى نكون قد ألقينا الضوء على جوانب الموضوع كلها، وحتى نتمكن من إعطاء صورة واضحة متكاملة عن عمله.

المناسبة بين القصص الثلاث كما يراها البقاعي:

لقد جاء في سورة البقرة التلميح إلى قصة أهل السبت:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [البقرة].

ثم جاءت قصة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة ٦٧-٧١].

ثم جاء التلميح إلى قصة النفس المقتولة: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة].

فيقول البقاعي وهو يبين المناسبة بين هذه القصص الثلاث: «ولما بين تعالى قساوتهم في حقوقه عامة ثم خاصة أتبعه بيان جسارتهم في مصالح أنفسهم لينتج أنهم أسفه الناس فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ... ﴾.

... أو يقال إنه لما كان السبت إنما وجب عليهم وابتلوا بالتشديد فيه باقتراحهم له وسؤالهم إياه بعد إبائهم للجمعة كما يأتي إن شاء الله تعالى بيانه عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [النحل] كان أنسب الأشياء تعقيبه بقصة البقرة التي ما شدد عليهم في أمرها إلا لتعنُّتهم فيه وإبائهم لذبح أيِّ بقرة تيسرت. ويجوز أن يقال: إنه لما كان من جملة ما استخفوا به السبت المسارعة إلى إزهاق ما لا يحصى من الأرواح الممنوعين منها من الحيتان وكان في قصة البقرة التعنت والتباطؤ عن إزهاق نفس واحدة أُمروا بها تلاه بها. ومن أحاسن المناسبات أن في كلٍّ من آيتي القردة والبقرة تبديل حال الإنسان بمخالطة لحم بعض الحيوانات العُجم، ففي الأولى إخراسه بعد نطقه بلحم السمك وفي الثانية إنطاقه بعد خرسه بالموت بلحم البقر. ولعل تخصيص لحم البقر بهذا الأمر لإيقاظهم من رقدتهم وتنبيههم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى لينزع من قلوبهم التعجب من خوار العجل الذي عبدوه. وقال الإمام أبو الحسن الحرالي: وفي ذلك تَشامٌّ بين أحوالهم في اتخاذهم العجل وفي طلبهم ذلك، وفي كل ذلك مناسبة بين طباعهم وطباع البقرة المخلوقة للكد وعمل الأرض التي معها التعب والذل والتصرف فيما هو من الدنيا توغلاً فيها وفيه نسمة مطلبهم ما تنبت الأرض الذي هو أثر الحرث - يعني الذي أبدلوا الحطة به وهو حبة في شعرة، فكأنهم بذلك أرضيون ترابيون لا تسمو طباع أكثرهم إلى الأمور الروحانية العلوية، فإن جبلّة كل نفس تناسب ما تنزع إليه وتلهج به من أنواع الحيوان ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]، انتهى.

وقُسمت القصة شطرين تنبيهاً على النعمتين: نعمة العفو عن التوقف عن الأمر ونعمة البيان للقاتل بالأمر الخارق وتنبيهاً على أن لهم بذلك تقريعين: أحدهما بإساءة الأدب في الرمي بالاستهزاء والتوقف عن الامتثال والثاني على قتل النفس وما تبعه. ولو رتبت ترتيبها في الوجود لم يحصل ذلك، وقدم الشطر الأنسب لقصة السبت ثم أتبعه الآخر. وقال الحرالي: قدم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر تَدارُئِهم في القتيل ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة. انتهى[(١)].

تقويم هذه الوجوه:

هذه الوجوه التي ذكرها البقاعي للمناسبة بين هذه القصص الثلاث.

وحين نمعن النظر فيما كتبه، لا نرتاح إليه من عدة وجوه وهي كما يلي:

١- الاعتداء في السبت لا يعني إزهاق أرواح الحيتان. وإنما يكفي لكونهم معتدين في السبت أن يصطادوها في ذلك اليوم، وإن لم يزهقوا أرواحها أو يحبسوها حتى يتمكنوا من اصطيادها فيما بعد.

حتى ولو حاولوا في ذلك اليوم اصطيادها أو حبسها فهم يعتبرون معتدين في السبت، بمجرد محاولتهم تلك، وإن لم يظفروا بواحدة منها.

إذاً فلا يستقيم قوله في بيان مناسبة قصة البقرة لما قبلها:

«إنه لما كان من جملة ما استخفُّوا به السبت المسارعة إلى إزهاق ما لا يحصى من الأرواح الممنوعين منها من الحيتان وكان في قصة البقرة التعنت والتباطؤ عن إزهاق نفسٍ واحدة أُمروا بها تلاه بها».

٢- إن المعتدين في السبت لم يُخْرَسُوا بلحم السمك وإنما أُخرسوا بفسقهم وعُتُوِّهم كما صرح به القرآن حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

والذي أُنطق بعد خرسه بالموت لم ينطق بلحم البقر، وإنما أنطق بمحض قدرة الله،

---

(١) نظم الدرر: ٤٦٦/١-٤٧٥ (بحذف واختصار).

ولا صلة له بقصة البقر. وسنشبع الكلام على هذا الموضوع في موضعه بإذن الله.

ومن هنا لا حاجة بنا إلى التكلف الذي اضطر إليه حيث قال:

«ولعل تخصيص لحم البقر بهذا الأمر لإيقاظهم من رقدتهم وتنبيههم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى لينزع من قلوبهم التعجب من خوار العجل الذي عبدوه».

ولا ندري كيف سكنت نفسه إلى هذا التعليل، فإنه لا فرق بين لحم البقر ولحم غيرها من الحيوانات في كونه مظهراً لعظيم قدرة الله إذا ظهرت منه تلك المعجزة التي تحكي عن لحم تلك البقرة.

٣- بيان القاتل بالأمر الخارق لم يكن نعمة ورحمة، وإنما كان بالنسبة لهم عقوبة وفضيحة!

٤- إن كان ذبح البقرة وإحياء النفس المقتولة قصة واحدة قُسمت شطرين - كما يزعمون - فلماذا اختلف الأسلوب في الشطرين؟ حيث أن الأول ذكر بصيغة الغيبة والثاني بصيغة الخطاب:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [البقرة].

٥- إن القول بأن القصة لو رُتِّبَت ترتيبها في الوجود لم تدل على ما دلت عليه، افتراضٌ محض لا دليل عليه. فإن ما ذكره من التقريعين والتنبيه على النعمتين، لا صلة له بترتيب القصة، فليست هذه الأمور تستفاد من نظم الكلام، بل تستفاد من عبارة القصة وألفاظها.

إضافة إلى ذلك أنه لا عهد لنا في القرآن بتقديم ما تأخر وتأخير ما تقدم، فالقصص التي وردت في القرآن كلها ذُكرت على ترتيبها في الوجود.

٦- إن قصة البقرة ليست مثالاً للتشديد في الأمر وإنما هي مثال لسعة حلم الله وعظيم عفوه عن تعنّت القوم واستهزائهم بأمره.

والأوصاف التي وردت في شأن البقرة رداً على سؤالهم، ليست من قبيل التشديد في الأمر، وإنما هي من قبيل تبين المُجْمل وتوضيحه على طلبٍ منهم.

ولا شك أن الأمر يكون فيه سعة إذا كان مجملاً، ولا تبقى فيه تلك السعة بعد مجيء البيان. وهذه قاعدة عامة تجري في جميع الأمور، ولا علاقة لها بالتشديد في

الأمر.

وقد كان من واجبهم حين وجّه إليهم الأمر مجملاً أن ينتقوا للذبح أحسن بقرة تتيسر لهم، وإن كان يكفي لخروجهم من العهدة أن يذبحوا أي بقرة من أبقارهم.

فلما جاءهم البيان من ربهم على طلب منهم، ألزموا به إلزاماً ولم يبق لهم الخيرة من أمرهم.

ونظير ذلك أن الله تعالى أمر المؤمنين بالقربان فقال: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج].

فهذه الآية وأمثالها تأمر بقربان الأضاحي بدون أن تذكر شروطها وتحدد أوصافها، ولكن النبي ﷺ قرّب منها أحسنها وأسمنها وأكرمها وعلّمنا كذلك ألا نقرب من الأنعام إلا خيارها وكرائمها.

ففي رواية عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بكبش أقرن، يطأ في سواد، وينظر في سواد، ويبرك في سواد، فأُتي به فضحّى به(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نحر سبع بَدَنات بيده قياماً، وضحى بالمدينة بكبشين أقرنين أملحين(٢).

وعن أبي سعيد - وهو الخدري - قال: كان رسول الله ﷺ يضحي بكبش أقرن فحيل ينظر في سواد، ويأكل في سواد، ويمشي في سواد(٣).

فنرى من خلال هذه الروايات أن النبي ﷺ أمرنا ألا نقرب من أموالنا إلا ما كان صحيحاً قوياً وكان جميلاً سوياً يسر الناظرين.

وكان عليه السلام أيضاً يلتزم بذلك كما كان يأمر به الناس فكان لا يضحي من الأنعام إلا بما كان أقواها وأسمنها وأكرمها وأجملها.

وكانت هذه سنته عليه الصلاة والسلام مع أن الله لم يأمرنا بذلك ولم يطلب منا إلا

---

(١) مختصر سنن أبي داود: ٤/٩٩.

(٢) المصدر السابق: ٤/١٠٠.

(٣) المصدر السابق: ٤/١٠١.

أن نذكر اسمه على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، وذلك لأن العبد من واجبه ألا يتقرب إلى ربه إلا بأكرم أمواله وإن لم يؤمر بذلك أمرًا صريحاً.

فهكذا لما أُمر بنو إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كان من واجبهم أن ينتقوا للذبح أحسن بقرة وأكرمها وأغلاها وأجملها في أعينهم وكان بنو إسرائيل يدركون ذلك جيداً، ولكنهم استهزؤوا بنبيهم وأبوا إلا أن يحرجوه بتلك الأسئلة الهازلة الساخرة.

فكان من سعة حلم الله وعظيم عفوه أنه لم يؤاخذهم بتلك السخرية الساخرة بل رد على أسئلتهم رداً جميلاً وبَيَّن لهم ما أرادوه بياناً شافياً.

ومما يدل على أن تلك الأوصاف التي ذكرت للبقرة لم تكن من قبيل التشديد في الأمر أنها جاءت في جو يسوده البيان والتبيين فقد حكيت هذه الحكاية في خمس آيات، وورد ذكر طلبهم البيان في هذه الآيات الخمس ثلاث مرات:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

فجاءت مجموع هذه الأوصاف في ثلاث دفعات، وجاءت كل دفعة منها بعد طلبهم البيان، فكلما استزادوا البيان زادهم الله بياناً وإيضاحاً، حتى تبين لهم الأمر ولم يبق لهم موضع للسؤال، وهناك قالوا تلك الكلمة الهازلة الساخرة: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴿٧١﴾ ﴾ [البقرة].

كأنهم يَمنُّون على الرسول ويمنون على ربهم حيث قبلوا منه ذلك الأمر، وقد قبلوه منه بعد رد وكد ونقاش طويل! مع أن الأمر كان واضحاً بيّناً عندهم، ولم تكن بهم حاجة إلى ما فعلوه.

وبالجملة فهذا الجو الذي يسود هذه الآيات يأبى القول بأن الأوصاف التي ذكرت للبقرة رداً على سؤالهم كانت من قبيل التشديد في الأمر لقاء تعنتهم وإبائهم لذبح أي بقرة تيسرت وإنما هو تبيينٌ من الله وإيضاح منه على طلبهم حتى لا يكون لهم العذر في القعود عنه.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا أن الشروط التي كان يراعيها النبي ﷺ في الأضاحي والتي يجب علينا أن نراعيها كذلك هي كلها مستفادة من هذه الآيات، فالأحاديث التي تحذر

من العرجاء والعوراء والخرقاء والشرقاء وما إليها ناظرة إلى قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة].

وكونه (عليه الصلاة والسلام) يضحي بكبش فحيل - وهو الكريم المختار للفحلة- يذكرنا قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة].

وكان (عليه الصلاة والسلام) قد أمر بكبش يطأ في سواد، وينظر في سواد ويبرك في سواد - وهو الكبش الذي تكون أظلافه ومواضع البروك منه وما أحاط بملاحظ عينيه من وجهه أسود وسائر بدنه أبيض.

وكذلك ضحى (عليه الصلاة والسلام) بالمدينة بكبشين أملحين - والأملح من الكباش: هو الذي في خلال صوفه الأبيض طاقات سود.

ومثل هذه الروايات تُذكرنا قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة].

فالأملح من الكباش أو الذي يطأ في سواد وينظر في سواد ويبرك في سواد يعتبر بمنزلة الأصفر من الأبقار ولا فرق بينهما من حيث أن الاثنين يفوقان غيرهما بخلابة اللون وحسن المنظر.

وقال عليه الصلاة والسلام: لا تذبحوا المُسِنَّة - والمسنة من البقر ابنة ثلاث، ودخلت في الرابعة - إلا أنْ يعسرَ عليكم فتذبحوا جَذعةً من الضأن[1] - وهي التي دخلت في السنة الثانية -.

وهذا القول يذكرنا قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة].

فإن صح أن هذه الشروط التي أُمرنا بمراعاتها في الأضاحي، كلها مستفادة من هذه الآيات، أو شبيه بما تتضمنه هذه الآيات، فكيف يصح القول بأنها وردت تُشدِّدُ على قوم موسى في أمر البقرة؟

المناسبة بين القصص الثلاث الأخرى كما يراها البقاعي:

وبعد هذه الملاحظات المتواضعة على ما كتبه البقاعي في مناسبة هذه القصص

---

(١) مختصر سنن أبي داود ٤/١٠٢.

الثلاث فيما بينها، ننتقل إلى القصص الثلاث الأخرى لننظر كيف عالجها، وبين مناسبتها فيما بينها.

يقول رحمه الله وهو يلتمس المناسبة بين قصة الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، وقصة الذي مر على قريةٍ وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم إذ قال ربِّ أرني كيف تحيي الموتى:

«ولما كان الإيمان بالبعث، بل الإيقان من المقاصد العظمى في هذه السورة، وانتهى إلى هذا السياق الذي هو لتثبيت دعائم القدرة على الإحياء مع تباين المناهج واختلاف الطرق فبيّن أولاً بالرد على الكافر ما يوجب الإيمان، وبإشهاد المتعجب ما ختم الإيقان، عدا عن ذلك البيان في قصة الخليل (صلوات الله وسلامه عليه) إلى ما يثبت الطمأنينة، وقد قرر سبحانه وتعالى أمر البعث في هذه السورة، بعدما أشارت إليه الفاتحة بيوم الدين أحسن تقرير، فبث نجومه فيها خلال سماوات آياتها، وفرّق رسومه في أرجائها بين دلائلها وبيّناتها فِعْلَ الحكيم الذي يلقى ما يريد بالتدريج غير عَجِلٍ ولا مقصر. فكرر سبحانه وتعالى ذكره بالآخرة تارة والإحياء أخرى، تارة في الدنيا وتارة في الآخرة في مثل قوله: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۝٢٨﴾ [البقرة]، الآية، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ۝٥٦﴾ [البقرة] ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٧٣﴾ [البقرة] ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۝٢٤٣﴾ [البقرة] وما كان من أمثاله ونظائره وأشكاله في تلك الأساليب المرادة غالباً بالذات لغيره فاستأنست أنفسُ المنكرين له به فصار لها استعداد لسماع الاستدلال عليه حتى ساق لهم أمرَ خليله عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام. فكان كأنه قيل: يا مُنكري البعثِ ومُظهري العجب منه ومقلدي الآباء في أمره بالأخبار التي أكثرها كاذب! اسمعوا قصة أبيكم إبراهيم ﷺ التي لقّاكم بها الاستدلالَ على البعث وجمعِ المتفرق وإعادة الروح بإخبار من لا يُتَّهمُ بشهادة القرآن الذي أعجزكم عن الإتيان بمثل شيء منه فشهادته شهادة الله لتصبروا من ذلك على علم اليقين بل عين اليقين. فقال تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ عطفاً على نحو: اذكروا ما تُلي عليكم من أمر البعث واذكروا قصة أبيكم إبراهيم فيما يدل عليه إذ، وقال الحرالي: ولما كان أمر منزل القرآن إقامة الدين بمكتوبهِ وحدوده فأنهاه تعالى منتهى منه، ثم نظم به ما نظم من علنه في آية الكرسي ورتب على ذلك دين الإسلام الذي هو إلقاءٌ كإلقاء اليد عند الموت انتظم به أمرُ المعاد الذي لا مدخل للعباد في أمره فرتب سبحانه وتعالى ذكر المعاد في ثلاثة أحوال:

حال الجاحد الذي انتهت غايته إلى بهت، ثم حال المستبعد الذي انتهت غايته إلى علم وإيمان وأنهى الخطاب إلى حال المؤمن الذي انتهى حاله إلى يقين وطمأنينة ورؤية ملكوت في ملكوت الأرض - انتهى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة] ولقد استولى الترتيب والتعبير في هذه الآيات الثلاث على الأمد الأقصى من الحسن، فإنها بدئت بمن أراد أن يخفي ما أوضحتهُ البراهينُ من أمر الإله في الإحياء بأن ادعى لنفسه المشاركة بإحياء مجازي تلبيساً بلفظ «إلى» الدالّ على بُعده ولعنه وطرده، ثم بمن استبعد إحياء القرية فأراه الله سبحانه وتعالى كيفية الإحياء الحقيقي آية له وتتميماً للرد على ذلك مع الإقبال عليه بالمخاطبة ولذةِ الملاطفة. ثم بمن سأل إكرام الله تعالى له بأن يُريه كيف يحيي فيثبت ثم أثبتت ثم أكدت. ومناسبة الثلاث بكونها في إحياء الأشباح بالأرواح لما قبلها وهو في إحياء الأرواح بأسرار الصلاح أجل مناسبة. فالمراد التحذير عن حال الأول والندب إلى الارتقاء عن درجة الثاني إلى مقام الثالث الذي حقيقته الصدق في الإيمان لرجاء الحيازة مما أكرم به، ولذلك عبّر في قصته بقوله (وإذ) ولم يَسقها مساقَ التعجيبِ كالأول»[١].

ويزيد فيقول:

«ولما انقضى جواب السؤال عن الملك الذي لا تنفع عنده شفاعة بغير إذنه ولا خلة ولا غيرهما وما تبع ذلك إلى أن ختم بقصة الأطيار التي صغت إلى الخليل بالإنفاق عليها والإحسان إليها ثنّى الكلام إلى الأمر بالنفقة قبل ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه الوسائل إلا بالوجه الذي شرعه بعد قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة] نظراً إلى أول السورة تذكيراً بوصف المتقين حثاً عليه، فضرب لذلك مُثلاً صريحة لمضاعفتها فاندرج فيه مُطلقُ الأمرِ بها اندراجَ المطلق في المقيَّد وتلويحه الذي هو من جملة المشار إليه بحكيم للإحياء فصرح بأن النفقة المأمور بها من ذخائر ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إلا ما شرعه وهو من جليل العزة، وساقه على وجه يتضمن إحياء الموات الذي هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات، فهو إيماء إلى الاستدلال على البعث بأمر محسوس، وذلك من دقيق الحكمة، فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إن خليلي (عليه الصلاة والسلام) لما كان من الراسخين في رتبة الإيمان، أَهّلتهُ لامتطاء درجة أعلى من درجة الإيقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن إحياء الأطيار وأقمت نمطاً من ذلك لعامة الخلق مطوياً في إحياء النبات على وجه معتاد فمن

(١) نظم الدرر: ٤/٦٠-٦٣.

اعتبر به أبصر ومن عمي عنه انعكس حاله وأدبر فقال سبحانه وتعالى: (مثل)»[1].

تقويم هذه الإفادات:

هذا ما يفيدنا البقاعي في مناسبة هذه القصص فيما بينها، ولِمَا بين يديها وما خلفها. والمتأمل إذا تأمل في هذه الإفادات، وقلّبها ظهراً لبطن، فإنه لا يستريح إليها من عدة وجوه. وهي كما يلي:

١- إن ربط هذه الآيات بمنكري البعث يجعلها غريبة بين جاراتها، حيث أن الآيات التي سبقتها والتي تليها، كلها تتصل بالذين آمنوا، ولا صلة لها بمنكري البعث أصلاً، لا من قريب ولا من بعيد، حتى الآيات التي استأنس بها ما جاءت لإثبات البعث، وليس وجه الخطاب فيها إلى منكري البعث، وإنما هي تخاطب بني إسرائيل، ومعلوم أنهم كانوا يؤمنون بالتوراة وكانوا يؤمنون بالبعث.

وهكذا سيكون الوضع إذا رجعت هذه الآيات إلى موضوع المعاد فإن السياق ليس سياق إثبات المعاد، والموضوع الذي تتضمنه هذه الآيات غير هذا الموضوع.

ومن هنا يصعب على الباحث أن يوافق الحرالي فيما ذهب إليه من أن الله سبحانه وتعالى رتب ذكر المعاد هنا في ثلاثة أحوال.

وكذلك الأمر فيما قاله البقاعي من أن الله تعالى أرى الذي استبعد إحياء القرية كيفية الإحياء الحقيقي مع الإقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاطفة.

أو ما قاله الحرالي من أنه انتهت غاية هذا المستبعد إلى علم وإيمان.

فالذي يترجح في هذا الموضوع بعد التأمل في نظم الآية وسياقها هو ما قاله الزمخشري (رحمه الله) حيث قال:

«والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد التي هي أنَّى يحيي»[2].

٢- إذا كان ما قبل هذه القصص الثلاث في إحياء الأرواح بأسرار الصلاح، أليس من الأفضل أن تؤول هذه القصص أيضاً إلى إحياء الأرواح حتى تتم المطابقة ويتحقق

---

(١) نظم الدرر: ٤/٧٣-٧٤.

(٢) الكشاف: ١/٣٩١.

التناسب؟

أما أن يكون السياق سياق إحياء الأرواح وتذكر فيه قصص إحياء الأشباح، اعتماداً على فهم المخاطب، أنه سيجيد الفهم ويحسن الاعتبار ويستوحي من تلك القصص ما يتناسب مع سياقها وإن كانت هي في أصلها لا توحي بذلك، خاصة وهو يرى أن المخاطب في هذه الآيات منكرٌ للبعث - كما مر معنا آنفاً - فهذا ليس من دأب القرآن - القرآن - الذي ينتقي لكل موضع ما يناسبه ويكون دقيقاً غاية الدقة في سرد قصصه وأمثاله. إذاً فهذه المناسبة التي ذكرها لا تخلو من تكلف، وإن كان يعتبرها هو (أجلَّ مناسبة!).

٣- إن هذه المناسبة التي ذكرها بين قصة سيدنا إبراهيم وبين ما يتلوها من الأمر بالإنفاق والترغيب فيه والتحريض عليه، مناسبة ضعيفة تعتمد على الخيال أكثر مما تعتمد على الواقع.

فأي مناسبة بين الإنفاق على الطير والإحسان إليها وبين الإنفاق في سبيل الله، حتى يكون أحدهما تمهيداً للآخر، أو مَدعاةً إليه، أو سبباً لانجرار الكلام إليه؟

وتزداد هذه المناسبة ضعفاً حين نضع في اعتبارنا أن هذا الأمر الذي بنيت عليه هذه المناسبة، ليس أمراً ثابتاً، وإنما هو من الاحتمالات التي تتأرجح بين ثبوتها وانتفائها، وكفة انتفائها أرجح من كفة ثبوتها.

فليس هناك شيء يثبت أن سيدنا إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) أنفق على الطير وأحسن إليها، حتى صَغَتْ إليه، إلا ما ذكره عن الحرالي، حيث يقول:

﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أي: اضممهن «إليك» أي لتعرف أشكالها فيكون ذلك أثبت في أمرها. قال الحرالي: من الصَّوْر وهو استمالة القلوب بالإحسان حتى يشتد إلى المستميل صغوها وميلها، وإشعاره ذلك مثلاً لما لله سبحانه وتعالى في خلقه من تربيتهم بخلقهم ورزقهم حتى عرفوه بما احتاجوا إليه، فوجدوه معرفةَ عجزٍ عنه لا معرفة نيلٍ له، فمتى دعاهم من أقطار الآفاق أجابوه إجابة هذه الطوائر لخليله بحظ يسير من تربيته لهن. وإذا كانت هذه الأربع مجيبة للخليل (عليه الصلاة والسلام) بهذا الحظ اليسير من الصور والصغو فكيف تكون إجابة الجملة للجليل العزيز الحكيم!»[١].

---

(١) نظم الدرر: ٤/ ٦٧-٦٨.

وهذا يعني أن قصة الطير والإنفاق عليها ليست إلا اجتهاداً واستنباطاً من الحرالي (رحمه الله).

وما كان يضرنا هذا الاجتهاد لو أنه استند فيه إلى دليل، ولكنه بنى أمره كله على لفظ (صور) ومن الواضح أن لفظ (صور) وحده لا يؤدي أبداً إلى تلك النتيجة الرهيبة التي استخرجها الحرالي منه.

٤- وكما أن هذه المناسبة ليست من الوجاهة في شيء فكذلك تلك المناسبة التي ذكرها بعدها، حيث قال:

«وساقه على وجه يتضمن إحياء الموات الذي هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات، فهو إيماء إلى الاستدلال على البعث بأمر محسوس، وذلك من دقيق الحكمة، فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إن خليلي (عليه الصلاة والسلام) لما كان من الراسخين في رتبة الإيمان أهَّلته لامتطاء درجة أعلى من درجة الإيقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن إحياء الأطيار، وأقمت نمطاً من ذلك لعامة الخلق مطوياً في إحياء النبات على وجه معتاد»[١].

فهذه المناسبة ليست أحسن حالاً من أختها، حيث أن هذه الآيات لا تمس موضوع إحياء الموات مَسّاً، ولا صلة لها بالاستدلال على البعث أصلاً.

والقارىء الخالي الذهن إذا قرأها وتدبرها، فلن تتبادر إلى ذهنه هذه النكتة التي استخرجها البقاعي ونوَّه بشأنها ولو طال مكثه عليها.

فهذه ليست من جنس المناسبات التي تتبادر إلى الذهن طوعاً، وتسرع إليه عفواً صفواً من غير تكلف ولا عناء، وإنما هي من جنس ما يخترعه الذهن اختراعاً، ثم يقبل إلى الآيات ليستخرجه منها استخراجاً ولو كانت العبارة لا تحتمله، بل كانت ترفضه رفضاً.

فكم من آية في القرآن قد تناولت موضوع إحياء الموات، واستدلت به على البعث بعد الممات، ولكنها واضحة في موضوعها، وتختلف في لونها وأسلوبها، ولا بأس بأن نذكر هنا نماذج منها. قال تعالى:

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) المصدر السابق: ٤/ ٧٤.

قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ [الروم].

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم].

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يس].

فأين هذه الآيات من تلك، فهناك فرق واضح في لونها وأسلوبها، فالقرآن يستدل على إحياء الموتى بإحياء الأرض الميتة، ولكن لا يستدل عليه أبداً بكثرة النبات وشدة النمو.

ولعل الإمام البقاعي (رحمه الله) لم يضطر إلى هذا التكلف في التماس المناسبة إلا لأنه ارتبك في فهم تلك الأمثلة الثلاثة وفي فهم أهدافها ودلالاتها، وإلا فالمناسبة بينها كانت واضحة، ولم يكن الأمر بحاجة إلى هذا التكلف الذي لجأ إليه.

تلك الوجوه التي أردت أن أُنبه إليها، وهي تجعل الباحث لا يستريح إلى ما ذهب إليه في مناسبة هذه القصص الثلاث فيما بينها ولما حولها.

وقفة عند آية أقام عليها البقاعي شهوراً:

وقبل أن نقفل هذا الحديث نود أن تكون لنا وقفة عند آية يقول عنها البقاعي أنه أقام في تأملها شهوراً حيث يقول:

«فلا تظنن أيها الناظر لكتابي هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفع لستورها، فرب آية أقمتُ في تأملها شهوراً، منها: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [آل عمران].. إلخ»(١).

فلننظر كيف عالج هذه الآية، يقول رحمه الله:

ولما كان ما تضمنته هذه الآية من الإخبار ومن الوعد ومن الوعيد منطوقاً ومفهوماً محتاجاً إلى الاجتلاء في صور الجزئيات ذكَّرهم سبحانه وتعالى بالوقائع التي شوهدت فيها أحوالهم من النصر عند العمل بمنطوق الوعد من الصبر والتقوى وعدمه عند العمل بالمفهوم وشوهدت فيها أحوال عدوهم من المساءة عند السرور والسرور عند المساءة. وذلك غنيّ عن دليلٍ لكونه من المشاهدات، مشيراً إلى ذلك بواو العطف على غير مذكور، مخاطباً لأعظم عباده فطنةً وأقربهم إليه رتبة، تهييجاً لغيره إلى تدقيق النظر

---

(١) نظم الدرر: ١/ ١٥.

واتباع الدليل من غير أدنى وقوف مع المألوف، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ أي: اذكرْ ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين صبرتم واتقيتم فنصرتم وحين ساءهم نصركم في كل ذلك: في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة ثم في بدر ثم في غزوة بني قينقاع ونحو ذلك، واذكر إذ لم يصبر أصحابك فأُصيبوا، وإذ سرّتهم مصيبتكم في وقعد أحد»[١].

ويزيد فيقول:

«ولعله إنما خص هذه الغزوة بالذكر دون ما ذكرت أن واوَ عطفها دلت عليه مما أُبدوا فيه بالنصر لأن الشماتة بالمصيبة أدل على البغضاء والعداوة من الحزن بما يسر، ودل ذكرها على المحذوف لأن المُدَّعى فيما قبلها شيئان: المساءة بالحسنة والفرح والمسرة بالمصيبة فإذا برهن المتكلم على الثاني علم ولا بد أنه حذف برهان الأول. وأنه إنما حذفه وهو حكيم لنكتة، وهي هنا عدم الاحتياج إلى ذكره لوضوحه بدلالة السياق مع واو العطف عليه، وما تقدم من كونه غير صريح الدلالة في أمر البغض على أنه تعالى قد ذكر بدراً كما ترى بعد مُحْكَمةٍ ستُذكر»[٢].

هذا ما يقوله البقاعي في مناسبة هذه الآية لما قبلها.

وكنا نظن أن الوضع في معالجة هذه الآية سيختلف عنه في معالجة أخواتها، لما أنه رحمه الله أقام في تأملها شهوراً، ولكن ماذا ستفعل هذه الإقامة الطويلة في تأمل الآية إذا كان المنهج نفسه لا يَسْلَمُ من خلل.

فهيهات، هيهات أن يصل المرء إلى ما يروم، ولو سهر له طوال السنين، إذا كان منهجه لا يسلم من خلل!

ونحن سننبه هنا إلى أمور لا نرتاح لأجلها إلى هذا التأويل، وهي كما يلي:

١- إنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْغَدَوْتَ... الآية﴾ لا يحتمل أبداً تلك المقدرات التي أشار إليها البقاعي، حيث قال:

﴿وَإِذْ﴾ أي: اذكر ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين صبرتم واتقيتم فنصرتم وحين ساءهم نصركم في كل ذلك: في سرية عبدالله بن جحش إلى نخلة ثم في بدر،

---

(١) المصدر السابق: ٥/ ٤١-٤٢.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ٤٣-٤٤.

ثم في غزوة بني قينقاع ونحو ذلك. واذكر إذ لم يصبر أصحابك فأصيبوا، وإذ سرّتهم مصيبتكم في وقعد أحد».

٢- إن هذه الآيات (١٢١-١٢٩) لا تتناول إلا ما حدث قبل نشوب المعركة، وليس فيها ذِكْرُ ما أصاب المسلمين في تلك الغزوة، حتى نربطها بما فوقها برابطة الشماتة بالمصيبة.

٣- إن هذه المناسبة التي ذكرها تعتمدُ على فكرة هزيمة المسلمين في غزوة أحد، وهي فكرةٌ خاطئة لا تقوم بها حجة قائمة، وسأبين ذلك بإذن الله حين ندرس تلك الآيات في موضعها.

٤- إن هذه الآيات لو كانت تستهدف إقامة الحجة على ما ذكر من حال عدوهم من المساءة عند السرور والسرور عند المساءة، لكان لها إشارة واضحة أو خفية مفهومة في تلك الآيات.

تلك الإشكالات التي تجعلنا لا نفرح بهذا التأويل، وتحثنا حثاً على أن نلتمس له بديلاً، وليس ذلك على الله بعزيز.

وبالجملة فهذا المنهج الذي اتبعه البقاعي واستخدمه في ممارسة هذا العلم لم يستطع أن يملأ يديه من خيرات هذا العلم. ولقد بينت فيما مضى أنه يقوم على قاعدتين، إحداهما: اسمُ كل سورة مُترجِمٌ عن مقصودها. والثاني: مقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها.

ويجمع هاتين القاعدتين أنه ليس لهما أصل ثابت، وإنما تعتمدان كل الاعتماد على الخيال.

فالأصل في هذا المنهج أنه يطير بجناح الخيال، ويتلقف كل ما يسوقه إليه الخيال، حتى ولو كان في غاية الرداءة والغرابة.

ولقد قدمت نماذج فيما مضى، وأود أن أضيف إليها أنموذجاً جديداً من هذا القبيل.

تقويم ما قاله البقاعي في الفرق بين آيتي البقرة وآل عمران:

يقول البقاعي وهو يتحدث عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

«وذكر سبحانه وتعالى في أخت هذه الآية في سورة البقرة ثمانية أنواع من الأدلة واقتصر هنا على ثلاثة، لأن السالك يفتقر في ابتداء السلوك إلى كثرة الأدلة، فإذا استنار قلت حاجته إلى ذلك، وكان الإكثار من الأدلة كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في لجج المعرفة، واقتصر هنا من آثار الخلق على السماوية، لأنها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال القلب منها إلى عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه أشد وأسرع. وختم تلك بما هو لأول السلوك: العقل، وختم هذه بلبّه، لأنها لِمَنْ تخلَّص من وساوس الشيطان وشوائب هواجس الوهم المانعة من الوصول إلى حق اليقين، بل علم اليقين»(١).

وهذا يعني أن من شأن السالك المستنير أن يحذر المواضع التي كثرت فيها الأدلة في القرآن فلا يقرأ تلك الآيات ولا يستمع لها، حتى لا تكون تلك الآيات كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في لجج المعرفة. ثم إن هذه النكتة لا تنسجم مع النكتة الثانية وهي قوله: «واقتصر هنا من آثار الخلق على السماوية لأنها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال القلب منها إلى عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه أشد وأسرع».

فإن الذي يتضرر بكثرة الأدلة سيتضرر بها إذا كانت أقهر وأبهر، وإنما الذي يناسبه أن تكون الأدلة المعروضة عليه أخفَّ وأيسر.

وأيضاً إذا كانت كثرة الأدلة كالحجاب الشاغل له، فكثرة العجائب سيكون ضررها عليه أكثر وأشد.

إذاً فلا معنى لقوله بعد ذلك: «وانتقال القلب منها إلى عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه أشد وأسرع» فهناك تعارض واضح بين الأمرين كما لا يخفى.

ولا شك أن مثل هذه المناسبات - أو بعبارة أصح: مثل هذه التكلفات - هي التي أحفظت الإمام الشوكاني وجعلته يثور على هذا العلم، حيث يقول:

«اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المَنهيِّ عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن

---

(١) نظم الدرر: ٥/ ١٥٥.

يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومَنْ تقدمه حسبما ذكر في خطبته»[1].

ونحن أيضاً مع الإمام الشوكاني في الرغبة عن مثل هذه التكلفات، التي تعتمد على محض الرأي، ثم نزيد فنقول:

كلمة عن المنهج الذي تمثله هذه الرسالة:

إن الأصل في هذا العلم ليس الرأي المحض، كما يتوهم ذلك من ينظر في عمل البقاعي، بل الأصل فيه هو العكوف على كتاب الله، وتدبر آياته، والتأمل في نظمه وسياقه، ومتابعته متابعة دقيقة من غير تكلف ولا تعسف، حتى ينكشف ما خَفيَ من معانيه، ويتجلى كما يتجلى القمر في ليلة تمامه.

فمحاولة التمكن من فهم القرآن والتوصل إلى صحيح تأويله هو الأصل في هذا العلم.

ومن هنا يختلف منهجي في ممارسة هذا العلم عن منهج الإمام البقاعي، حيث أن منهجه يغلبه طابع التكلف والتعسف، بينما هذا المنهج الذي تمثله هذه الرسالة، يرفض التكلف رفضاً باتاً ولا يلتفت إلى تأويل تشم فيه رائحة التكلف.

وكما أنه لا مكان هنا للقول بمحض الرأي فكذلك لا مكان لما يشبهه من الاعتماد على الروايات الضعيفة، التي تصرف الآيات عن وجهها وتكون حجاباً دون التوصل إلى صحيح تأويلها، فمثل هذه الأشياء كلها مرفوضة في هذا المنهج.

إن هذا المنهج يعتمد من أول أمره على أسس علمية واضحة ثابتة.

فأول أمر يهم صاحب هذا المنهج أن يتأكد من صحة تأويل الآيات، التي يريد أن يلتمس فيها المناسبة، فكثير من الآيات قد التبس علينا أمرها ولم يتبين لنا صحيح تأويلها، فإن أردنا أن نلتمس المناسبة بينها من غير أن نتأكد من صحة تأويلها، كنا كباسطِ كفَّيهِ إلى الماء ليبلغَ فاهُ وما هو ببالغه.

---

(١) فتح القدير: ١/ ٧٢.

وهذا الذي حصل مع كثير من الناس، ممن عُنوا بالتماس المناسبات بين الآيات، ومنهم البقاعي - (رحمه الله) - حيث أنهم التمسوا المناسبة بين آياتٍ لم يتأكدوا من صحة تأويلها، فلم يظفروا بما أرادوا، وما كان لهم أن يظفروا بما لم يُمهِّدوا الطريقَ إليه ولم يسلكوا المسالك التي تؤديهم إليه.

ولقد سبقت لذلك نماذج فيما مضى، وستأتي نظائرها في غضون هذا البحث بإذن الله.

فهذا المنهج يفرض على من يلتمس المناسبة بين الآيات أن يتأكد أولاً من صحة تأويل تلك الآيات، بحيث يعرض ما بدا له من التأويل على معايير دقيقة لا تخطىء في الحكم، ولا تبخل ببيان ما هو عليه من صحة أو سقم.

* فإذا كانت الآية - مثلاً - تحتمل وجوهاً كثيرة أو وجوهاً عديدة من المعاني، فلا يؤخذ منها إلا ما كان أقرب لحسن التأويل، وكان أليق بعظمة هذا الكلام.

* ولا يؤخذ منها إلا ما كان موافقاً لمحكم الكتاب والسنة.

وإذا كان هناك وجه له شاهد في العبارة، ووجه آخر ليس له شاهد، فلا يؤخذ إلا ما كان له شاهد.

ولا يُقبل من التأويل ما كان يعدُل بألفاظِ الآية عن المعنى المتبادر، المعروفِ في لسان العرب إلى غيره.

* وكذلك لا يقبل منه ما يعدل بالكلام عن الأسلوب المعروف في لسان العرب، وكان يوحي بالتكلف والتعسف، حيث أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فكل تأويل يوهم غير ذلك، أو يجرد القرآن عن هذا الوصف، فهو رد على صاحبه.

هذه المعايير أشار إليها الفراهي في مواضع متفرقة من كتبه وخاصة في كتابه «دلائل النظام» وبالجملة فلا بد لنا أن نتأكد أولاً من صحة تأويل الآيات ثم نلتمس وجوه المناسبة فيها.

ثم إن المعايير التي ذكرتها لمعرفة صحيح التأويل من سقيمه، ستساعدنا في معرفة صحيح المناسبة من سقيمها كذلك.

* فلا يقبل من وجوه المناسبة إلا ما كان أقربَ لحسن التأويل، وكان أليق بعظمة هذا الكلام.

* ولا يقبل منها إلا ما كان موافقاً لمحكم الكتاب والسنة.

ولا يقبل منها إلا ما كان له شاهدٌ في العبارة.

ولا يقبل منها ما كان يُلْجيء إلى التكلف والتعسف وسخافة الاستدلال.

ولا يقبل منها ما كان يربط المتصل القريب ويقضب البعيد المحيط، وكان غير منسجم مع الجو العام للسورة.

وبعدما ننتهي من التماس المناسبات وربط الآيات بعضها ببعض، نعود إلى السورة مرة أخرى لنلتمس مقصدها، أو عمودها، الذي تدور السورة حوله بجميع أجزائها.

ولا يمكن الاطلاع على عمود السورة إلا بعد الاطلاع على تناسب أجزائها.

ثم مجرد الاطلاع على تناسب الأجزاء لا يكفي للتوصل إلى عمود السورة، بل يحتاج الباحث بعد ذلك أن يكرر النظر في جميع أجزاء السورة، ويطيل التأمل فيها.

ويحتاج كذلك إلى أن يستحضر في ذهنه مضامين السور المجاورة ومقاصدها، ويتأمل في الميزات والسمات التي تجمعها معها، أو تفرق بينها.

ومع ذلك كله يتضرع إلى الرحمن أن يفتح عليه من خزائن رحمته، ولا يحرمه من علم كتابه.

وقد يستغرق هذا التأمل المتكرر في مضامين السورة ومضامين جاراتها شهوراً وسنين، حتى إذا استيأس الباحث وظن أنه لن ينال ما كان يتطلع إليه جاءه النصر وانكشف له العمود.

وإذا انكشف العمود أضاءت له السورة كلها كفلق الصبح، وتجلّت له بأطرافها وأبعادها وهي تزخر بالمعاني والحكم.

ومما يجدر التنبيه إليه أن الاطلاع على تناسب أجزاء السورة كما يساعد في التوصل إلى عمودها، فكذلك العمود بعد وضوحه يبلور وجوه المناسبة بين أجزاء السورة.

فإن العمود - كما قدمت - يجعل السورة واضحة شاخصة، ويضيء جوانبها وأطرافها، وبذلك تتضح الأمور التي لم تكن واضحة قبل، وتسفر كما يسفر الصبح بعد ظلمة الليل.

وكلما ازدادت السورة وضوحاً وسفوراً، ازدادت وجوه المناسبة بين أجزائها وتكاثرت.

وقد يكون هناك - قبل أن يتضح العمود - ميلٌ أو غبش في الرؤية إلى وجوه المناسبة، ولكن إذا وضح العمود، وضحت السورة كلها، وتبين للباحث ما كان فيه من ميل أو غبشٍ في رؤيته.

يقول أستاذنا الفراهي (رحمه الله) وهو ينبه إلى خطورة شأن العمود، وإلى عزة حصوله وصعوبة مناله:

اعلم أن تعيين عمود السورة، هو إقليدٌ لمعرفة نظامها، ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص وترداد النظر في مطالب السور المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فتضيء به السورة كلها ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها»[١].

وكذلك الأمر في تأويل الآيات قبل وضوح المناسبة بينها، فقد يتصور الباحث أنه مصيب فيما ذهب إليه من تأويل الآية أو الآيات. ثم إذا ظهرت له المناسبة بينها تبين أنه كان مخطئاً في ظنه، وأن تأويل الآية على غير ما ذهب إليه.

وبالجملة فهذا المنهج يعتمد على ثلاث مراحل،

أولاها: التأكد من صحة تأويل الآيات، يعرضه على المعايير العلمية الدقيقة الثابتة.

والمرحلة الثانية: التماس المناسبة بين الآيات وبين أجزاء السورة وفقراتها.

والمرحلة الثالثة: استخراج عمود السورة.

ثم هذه المراحل الثلاث، وإن كان يوجد بينها ترتيب إلا أن هذا الترتيب لا يظهر إلا في أول الطريق - وبعد ذلك تتداخل هذه الثلاث بعضها في بعض، وتتعاون فيما بينها وتتعاضد - كما بيناه آنفاً - حتى تتحقق الغاية المنشودة، وتقرّ بها عين الباحث بإذن الله.

وبعد: فهذه دراسة موجزة لتفسير البقاعي ومنهجه في تناول علم المناسبات.

وتلك لمحات سريعة إلى المنهج الذي ستمثله هذه الرسالة المتواضعة بإذن الله.

---

(١) دلائل النظام: ص٧٧.

والفرق بين المنهجين واضح شاخص، وكفى به مبرراً لاختياري لهذا الموضوع.

* * *

تنبيه هام:

وقبل أن أختم هذا الحديث أود أن أنبه إلى أمر لا بد من التنبيه إليه، وهو أنني ما نهضت لهذا العمل العظيم الجليل ثقة بحولي وقوتي، فكلي ضعف وعجز وانكسار. ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإنما عدتي وزادي في هذا الطريق هو الثقة بالله والتوكل على واسع رحمته وعظيم فضله.

فسأبدأ مسيري هذا متضرعاً إليه جل شأنه أن يعلمنا من كتابه ما جهلنا، ويفتح علينا من كنوزه ما خفي عنا، ولا يَكِلْنا إلى أنفسنا طرفةَ عين فنهلك، وأعطي العهد من نفسي أنني لن أخط فيه كلمة إلا إذا انشرح لها صدري وتأكد لدي أنها مما أفاضه ربنا من فضله، وأما إذا ارتج عليّ واستغلق عليّ شيء من كلام ربنا فلن أتكلف القول هناك، ولن أتعسف في تأويله، بل أعترف على نفسي بالعجز وأقر بالجهل.

ولكن إذا عجزنا عن اكتشاف النظام في آية أو سورة أو مجموعة من الآيات، أو مجموعة من السور فلن يكون ذلك دليلاً على انتفائه وعدم وجوده، وإنما يكون دليلاً على عجزنا وقلة علمنا وقصور فهمنا فقط، فإن العجز عن إدراك حقيقة لا يكون دليلاً على انتفائها، وإنما يكون دليلاً على العجز عن إدراكها فقط.

ومثله في هذا كمثل ما يحدث معنا في هذا الكون، حيث أن هذا الكون كتاب الله المنظور كما أن هذا كتاب الله المتلو، وبينهما شبه كبير.

فكم من الحقائق في هذا الكون لم تنكشف على مَنْ قبلنا، وانكشفت علينا اليوم!

وكم من الحقائق في هذا الكون لم تنكشف علينا اليوم وستنكشف على مَنْ يأتون بعدنا.

فإن لم تنكشف هذه الحقائق على مَنْ قبلنا بالأمس، أو لم تنكشف علينا اليوم، ولم يكن ذلك دليلاً على انتفائها وعدم وجودها، فكيف يكون ذلك دليلاً على انتفاء النظام في كتاب الله، إن لم ينكشف شيء منه علينا اليوم، أو لم ينكشف شيء منه على من قبلنا؟

وهذه نكتة لا بد أن ننتبه لها.

فالغفلة عن هذه النكتة هي التي حملت بعض الناس على إنكار النظام في القرآن، كما حملت بعضهم الآخرين على التكلف والتعسف في أمره، حيث أنهم ظنوا أنهم اعترفوا على أنفسهم بالعجز عن إدراكه في أي موضع من القرآن. يكون ذلك حجة تحصيلهم عليهم.

ولا شك أن موقفهم هذا أصبح ضرراً عليهم، ويا حبذا لو أنهم قالوا بوجود النظام في القرآن وأردفوه بأن وجوده في جميع القرآن لا يستلزم أن ينكشف عليهم في جميع القرآن، فقد ينكشف عليهم في موضع ولا ينكشف في آخر.

فما انكشف فهو فضل من الله ونعمة، وما لم ينكشف هو راجع إلى قلة علمهم وقصور فهمهم. وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء] ولو أنهم قالوا ذلك لكان أولى بهم وأجدر وكان أقوى لموقفهم وأثبت لحجتهم، ولكنهم - والله يسامحهم - فعلوا ما كان ضرره أقرب من نفعه!

هذه وجهة نظري في هذا الموضوع، وسألتزم بها التزاماً في عملي هذا بإذن الله.

وبعد هذه الكلمة القصيرة المتواضعة أقبل إلى ثلاث سور عظام من سور القرآن، لأكشف القناع عن نظامها ونظام آياتها وأميط اللثام عما أودع الله - سبحانه وتعالى - فيها عن طريق حُسْنِ نظامها من خزائن العلم وكنوز الحكمة.

سائلاً ربي ومولاي أن يسدد خطاي وينور قلبي ويلهمني رشدي وصوابي، ويأخذ بناصيتي إلى ما يرضيه عني، فهو وليي ومولاي، فنعم المولى ونعم النصير.

الباب الأول
نظام سورة الفاتحة

الفصل الأول
على هامش السورة

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

تلك سورة الفاتحة - السورة التي يرددها كل مسلم في كل ركعة من صلاته في ليله ونهاره.

ألا ما أعظمها من سورة وما أجلَّها!! فقد سماها النبي ﷺ أعظم سورة في القرآن(١).

وقد روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً(٢) من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم»، فسلَّم وقال: «أَبشِرْ بنورين أُوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»(٣).

ثم ما أَحبَّ هذه السورة عند ربنا وما أعظمها!! وما أشرفها وما أكرمها!!، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ولعبدي ما سأل..

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فاتحة الكتاب ٦/١٠٣.

(٢) (نقيضاً) أي: صوتاً كصوت الباب إذا فتح.

(٣) صحيح مسلم، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، رقم الحديث (٨٠٦) ١/٥٥٤.

فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي.

وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

قال: مجّدني عبدي. (وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي).

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[١].

هذان حديثان من بين أحاديث كثيرة في هذا الموضوع، وناهيك بهما دلالة على شرف هذه السورة، وعلى خطورة شأنها وجلالة قدرها.

فلعمري إن المسلم الواعي إذا اطلع عليهما لم يملك إلا أن يخر ساجداً أمام ربه مُفعَماً بعواطف الشكر والامتنان على عظيم فضله علينا وبالغ تكريمه لنا بهذه السورة العظيمة، كما وجد في نفسه دافعاً قوياً إلى أن يقف عندها طويلاً وينعم فيها النظر متدبراً لمعانيها، باحثاً عن سر مكانتها وجلالة قدرها.

والحق أننا كلما أطلنا الوقوف عندها رأينا من شأنها عجباً.

فمن عجيب شأنها - مثلاً - أن هذه السورة القصيرة الوجيزة، التي لا تزيد على سبع آيات قصار، صورة مصغرة للصلاة وبرنامج كامل لها، بالإضافة إلى أنها روحها وبهاءها وسندها وعمادها ومادتها الحقيقية التي لا صلاة بدونها حيث قال - عليه

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم الحديث (٣٩٥) ٢٩٦/١.

السلام -: «لا صلاةَ لمنْ لم يقرأ بفاتحةِ الكتاب»[1].

وبعبارة أوضح: فالصلاة بجميع أركانها من قيام وركوع وسجود وقعود تفسير عملي لهذه السورة، ولعل هذا هو السر في أن الله تبارك وتعالى سمى هذه السورة (الصلاة) حيث قال - عَزَّ من قائل - في الحديث القدسي الذي مر بنا آنفاً: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين).

ومما يثير إعجابنا أن السورة نفسها أرشدتنا إلى هذه الحقيقة الغالية.

أرشدتنا إليها بنظمها وموقعها من السورة التي تليها.

فإن أول سورة وضعت في المصحف الكريم هي سورة الفاتحة، وأول عبادة ورد ذِكْرها في صفات المتقين هي فريضة الصلاة، حيث قال تعالى في مستهل السورة التي تليها وهي سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ۝٣﴾ [البقرة].

هذا النظم يشد انتباهنا ويوحي إلينا بأنه لا بد أن يكون هناك سبب ونَسَبٌ بين هذه السورة وبين فريضة الصلاة.

والمتأمل في هذا النظم يجد - فعلاً - مناسبة قوية بين هذه السورة وبين الصلاة، بل إنه يجد بينهما مناسبات متعددة من جهات مختلفة، حتى إن السورة لتكاد تصبح كأنها هي الصلاة، لشدة ما بينهما من صلة وقربى.

فنجد - مثلاً - حين نتأمل في هذه السورة الكريمة أن الآيات الثلاث الأولى التي هي عبارة عن الحمد والثناء والتمجيد ناظرة بمضمونها إلى ركن القيام الذي هو - في حقيقته - حمدٌ وثناء وتمجيد، فإن القيام قوامه قراءة القرآن وهو كله حمد وثناء وتمجيد. ثم الآية الرابعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نصفها ناظرٌ إلى الركوع ونصفها إلى السجود. فالركوع يكون لله والسجود للعبد، حيث إن الركوع عبارة عن عبادة الله وتعظيمه والتسبيح له والثناء عليه، والسجود عبارة عن الدعاء والاستعانة وإظهار العجز والافتقار إلى الله، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظِّموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر. ١/ ١٨٣.

فاجتهدوا في الدعاء فَقِمنٌ أن يُستجابَ لكم»[1].

ثم الآيات الثلاث الأخيرة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ ناظرة إلى القعدة التي هي تمام الصلاة والتي هي - بطبيعتها - أقرب ما تكون إلى السجود حيث أن كلتا الحالتين حالة دعاء وتضرع ورجاء واستعانة كما ورد عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ علمهم التشهد ثم قال في آخره: «ثم يتخيَّر بعد من الدعاء»[2].

وفي رواية البخاري: (ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو)[3].

وفي روايات لمسلم: (ثم يتخير من المسألة ما شاء)[4].

ثم التشهد نفسه أقرب ما يكون في مضمونه إلى الآيات الثلاث الأخيرة، فهذه الآيات الثلاث تعبير بليغ عما تهيج به قلوب المؤمنين من حنين وشوق إلى الذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين. وفي التشهد أيضاً نعبر عن نفس المعاني حين نزف السلام إلى عباد الله الصالحين وعلى رأسهم سيدنا رسول الله ﷺ.

وكان من حسن الأدب أن يبدأ هذا السلام على الصالحين بإزجاء التحية لله رب العالمين فنقول: (التحياتُ لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله).

وعلى هذا، فالآيات الثلاث الأولى حمد وثناء وتمجيد، وهي ناظرة إلى ركن القيام الذي هو حمد وثناء وتمجيد، والآيات الثلاث الأخيرة دعاء وتضرع وحنين إلى الصالحين وهي ناظرة إلى القعدة، التي هي دعاء وتضرع وحنين إلى الصالحين.

والآية الرابعة نصفها عبادة وتعظيم وهو ناظر إلى الركوع، الذي هو عبادة وتعظيم، ونصفها الأخير رجاء وتضرع واستعانة، وهو ناظر إلى السجود، الذي هو رجاء وتضرع واستعانة.

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود. رقم الحديث (٤٧٩).

(٢) و (٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة. ١/٣٠٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد. ١/٣٠٢.

ومما نستأنس به في هذا المقام ما ورد في الروايات من أن النبي ﷺ كان يقول إذا رفع رأسه من الركوع:

(ربَّنا لكَ الحمد، مِلْءَ السموات والأرض وملءَ ما شئت من شيء بعد، أهلَ الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلنا لك عبدٌ، اللهم لا مانع لما أعطيتَ ولا مُعطيَ لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجد..)[1].

فنرى هذه الكلمات الندية المأثورة وردت على نفس الترتيب الذي نلاحظه في سورة الفاتحة، كما أنها تحمل نفس الإيحاءات التي تشتمل عليها تلك السورة.

فقوله - عليه السلام: (ربنا لك الحمد، ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد) ناظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله - عليه السلام -: (أهلَ الثناء والمجد) ناظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ حيث مر معنا في الحديث القدسي:

(وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال الله: مَجَّدني عبدي).

وقوله عليه السلام: (أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطيَ لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد) ناظر إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهذه الكلمات كان يلهج بها النبي ﷺ بعدما يرفع رأسه من الركوع، فأودع فيها بأسلوب عجيب وبلاغة معجزة مضمون الآيات التي تتعلق بالقيام والركوع والسجود، حيث أنه انتهى من القيام والركوع وهو متهيىء للسجود.

فهذه ناحية عجيبة من نواحي عظمة هذه السورة، وبذلك يتضح تماماً أن هذه السورة هي سورة الصلاة، بل هي نفس الصلاة، وكل صلاة لم يُقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج!!

هذه ناحية. وهناك نواح أُخَر عجيبة تشتمل عليها تلك السورة، وهي لا تنكشف إلا لمن يتدبرها ويمعن النظر فيها ويتأمل في نظام آياتها ورباط معانيها.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة. باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم الحديث (٤٧٧).

وسنحاول بإذن الله في الفصول الآتية أن نميط اللثام عن بعضها، متضرعين إلى الله أن يفتح علينا من أسرار كتابه ونفائس حكمه وكنوز معانيه. إنه سميع قريب.

* * *

الفصل الثاني
عمود السّورة

إن هذه السورة الكريمة، وإن كانت زاخرة بمعان وحكم جمّة إلا أن هدفها الأساسي وقطب رحاها، هو العهد والميثاق.

عهد وميثاق يؤكِّده الرجلُ المسلم لربه على العبادة الخالصة المطلقة، والإنابة الكاملة الصادقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فهذه الآية - إياك نعبد وإياك نستعين - ليست في الواقع إخباراً عن الواقع، بل هي عهد وميثاق للمستقبل أكثر مما هي إخبار عن الواقع.

وهذا العهد له أسلوبه المتميز وطابعه الخاص.

فهو عهد يجيش به قلب مفعم بمشاعر الحمد والثناء.

وهو عهد تنطق به روح فائضة بحب الله، حريصة على مرضاة الله.

وهو عهد منبعث من تلك الكلمات الودودة الرقيقة الخاشعة المباركة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

وعلى هذا فإن هذا العهد يكون قد سِيطَ من دمِ صاحبه، ويكون له طُهره ونزاهته ويكون مأموناً من أن يعتريه نقض أو نقص.

ثم يتبع هذا العهد دعاءٌ حارّ واستعانة ضارعة للاستقامة على هذا العهد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وهذا ضمان آخر لمتانة هذا العهد وقوته واستحكامه، فإنَّ العهد إذا كان ناشئاً من قلب مُفعمٌ بعظمة الله - سبحانه وتعالى -، وجلاله وكبريائه ثم انضمّت إليه الاستعانة به وطلب التوفيق منه، فهو عهد قد استكمل مقوماته، وهو مضمون من جميع جهاته.

وما أبعد الفرق بين عهد كهذا وعهد يؤخذ من قوم، ثم هم لا يلبثون أن ينبذوه

وراء ظهورهم، كما حصل مع اليهود مرات ومرات، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة].

ولما كانت هذه السورة سورة عهد وميثاق، وهي سورة الصلاة كذلك، بحيث أن الصلاة لا تستقيم بدونها، أُعطيت الصلاة حكمها، ووصفت بوصفها، واعتبرت عهداً وميثاقاً، كما أن هذه السورة عهد وميثاق حيث قال - عليه الصلاة والسلام:

(العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)[١].

ومن ثم نرى من خصائص هذه الأمة الخيرة المباركة أنها تجدد عهدها مع ربها في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة على الحد الأدنى، وإلى غير حد إذا كان الرجل من تلك الثلة المباركة التي تجد أُنسها وراحتها في الصلاة.

ولا شك أن هذه مفخرة لهذه الأمة ومن مزاياها، فقد سبقها أقوام كانوا يتبجحون ويتبذخون بتمردهم واستكبارهم أمام ربهم، وكان من دأبهم - قاتلَهم الله - أن ينقضوا مواثيقهم في كل مرة، ويقولوا بكل خبث وكل وقاحة: سمعنا وعصينا!!!

* * *

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء في ترك الصلاة، ٥/ ١٤، رقم الحديث (٢٦٢١).

الفصل الثالث

وجوه الربط بين الآيات

حينما نتأمل في هذه السورة الكريمة ورباط معانيها لانقضى منها العجب، آياتها متعانقة، متشابكة بعضها مع بعض بشكل يأخذ باللب، يقرأها القارىء فينساق من آية إلى آية بدون أن يشعر فيها بشيء من تنافر أو تَجافٍ، بل إنه يشعر أن كل كلمة من كلماتها صادفت موضعها بحيث لا تبغي عنه حِوَلاً، فهي مشدودة إلى ما قبلها وما بعدها، كالبنيان المرصوص يشد بعضُه بعضاً.

ولا بأس بأن نقف هنا وقفة، ونرى ما في هذه الآيات من تآلف قوي وتناسق عجيب.

تبدأ هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

و(الحمد) له دلالات واعتبارات:

فهو يُستعمل مثلاً في معنى الشكر على حصول نعمة، أو تحقق رغبة، أو انجلاء كربة، كما نرى بالترتيب في الآيات التالية:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون].

وأيضاً تستعمل كلمة (الحمد) عند ظهور سنة الله الحكيمة العادلة في هذه الدنيا، حيث يهلك المجرمون بعذاب الله ويفرح المؤمنون بنصر الله، كما تستعمل هذه الكلمة في سياق الدينونة الكبرى، حين يفصلُ الله بين العباد، فيحشر المؤمنين إلى النعيم ويسوق الكافرين إلى الجحيم:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر].

ويَطَّرِدُ استعمالُ (الحمد) كذلك في موطن إثبات الكمال والعزة والملك لله - سبحانه وتعالى - كما نرى في هذه الآيات:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحديد].

ويتبادر إلى الذهن بعد التأمل أن كلمة (الحمد) في قوله تعالى في بداية سورة الفاتحة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تحتوي هذه المعاني كلها. فلننظر كيف اختار الوحي الكريم لهذا الموطن ثلاثَ صفاتٍ من صفات الله الحسنى، بحيث تيسر بها استيعاب معاني (الحمد)، ثم التدرج بها إلى معنى يخدم جو السورة بكل دقة وأمانة، وتلكم الصفات هي:

﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾.

فالصفة الأولى ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ صفة جامعة شاملة مثل كلمة (الحمد) وبالتالي هي تغطي جميع جوانب الحمد، وتستوعب كافة أطرافها. فهي تشمل - مثلاً - أصنافَ النعم كلها صغيرِها وكبيرِها، كما نرى ذلك واضحاً في الآيات التالية:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه].

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء].

وأيضاً تشمل هذه الصفة معنى الملك، والكمال، والعزة، والغنى، كما يتجلى ذلك في تلك الآيات:

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام].

فإذا كان الله هو رب العالمين - ربُّ العالمين، بمدلولهِ الواسع الشامل الكامل، وهو الذي يتصف بتلك الصفات العظيمة دون غيره، فمن يكون له الحمدُ، إذا لم يكن له - سبحانه وتعالى -؟

ثم تتبع هذه الصفة الصفة الثانية ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

ومدلول الرحمة وإنْ كان داخلاً في صفة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما رأينا آنفاً، إلا أن الوحي أراد أن يبرز هذا الجانب، ويلفت الانتباه إلى أكبر مظهر من مظاهر الرحمة، وإلى أعظم نعمة خُصَّ بها الإنسان من بين سائر الأجناس، ألا وهي نعمة الهداية، ونعمة الرسالة، ونعمة الوحي، ونعمة الكتاب.

والجدير بالذكر أن هذه الصفة الكريمة - صفة (الرحمن) المشفوعة بصفة (الرحيم) - لا تُذكر إلا في موطن الوحي والرسالة، كما قال تعالى:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت].

ولقد جاءت هذه الصفة ما عدا ذلك في ثلاثة مواضع:

١ - ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة].

٢ - ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النمل].

٣ - ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر].

أما الآية الأولى فقد سبقتها هذه الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة].

وبعد هذه الآيات جاءت تلك الآية:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة].

ولا يخفى على المتأمل في هذه الآيات أن الآية الأخيرة جاءت بعد التنديد على ناس يكتمون ما أُنزلَ إليهم من البينات والهدى ويريدون بذلك أن يعيقوا مسير هذه النبوة المباركة، جاءت هذه الآية لتنصح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويثوبوا إلى رشدهم ويُنيبوا إلى إلههم، الذي لا إله إلا هو، فقد طال شقاؤهم بسبب إعراضهم عنه، فلينيبوا إلى ربهم وليؤمنوا بالرسالة التي ما جاءت إلا لتفتح عليهم أبواب الرحمة وتنزلهم في دار الكرامة.

وأما الآية الثانية فقد جاءت في الكتاب الذي أرسله سيدنا سليمان - عليه السلام - إلى ملكة سبأ يدعوها إلى الإسلام.

وأما الآية الثالثة فقد سبقتها هذه الآية:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

وبعدها جاءت تلك الآية لتقول للناس: إن هذا القرآن الذي تُعرضون عنه ليس إلا رحمة مهداة من الرحمن، فهل تريدون أن تحرموا أنفسكم إن كان الله يريد أن يسعدكم ويدخلكم في رحمته!!

ولعل هذه الصلة القائمة بين نعمة الهداية والرسالة وبين تلك الصفة الكريمة - صفة (الرحمن) المشفوعة بصفة (الرحيم) - هي التي اقتضت أن تتخلل سورَ القرآن كلها آيةُ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ حتى يستشعر المسلم كلما خلا بسورة من السور الكريمة أنه الآن موصولُ الحبل بربّه الرحيم، وبالتالي هو محظوظ بأعظم نعمة في هذا الكون فلا يجوز له أن يتهاون بها ولو طرفة عين.

وهذه الحكمة لا تتنافى مع الحكمة القائلة بأن آية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ وضعت بين السور للفصل بين سورة وسورة، فقد يتضمن الأمر أكثر من حكمة، وما أكثر ذلك في كتاب الله!

نعود إلى حديثنا الأول فنقول: إن هذه الرحمة المهداة في صورة الوحي والرسالات التي تشير إليها الآية الثانية: ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ تُشعرنا بضرورة وقوع يوم الدين ليتم جزاء مَنْ قابل هذه النعمة بالشكر والطاعة، وتَحمَّلَ في سبيلها ما تحمل وإليه يشير

قوله تعالى:

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ (١٢) ﴾ [الأنعام].

فوقوع يوم الدين نتيجةٌ حتمية لهذه الرحمة، وليس عذابُ الكافرين والمستكبرين إلا صورة من صور الإنعام على المتقين الخاشعين، كما نستوحي من قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [سبأ].

فجزاء المؤمنين هو الأصل في إتيان الساعة كما يشعرنا أسلوب الآية: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... إلخ ﴾.

وأما عذاب المعاندين فهو يأتي تبعاً لتكتمل العدالة وليتم الجزاء:

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [سبأ].

ومن هنا حَسُنَ موقعُ ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

بقي علينا أن نبين الفرقَ بين كلمتي الرحيم والرحمن، فإن هذا يكشف لنا جانباً آخر من حكمة النظام وروعة البيان.

ومن العجيب أن الناس قد تناولوا قديماً وحديثاً هاتين الكلمتين بالبحث والدراسة، وحاولوا أن يفسروهما ويبينوا الفرق بينهما، ولكن الأمر ما زال بحاجة إلى زيادة وضوح، فنقول وبالله التوفيق:

إن صيغة «فعيل» تدل - فيما تدل - على ثبوت الصفة ورسوخها واستمرارها في موصوفها كما نرى في مثل «كريم» و«آمين» و«لئيم».

ولقد سهل لنا الشاعر العربي مهمتنا حيث قال:

إذا هي لم تمنعْ برِسْلٍ لحومها ... من السيف لاقت حَدَّهُ وهو قاطع[1]
ندافع عن أحسابنا بلحومها ... وألبانها أن الكريم يدافع

(١) الرسل: اللبن. وقد أرسلَ القومُ، أي: صار لهم اللبنُ من مواشيهم.

ومَنْ يقترف خُلقاً سوى خلق نفسه   يدعه وتُرجعه إليه الرواجع[1]

فقد بين لنا الشاعر في مقطوعته حقيقة كلمة «الكريم» وما تحتويه من معاني الدوام والاستمرار والرسوخ وعدم التخلف في الكرم بحال من الأحوال، وبذلك بين لنا طبيعة هذه الصيغة - صيغة فعيل - في أغلب أحوالها.

وأما صيغة «فعلان» فهي تُشْرِبُ الوصفَ معنى الفيضان والغليان والهيجان، كما نرى في مثل «حرّان» و«غضبان».

فـ«الغضبان» - مثلاً - هو الذي يهيج غضبه فيملكه ويبلغ منه منتهاه، ولقد فسر لنا الشاعر العربي هذا اللفظ فقال:

فأقسمتُ ما جشّمته من ملمة   تؤودُ كِرامَ القوم إلا تجشّما
ولا قلت: مهلاً وهو غضبان قد غلا   من الغيظ وسط القوم إلا تبسّما[2]

ولقد بين لنا القرآن أيضاً هذه الكلمة حيث قال في قصة سيدنا موسى - عليه السلام-:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ [الأعراف].

ثم فسر ذلك الغضب وصوَّرَ مدى شدته وغليانه فقال:

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأعراف].

وبالجملة، فإن صيغة «فعلان» تدل على معنى الفيضان والغليان في الوصف دون معاني العمق والرسوخ والدوام والاستمرار، بخلاف صيغة «فعيل» فإن الأمر فيها على العكس.

وقد نستأنس هنا في تبين هذا الفرق بقول الخنساء رضي الله عنها وهي ترثي أخاها صخراً:

تَحسبهُ غضبانَ من عزِّه   ذلك منه خُلق ما يحولُ[3]

---

(١) الحماسة لأبي تمام (٢/ ٣٣١) رقم: ٧٥٣.
(٢) المرجع السابق (١/ ٤٨٨) رقم ٣٤٣.
(٣) ديوان الخنساء: ص١١٥.

فإنها ما جاءت بالشطر الثاني إلا لتعالج النقص الذي يوجد في الأول، فإنها أرادت أن تضيف إلى ما وصفت به أخاها من جلال المهابة وسطوة العز، معاني العمق والرسوخ والدوام والاستمرار.

هذا ما تيسر لنا في تحقيق الأمر عن صيغة «فعيل» و«فعلان». ويمكن أن نجزم على هذا الأساس بأن كلمة (الرحمن) تدل على فيضان رحمته - سبحانه وتعالى - وعمومها وشمولها وسَعتِها، فقد وسعت رحمتُه كل شيء. وأما كلمة (رحيم) فهي تدل على دوام الرحمة وثبوتها واستمرارها، فرحمته - سبحانه وتعالى - دائبة مستمرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة.

والآن نرتقي خطوة أخرى ونقول: إن رحمته - سبحانه وتعالى - إذا كان من شأنها الدوامُ والاستمرار فهي تستوجب - ولا شك - أن تتبعَ هذه الحياةَ الفانية حياةٌ باقية خالدة تستمر فيها رحمةُ الله لمن يستحقها ويرشح نفسه لها، وتظهر فيها - لمن يكون لها أهلاً - بمظهر أجمل وأشمل وأكمل. ومن هنا حسن أن تتلو الصفةُ الثانية الصفةَ الثالثة:

﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

وهنا يحضرنا ما ورد عن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث قال:

(قُدِمَ على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقتهُ ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترونَ هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا، والله! وهي تقدر أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها).

وقال - عليه السلام -:

(إن الله خلق يومَ خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباقَ ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطفُ الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة)[1].

ثم هناك جانب آخر، وهو أن صفة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ إنْ كانت تدل على دوام الرحمة واستمرارها فصفة (الرحمن) تدل - كما سبق آنفاً على فيضان الرحمة وشمولها وسعتها

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

وتدفقها بلا حدود ولا نهاية، وهذا لا يتهيأ أبداً إلا إذا اجتمعت الرحمة مع الملك الشديد، الواسع العريض المحيط، حتى يكون الأمر كما ذكره الله تعالى عن نفسه، فقال:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس].

ومن هنا تَضمَّنَ (الرحمن) معنى الملك الواحد القهار الذي تَعْنُو له الوجوهُ وتخضع له الجباه، ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة متكررة:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [مريم].

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ].

﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه].

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه].

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الملك].

فكلمة (الرحمن) في هذه الآيات كلها تتضمن - كما لا يخفى - معنى الملك العزيز الجبار، الذي لا رادَّ لأمرِه ولا معقب لحكمه، والكون كله خاضع لنظامه ورهن لإشارته.

ولعل هذا هو السر في أن صفة (الرحمن) أصبحت مختصة بالله - سبحانه وتعالى - دون صفة (الرحيم) فإنها تستعمل لله وللعباد، كما ورد في شأن الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة].

فإذا كانت صفة ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ تتضمن معنى الملك الواحد القهار، فلنعرفْ أن الملك والدين - وهو الحساب والجزاء - توأمان لا يفترقان، فالملكُ لا يَتم له ملكهُ إلا إذا

حاسب الرعيةَ على الطاعة والمعصية.

ومن هنا حَسُنَ أن تتلو صفةُ (الرحمن) صفةَ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فربنا الرحمن سيأتي بيوم يفصلُ فيه بين مَنْ أطاعه وشكر له وبين من عصاه وأعرض عنه.

ثم هو مالك يوم الدين، يملك أن يأتي بهذا اليوم إذا أراد، فيأذن له إذا شاءت حكمته، ويتصرف فيه كما أرادت قدرته، وليس لأحد أن يعارضه ويحول دون ما يريده.

فالمسلم يَخصُّ ربه بحمده وهو على بصيرة من أمره، ومطلع على أسمائه وصفاته، فإذا تذكر هذه الصفات الحسنى، وهي ملاكُ أسمائه وصفاته، لم يملك إلا أن يلقي بنفسه على عتبة جلاله وكبريائه، ويفرده بعبادته واستعانته كما أفرده بحمده، وثنائه، فذلك قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الآية جاءت في الوسط، فحلت محل واسطة العقد من هذه السورة، فالشطر الأول من هذه الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ختامٌ لما قبله من حمد الرب وتمجيده والثناء عليه، كما أن الشطر الثاني منها: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تمهيدٌ لما بعده من الدعاء والاستعانة وطلب الهداية من الله:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾.

ثم إن هذا الدعاء كما أنه عبارة عن الاستعانة، فهو في نفس الوقت مخ العبادة وجوهرها، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (الدعاء مخ العبادة)[(١)].

هذا ما تيسر لنا التوصل إليه من وجوه الربط بين آيات هذه السورة العظيمة المعجزة، فلله الفضلُ والمنة، وله الحمد في الأولى والآخرة.

ولعل فيه كفاية لإدراك ما تتميز به هذه الآيات الجليلة من ترابط متين وتعانق عجيب فيما بينها.

---

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/٤٥٦. رقم (٣٣٧١).

الفصل الرابع
ارتباط السورة بالتي بعدها

إن هذه السورة كما أنها تتسم آياتها بتشابك عجيب وارتباط قوي فيما بينها، فكذلك تمت بوشائج قوية متينة متعددة إلى السورة التي تليها، وهي سورة البقرة.

وستكون لنا بإذن الله محاولات متواضعة لإماطة اللثام عن بعض جوانبها، فنقول وبالله التوفيق:

إن النظرة المتأنية في هاتين السورتين تكشف لنا ستة وجوه بارزة من المناسبة بينهما، وهي كما يلي:

١- إن سورة الفاتحة سورة عهد وميثاق كما مضى معنا من قبل، وسورة البقرة تذكيرٌ بذلكم العهد والميثاق، وتقريع لمن ينقضونه، ولعل هذا هو السر في تكرار ذكر العهد والميثاق في هذه السورة.

ولا بأس بأن نذكر هنا بعض تلك الآيات، التي تساعدنا في تحديد هذا الاتجاه:

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة].

ولعل هؤلاء الآيات يكفين لإدراك ما أشرنا إليه من موضوع هذه السورة، وسيكون لنا كلام مستفيض حول هذا الموضوع إن شاء الله.

٢- جاء التنويه بشأن سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة معاً، وفي وقت واحد، وبأسلوب واحد، حيث روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال:

(بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فُتِحَ اليوم، لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أَبشِرْ بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أُعطيته»[(١)].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مناسبة تامة، وصلة وثيقة بينهما، فما أقربَ الشبه بين قوله تعالى في سورة الفاتحة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

وبين قوله تعالى في خاتمة سورة البقرة:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

(١) صحيح مسلم: باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، رقم الحديث (٨٠٦)، ١/ ٥٥٤.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

ففي أول وهلة يشعر القارىء، حينما يمر بهذه الآيات، أنها عهد خاشع واستعانة ضارعة بالله - سبحانه وتعالى -.

وبعبارة أخرى، فهي تفصيل لقوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

وهناك جوانب أُخر سنشير إليها في موضعها من سورة البقرة، إن شاء الله.

٣- سورة الفاتحة تعبير بليغ عن حرص المتقين على الإيفاء بعهودهم ومواثيقهم وعَضِّهم عليها بالنواجذ، بينما سورة البقرة تصويرٌ واضح فاضح لخيانة اليهود ونقضهم مواثيقهم.

٤- في سورة الفاتحة تَنفُّرٌ وامتعاضٌ شديد من الضالين والمغضوب عليهم، وسورة البقرة تُقلِّبُ صفحاتٍ من تاريخهم البغيض، وتُعدِّدُ الأسبابَ التي أدت بهم إلى ذاك الحضيض.

٥- في سورة الفاتحة حنين وشوق من المؤمنين إلى الانتظام في سلك من أنعم الله عليهم، وسورة البقرة تحمل إليهم البشرى بإتمام النعمة عليهم:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة].

٦- في سورة الفاتحة طلبٌ للهداية إلى الصراط المستقيم وسورة البقرة استجابة لذلك الطلب، حيث قال تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ [البقرة].

تلك ستة وجوه بارزة للمناسبة بين السورتين، ولا نقول إنها هي كلها، فقد تكون هناك وجوه، ووجوه! وعسى أن يفتحها اللهُ علينا فيما بعد، والله ولي التوفيق.

الفصل الخامس
موقع السورة من جملة القرآن

عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنتُ أصلي فدعاني النبي ﷺ فلم أُجبه، قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم، ثم قال:

ألا أُعَلِّمُكَ أعظمَ سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله، إنك قلت: ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن؟ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبعُ المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته[١].

وهناك يثور سؤال: فما هي الميزة التي تتميز بها هذه السورة دون غيرها حتى اعتُبرت أعظمَ سورة في القرآن؟

قد تكون هناك إجابات وإجابات على هذا السؤال، ولكن الذي يترجح عندنا هو أن هذه السورة - مع قصرها ووجازتها - تضمنت العلوم والمبادىء الأساسية التي عولجت في جميع القرآن، وبذلك صارت أم القرآن، وأعظم سورة في القرآن.

وعلى هذا فيسعنا كذلك أن نقول: إن سورة الفاتحة ديباجة القرآن، ومرآة القرآن، فالناظر المتأمل في هذه السورة لا يفوته أن يطلع من خلالها إلى جميع مطالب القرآن، أو يستحضر في ذهنه رؤوس المعاني التي جاء بها القرآن.

وهذا إجمال لا بد له من تفصيل، فنقول وبالله التوفيق:

الآيات الثلاث الأولى تحتوي ملاك الأسماء الحسنى كلها، وهي القدرة المطلقة، والحكمة العادلة، والرحمة الفائضة الغامرة غير المتناهية، وبذلك رسخت دعائم التوحيد وتَوطَّد بنيانُه، بينما انسدَّتْ منافذُ الشرك وتقلصت ظلاله، بالإضافة إلى أن هذه الآيات تثبت الجزاء وتزرع في النفوس الإيمان بالآخرة، كما سبق معنا من قبل.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فاتحة الكتاب ٦/١٠٣.

ثم الآية الرابعة تتضمن الإخلاص لله واللجوء إليه والاستعانة به والإنابة إليه.

ثم الآيات الثلاث الأخيرة:

* تعبير جميل عن الإيمان بالرسالات كلها، وعن الحنين إلى الرسل واتباعهم والاعتراف بفضلهم ومكانتهم.

* ودلالة واضحة على أن الهداية إلى الصراط المستقيم مَنوطةٌ بالأنبياء، والرسل، ومَنْ أراد الهداية بعيداً عنهم فقد ضلَّ الطريقَ وباء بغضب من الله.

* وبراءة كاشفة صارخة من أعداء الله وأعداء الرسل والأنبياء.

ثم هذه الآيات تدل بنظمها على مَسْلَبَةِ النعم أو على مصدر الخطر ومنشأ الفساد في هذه الأمة وهم اليهود والنصارى - قاتلهم الله - وتاريخُ المسلمين - على مر الدهور - حافلٌ طافح بما يصدق ذلك.

فتومىء هذه الآيات إلى موطن الداء، ومكمن الشقاء، وهو الانخداع بالضالين والمغضوب عليهم من اليهود والنصارى، مع التنبيه على قارورة الدواء وإبرة الشفاء، وهو اتباعُ صراطِ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وبالجملة فهذه السورة:

١- تتضمن مِلاكَ الصفاتِ الحسنى كلها.

٢- وترسي دعائم التوحيد وتَجتثُّ جذورَ الشرك.

٣- وتزرع في النفوس الإيمان بالآخرة.

٤- وتهيب بإخلاص العبادة لله والاستعانة به واللجوء إليه.

٥- وتذكر ما حصل بين العبد وربه من عهد وميثاق.

٦- وتُلهبُ في القلوب جذوةَ الحنين إلى طريق الأنبياء.

٧- وتنبه على موطن الداء في هذه الأمة.

٨- وتصف العلاج الواقي من ذلك الداء.

٩- وتُرغِّبُ في الحب والولاء للصالحين.

١٠- وتحذر من مصير الطغاة والمفسدين.

تلك عشرة كاملة، وتلك هي المبادىء الأساسية أو المعارف الأصولية، التي فُصّلت تفصيلاً في سائر سور القرآن. وهي - كما نرى - جاءت عفواً صفواً بدون تكلف ولا تعسف.

ثم هناك حِكَمٌ أخرى أُودعت في نظم هذه السورة، والاطلاع على هذه الحكم يزيدنا إيماناً بأهمية هذه السورة وعِظم شأنها، وجلالة قدرها، ويفتح علينا آفاقاً جديدة من مرامي هذه السورة وشمولها وسعتها.

فمن تلك الحكم التي تستنبط من نظم هذه السورة ما يلي:

١- أن من آداب الدعاء تقديم الحمد والثناء مع الاعتراف بالعجز والافتقار إلى الله - وهو كما لا يخفى من تمام الحمد والثناء - ثم التطرق إلى ما هو المطلوب، وكانت أدعية النبي ﷺ على هذا النمط، وبهذا كان يأمر أصحابه، حيث قال عليه الصلاة والسلام:

(الصلاةُ مَثنى مثنى، تَشهدُ في كل ركعتين، وتخشع وتضرع وتمسكن، وتقنع يديك - يقول: ترفعهما إلى ربك - مستقبلاً ببطونهما وجهك، وتقول: يارب، يارب! ومن لم يفعل ذلك فهو كذا وكذا. وفي رواية: من لم يفعل ذلك فهي خداج)[1].

وعن فضالة بن عبيد قال: بينا رسول الله ﷺ قاعداً إذ دخل رجل فصلّى، فقال: اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: (عجلتَ أيها المصلي، إذا صليتَ فقعدتَ فاحمد الله بما هو أهله، وصلِّ عليَّ ثم ادْعُه)، قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: (أيها المصلي، ادعُ تُجَبْ)[2].

٢- أَحقُّ ما يطلبه العبد من ربه هو الهداية والتوفيق، ولذلك تَلقَّينا، أول ما تلقينا من ربنا، هذا الدعاء: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.

٣- الهداية إلى الصراط المستقيم هي باب الرحمة ومفتاح النعمة، ومن ابتعد عن الصراط فلا جرم أن سائر النعم تنقلب وبالاً عليه.

٤- الرحمة من أبرز صفات الرب، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴿١٥٦﴾﴾

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في التخشع في الصلاة، ٢/٢٢٥-٢٢٦. رقم الحديث (٣٨٥).
(٢) سنن الترمذي: ٥/٥١٦، كتاب الدعوات، رقم الحديث (٣٤٧٦).

[الأعراف] ولذلك وضعت هذه الصفةُ في غرة هذا الكتاب.

٥- من رحمته تعالى أنه سيأتي بيوم الدين، ثم هو الذي يتولى الحكم والقضاء، فلا يتكلم من يتكلم إلا بإذنه، ولا يقول من يقول إلا صواباً ولقد فصلت هذه النقطة فيما مضى.

٦- الأصل في المدح والثناء أن يكون بظهر الغيب، كما نرى في هذه السورة، فإنها كلها خطاب مباشر إلى الله تعالى غير ما فيها من الحمد والثناء، فإنه جاء بلفظ الغيبة، وهذا هو أقرب إلى الأدب والصدق والصفاء، وأبعد من الكذب والتملق والرياء.

٧- العبادة من تمام الحمد، ومَنْ تهاون بالعبادة وحرك لسانه بالحمد فهو كاذب في حمده.

٨- الاستعانة أيضاً من تمام الحمد ومن استعان بغير الله فهو كاذب في حمده.

٩-الاستعانة وإحساس الافتقار إلى الله هو جوهر العبادة، ومن استعان بغير الله فهو كاذب في عبادته، ومن هنا سُمّي الدعاءُ مخَّ العبادة.

١٠- الدعاء بعد العبادة أقرب إلى الاستجابة، ولذلك ورد أولاً التعهد بالعبادة والاستعانة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ ثم تبعه الدعاء، ومن هنا شرع النبي ﷺ أن يصلي العبد ركعتين ثم يطلب مبتغاه، فذلك أحرى أن يُستجاب.

فقد روي عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: قال رسول الله ﷺ: (من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ، فليحسن الوضوء ثم ليصلِّ ركعتين، ثم لِيُثْنِ على الله وليصلِّ على النبي ﷺ - ثم ليقلْ: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمةَ من كل برٍّ، والسلامةَ من كل إثم، لا تَدَعْ لي ذنباً إلا غفرته، ولا هماً إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتَها يا أرحم الراحمين[1].

وعن علي قال: كنتُ رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدّثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدّقته، قال: وحدّثني أبو بكر، وصدق أبو بكر، أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ - يقول: ما من عبدٍ يذنبُ ذنباً، فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا

---

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في صلاة الحاجة، ٢/٣٤٤ رقم الحديث (٤٧٩).

غفر له[1].

وتلك أيضاً عشرة كاملة، ومن يدري؟ فقد تكون هناك عشرات أخرى لم نصل إليها بعد، ولا يستوعبُ كلامَ ربك إلا هو.

فلننظر هذه السورة، مع قِصرِها ووجازتها - كيف جمعت في غضونها أصول معارف القرآن كلها. وبذلك استحقت - حقاً - أن تُسمى أم القرآن وأعظم سورة في القرآن.

وللإمام الفراهي - رحمه الله - كلمة جميلة في هذا الموضوع، ونرى من حقِّهِ علينا أن نسجلها هنا، يقول - رحمه الله -:

«إن هذه السورة ديباجة القرآن، وجامعة لعلومه الثلاث على الإجمال، ولذلك سماها العلماء مُوفية، ومن حيث أنها ديباجة القرآن وحاوية لجميع علومه هي قرآن مستقل كما أن ديباجة الكتاب من حيث أنها هي شيء زائد عليه.

وهذا إنما هو من جهة اعتبار واحد وإلا فالديباجة ليست إلا جزءاً من الكتاب، وذلك أمر استنبطه العلماء من القرآن، فإن الله تعالى تنبيهاً لعظيم مِنَّتِه على نبيه قال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر].

فانظر كيف سماها الله على حِدتها قرآناً عظيماً، كأن لهذه السبع شأناً على حدتها.

وإن قيل إن العطف ليس للتفسير بل المراد إنا أعطيناك هذه الآيات السبع ومعها القرآن العظيم، فعلى هذا التأويل أيضاً هي زائدة على القرآن العظيم، فإلى أي تقدير تذهب تجدها مستقلة وجامعة..» إلى أن قال - رحمه الله - «أما إنها كيف جمعت علوم القرآن، فالقرآن بحسب الإجمال يعطيك علوماً ثلاثة:

١- التوحيد. ٢- والشرائع. ٣- والمعاد.

وإذا فصلنا هذه الأمور بحيث تراها تَسَعُ جميعَ القرآن خرجنا عن هذا البحث إلى فضاء عريض، وسيظهر ذلك على من يتلو القرآن بالتأمل. ولا نقول إن بعض آياتها في التوحيد وبعضها في الشرائع وبعضها في المعاد على حدتها، فإن هذه العلوم فيها ممزوجة، فلا تراها مفترقة، والتوحيدُ كجلبابٍ أُسبلَ على السورة ثم تحتها الشرائعُ والمعاد.

---

(١) مختصر سنن أبي داود: باب في الاستغفار، ٢/١٥٢، رقم الحديث (١٤٦٥).

ومن هذا الذي قدمناه تبين لك حكمة وضع هذه السورة للصلاة، فإن الذي قرأ الفاتحة كأنه قرأ جميع القرآن إجمالاً، وبعد علم التفاصيل يُذكِّركَ الإجمالُ جميعها»[١].

هذا مما كتبه الإمام الفراهي - رحمه الله - عن هذه السورة ولا شك أن كلامه هذا بمكانٍ من الروعة والدقة والوجاهة، فجزاه الله عنا خير الجزاء وأوفاه.

ونرى الأمر قد بلغ غايته من الوضوح، وتجلَّتْ مكانةُ سورة الفاتحة وموقعها من جملة القرآن تجلياً كاملاً، فله الحمد أولاً وآخراً.

والآن نأتي إلى نقطة مهمة جداً وهي المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه، راجين من الله العون والتيسير، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

(١) تفسير سورة الفاتحة: ص٤١-٤٣.

الفصل السادس

المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه

قد يستغرب القارىء إذا رأى هذا العنوان، ويسائل نفسه بشيء من الاستعجاب:

فهل توجد مناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه؟؟

نحن نقول بدون أي تردد أو توقف: نعم، إي وربي، إن الأمر كذلك، وهو أوضح من أن يجحده جاحد أو يستريب فيه مستريب، فكلما نتدبر هذه السورة مع السور الأخيرة في القرآن لا نقضي منها العجب لشدة ما يوجد بينها من تناسق رائع والتحام عجيب فقد عاد الكلام على بَدْئِهِ بأسلوب تهتز له النفس وتهتز، وترتاح له أيما ارتياح.

لقد رأينا قَبلُ أن قطبَ سورة الفاتحة وعمودها هو قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾.

والآن سنرى في نهاية الشوط أن القرآن كيف عاد إلى هذه النقطة كرة أخرى، وتناولها بطريقة عجيبة وروعة فائقة.

فقد أقر المسلم هناك وأعطى العهد والميثاق أن يسلم نفسه لله، فلا يعبده إلا إياه ولا يستعين إلا به، وأعرب عن لوعته وحنينه إلى تلك النفوس القدسية التي آثرها الله بنعمته واختصها برحمته ورضوانه، كما أعرب عن ضجره وكراهيته لأولئك الأشقياء الذين حادوا عن الطريق وباءوا بغضب من الله.

والآن نرى في نهاية المطاف أن المسلم مطالَبٌ بأن يفاصل هؤلاء الأشقياء الكفار مفاصلة كاملة، ويصارحهم بضجره وكراهيته لهم ولما يعبدون من دون الله، ويكاشفهم بأنه لا يمكن أن يلتقي معهم في منتصف الطريق، أو يسالمهم في عقيدتهم وسلوكهم إلى أن يأتي وعد الله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون].

ويقرع أسماعهم بذلك العهد الذي أبرمه مع ربه حين قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

أي الذي أعبدهُ هو الله، الذي يتفردُ بهذه الصفات، وهي صفات لا بد من توافرها في الإله المعبود، فكان هذا تكملة للعهد الذي سبق في سورة الفاتحة، فإن الإقرار بعبادة الله وإخلاص النفس له يفقد اعتباره إذا بقي هو سراً بين العبد وربه، ولم يجهر به العبد على رؤوس الناس، ولم تصاحبه البراءة الصريحة المكشوفة من عبادة غير الله.

ثم جاءت المعوّذتان:

ومعلومٌ أن الاستعاذة أخت الاستعانة ونسيبها أو أنها شطر منها، فإن الاستعانة هي طلبُ العون للتخلص من عدو أو التوقي من فتنة.

فلما تقدم العبد المسلم إلى ربه بطلب العون في سورة الفاتحة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

استجاب الله دعاءه، وبين له الطريق، وبين له الشرائع، وبين له الأحكام، وبين له كل ما يساعده في عبادة الله وطاعته وابتغاء رضوانه.

ثم علمه، بعدما حمَّله الرسالة وأقامه على المحجة البيضاء، كيف يستعيذ بربه من الشرور والفتن، التي تحيط به من كل جانب وتريد أن تنقضّ عليه فتفسد عليه دينه وأمانته وتحرمه من السعادة، التي اختصّه الله بها:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق].

هذه الشرور - كما لا يخفى - شرور خارجية وظاهرة تقف للمسلم بالمرصاد، وتتوعده في كل حين بالدمار والهلاك، ثم تنقضُّ عليه انقضاضاً، إنْ لم تتداركه نعمة من ربه.

وهناك شرور خافية تدب في نفس الإنسان دبيب النعاس، وهي الوساوس، التي تتواثب على النفس وتسيطر عليها بحيث لا يكاد الإنسان يشعر بها، فتعمل في كيان الإنسان عملها وتجتاح دينه وأمانته إن لم يتيقَّظْ لها.

فتلك شرور داخلية علّمنا الله كيف نستعيذ منها:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس].

وهكذا يكون المؤمن في مأمن من الفتن كلها، ويكون مأموناً في دينه وأمانته، ولا يؤتى من داخله ولا من خارجه، إن لم يتوان في الاستعاذة بربه.

ولقد صدق نبينا ﷺ حيث قال منوهاً بشأن هاتين المعوذتين:

(ألم ترَ آياتٍ أُنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟ قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس)[1].

ومن بديع التناسب بين فاتحة الكتاب وخواتيمه أن الله سبحانه وتعالى وضع سورتين للاستعانة في أول القرآن، وسورتين للاستعاذة في آخر القرآن.

فخواتيم سورة البقرة كلها استعانة حارة ضارعة من العبد المسلم أمام ربه الكريم الودود:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

وخواتيم سورة آل عمران أيضاً جاءت تحمل نفس الروح وبنفس الأسلوب:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران].

لا نقول إن هاتين السورتين عمودهما الاستعانة بالله، وأنهما تدوران حول هذا الموضوع، لكنا نقول: إن تلك الآيات لها شأن خاص تتميز به دون غيرها، وهي تكاد

---

(١) صحيح مسلم: باب فضل قراءة المعوذتين، ١/٥٥٨، رقم الحديث (٨١٤).

تطبع السورتين بطابعها، ولن نبالغ إذا قلنا: إن تلك الآيات تبرق في السورتين كبريق الثريا في كبد السماء، أو كبريق الشمس في رابعة النهار.

ولقد جاءت أدعية أخرى كثيرة في سور أخرى متعددة، والأدعية كلها استعانة بالله، ولكن لهذه الآيات وضعاً يختلف عن البقية، وإن لها لشأناً لا يوجد في غيرها.

ثم إن الترتيب الذي نراه في الاستعانة والاستعاذة، حيث بُدىء القرآن بالاستعانة وختم بالاستعاذة، كان هو الترتيب المفضل من ناحية البلاغة، فإن الإنسان يكون في أول أمره بحاجة إلى الاستعانة بربه، ليعرف معالمَ الطريق ويعرف القاصد من الجائر، والقويم من الأعوج، وبعد ذلك يحتاج إلى أن يلجأ إليه ويستعيذ به من قطاع الطريق حتى لا تفوته الغاية بعدما عرف الطريق إليها.

وكما أن الصفات التي جاءت في سورة الفاتحة قبل قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ كانت ملائمة تماماً لموضوع العبادة والاستعانة، فإن الشعور بالربوبية العامة، والرحمة الشاملة الدائمة، والعدالة الخالصة البحتة هو الذي يهيب بالإنسان إلى إخلاص العبادة لله، ويغمر قلبه بالأمل الخاشع في عون الله.

فكذلك الصفات التي جاءت في سورة الإخلاص قبل المعوذتين منسجمة تماماً مع موضوع الاستعاذة بالله، فإن الصمدة في اللغة هي الصخرة الراسية في الأرض، وهي التي إذا لُذْتَ بها نجوتَ من مخاوف العدو، وكثيراً ما كانوا يلوذون بالصخور إذا دَهَمهم العدو.

ومن هنا سمّي سيد القوم صمداً، فإن القوم يلجأون إليه ويحتمون بحِماه إذا دهاهم أمر.

فالله هو الصمد، فإنه لا يملك أحد أن يكشف الضر ويرد المكاره إلا هو، وإذا فر الإنسان إليه ولاذ بكنفه واحتمى بحماه أَمِنَ المخاوفَ كلها، ولن يضره شيء في الأرض ولا في السماء، فهو الملجأ وهو المعاذ.

ولقد كثر في الكتب السماوية استعمال (صخرة) لله سبحانه وتعالى، وخاصة في مزامير سيدنا داود - عليه السلام - ولا بأس أن نذكر هنا بعض الأمثلة:

«أُحبك يا رب، يا قوتي، الربُّ صخرتي وحصني ومنقذي. إلهي صخرتي به

أحتمي. تُرسي وقرنُ خلاصي ومَلْجئي. أدعو الرب الحميد فأتخلص من أعدائي»[1].

«الله طريقه كامل. قول الرب نقي. ترسٌ هو لجميع المحتمين به، لأنه مَنْ هو إلهٌ غير الرب، ومن هو صخرة سوى إلهنا.»[2].

«حيٌّ هو الرب ومبارك صخرتي ومرتفع إله خلاصي»[3].

«لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مَرْضيةً أمامك، يا رب صخرتي ووليي»[4].

وأما بقية الصفات فمناسبتها مع موضوع الاستعاذة واضحة، فما دام أن الله أحد، وليس له ابن ولا أب، وليس له شبيه ولا عديل ولا نديد ولا نظير، فمن الذي يملك أن يتحدى قدرته أو يخفر جواره، أو يَمسَّ مَنْ يدخل في حِماه بسوء! فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه.

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة السور الأربع مع سورة الفاتحة، آن لنا أن نكشف القناع عن المناسبة بينها وبين سورتي النصر واللهب.

فالحقيقة أن سورتي النصر واللهب جاءتا استجابة للدعاء الذي تقدم به العبد المسلم بين يدي ربه الملك الرحيم في سورة الفاتحة، وهو قوله تعالى:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

والجدير بالذكر أن الترتيب الموضوعي في كلا الموضعين واحد، ففي سورة الفاتحة يُقِرُّ العبدُ أولاً بعبوديته الكاملة الخالصة من خلال قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

ثم يسأل الله أن يرزقه الاستقامة ويُلْحِقَهُ بمن استحقوا من النعمة ويجنّبه مَن اشتروا الضلالة بالهدى وباؤوا بغضب من الله. وبعبارة أخرى هو يسأل لنفسه العزة والنصرة والنعمة، ولمن ناصبه العداء التبابَ والعذاب والنقمة:

---

(١) المزمور الثامن عشر، آيات ١-٣.
(٢) المزمور الثامن عشر، آيات ٣٠-٣١.
(٣) المزمور الثامن عشر، آية ٤٦.
(٤) المزمور الثامن عشر، آية ١٤.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

فطولب المؤمن أولاً في سورة الكافرون بأن يتبرأ من أعداء الله ومما يعبدون من دون الله ويجهر بهذا العهد الذي أبرمه مع ربه ويصدع به أمام الناس حتى يتأكد صدقه مع الله.

وبعد ذلك تأتي الاستجابة لدعائه في سورة النصر في سورة الفتح والنصر:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾.

ثم تأتي سورة اللهب:

﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥ ﴾ [المسد].

وليست هذه السورة إلا تكملةً لسورة النصر، حيث أن الأولى تحمل إلى المؤمنين بشرى النصر والفتح بينما الأخرى جاءت تُؤذنُ بالويل والتباب لشانئيهم من أهل الكفر.

فهاتان السورتان تمثلان في مجموعهما قوله تعالى:

﴿ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ۝٨١ ﴾ [الإسراء].

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى أن هاتين السورتين تجمعان بين نعيم الدنيا والآخرة للمؤمنين، وخزي الدنيا والآخرة للكافرين. فسورة النصر تشير إلى النصر والتمكن للمؤمنين في هذه الدنيا، كما أن سورة اللهب تميل - في طبيعتها وجَوِّها - إلى سوء عاقبة الكفار في الآخرة، وتَمكُّنُ المؤمنين في الدنيا يستلزم هزيمة أعدائهم فيها، كما أن سوء عاقبة الكفر في الآخرة إيذان بحسن عاقبة الإيمان فيها.

والدعاء الوارد في سورة الفاتحة أيضاً جاء على هذه الشاكلة، فهو يشمل النُّعمى في الدنيا والآخرة، وبالتالي هو يتضمن سوء مصير أعداء الله في هذه الدنيا وفي الآخرة.

تلك لمحات سريعة إلى ما يوجد بين فاتحة الكتاب وخواتيمه من نظام متين وتلاحم قوي وتناسق عجيب!!

ولا نملك بعد ذلك إلا أن نحني رؤوسنا ونردد بكل خشوع ما قاله ربنا في وصف هذا القرآن:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء].

نعم، يا ربنا، إنه ليس في استطاعة أحد من الجن والإنس أن يأتي بمثل هذا القرآن، بل وليس في استطاعة أحد منهم أن يحيط بما فيه من دقة النظام وروعة البيان، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

* * *

الباب الثاني
نظام سورة البقرة

إن هذه السورة - كسائر أخواتها - نموذج رائع لحسن الارتباط في آياتها، وروعة التناسق فيما بين أجزائها، وذلك بالرغم من أنها لم تنزل جملة واحدة، بل نزلت على فترات زمنية متباعدة.

والفواصل الزمنية في النزول، وإن كانت طويلة مديدة إلا أنها لا تخلُّ أبداً بهذا الارتباط وذلك التناسق.

وسوف نتناول بإذن الله هذه السورة العظيمة من هذه الناحية جزءاً جزءاً، ونسعى جهدنا في إبراز ما تتمتع به من حسن التناسق وروعة التعانق.

فلنبدأ إذاً بما تستهل به هذه السورة العظيمة.

* * *

نظم الآيات (١-١٦)

قال تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

* * *

إن دراسة نظم هذه الآيات تلح علينا أن نستحضر أولاً تلك السورة التي مضت قبلها، وهي سورة الفاتحة.

لقد عرفنا في الباب السابق أن سورة الفاتحة هي سورة العهد والميثاق، الذي يتقدم به العبد المسلم بين يدي ربه بالعشي والإبكار، وتوثيق هذا العهد هو عمودها وروحها

الساري فيها.

ويظهر هذا واضحاً جلياً حين ننظر إلى موقعها من جملة القرآن، وموقعها من السور الأربع، التي تدور حول هذا العنوان، ولقد بينا ذلك فيما مضى وسنبينه فيما بعد بإذن الله.

ثم هناك وجه آخر يلمسه الناظر في هذه السورة حين يجمعها مع مطالع سورة البقرة، وهو أنها ترجمة رائعة لما كان يجده الصالحون من أهل الكتاب في صدورهم من تلهف واشتياق شديدين إلى الحق، فقد كانوا متمسكين ببقايا معالم الهدى وسنن الأنبياء، وكانوا متضجرين من أولئك الأحبار والرهبان، الذين طمسوا معالم الحق وباعوا دينهم بعَرَضٍ من الدنيا، فضلُّوا وأضلوا واستحقوا غضبَ الله.

فهم يتوسلون بعبادتهم إلى ربهم ويتضرعون إليه أن يرسل إليهم الكتاب الذي وعد به على لسان الأنبياء، ويأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم، الذي سلكه الصالحون من سلفهم ممن أنعم عليهم.

وهنا تجيء سورة البقرة، تحمل إليهم البشرى: أن الكتاب الذي أنزل على محمد هو ذلك «الكتاب» أي الكتاب الذي وعد به الله على لسان الأنبياء السابقين.

فهو ذلك الكتاب الموعود بالتأكيد، وليس هناك مجال لأن يستريب فيه مستريب:
﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ۝٢﴾

ويوحي إلينا السياق كذلك أن هؤلاء الصالحين من أهل الكتاب لما سمعوا بهذا الكتاب لم يتريثوا ولم يترددوا، بل لم يكن هناك أي فاصل زماني بين سماعهم بهذا الكتاب وبين إيمانهم به واستجابتهم له، فقد كانوا يتمتعون بخلال الخير، التي لا تدع صاحبها يتأخر أو يتردد إذا ظهر له الحق.

إن هذه الآيات تُذكِّرنا ذلك الحوارَ الذي جرى بين موسى وربه، فإن هناك شبهاً واضحاً بين هذا وذاك:

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ۝١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم

بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف].

فقد ذكرت هناك ثلاث صفات لهؤلاء الصالحين من أهل الكتاب الذين سينالهم نصيبهم من هذه الرحمة:

١- التقوى.

٢- وإيتاء الزكاة.

٣- والإيمان بالآيات.

وتلك عيون الصفات التي ذكرت في الآيات التي نحن بصددها من سورة البقرة، وما عداها فهي داخلة فيها حيث أنها من مستلزماتها.

وبعدما ينتهي السياق من ذكر تلك الصفات يأتي بهذه الآية مباشرة:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

وهذا الوضع إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصالحين من أهل الكتاب، الذين كانوا يتصفون بهذه الصفات، ما لبثوا أن آمنوا بهذا النبي حين سمعوا به، وكانوا في استعدادهم للإيمان كزيت يضيء ولو لم تَمْسَسْهُ نار، فهم سارعوا إلى الإيمان وتنافسوا فيه، ولم يكن دافعهم إلى ذلك إلا تلك الخلال التي كانوا يتمتعون بها من أول أمرهم.

ولقد أشاد القرآن بذكرهم في عدة مواضع، وذكر مسارعتهم إلى الإيمان بأسلوب يَطربُ إليه القلب وتهتز له النفس، وما أروع تلك المشاهد التي تعرضها هذه الآيات:

﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة].

﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ ﴾ [القصص].

وبالجملة فالأوائل الخمس من هذه السورة جاءت في شأن الصالحين من أهل الكتاب، وهي تشير بسياقها إلى شوقهم ولهفتهم ومسارعتهم إلى القرآن، كما تشير إلى ذلك الرصيد الطيب من الصفات، التي كانوا يملكونها والتي دفعتهم دفعاً إلى دائرة الإيمان.

وليس هذا بدعاً من القول، فقد كان في السلف مَنْ ذهب إليه، كما صرح بذلك الإمام ابن جرير - رحمه الله - حيث قال:

«وقال بعضهم: بل نزلت هذه الآيات الأربع في مؤمني أهل الكتاب خاصة»(١).

وقد نستأنس هنا بالأسلوب الذي نلاحظه في كلا الموضعين من هذه السورة ومن سورة الأعراف حيث إن آيات سورة الأعراف، التي وردت في شأن الصالحين من أهل الكتاب، ختمت بهذه الكلمات:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧ ﴾ [الأعراف].

وآيات سورة البقرة أيضاً ختمت بنفس الكلمات:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

وبعدما ينتهي النص من ذكر الصالحين من أهل الكتاب ينصرف إلى طواعيتهم مبيناً موقفهم من الكتاب:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾

هؤلاء زعماء اليهود وطواغيتهم، الذين ليس لهم همّ إلا أن ينفثوا السمّ ضد الإسلام، ويشعلوا نار الفتنة كي يطفئوا نور القرآن!

إن أمثال هؤلاء لا يجدي فيهم الإنذار، فقد عرفوا الحق وجحدوه واستحبوا الكفر

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن ١/١٠٢.

على الإيمان وآثروه!

إن أمثال هؤلاء ليس لهم إلا أن يعيشوا ما عاشوا على الكفر ويموتوا إذا ماتوا على الكفر، فقد عاقبهم الله على كفرهم بأن ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فلا رجاء في إيمانهم بعد أن تسببوا في إغلاق مداخل الإيمان ومنافذه وغدوا حبيسي كفرهم وظلماتهم.

ومما يؤيد هذا الرأي قول ابن عباس والكلبي حيث قالا عن هاتين الآيتين:

(نزلت في رؤساء اليهود: حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظرائهما)(١).

ومثله ما روي عن ابن السائب حيث قال:

(إنها نزلت في طائفة من اليهود ومنهم حيي بن أخطب)(٢).

وبعدما ينتهي النص من ذكر هؤلاء الطواغيت، ينصرف إلى ذكر المنافقين، الذين هم من أتباعهم وعملائهم داخل صفوف المسلمين:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

هؤلاء المنافقون أيضاً من اليهود، كما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآيات أنه قال:

(إنها في منافقي أهل الكتاب)(٣).

وقادتهم وشياطينهم هم الذين سَلفَ ذِكْرهم من اليهود، فهم الذين يخططون

---

(١) فتح القدير: ١/٣٩.
(٢) زاد المسير: ١/٢٧.
(٣) زاد المسير ١/٢٩.

لهم ويرسمون لهم الطريق، ثم يَدسُّونهم في صفوف المسلمين كي يخدموهم ويخدعوا المسلمين.

* * *

نظم الآيات (١٧-٢٠)

وبعدما ينتهي النص من ذكر هذه الطوائف الثلاث يتناول الطائفتين الأخيرتين بمزيد من الإيضاح، ويضرب لهما مثلين حتى تتجلى صورتهما بكل ما فيها من خُبث وفساد:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

* * *

هذان المثلان يتناولان الطائفتين الأخيرتين بالترتيب.

فالمثل الأول يتناول الطواغيت من اليهود، وهو يصور رجلاً استوقد النار لسيارة يتيهون في الظلام، وهو لم يستوقد هذه النار إلا لكي يدعوهم إليه ويُعِدَّ لهم طعاماً يُشبعهم ويغنيهم من جوع، ولكنهم لم يُلْقُوا له بالاً مع أنهم في أسوأ حالة وفي أمسّ حاجة إليه، إنهم آثروا البقاء في الحيرة والمسغبة على تلك الضيافة المهيأة، لا لسبب إلا لعنجهيتهم واستكبارهم وفسادٍ في طبيعتهم!

فهكذا حال هؤلاء الطواغيت، إنهم جاءهم الرسول بالهدى والنور وهم في أمسّ حاجة إليه، ولكنهم آثروا البقاء في الحيرة ودياجير الظلمة ولم تسمح لهم عنجهيتهم واستكبارهم بأن يلتفتوا إلى ذلك النور.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

وكلما ازداد هذا النور سطوعاً وتألقاً ازداد هذا النفر نفوراً وتنكراً، فلما أبى هذا النفر إلا نفوراً وتنكراً لهذا النور - نور الوحي ونور الهداية - ذهب الله بنورهم الذي أودعه في فطرتهم ليكون لهم دليلاً إلى هذا النور. وما ذهب بنورهم هذا، الذي قد أودعه في فطرتهم إلا لأنهم لم ينتفعوا به وعطلوه، وبذلك تركهم في ظلمات لا يبصرون، فلا رجعةَ لهم إلى الحق ولا أوبةَ لهم إلى الهدى ولا هداية لهم إلى النور!

وهنا يحضرنا ذلك الحديث الذي رواه الدارمي عن ربيعة الجرشي، قال:

(أُتي نبي الله ﷺ - فقيل له: لِتنمْ عينُكَ ولتسمع أذنك وليعقل قلبك. قال: فنامت عيني وسمعت أذناي وعقل قلبي. قال: فقيل لي: سيدٌ بنى داراً فصنع مأدبة وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يُجب الداعي لم يدخل الدار ولم يطعم من المأدبة وسخط عليه السيد، قال: فالله السيد، ومحمد الداعي، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة)(١).

والمثل الثاني يرسم حال الطائفة الثالثة وهي طائفة المنافقين.

إنه يرسم حالة الحذر والخوف الشديد. إنه يصور قوماً وقعوا في مطر شديد رهيب، مطر يصحبه رعد وبرق وظلام.

فكلما سمعوا جلجلة الصواعق ظنوا كأنها حلت بهم، وجعلوا أصابعهم في آذانهم، وهم خائفون وَجِلون من الموت، وإنْ لاح لهم البرق ارتجفوا وحسبوا أن سناه سيذهب بأبصارهم، وإذا أضاء لهم الطريق مشوا، وإذا خيّم عليهم الظلام وقفوا.

فما ظنك بقوم يقطعون طريقهم هكذا خائفين وجلين، يعبث بهم الجزع والفزع! لا يَقَرُّ لهم قرار ولا يهدأ لهم بال!

وهكذا حال هؤلاء المنافقين. إنهم اندفعوا إلى طريق الإسلام ولم يقدروا الموقف قبل أن يدخلوا فيه.

إنهم اقتحموا المعركة ولم يتزودوا من التقوى والثقة بالله ما يثبت أقدامهم، ويربط على جأشهم، فإذا بهم قد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر لشدة الموقف وهول المنظر!

إنهم لا يثقون بالله كما يثقون بأنفسهم وكياستهم، أو كما يثقون بمكرهم وحيلتهم، ويحسبون أنهم هم الذين ينجون بسمعهم وأبصارهم في جلجلة الصواعق ولمعان البروق.

ويا لسذاجة النفوس وغباوة العقول! فإن الله هو الذي يكلؤُهم ويحفظهم ويرعاهم من غير حول منهم ولا قوة، ولو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم، ولكن المنافقين لا

---

(١) سنن الدارمي: باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه، ص٧.

يفقهون، فهم مترددون بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، تقودهم المصلحة مرة إلى هؤلاء وأخرى إلى هؤلاء.

وهكذا هم دائماً في قلق واضطراب، مذبذبين بين المعسكرين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

فالمثل الأول يوحي بالعنجهية والاستكبار والإباء والتمرد، وهو يتناسب مع حال الطغاة من اليهود.

كما أن المثل الثاني يوحي بالوجل الشديد والخوف المستمر والحذر الدائم وهو يتناسب مع حال المنافقين المخادعين.

ولقد روى الإمام ابن جرير - رحمه الله - أن قتادة وابن جريج - رحمهما الله - كانا يتأولان قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أن ذلك من الله - جل ثناؤه - صفة للمنافقين بالهلع وضعف القلوب وكراهة الموت. وكانا يتأولان في ذلك قوله تعالى:

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون][(1)].

ويقول الفراء - وهو يذكر معنى الآية:

«قيل إن الرعد إنما ذكر مثلاً لخوفهم من القتال إذا دُعوا إليه. ألا ترى أنه قد قال في موضع آخر: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يظنون أنهم أبداً مغلوبون[(2)].

ومن هذا التفصيل يتبين ضعف الرأي الذي يربط كلا المثلين بالمنافقين وأحوالهم، فإن هذا الرأي خلاف ما يمليه علينا السياق.

والذي يمليه علينا السياق هو ما عرفناه من أن المثل الأول يتناول الطائفة الثانية من طواغيت اليهود وشياطينهم والمثل الثاني يتناول الطائفة الثالثة من المنافقين المخادعين.

وكان الدكتور عبدالله دراز - رحمه الله - موفقاً كل التوفيق، حيث قال وهو يناقش هذا الرأي:

«لعلك ترى هنا شيئاً من المخالفة لكلام المفسرين، إذ جعلوا المثلين كليهما

---

(١) تفسير الطبري: ١/ ١٥٧.

(٢) معاني القرآن للفراء: ١/ ١٧.

راجعين إلى المنافقين خاصة، وجعلناهما موزعين على الطائفتين، نشراً على ترتيب اللف، ولكنك إذا رجعت بنفسك إلى أجزاء المثلين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده. فهؤلاء القوم الذين ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ أليسوا هم أولئك القوم الذين ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة]. وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب هل ترى فيها تصويراً لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير، وكذلك ترى في المثل الثاني قوماً لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب. وهذا مناسب لقوله في المنافقين ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة] فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلي على القلوب والحواس.

نعم يمكن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيح إذا ضممنا إليه ضميمة، ذلك بأن نقول إن المثل الأول يصور حال المنافقين في بواطنهم وهو الأمر الذي يشاركون فيه سائر الكفار، والمثل الثاني يصور حالهم في ظواهرهم، وهو الأمر الذي يتقلب عندهم بتقلب الدواعي، لأن تقلبهم إنما هو في الظاهر لا في الباطن، غير أن هذه الدعوى أيضاً محل نظر، إذ ما يدرينا لعل نوع الكفر الذي يبطنه المنافق نوع خاص يتقلب فيه قلبه بالشك والتردد، وأن هذا الاضطراب الذي نشاهده على حركاته الظاهرة في أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسي الذي يحس به هو في دخيلته بخلاف النوع الأول، وهو كفر المجاهرين، فهو طبيعة واحدة مصممة، حسبما تشهد به وحدة آثاره[1].

* * *

نظم الآيات (٢١-٢٩)

وبعدما ينتهي السياق من تمثيل هؤلاء وهؤلاء يأخذ القوم بالنصيحة والموعظة الحسنة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ

(١) النبأ العظيم ص١٦٨-١٦٩ بالهامش.

﴿فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾

* * *

من هم المعنيون بـ(الناس) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؟ وإلى مَنْ يتوجه الخطاب في هذه الآية؟

للناس في ذلك أقوال، ولكن الذي يرجحه السياق ونظم الآيات هو أن الخطاب موجه إلى الطائفة الثالثة الأخيرة، وهي طائفة المنافقين من اليهود، فإن الطائفة الثانية من طواغيت اليهود قد ختم على قلوبهم وسمعهم وقد عميت أبصارهم، فتوجيه الخطاب إليهم أشبه شيء بنفخ في رماد أو صيحة في واد.

ولعل هذا هو السر في أن القرآن يقف منهم دائماً موقف التبكيت والإعراض.

فالخطاب هنا موجه إلى هؤلاء المنافقين المتأرجحين بين الإسلام والكفر، وجه الخطاب إليهم حتى يراجعوا أنفسهم ويعبدوا ربهم الذي خلقهم.

و(العبادة) هنا الطاعة كما روي عن ابن عباس في أحد قوليه(١).

و(الأنداد) هم أئمة اليهود وطواغيتهم، الذين يمتطون هؤلاء المنافقين ويوحون إليهم زخرف القول غروراً.

ومثل ذلك روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - في تفسير الأنداد حيث قال: «أكفاء من الرجال يطيعونهم في معصية الله»(٢).

وقال السدي: «رجال كانوا يطيعونهم في معصية الله»(٣).

فقيل لهؤلاء القوم: إن كان ابتعادكم من كتاب الله امتثالاً لما يوحيه إليكم زعماؤكم وكبراؤكم، فهذا أمر لا يقره العقل، فإن الذي خلقكم وخلق آباءكم وأغدق عليكم

---

(١) زاد المسير: ١/٤٨.
(٢) فتح القدير: ١/٥١.
(٣) زاد المسير: ١/٤٩.

وعليهم النعم، هو الذي يستحق الطاعة والامتثال دون غيره، وأما إذا أطعتم كبراءكم في معصية ربكم، فهذا يعني أنكم جعلتموهم أنداداً لله، وهذا أمر لا مبرر له مطلقاً.

وإن كان هذا التردد ناتجاً من شك يساور أنفسكم في هذا الكتاب وكنتم أنتم غير مقتنعين بكونه من عند الله فاجتهدوا أن تأتوا أنتم كذلك بسورة من مثله، ولا بأس بأن تدعوا كبراءكم حتى يساعدوكم في هذا الأمر.

فإن كنتم عاجزين ولا شك أنكم عاجزون، فهذا دليل ساطع على كونه من عند الله، وأن الإتيان بمثله خارج عن طوق البشر، فاحذروا عاقبة تكذيبكم فإنها وخيمة!

وهناك نكتة لا بأس بالتنبيه إليها، وهي أن الصالحين من أهل الكتاب كانوا ملتزمين بعبادة الله كما مر الإقرار به في سورة الفاتحة على لسانهم:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

وبفضل هذه العبارة كانوا على قدر صالح من التقوى، وهذه التقوى هي التي أسرعت بهم إلى الإيمان بكتاب الله كما مر الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وأما هؤلاء القوم فكانوا غافلين عن عبادة الله وبالتالي كانت قلوبهم خاوية من تقوى الله، فقيل لهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ثم بإزاء عاقبة الكافرين تذكر عاقبةالمؤمنين العاملين، حتى تكون الصورة متكاملة:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وبعد هذا الإنذار والتبشير يعود الكلام مرة أخرى إلى ما كان عليه من الدعوة إلى الإيمان بالقرآن:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ

بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

لقد كانت الدعوة إلى الإيمان فيما مضى من جهتين:

١- لا يصدنكم شياطينكم عن الإيمان بهذا القرآن، الذي أكرمكم الله به، فإن الله هو الرب وهو الخالق وهو أولى بأن يطاع.

٢- عجز البشر عن الإتيان بمثله دليل قاطع على كونه من عند الله، فلا يجوز الشك فيه اعتماداً على الوساوس التي لا تستند إلى أساس.

وهنا يدخل عليهم الحديث من باب ثالث، ويعالجهم بشيء من العنف، فإنه كان من ضمن أسباب الإعراض - كما يوحيه إلينا السياق - أن القرآن قد كشف القوم وأماط اللثام عن الوجوه وبين كل طائفة بما فيها وما يتصل بها.

ولعل هذا هو المراد بضرب المثل، فإن ضرب المثل لا يستلزم تمثيلَ حالٍ بحال أو تشبيه شيء بشيء، وإنما هو حكاية الأمر وبيان الحقيقة بأي أسلوب كان.

والقرآن نفسه بين لنا هذا المعنى حيث قال:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ [محمد].

فكلما ضرب الله للناس أمثالهم وقف الناس منها موقفين متعاكسين، ففريق منهم أذعنوا لها واتعظوا بها، وفريق آخر أخذتهم العزة بالإثم، وطفقوا يستهزؤون بها: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾ .

أي: إن أخذنا الكلام على ظاهره فهو خلاف الواقع، ولا ندري إذا كان له مفهوم باطن، فما هو المفهوم الباطن؟

وهم بقولهم هذا كانوا يضاهئون قولَ قوم شعيب - عليه السلام - إذ قالوا لنبيهم: ﴿ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ ﴿٩١﴾ ﴾ [هود].

وهذا داء قديم في المخالفين المستكبرين، فكلما انهزموا في ساحة الاستدلال

لجؤوا إلى أرخص الأساليب ودافعوا عن سمعتهم أو شخصيتهم بسهام الاستخفاف والاستهزاء.

وهنا يبين لهم القرآن أن الله لا يستحيي من ضرب الأمثال، كائناً ما كان موقفكم منها.

إنه لا يستحيي من قول الحق قَدْرَ بعوضةٍ فما فوقها، إلا أن الانتفاع بتلك الأمثال وتلقي الهداية منها يعتمد على صلاحية المرء وسلامة طبعه.

فأما الذين استنارت قلوبهم بالإيمان فهم الذين ينتفعون بها ولكن الذين أُشربوا في قلوبهم الكفر يتخذون آيات الله هُزواً، وبذلك يزدادون رجساً إلى رجسهم.

ومما يجدر الانتباه له أن القرآن وصم هنا هؤلاء القوم بالفسق كما وصف الصالحين منهم بالتقوى في أول هذه السورة، فسماهم (المتقين) كما سمى هؤلاء (الفاسقين).

ثم ذكر من صفات هؤلاء الفاسقين ما يناقض تماماً صفات أولئك المتقين، فهؤلاء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه بتكذيب رسله وتكذيب كتبه، بينما أولئك يوفون بعهد الله، حيث يؤمنون بما أُنزلَ إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله.

وهؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يُوصَلَ بينما أولئك يَصِلونَ ما أمر الله به أن يوصل فيؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.

وهؤلاء يفسدون في الأرض بينما أولئك ينفقون مما رزقهم الله وبالتالي هم يحاربون الفساد ويرفعون لواء الإصلاح.

وهذا الاختلاف البين في أعمالهم وتصرفاتهم يؤدي إلى الاختلاف البين في عواقبهم ونتائج أعمالهم، فقال عن هؤلاء: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بينما قال عن الأولين: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ثم عاد الكلام من حيث بدأ، فقد بدأ بدعوة هؤلاء القوم إلى عبادة ربهم الذي خلق: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

وهنا يتوجه إليهم السياق بسؤالٍ فيه استنكار وفيه تعجيب من شأنهم لإصرارهم على الكفر ونفورهم من عبادة الله:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

- ومادة العرض أو الاستدلال في كلا الموضعين واحدة، فقد ذكر هناك من الأسباب المستوجبة لعبادة الله، أنه هو صاحب الخلق وصاحب النعمة، وهنا - في مقطع الفقرة - أيضاً ذكر نفس الشيء، إلا أن هناك فرقاً يسيراً في الموضعين من ناحية الاستدلال.

فقد كان التركيز في مطلع الفقرة على أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الخلق وصاحب النعمة، وعلى هذا فهو يستحق العبادة ويستحق الطاعة دون غيره من الأنداد المختلفة.

بينما نرى السياق هنا يميل إلى أمر الدينونة والجزاء فهو كما أحياكم من بعد موتكم سيحييكم مرة أخرى وإليه ترجعون.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه ليس أنه خلقكم وخلق هذه النعم ثم ترككم وشأنكم، بل هو بكل شيء عليم، فهو يراقب العباد وسيحاسبهم يوم الحساب فيجزي المحسنَ بإحسانهِ والمسيء بإساءته.

* * *

نظم الآيات (٣٠-٣٩)

ثم إذا عدنا إلى هاتين الآيتين (٢٨-٢٩) مرة أخرى فستنكشفُ لنا ناحية أخرى لحسن مناسبتهما، حيث أنهما أوجدتا بموقعهما جواً ملائماً لذكر خلافة آدم، فالمتأمل في هذه الآيات حين يقرأ قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٢٩﴾ ﴾ يستوحي منه مباشرة مفهوم خلافة بني آدم، فإن خلق الأرض وخلق ما فيها لبني آدم لا يعني إلا أن الله قد اختارهم لمكرمة الخلافة، ومن هنا حسن بعده ذِكْرُ خلافة آدم وذكر تاريخها:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

* * *

لقد علمنا آنفاً مناسبة هذه الآيات لما قبلها، وهذا إذا أخذناها بنظرة قريبة عاجلة، أما إذا توسعنا قليلاً وألقينا عليها نظرة بعيدة متأنية فستنكشف لنا جوانب أخر من المناسبات بإذن الله، وها نحن نذكر هنا بعضاً منها:

لقد ذكرت في الفقرة السالفة آثار من ربوبية الله سبحانه وتعالى وكانت هذه الآثار مادية ملموسة، بحيث يُحسُّ بها كل مَنْ يملك الشعور والإحساس. وأما الآيات التي نحن بصددها فهي أيضاً تعرض ربوبية الله سبحانه وتعالى إلا أنها ربوبية روحية أدبية. إنها ربوبية معنوية بحتة، إنها تعرض ذلك التكريم الكبير الذي خص الله به الإنسان من بين سائر الأنواع، ألا وهو ترشيح الإنسان لخلافة الله في الأرض.

ولعل هذا هو السر في أن الفقرتين استهلّتا بذكر الربوبية حيث جاء في الموضعين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ . . . ﴿٢١﴾﴾ الآية

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .﴾ الآية

والتأمل في نظم هذه الآيات يرشدنا كذلك إلى حقيقة أخرى مهمة، وهي أن القطيعة والإفساد في الأرض ليس لهما أصل ثابت في هذا الكون، وإنما هي أحوال طارئة لا تلبث أن تنقشع، والجولة الأخيرة الفاصلة دائماً تكون للخير والصلاح.

ولم يكن جزع الملائكة وقلقهم في أول الأمر إلا لخفاء هذه الظاهرة عليهم، فلما أنبأهم آدم بأسماء ذريته الطيبين الطاهرين، الذين سيصمدون للباطل ويكونون معه دائماً في صراع مرير، عرفوا حقيقة الأمر وأدركوا حكمة الله في إرادته.

ولقد أحسن الإمام ابن كثير رحمه الله في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ حيث قال: «أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصدِّيقون والشهداء والصالحون والعبَّاد والزهَّاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمُحِبُّون له تبارك وتعالى المُتَّبعون رُسُلَهُ

صلوات الله وسلامه عليهم»[1].

ولقد سبقه قتادة إلى هذا التأويل حيث قال: «فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة»[2].

وعلى هذا فإن تلك الآيات توحي بنظْمها أن هذا التكريم الذي خص الله به آدم ليس للمفسدين الفاسقين منه نصيب، فإن الخلافة ليست إفساداً في الأرض ولا نقضاً للميثاق، وإنما هي العبادةُ والتقوى والإيمان بما أنزل الله.

هذا إجمال القول في تأويل تلك الآيات وفي إيحاءات نظمها، وسنردف ذلك الإجمال بشيء من الإيضاح والتفصيل، فإن الناس تحيروا تحيراً عجيباً في تأويل تلك الآيات، فيقول مثلاً صاحب تفسير «البحر المحيط» وهو بصدد تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾.

«وخطابُ الله الملائكة بقوله: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ إنْ كان للملائكة الذين حاربوا مع إبليس الجن فيكون ذلك عاماً بأنه رافعهم إلى السماء ومستخلفٌ في الأرض آدمَ وذريته وروي ما يدل على ذلك عن ابن عباس وهو ما مُلخصهُ أن الله أسكن الملائكة السماء والجنَّ الأرضَ فعبدوا دهراً طويلاً ثم أفسدوا وحسدوا فاقتتلوا فبعث الله لهم جنداً من الملائكة رأسهم إبليس وكان أشدهم وأعلمهم فهبطوا الأرض وطردوا الجن إلى شعف الجبال وبطون الأودية وجزائر البحور وسكنوها وخفف عنهم العبادة وأعطى اللهُ إبليسَ ملك الأرض وملك سماء الدنيا وخزانة الجنة فكان يعبد تارة في الأرض وتارة في الجنة فدخله العُجب وقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا إلا أني أكرمُ الملائكة عليه. فقال الله تعالى له ولجنوده: إني جاعل في الأرض خليفة بدلاً منكم ورافعكم إليَّ، فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة، وقالوا: أتجعلُ.. الآية[3].

هذا بعض ما يفيدنا أبو حيان في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ والذي نلاحظه فيما ذكره من الوجوه أنها لا تعتمد على أصل ولا تستند إلى دليل.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٦٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/٧٢، والمحرر الوجيز: ١/٢٢١-٢٢٢.

(٣) تفسير البحر المحيط ١/١٤٠.

ولعل هذا هو السبب في أنه - رحمه الله - سردها سرداً، من غير أن يميل إلى واحدة منها ميلاً، ولا بأس بأن نشير هنا إلى ما يوجد فيها من نقاط الضعف، فنقول:

النقطة الأولى:

إن الحكاية التي تنسب إلى ابن عباس من أن الجن هم الذين كانوا يعمرون هذه الأرض قبل آدم ثم أفسدوا فيها فطردوا إلى شعاف الجبال وبطون الأودية، ثم خلق آدم ليخلفهم فيها، إن هذه الحكاية بجميع تفاصيلها أشبه ما تكون بالأساطير، ومن الصعب جداً جداً أن نصدق نسبتها إلى سيدنا ابن عباس - رضي الله عنهما - وما ألجأ الناسَ إلى قبول هذه الحكاية إلا قلة إمعانهم في معنى (الخليفة)، فهم ظنوا - وقد ظنوا خطأً - أن آدم لا يكون خليفةً في الأرض إلا إذا كان قد سبقه بعمارة الأرض قومٌ آخرون.

تحقيق معنى الخليفة:

فلنعلم أن القرآن إذا أراد أن يؤدي هذا المعنى - وهو مجيءُ قومٍ بعد قوم - فإنه يستعمل له صيغة الجمع - خلائف أو خلفاء - وأما كلمة (الخليفة) فإنه لا يستخدمها في هذا السياق.

وسيتضح ذلك بالأمثلة، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس].

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل].

فهذه الآيات كلها تستخدم كلمة (الخلفاء أو الخلائف) للمعنى الذي أشرنا إليه وهو مجيء قوم بعد قوم.

وأما كلمة (الخليفة) فلم يستعملها القرآن إلا في موضعين: أحدهما تلك الآية التي

نحن بصدد الحديث عنها: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ والآخر ذلك الخطاب الذي وجه إلى سيدنا داود:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص].

يقول الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في تأويل هذه الآية: «أي: تَدبَّرْ أمرَ العباد من قبلنا بأمرنا فكأنك خليفة عنا»[1].

ويقول رحمه الله في تأويل الآية الأولى السابقة:

«وفي معنى خلافة آدم قولان، أحدهما: أنه خليفةٌ عن الله تعالى في إقامةِ شرعه ودلائلِ توحيده والحكم في خلقه، وهذا قول ابن مسعود ومجاهد.»[2].

وروى الطبري عن سيدنا ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال في تأويل هذه الآية: «إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، ويعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته»[3].

ويقول الإمام أبو محمد الفراء البغوي: «والصحيح أنه - أي آدم - سُمِّي خليفةً لأنه خليفة الله في أرضه، لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه»[4].

ويقول صاحب «لباب التأويل في معاني التنزيل» المعروف بالخازن:

«والصحيح أنه - أي آدم - سمي خليفة لأنه خليفة الله في أرضه، لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه»[5].

ولقد ورد في الحديث الصحيح المشهور: (اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل)[6]. أي: أنت الذي تَكْلَؤُهم وترعاهم وتتولى أمرهم.

ونعرف من هذا الحديث أمرين، أحدهما:

---

(١) زاد المسير: ٧/ ١٢٤.

(٢) زاد المسير: ١/ ٦٠.

(٣) تفسير الطبري: ١/ ١٥٧.

(٤) تفسير البغوي، المسمى: معالم التنزيل: ١/ ٣٨ (بهامش تفسير الخازن).

(٥) تفسير الخازن، المسمى: لباب التأويل: ١/ ٣٨.

(٦) سنن الترمذي: باب ما يقول إذا خرج مسافراً، ٥/ ٥٩٧، رقم الحديث (٣٤٣٨). وسنن الدارمي، باب في الدعاء إذا سافر، ص٦٨٣.

أنه لا إشكال في كون المرء خليفة الله في أرضه، إذا صح كون الله خليفته في أهله.

والثاني: أن كلمة (الخليفة) تتضمن معنى الملك والسلطة وحرية الرأي والتصرف.

وهذا المعنى كما يدل عليه هذا الحديث فكذلك تدل عليه الآيتان. ومن هنا حسن استعمال هذه الكلمة لمن يسوس أمر المسلمين ويلي شؤونهم وقضاياهم، فالإنسان جعل خليفة الله في الأرض، وذلك بأنه أوتي حظاً مما يعتبر من خصائص الألوهية وهو الملك والسلطة وحرية الرأي والتصرف وهذه ميزة لم تحصل لأحد غير الإنسان.

النقطة الثانية:

أن حكاية استعمال إبليس على الملائكة وحكاية إعطائه ملك الأرض وملك سماء الدنيا وخزانة الجنة حكاية ليس لها قوائم. ونحن لا نجد نظيراً واحداً لما يحكى في شأن إبليس، فربنا - سبحانه وتعالى - كان خبيراً بفسقه وكفره من أول أمره. إذاً فكيف يتصور أن ينال إبليس عنده هذه الخطوة وهذه المكانة ويستمر على ذلك دهراً طويلاً، فهذا الشيء يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف].

ولعل الذي أساغ للناس هذه الحكاية زعمهم أن إبليس كان من الملائكة، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ حيث أن السياق قد استثنى إبليس من الملائكة، فيقول - مثلاً صاحب المحرر الوجيز: «وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل لأنه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية وكان خازناً وملكاً على سماء الدنيا والأرض واسمه عزازيل»(١).

منشأ الوهم:

ولعل الذين ذهبوا إلى مثل هذا القول على الرغم من تصريح القرآن بأنه كان من الجن حيث قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۝٥٠﴾ [الكهف] إنما ذهب هؤلاء إلى مثل هذا القول وتكلّفوا له لأنهم لم يدركوا السر في استثناء إبليس من الملائكة.

والذي يظهر لنا أن هذا الاستثناء جاء على نحو قولنا: جاء القوم إلا كلب القرية. فاستثناء الكلب من القوم في هذه الجملة يفيد أنه لم يبق أحد من القوم إلا جاء. وإنما

---

(١) المحرر الوجيز: ١/٢٣١-٢٣٢.

لم يجيء كلب القرية فقط.

وهذه الإحاطة أو هذا الشمول لا يستفاد أبداً لو قلنا مثلاً: جاء القوم كلهم، أو جاء القوم أجمعون، فإنه يبقى الاحتمال مع كل من هذه العبارات أنه ربما تخلف واحد أو اثنان.

ولكننا إذا قلنا: جاء القوم إلا كلب القرية، قطعنا دابر هذا الاحتمال وجزمنا أنه لم يبق أحد من الناس إلا قد جاء، وإنما الذي تخلف هو كلب القرية فقط.

فهكذا قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ يدل على الشمول والإحاطة، ويفيد أنه لم يبق أحد من الملائكة إلا وسجد، وإنما الذي لم يسجد هو إبليس فقط، وهذا النوع من الاستثناء كثير شائع في القرآن وفي كلام العرب، ومنه قول النابغة الذبياني في قصيدة مدح بها النعمان بن المنذر واعتذر له فيها، وكان واجداً عليه:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند ... أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأمد
وقفت فيها أُصيلاناً أسائلها ... عيّت جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأواري لأياً ما أبيّنها ... والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد[1]

ومنه قول جران العود النميري:

وبلد ليس به أنيسُ ... إلا اليعافير وإلا العيس[2]

وهذا الأسلوب له فوائد أخر غير التي أشرنا إليها، وليس هذا موضع تفصيلها.

---

(١) معاني القرآن للفراء: ١/ ٢٨٨.
الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه أُصُلٌ وآصال وأصائل ويجمع أيضاً على أصلان، مثل بعير وبُعران ثم صغروا الجمع فقالوا: أصيلان. والأواري جمع الآري وهو الأخيّة، وهي عود في حائط أو في حبل يدفن طرفاه في الأرض ويبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة. والنؤى: الحفير حول الخيمة أو الخباء يمنع الماء. والمظلومة: الأرض التي قد حفر فيها في غير موضع الحفر.
والجلد: الأرض الغليظة.

(٢) معاني القرآن: (١/ ٢٨٨).
اليعافير جمع اليعفور، وهو ولد الظبية. والعيس: جمع الأعيس والعيساء وهما وصفان من العيسة، وهو بياض يخالطه شقرة، أراد بها بقر الوحش.

النقطة الثالثة:

أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يفيد بأسلوبه أن عمارة الأرض بدأت من آدم، كما يفيد أن هذا الخليفة سيكون خليفة الله.

ولو كان الأمر كما يقولون لقيل: (إني جاعل في الأرض خلفاء من بعد الجن) على نحو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف].

النقطة الرابعة:

أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قد سبقته هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وتلك الآية تدل بعبارتها أن هذه الأرض بجميع ما فيها قد خلقت للإنسان! إذاً فمن أين للجن أن يسبقوا الإنسان إلى هذه الأرض ويملكوها ويستمتعوا بها دهراً طويلاً حتى يفسدوا فيها ويخرجوا منها؟!

النقطة الخامسة:

أن هذه الآية تدل بنظمها أنه لم يكن هناك فاصل زمني كبير بين خلق هذه الأرض وخلق مَنْ خُلقت له هذه الأرض، كما أنه ليس هناك فاصل في الآيات بين ذكر خلق هذه الأرض وذكر استخلاف آدم فيها.

هذه عدة نقاط إذا وضعناها في اعتبارنا ظهر لنا ضعف الوجه الأول، الذي ذكره أبو حيان في تعليل قول الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وأما بقية الوجوه التي ذكرها هو وغيره من المفسرين - رحمهم الله -في تعليل هذا القول من اختبار طاعة الملائكة أو اطلاعهم على ما في نفس إبليس من الكبر أو إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه أو تعليمنا مشاروة ذوي الأحلام منا، أو إظهار عُلُوّ قدر آدم في العلم أو تطمين قلوب الملائكة أنهم ليسوا ممن يدخلون النار أو... أو... أو... فهذه الوجوه أيضاً ليست أحسن حالاً من أختها التي أسلفنا الكلام عليها. والسقم الذي يعم هذه الوجوه كلها هو أنها لا تستند إلى دليل ولا تأوي إلى ركن شديد، وإنما هي خواطر خطرت ببال أصحابها ثم أخذت طريقها إلى كتب التفسير، ولم تُعرض على المعايير الدقيقة، التي تبين الغث منها من السمين.

وستظهر هذه الوجوه كلها بما فيها وما يرد عليها حين نتابع المشهد ونتأمل في طبيعة الموقف.

فماذا قالت الملائكة حين اطلعوا على القرار؟

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾.

وهنا يثور سؤال: من أين عرفت الملائكة أن هذا الخليفة سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

وماذا كانوا يقصدون بقولهم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾؟

تأويل قول الملائكة:

يقول صاحب «المحرر الوجيز» وهو يعالج هذين السؤالين:

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ الآية. قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب ولا تسبق بالقول وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ٢٧﴾ [الأنبياء] خرج على جهة المدح لهم. قال القاضي ابن الطيب: فهذا قرينته العموم فلا يصحّ مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من إفساد الخليقة في الأرض نبأ ومقدّمة، قال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء فقالوا لذلك هذه المقالة فهذا إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفعلين جميعاً الاستخلاف والعصيان، وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض فجاء قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ الآية على جهة الاستفهام المحض هل هذا الخليفة على طريقة مَنْ تقدّم من الجنّ أم لا؟ وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون ويسفكون الدماء، فلما قال لهم بعد ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ الآية على جهة الاسترشاد والاستعلام على هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قَبْلُ أو غيره[1].

---

(١) المحرر الوجيز: ١/٢١٨-٢١٩.

ويقول رحمه الله:

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾، قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام كأنهم أرادوا: ونحن نسبح بحمدك الآية، أم نتغير عن هذه الحال.

قال الفقيه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية (رض): وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: (أتجعل). وقال آخرون: معناه التمدح ووصف حالهم وذلك جائز لهم، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف] وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام، لأن يستخلف الله مَنْ يعصيه في قولهم: أتجعل، وعلى هذا أدَّبهم بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقال قوم: معنى الآية ونحن، لو جعلتنا في الأرض واستخلفتنا، نسبح بحمدك، وهذا أيضاً حسن مع التعجّب والاستعظام في قولهم: أتجعل[1]؟

هذا ما يقوله ابن عطية في تأويل هاتين الجملتين.

ثم يتبعه أبو حيان فيقول بمثل ما قاله ابن عطية ويزيد عليه: «وعلى هذه الأقوال يكون علمهم بذلك قد سبق إما بإخبار من الله أو بمشاهدة في اللوح أو يكون مخلوق غيرهم وهم معصومون أو قالوا ذلك بطريق القياس على مَنْ سكن الأرض فأفسد قبل سكنى الملائكة أو استنبطوا ذلك من لفظ خليفة إذ الخليفة مَنْ يكون نائباً في الحكم، وذلك يكون عند التظالم[2]».

ويقول (رحمه الله) وهو يتناول المسألة الثانية:

ومن أندر ما وقع في تأويل الآية ما ذهب إليه صاحب كتاب «فك الأزرار» قال في ذلك الكتاب: «ظاهر كلام الملائكة يشعر بنوع من الاعتراض وهم منزهون عن ذلك. والبيان أن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مُجْمَلين، وكان إبليس مندرجاً في جملتهم، فورد منهم الجواب مجملاً، فلما انفصل إبليس عن جملتهم بإبائه وظهور إبليسيته واستكباره، انفصل الجواب إلى نوعين:

فنوع الاعتراض منه كان عن إبليس، وأنواع الطاعة والتسبيح والتقديس كان عن الملائكة، فانقسم الجواب إلى قسمين كانقسام الجنس إلى جنسين، وناسب كل جواب

---

(١) المحرر الوجيز: ١/٢٢٠.

(٢) تفسير البحر المحيط ١/١٠٨.

مَنْ ظهر عنه، والله أعلم، انتهى كلامه، وهو تأويل حسن وصار شبيهاً بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة] لأن الجملة كلها مقولة والقائل نوعان، فردّ كل قولٍ لمن ناسبه»[1].

ولقد حاول أبو السعود أيضاً أن يدلي بدلوه في تحرير هذا الموضوع فقال:

وإنما عرفوا ما قالوا إمّا بإخبار من الله تعالى حسبما نُقل من قَبْلُ، أو بتلقٍّ من اللوح، أو باستنباط عما ارتكز في عقولهم من اختصاص العصمة بهم، أو بقياس لأحد الثقلين على الآخر[2].

ويزيد رحمه الله فيقول: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يَجِدُّ في خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره أَتستخدمُ العُصاةَ وأنا مجتهدٌ فيها، كأنه قيل: أتستخلف مَنْ من شأن ذريتهِ الفسادُ مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلاً، والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجَّحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع، لا العجب والتفاخر، فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التي رذيلتها الإفراطية الفسادُ في الأرض، والقوة الغضبية التي رذيلتها الإفراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا»[3].

الإشكالات الواردة على ما قيل:

هذه ثلاث محاولات لثلاثة من أعلام المفسرين (رحمهم الله) في تحرير هذا الموضوع، وحين ننظر في هذه المحاولات ونتأمل فيها تثور في أنفسنا عدة إشكالات وهي كما يلي:

١- من أين لنا أن نعرف أن الله تعالى قد أعلم الملائكة أنّ الخليفة سيكون من ذريته قومٌ يفسدون ويسفكون الدماء، أو أعلمهم مسبقاً أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون ويسفكون الدماء؟

فإن القرآن لا يشير إلى ذلك؛ بل أسلوبه يصرف عن ذلك، وليس هناك شيء ثابت عن النبي ﷺ حتى نعتبره بياناً مأموناً لما أجمله القرآن، ولو افترضنا الأمر كذلك فهل

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/١٤٣-١٤٤.
(٢) تفسير أبي السعود ١/١٠١-١٠٢.
(٣) تفسير أبي السعود: ١/١٠١-١٠٢.

يكون له معنى غير أن يقال: إنّ أبرز صفة في هذا الخليفة هو الإفساد وسفك الدماء؟! ولذلك لم يذكر للملائكة إلا أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء!!

٢- كيف سمحت الملائكة لأنفسهم أن يقيسوا هذا الخليفة على مَنْ سبقه من مفسدي الجن، فإنّ الجنّ خُلقوا من نار السموم، وهذا الخليفة خُلق من طين، وشتّان بين طبيعة النار وطبيعة الطين! وما أبعد أن يقاس أحدهما على الآخر.

٣- ما يدري الملائكة أنّ هذا الخليفة سيملك القوة الشهويّة التي رذيلتها الإفراطية الفساد في الأرض، والقوة الغضبية التي رذيلتها الإفراطية سفك الدماء، حتى يستنبطوا من ذلك أنه سيكون سبباً في الإفساد وسفك الدماء؟ فإن الله تعالى لم يخبرهم بذلك، وإنما الذي أخبرهم به هو أنه سيخلق بشراً من طين.

٤- من أين ارتكز في عقول الملائكة اختصاصُ العصمة بهم، حتى يتهموا غيرهم بالإفساد وسفك الدماء؟ وأنّى لنا أن نعرف أن الأمر كان كذلك؟!

٥- إن المكانة التي خصَّ الله بها الملائكة في هذا الكون الهائل العظيم ليست أقل شأناً من أن يكونوا خلفاء الجن في هذه الأرض، بل لعلها أعز وأشرف وأخطر شأناً من هذه الخلافة ألف مرة، فهل من الممكن أو من المعقول أن يزهد الملائكة في مكانتهم تلك ويرغبوا عنها أو يزدروها حتى يروعهم ويقلق بالهم أن ربّهم آثر غيرهم بأن يكون خليفة في الأرض؟!

٦- لا شك أن الملائكة يسبّحون لربهم باللّيل والنّهار وهم لا يفترون ولا يسأمون، فقد شهد القرآن بذلك، وشهدت به الأحاديث الصحيحة الثابتة، ويعتبر هذا الأمر من المسلّمات عند الجميع.

ولكن مع ذلك فهل يتصور أن ينوّه الملائكة هم أنفسهم بطاعتهم وعبادتهم أو بتسبيحهم وتقديسهم، ويستدلوا بذلك على أحقّيتهم بالخلافة؟!

كلاّ ثم كلاّ!!

ولعلّ هذا الإشكال هو الذي حمل مَنْ حمل على أن يقول، أنَّ قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ جاء على جهة الاستفهام، كأنهم أرادوا: ونحن نسبح بحمدك الآية أم نتغير عن هذه الحال؟ ولكن الذين قالوا ذلك كانوا أشبه حالاً بالمستجير من الرمضاء بالنار!

يقول أبو حيان: وقد أبعد من ذهب إلى أن هذه الجملة من قوله: ونحن نسبح

استفهامية حُذِفَ منها أداة الاستفهام، وأن التقدير: أو نحن نسبح بحمدك أم نتغير بحذف الهمزة من غير دليل وبحذف معادل الجملة المقدرة دخول الهمزة عليها، وهي قوله: أم نتغير[1]؟

٧- أن القرآن واضح صريح في أنّ قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ من كلام الملائكة فهل يجوز لنا بعد ذلك أن نؤوّله إلى قول إبليس؟ ولا ندري كيف استساغ الإمام أبو حيان مثل هذا القول واستحسنه ثم التمس له ما يبرّر ذلك!

تلك عيون الإشكالات أو التساؤلات التي تثور في نفس الباحث إذا تأمل في تلك المحاولات الثلاث التي بذلت في سبيل تحرير هذا الموضوع، وليس الأمر مقصوراً على تلك المحاولات الثلاث، فبقيّة المحاولات أيضاً لا تختلف في وضعها عن هذه المحاولات.

وهنا يبرز سؤال: فما هي الصورة الصحيحة الواضحة لهذا الموقف؟

ونحن سنحاول أن نجلي تلك الصورة الصحيحة الواضحة للموقف بإذن الله، إلا أننا نريد قبل ذلك أن ندرس مذاهب الناس في تأويل (الأسماء) التي ورد ذكرها في الآية التالية: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فالاطلاع على تأويل تلك الأسماء سيساعدنا في التوصل إلى ما نرومه بإذن الله.

ما قيل في تأويل الأسماء:

يقول ابن عطية (رحمه الله): واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾، فقال جمهور الأمة: علّمه التسميات، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص، والأول أبين، ولفظة علمه تعطي ذلك. ثم اختلف الجمهور في أي الأسماء علمه؟ فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد: علمه اسم النجوم فقط.

وقال الربيع بن خثيم: علّمه أسماء الملائكة فقط، وقال ابن زيد: علمه أسماء ذريته فقط، وقال الطبري: علمه أسماء ذريّته والملائكة، واختار هذا ورجّحه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾. وحكى النقاش عن ابن عباس: أنه تعالى علّمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء، وقال آخرون: علّمه أسماء الأجناس كالخيل والجبال والأودية ونحو

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/١٤٣.

ذلك دون أن يعين ما سمّته ذريته منها، وقال ابن قتيبة: علّمه أسماء ما خلق في الأرض، وقال قوم: علمه الأسماء بلغة واحدة ثم وقع الاصطلاح من ذريته في سواها، وقال بعضهم: بل علمه الأسماء بكل لغة تكلمت بها ذريته.

وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: علم الله تعالى آدم كل شيء حتى أنه كان يُحْسِنُ من النحو مثلما أحسن سيبويه ونحو هذا من القول الذي هو بيّنُ الخطأ من جهات. وقال أكثر العلماء: علمه تعالى منافع كل شيء ولما يصلح، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص عند التعليم.

وقال قوم: بل وصفها له دون عرض أشخاص، وهذه كلها احتمالات قال الناس بها[1].

ويقول أبو السعود (رحمه الله): الاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال واستعماله عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركباً، مخبراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما. واصطلاحاً في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بالزمان والمراد ههنا إما الأول أو الثاني وهو مستلزم للأول إذ العلم بالألفاظ من حيث الدلالة على المعاني مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة عن فعل يترتب عليه العلم بلا تخلّف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد إفاضة المعلم بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقّيه من جهته كما مرّ في تفسير الهَدْي، وهو السر في إيثاره على الإعلام والإنباء فإنهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذي يشترك فيه البشر والملك وبه تظهر أحقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جبلتهم غير مستعدة للإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبراً[2].

تساؤلات حول تلك التأويلات:

هذه هي مذاهب الناس في تأويل تلك الأسماء التي تعلمها آدم من ربه.

وإذا تأمل المتأمل في هذه التأويلات فإنه يجد نفسه أمام عدد من التساؤلات:

١- لماذا عُلِّم آدم هذه الأسماء؟

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ١/ ١٠٣.

هل عُلِّمها ليظهر شرفه على الملائكة؟ فهذه الأسماء ليست مناط شرفٍ عند الله، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

٣- أم عُلِّمها ليقتنع الملائكة بكفاءته للخلافة؟ فالملائكة ما كانوا ليقتنعوا بكفاءته لكونه عالماً بأسماء الخيل والجبال والأودية، أو لكونه عالماً بمصالح الحياة ومنافع الأشياء، أو لكونه عالماً بقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها، وما إلى ذلك مما ذكره المفسرون (رحمهم الله)، فإنه لم يكن مبعث قلقهم أن هذا الخليفة سينقصه العلم وسعة الاطلاع ولا يكون مزوداً بما يضمن له النجاح في تسيير دفة الحياة، وإنما الذي أقلقهم هو أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

٤- أم عُلِّمها لأنها تتصل اتّصالاً مباشراً بمهمة الخلافة، وما كان لآدم أن يقوم بتلك الأمانة لولا أنه زُوّد بعلم تلك الأسماء؟

ولئن أجبنا على هذا السؤال بنعم فهذا لا يعني إلا أن تلك العلوم التي ذكرها المفسرون (رحمهم الله) أكبر أهمية عند الله من العلم الذي نزلت به الكتب وجاءت به الأنبياء!! ولذلك زُوِّدَ هذا الخليفةُ بتلك العلوم قبل أن يزود بالكتاب والنبوة.

ثم إن كان آدم قد زود بتلك العلوم قبل أن يزود بأي شيء آخر فلماذا لم يُزَوَّدْ بها مَنْ خلف من بعده من الأنبياء والرسل؟

فإن الأمر كان يقتضي أن يكون خلفاؤه قدوةً وإماماً في تلك العلوم إن كان هو قدوة وإماماً في تلك العلوم!

ولكن الأمر كان على العكس كما يتبين مما رواه مسلم حيث قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعمرو الناقد، كلاهما عن الأسود بن عامر. قال أبو بكر: حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة وعن ثابت، عن أنس، أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقّحون فقال: (لو لم تفعلوا لصلح) قال: فخرج شيصاً فمر بهم فقال (ما لنخلكم؟) قالوا: قلت كذا كذا. قال: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[1].

---

(١) كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، ٢/١٨٣٦، رقم الحديث (٢٣٦٣). (فخرج شيصاً) هو البُسْر الرديء الذي إذا يبس صار حشفاً.

٥- ثم إن كان آدم خليفة مَنْ سبقه من الجنّ في عمارة الأرض أليس ذلك يدل على أن الجنّ أيضاً عُلّموا في فترتهم، تلك الأسماء التي عُلّمها آدم في نوبته، وهم أيضاً زُوّدوا بالأمس بكل ما زُوِّد به اليوم آدم؟ فإن اتحادهما في المهمة والمجال يوجب اتّحادهما في قدراتهما ومواهبهما.

ولكنّ الذي حدث يدل على غير ذلك، فإن إبليس أيضاً لم يُنَبَّأ بتلك الأسماء، كما لم تُنبَّأ بها الملائكة.

وهذا يدل على أحد أمرين، فإمّا أن نقول: إن تلك الأسماء لم تكن لها صلة بمهمة الخلافة حتى يعلمها كل من خلعت عليه الخلافة، أو نقول: إن آدم كان أول خليفة في الأرض فلذلك كان أول من عُلِّم تلك الأسماء.

٦- لقد حكى ابن عطية عن الجمهور أن المراد بتعليم آدم الأسماء تعليمه التسميات[١].

ويقول أبو حيان وهو يذكر ما قيل في تأويل (الأسماء): «... أو التسميات ومعنى هذا علّمه أن يسمي الأشياء وليس المعنى علمه الأسماء، لأن التسمية غير الاسم قاله الجمهور»[٢].

ونرى الأستاذ سيد قطب رحمه الله أيضاً قد وضع ثقله في كفّة هذا التأويل حيث قال:

«ها نحن أولاء - بعين البصيرة في ومضات الاستشراف - نشهد ما شهده الملائكة في الملأ الأعلى.. ها نحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السرّ الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها - وهي ألفاظ منطوقة - رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ٢٢٢.

(٢) تفسير البحر المحيط: ١/ ١٤٦.

ليتفاهموا بشأنه. . . الشأن شأن نخلة. فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا باستحضار جسم النخلة! الشأن شأن جبل فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بالذهاب إلى الجبل. الشأن شأن فرد من الناس فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بتحضير هذا الفرد من الناس. إنها مشقة هائلة لا تُتصوَّرُ معها حياة! وأن الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يُودِع اللهُ هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات.

فأما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية، لأنها لا ضرورة لها في وظيفتهم، ومن ثم لم توهب لهم. . فلما علَّم الله آدم هذا السر، وعرض عليهم ما عرض لم يعرفوا الأسماء. لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص. . وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم، والاعتراف بعجزهم، والإقرار بحدود علمهم، وهو ما علمهم. . وعرف آدم. . . ثم كان هذا التعقيب الذي يَردُّهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم:

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(١).

وهنا يثور سؤال: هل يصح تأويل (الأسماء) إلى القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات؟

فإن (الأسماء) جمع الاسم، والاسم غير التسمية، ولم نعثر على شاهد واحد لاستعمال الاسم بمعنى التسمية.

ويتأكد لدينا هذا الإشكال حين نتأمل في قوله تعالى: ﴿ كُلَّهَا ﴾ فإن تلك الزيادة تؤكّد في ﴿ ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ معنى الاستيعاب والاستغراق.

ولا تظهر لهذا التوكيد أية فائدة إذا أوّلنا (الأسماء) إلى معنى التسمية.

ثم القدرات كلها، ومنها القدرة على التسمية، لم توضع في آدم إلا في أثناء خَلْقِه. وأما هذا التعليم الذي تذكره الآية ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا . . . ﴾ الآية، فإنه لم يتمّ إلا بعد خلقه، بعد ما أعربت الملائكة عن قلقهم في شأنه. إذاً فكيف يصحّ تأويل هذا التعليم إلى إيجاد القدرة فيه على التسمية؟

ثم القول بأن القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات مما يتميز به الإنسان على غيره قولٌ لا ينهض به دليل.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٥٧.

فما الذي يدرينا أن الملائكة لم توهب لهم هذه الخاصية؟

وإذا كانت الملائكة لم توهب لهم هذه الخاصية، فهم كيف يدبِّرون أمرَ هذا الكون الهائل الرحيب؟ وكيف يراقبون هذه البشرية الهائلة وكيف يكتبون حركاتها وسكناتها؟

فإن كنا نعتقد أن الملائكة ليست وظيفتهم التسبيح والتقديس المجرد بل من وظيفتهم أيضاً تدبير هذا الكون، فإن تدبير هذا الكون الواسع الرحيب لا يتم أبداً إلا بالمقدرة الفائقة على التسمية وعلى الرمز بالأسماء للمسميات.

ثم الأمر ليس مقصوراً على الملائكة، فقد أثبتت الأبحاث والدراسات والتجارب الحديثة وبرهنت أن هذه المقدرة التي نحسبها من ميزات الإنسان وخصائصه تملكها الحيوانات والطيور أيضاً، حتى الديدان والحشرات الصغيرة أيضاً تتمتع بهذه القوة، - قوة التسمية والتعبير - بشكل مذهل!

والمقام لا يسمح لنا بأن نخوض في تلك الأبحاث والدراسات القيّمة التي تزخر بها المكتبات الحديثة، ولا ضيرَ، ففي قرآننا ما يُغنينا عن تلك الأبحاث ويعطينا فكرة واضحة عن هذا الموضوع، فلنتدبر قوله تعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل].

فسيدنا داود وسيدنا سليمان قد عُلّما منطقَ الطير. وما كان منطق الطير؟ هل كان ذلك خالياً من الأسماء والرموز.

ولقد ذكر ربنا - سبحانه وتعالى - نموذجين له في تلك الآيات: نموذج لمنطق

النمل، ونموذج لمنطق الهدهد.

وإذا تأملنا في هذين النموذجين فهل نكاد نصدق أنهما من كلام النمل وكلام الطير؟ ولكنهما - بالخبر اليقين - من كلام النمل وكلام الطير.

فهذا الشبه الشديد بين منطق الإنسان ومنطق الطير لا يدع لنا مجالاً للقول بأن القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات مما يخصّ الإنسان دون غيره من الخلائق.

إذاً فهذا التأويل الذي يُنسب إلى الجمهور لا يخلو من ضعف. وبعد هذه الدراسة السريعة الوافية لما قيل في تأويل تلك الآيات، نريد أن ندلي بدلونا في تحرير هذا الموضوع، ونريد أن نُجلِّي الصورة الصحيحة الواضحة للموقف، والله ولي التوفيق.

تأويل الآيات كما يمليه علينا السياق:

الذي يظهر لنا بعد التأمل الطويل المتكرر في سياق تلك الآيات هو أن ربنا - سبحانه وتعالى - لما أعلم الملائكة بقرار جعل الخليفة في الأرض استغربوه.

ولم يكن السبب في استغرابهم أنهم حسبوه منقصة لشأنهم وغضاً من مكانتهم وإيثاراً لغيرهم عليهم كما قيل.

وإنما كان السبب في استغرابهم أنهم كانوا يدركون معنى الخليفة، أنهم كانوا يدركون جيداً أن الخلافة تعني الملك والسلطة وحرية الرأي والتصرف. فإذا كان هناك خَلْقٌ توهب لهم السلطة والحرية، فالسلطة والحرية لهما ضراوة ستجرُّ - ولا محالة - إلى الإفساد وسفك الدماء.

فهم ظنوا ذلك من لفظ الخليفة. وقد كانوا ألمعيين في ذلك الظن ولا شك. إلا أن الصورة التي استلهموها من لفظ (الخليفة) لم تكن هي كل المشروع.

فقد كان من تمام المشروع أن الله سيمنحهم هذه السلطة والحرية إلا أنه لا يلقي حبلهم على غاربهم ولا يتركهم وشأنهم بل يرسل إليهم رسلاً ويبعث فيهم أنبياء ويجعل فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، ويجعل فيهم قوماً يحاربون الفساد ويحافظون على الأرواح ويجاهدون لتمكين الخير والصلاح.

فيكون هناك صراع مستمر دائم بين الخير والشر وبين الحق والباطل.

فهذا الجزء من المشروع ظل خافياً على الملائكة، لأنه لم يكن مما يدل عليه لفظ (الخليفة) فهم استغربوا هذا القرار ولم يستقبلوه بفرحٍ واستبشار، وأظهروا قلقهم وانزعاجهم ولكن بأسلوب ينبىء بحسن أدبهم مع ربهم وينبىء بخضوعهم لمشيئته وإرادته:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

فقولهم: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ لم يكن تنويهاً بتسبيحهم وتقديسهم وما كان لهم أن ينوهوا هم أنفسهم بتسبيحهم وتقديسهم وإنما كان ذلك تقريراً لطاعتهم وخضوعهم لمشيئة ربهم وكان دفعاً لما قد يوحي سؤالهم هذا من معنى الحرج مما قضى الله من جعلِ الخليفةِ في الأرض.

وأما القول بأنهم كانوا يريدون بذلك عرض أحقيّتهم بالخلافة، فهذا قولٌ لا يستقيم إلا إذا ثبت أن الخلافة التي رُشّحَ لها آدم كانت أرفع شأناً وأعظم خطراً من مكانة الملائكة في هذا الكون، حتى زهدت الملائكة في مكانتهم تلك وتطلعوا إلى نيل الخلافة في الأرض. وإلى الآن لم نطلع على دليل يثبت ذلك، والذي اطلعنا عليه يثبت غير ذلك، حيث قال تعالى وهو يذكر الإنسان بما حباه به من فضل وكرامة:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء].

فهذه الآية صريحة في أن الإنسان لم يُفضَّلْ على جميع الخلائق وإنما فُضِّلَ على كثير منهم.

وبالتالي هي صريحة في أن الإنسان لم يفضل على الملائكة، فإنه لو كان فُضِّلَ عليهم لكان قد فضل على الجميع، حيث أنه لا يبقى بعدهم من يقال بفضله على الإنسان.

قد يقال: إن الله تعالى أسجد الملائكة لآدم وهذا دليل على شرفه وفضله عليهم.

ويرد هذا القول أنه دليل على شرفه وكرامته، ودليل على رفيع شأنه وعظيم مكانته - ولا شك - ولكنه ليس دليلاً على تفضيله عليهم، فالتكريم غير التفضيل.

ومثال ذلك ما حدث ليوسف مع أبويه: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف].

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: (وخَرُّوا له) يعني أبويه وإخوته. وفي هاء (له) قولان، أحدهما: أنها ترجع إلى يوسف، قاله الجمهور. قال ابن الأنباري: سجدوا له على جهة التحية، لا على معنى العبادة، وكان أهل ذلك الدهر يحيي بعضهم بعضاً بالسجود والانحناء»[١].

فسجد سيدنا يعقوب لابنه سيدنا يوسف - عليهما السلام - ولكن لم يستدل به أحد على فضل يوسف على سيدنا يعقوب.

إذاً فليس لدينا ما يثبت فضل آدم على الملائكة، بل الأمر على العكس، والمقام لا يسمح لنا بأن نسترسل في الموضوع.

فإذا لم يكن هناك دليل على أن الخلافة التي رُشِّحَ لها آدم كانت أرفع شأناً وأعظم خطراً من مكانة الملائكة في هذا الكون، فكيف يقال: إن الملائكة تمنوا أن ينالوا تلك الخلافة التي أرادها الله لآدم، وأرادوا أن يثبتوا أحقيتهم بها فقالوا ما قالوا؟

وإنما القول في ذلك ما فُصِّلَ مسبقاً من أن الملائكة لم يريدوا بقولهم ذلك إلا تقريراً لطاعتهم وخضوعهم لمشيئة الله.

فلما أبدت الملائكة قلقهم وانزعاجهم لهذا القرار مع الالتزام الكامل بحسن الأدب وحسن الخضوع لمشيئة ربهم - وكان ذلك نتيجة طبيعية لفطرتهم البريئة، التي لا ترضى لربها إلا الخشوع والبر والانقياد - أحب ربهم أن يمسح عنهم هذا القلق والانزعاج، فطمنهم أولاً بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: هَوِّنُوا عليكم واطمئنوا فإن الأمر على غير ما قَدَّرتموه، ولما يتضح لكم القرار على جليته. ثم علم آدم أسماء ذريته، وكان فيهم الرسل والأنبياء، وكان فيهم الشهداء والصديقون والصلحاء، ورأى آدم الأنبياء والرسل فيهم مثل السُّرُجِ عليهم النور[٢].

ولما علم آدم أسماء ذريته الطيبين الطاهرين وعرفهم عرضهم ربنا - سبحانه وتعالى - على الملائكة المقربين وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في ظنكم الذي ظننتم بهم من أنهم جميعاً يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فأنبئوني مَنْ هؤلاء؟ هل تلك الوجوه النيرة المشرقة الوضيئة أيضاً وجوه

---

(١) زاد المسير: ٤/ ٢٩٠.

(٢) انظر زوائد المسند: ٥/ ١٣٥، وسنده حسن موقوف ولكنه في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي.

المفسدين في الأرض!

ثم بعد ذلك أمر آدم أن ينبئهم بأسمائهم، فأنبأهم آدم - مثلاً - بأن هذا نوح، وذاك إبراهيم، وهذا من أعماله كيت وكيت، وذاك من بطولاته ذيت وذيت.

فلما علم الملائكة ذلك فرحوا واستبشروا، واطمأنوا إلى روعة القرار.

وبعد هذا الحوار الذي جرى بين ربنا - سبحانه وتعالى - وبين الملائكة حول خلافة آدم تأتي هذه الآيات:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

هذه الآيات - كما هو ظاهر من سياقها - تكملة للمشهد، فإن سجود الملائكة لآدم لم يكن إلا تطبيقاً لفكرة الخلافة في صورتها العملية البدائية.

وكذلك إسكان آدم في الجنة لم يكن إلا تدريباً عملياً لمهمة الخلافة، فقد عرف آدم هناك جسامة المسؤولية التي ألقيت على عاتقه، كما أدرك تلك الصعوبات والمحن، التي ستعترض طريقه.

وبعد أن اطلع على مخاطر الطريق وعرف كيف ينجو منها إذا وقع فيها، أُهبط من الجنة إلى الأرض وقد زُوِّدَ بهذه الوصية الغالية:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ثم القصة هنا بسياقها وأسلوب عرضها تنبه على بالغ رعاية الله وعظيم ربوبيته وحسن تكريمه لآدم.

وبيانه أن فكرة خلافة آدم لم تلق في أول أمرها ذلك القبول والترحيب فإن ملائكة القدس أبدوا قلقهم واستغرابهم حين سمعوا بها، لأنهم خافوا من الخليفة، أنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فخلق الله آدم ثم خلق الصالحين من ذريته، حتى يقتنع

الملائكة اقتناعاً كاملاً بحكمة إرادة الله وعظمتها، ويشاهدوا عياناً أن الأمر على غير ما قَدَّروه.

وكان من شدة تكريمه لآدم أنه - تعالى - لم ينبىء الملائكة بأسماء ذريته ابتداء، بل علم آدم أولاً ثم جعل آدم هو الذي ينبئهم إظهاراً لفضله وإشعاراً بمكانته وجلالة قدره.

ثم خَصَّه بتكريم آخر حيث أمر الملائكة كلهم أن يسجدوا له زيادة في تكريمه وتنويهاً برفيع شأنه، ولما لم يسجد إبليس أنحى باللائمة عليه:

﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ثم أسكنه الجنة وتركه يتقلَّب في نعيمها حيث يشاء، ولما أَزَلَّه الشيطانُ بتحريضه على الأكل من الشجرة الممنوعة وأخرجه مما كان فيه من رغد العيش وطيب المقام أسرعت إليه العناية الإلهية الحانية وألهمته كلمات تنجيه من سخط الله وترجعه إلى ما كان فيه من رعايته، ووعدته في نفس الوقت أن هذه الرعاية وهذه العناية بذرية آدم ستستمر لمن أراد:

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩) ﴾.

وهكذا نرى السياق يحكي القصة كلها بأسلوب يوحي بالتكريم المتواصل والرعاية الدائمة والعناية البالغة بشأن آدم وذريته.

* * *

نظم الآيات (٤٠-٦٢)

وبعدما ينتهي السياق من ذكر هذه القصة التاريخية الهامة يتوجه بالخطاب إلى بني إسرائيل بأسلوب يملأه العطف واللين ويشوبه الزجر والموعظة:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ (٤٠) وَءَامِنُواْ بِمَآ
أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُواْ
ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣)
۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾

* * *

لقد رأينا فيما مضى كيف أكرم الله سبحانه وتعالى آدم وذريته، وكيف أنعم عليهم وخصَّهم بالمنزلة الرفيعة والمكانة العالية في هذا الكون، ولا شك أنه كان لبني إسرائيل من ذلك التكريم ومن تلك النعم نصيب وافر، ولكنهم قابلوه دائماً بالعنجهية والجحود والكفران.

ولقد كانت هذه البعثة الجديدة إحدى تلك النعم، بل كانت على رأسها، فإن الخلافة في الأرض قائمة على أساس هذه الرسالات، ولا يتصور أن ينهض الإنسان بتلك الأمانة العظمى بعيداً عن هذه الرسالات.

بالإضافة إلى أن بني إسرائيل كانوا يمتون بصلة خاصة إلى هذه الرسالة الجديدة، فقد بشرت بها كتبهم ونادت بها رسلهم منذ قديم الزمان، ولقد أخذ منهم العهد والميثاق أن يكونوا أسبقَ الناس إلى هذا الدين إذا سمعوا به، فكان يملي عليهم الواجبُ أن يكونوا أسرع الناس إليه ويكونوا أول مؤمن به.

ولكنهم عكسوا الأمر واتخذوا موقفاً غير الموقف الذي كان ينتظر منهم.

فجاءت هذه الآيات تذكرهم بواجبهم نحو هذه البعثة المباركة، التي ما ظهرت إلا لإتمام النعمة عليهم بإقامة خلافة الله في الأرض في أروع صورة وأكملها.

وكان من فضائحهم أنهم لم يرقبوا عهد الله في يوم من أيامهم بل كتموا الحق وكذبوا الرسل وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وبعد ذلك كانوا ينتظرون من الله أن يوفي بعهدهم، مع أن عهدهم كان مشروطاً بعهد الله، حيث قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة].

على الرغم من هذا البيان الصريح هم تمنوا على الله الأماني، ولم ينهضوا لأداء ما كان عليهم من شرط الإيفاء بعهد الله.

ثم انتهى بهم الأمر إلى أن يطلبوا من النبي وأصحابه كذلك أن يبروهم ويحسنوا إليهم، ويدوموا لهم على هذا البر والإحسان، على الرغم من مخالفاتهم ونقضهم لعهودهم ومواثيقهم.

كان هذا شأنهم وكانت هذه مواقفهم، مع أنهم كانوا يتلون الكتاب، وكانوا يعرفون سنن الله في العباد.

فقيل لهم على سبيل النصح والموعظة: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

وقيل لهم على سبيل الزجر والعتاب: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وهنا ينصرف الخطاب بسرعة عجيبة إلى هؤلاء الناس، الذين كان يأمرهم بنو إسرائيل بالبر ولا يأتمرون به، وهم ذلكم الركب الكريم الذين هداهم الله للإيمان، والذين كانوا يعانون من بني إسرائيل ما يعانون:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أُمِرَ هؤلاء المؤمنون أن يستعينوا ضد من يعارضهم بالصبر والصلاة، فهذا هو السلاح الناجع والدرع الواقي لكل من أراد أن يسلك هذا الطريق وأراد أن يصحبه النجاح والتوفيق.

ولقد تكرر هذا التوجيه الكريم في نفس السورة وبنفس السياق حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

إلا أن هناك فرقاً بين الموضعين، حيث أن التوجيه الأول ينبه إلى تلك الشحنة الداخلية، التي إذا تعبأ بها المسلم تمكن من الاستعانة بالصبر والصلاة، وهي الإيمان بلقاء الله والإيمان برجوعه إلى الله.

وجاء هذا التوجيه في أوانه، قبل احتدام المعركة، حين كان المسلمون في فترة الإعداد والتربية.

وأما التوجيه الثاني فهو يرشد إلى الصبر والصلاة، ويركز على الصبر بصفة خاصة، فإن المسلمين قد دخلوا في المعمعة، وكثر فيهم القتلى والجرحى، وكانوا بأمس حاجة إلى توجيه يحثهم على الصبر ويثبتهم على الطريق.

وبعدما يزود السياق جماعة المسلمين بهذا الزاد الكريم، يتوجه مرة أخرى إلى بني إسرائيل ويواصل معهم الحديث، فإن الآيتين (٤٥-٤٦) ما جاءتا إلا كالجملة المعترضة في أثناء الحديث معهم للغرض الذي أشرنا إليه آنفاً، قال تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ
شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (٤٨) وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ
سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (٤٩) وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ
فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ
وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٥٢) وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ
لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (٥٣) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ
فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ
حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٥٧) وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ
سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ
لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا
ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن
رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٦٠) وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ
لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ
بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ
ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ
يَعۡتَدُونَ (٦١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٦٢) ﴾

إن هذه الفقرة بكاملها جاءت شرحاً وتفصيلاً للآية التي مضت معنا في الفقرة السالفة، وهي قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٤٠) ﴾

فهي تفسّر تلك النعم الجسام، التي تتابعت على بني إسرائيل وتفصلها تفصيلاً بعدما أشارت إليها تلك الآية الكريمة إشارة مجملة خاطفة.

فالأسلوب هنا أسلوب التفصيل بعد الإجمال، وهو أسلوب شائع في القرآن.

ومما يجدر بالانتباه أن النعم في هذه الفقرة مصحوبة بذكر عاقبة كفرانها، فهي تعدد أولاً تلك النعم الكبار التي أُسبغت على بني إسرائيل في فترة تعتبر أقسى فترة وأحرجها في تاريخهم.

ثم تتبعها عقوبة نكرانها، حتى تبرز ناحية الدينونة والجزاء، ويتلاءم السياق تماماً مع قوله تعالى:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

ثم هناك ناحية أخرى يتبادر إليها ذهن المتأمل في نظم هذه الآيات، وهي ناحية لطيفة تحتاج إلى شيء من الإيضاح.

لقد مضى معنا في الفقرة السابقة أن بني إسرائيل نبذوا عهد الله ونقضوه، ومع ذلك كانوا يحلمون أن يتقلَّبوا في نعيم الله وكانوا يتمنون أن تبقى لهم مكانتهم عند الله.

وهم كلما عاهدوا عهداً مع النبي وأصحابه نقضوه، ومع ذلك كانوا ينتظرون منهم أن يبرُّوهم ويُحسِنوا إليهم، فقيل لهم:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾.

وقيل لهم:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾.

وهنا يوحي إلينا السياق أنه بلغت بهم وقاحتهم إلى أن ظنوا بهذه الرسالة الجديدة المباركة ظن السوء، وأشاعوا عنها أنها ليست نعمة ولا رحمة للناس، وإنما هي رسالة تتسم بالقسوة والغلظة والاعتداء، فالنبي ﷺ يعاملهم دائماً معاملة قاسية، ويؤاخذهم على تصرفاتهم مؤاخذة شديدة، فلا بِرَّ هناك ولا مجاملة، وإنما هو ظلم واعتداء.

فهذه الآيات تُذكِّرهم تاريخهم وتنبههم إلى طبيعة الرسل والرسالات، فالرسل لا يعاملون الناس على أحسابهم وأنسابهم، وإنما يعاملونهم حسب أعمالهم وتصرفاتهم.

وتاريخهم إن كان حافلاً بنعم الله المتواليات، فهو حافل كذلك بعقوباته المتلاحقات.

فلينظروا أن موسى (عليه السلام) وهو نبيهم الذي يعتزون به - قد أمرهم بقتل

أنفسهم حين ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل.

ولينظروا أنهم لما قالوا لنبيهم: أرنا الله جهرة، أخذتهم الصاعقة بظلمهم.

ولينظروا أنهم قد ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، ولكنهم لما قابلوا هذه النعم بالكفران، ذاقوا وبال أمرهم.

ولينظروا أنهم قد قيل لهم ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، ولكنهم بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزل عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون.

ولينظروا أنهم لما قالوا لنبيهم: لن نصبر على طعام واحد زجرهم نبيهم وعنفهم وقال لهم: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم.

فإذا كان هذا تاريخهم وكانت هذه أيامهم، فما بالهم يحملون الحقد على هذا النبي وأصحابه؟ فإنهم كلما أصابتهم نفحة من عذاب ربهم بسبب سوء تصرفاتهم اتهموا النبي وأصحابه وقالوا هؤلاء هم الذين جلبوا علينا هذا السوء، مع أن السبب فيما يعانون اليوم هو هو، لم يتغير عما كان عليه بالأمس، وهو أنهم نسوا الله ونسوا نعمه المتواليات ونقضوا عهده فنسيهم وتخلى عن عهدهم وتركهم وحصائد أعمالهم.

وبعدما ينتهي السياق من ذكر بعض فضائحهم، التي اقترفوها في تاريخهم القديم، وينتهي من الإشارة إلى بعض العقوبات التي حلت بهم لقاء تمردهم وعصيانهم، يُجْمِلُ القولَ ويذكر تلك النتيجة الرهيبة التي ترتبت على سوء تصرفاتهم وسوء مواقفهم:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

وهنا يقف السياق وقفة قصيرة ليستدرك ما قد يعلق بالأذهان بعد سماع هذه الآية، وهو أن باب التوبة والرجوع إلى الله قد سُكِّرَ أمام اليهود وأعوانهم مطلقاً، فلا يمكن أحدهم أن يعود إلى الطريق ويصل حبله بالله إذا أراد، ولا يمكن أحدهم أن يخرج مما قد أحاط به من غضب الله، ولا يمكنه أن يتخلص مما قد ضرب عليه من الذلة والمسكنة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ

﴿أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

فهذه الآية ترد هذا الوهم وتُدْخِلُ برد الاطمئنان إلى كل قلب يريد أن يقلع عن المعصية ويثوب إلى الرشد.

إنها تفسح المجال لكل من أر اد أن يتوب، كائناً من كان، ومن أيّة فرقة أو طائفة كان.

إنها تفتح الطريق لكل من أراد أن يقترب من الله وينال جنته ورضوانه، سواء كان هذا الشخص من الذين آمنوا، أو كان من اليهود، أو النصارى، أو الصابئين.

إنما المهم أن يؤمن المرء بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً فإذا توفرت هذه الشروط في أي شخص فلا يضره أن كان - في السابق - يهودياً أو نصرانياً، أو. . . أو. .

ومما لا يخفى أن كلمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جاءت في الآية كعَلَم لطائفة معينة أو جماعة معينة، مثل ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ ومثل ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ فإذا كان الرجل من طائفة تُعرف باسم من هذه الأسماء فهذه الصلة أو هذا الانتماء لا ينفعه ولا يضره، فإنما الاعتبار عند الله للعقيدة الصافية والأعمال الصالحة، دون هذه الأسماء أو لغيرها من الأسماء.

* * *

نظم الآيات ٦٣-٨٢

وبعدما ينتهي السياق من هذا الاستدراك يرجع إلى ما كان فيه من الحديث عن
فضائح اليهود: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ
بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْـَٰٔنَ

جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

* * *

لقد ذكر في الفقرة السالفة موقف بني إسرائيل إزاء تلك النعم المادية التي أفيضت عليهم، فذكرت نعمةً أو جملةً من النعم ثم ذكر موقفهم منها.

أما هذه الفقرة فقد ذكر فيها الصنف الثاني من نعم الله، وهي النعمة الروحية المعنوية المتمثلة في وحي الله وتنزيله ورسالاته وشرائعه.

لقد ذكرت فيها هذه النعمة، التي هي في الواقع أكبر نعمة أفيضت عليهم، ثم ذكر موقفهم المخجل منها.

نعم، لقد ذكرت هذه النعمة في الفقرة السالفة كذلك حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ولكنها ذكرت هناك عرضاً في ضمن بيان عفو الله عنهم، حين اتخذوا العجل، حيث أنه عفا عنهم، ولم يمسك عنهم هذا العطاء الكريم بسبب ما اقترفوه من الإثم، فكان هذا من دلائل العفو عنهم.

ومن ناحية أخرى، فقد كانت النعم التي أفيضت عليهم، والتي ذكرت في الفقرة السالفة، بمثابة مواثيق أخذت منهم، إلا أنها كانت مواثيق مفهومة صامتة.

فبعد تلك المواثيق المفهومة الصامتة ذكر هذا الميثاق الناطق الصريح: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم ذكر موقفهم منه كما ذكرت مواقفهم من أمثاله من المواثيق، ولقد تناول القرآن هذا الحديث بأسلوب تهتز له النفس، حيث ذكر في الآية الأولى كيفية أخذ الميثاق على التمسك بالكتاب، وذكر ذلك الاهتمام البالغ بشأنه.

ثم ذكر في الآية الثانية كيف تَوَلَّوْا عنه على الرغم من هذا التأكيد، وهذا الاهتمام البالغ الذي بذل فيه.

وبسرعة عجيبة مذهلة يفاجىء السامعين بذكر المِنَّةِ العظيمة والنعمة السابغة التي أفاضها عليهم حيث أنزل إليهم هذا الكتاب بفضل منه ورحمة، فأعطاهم بذلك فرصة جديد لاكتساب الفلاح وللابتعاد عن الخسران بعد ما فاتتهم الفرصة فيما مضى بسبب غفلتهم وإعراضهم عن كتاب الله: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ولقد روي عن أبي العالية في تأويل الآية مثل هذا القول، قال ابن جرير حدثني المثنى بن إبراهيم، قال: ثنا أبو النضر، عن الربيع، عن أبي العالية ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ قال: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن(١).

ويبدو أن صاحب الظلال أيضاً يميل إلى هذا التأويل حيث قال: ولكن هيهات! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها، وغلبت عليها جِبِلَّتها: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم أدركتها رحمة الله مرة أخرى، وشملها فضله العظيم، فأنقذها من الخسار المبين: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٢).

لكنتم من الخاسرين كما خسر إخوانكم الذين اعتدوا في السبت، فحلَّ بهم ما حل من سخط الله.

مناسبة ذكر المعتدين في السبت:

وخص بالذكر هنا أهل السبت، لأن اعتداءهم في السبت إنما كان اعتداء على كتاب الله فإنه ما جُعِلَ السبتُ عليهم إلا ليتفرغوا فيه لكتاب الله، يتدارسونه فيما بينهم، ويعكفون عليه ويجددون صلتهم به وينشطون للنهوض بأحكامه، فلما اعتدوا فيه، كان هذا اعتداء مباشراً على كتاب الله.

فاقتضت المناسبة أن تُذكر قصتهم هنا تحذيراً من عاقبة التفريط في جنب كتاب الله وتخويفاً من مغبة الاعتداء على حقه.

ومثل هذا النظم نرى في سورة الأعراف، حيث ذُكرت نفس القصة بشيء من التفصيل، ثم جاءت هذه الآيات: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/٣٢٨.

(٢) في ظلال القرآن: ١/٧٦.

﴿ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف].

هذه الآيات تدور في مجموعها حول موضوع الكتاب، حيث أنها تذم الذين فرطوا في جنب كتاب الله، وأخلدوا إلى الدنيا وشهواتها ونسوا عهودهم ومواثيقهم، وتثني على المصلحين الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة، ثم هي تذكر الميثاق الذي تم في ظل الجبل بشأن كتاب الله والذي تشير إليه الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها من سورة البقرة.

ولا شك أن النظر في نظم هذه الآيات وسياقها يساعدنا في التوصل إلى أبعاد قصة أهل السبت وطبيعتها، ويكشف لنا عن حقيقتها ودلالاتها، ويزيدنا اطمئناناً إلى ما أشرنا إليه سابقاً من أن الاعتداء في السبت إنما كان اعتداء مباشراً في شأن كتاب الله، ولذلك اشتد غضب الله عليهم، وجُعلوا نكالاً لمن خلفهم وموعظة للمتقين.

وبعد التلويح إلى سوء عاقبة التفريط في جنب كتاب الله أو الاعتداء على حقه يعود السياق، فيذكر نموذجين مخجلين من تاريخ بني إسرائيل للتلاعب بكتاب الله والاستهزاء بأوامره.

وتاريخهم وإن كان يعجُّ بمثل هذه القصص الشائنة المخجلة إلا أن لهاتين القصتين طبيعة خاصة ومناسبة ماسة بالموضوع.

النموذج الأول:

إن بني إسرائيل - كما نعلم ويعلمه الجميع - قد أُشربوا في قلوبهم العجل، وكان هذا حجر عثرة في طريقهم إلى الله، وكان يعوقهم عن التمسك بكتابه والخضوع لأوامره، ولقد أشار القرآن في نفس السورة إلى هذا الواقع المؤلم:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة].

ولم يكن لمرضهم هذا علاج إلا أن يُؤمروا بذبحِ بقرة!

ويقارب هذا ما ذهب إليه الأستاذ المودودي - رحمه الله - حيث قال، وهو يفسر هذه الآيات: «كان بنو إسرائيل - في فترة إقامتهم بمصر - جِيرةَ قومٍ يعبدون البقر، ويبذلون لها كل تعظيم وتقديس، ومن هنا تعدى هذا المرضُ إليهم واستشرى فيهم فأُمروا أن يذبحوا بقرة.

ولم يكن هناك طريق أفضل لاختبار صدقهم في إيمانهم من أن يؤمروا بتحطيم ذلك الصنم الذي كانوا يعبدونه، قبل أن يدخلوا في حظيرة الإيمان، بأيديهم.

وكان هذا الاختبار بالنسبة إليهم صعباً جداً. وإذ لم يكن الإيمان قد استقر في قلوبهم، فقد حاولوا أن يتملصوا من هذا التكليف وراحوا يسألون ويسألون، وكلما ازدادت أسئلتهم، ازداد الأمر عليهم ضيقاً وتعقيداً، حتى انتهى الأمر بأن كُلِّفوا بذبح بقرة ذهبية كانت تُختار عندهم وتُخصَّصُ للتقديس والعبادة.

ونجد في العهد القديم إشارات إلى تلك الواقعة إلا أنه لا يذكر تلكُّؤ بني إسرائيل في تنفيذ هذا الأمر وروغانهم للتملص منه. (انظر سفر العدد ١٩: ١-١٠)»[١].

وعلى أية حال فقد جاءهم الأمر بالذبح وأبلغهم نبيهم أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، وكان الأمر موضع جِدٍّ وصرامة ولكنهم أخذوه مأخذ الهزل وأتعبوا نبيهم بأسئلتهم اللاغية المحرجة.

وبلغت بهم درجة الوقاحة أنهم أرادوا أن يظهروا في نفس الوقت وكأنهم جادون مخلصون في تلك الأسئلة وحريصون غاية الحرص على أن ينفذوا ما أمرهم الله به حيث قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾.

وبعد تردد ومماطلة ونقاش طويل ذبح هؤلاء البقرة، ولكنهم ذبحوها وكأنهم لم يذبحوها: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

فإن ذبحهم لها، إذ لم يكن في أوانه وفور سماع أمره قد فقد روحه وفقد معناه.

وعلى هذا فلا يعتبر هذا الذبح تنفيذاً وامتثالاً لأوامر الله، وإنما هو استهزاء وسخرة وتلاعب بكتاب الله!

---

(١) تفهيم القرآن: ١/ ٨٥-٨٦.

النموذج الثاني:

والقصة الأخرى أيضاً تدل - كأختها - على تلاعبهم بكتاب الله، واستخفافهم بأوامر الله، فقد حدث أنهم قتلوا نفساً منهم، ثم جعل كل فريق منهم يدرأ عن نفسه التهمة ويبرؤها من تلك الجريمة، فالذي عرف القضية أو تلبس بها أسدل عليها ستور الكتمان، والذي لم يعرفها لم يُتعب نفسه في البحث عن حقيقتها، واقتصر على درء التهمة عن نفسه إلى غيره، علماً بأنهم كانوا ملزمين جميعاً بأن يكشفوا القاتل بدون مواربة ولا محاباة، ويطبقوا قانون القصاص الذي كان موجوداً عندهم في التوراة، كما ينص عليه القرآن:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾ [المائدة].

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾ [المائدة].

فلما تواطأ الجميع على كتمان الجريمة، أظهر الله اسم القاتل، فإنه قد قرر أن يُخرج ما كانوا يكتمون، وقال لهم: اضربوا هذا الشخص ببعض تلك النفوس المقتولة.

وإلى هذا المعنى ذهب صاحب «تفسير المنار» حيث قال وهو يفسر هذه الآية: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ المشهور أن معناه: اضربوا القتيل بجزء من البقرة، ويرى بعض المدققين أن هذه قصة غير قصة البقرة، فتلك انتهت بالإحالة على حكم التوراة المعروف وأن المراد في هذه ضرب المتهم بالقتل ببعض أعضاء القتيل...[1].

فكان أن دبت الحياة في تلك النفس المقتولة لما ضرب هذا الشخص ببعضها، ونطقت وشهدت أن هذا الشخص الماثل أمامها هو القاتل.

وهكذا انكشف الأمر وافتضحت المؤامرة المشؤومة ضد كتاب الله!

هذا ما يظهر لنا في تأويل تلك الآيات، حين نتأمل في نظمها وسياقها وأسلوبها وألفاظها.

---

(١) مختصر تفسير المنار: ١/ ٦٥.

ولقد ذهب الناس في تأويلها مذهباً آخر.

فيقول - مثلاً - الأستاذ سيد قطب وهو بصدد تأويلها: «هنا فقط.. وبعد أن تعقَّد الأمر، وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾...

الآن، كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة! ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

عندئذ - وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف - كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾.

وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة، جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة، وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة.

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة... لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم، ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويُلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعضٍ من تلك البقرة الذبيح.. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحقَّ الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين»[١].

هذا ما يراه الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في تأويل تلك الآيات، وهو نفس التأويل الذي ذهب إليه الناس قديماً وحديثاً، وكان أولى بنا كذلك أن نكون مع هذا التأويل، إلا أن هناك أموراً تقسرنا قسراً على العدول عنه، وهي كما يلي:

الأمر الأول:

أن بني إسرائيل قد أُشربوا في قلوبهم العجلَ كما ينص عليه القرآن، وكما نعلم من ترددهم وتلكؤهم في ذبح البقرة، التي أُمروا بذبحها، وهذا الذي مكَّنَ السامري من أن يعود بهم مرة أخرى إلى عبادة العجل.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٧٩.

وقد بلغ بهم الأمر إلى أنهم كلما رأوا صنماً يُعبدُ من دون الله هاج بهم الشوقُ إلى أن يعبدوه، ويشهد لنا بذلك القرآن حيث قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [الأعراف].

تلك الأمة التي لم تتخلص من حب العجل وحب الصنم، رغم ما رأت وشاهدت من آيات الله البينات المتواليات، لا يتصور أن حكمة الله تجعل أمامها البقر وسيلة عودة الحياة إلى تلك النفس المقتولة، فإن هذا الحادث يغرس فيهم حب العجل وقداسة البقر وينمي فيهم نوازع الشرك ونوازع الكفر، بينما القوم كانوا بأمس حاجة إلى عملية تنزع من قلوبهم هذا الحب وهذه القداسة وتُشعرهم أنها ليست إلا لأن تُذبح وتؤكل.

وكان الأمر هكذا، فإنهم ما أُمروا بذبح البقرة إلا لِيُنْزَعَ حبُّها من نفوسهم وتُحطَّمَ قداستها في قلوبهم، وبين لهم أنها ليست إلهاً يعبد، وإنما هي لحم يُمضغ ويؤكل.

الأمر الثاني:

أن قصة قتل النفس ذُكرت بعد قصة ذبح البقرة، والظاهر أن قصة قتل النفس لو كانت متقدمة على قصة ذبح البقرة، وكان الهدف من ذبح البقرة ذلك الذي ذكروه لكان الترتيب على العكس.

ودعوى التقديم والتأخير في النظم الحكيم ليست أمراً هيناً حتى نقول بها كلما تعرقل مسيرنا أو خفي علينا التأويل الصحيح للآيات.

الأمر الثالث:

ذكر الله تعالى المقتول بالنفس فقال: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ ثم جاء لها بضمير المؤنث حسبما كان يقتضيه اللفظ فقال: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ فرجع ضمير المذكر في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ﴾ إلى تلك النفس على تأويل (المقتول) وإن كان صحيحاً سائغاً من ناحية الإعراب، إلا أنه مع ذلك عدول عن الأصل، وهو يحتاج إلى دليل.

الأمر الرابع:

أن كلمة (إذ) تفصل الكلام الذي بعدها من الذي قبلها، وتجعله كلاماً مستقلاً

قائماً على حدة، فلا يجوز إذاً أن يرجع الضمير الذي جاء بعدها إلى الاسم الذي قبلها.

هكذا نعلم إذا تقصينا استعمالاتها في القرآن وفي كلام العرب.

وعلى هذا فلا يجوز رجعُ الضمير في قوله تعالى ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ إلى البقرة التي ذكرت قبل (إذ) ولم يرد لها ذكر بعدها.

هذه أربعة أمور تقسرنا قسراً على العدول عن ذلك التأويل.

ومع ذلك فلسنا ندعي العصمة من الخطأ، فالعصمة لله، وهو الذي يعلم الصواب من الخطأ، وحسبنا أن بذلنا الجهد وتوكلنا على الله.

منظر رهيب لقسوة القلوب:

ومن عجيب المناسبة بين القصتين - ما عدا التي أشرنا إليها آنفاً - أنهم استعظموا الأمر بذبح البقرة حين أُمروا به، وتلكأوا فيه وما رضوا أن يمتثلوا لهذا الأمر إلا كرهاً وبضيق الأنفس.

ولكنهم استهانوا بتلك النفس البشرية وتواطأوا على إهدار دمها ولم يروا بأساً بالتلبس بتلك الجريمة وكتمانها!

كأن دم الحيوان كان أغلى عندهم من دم الإنسان!

وهكذا تنتكس العقول وتتبلد النفوس حين يتواطأ الناسُ على التلاعب بكتاب الله، وحينما يستخفُّون بشأنه ويعدلون عن أحكامه.

وما برح بنو إسرائيل يتلاعبون بكتاب الله ويستخفون بشأنه على الرغم من تلك الآيات المتواليات التي رأوها بأعينهم.

فماذا كانت هذه النتيجة؟

كانت النتيجة أنْ قست قلوبهم وقست، وقست حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة!!

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾

وتلك هي النتيجة الطبيعية الحتمية لنبذ كتاب الله والاستخفاف بشأنه، فما حُمِّلَ قومٌ

كتاباً من عند الله ثم تولوا عنه وأعرضوا إلا حلت بهم تلك العقوبة.

وبعدما ينتهي السياق من ذكر موقف بني إسرائيل القدامى من كتابهم: التوراة، يأخذ في ذكر موقف أخلافهم من هذا الكتاب: (القرآن) الذي أنزل إليهم مصدقاً لما معهم:

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا
عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا
فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ
الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ
لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ
عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

يقسم السياق هنا هؤلاء اليهود المعاصرين إلى قسمين:

قسم منهم كان يمثله الدهاة الطغاة من علماء السوء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، والقسم الثاني كان يمثله الأميون أو الهمج الرعاع، الذين ليس لهم عقل ولا دين، ولا يعلمون الكتاب إلا أماني.

وكلا القسمين لا مطمع لطامع في إيمانهم.

فالرهبان والأحبار كان لهم حظ أوفى من قسوة القلب كما كان لأسلافهم، فهم كانوا يسمعون كلام الله غضاً طرياً، ثم كانوا يحرفونه.

وكانوا يحرفونه عن فهم وإدراك لا عن جهل وغفلة.

وكانوا يُحمِّلونه ما لا يحتمله ويصرفونه إلى ما لا ينصرف إليه.

كانوا يحرفونه إلى ما يتفق وأهواءهم، ويخدم مآربهم.

وكان من قسوة قلوبهم كذلك أنهم كانوا يخادعون المؤمنين، فكانوا يزعمون لهم إذا جلسوا إليهم أنهم منهم ثم إذا رجعوا وخلا بعضهم إلى بعض أقبلوا يتلاومون فيما بينهم، أن كان فيهم من خرج - سهواً - عن أساليبهم الملتوية، وأبدى رأيه المحض الصريح بدون تحفظ عن القرآن الذي جاء به هذا النبي ﷺ.

هكذا كانت مهمة علمائهم وأحبارهم تجاه كتاب الله!

وأما الأميون منهم فكان كتاب الله عندهم عبارة عن أماني وأحلام كاذبة فارغة عن التكاليف والواجبات، فإن الذي كان بأيديهم وكان يملأ أسماعهم وأفئدتهم لم يكن كتاب الله، وإنما كان مما يكتبه أحبارهم بأيديهم!

كان مما يكتبه أحبارهم الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون! كان مما يكتبه أحبارهم ويُضمِّنونه كل ما تملي عليهم أهواؤهم، وكان من شأنه أن يخدم مآربهم، ثم يروجونه بينهم باسم كتاب الله!

والأميون يحتضنونه، وكأنه - في الواقع - كتاب الله، مع أن كتاب الله في واد وهم في واد! وهم أبعد ما يكونون من الكتاب في وقت يحسبون أنهم مستمسكون بالكتاب!

وكان من ضمن تلك الأماني، التي تلقوها من (كتابهم) وكانوا يعيشونها، أنهم لن تمسّهم النار إلا أياماً معدودة، فرد القرآن إليهم تلك الأمنية الفارغة، التي لا تتلاءم مع العدل الإلهي، الذي لا يعرف الأنساب والأحساب، وإنما يعامل حسب ما كسبوه من حسنات أو سيئات:

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

* * *

نظم الآيات (٨٣-٨٧)

وبعدما يتضح موقف اليهود من كتاب الله، سواء كانوا محدثين أو قدامى، وسواء كان موقفهم من القرآن أو من الكتب السالفة، يعود السياق، فيفصل ذلك الميثاق الذي ورد ذكره في مستهل الفقرة السابقة في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

كان الميثاق وكان ما أتاهم الله مُجْملاً في تلك الآية، فيتناوله السياق هنا بشيء من التفصيل، ويتبعه كذلك ذكر موقفهم السيىء من ذلك الميثاق، حتى تكون الصورة متكاملة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

* * *

ولقد ذهب الأستاذ سيد قطب (رحمه الله) في تأويل تلك الآيات إلى ما أشرنا إليه، حيث يقول: «ولقد سبقت الإشارة إلى الميثاق في معرض تذكير الله لبني إسرائيل بإخلاف موقفهم معه في الدرس الماضي، فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق.

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل، والذي أُمروا أن يأخذوه بقوة، وأن يذكروا ما فيه.. أن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله»[1].

وهنا يثور سؤال بطبيعة الحال:

ما الحكمة في إيراد هذا التفصيل بعد ذاك الإجمال؟

إن البحث عن هذه الحكمة يقتضي منا أن نرجع قليلاً، ونتذكر تلك الآية الكريمة، التي مضت معنا قريباً وهي:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

لقد اقتضت الحكمة نظراً إلى هذا الوضع، الذي تشير إليه الآية، أن يؤتى ببعض التفصيل لما يحويه ذلك الكتاب أو لما يتضمنه ذلك الميثاق، حتى تنكشف لهؤلاء الأميين حقيقة الأمر، ويعرفوا أن الكتاب أو الميثاق لا يعني الأحلام والأماني، كما لقّنهم الربانيون والأحبار، وإنما هو عمل وجهاد وتكاليف وواجبات، وإنما يتحقق وعد

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٨٧.

الله في الآخرة لمن ينهض بتلك التكاليف ويؤدي تلك الواجبات، وأما من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وتمنى على الله الأماني، بدون أن يتحرك للعمل أو يبتعد من المنكرات، فله في الدنيا خزي، وله في الآخرة أشد العذاب.

لفتة بارعة:

وهناك لفتة بارعة لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز في ربط هذه الآيات بما قبلها حيث يقول (رحمه الله): «ولقد أُمر النبي أن يوسع هذا الزعم - أي قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة - دحضاً وإبطالاً، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا، ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الإلهي الذي لا يعرف شيئاً من الظلم والمحاباة لأحد، بل الخلق أمامه سواء، كل امرىءٍ رهينٌ بعمله، ومن يعمل سوءاً أو حسناً يُجْزَ به، ثم يعارضه بقلب القضية عليهم مبيناً لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم: ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتم؟ ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم؟ ثم آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض، وحكَّمتم أهواءكم في الشرائع فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم»[(١)].

وبعدما ينتهي السياق من تفصيل موقفهم من ميثاقهم وينتهي من تعنيفهم على إعراضهم وسفك دمائهم واعتدائهم على إخوانهم، يزيد فيذكر تصرفاتهم مع رسلهم وأنبيائهم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

فقد بلغت بهم الضراوة بالإثم والعدوان، أنهم لم يقنعوا بقتل خيارهم وعداء الصالحين من إخوانهم، المتمسكين بدينهم، بل تجاوزوا ذلك إلى تكذيب رسلهم وقتل أنبيائهم.

حقيقة هامة تستفاد من نظم هذه الآيات:

ويوحي إلينا نظم هذه الآيات أن القتل والإخراج الذي عوتب عليه بنو إسرائيل في

---

(١) النبأ العظيم: ١٨١-١٨٢.

الفقرة السابقة، إنما هو قتل الصالحين منهم وإخراجهم من ديارهم، فتلك ميزتهم التي يتميزون بها على مدى تاريخهم، فهم دائماً قتلوا الصالحين منهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم، وإن أتاهم هؤلاء أسارى عاملوهم بالفدية[1] وما رضوا أبداً أن يطلقوا سراحهم بدونها.

وتلك شنشتهم التي مضوا عليها في جميع عصورهم، وفي يومهم الذي كان ينزل فيه القرآن كانوا يفعلون كذلك، فالصالحون منهم، الذين آمنوا بالقرآن وانضموا إلى كتيبة الإسلام لم يكونوا ليتخلصوا من شراستهم وعدوانهم، فكانوا يعانون منهم أشد العناء، وكانوا ينالون نصيبهم من أذاهم.

ولقد روى ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في سبب نزول هذه الآيات ما لا يتفق مع السياق ولا ينسجم مع نظم الآيات[2].

فالكلام هنا دائر حول نقضهم ميثاق الله، وتلاعبهم بكتاب الله، واعتدائهم على أولياء الله، ثم اعتدائهم على رسل الله، وهذه الأمور كلها حلقات متصلة، يطلب بعضها

---

(١) يقول ابن عطية - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾: «معناه في اللغة تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، قاله أبو علي» (المحرر الوجيز ١/ ٣٤٣).

ويقول أبو حيان - رحمه الله -: «وقيل: تفادوهم: تطلبوا الفدية من الأسير الذي في أيديكم من أعدائكم ، ومنه قوله:

قفي فادي أسيرك إن قومي   وقومك ما أرى لهم اجتماعا

وقال أبو علي معنى (تفادوهم) في اللغة: تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً. (تفسير البحر المحيط: ١/ ٢٩١).

ولعل هذا المعنى هو أدنى إلى الصواب نظراً إلى صيغة المفاعلة، ونظراً إلى سياق الكلام، ونظراً إلى طبيعة اليهود، الذين جبلوا على حب المال وشح النفس، ولا أصعب على أنفسهم من أن يدفعوا المال لإنقاذ أسير ولو كان من ذوي أرحامهم، . فضلاً عن أن يكون ممن قد تظاهروا على إخراجه.

والذين فسروا (تفادوهم) بغير هذا المعنى فقالوا: (أي: تخرجوهم من الأسر بإعطاء الفداء) فلعلهم ما ذهبوا إليه إلا لأن يأتوا بدليل على الإيمان ببعض الكتاب في جنب الكفر ببعض الكتاب.

وهذا تكليف ما له لزوم، فالكفر ببعض الكتاب يكفي لأن يقال لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

(٢) انظر تفسير الطبري: ١/ ٣٦٧.

بعضاً، ويأخذ بعضها بأعناق بعض.

ومن ناحية أخرى، فإن الميثاق الذي أُخذ من بني إسرائيل أنهم لا يسفكون دماءهم ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم، وإن كان عاماً في لفظه، إلا أنه من قبيل العموم الذي أريد به الخصوص، فإنه كان في أصله يخص الأنبياء والصالحين الذين درج بنو إسرائيل على قتلهم وسفك دمائهم.

ولقد صرح به القرآن في موضع آخر حيث قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة].

وأما الحروب الأهلية، التي دارت بين الأوس والخزرج، وبين قبائل اليهود لأسباب تافهة سخيفة، فلا علاقة لها بالموضوع، ولا داعي لذكرها هنا.

وما نظن ابن عباس - رضي الله عنهما - يؤول تلك الآيات بما وردت به الروايات، فإنه كان أجل وأفقه من أن يعدل بالآيات عن مساقها، ويصرفها إلى غير منصرفها، ويؤولها إلى معنى لا أصل له في كلام العرب، فالعرب لا يستعملون المفاداة إلا بمعنى المعاملة بالفدية، كما مر معنا قول أبي علي.

والشواهد التي عثرنا عليها كلها تؤيد قول أبي علي، فمنها قول الأجدع بن مالك الهمداني:

أسألتني بركائب ورحالها ... ونسيت قتل فوارس الأرباع
والحارث بن يزيد ويحك أعولي ... حلو شمائله رحيب الباع
فلو أنني فوديته لفديته ... بأناملي وأُجِنُّه أضلاعي[1]

ومنها ما رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حيث قال: قال النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم»[2].

---

(١) الأصمعيات: رقم (١٦)، ص٦٨-٦٩.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب قسم الفيء والغنيمة: ٦/ ٣٢١.

ومنها ما رواه الدارقطني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «فمن قُتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يقتل وإما أن يفادي أهل القتيل»[1].

فتلك الشواهد واضحة كل الوضوح في المعنى الذي اخترناه في تأويل هذه الآية. ولعل الذين عدلوا عنه لم يعدلوا عنه إلا للسبب الذي سبق أن أشرنا إليه.

* * *

نظم الآيات (٨٨-١٠٣)

وبعدما ينتهي السياق من ذكر موقف بني إسرائيل من ميثاق الله ورسله على مدى تاريخهم الطويل المديد إلى يومهم هذا، يعود إلى الحديث السابق، الذي كان فيه، وهو موقفهم من هذا الكتاب الجديد الذي نزل على النبي الجديد، فقد جاءت تلك الآيات الخمس عرضاً، للمناسبة التي سبق أن أشرنا إليها.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ

---

(١) سنن الدارقطني: كتاب الحدود والديات وغيره: ٣/٩٨.

كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ
كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ
يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ
مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ
مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

* * *

لقد تكرر في هذه المجموعة ذكر تصديق القرآن لما معهم أو لما بين يديه ثلاث مرات:

﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (٨٩)﴾

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ (٩١)﴾

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾

ثم شفع ذلك بذكر تصديق الرسول لما معهم:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (١٠١)﴾

هذا الوضع يساعدنا في تحديد طبيعة هذه المجموعة من الآيات، فإنها تُعنِّفُ بني إسرائيل على موقفهم من كتاب الله من ناحية جديدة، وهي أنهم كذبوا بهذا الكتاب مع أنه جاء مصدقاً لما معهم أو مصدقاً لما بين يديه.

* * *

تحقيق معنى (مصدقاً لما معهم) أو (مصدقاً لما بين يديه):

وقبل أن نمضي في الحديث نريد أن نقف هنا وقفة قصيرة، ونتحقق معنى قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾ أو ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فإن له تأثيراً كبيراً في تحديد اتجاه هذه الآيات، بالإضافة إلى أن كثيراً من جلة المفسرين - رحمهم الله - قد حاروا في تفسيره.

ولقد تناول الإمام الفراهي[1] هذه الكلمة بالبحث والتحقيق، وهو أحسن ما اطلعنا

---

(١) هو الإمام العلام عبدالحميد الفراهي. ولد سنة ١٢٨٠هـ في (فريها) - قرية من قرى الهند - =

عليه في هذا الباب، والمقام لا يتسع لأن نذكره بكامله، فلا أقل من أن نذكر نبذة منه، يقول رحمه الله: «(مصدقاً لما بين يديه): كلمتان لم يفهمهما أكثر الناس، فظنوا أن القرآن يشهدُ للكتبِ المحرَّفة المبدلة.. ثم يقول (رحمه الله):

فاعلم أن (صدقه) له معنيان:

١- شهد بصدق رجل أو كلام.

٢- جعله صادقاً فيما توقع. قال الحماسي:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارس صدقت فيهم ظنوني

وفي القرآن: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ].

ثم إذا تأملت في مواقع هذا القول علمت أن المراد هو المعنى الثاني، فإن النبي والقرآن جاء كما أخبرت بهما التوراة، فجعلاها صادقة، فإن كذبوا بالقرآن والنبي، يكن ذلك تكذيباً لكتبهم.

وهذا أيضاً يظهر إذا تأملت أن محمداً وعيسى - عليهما الصلوات - يأتيان بهذا القول مستدلين به على صحة نبوتهما، فأي استدلال في أنهم يشهدون بصدق ما عند اليهود.

وإن تنبأ أحد في يومنا هذا وقال: إني آمنت بالأنبياء وأنا نبي مثلهم فهل يكون هذا حجة على دعواه.

أما موقع الآية فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

أي: لما جاءهم محمد ﷺ حسب ما وجدوا في كتبهم أعرضوا عن كتبهم وأنكروه

= وتوفي في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩هـ. وكان - رحمه الله - آية من آيات الله في تضلعه من علوم القرآن، وكانت له نظرة نافذة عميقة في الأدب العربي القديم، كما كان له باع طويل في اللغة العبرانية، فاطلع على التوراة والإنجيل والصحف الأخرى في لغتها، وأماط اللثام عن كثير من زيغ اليهود وتحريفاتهم في كتبهم.

(انظر ما كتبه عنه صديقه العلامة السيد سليمان الندوي في مقدمة كتابه القيم: «إمعان في أقسام القرآن»).

كأنهم لا يعلمون»[١].

هذا ما قاله الإمام الفراهي في تحقيق معنى هذه الكلمة، ولا شك أن ما قاله - رحمه الله - في غاية الروعة والدقة.

وبالجملة فهذه الآيات جاءت تعنف بني إسرائيل على موقفهم السيىء من كتاب الله مع أنه جاء مصدقاً لما معهم، حيث أنه حقق النبوءات التي وردت بها كتبهم، وكان يحمل تلك الصفات وتلك النعوت التي بشرت بها رسلهم.

نبوءات حول هذا النبي وهذا القرآن:

ولا بأس بأن ندرس هنا بعض تلك النبوءات، حتى تتسنى لنا الرؤية الواضحة لدلالات قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

وحتى نعرف مدى تعنت بني إسرائيل وجحودهم وكنودهم، ونعرف أنهم - قاتلهم الله - كيف ردوا الكرامة التي ساقها الله إليهم، مع أنهم كانوا أولى الناس بالحرص عليها والمسارعة إليها.

وها هي بعض تلك النبوءات:

«أُقيمُ لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك وأَجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي، الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه»[٢].

«قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب، الحجرُ الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم.. ويُعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه»[٣].

«تنويهات في أفواههم وسيف ذو حدّين في يدهم، ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب، لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد، ليجروا بهم الحكم

---

(١) مفردات القرآن: ٦٤-٦٥.

(٢) تثنية: باب (١٨)، آيات ١٨-١٩.

(٣) إنجيل متى ٢١/٤٢-٤٣.

المكتوب. كرامة هذا لجميع أتقيائه، هللوا يا»[١].

«وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني أين تمضي، لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم، لكنني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يُبَكِّتُ العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على برّ فلأني ذاهب إلى أبي، ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين»[٢].

لقد كانت هذه النبوءات وأمثالها موجودة في كتبهم، وكلها كانت تنتظر هذا القرآن وهذا النبي لتتحقق وتبرز إلى عالم الواقع.

وبنو إسرائيل كانوا يعرفون ذلك، وكانوا يترقبون بلهف ذلك (الكلام) وذلك (المعزي) وكانوا يعتقدون أنه إذا ظهرت تلك البعثة الجديدة، فستكون الكرة للحق وستتم تلك البشارات كلها.

وعلى هذا ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولكن لما جاء ذلك (المعزي) وجعل الكلام في فمه، وتحققت على يديه بعض تلك النبوءات، وبعضها كانت تنتظر أوانها المكتوب، وهم عرفوا ذلك معرفة لا يشوبها شك، تنكروا للإيمان به، ووقفوا في وجهه، وتظاهروا عليه وعلى أصحابه بالإثم والعدوان، كما مر ذلك قريباً في الفقرة السابقة.

فهذه الآيات تلومهم على موقفهم السيىء نحو كتاب الله، ثم تكشف الداء الدوي، الذي كانوا يعانون منه، والذي حملهم على اتخاذ هذا الموقف المشين نحو كتاب الله، ألا وهو البغي، ذلك الداء القديم الذي لم يفارقهم في فترة من فترات تاريخهم الطويل المديد:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾

وقد بلغ منهم البغي مبلغه، حتى أعمى قلوبهم كما أعمى أبصارهم، فلم يقدروا

---

(١) المزمور: ١٤٩/٦-٩.

(٢) إنجيل يوحنا: ١٦/٥-١١.

تلك النتائج التي تترتب على بغيهم، فإن هذا البغي لم يكن بغياً في شأن نبي دون نبي، أو في شأن كتاب دون كتاب، وإنما كان معناه التخلي عن أصل الإيمان وعن مبدأ الإيمان، فإنهم كفروا بالحق الذي جاء مصدقاً لما معهم، وبذلك كفروا بجميع الكتب المنزلة، التي كانت عندهم، والتي كانت تبشر بمجيء هذا النبي وهذا القرآن.

ثم هذا البغي لم يكن ينم عن تخليهم عن الإيمان في وقتهم الحاضر فقط، بل كان ينم عن تخليهم عن الإيمان في سالف أزمانهم على مدى تاريخهم، فإن كفرهم وبغيهم اليوم لم يكن إلا نتيجة طبيعية لكفرهم وبغيهم بالأمس.

ولذلك نرى القرآن أخذ عليهم قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ثم أشبع هذه الدعوى الكاذبة رداً وتفنيداً، حيث وضع أمامهم تاريخهم الذي يناقض دعواهم، ويجللهم بعار لا يفارقهم:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

وبعدما انتهى النص من تفنيد ما كانوا يدعون من الإيمان بما أنزل عليهم في ضوء واقعهم على مدى تاريخهم، عاد ففنَّد المفهوم الخاطىء لما أنزل عليهم - ذلك المفهوم الخاطىء، الذي يفسر الكتاب بالأماني ويَعِدُ في الآخرة بالحسنى بدون عملٍ يُعمل أو بدون جهد يبذل، بل ومع سيئة تكسب وخطيئة ترتكب!!

كما أنه لا يمنع أن يعتبر الإنسان نفسه من أهل الكتاب، ومن المؤمنين بالكتاب ومن المستحقين لكل ما يَعِدُ به الكتاب، وإنْ كان الواقع أن الكتاب نفسه يتبرأ منه ويعاديه!

وكان وضع بني إسرائيل في يومهم ذاك أشبه بذلك، فإنه قد لصق بأذهان كثير منهم ذلك المفهوم الخاطىء، بل قد سيطر عليها، فهم كانوا يعيشونه وكانوا يفسرون الكتاب بتلك الأماني، وكانوا يزعمون أنهم أهل الكتاب، ومن المؤمنين بالكتاب، ومن المستحقين لكل ما يعد به الكتاب، كائناً ما كان عملهم، كما قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴿١١١﴾﴾

ولعل هذا التصور الخاطىء للإيمان هو الذي حدا بهم إلى البغي، وحدا بهم إلى أن يقولوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ويقولوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾

فتناول السياق زعمهم هذا أو تصورهم هذا بالرد والتفنيد:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وبعدما ينتهي السياق من تبكيتهم على بغيهم وكفرهم بما أنزل الله لغير ما سبب، إلا أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده، ينبههم إلى أن عداءهم لهذا النبي، أو لهذا القرآن ليس أمراً هيناً، بل هو عداء يمتد ويتسع حتى يصل إلى جبريل - عليه السلام- فإنه هو الذي نزل القرآن على قلب هذا النبي بإذن ربه.

فمن عادى هذا النبي أو هذا القرآن، فكأنه عادى جبريل.

ثم ليس هذا غاية الأمر، بل يمتد عداؤه إلى الله، فإن جبريل ما نزل هذا القرآن من عند نفسه، وإنما نزله بإذن الله ومن عند الله، فمن كان عدواً لهذا النبي أو لهذا القرآن، فهو في الحقيقة عدو لجبريل، ثم عدو لله!

ثم هذا النبي وهذا القرآن جاءا مُصَدِّقَينِ لما بين يديهما من الكتب الإلهية المقدسة، فمن كذب بهذا القرآن، فكأنه كذب بتلك الكتب كلها، ومن كذب هذا النبي فكأنه كذب أولئك الأنبياء كلهم.

وكما أن عداء هذا النبي أو عداء هذا القرآن يستلزم عداء جبريل الذي نزله على قلب هذا النبي بإذن ربه، فكذلك يستلزم عداء ميكال الذي نزل بتلك الكتب السابقة، التي تبشر بمجيء هذا النبي وهذا القرآن.

ثم الملائكة كلهم أسرة واحدة، كما أن الرسل والأنبياء كلهم أسرة واحدة، فمن كان عدواً لأحد منهم فهو عدو للجميع!

وهكذا تجر عداوة هذا النبي وهذا القرآن إلى عداوة الله ورسله وملائكته أجمعين! فذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

سبب نزول الآيتين:

ولقد وردت في سبب نزول هاتين الآيتين روايات، منها ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال:

«أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبيٌّ واتَّبعناكَ - في حديث طويل - ثم قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا وله مَلَكٌ يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَنْ صاحبك؟ قال: جبريل - عليه السلام - قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عَدوُّنا، لو قلت: ميكائيل، الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الآية[1].

الإشكال الأول:

وهذه الرواية وأمثالها لا تخلو من إشكال، وموضع الإشكال فيها أننا إذا اعتبرناها تفسيراً لسبب نزول هاتين الآيتين، فإننا لا نجد مَحْملاً صحيحاً للآية الأولى منهما.

وبيانه أن تلك الروايات تقتضي أن تكون الآية على نحو هذه العبارة: (قل من كان عدواً لجبريل فإن الله وملائكته ورسله وميكال عدو للكافرين) وأما قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ فإننا لا نكاد نجد له محملاً واضحاً ولا نكاد نطلع على سر هذه الزيادة.

الإشكال الثاني:

وهناك إشكال آخر غير هذا الإشكال وهو أن جبريل (عليه السلام) ليس من شأنه أن ينزل بالحرب والقتال والعذاب، كما أن ميكال (عليه السلام) ليس من شأنه أن ينزل بالقطر والنبات، وإنما الواقع أن كليهما من ملائكة الوحي.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٣٠.

فأما جبريل فأمره أشهر من أن يذكر.

وأما ميكال فإن هذه الآيات تشير بنظامها إلى اختصاصه بالوحي. وسنزيده بياناً فيما بعد، وقد نستأنس هنا بقول ورقة بن نوفل حيث قال:

وجبـريـل يـأتيـه وميكـال معهمـا من الله وحي يشرح الصدر مُنزل(١)

وقال جرير:

عبـدوا الصليـبَ وكـذَّبـوا بمحمـد وبجبـرئيـل وكـذبـوا ميكـالا(٢)

هذان البيتان إنْ دلا على شيء فإنما يدلان على أن ميكال كان معروفاً عند الناس بكونه من ملائكة الوحي.

ثم نرى (العهد الجديد) يذكر في وصف ميكال أنه رئيس الملائكة(٣) ولا يبعد أن يكون هذا الوصف باعتبار أنه كان ينزل بالوحي على أنبياء بني إسرائيل، كما أن جبريل معروف عندنا بهذا الوصف باعتبار أنه كان ينزل بالوحي على نبينا - عليه الصلاة والسلام -.

ثم إن القرآن نص على كون جبريل (مكيناً مطاعاً) في سياق أنه هو الذي نزل بهذا القرآن حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ ﴾ [التكوير].

وبناء على هذا النص يتبادر إلى الذهن أن جبريل - عليه السلام - هو رئيس الملائكة وسيدهم، وربنا سبحانه وتعالى ادخره حتى ينزل بالوحي على سيد ولد آدم - عليهما الصلاة والسلام - تشريفاً له وتنويهاً بشأنه ومكانته.

وأرسل ميكال - وهو واحد من وزراء جبريل - إلى أنبياء بني إسرائيل. فزعم بنو إسرائيل أنه (رئيس الملائكة) باعتبار أنه كان ينزل بالوحي إلى أنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) زاد المسير: ١/١١٧.

(٢) شرح ديوان جرير للصاوي: ص٤٥٠.

(٣) انظر يهوذا: ٩.

روايات تؤكد نزول ميكال بالوحي:

ومما يدل على أن ميكال هو الذي كان ينزل بالوحي على أنبياء بني إسرائيل ما أخرجه سفيان بن عيينة عن عكرمة قال: (كان عمر يأتي يهود يُكلِّمهم فقالوا: إنه ليس من أصحابك أحد أكثر إتياناً إلينا منك، فأخبرنا مَنْ صاحب صاحبك الذي يأتيه بالوحي؟ فقال: جبريل.

فقالوا: ذاك عدونا من الملائكة، ولو أن صاحبه صاحب صاحبنا لاتبعناه، فقال عمر: مَنْ صاحبُ صاحبكم؟ قالوا: ميكائيل[١].

وأخرج ابن جرير عن السدي قال: «لما كان لعمر أرض بأعلى المدينة فكان يأتيها، وكان ممره على مدارس اليهود، وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم، وأنه دخل عليهم ذات يوم فقال لهم: أنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمداً عندكم؟ قالوا: نعم، إنا نجده مكتوباً عندنا ولكن صاحبه من الملائكة، الذي يأتيه بالوحي جبريل، وجبريل عدونا وهو صاحبُ كل عذابٍ وقتال وخسف، ولو كان وليه ميكائيل لآمنا به، فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث»[٢].

وعن أنس قال: «سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض يحترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فما أولُ أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولدَ إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً. قال: جبريل؟ قال: نعم. قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة»[٣].

فالرواية الأولى واضحة في أن ميكال هو الذي كان ينزل بالوحي على سيدنا موسى.

وكذا الرواية الثانية تشير إلى ذلك إشارة واضحة.

وأما الرواية الثالثة فهي تفيد أن نزول جبريل بالوحي لم يكن معهوداً عندهم، ولذلك استغرب عبدالله بن سلام لما قال النبي ﷺ «أخبرني جبريل بهن آنفاً» وقال: جبريل؟

---

(١) أنظر الدر المنثور ١/ ٢٢٣.

(٢) تفسير الطبري: ١/ ٤٣٤ (باختصار في العبارة).

(٣) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ٦، ٥ /١٤٨.

وأما نظام الآيات، فهو أيضاً يدل على أن التوراة والإنجيل وما عداهما كان من وحي ميكال، كما أن القرآن من وحي جبريل (عليهما الصلاة والسلام).

وكما أن عدو القرآن هو عدو جبريل، لأنه هو الذي نزل بالقرآن، فكذلك عدو التوراة والإنجيل هو عدو ميكال، لأنه هو الذي نزل بهما.

ثم إن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل فتلزم من عداوته عداوة التوراة والإنجيل، وبالتالي عداوة ميكال، ثم عداوة الله ورسله وملائكته أجمعين.

فهذا النظم، نعني ذكر القرآن من حيث أنه مصدق لما بين يديه، ثم ذكر عداوة جبريل بعد ذكر الكفر بالقرآن، ثم قران عداوة ميكال بعداوة جبريل، هذا النظم يدل دلالة واضحة على ما أشرنا إليه. ولله الحمد وله الشكر على ما هدانا إليه.

الإشكال الثالث:

ثم هناك إشكال آخر من ناحية الأسلوب، وهو أن هاتين الآيتين (٩٧، ٩٨) جاءتا على أسلوب واحد، فلا بد أن تُفسرَ الأولى بما تفسر به الأخرى.

فإن فُسِّرت الآية الأولى بأنهم كانوا على عداوة سابقة مع جبريل فلا بد أن تفسر الآية الأخرى كذلك بأنهم كانوا على عداوة سابقة مع الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال، وهذا خلاف الواقع، ولم يقل به أحد.

فلا بد أن تفسر الآية الأولى بما تستقيم به الأخرى، وهو أنهم كفروا بالقرآن وصاروا له أعداء، ولم يتفكروا أن هذه العداوةَ لن تظل عداوةً واحدة، بل تجلبُ عليهم العداوات كلها: عداوة جبريل، وميكال، وعداوة الله ورسله وملائكته أجمعين.

وعلى هذا فالروايات التي وردت في سبب نزول هاتين الآيتين تُوقِفنا أمام عدة إشكالات، وليس أمامنا بعد ذلك إلا أن نقول: إن صحت تلك الروايات فإنها لا تفسر لنا السبب الحقيقي لنزول هاتين الآيتين، بل الآيتان نزلتا قبل أن يقول اليهود ما قالوا للمناسبة التي أشرنا إليها.

ثم قرأهما النبي ﷺ استشهاداً بهما على مصير اليهود، حين قالوا تلك الكلمة الكاذبة الخاطئة.

ولم يكن الأمر في الواقع كما تذكر لنا تلك الروايات، ولكن المكابرة والعزة بالإثم هي التي أنطقتهم بما نطقوا.

فكانت هذه الواقعة أيضاً مما تشمله الآية بعمومها، ولم تكن السبب الحقيقي لنزولها.

وبعدما ينتهي السياق من إنذار هؤلاء اليهود سوء مَغبَّةِ الكفر بالقرآن، يزيدهم فيلومهم ويعنفهم على وَلَعِهم بنبذِ العهود وتَعوُّدِهم عليه، فإن عادتهم هذه أو طبيعتهم هذه هي التي حملتهم على الكفر بالقرآن وتكذيب الرسول كما حملتهم على مثله فيما مضى من تاريخهم القديم:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

فهم نبذوا القرآن وكذبوا الرسول، مع أنهم كانوا على موعد معهما، وقد بشرت بهما كتبهم ووصت بها رسلهم، ولم يكن أمرهما خافياً عليهم، بل عرفوها معرفة لا يشوبها شك.

ولكن - مع ذلك - قد كان لتصرفهم هذا نوع من المعقولية، أو كان موقفهم هذا مفهوماً إلى حد ما، لو أنهم عدلوا عن القرآن والنبي إلى ما يُعادلهما أو يقاربهما في السمو والشرف إن لم يكن يفوقهما، ولكنهم - قاتلهم الله - تبدلوا الخبيث بالطيب، وتبدلوا الهابط بالرفيع.

إنهم تَبدَّلوا ما تتلو الشياطين بما أُنزل على الرسل والنبيين، وتبدلوا ما أنزل على المَلكين فتنة لهم، بما جاءهم مُصدِّقاً لما معهم وهدى وبشرى للمؤمنين.

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

إنهم ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فلما استُجيبت دعوتهم، وجاءهم ذلك النبي وذلك القرآن وكان من شأنهما أن يجلبا إليهم النصر ويعيدا إليهم المجد الضائع والكرامة المفقودة ناصبوهما العداء وعدلوا عنهما إلى السحر، ظناً منهم أنه هذا يغني غناءهما، فقد أوحى إليهم شياطينهم كذباً وافتراء أن ملك سليمان ذلكم الملك

الواسع العريض كان كله يعتمد على السحر.

وكذلك اعتقدوا فيما أنزل على هاروت وماروت أنه يساعدهم في الانتصار على من عاداهم، ويساعدهم في إلحاق الضرر به إذا أرادوا، فكانوا يفرقون به بين المرء وزوجه، مع علمهم بأن الملكين ما جاءا إلا فتنة لطغاتهم، المتلاعبين بكتاب ربهم، وكل ما تلقوه منهما سيكون وبالاً عليهم.

وبالجملة فهم عَدَلوا عن كتاب الله وعن رسول الله إلى السحر وإلى ما أنزل على الملكين ولم يتفكروا أن أي واحد منهما لا يغني غناءهما، بالإضافة إلى أنهما كفر، وأنهما يجلبان عليهم سخط الله في الدنيا والآخرة.

ويا لها من تجارة بائرة وصفقة خاسرة!

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

نظم الآيات (١٠٤-١١٠)

هنا نرى في السورة أول مرة أن السياق يتوجه بالخطاب المباشر إلى الذين آمنوا، بوصفهم أنهم آمنوا، حيث يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

يتوجه بالخطاب إليهم بعد ما نبذ بنو إسرائيل هذا القرآن، ولم يتركوا مطمعاً لطامع في إيمانهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ
مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ
ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ
إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ
ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

* * *

- يكشف التأمل في هذه الآيات أن بني إسرائيل لم يقتصروا على نبذ كتاب الله وراء ظهورهم، بل تجاوزوا ذلك إلى بلبلة أفكار المسلمين، وزعزعة ثقتهم بالرسالة الجديدة أنهم بدأوا يغزون المسلمين في معتقداتهم حتى يردوهم من بعد إيمانهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم.

وقد ساعدهم على ذلك أن القرآن قد نسخ كثيراً من مقولاتهم الغريبة الشاذة، التي كانوا مستمسكين بها، وعاملين على إشاعتها في الناس، وكأنها من عند الله، وما هي من عند الله.

وكان من تلك المقولات مثلاً أنهم اشتغلوا بالسحر - كما مر معنا في الفقرة السابقة - وزيَّنوه للناس بأن نبي الله سليمان كان يشتغل بالسحر. ومُلكهُ العظيم الذي لم يُؤْتَ أحد مثله، كان كله يعتمد على السحر.

فجاء القرآن ونسخ هذه الافتراءات الباطلة ونص على أن السحر كفر، وأن نبي الله سليمان كان بريئاً من هذا الكفر.

وكذلك شغلوا أنفسهم بما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، مع علمهم بأنهما ما جاءا بما جاءا به إلا فتنة لهم، وأن ما جاءا به كفر، ولكنهم اشتغلوا به محتجين بأنه علم أنزل على الملكين، وأنه من عند الله، وهكذا.

فنسخ القرآن هذه الأقوال وأمثالها، بالإضافة إلى ما نسخ من الشرائع السابقة، التي كانت بحاجة إلى تعديل حسب الظروف والملابسات المتجددة، وستأتي بعض النماذج لهذا النسخ في محلها في نفس السورة.

فاستغل أعداء الله هذه الفرصة، ونفثوا في روع الضعفاء أن هذا الرجل إن كان نبياً فلماذا ينسخ الشرائع السابقة؟ ولماذا يخالف ملة الأنبياء الآخرين؟

وكانت هذه الجملة الماكرة الخبيثة ناجحة في بعض قلوب المسلمين، فهم وجهوا هذه الأسئلة المريبة إلى الرسول، وكأنهم قد خالجهم الشك فيما جاء به ﷺ.

فجاءت تلك الآيات تعالج هذا الوضع، وتبين للناس حقيقة هذه الحملة المسعورة الماكرة، مع التنبيه إلى ما يليق بهم في مثل هذا الوضع من السمع والطاعة والإذعان للرسول.

وقد كان هذا التنبيه أول ما بدأت به هذه الآيات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

تأويل (راعنا) كما وردت به الروايات:

لقد اختلف الناس في تأويل هذه الآية وذهبوا مذاهب شتى(١).

ولا نريد أن نقف عندها طويلاً، فقد كفانا الإمام ابن جرير مؤونة الكلام عليها، ووضعها في نصابها بعدما أفاض فيها القول من شتى نواحيها.

وإنما نريد هنا أن نضيف إلى ما قاله كلمة واحدة، وهي أن هذه التأويلات كلها لا تتلاءم مع سياق الآيات، بل هي تصرفها عن وجهها وتقطعها عما بين يديها وما خلفها.

وهذا السبب وحده يكفي للحكم عليها، بغض النظر عن الموانع الأخر، التي نبه إليها رحمه الله.

وإذا كانت هذه التأويلات لا ترضيه فهو يعدل عنها، ويذكر لنا تأويلاً آخر يترجح عنده فيقول:

«والصواب من القول في نهي الله جل ثناؤه المؤمنين أن يقولوا لنبيه: راعنا أن يقال إنها كلمة كرهها الله لهم أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا الحَبَلة، ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي) وما أشبه ذلك من الكلمتين اللتين تكونان مستعملتين بمعنى واحد في كلام العرب، فتأتي الكراهة أو النهي باستعمال إحداهما واختيار الأخرى عليها في المخاطبات»(٢).

هذا ما يراه ابن جرير في تأويل الآية. والجدير بالذكر أن تأويله هذا لا يختلف كثيراً عن التأويلات الأخر، التي عدل عنها، فإنه أيضاً - كغيره من الأقوال - لا يتلاءم مع السياق، ولا يستقيم معه النظام.

بالإضافة إلى أنه لا يستند إلى دليل، ولا يزيد على أن يكون قياساً ليس له أساس.

وهنا يثور سؤال: فما هو التأويل الصحيح إذاً؟

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطبري: ١/٤٦٩-٤٧٠ وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ص٦٠.

(٢) تفسير الطبري: ١/٤٧١.

إن تأويل الآية واضح وميسر بإذن الله، ولكن قبل أن نخوض في تأويل الآية نريد أن نعرف معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، فإن الخطأ في تفسير (راعنا) هو الذي يوقعنا في حيرة. ويحجب عنا تأويل الآية.

تحقيق القول في معنى (راعنا) و(انظرنا):

إن طلب المراعاة يتضمن فيما يتضمن معنى التبرم والاستثقال وعدم الثقة وسوء الظن، فإذا قال التلميذ لأستاذه - مثلاً - أو الجندي لأميره: (راعنا) فمعنى ذلك أنه متضجرٌ من معاملته، مستثقلٌ لتصرفاته، غير واثق من حبه ورعايته، فهو يسأله الرعاية ويطالبه بها.

هذه هي طبيعة هذه الكلمة كما نستوحي من مواقع استعمالها في كلام العرب.

ولا بأس بأن نزيد فنقول: إن هذه الكلمة قد تقارب في طبيعتها كلمة (العصيان) أو تحمل في طَيِّها رائحةَ العصيان، ولذلك نراها قد قرنت به قوله تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء].

فهم كانوا يلوون ألسنتهم بـ(عصينا) حتى يوهموا السامعين أنهم يقولون (أطعنا) وكانوا يقولون (راعنا) وبذلك كانوا يطعنون في الدين، ويظهرون أنه أصبح عبئاً ثقيلاً عليهم، بحيث أنهم لا يكادون ينهضون بتكاليفه.

وكما أن كلمة (راعنا) نسيب العصيان، فكذلك كلمة (انظرنا) نسيب الشوق والمودة وكمال الخضوع وتمام الثقة وطلب المزيد، فتلك المعاني كلها داخلة في كلمة (انظرنا) كما نستوحيها من مواقع استعمالها. وبتلك المعاني تكرر استعمالها في القرآن. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد].

لقد فسرت كلمة (انظرونا) بمعنى (انتظرونا) وهذا التفسير قد يصح على وجه التقريب، وإلا فمعنى (انظرونا) أوسع وأدق من معنى (انتظرونا).

اللهم إلا أن يقال: إن الانتظار أيضاً يوحي بمعنى الثقة المتبادلة بين الطرفين فإن الشخص لا ينتظر إلا مَنْ يُحب، ولا يطلب من غيره أن ينتظره إلا إذا كان هو يحبه.

فيكون معنى الآية إذا أردنا التعبير الشامل عن إيحاءاتها - انتظرونا، ارحمونا، تكرموا علينا، ساعدونا، دعونا نقتبس من نوركم.

وعلى هذا فلا يصح القول بأن كلمة (راعنا) مرادفة لكلمة (انظرنا)، بل الصحيح أن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الضدين ولا تقارب بينهما.

تأويل الآية كما يمليه علينا السياق:

والآن نعود إلى تأويل الآية فنقول:

بعدما انتهى السياق من تاريخ بني إسرائيل - التاريخ الذي يعج بالمخالفات والانحرافات والإباء والتمرد والعصيان - جاءت هذه الآية تحذر المؤمنين من أن يقفوا من نبيهم موقف بني إسرائيل من أنبيائهم، حيث أنهم درجوا على قولهم: (سمعنا وعصينا). واستثقلوا دائماً ما جاءت به رسلهم من عند الله، وقد مر معنا في الفقرة السالفة قولهم المرذول هذا، حيث قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

فجاءت هذه الآية تحذر المؤمنين من هذا الموقف السيِّىء، وترغبهم في السمع والطاعة والإذعان للرسول، بل وإظهار الشوق والتلهف والاستزادة مما جاء به الرسول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ونبه المسلمون في نفس الوقت إلى موضع الخطر، وأمروا أن يكونوا دائماً على حذر من هؤلاء الكفار، فإنهم ما يرضيهم أن يسعد المسلمون بهذا الخير، الذي نزل إليهم من ربهم في صورة القرآن، فهم يسعون سعيهم ليشككوهم فيه ويصرفوهم عنه.

وكان الذي أمدهم في هذا الغزو الفكري الرهيب، هو أن القرآن قد نسخ كثيراً مما كانوا عليه، فاستغله هؤلاء الأعداء لبلبلة أفكار المسلمين وزعزعة ثقتهم بالنبي وبالقرآن.

فحسم القرآن جذور هذه الفتنة، وطمّنَ المسلمين أن هذا النسخ ليس شيئاً مريباً، كما يصوره الأعداء المغرضون. وإنما هو سُلَّمٌ إلى الخير الذي أراده الله لهم.

ويمزج النص هذا الخطاب بشيء من العتاب، ويزجر المسلمين عن الاستجابة لكل ناعق، وعن إزعاج الرسول بأسئلة لا تتناسب إلا مع طبيعة الطغاة من اليهود، الذين آذوا موسى بجماحهم وعصيانهم وكثرة سؤالهم.

ثم يعهد إلى المسلمين أن يكونوا على حذر من أهل الكتاب، لأنهم لا يثيرون ما يثيرون في صدورهم من مثل هذه الأسئلة، ولا يزرعون ما يزرعون في نفوسهم من هذه الشكوك والشبهات مودةً ونصيحة لهم، وإنما هم يحسدونهم ويريدون أن يعودوا بهم إلى الكفر من بعد إيمانهم.

ولتلك المناسبة توجه الوصية إلى المسلمين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإنهما هما الحصنان المنيعان أو الدرعان الواقيان من وساوس كل وسواس، سواء كان من الجِنة أو كان من الناس.

سبب نزول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية:

وقيل أن ننتقل من هذه الآيات إلى ما بعدها نود أن تكون لنا وقفة عند ما ورد في سبب نزولها، فإنه يختلف اختلافاً كبيراً عما فسرنا به تلك الآيات.

فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[1].

هذا ما ورد في سبب نزول هذه الآية وفي تأويلها، ويكفينا لعدم حجيته أن الأئمة الثقات لم يلتزموا به فهذا الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - يعدل في تفسيره عن هذه الرواية وأمثالها ويذكر لنزول تلك الآية سبباً آخر، فيقول:

«سبب نزولها أن اليهود قالت لما نسخت القبلة: أن محمداً يُحِلُّ لأصحابه إذا شاء، ويحرم عليهم إذا شاء، فنزلت هذه الآية»[2].

ويشبه ذلك ما قاله الإمام القرطبي والإمام الزمخشري والإمام الرازي - رحمهم الله - في تأويل تلك الآية»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٥٠.

(٢) زاد المسير: ١/ ١٢٧.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٦١، والكشاف ١/ ١٠٣، والتفسير الكبير: ٣/ ٢٢٦.

وكذلك الوضع عند الإمام ابن جرير فإنه وإن كان قد ذكر هذه الروايات كلها في تفسيره، إلا أنه لم يلتزم بها في تأويل الآية، يقول رحمه الله:

وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطاباً لنبيه محمد ﷺ على وجه الخبر من عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمداً ﷺ لمجيئهما بما جاءا به من عند الله، بتغيير ما غَيَّر اللهُ من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، فإن الخلقَ أهلُ مملكته وطاعته، عليهم السمع له، والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما شاء، ونهيهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه»[١].

فيرى الإمام ابن جرير هذه الآية لا تتعرض لموضوع النسخ في القرآن، وإنما هي تتصل بموضوع نسخ القرآن لما قبله من الشرائع.

ولا شك أن هذا القول أحسن ما قيل في تأويل الآية، لأنه هو الذي يتفق مع جو الآية وسياقها. وقول الإمام ابن الجوزي والإمام القرطبي أيضاً لا يختلف عن هذا القول اختلافاً كبيراً، بل لعلهما يتجهان في اتجاه واحد، وإنما الفرق بينهما في العموم والخصوص، فإن نسخ القبلة وتحويلها إلى الكعبة أيضاً كان في أصله نسخاً لشريعة سابقة، قد اتخذها النبي ﷺ تمشياً مع أهل الكتاب، فإنه - عليه السلام - ما كان يختلف مع أهل الكتاب إلا في شيء يَرِدُ به الوحي[٢].

وعلى هذا فإنه (عليه السلام) اتخذ بيت المقدس قبلة له ومع ذلك كان يُقلِّبُ وجهه في السماء انتظاراً لحكم جديد.

جماع القول في تأويل الآية:

وعلى أية حال فنحن نميل في تأويل الآية إلى ما مال إليه ابن جرير ونفصله فيما يلي بعض التفصيل فنقول:

إن الشرائع السابقة كانت تنقسم إلى قسمين: فقسم منها كانت باقية معروفة عند

---

(١) تفسير الطبري: ١/ ٤٨٢-٤٨٣.

(٢) انظر: الدر المنثور ١/٣٤٦، ووفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: ١/ ٣٦٠ والدر المنثور: ١/ ٣٤٣-٣٤٤.

الناس، وقسم منها قد نُسيت كما نص عليه القرآن حيث قال:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة].

ثم هذا القسم الثاني كان ينقسم إلى قسمين: فقسم منه كان ساري المفعول، وكان يصلح لأن يبقى في شريعة الإسلام، وقسم منه قد انتهى وقته، وفقد صلاحيته لهذا الزمان.

فالذي كان صالحاً للبقاء أحياه الإسلام وأبقاه، والذي كان قد نسي، وقد انتهى وقته، تركه الإسلام كما كان في عالم النسيان، وقد أشار إليه القرآن حيث قال:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة].

وأما القسم الأول، الذي كان باقياً معروفاً عند الناس، فهو أيضاً كان ينقسم إلى قسمين: فقسم منه كان يصلح لأنه يبقى في شريعة الإسلام فأبقاه القرآن، وقسم منه قد انتهت صلاحيته، ولم يكن يناسب العصر المعاصر لنزوله، أو كان مما قد ابتدعه الناس، فنسخه القرآن وجاء بخير منه.

فالذي نسخه القرآن من تلك الشرائع جاء بخير منه، والذي أحياه وقد نسي جاء به أو بمثله، فذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ ... ﴾ الآية:

وكما رأينا الوضع في سبب نزول تلك الآية، نراه في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

فقد وردت في سبب نزول هذه الآية عدة روايات[1] مختلفة، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أنه ليس هناك شيء ثابت ومحدد في سبب نزول تلك الآية، إذاً فالأمر فيه سعة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تلك الروايات توقفنا أمام عدة إشكالات، وهي كما يلي:

* إن الخطاب في هذه الآية موجه إلى الذين آمنوا، والروايات تصرفه عن المؤمنين إلى الكفار.

* هذه الآية مدنية وليست مكية حتى نربطها بمطالبة قريش أو مطالبة العرب.

* إن كفارات بني إسرائيل لم تكن إلا عقوبة لهم لقاء بغيهم وتَعَنُّتِهم، وما كان لأحد من المؤمنين أن يتمنى لنفسه تلك العقوبة.

* هذه الروايات لا تتفق مع سياق الآية، وهي تجعل الآية غريبة بين جاراتها.

ثم إسناد هذه الروايات ليست بتلك القوة، حتى نقبلها على ما فيها من علات وإشكالات.

إذاً فليس لنا أن نعتبر تلك الروايات تفسيراً حقيقياً لسبب نزول تلك الآية، اللهم إلا أن يقال: إن الآية بعموم ألفاظها - وبعموم ألفاظها فقط - تشمل جميع هذه الحالات، كما تشمل حالات أخرى لم ترد بها الرواية، وهذا مما لا بأس به وإلا فالسبب الحقيقي لنزول الآية كما يظهر بعد التأمل في سياقها هو الذي سبق أن أشرنا إليه، وهو أن بعض ضعفاء المسلمين قد انخدعوا بطعن أهل الكتاب في أمر النسخ وطفقوا يسألون الرسول عنه، كما سأل اليهود نبيهم موسى عن لون البقرة وسنها ونوعيتها مثلاً وقد مر ذلك قريباً في هذه السورة.

ولم يكن الدافع إلى هذا السؤال، الحرص على الاستفادة أو طلب القناعة، وإنما كان الدافع إليه قلة الثقة بالرسول والشك والريبة فيما جاء به الرسول، وعلى هذا كان هذا السؤال أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان، فجاء التحذير:

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ

---

(١) انظر مثلاً لباب النقول: ص٢٥ وتفسير الطبري: ١/٤٨٤.

سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٠٨)﴾.

* * *

نظم الآيات (١١١-١٢١)

وبعد ما ينتهي السياق من تحذير المسلمين من وساوس أهل الكتاب، وتشكيكاتهم في أمر النسخ، يزيد فينبههم إلى خطورة الموقف، وينبههم إلى خطة مشؤومة دبرها لهم أهل الكتاب لإغوائهم عن دينهم، وهي تواضعهم ضدهم على كلمةٍ ما كادوا يتواضعون عليها لولا بغضهم الشديد للقرآن وحملة القرآن.

فبغضهم الشديد للقرآن قد أنساهم أحقادهم التي نشأوا عليها، وجمعهم على موقف واحد، حتى تُمكنهم مقاومةُ هذا الخطر، الذي يهدد كيانهم ويكاد يهدم دينهم فجاءت هذه الآيات:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ
ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا
خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ
قَـٰنِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا
يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا
ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ (١١٩) وَلَن تَرْضَىٰ
عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ
ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ
بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ (١٢١)﴾.

* * *

تأويل الآية: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ...﴾ إلخ

يقول الإمام ابن جرير وهو يفسر الآية الأولى من هذه الآيات، وهو قوله تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ الآية:

«فإن قال قائل: وكيف جُمع اليهودُ والنصارى في هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين، واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه، وإنما عنى به: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولكن معنى الكلام لما كان مفهوماً عند المخاطبين به، معناه جمع الفريقان في الخبر عنهما[1].

هذا ما قاله ابن جرير في تأويل الآية.

وهناك عدد من المفسرين رحمهم الله - قد ذهبوا إلى مثل ما ذهب إليه.

والذي يوحي إلينا سياق الآيات هو أن الموقف قد جمع اليهود والنصارى في موقف واحد، فقد قيل قديماً: عند الشدائد تذهب الأحقاد.

فهم كانوا يضجون في وجه القرآن وما جاء به من النسخ ضجيج رجل واحد. وكانوا يهتفون بأن هناك طريقين إلى الجنة لا غير، وهما اليهودية أو النصرانية.

وأما الدين الجديد الذي يعرضه القرآن وهو دين الإسلام، ففيه الخسران كل الخسران.

فقولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى كان مفهومه بدليل المخالفة أنه لن يدخل الجنة من دخل في دين الإسلام، فجاء الرد على دعواهم هذه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

ثم أشير إلى طبيعتهم اللجوج اللدود على مدى تاريخهم الطويل المديد: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

فقد كان هؤلاء اليهود والنصارى حزبين متناحرين على مدى تاريخهم، يتبادلون التهم ويتقاذفون بالشتائم، بل وقد حصلت بينهم معارك دامية كادت تطحنهم وتبيدهم.

ثم لما ظهر هذا النبي اجتمعوا كلهم على عداوته وأصبحوا حرباً عليه وعلى أتباعه،

(١) تفسير الطبري: ١/ ٤٩١.

فهم يرمونهم اليوم عن قوس واحدة، ويقولون لهم ما قال بعضهم لبعض بالأمس.

وليس هذا كله بسبب أن القرآن قد نسخ ما نسخ من شريعتهم، كما يزعمون. كلا! فقد سبق أنهم جميعاً كانوا يتلون التوراة، ولم يكن هناك أي نسخ أو تبديل، ومع هذا كانوا في حرب مستمرة وصراع دائم.

فلو كان الاختلاف في الكتاب أو الاختلاف في الشريعة هو السبب في خلافهم هذا لم يوجد هذا الخلاف فيما بينهم ليوم واحد، فكيف وتاريخهم كله عبارة عن حروب وصراعات!

ومن ناحية أخرى فإنهم تبادلوا فيما بينهم التهم مع أنهم كانوا أَوْلى الناس بحسن الألفة فيما بينهم، لأنهم كان يجمعهم كتاب واحد، وكلهم كانوا يتلون التوراة.

ثم جاء هذا الكتاب مصدقاً لما معهم، فكان حقاً عليهم كذلك أن يفتحوا له صدورهم وينضموا إلى أهله وأتباعه من المسلمين، ولكنهم عاملوهم اليوم كما عامل بعضهم بعضاً بالأمس. فهم تواطأوا جميعاً على عداوتهم وصاروا حرباً عليهم.

ولعل المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هنا هم اليهود والنصارى المعاصرون لنزول القرآن.

وقد كان في السلف من يرى ذلك، كما ذكره الإمام الشوكاني (رحمه الله) حيث قال: «وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى، وهم الذين لا علم عندهم»[1].

فاليهود والنصارى ذكروا أولاً باسمهم ثم ذكروا ثانياً بوصفهم، وكما أن هذا الاسم يشمل الجميع، فكذلك هذا الوصف يشمل الجميع.

وهل يُشَكُّ في أن الذين حملوا التوراة، ثم لم يحملوها كانوا من الذين لا يعلمون؟ وهل هو بحاجة إلى دليل بعدما شبههم القرآن بالحمار يحمل أسفاراً؟ حيث قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ۝٥﴾ [الجمعة].

فالمذكورون بهٰذا الوصف هم اليهود المعاصرون لنزول القرآن، كما أن المذكورين بالاسم هم أسلافهم.

وكان من بلاغة القرآن التي تهتز لها الحاسة البيانية، أنه ذكر الأولين بالاسم وذكر المعاصرين بالوصف حتى يستحيوا من موقفهم هذا، إنْ كان فيهم رَمَقٌ من حياة، أو

---

(١) فتح القدير: ١/ ١٣٠.

ذرة من حياء.

وبعدما ينتهي النص من هذه الإشارة العابرة إلى طبيعتهم اللجوج اللدود، وإلى تاريخهم الحافل بالعداوات والصراعات، يمضي في بيان مواقفهم العدائية الراهنة ضد المسلمين، الذين آمنوا بهذا القرآن: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

تأويل الآية:

لقد ذكر الإمام الرازي في تأويل الآية أربعة وجوه، وهي الوجوه التي ذكرها، أو ذكر بعضها أغلبية المفسرين - رحمهم الله - ثم قال:

«وعندي فيه وجه خامس، وهو أقرب إلى رعاية النظم، وهو أن يقال: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة، شَقَّ ذلك على اليهود، فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة، بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول ﷺ لئلا يُصلُّوا فيه متوجهين إلى القبلة. فعابهم الله بذلك، وبَيَّن سوء طريقتهم فيه»[(١)].

وهذا التأويل، الذي ذهب إليه الإمام الرازي تأويل وجيه ولا شك، ولعله أرجح من غيره مما ذهب إليه الناس.

ولكننا نزيد فنقول:

لا داعي هناك لربط هذه الآية بمسألة تحويل القبلة، فإن القبلة ما حُوِّلَتْ بعدُ، ثم صد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة شيء، ومنع مساجد الله أن يُذكرَ فيها اسمُه، شيء آخر.

والذي يترجح عندنا هو أن المسلمين قد مُنعوا من الصلاة في المسجد الحرام قبل تحويل القبلة، بل قد منعوا منه، وهم في أحضان مكة، ولم يهاجروا بعد إلى المدينة، والذين كانوا وراء هذا الظلم، هم اليهود والنصارى بصفة خاصة، فإن كفار قريش - وفيهم ما فيهم! لم يكونوا يعرفون هذا النوع من الظلم، كما ورد في الأثر:

---

(١) التفسير الكبير: ٤/٩-١٠.

«ما كان أحد يصدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتلَ أبيه وأخيه فلا يصده»[1].

ولكن اليهود والنصارى - قاتلهم الله - حرضوا المشركين على هذا العدوان، وألجؤوهم إلى أن يصدوا المسلمين عن المسجد الحرام.

وإذ تم هذا الظلم وهذا المنع بتحريضهم وتحريشهم، وكان لهم النصيب الأوفى في هذا الإثم، فهم الذين أُلبسوا هذا الظلم، وحملوا هذا الإثم، وسجل هذا في سجل أعمالهم، حتى لا يفوتهم عارهم وجزاؤهم!

وهذا كما يفهم من نظم هذه الآيات، فكذلك يفهم من نظم الآيات التي وردت في سورة الحج، فقد جاءت في سورة الحج هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

وبعدها بقليل جاءت تلك الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج].

وسنفصل هذا الموضوع ونزيده بياناً في الفقرة التالية، حين نتناول الآيات التي وردت في شأن بيت الله الحرام.

وبعد ذكر هذا الظلم الصارخ يجيء العزاء والسلوى للمسلمين الذين منعوا من المسجد الحرام: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

تأويل الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ...﴾ إلخ:

لقد اختلف الناس في تأويل هذه الآية على عشرة أوجه أو أكثر. ولعلَّ أقربها للسياق هو ما قاله الإمام الزمخشري رحمه الله حيث قال:

«ولله المشرق والمغرب: أي بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله، هو مالكها ومتوليها، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية يعني توليةَ وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى -: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/١٥٦.

شَطْرَهُۥ ﴿١٤٤﴾ [البقرة] - ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: جهتهُ التي أمر بها ورضيها. والمعنى: أنكم إذا مُنعتم أن تصلوا في المسجد الحرام وفي بيت المقدس، فقد جعلتُ لكم الأرض مسجداً فصلُّوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان، لا يختص إمكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان ﴿إنَّ اللهَ وَاسعٌ﴾ الرحمة يريدُ التوسعةَ على عباده والتيسير عليهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم»(١).

ونحن - كما قلنا - نميل إلى هذا التأويل ونرجحه على غيره ثم نزيد فنقول:

منشأ الوهم:

لعل منشأ الوهم في تأويل الآية هو قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ فقد وهم في تأويله عامةُ المفسرين رحمهم الله فإن (التولية) إذا كان لازماً غير متعدٍّ إلى مفعول، فإنه لا يأتي بمعنى: توجيه الوجه إلى جهة، كما ذهبوا إليه، وإنما هو يأتي بمعنى اللجوء والذهاب والانطلاق وما شابه ذلك.

ولا بأس بأن نذكر هنا بعض استعمالاته في القرآن، حتى يتضح الأمر، قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء].

﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف].

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴿١٠﴾﴾ [النمل].

فنرى هذه المادة في تلك الآيات، ما جاءت إلا على إحدى تلك المعاني، التي أشرنا إليها.

بالإضافة إلى أن كلمة (أينما) لا تفيد معنى الجهة، كما ذهب إليه الإمام الشوكاني وغيره من المفسرين(٢).

قال سيبويه: لا يكون (أين) إلا للأماكن(٣).

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل: ١/٣٠٦-٣٠٧.

(٢) فتح القدير: ١/١٣١.

(٣) الكتاب: ١/٢١٩. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون.

ولقد كان الزمخشري منتبهاً لهذه الناحية فقال في تفسير الآية: «ففي أي مكان فعلتم التولية، يعني تولية وجوهكم شطر القبلة»[1]. فأصاب رحمه الله في مراعاة كلمة (أينما) ولكنه وَهِمَ كغيره في تفسير لفظة (تولوا). وكان هذا الوهم نابعاً من وهم آخر وهو أنهم ظنوا - خطأ - أن الحديث هنا دائر حول القبلة، مع أن هذه الآية لا علاقة لها بموضوع القبلة.

وإنما موضوع الحديث هنا أن المسلمين مُنعوا من المسجد الحرام فاغتموا لذلك، فتقدم الوحي إليهم بهذا العزاء.

وبيانه أنكم إنْ مُنعتم من المسجد الحرام فلا تبتئسوا، فإن الكون كله لله. وهو ليس متحيزاً في مكان دون مكان، فتحسبوا أنكم انقطعتم من الله بانقطاعكم من المسجد الحرام، بل هو معكم أيما كنتم. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ أي: أينما تذهبوا وإلى أي مكان تقبلوا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، أي: الله سبحانه وتعالى حاضر وموجود هناك.

ويتوارد إلى الخاطر أن هذه الآية هي مأخذ قول النبي ﷺ:

(وجُعلتْ لنا الأرضُ كلها مسجداً...)[2].

وبعدما ينتهي السياق من ذكر هذا الموقف العدائي لليهود والنصارى ضد المسلمين، يتبعه موقف آخر مثله:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

هذا موقف آخر من مواقف اليهود والنصارى ضد القرآن ونبي القرآن، فإنهم لما سمعوا القرآن يعرض دعوة الإسلام، وهي دعوة التوحيد الخالص النقي، عارضوه بدعوى الشرك البشع القبيح.

وهذا الشرك وإن كان موجوداً فيهم منذ قديم ولكنهم لما رأوا الإسلام ينسخ دينهم ويهدد كيانهم أعلنوا ورفعوا أصواتهم بتلك الاعتقادات الباطلة.

وهذه العملية كما أنها أثارت الشبهة حول الإسلام وحول القرآن فكذلك ساعدتهم

---

(١) الكشاف: ١/٣٠٧.

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث (٥٢٢) ١/٣٧١.

في كسب ثقة المشركين ومودتهم، وبذلك استطاعوا أن يهولوا أمامهم أمر المسلمين واستطاعوا أن يصدوهم عن المسجد الحرام، بل استطاعوا أن يفرضوا عليهم قانون حظر الدخول والتجول في حدود مكة.

ثم هم أَمدُّوا هذه الشبهةَ بشبهة أخرى حول الرسالة الجديدة:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾.

ولقد سبق أن قلنا في الآية (١١٣) أن المراد بالذين لا يعلمون هم أهل الكتاب المعاصرون لعهد نزول القرآن، وأشرنا هناك إلى سبب اختيار هذا اللقب لهم. وهنا نريد أن ننبه إلى دليل آخر من السياق يدعم هذا القول، وهو قوله تعالى بعد هذا القول:

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

فالمراد بـ«الذين من قبلهم» - كما هو المتبادر إلى الذهن - هم أسلافهم من اليهود والنصارى - قاتلهم الله - ولقد ذكر ذلك - فيما ذكر - الإمام القرطبي والإمام الشوكاني - رحمهما الله -(١).

وبعدما ينتهي السياق من تفنيد هاتين الشبهتين، يلتفت إلى النبي ﷺ يعظه أن يَلزمَ حدَّ الاعتدال في التبليغ، ولا يحملنه الحرص على هدايتهم إلى أن يرضى معهم بأنصاف الحلول، فإن مهمته هي التبشير والإنذار فقط، وهو ليس مسؤولاً عنهم إن صار هؤلاء حطبَ الجحيم.

بالإضافة إلى أن هذه المحاولة لا تجدي معهم، فإنهم لم يكونوا منفكين عن ملتهم - وهي خليط من أهوائهم، ولا صلة لها بالعلم، ولا صلة لها بهدي ربهم.

إنهم ليسوا منفكِّين عن ملَّتهم إلى هدي ربهم، وإنما همهم أن يتنازل هو! عن هدي الله إلى ملتهم:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ (١١٩) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٢/٩٢، وفتح القدير ١/١٣٤.

ثم يذكر بإزاء هذا الموقف السيِّىء المظلم، الذي وقفه اليهود والنصارى من كتاب ربهم، ذلكم الموقف المشرق الجميل، الذي وقفه منه أمةٌ من علماء أهل الكتاب حيث أنهم استقبلوه بحنين القلب ورحابة الصدر، فهم يؤمنون به ويتلونه حق تلاوته.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

* * *

نظم الآيتين (١٢٢-١٢٣)

بعد هذا الحديث الطويل المستفيض مع بني إسرائيل وعن بني إسرائيل - هذا الحديث الذي بدأ من الآية (٤٠) واستمر إلى هنا، تتكرر هاتان الآيتان:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

سر تكرار الآيتين:

وهنا يثور سؤال: ما هو السر في تكرار هاتين الآيتين؟ أو ما هي الفائدة التي أراد أن يكسبها السياق من تكرار هاتين الآيتين؟ فنقول وبالله التوفيق:

إن هاتين الآيتين لا ترتبطان بما يجاورهما من الآيات ارتباط الجار بالجار، بل هما أعم من ذلك وأشمل، فهما ترتبطان بكل ما سبقهما من الآيات وبما يأتي بعدهما، وسواء كانت تلك الآيات التي تتحدث مع بني إسرائيل، أو التي تتحدث عنهم، فكلها داخلة في متناولهما.

وبعبارة أخرى فإن هاتين الآيتين تحلاَّنِ مما قبلَهما من الآيات ومما بعدهما محلَّ واسطة العقد، فلهما بريقٌ خاص ولهما تأثير كبير في تحديد طبيعة هذه الآيات أو المجموعة من الآيات.

وبيانه أن الآيات التي سبقتهما تحمل - في أغلبها - طابع الغلظة والشدة، وتنضح بسخونة اللوم والتعنيف، مع أن الكلام قد بدأ معهم بأسلوب كله عطف ومودة ورقة وحنان:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [البقرة].

ولكن ذلك الأسلوب الحلو اللطيف أخذ يشتد شيئاً فشيئاً، حتى صار الأمر كما قال الأستاذ سيد قطب:

«إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد، ويتحول - في بعض المواضع - إلى صواعق وحمم»(١).

فتكررت هاتان الآيتان في هذا الجو حتى تُلقيا على هذا العنف وهذه الشدة ثوباً فضفاضاً من العطف والمودة، وحتى تقذفا في روع المخاطبين أن هذه الضربات الشديدة العنيفة، وإنْ كانت في ظاهرها قاسية مؤلمة، ولكن ليس وراءها إلا النصح والإرشاد وإرادة الخير، فلا تأخذنهم العزةُ بالإثم، ولا يجعلن في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، وليثوبوا إلى رشدهم قبل أن تفوتهم الفرصة.

ثم إن هاتين الآيتين كما أنهما تمسحان على الوحشة التي دخلت القلوب بخصوص ما أسلف من القول، فكذلك تهيئان النفوس لسماع ما سيأتي بعدهما، ولا شك أن ما جاء بعدهما كان أدهى وأمر، وكان أثقل على النفوس، وكان بحاجة ماسة إلى أن تُمهَّدَ له الأرض، ويُهيأ له الجو، فإن تلك الآيات تقطع صلتهم بتاريخهم المجيد الذي كانوا يفتخرون به، ويعتزون بالانتماء إليه، اللهم إلا أن يفيقوا من غفلتهم ويثوبوا إلى رشدهم.

بخلاف الآيات التي سبقتهما، فإنها لا تزيد على أن تلومهم على سوء تصرفاتهم وتعنفهم على قبيح مواقفهم، وتنذرهم وخامةَ العاقبة التي تنتظرهم، وسيأتي له بعض التفصيل فيماه بعد بإذن الله، ثم هناك نكتة أخرى في تكرير هاتين الآيتين، وقد كُررتا بعد ذكر مواقفهم المنكرة القبيحة من ربهم ومن كتاب ربهم ومن مواثيق ربهم.

وهي أن هذا التكرار على هذا الأسلوب - أسلوب العود على البدء - يدل على دائهم الذي كانوا يعانون منه، والذي كان يحملهم على المواقف المنكرة، التي وقفوها من ربهم ومن كتاب ربهم، ألا وهو الغفلة عن ذكر الله، والكفران بنعم الله.

ولعل هذا هو السر في أن هذه الأمة المسلمة الناشئة لما استُخلفت في الأرض بعدهم زُوِّدتْ بنفس الوصية: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٨٩.

فهذه الوصية - مع اختلاف لفظها - لا تختلف في روحها ومعناها عن الوصية التي زُود بها بنو إسرائيل، وذُكِّروا بها مرة بعد مرة:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

وبعد هاتين الآيتين اللتين وردتا كالجملة المعترضة، واللتين تحلان مما حولهما من الآيات، محل واسطة العقد، عاد الأمر إلى ما كان عليه، وارتبط الكلام بما قبلهما من الآيات ارتباطاً عجيباً. وسنفصله فيما يلي بإذن الله.

* * *

نظم الآيات (١٢٤-١٤١)

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ (١٢٤) وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥) وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ
أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا
وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا
وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٣٢) أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ
مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ (١٣٣) تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُواْ
كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٣٥) قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن
رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (١٣٦) فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ
فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (١٣٧) صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ (١٣٨) قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ (١٣٩) أَمۡ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (١٤٠) تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾.

* * *

لقد قلنا في نهاية الفقرة السابقة أن الآيتين (١٢٢-١٢٣) وردتا كالجملة المعترضة، ثم عاد الأمر إلى ما كان عليه، وارتبط الكلام بما قبلهما من الآيات ارتباطاً عجيباً.

فلننظر الآن تصديق ذلك، حيث ارتبطت تلك الآيات بما قبل هاتين الآيتين ارتباطاً تهتز له النفس ويطرب له القلب.

في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾.

فالله سبحانه وتعالى لا يعامل العباد حسب عروقهم وأنسابهم وإنما العبرة عنده بأعمالهم وتصرفاتهم، حتى إن إبراهيم - عليه السلام - ما نال ما نال من مكانة وكرامة عند الله إلا بعد ما امتُحنَ واختبر وابتلاه ربه بكلمات فأتمهن.

ثم إن إبراهيم لما دعا ربه - سبحانه وتعالى - أن يحوط ذريته بالنعمة والكرامة استجاب الله دعاءه في حق الصالحين. وأما الظالمون منهم، فقد رفض أن يكون لهم من نعمته نصيب: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وأما الآيتان: الثانية والثالثة من هذه الآيات وهما الآيتان (١٢٥-١٢٦) فهما تنكران على أهل الكتاب صَدَّ المسلمين عن المسجد الحرام.

وقد مضت الإشارة إلى موقفهم هذا في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ... ﴿١١٤﴾ ﴾ الآية.

فإن هذا البيت جُعل مثابةً للناس وأمناً، وجعل لهم قبلة ومصلى، ولكنهم ظاهروا المشركين على صد المسلمين عن هذا البيت، وليس هذا فحسب، بل أسهموا في تدنيسه بالأصنام، مع أن إبراهيم وإسماعيل قد عهد إليهما أن يطهرا هذا البيت للطائفين والعاكفين.

وقد كان من اهتمام إبراهيم بهذا البيت أنه دعا ربه أن يجعل هذا البلد آمناً لتمكن زيارتهُ بأمنٍ وسلام ويرجع عنه بأمن وسلام.

وكان من شدة اهتمامه به كذلك أنه دعا لأهله بالرزق ورغد العيش حتى يعمروا هذا البيت ولا يسأموا جواره.

ولكن هؤلاء الظالمين، الذين يزعمون أنفسهم من أبناء إبراهيم وأحفاده! لم يراعوا شيئاً من ذلك، بل لم يألوا سعياً في خرابه، ولم يدَّخروا جهداً في منع الناس عن طوافه وزيارته.

ثم هؤلاء ينادون بالشرك ويدعون إليه ويردون دعوة الإسلام ويريدون لها العفاء كما مر في الفقرة السابقة في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

مع أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - كانا أحرص الناس على الإسلام، حيث أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت، وكانت تلك الأمنية تجول في خواطرها، وتتردد على ألسنتهما بتلك الكلمات الضارعة:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

ثم هؤلاء يثيرون الشبهات حول هذا النبي ويسخرون منه ويقولون:

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ؟!﴾

مع أن هذا النبي ما جاء إلا استجابة لتلك الدعوة الكريمة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل، وهما يبنيان البيت:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم قد مضى معنا في الفقرة السابقة إصرار أهل الكتاب على ملتهم الجائرة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

فجاءت هذه الآيات تبين لهم أن ملتهم هذه لا تمت بصلة إلى ملة إبراهيم، وإن كانوا يزعمون أنها ملة إبراهيم، فملة إبراهيم في وادٍ وملتهم في واد، ولا لقاء بينهما في أي مرحلة من مراحل الطريق. إن ملة إبراهيم هي الإسلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

هذه هي الملة التي رضيها إبراهيم لنفسه، ووصَّى بها بنيه، ثم جاء بعده أبوهم يعقوب، فسلك نفس الطريق، فعاش على تلك الملة وترك بنيه عليها: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا

إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ثم بين لهم أن ملة الإسلام ليست هي ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فحسب، بل هي ملة الرسل والأنبياء أجمعين، فلم يأت نبي ولا رسول من لدن إبراهيم إلى يومهم هذا، إلا ودعا إلى ملة الإسلام، وأما اليهودية أو النصرانية فلا عهدَ لهم بها، إنهم لم يعرفوها ولم يوصوا بها:

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

بينت لهم هذه الحقيقة على لسان النبي وأصحابه، ثم قيل لهم: إن آمن هؤلاء بمثل ما آمنتم به، واحتذوا مثالكم حذو القذة بالقذة، من غير نقص فيه أو زيادة، ومن غير تبديل فيه أو تغيير، فقد استقاموا على الطريق ونالوا نصيبهم من الهدى، وإلا فهم في شقاق، والله يتولى أمرهم ويكفي شرهم.

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

وهنا نود أن تكون لنا وقفة عند هذه الآية قبل أن نغادرها إلى ما بعدها، فقد وهم الناس في تأويلها وتحيّروا بين عدة وجوه[1].

تحقيق معنى (مثل):

ولعل منشأ الوهم في تأويل الآية هو عدم التثبت في دلالات كلمة (مثل)، فإن (مثل) لا يدل دائماً على المغايرة كما قيل، فهم إما أوّلُوه إلى غير ما يقتضيه السياق، وإما ألغوه بقولهم: إنه صلة وبذلك أبطلوا تلك الفائدة، التي سيقت لأجلها هذه الكلمة.

والتأمل في استعمالات هذه الكلمة يرشدنا إلى أن (مثل) ربما يأتي ليمثِّلَ الشيءَ بأوصافِهِ وأبعاده ويُشَخِّصهُ بميزاتِهِ وخصائصه، أو ليبرزَ الجانب الوصفي أو المعنوي،

---

(١) انظر تفسير الخازن: ١/١٦. والكشاف: ١/٣١٥.

الذي قد يذهل عنه.

فإذا قلنا - مثلاً - لرجل يقوم بعمل عظيم: مِثْلُكَ ينهض بعظائم الأمور، أو مثلك يصنع الأعاجيب، فلا نقصد بذلك إلا أن نشيد بصفاته وخلاله العجيبة، التي يتحلى بها، والتي هي مصدر أعماله التي يقوم بها.

ويشبه ذلك ما ورد عن أم الأحنف أنها كانت تُرقصه وتقول:

والله لـولا حنـفٌ بـرجلـهِ ودقةٌ في ساقه من هزله
مـا كـان منكـم أحـد كمثلـه[1]

أي: ما كان منكم أحد يضاهيه في مواهبه وصفاته.

ومن ذلك ما قالت الخنساء وهي ترثي أخاها:

فمثـلُ حبيبـي أبكـى العيـونَ وأوجـع مـن كـان لا يـوجـع

فهي لم تقصد بقولها (فمثل حبيبي) إلا أن تبرز للناس تلك الخصال التي كان يملكها حبيبها، وتُشَخِّص لهم تلك الخصائص التي كان يتمتع بها.

ومما يؤيد ذلك أنها ذكرت بعد ذلك عيون صفاته التي كانت تريد أن تشيد بذكرها، والتي تُؤَهِّلهُ لأن يبكى عليه:

أخٌ لـي لا يشتكيـه الـرفيـق ولا الركب في الحاجة الجوع
ويهتز في الحرب عند النزال كما اهتز ذو الرونق المقطع[2]

ومن ذلك أيضاً ما قاله بشر بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة:

أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلي لا تنبو عليه مضاربه[3]

فهو لم يُرِدْ بقوله (مثلي) إلا أن ينوه بصفاته وشمائله التي كان يتميز بها من بين أقرانه.

ومما يؤيد ذلك أن هذا البيت من تلك الأبيات التي قالها الشاعر حينما كان

---

(١) التفسير الكبير: ٤/ ٨٤.

(٢) ديوان الخنساء: ص٩٤. ذو الرونق: أرادت به السيف، المقطع: الماضي.

(٣) الحماسة لأبي تمام: ١/ ١٥١، رقم (٧٣).

بخراسان مع المهلب، وكان يطمع أن يُولِّيه ولاية ولكنه أبى أن يستجيب لرغبته، فقال الشاعر تلك الأبيات ليستميله إليه ويقنعه بكفاءته لما يشتهيه[1].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

ومن الصعب جداً أن نستريح إلى قول الذين قالوا في تأويله: (أي ليس كهو شيء)[2]، فإن معناه - كما يبدو للمتأمل فيه - ليس هناك شيء يعادله في أسمائه ويكافئه في صفاته، يصنع صنعه، ويخلق خلقه، وينشىء إنشاءه.

فالمقصود بسوق كلمة (مثل) هنا - والله أعلم - هو التركيز على إبراز تفرده -تعالى- بتلك الصفات.

ويصبح هذا واضحاً جلياً إذا نظرنا إلى كامل الآية، وهو قوله تعالى:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

والآن نعود إلى الآية التي كنا فيها فنقول: إن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾ معناه: إن آمنوا بنفس الشيء الذي آمنتم به، واحتذوا على مثالكم حذوَ النعل بالنعل، من غير زيادة فيه ولا نقصان، ولا تغيير فيه ولا تبديل، ولا نفاق فيه ولا شقاق فقد اهتدوا.

وبناء على هذا الحصر وهذا التحريض قد يخالج الأذهان أن هذا انحياز إلى قوم دون قوم، ومحاولة لتغليب عنصر على عنصر. وهنا يبادر السياق بإزالة هذا الوهم على لسان المؤمنين أنفسهم:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

بالإضافة إلى أن الجو كان مهيئاً من قبل لمثل هذه النصيحة، حيث أن اليهود كانوا ينادون باليهودية. والنصارى كانوا يبشرون بالنصرانية فكل قد اختار لنفسه طريقاً من الطرق بعيداً عن الله. وهنا جاء النداء الإلهي الكريم على لسان المؤمنين: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

(١) شرح الحماسة للتبريزي: ٢٥٨/١.

(٢) زاد المسير: ٢٧٦/٧.

أي: اتركوا هذه الطرق كلها، فهي مرذولة قبيحة، ولا صلة لها بملة إبراهيم، إنما ملة إبراهيم أن تصطبغوا بصبغة الله، وتُسْلِموا وجوهكم لله، وتخلصوا عباداتكم لله فعليكم بها! ونحن أيضاً تركنا الطرق كلها ولجأنا إلى صبغة الله فنحن له عابدون.

فدعوة الإسلام ليست دعوة قومية ولا عنصرية ولا.. ولا... وإنما هي صبغة الله وهل أحدٌ أحسنُ من الله حتى يصطبغ بصبغته؟

ثم الثورة على الإسلام لا تقوم إلا على أحد أمرين:

١- فإما أن ينفوا عن الله الربوبية وأحقيته بإخلاص العبادة - فهي الحقائق التي جاء الإسلام لتأكيدها وهي لا تقبل الجدل ولا النقاش للحظةٍ واحدة.

٢- وإما أن يقولوا إن سلفهم الصالحين، الذين يفتخرون بهم ويعتزون بالانتماء إليهم كانوا على غير ملة الإسلام، وهي اليهودية أو النصرانية، مع أن اليهودية أو النصرانية ما نجمت إلا بعدهم بقرون!

وعلى هذا فَيُفحمهم النص قبل أن ينهي معهم الحديث من هاتين الناحيتين:

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

ثم تأتي الآية الفَذَّة، التي يمكن أن يقال إنها الكلمة الأخيرة الحاسمة في شأن اليهود والنصارى في هذه السورة:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

ولقد تكررت الآية في هذه الفقرة مرتين، ولكن قبل أن نميط اللثام عن سر تكرارها، وقبل أن نلتمس وجه ارتباطها بما قبلها وبما بعدها نريد أن نتحرى عن صحيح تأويلها.

تأويل الآية كما وردت به كتب التفسير:

يقول الإمام ابن جرير في تأويل هذه الآية:

«يعني تعالى ذِكْرهُ بقوله (تلك أمة) إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط».

ثم يقول - رحمه الله -: «وقد بينا فيما مضى أن الأمة: الجماعة.

فمعنى الآية إذاً: قل يا محمد لهؤلاء الذين يجادلونك في الله من اليهود والنصارى إن كتموا ما عندهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومَنْ سَمَّينا معه، وأنهم كانوا مسلمين، وزعموا أنهم كانوا هوداً أو نصارى فكذبوا أنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط أمة قد خلت: أي: مضت لسبيلها، فصارت إلى ربها، وخلت بأعمالها وآمالها، لها عند الله ما كسبت من خير في أيام حياتها، وعليها ما اكتسبت من شر لا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها إلا سَيِّئُها، فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك، فإنكم إن كان هؤلاء هم الذين بهم تفتخرون وتزعمون أن بهم ترجون النجاة من عذاب ربكم مع سيئاتكم وعظيم خطيئاتكم، لا ينفعهم عند الله غير ما قدموا من صالح الأعمال ولا يضرهم غير سيئها، فأنتم كذلك أحرى أن لا ينفعكم عند الله غير ما قدمتم من صالح الأعمال، ولا يضركم غير سيئها، فاحذروا على أنفسكم وبادروا خروجها بالتوبة والإنابة إلى الله مما أنتم عليه من الكفر والضلالة والفرية على الله وعلى أنبيائه ورسله، ودعوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد، فإنما لكم ما كسبتم وعليكم ما اكتسبتم، ولا تُسألون عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط يعملون من الأعمال، لأن كل نفس قَدِمتْ على الله يوم القيامة، فإنما تُسأل عما كسبت وأسلفت دون ما أسلف غيرها»[1].

هذا ما اختاره الإمام ابن جرير في تأويل هذه الآية، وهذا هو التأويل المفضل عند الآخرين كذلك على رغم ما يكتنفه من ضعف.

فلنقف هنا وقفة نكشف فيها هذا الضعف، حتى يفتح لنا الطريق إلى التأويل الصحيح للآية. فلنعلم أنَّ الضعف هنا من ناحيتين:

الناحية الأولى:

إن هذا التأويل لا يتفق مع سياق الآية، فإن الحديث هنا لا يدور حول موضوع (الاتكال على فضائل الآباء والأجداد) كما ذهب إليه ابن جرير ومَنْ يرى رأيه من المفسرين - رحمهم الله - وإنما الموضوع هنا أن جميع الأنبياء والرسل كانوا على ملة الإسلام، ولم تكن لهم أي صلة بملة اليهودية أو النصرانية، كما يزعمه هؤلاء افتراء عليهم، ولم يكن يدفعهم إلى هذا الافتراء (اتكالُهم على فضائل الآباء والأجداد) وإنما كان الدافع إليه عداءهم للمسلمين وحرصهم على أن يعززوا موقفهم العدائي هذا بإثبات

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/٥٧٦.

أن جميع الأنبياء والمرسلين - عليهم ألوفُ التحية والتسليم - بُعثوا على ملتهم، ولم تكن لهم أي صلة بملة الإسلام أو ملة المسلمين.

الناحية الثانية:

إن هذا الأسلوب الذي وردت به الآية وهو قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ - لا يجيء في القرآن للمعنى الذي ذهب إليه الإمام ابن جرير وغيره، وإنما يَطّردُ استعماله في معنى المنابذة وإظهار البراءة.

ونسوق هنا بعض الأمثلة لكي يتضح الأمر، قال تعالى:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يذهب بنا إلى المعنى الذي ذهب إليه الناس، فإن هذه العبارة تشبه في دلالتها تلك الآية التي مضت معنا في نفس السورة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة].

يقول صاحب الكشاف وهو يفسر هذه الآية:

«هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر، ولا نسألك ﴿عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغتَ وبلغتَ جهدكَ في دعوتهم كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد]»(١).

ويقاربه قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ

---

(١) الكشاف: ٣٠٨/١.

﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ].

أي: ليس عليكم من مسؤوليتنا شيء وليس علينا من مسؤوليتكم شيء.

منشأ الوهم:

ويبدو أن منشأ الوهم في هذا التأويل هو كلمة (خلت) فإنهم توهموا أنها لا تُطلق إلا على الذين انقرضوا وانخرطوا في سلك الأموات، مع أن الكلمة أعم من هذا، فهي لا تستلزم الموت وإنما تدل في أصلها على المضي فقط، والموت صورة من صور المُضِيّ، فقد يكون مع المضي الموت وقد لا يكون.

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف].

فقد ذكر الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ قولين، أحدهما: (مضت إلى العذاب)[1].

تأويل يتفق مع سياق الآية:

ويجدر بنا الآن - وقد عرفنا سقم هذا التأويل - أن نبحث عن تأويل آخر، يتفق مع سياق الآية، ويتفق مع أسلوبها.

فما هو ذلكم التأويل إذاً؟

يبدو لي أن الإمام الفراهي -رحمه الله - كان حليفه التوفيق، حيث قال في تأويل هذه الآية:

(وأنها أمة قد خلت بما كسبت وبُعثتم خلائف فلكم ما تكسبون، وليس عليكم من ذنوبكم شيء)[2].

وأوضح من ذلك وأروع ما قاله الأستاذ محمد قطب وهو يدرس المناسبة في هذه الآيات:

---

(١) زاد المسير: ٣/ ١٩٤.

(٢) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

«ثم تجيء (المفاصلة) بين الأمتين على إثر إعلان تلك الوثيقة الهامة:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

لقد انتهت صفحة تلك الأمة وبدأت صفحة جديدة لأمة جديدة... هي التي سيتناولها السياق منذ هذه اللحظة ويوجه إليها البيان!»(١).

ويكرر فيقول حين تكررت هذه الآية:

«ثم يختم السياق مرة أخرى بصيغة المفاصلة، التي تفصل بين الأمتين، وتعلن انتهاء عهد الأمة الأولى ليبدأ عهد الأمة الثانية:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وعلى هذا فالمراد بالأمة هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ولقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي المليح في تأويل هذه الآية، قال: (الأمة ما بين الأربعين إلى المائة فصاعداً)(٣).

فكأن أبا المليح يقصد بهذا الردِّ على من قالوا: إن المراد بالأمة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، فإنهم لا يبلغون هذا العدد، بل ولا يبلغون نصفه، ولا ثلثه.

وإذا كان هذا فلم يبق أمامنا إلا أن نقول: إن المراد بالأمة عنده هم اليهود والنصارى.

وبذلك يكون أبو المليح قد سبق الفراهي ومحمد قطب إلى هذا التأويل، وهو تأويل وجيه ولا شك، لكونه متلائماً مع سياق الآيات.

فالأمة هم اليهود والنصارى، والمراد بخلوهم، أنهم انتهى دورهم وظهر فشلهم، فهم أُبعدوا عن شرف الأمانة، ونُزعت منهم كرامة الخلافة.

وأما قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فهو عبارة

---

(١) دراسات قرآنية: ص٢٩٦.

(٢) دراسات قرآنية: ص٢٩٩.

(٣) الدر المنثور: ١/٣٤٢.

عن البراءة منهم.

فالمسلمون برءاء منهم ومن تصرفاتهم، وقد تقطعت أسبابهم ورمامهم، فلا تُرجى عودتهم إلى الطريق وهم ليسوا بمسؤولين عن أودهم وانحرافهم، فهم الذين يحصدون ما يزرعون ويذوقون ما يجترحون.

السر في تكرار الآية:

وبعدما توصلنا إلى التأويل الذي يتفق مع سياق الآية وأسلوبها نعرج إلى السؤال الذي يفرض نفسه علينا، وهو: ما هو السر في تكرار هذه الآية؟

والجواب عليه سهل وميسر، بإذن الله، إذا تأملنا في نظم هذه الآيات.

والذي يظهر لنا بعد التأمل في نظمها، هو أن السياق أراد بتكرار هذه الآية أن يلفت الانتباه إلى جريمتين عظيمتين من جرائم أهل الكتاب، فإنهم ما صاروا إليه إلا بسببهما.

وقد كانت كل واحدة منهما من الفظاعة، بحيث تكفي وحدها لأن يصيروا إلى ما صاروا إليه، فكيف وقد اجتمعت الاثنتان؟

أما الجريمة الأولى، فهي أنهم رغبوا عن ملة إبراهيم ونسوا ما وصاهم به أبواهم إبراهيم ويعقوب، من الموت على ملة الإسلام، حيث قالا لهم:

﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

وكذلك نقضوا العهد الذي أبرموه مع أبيهم يعقوب، إذ قال لهم حين حضره الموت: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي؟ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

فهم خالفوا تلك الوصية ونقضوا ذلك العهد، وبذلك استحقوا أن يبعدوا عن شرف الأمانة وتنزع منهم كرامة الخلافة، فجاءت هذه الآية:

﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

وأما الجريمة الثانية، فهي أنهم ما رغبوا عن ملة إبراهيم فحسب، بل أرادوا أن يقطعوا صلة إبراهيم نفسه بملّتِهِ وأرادوا أن يقطعوا صلة الأنبياء كلهم بملته، مع أن الأنبياء الذين جاءوا من بعده كلهم بعثوا على ملته.

فهم قالوا - كذباً ومَيْناً - أن الأنبياء كلهم بعثوا بملة اليهودية أو النصرانية حتى سيدنا إبراهيم بُعث بملة اليهودية أو النصرانية!! كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾.

وهم لم يقولوا ذلك عن جهل وعدم اطلاع، بل كانوا يعرفون الحق وكانوا يكتمون، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾.

فهم أرادوا أن يقطعوا صلة الأنبياء كلهم بملة إبراهيم، ثم أرادوا أن يُغْوُوا الناسَ أجمعين، وأن يَعدِلوا بهم عن هدى الله إلى أهوائهم، كما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

فهاتان جريمتان من جرائم أهل الكتاب، وما أعظمهما من جريمة وما أشنعهما!!

وكل واحدة منهما كانت تكفي لأن تبعدهم عن شرف الأمانة وتخلع عنهم تاج الخلافة وترمي بهم في هاوية الهوان، فكيف بهم، وقد اجتمعت فيهم الاثنتان؟

فتكررت هذه الآية بعد ذِكر كلٍّ من هاتين الجريمتين تنبيهاً إلى فظاعتهما وفداحة خَطبهما!

مناسبة تلك الآيات فيما بينها:

وبعدما علمنا وشائج الربط بين هذه الآيات وما قبلها، نعود إليها مرة أخرى لنعرف ما في هذه الآيات أنفسها من التحام متين وتناسق عجيب:

﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾.

لقد جمعت هذه الآية ابتلاء إبراهيم وجمعت ما أعقبه من جزاء عظيم، وتكريماً يفوق كل تكريم، فقد جعله الله أمام الناس أجمعين، جعله إمام عصره وإمام العصور المتأخرة إلى يوم الدين.

ثم جاءت الآية التالية تدل على أعظم مظهر من مظاهر إمامته العامة الشاملة:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾.

فقد جعل الله بيته مثابة يثوب إليها الناس جميعاً، وجعله أمناً يأمنون فيه على أنفسهم وأرواحهم، وجعله قبلة ومصلى يتوجهون إليه في صلاتهم، وعهد بتطهيره للركَّعِ السجود من المقيمين هناك أو الوافدين إليه.

السر في تسمية البيت مقام إبراهيم:

وسمى الله هذا البيت مرة (مقام إبراهيم) ومرة أخرى سماه (بيتي). وهذا النظم كما أنه يشعر بتكريم بيت إبراهيم وتشريفه، ينبه إلى حقيقة هذا البيت، التي قد يغفل عنها الغافلون.

فقد سماه الله (مقام إبراهيم) من حيث أن إبراهيم هو الذي أقام هذا البيت، ثم قام فيه يدعو ربه ويعبده ويتضرع إليه.

ومن حيث أن هذا البيت مظهر من مظاهر إمامته العامة الشاملة المستمرة إلى يوم القيامة.

ومن حيث أن هذا البيت يذكرنا بتاريخه الطويل، الحافل بالمواقف الجادة والبطولات الرائعة ويذكرنا بشخصيته الفذة العجيبة، المسلمة المؤمنة القانتة، فإنه ما أمر ببناء هذا البيت إلا بعد ما ابتلاه ربه مرة بعد مرة، وفي كل مرة أبلى إبراهيم بلاء حسناً، فكان هذا البيت أثراً خالداً وتذكرة باقية لتلك الأمثلة الرائعة، التي ضربها إبراهيم في طاعة الله وعبادته والامتثال لأوامره والتضحية في سبيله بنفسِهِ ونفيسه.

ثم سماه الله (بيتي) حتى لا يخطر ببال أحد أنه إذا اتخذ مقام إبراهيم قبلة ومصلى، وتوجه إليه بصلاته وعباداته، فهي تصل إلى إبراهيم ولا تصل إلى الله فإن هذا البيت في حقيقته بيت الله، وما سُمِّي هذا البيتُ مقامَ إبراهيم إلا بعدما أسلم إبراهيم وجهه لله.

وما كان القصد بتلك التسمية - والله أعلم بما قصد - إلا ربط هذا البيت بتلك المعاني السامية النبيلة، التي كانت تتمثل في شخصية إبراهيم، حتى يتذكر الناس كلما طافوا بالبيت أو توجهوا إليه بالصلاة تلك المعاني السامية، فيحرصوا على التحلي بها والإتيان بمثلها.

ومن هنا تتبين أرجحية موقف الذين يفسرون المقام بالبيت كله، فلا شك أن موقفهم أقرب لسياق الآيات وأوفق لطبيعة الموضوع من موقف غيرهم.

الروايات الواردة في شأن مقام إبراهيم:

وأما الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية، والتي تقول:

(أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم - عليه السلام - يقوم عليه لبناء الكعبة. لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل - عليه السلام - به ليقوم فوقه، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه. كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى أتم جدران الكعبة)[١].

فهذه الروايات قد وقف منها أعلام الأمة موقفين متقابلين.

فمنهم من تمسك بها، وفسر الآية في ضوئها.

ومنهم مَنْ عدلَ عنها ولم يرضَ أن يفسر الآية بها.

وممن عدل عنها ولم يفسر الآية بها الشعبي والنخعي وعطاء ومجاهد - وابن عباس - رضي الله عنهم - فإنهم فسروا مقام إبراهيم بغير ما فسرت به الروايات[٢].

ولقد قال فريق من العلماء أن المراد بالمقام هو المسجد الحرام[٣].

يقول صاحب تفسير المنار:

«ومقام إبراهيم موضع قيامه في مكة لبناء المسجد. فهو يشمل المسجد الحرام كله، كما قال المحققون من الفقهاء»[٤].

ويقول صاحب الظلال:

«لقد أُمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى - ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله، وهذا ما نختاره في تفسيره - فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً»[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٧٠.

(٢) تفسير الطبري: ١/ ٥٣٦. والكشاف: ١/ ٣١.

(٣) المحرر الوجيز: ١/ ٤١٥، وتفسير البحر المحيط: ١/ ٣٨١.

(٤) مختصر تفسير المنار: ١/ ٩٩.

(٥) في ظلال القرآن: ١/ ١١٣.

وبالجملة فقد وقف الأئمة الأعلام من تلك الروايات موقفين متقابلين. ونحن قد اخترنا من الموقفين ما رأيناه أقرب لسياق الآيات، بعدما عجزنا من التوفيق بينها وبين الروايات.

والآن نعود إلى حديثنا السابق فنقول:

لما جعل الله البيت – وهو مقام إبراهيم – مثابةً للناس وأمناً، وأمر باتخاذه قبلة ومصلى توجه إبراهيم إلى ربه بالدعاء، وسأله – تبارك وتعالى – أن يجعل البلد الذي هو محل هذا البيت، بلداً آمناً حتى يتم الأمن فيه ويعم، وسأله أن يرزق أهله من الثمرات حتى لا يسأموا جوار هذا البيت، ولا يرغبوا عن عمارته وسدانته، ويكونوا عوناً في جعله مثابة للناس:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

كانت هذه دعوة إبراهيم بعدما انتهى من بناء البيت، ولكن ما هي المشاعر وما هي التمنيات، التي كانت تضطرب في نفسه وفي نفس إسماعيل حين كانا يرفعانِ قواعد هذا البيت:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

تلك المشاعر القدسية أو التمنيات المباركات، التي كانت تجول وتضطرب في نفوس إبراهيم وإسماعيل أثناء بنائهما هذا البيت.

لماذا كان ذكر مشهد بناء الكعبة ختام هذا الحديث؟

وهنا يثور سؤال:

لماذا أُخِّرَ بيانُ هذا المشهد إلى آخر القصة، مع أنه من ناحية ترتيبه الزماني لم يكن آخر القصة؟

هذا سؤال لا بد أن يثور في ذهن الباحث، ولا سيما إذا كان ممن يقولون بفكرة النظام، والجواب أيضاً يكمن في نظام هذه الآيات.

إن الموضوع الأساسي الذي كان موضع خلاف وموضع نقاش بين المسلمين وأهل الكتاب في تلك الساعة هو موضوع (الملة).

فاليهود والنصارى كانوا في نزاع حاد عنيف مع النبي وأصحابه، وكانوا يزعمون أنهم هم على ملة إبراهيم! وأن ملتهم هي الملة السوية المستقيمة المفضلة عند الله! وإليه تشير الآية الكريمة، التي مضت معنا قبل قليل:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ والتي جاءت بعدها بقليل: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

فجاءت هذه الآيات تفصل لهم هذا الموضوع وتذكر لهم بهذه المناسبة قصة إمامة إبراهيم، وتذكر تاريخها وتاريخ بناء الكعبة، وكونها قبلةً ومثابة للناس، وتذكر الدعوات التي كانت تتردد على لسان إبراهيم وكانت تضطرب في جوانحه وهو يرفع قواعد هذا البيت.

وبما أن هذه الدعوات كانت تعكس اتجاهاته واهتماماته، وكانت تعبر عن مشاعره وأحلامه، وكانت خير وثيقة للاستدلال على طريقته وملته، التي كانت موضع خلاف وموضع جدال بين الناس، جاء بها السياق - على غير ترتيبها الزمني - في آخر القصة واختار لها أسلوباً أي أسلوب! لِيُظهرَ شأنها ويلفتَ الأنظار نحوها.

وقفة موفقة للأستاذ سيد قطب:

ولقد وقف الأستاذ سيد قطب عند هذا الأسلوب وقفة موفقة، واستمتع بها استمتاعاً حيث قال رحمه الله:

«إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر.. حكاية تحكي: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾.

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر، إذ بالسياق يكشفُ لنا عنهما، ويُرينا إياهما، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال. إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا﴾.

فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، وجو الدعاء.. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية

شاخصة متحركة.. وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل، ردّ المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى، ويتحرك ويشخص، وتفيض منه الحياة.. إنها خصيصة (التصوير الفني) بمعناه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد...»[(١)].

ولا شك أن الأستاذ سيد قطب كان موفقاً في إبراز ناحية التصوير الفني في هذه الآيات، ولقد أحسن وأجاد.

نظم الكلام له دور ملموس في روعة هذا الأسلوب:

ولكن الموقف يزداد روعة وجمالاً، ويزداد الأسلوب قيمة واعتباراً، حين نتأمل في نظم هذه الآيات، ونعرف الغرض الذي استخدم له هذا الأسلوب، فإننا نشعر حينئذ كأن هذا الأسلوب قد طوى تلك المسافات الهائلة، التي كانت حائلة بيننا وبين أبوينا إبراهيم وإسماعيل وكشف لنا عنهما حتى يُعلنا عن حقيقة مِلّتهما في حين قد تراكمت عليها الظلمات، وتضاربت فيها الآراء، والناس أحوج ما يكونون إلى صوت يحسم هذا النزاع ويقشع هذا الظلام.

وبالجملة فقد اختار السياق هذا الأسلوب ليتعاون مع نظم الكلام في إبراز تلك الآيات التي هي بمنزلة (بيت القصيد) في مجموعتها، والتي تعالج الموضوع الأساسي الذي كان وقتئذ (موضوع الساعة) ولذلك جاء بعد هذه الآيات مباشرة:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

ويستمر هذا الموضوع إلى نهاية هذه الفقرة، نعني قوله تعالى:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

ولقد أسلفنا الكلام على نظم هذه الآيات كلها فيما مضى، وفيه غنية وكفاية بإذن الله.

ولقد طال بنا الوقوف عند هذه المجموعة من الآيات، ولم ينته الحديث بعد، فإن

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١١٤.

هناك جملة من الحقائق تُستنبط من نظم هذه الآيات، وهي قيمة ومهمة جداً.

فلا يسعنا إلا أن نحمد الله على أن مَنَّ علينا بتلك الحقائق، ثم نأخذ في تسجيلها باختصار، والله ولي التوفيق:

الحقيقة الأولى:

إن هذه الآيات توحي إلينا بنظمها وسياقها أن هذا البيت وضع على ملة الإسلام، بل هو قطب رحا هذه الملة.

ولعل هذا هو السر في أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - كانا يركزان وهما يرفعان قواعد البيت - على دعوة الإسلام، فهما دَعَوَا في تلك اللحظة المباركة لأمة الإسلام ونبي الإسلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

ولقد ضلت اليهود والنصارى عن هذه الملة، مع أن الله أرسل إليهم رُسُلَه تترى. وهؤلاء الرسل كلهم بُعثوا على هذه الملة، ودعوا الناس إليها.

ولعل ضلالهم هذا عن هذه الملة برغم تتابع الدعاة إليها، ليس إلا لأنهم قطعوا صلتهم بهذا البيت.

وأما بنو إسماعيل فهو بقوا على بقايا ملة الإسلام، وكانوا أقرب إليها من غيرهم مع أنهم ما جاءهم بشير ولا نذير قبل نبينا - عليه الصلاة والسلام - علماً بأن هذه الفترة تمتد إلى قرون لا يعلمها إلا الله، وليس ذلك فيما نرى، إلا لحرصهم على هذا البيت واعتزازهم بجواره واهتمامهم بخدمته وسدانته.

الحقيقة الثانية:

لقد اختلف الناس في أول أمر الكعبة، وأكثروا فيه الكلام، ولكن لم نطلع عند أحد منهم على شيء تطمئن إليه النفس.

ولقد كان موقف صاحب تفسير البحر المحيط موقفاً لا بأس به، حيث قال - رحمه الله -:

«ذكر المفسرون في ماهية هذا البيت، وقِدمه وحدوثه، ومن أي شيء كان بابه، وكم مرة حَجَّهُ آدم، ومن أي شيء بناه إبراهيم، ومن ساعده على البناء قصصاً كثيرة، وبعضها يناقض بعضاً. وذلك جرى على عاداتهم في نقل ما دَبَّ وما درجَ ولا ينبغي أن يعتمد إلا على ما صح في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ»[1].

وهذا الموقف - ولا شك - كان أقرب للحق وأولى بالصواب، وكان أجدر بالاتباع، لولا أن القرآن نفسه قد دلنا بنظمه على حقيقة الأمر، فإن هذه الآيات تدل بنظمها وسياقها على أن سيدنا إبراهيم هو الباني الأول أو المؤسس لهذا البيت، وبيان ذلك أن الله تعالى اصطفى إبراهيم ليكون إماماً للناس حيث قال:

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾.

ولم تكن هذه الإمامة خاصة بفترة من الزمان، أو بجيل من الناس، وإنما كانت إمامة الناس أجمعين، إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، ولذلك جعل الله تعالى ملة إبراهيم ملة الرسل والأنبياء أجمعين، وقال - عز من قائل -:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

وحتى نبينا - عليه الصلاة والسلام - بُعث بملة إبراهيم، وكان مأموراً باتباعها والالتزام بها، حيث قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

يقول العلامة أبو السعود وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾.

«الإمام اسم لمن يؤتم به، وكل نبي إمام لأمته، وإمامته - عليه السلام - عامة مؤبدة، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباع ملته»[2].

فإعلان إمامة إبراهيم، ثم إعلان كون البيت مثابة للناس وأمناً، وتسميته في نفس الوقت مقام إبراهيم، والأمر باتخاذه قِبلة ومصلى، ثم ذكر بناء إبراهيم وإسماعيل لهذا البيت. هذه الحلقات كلها، إذا ضُمت بعضها إلى بعض فإنها تؤدي إلى أن إبراهيم هو

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/ ٣٨٧.

(٢) تفسير العلامة أبي السعود: ١/ ١٨٥.

الذي أسس هذا البيت، وجعل بيته هذا مثابة للناس وقبلة ومصلى باعتباره إمام الناس أجمعين.

وتسمية البيت هنا مقام إبراهيم - كما ذهب إليه طائفة من أعلام المفسرين - لها دلالتها الخاصة في هذا الموضوع. ولقد سبق أن أشرنا إليها.

الحقيقة الثالثة:

ثم هناك أمر آخر يُستنبط من نظم هذه الآيات وهو أن سيدنا إبراهيم ما رشح لتلك الإمامة العظمى إلا بعد واقعة الذبح، فإنه بعد ما اجتاز هذا الامتحان - وكان هو الامتحان الأخير - بنجاح وتوفيق باهر، خلعت عليه تلك الكرامة، وجعلت ملته هي الملة التي يأتم الناسُ بها إلى يوم القيامة.

وبيان ذلك أن هذه الواقعة كانت تمثل - في حقيقتها - ذروة الإسلام فعبر عنها بلفظة الإسلام، حيث قال تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تلميح رائع إلى تلك الواقعة. ولقد استخدم نفس التعبير في موضع آخر، حيث ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل. قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات].

فقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ يشبه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

إذا عرفنا هذا فلنعرف أن نظم الكلام، أعني ذكر ملة إبراهيم بما يدل على علو شأنها، ثم ذكر اصطفائه بأسلوب خاص: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ ثم التلميح إلى واقعة الذبح، هذا النظم إنْ دل على شيء فإنما يدل على أن واقعة الذبح كانت هي الحلقة الأخيرة في سلسلة الابتلاءات التي ابتُلِيَ بها إبراهيم، وبعدها مباشرة تم اصطفاؤها لإمامة الناس، كما تقرر لملته أن تكون هي الملة المفضلة الباقية إلى يوم

القيامة.

ومما يؤيد هذا أن إسماعيل أيضاً كان له نصيب أوفى من هذه الإمامة، حيث أنه كان شريك أبيه في بناء البيت الذي كان من آيات إمامته، وليس ذلك إلا لأنه كان شريكه في واقعة الذبح، التي كانت آخر الابتلاءات وأشدها.

وبعد هذه الواقعة الفذة الفريدة - كانت أروع نموذج لحقيقة الإسلام - أمر إبراهيم ببناء البيت، الذي أراد الله له أن يكون أول حصن، وأكبر مركز لملة الإسلام.

الحقيقة الرابعة:

ومما يُستنبط من نظم هذه الآيات أن حياة الأمة المسلمة مَنوطةٌ ببقاء هذا البيت، فهي تبتدىء برفع قواعده، حيث أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - كانا مسلمين، وكانا من قواعد هذه الأمة، وستنتهي بقلع أحجاره، حيث ذكر نبينا - عليه الصلاة والسلام - من ضمن أشراط الساعة: (كأني به أسود أفحج يقلعها - أي الكعبة - حجراً حجراً)[١].

فلتحرصْ الأمةُ الإسلامية على كرامة هذا البيت وبقائه، لأن كرامتها من كرامته وبقاءها من بقائه.

الحقيقة الخامسة:

وأيضاً يُستنبط من نظم هذه الآيات أن العنصر الأساسي في معنى (الإسلام) هو البذل والتضحية في سبيل الله، فإن قول إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ بعد قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يقودنا إلى هذه النكتة.

ولقد اختلف الناس في تأويل قولهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ على عدة أقوال. ولعل أرجحها هو ما روي عن عطاء ومجاهد وعبيد بن عمير أن المراد به: (وأرنا مذابحنا)[٢].

ولقد فسر ابن جرير هذا التأويل بما يلي:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب ٤٩، هدم الكعبة، ٢/١٥٩.

(٢) تفسير الطبري: ١/٥٥٤.

فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وأرنا كيف نَنسكُ لكَ يا ربنا نسائكنا فنذبحها لك»[1].

ويبدو أنه لم يكن دقيقاً في تفسير قولهم هذا، فإن (مذابح) جمع مذبح، وهو ظرف مكان. وتفسيره بكيفية نسك النسائك أو كيفية ذبح الذبائح، بعيد جداً.

بالإضافة إلى أنهم قالوا (مذابحنا) ولم يقولوا (مذابح ذبائحنا).

ولعل التفسير الصحيح لتأويلهم هكذا:

(وأرنا مذابح أنفسنا، أي: أرنا المواضع التي نبذل فيها مهجنا ونضحي فيها بأنفسنا).

وعلى هذا يكون قولهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ بياناً لقولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

ومن هنا نعرف أن حقيقة الإسلام أو ذروة الإسلام هي بذل المهج والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله.

ومن هنا كانت واقعة الذبح هي فاتحة ملة الإسلام، وكان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - أول من رفع راية الإسلام.

ومن هنا كانت السمة البارزة لهذه الأمة، التي دعا لها إبراهيم وإسماعيل أنها أمة تقاتل في سبيل الله، فقد جاءت صفتها في التوراة والإنجيل والقرآن هكذا، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

الحقيقة السادسة:

لقد دعا سيدنا إبراهيم لنبينا وللأمة المسلمة وهو يبني الكعبة.

وكما أن القرآن ذكر هذه الدعوة في سياق بناء الكعبة، فكذلك الكتب القديمة أيضاً التزمت بهذا السياق في ذكر دعوة إبراهيم.

---

(١) تفسير الطبري: ١/٥٥٤.

هذا النَّظْمُ وهذا السياق يشير إلى أن هناك سبباً خاصاً بين هذا البيت وبين هذا النبي وأمته.

وبهذا يمكن أن يُفسرَ تَقلُّبُ وجه النبي ﷺ في السماء، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ... ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

وأهل العلم من الملل السابقة أيضاً قد فطنوا بهذا السياق إلى هذه الصلة الخاصة بين البيت وبين هذا النبي وأصحابه، وفطنوا إلى أن أرض هذا البيت ستكون مبعث هذا النبي وأصحابه، وهذا البيت نفسه سيكون منطلق هذه الدعوة.

فالصالحون منهم حاولوا أن ينتقلوا من البلاد النائية ويلتفوا حول هذا البيت، كما يذكر لنا التاريخ القديم لبني إسرائيل[1].

وأما الأشرار منهم، فهم لم يألوا جهداً في طمس معالم هذه النبوة، وفي تحريف الكلم عن مواضعه، حتى يوهموا الناس أن ذلك (البيت) هو بيت المقدس، وأن إبراهيم بنى البيت الذي في أورشليم، لا هذا البيت الذي هو واقع في مكة، وأن شريكه في بناء هذا البيت هو إسحاق وليس إسماعيل، وأن الذبيح كذلك هو إسحاق وليس إسماعيل، إلى غيرها من المحاولات الخاطئة الكاذبة، التي بذلوها في هذا الطريق.

الحقيقة السابعة:

إن سيدنا إبراهيم دعا ربه لأمة مسلمة، وهذه الأمة المسلمة لم تكن كأحد من الأمم، بل السياق يوحي إلينا أن الأمة التي دعا لها إبراهيم كانت أمة متفردة، لها شأنها ولها وظيفتها! إن إبراهيم دعا لأمة تقوم في الدنيا بمهمة الرسل والأنبياء، والدليل على هذا هو نَظْمُ الكلام وسياقه.

فإنه - عليه السلام - دعا لأمة مسلمة مستميتة في سبيل الله، قبل أن يدعو لبعثة الرسول، وهذا الترتيب له دلالاته وإيحاءاته.

ثم إنه - عليه السلام - دعا - لما دعا لبعث الرسول - بأسلوبٍ له دلالاتهُ

---

(١) انظر للتفصيل (دلائل النبوة) لأبي نعيم، بتحقيق الدكتور محمد رواس قلعه جي: ١/٨٥، ٩٥، ٣٣٧.

وإيحاءاته كذلك.

ولإيضاح كلامنا هذا نلجأ إلى مثال من نفس القرآن، فسيدنا زكريا أيضاً دعا ربه لاستمرار النبوة في ذريته كما دعا إبراهيم، ولكن شتان بين أسلوبهما.

ولا بأس بأن نضع أمامنا كلا الأسلوبين حتى ندرك الفرق بينهما.

قال سيدنا زكريا وهو يسأل ربه نفس السؤال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم].

فسيدنا زكريا لم يزد في هذا الدعاء على أن سأل ربه ولياً يَرِثُهُ ويرثُ من آل يعقوب وسأله أن يجعله رضياً.

بينما نرى سيدنا إبراهيم لم يقتصرْ على الدعاء لبعث الرسول بل حَدَّدَ للرسول وظيفته ومهمته كذلك، حيث قال:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

فذكر لذلك الرسول في دعائه أربع وظائف:

١- يتلو آيات الله على تلك الأمة.

٢- ويعلمهم الكتاب.

٣- ويعلمهم الحكمة.

٤- ويزكيهم.

وبعد التأمل في مطالب هذا الدعاء يتبين لنا أن جل اهتمام إبراهيم كان منصباً على تربية تلك الأمة المسلمة وتنشئتها وإعدادها وصياغتها على مثال الأنبياء، حتى تقوم بمهمتها الجسيمة في هذا الكون.

وانطلاقاً من اهتماماته تلك دعا لبعثة رسولٍ يحققُ تلك الغاية، ويقوم بذلك العمل العظيم أحسن قيام.

ثم يَشُدُّ انتباهنا كذلك قوله - عليه السلام - ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ فهذا شيء

لم يَرِدْ ذِكرهُ في سياق ذكر أي أمة من الأمم.

وإنما كان هذا من اختصاص الأنبياء - عليهم السلام - فوردَ - مثلاً - في شأن المسيح حين بشرت به أمه مريم:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران].

فلما سأل إبراهيم ربه أن يبعث في تلك الأمة رسولاً يعلمهم الكتاب والحكمة فكأنه سأله أن يرشح تلك الأمة المسلمة بكاملها لمهمة الأنبياء.

وهذه الحقيقة، التي تشير إليها تلك الآيات بِنَظْمها وسياقها قد جاءت واضحة ومُصَرَّحاً بها في نفس السورة في قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

وسنفصِّل القولَ في تأويل تلك الآية في محلها بإذن الله.

الحقيقة الثامنة:

لقد ذُكرت للنبي ﷺ في هذه الآية أربع وظائف، وآخرها هي (التزكية) والتأمل في نظم هذه الآية يكشف لنا أن الوظيفة الأخيرة هي الغاية المنشودة، والثلاث الأُول من تلك الأربعة هي وسائل للوصول إلى تلك الغاية.

ولقد نبه النبي ﷺ إلى غاية مبعثه فقال: (بُعثتُ لأُتمم حُسْنَ الأخلاق)[1].

وقال عليه الصلاة والسلام -: (أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)[2].

ولا يبعد أن يكون هذان الحديثان وأمثالهما مستفادة من نظم هذه الآية.

الحقيقة التاسعة:

لقد دعا إبراهيم ربه لإنشاء أمة مسلمة ولبعثِ رسولٍ فيهم، وتأخرت الاستجابة لهذه الدعوة حتى ظهرت بعد قرون وقرون!

---

(١) الموطأ للإمام مالك: باب ما جاء في حسن الخلق: ٢/ ٩٠٤.

(٢) سنن الترمذي، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها: ٣/٤٦٦، رقم (١١٦٢) - والأربعون الصغرى للبيهقي: الباب السابع والثلاثون، ص٢٥٤.

هكذا يبدو في بادىء النظر، وهكذا كان الأمر في عالم الواقع.

ولكننا إذا دققنا النظر في نظم هذه الآيات، فإن هذه الآيات توحي إلينا بنظمها أن الاستجابة لم تتأخر، وأن الدعوة تُلقِّيَتْ بالقبول في لحظتها الأولى، وأن الفترة التي مضت قبل ظهور هذه الأمة كانت فترة إعدادٍ وتحضير لظهور تلك الأمة.

ولم يكن هذا الأمر خافياً على سيدنا إبراهيم، ولذلك نراه يدعو لبعث نبي في تلك الأمة، مع أنه هو نفسه كان نبياً، وكان ابنه إسماعيل نبياً، وقد بُشِّرَ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

فلو لم يكن يعرف أن دعوة كالدعوة التي طلبها لا بد أن تسبق ظهورها في عالم الواقع فترةُ إعدادٍ وتحضير طويلة لَمَا قرنَ الدعوة لأمةٍ مسلمة بدعوة نبي يُبعثُ فيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

ولهذا كان إبراهيم أول من بدأ هذه العملية - أي عملية إعداد وتحضير لظهور تلك الأمة المسلمة حيث أنه وصَّى بنيه بملة الإسلام: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

واستمرت هذه السُنَّةُ فيمن جاء بعده، فيعقوب أيضاً وصى بنيه بتلك الوصية كما نص عليه القرآن.

ثم الرسل الذين جاؤوا من بعدهم كلهم وصوا بملة الإسلام، وبشروا بظهور أمة الإسلام، وأخذوا ميثاق قومهم أن يؤمنوا بتلك الرسالة المباركة الخالدة إذا أدركهم أوانها.

ونرى هذه الحقيقة واضحة ماثلة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

الحقيقة العاشرة:

إن هذه الآيات توحي إلينا بنظمها أن بني إسرائيل استقاموا على الطريقة إلى عهد الأسباط، ثم عدلوا عن الطريق، ودبت فيهم الموبقات، حتى أرسل إليهم موسى -

عليه صلوات الله وسلامه -.

فمن قبل موسى يبتدىء تاريخ انحرافهم، ثم ما زالوا في جماحهم وانحرافهم وعصيان رسلهم، وما زالوا في كفرهم وفسوقهم وشقاقهم، حتى ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

ولعل هذا هو السر في أن القرآن لما أراد في هذه السورة أن يذكر تاريخ مساوئهم وانحرافهم بدأ من عهد موسى إلى ما بعده. ثم أجمل تاريخهم البغيض في آية واحدة حيث قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة].

ثم بعد ما أشبعهم لوماً وتعنيفاً على سوء تصرفاتهم، وأراد أن يذكر لهم الملة السوية المستقيمة، التي عدلوا عنها بدأ من عهد إبراهيم إلى عهد الأسباط، حيث قال تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

الحقيقة الحادية عشرة:

ونعرف من نظم الآيات كذلك أن سيدنا موسى ومَنْ بعده من الرسل والأنبياء جاءوا - مع ما جاءوا به من البينات والهدى - بالآيات الحِسّية، التي يسميها الناس (المعجزات) بخلاف من كانوا قبلهم.

وليس ذلك إلا لما قد توغل في بني إسرائيل من السوء والإنحراف ابتداء من عهد موسى إلى ما بعده، ونقول ذلك استنباطاً من قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

ولا يخفى أن كلمة (أُوتي) أَعمُّ وأشملُ من كلمة (أُنزل) حيث أن الأولى منهما تشمل الآيات الحسية المشاهدة مع غيرها من الآيات المتلوة المنزلة، بخلاف الأخرى، فإنها لا تشمل إلا ما جاء عن طريق الوحي.

وما كان لنا أن ندرك سر هذا الاختلاف في التعبير ونفسر الكلمتين بهذا التفسير إلا بالتأمل في نظم الكلام وسياقه.

فنرى ابن عطية - مثلاً - يفسر ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ بالتوراة وآياته وما أوتي عيسى بالإنجيل وآياته[1].

وكذلك نسمع أبا حيان يقول: وجاء ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وجاء ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ تنويعاً في الكلام وتصرفاً في ألفاظه وإن كان المعنى واحداً، إذ لو كان كله بلفظ الإيتاء أو بلفظ الإنزال لما كان فيه حلاوةُ تنوعٍ في الألفاظ»[2].

فهما لم يفرقا بين مدلول الكلمتين، كما أن الذين سبقوهما، ولم يهتموا بنظام الآيات لم يفرقوا بينهما.

الحقيقة الثانية عشرة:

وينكشف لنا بالتأمل في نظم هذه الآيات أن بني إسرائيل لما عدلوا عن الطريق وتغلغل فيهم الشر والفساد، صاروا شيعاً وأحزاباً بطبيعة الحال، ثم طفقوا يفرقون بين الرسل والأنبياء فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم الآخرين. فحبيبُ حزبٍ كان بغيضاً عند الآخرين، وبغيضهم كان حبيباً عند غيرهم.

وبما أنهم دب فيهم هذا الانحراف من عهد موسى - عليه السلام - لم يبق عندهم الاحترام والتوقير إلا لمن سبقوا موسى، وهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، فهؤلاء كانوا يتمتعون بالاحترام والتوقير وحسن الثناء عند الجميع، والجميع كانوا ينظرون إليهم بعين الاعتبار والتقدير.

ولعل هذا هو السر في أن القرآن لما أراد أن يحتج على يهوديتهم أو نصرانيتهم احتج بهؤلاء حيث قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

(١) المحرر الوجيز: ١/ ٤٣١.
(٢) تفسير البحر المحيط: ١/٤٠٨.

﴿وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

فالقرآن اقتصر على الاحتجاج بهؤلاء الأنبياء نظراً لهذا الوضع وإلا فغيرهم أيضاً لم يكونوا هوداً أو نصارى وإنما كانوا مسلمين.

ولذلك لما أراد القرآن أن يذكر عن ملة الإسلام أنها ملة إبراهيم وملة جميع الأنبياء والمرسلين، لم يغادر منهم أحداً، وجمعهم جميعاً في آية واحدة، حيث قال تعالى:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

هذا ما فتح الله علينا عن طريق التأمل في نظم تلك الآيات، فله الحمد أولاً وآخراً، وله الحمد ملء الأرض وملء السموات.

والآن، وقد انتهينا من تلك الآيات، نبدأ فيما بعدها، سائلين الله - عز وجل - أن يتولانا ويسدد خطانا. إنه ولينا ومولانا.

* * *

نظم الآيات (١٤٢-١٥٢)

قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ

شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

* * *

لقد مر معنا في الآيات السالفة أن سيدنا إبراهيم دعا - وهو يرفع قواعد البيت - لأمةٍ مسلمة ودعا لرسولٍ يُبعث فيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

فإنه - عليه السلام - رضي لنفسه ملة الإسلام، وأراد أن تستمر هذه الملة في ذريته من بعده.

فأُخرجت هذه الأمة وبُعثَ هذا النبي استجابة لدعوته، حتى يواصلوا المسير على ملته وعلى طريقته، بعد أن رغب عنها بنو إسرائيل، وتخلوا عنها وتعلقوا بأهداب اليهودية أو النصرانية ما إليها.

وكانت الكعبة هي عماد هذه الملة وأساسها، وكانت بمنزلة القلب في جسدها، وقد أمر الله باتخاذها قبلةً ومصلى، كما مر ذلك بشيء من التفصيل في الفقرة السالفة.

ولكن بني إسرائيل - على الرغم من هذا كله - عدلوا عنها بعدما ضربت السفاهةُ فيهم بجرانها ورست فيهم أوتادها.

فلما أنشأ الله هذه الأمة، استجابة لدعوة إبراهيم، وأراد أن يقيمها على ملته، أعادها - بطبيعة الحال - إلى قبلته.

وكانت هذه الإعادة إلى قبلة إبراهيم دليلاً على أن هذه الأمة هي تلك الأمة التي دعا لها إبراهيم.

وما لبث القرآن أن أومأ إليه إيماء حيث ذكَّرهم بهذه المناسبة تلك المهمة التي كان يريدهم لها إبراهيم. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ولقد ذهب الناس في تأويل هذا الشطر من الآية عدة مذاهب، ولكن أوفقها للسياق وأقربها للصواب قول مَنْ قال في تأويله: معناه لتنقلوا إليهم ما علمتموه من الوحي

والدين كما نقله رسول الله ﷺ[1].

ويزداد هذا المعنى وضوحاً وسفوراً حين نضع في اعتبارنا نظير هذه الآية في سورة الحج، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج].

فهذا الخطاب الإلهي الكريم يكشف لنا عدة أمور وهي كما يلي:

١- إن الأمة المسلمة، وهم صحابة رسول الله ﷺ كانوا أمة مجتباة.

٢- إن أباهم إبراهيم سماهم مسلمين، وربهم أيضاً سماهم مسلمين في هذا القرآن، واجتباهم على العالمين ليكونوا شهداء على الناس في هذه الدنيا.

٣- إن هذه الشهادة لا تتم إلا بأن يجاهدوا في الله حق جهاده.

٤- لا بد لأداء هذه الشهادة من إعداد سابق بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله. وبعد هذا الإعداد يكون الله معهم وينصرهم في إنجاز هذه الشهادة.

إن هذه الأمور كلها تسوقنا سوقاً إلى ما أشرنا إليه مسبقاً، وهو أن هذه الشهادة عبارة عن القيام بتلك المهمة التي بُعث لأجلها الرسلُ والأنبياء. وسيدنا إبراهيم دعا لهذه الأمة، حتى تقوم هي الأخرى بتلك المهمة على صعيد عالمي، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ولقد ذَكَّرَ المسلمين بمهمتهم هذه أكثر من مرة حيث قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ (٨)﴾ [المائدة].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ (١٣٥)﴾ [النساء].

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠)﴾ [آل عمران].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/ ٤٢٢.

وعلى هذا فيكون هذا الشطر من الآية تنبيهاً من الله - تبارك وتعالى - إلى تلك الكرامة التي خص بها الأمة المسلمة، حيث رفعها - استجابة لدعوة أبينا إبراهيم - إلى منزلة الأنبياء - عليهم السلام - وناط بها ما ناط بهم من مهمة الإرشاد والتوجيه والشهادة على الناس.

ومن هنا قال النبي ﷺ فيما رواه أبان وليث عن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت -: (أُعطيت أمتي ثلاثاً لم تُعطَ إلا الأنبياء... (منها): وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه وجعل هذه الأمةَ شهداءَ على الناس) خرجه الترمذي الحكيم أبو عبدالله في (نوادر الأصول)[1].

وبما أن هذه الأمة قامت في هذه الدنيا بدور الأنبياء فسيكون لها - بإذن الله - شأنٌ خاص عند الله يوم القيامة، كما روى ابن جرير عن زيد بن أسلم أن الأمم يقولون يوم القيامة: (والله لقد كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلهم لما يرون الله أعطاهم)[2].

والآن، وقد تبين لنا التأويل الصحيح للآية نرجع إلى حديثنا الأول، فنقول: إن تحويل المسلمين إلى قبلة إبراهيم لم يكن أمراً يسيراً، وإنما كان هذا إعلاناً بظهور أمة كانت دعوة إبراهيم، وهو يرفع قواعد البيت، وكان إعلاناً بمهمتها السامية الجليلة، التي ستقوم بها في رحاب هذا الكون:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾.

وهنا يثور سؤال: إذا كانت هذه الأمة قد ظهرت استجابة لدعاء إبراهيم، وكان من مهمتها أن ترفع لواء ملته، فلماذا كان هذا التأخير في تحويلها إلى قبلته؟ فقد كان من المفروض أن تستقيم الأمة على قبلتها قبل أن تبدأ مسيرها إلى غايتها.

فيجيب السياق على هذا السؤال ويبين الحكمة في هذا التأخير:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وبيانه أن الله تعالى لم يأمر باستقبال بيت المقدس إلا ليختبر الناس ويعلم مَنْ يُسلم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٥٥.

(٢) تفسير الطبري: ٢/ ١٠، ولقد وردت هذه الرواية أيضاً بهذا اللفظ: (وتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها). انظر مسند الإمام أحمد: ١/ ٢٩٦.

لأمره ممن لا يسلم، فإن هذه القبلة - وهي بيت المقدس - كانت ثقيلة على النفوس، وما كان ليتوجه إليها من غير أهل الكتاب إلا مَن استنار قلبه بالهدى والإيمان.

ولقد كان الدكتور دراز - رحمه الله - موفقاً كل التوفيق حيث قال وهو يدرس هذه الآيات:

«إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختباراً لإيمان المهاجرين ليتبين مَن يَتَّبع الرسولَ من ينقلب على عقبيه»(١).

والأستاذ الإمام محمد سيد قطب أيضاً يرى نفس الرأي، ولقد تناول - رحمه الله - هذا الموضوع بالبيان والإيضاح، وكتب كلاماً في غاية الروعة والجمال، حيث قال:

«وإذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التي كانوا عليها، بمناسبة تحويلهم الآن عنها: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة، التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة، المستخلفةَ في الأرض تحت راية العقيدة. إنه يريد لها أن تَخلصَ له، وأن تتخلَّص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ومن كل رِغابها الدفينة، وأن تتعرى من كل رداء لبسته في الجاهلية، ومن كل شعار اتخذته، وأن ينفرد في حسها شعار الإسلام وحده لا يتلبَّسُ به شعار آخر، وأن يتوحد المصدر الذي تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر.

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة، وشابت عقيدة جدهم إبراهيم شوائب من الشرك، ومن عصبية الجنس، إذ كان البيت يُعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس.. والله يريده أن يكون بيت الله المقدس، لا يضاف إليه شعار آخر غير شعاره، ولا يتلبس بسِمةٍ أخرى غير سمته.

لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة، ووجههم إلى بيت المقدس، ليخلِّصَ مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول ﷺ ثانياً، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسولُ الله، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة، فاستراحت نفوسهم إلى

---

(١) النبأ العظيم: ص١٨٧.

هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة.

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة... إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها في القلب شريكاً، ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح، إنها لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية في أية صورة من الصور، جَلَّ أم صغر. وهذا هو إيحاء ذلك النص القرآني: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾... والله - سبحانه - يعلم كل ما يكون قبل أن يكون، ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس، حتى يحاسبهم عليه، ويأخذهم به. فهو - لرحمته بهم - لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم، بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم.

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس علقة.. أمر شاق، ومحاولة عسيرة.. إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق، وإلا أن يُعينَ الله هذا القلب في محاولته فَيصِلَهُ به ويهديه إليه:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾...

فإذا كان الهدى فلا مشقةَ ولا عسر في أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات، وأن تنفض عنها تلك الرواسب، وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع، حيثما وجهها الله تتجه، وحيثما قادها رسول الله تُقاد»(١).

وعلى هذا فالذين هداهم الله استجابوا لأمره، وبادروا إلى تنفيذه، وأما من سواهم فهم لم يرضخوا لأمر الله، ولم يتبعوا الرسول وانقلبوا على أعقابهم، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

فكان هذا القول، حسبما يوحيه إلينا السياق، تعليلاً لاختيار هذه القبلة كمادة للاختبار، فإنها بكونها ثقيلة على النفوس - والاختبار دائماً يكون بشيء يَثقلُ على النفوس - مازت مَنْ يتبع الرسول ممن لا يتبعه.

قول في غاية الضعف:

ومن هنا يتبين ضعف ما قاله الإمام ابن جرير في تأويل ما نتحدث عنه من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾. حيث قال: (قال بعض نحويي البصرة: أُنِّث الكبيرةُ لتأنيث القبلة، وإياها عنى جل ثناؤه بقوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾. وقال

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٣٢-١٣٣.

بعض نحويي الكوفة: بل أنثت الكبيرة لتأنيث التولية والتحويلة.

وهذا التأويل أولى التأويلات عندي بالصواب، لأن القوم إنما كبر عليهم تحويل النبي ﷺ وجهه عن القبلة الأولى إلى الأخرى لاعين القبلة ولا الصلاة، لأن القبلة الأولى والصلاة قد كانت وهي غير كبيرة عليهم(١).

ولا ندري كيف يذهب ابن جرير - رحمه الله - إلى هذا القول! فهذا القول لا يستقيم مع العبارة كما لا يستقيم مع السياق.

أما العبارة فهي لا تقبل أبداً تلك التقديرات التي قدرها - رحمه الله - فليست هناك أية قرينة تدل على أن المراد بـ«القبلة» في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهو التحويلة عن القبلة والتولية عنها حتى نقول: (بل أنثت الكبيرة لتأنيث التولية والتحويلة).

وأما السياق فهو لا يقبل قوله: (لأن القوم إنما كبر عليهم تحويلُ النبي ﷺ وجهه عن القبلة الأولى إلى الأخرى لاعين القبلة والصلاة، لأن القبلة الأولى والصلاة قد كانت وهي غير كبيرة عليهم)، فالسياق ينادي بصراحة أن القبلة الأولى هي التي كبرت على النفوس وكانت غُصَّةً لا يستسيغها إلا مَنْ هداهم الله وتولاهم بعنايته وتوفيقه.

وإذا أردنا أن نعرف مدى ثقل هذه القبلة على النفوس فيكفينا أن نتذكر ما أخرجه أبو داود في ناسخه عن أبي العالية من أن رسول الله ﷺ نظر نحو بيت المقدس فقال لجبريل: «وددتُ أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها» فقال له جبريل: «إنما أنا عبدٌ مثلك، ولا أملك لك شيئاً إلا ما أمرت، فادعُ ربك وسَلْهُ». فجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل(٢).

فإذا كان النبي ﷺ نفسه يسمي تلك القبلة (قبلة اليهود) وكان يود أن يصرفه الله عنها، فما ظننا بمن سواه من أصحابه!

وقلق المسلمين وخوفهم على إخوانهم الذين قُتلوا أو ماتوا قبل تحويل القبلة أيضاً يؤكد لنا هذا الوضع.

فإنهم ما كان يحزنهم إلا شعورهم بأن هذه النعمة العظيمة السابغة التي ساقها الله

---

(١) تفسير الطبري: ١٦/٢.

(٢) الدر المنثور: ٣٤٣/١-٣٤٤، ووفاء الوفاء: ٣٦٣/١.

إليهم بتحويلهم إلى قبلة إبراهيم، لم يكن لإخوانهم الماضين منها نصيب، وإنما كان من نصيبهم أن يموتوا على قبلة لم تكن تزيد على أن تكون وسيلة للاختبار: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾.

وأما القول بأن تحويل القبلة هو الذي كبر على المؤمنين، فهذا قول يرده الواقع.

فالواقع أن القوم استقبلوا أمر تحويل القبلة - لما حُوِّلَتْ -بلهفةٍ وحنين وشوق عجيب كما يظهر مما رواه البخاري وغيره من أن رجلاً صلى مع النبي ﷺ ثم مر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت(١).

هذه المبادرة العجيبة إلى تنفيذ هذا الأمر إنْ دلَّت على شيء فإنما تدل على لهفة القوم وشوقهم إلى هذا التحويل بخلاف ما ذهب إليه ابن جرير.

وأما الذين كبر عليهم هذا التحويل فهم سفهاء اليهود، الذين نص عليهم القرآن، ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: هذا الاختبار وهذا الابتلاء كان ضرورياً للحفاظ على إيمان المؤمنين، فإن الجماعة إذا كانت تضم إليها الكاذب والصادق والمؤمن والمنافق فإن هذا سيكون - ولا محالة - مَجلبةَ شرٍّ وضياع لصدق الصادقين وإيمان المؤمنين، ولا يلبث داء الكذب والنفاق أن يعم وينتشر ويتعدى إلى الجميع.

ولذلك كان من سنة الله الجارية - لشدة رأفته ورحمته بعباده المؤمنين - أن يبتليَ أتباعَ الرسل الفينةَ بعد الفينة حتى يَميزَ الخبيثَ من الطيب ويعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، فتكون هذه الابتلاءات رحمة للمؤمنين الصادقين ووبالاً على الكاذبين المنافقين.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يشبه في معناه قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ١١ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا: ٥/ ١٥١.

وبعدما ينتهي السياق من بيان حكمة التأخير في شأن تحويل القبلة يتوجه إلى النبي ﷺ فيأمره وبالتالي يأمر الأمة المسلمة بتولية وجوههم شطر المسجد الحرام ويبين في نفس الوقت حقيقة الخلاف والشقاق واللجاج الذي سيواجهه المسلمون من قِبلِ أهلِ الكتاب حتى يكونوا على بينة من أمرهم ويعتصموا بالصمود وصدق العزيمة إذا اشتد ضغط الظروف عليهم.

ويستمر هذا الحديث إلى أن تنتهي الفقرة بقوله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

وقبل أن نبدأ في الفقرة التالية نريد أن نلمع إلى أمور وحقائق تُستنبط من نظم هذه الآيات، فإنها هامة جداً، وهي كما يلي:

الحقيقة الأولى:

كان الأصل في هذه الأمة - كما نستوحي مما سبق من الآيات - أن تبدأ رحلتها إلى ملة إبراهيم باستقبال المسجد الحرام الذي هو قبلة إبراهيم، وكان المفروض أن تكون هذه هي أول خطوتها في هذا الطريق، ولكن أجل هذا الأمر إلى ما شاء الله لحكمة أرادها. فبدأ الله هذا الباب - وهو الباب الذي يمتاز بإبراز معالم هذه الملة - بموضوع تحويل القبلة، حتى ننتبه عن طريق النظم لحقيقة الأمر ونعرف مكانة هذه القبلة في هذه الملة، فالتوجه إلى هذه القبلة هو المدخل إلى ملة الإسلام، وبقدر تعظيم المرء لهذا البيت وحنينه إليه يكون له نصيبه من نعمة الإسلام.

الحقيقة الثانية:

لقد اختلف الناس في تفسير تقلب وجه النبي ﷺ في السماء على عدة أقوال، إلا أن ما يوحيه إلينا نظم الكلام وسياقه هو أن النبي ﷺ قد أدرك من الآيات التي مضت معنا في الفقرة السابقة أن القبلة - في الواقع - هي الكعبة، والذين اتخذوا بيت المقدس قبلة لهم إنما اتخذوه لسفاهتهم ورغبتهم عن ملة إبراهيم، كما أدرك - عليه السلام - أن القرآن لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة إلا ليعيد الأمرَ إلى نصابه، وكان - عليه السلام - على يقين من هذا الأمر ولكنه كان ينتظر الوحي بذلك.

ومما يؤيد ذلك ما أخرجه أحمد والبيهقي في سننه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

(إنهم - يعني أهل الكتاب - لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضَلُّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين)[1].

والجزء الأخير من هذه الآية نفسها يُلمعُ بنظمهِ إلى هذه الحقيقة حيث قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾.

فما كان تَطلُّعُ النبي - عليه السلام - وحنينهُ إلى هذه القبلة إلا لما عرف أنه هو الحق وأي شيء يكون أحب إلى النبي وآثر عنده من الحق؟

ولا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن تقلب الوجه في السماء ليس عبارة عن الرغبة أو التمني أو الدعاء، وإنما هو عبارة عن الانتظار والترقب في غاية الشوق والرضا، وما كان - عليه السلام - ليملي على ربه شيئاً يشتهيه ويهواه، وإنما كان يشتهي ما يمليه عليه ربه ويوحيه.

والآيات التي مضت معنا في الفقرة السابقة كانت واضحة الإشارة إلى أن القبلة ستحول إلى البيت الذي بناه إبراهيم، فكان - عليه السلام - ينتظر بلهفة ما قد توقع وقوعه وعرف حدوثه من نفس القرآن.

الحقيقة الثالثة:

لقد مضت معنا في أول السورة موعظة ربنا لبني إسرائيل بعدم كتمان الحق حيث قال تعالى: ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ثم وصمهم الله هناك بتلك الجريمة حيث قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. وما وصم هؤلاء بكتمان الحق في هذه السورة إلا في أمر القبلة.

ثم تكررت كلمة «الحق» هنا في سياق القبلة الإبراهيمية أربع مرات:

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾.

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٦/ ١٣٥.

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

هذا النظم وهذا التكرار يبين لنا مدى جهد اليهود لكتمان أمر القبلة، ويبين لنا مدى اهتمامهم بمحو معالمها وآثارها، كما يبين لنا أن هذا الكتمان هو الذي قطع عليهم الطريق وكان سداً منيعاً في طريق إقبالهم إلى الحق، فكلما أرخوا سدول الكتمان على هذا الحق كرههم الحق وعاداهم، حتى انفصلوا من ملة إبراهيم انفصالاً لا وصلة بعده، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾.

والآن لا سبيل لهم إلى التخلص من هذا الشقاء ولا طريق لهم إلى الدخول في حظيرة الإيمان إلا أنْ يَصِلُوا ما قطعوا من صلتهم بقبلة إبراهيم.

الحقيقة الرابعة:

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾.

فأمرنا ربنا باستباق الخيرات، ثم أردفه قائلاً:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

هذا النظم يدل على أن المسجد الحرام هو جماع الخيرات كلها، فمن أراد أن يستبق الخيرات فليقوِّ صلته بهذا المسجد.

ولعل هذا هو السر في تسمية الكعبة بـ«الكوثر» في رأي من يفسر «الكوثر» بالكعبة، كما ذهب إليه بعض أئمة التفسير مثل الإمام الفراهي - رحمه الله -[(1)].

الحقيقة الخامسة:

قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

(هذا النظم يفيد أن النعمة والهداية لهما ارتباط خاص بهذا البيت، فمن سَرَّهُ أن يكون في موكب الهداية والنعمة فلا بد له أن يصل حبله بهذا البيت. هكذا نستنبط من

---

(١) أنظر تفسير سورة الكوثر للفراهي - رحمه الله -: ص١-٣.

نظم هذه الآية.

ثم إذا رجعنا قليلاً وألقينا النظر فيما سبقها من الآيات تأكد لنا صحة هذا القول، وبيانه أن الله تعالى قال في سورة الفاتحة على لسان هذه الأمة المسلمة الخاشعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾.

ثم نادى في هذه السورة هؤلاء الذين ضلوا وجلبوا على أنفسهم غضب الله ثلاث مرات، ودعاهم إلى أن يتذكروا ما كانوا ينقلبون فيه من عظيم فضل الله وسابغ نعمته. وناداهم أن يرجعوا عما هم فيه من نقض العهد وكتمان الحق، حتى يعودوا إلى ما كانوا فيه من جديد:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ . . . وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤٢ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢٢ ﴾ [البقرة].

ثم وصى في هذه الآية تلك الأمة المسلمة الناشئة، المتطلعة إلى النعمة والهداية، أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام حتى يتم عليهم النعمة ويربطهم بمركز الهداية:

﴿ وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾.

كما وصم قبل ذلك بني إسرائيل أنهم كتموا أمر هذا البيت وارتكبوا جريمة كتمان الحق - وقد حُذِّروا منها في هذه السورة عدة مرات - وكأنهم بذلك رفضوا أن يعودوا إلى ما كانوا فيه من النعمة والهداية:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝١٤٧ ﴾.

إذا جمعنا هذه الأمور بعضها إلى بعض تبين لنا - كما ذكرنا - أن الله تعالى ربط النعمة والهداية بهذا البيت، فمن وصل حبله بهذا البيت كان في ظل النعمة والهداية، ومن قطع حبله عنه انقطعت عنه النعمة والهداية.

وهذا الذي حصل مع أهل الكتاب، فإنهم ما لبثوا أن قطعوا حبلهم عن هذا البيت

فزالت عنهم النعمة وانقطعت عنهم الهداية، حتى أتى الله بهذه الأمة وربطها بهذا البيت ليتمّ عليها النعمةَ ويسكب عليها من فيض الهداية.

الحقيقة السادسة:

قال ربنا - تبارك وتعالى - بعدما أمر بالتوجه إلى البيت: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ...﴾ الآية.

هذا النظم يفيد أن هذا البيت وهذا الرسول كليهما - صنوان، فالهداية والنعمة مرتبطتان بهذا الرسول كما أنهما مرتبطتان بهذا البيت، ولقد أنعم الله على هذه الأمة بهذا الرسول كما أنعم عليها بهذا البيت.

الحقيقة السابعة:

لقد ذكرت هناك أربع وظائف لنبينا - عليه الصلاة والسلام - وهي تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، كما قال تعالى:

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

وهي نفس الوظائف التي ذكرها سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حين دعا لهذا الرسول وهو يرفع قواعد البيت، حيث قال تعالى:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

ولكن النظم يختلف في كلا الموضعين، حيث أن «التزكية» ذكرت هنا بعد تلاوة الآيات ثم ذكر تعليم الكتاب والحكمة، بينما نرى في دعوة سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن التزكية هي رابعة الأربعة، فقد ذكرت فيها تلاوة الآيات، ثم تعليم الكتاب، ثم تعليم الحكمة ثم التزكية.

ثم إن هذا المضمون ذكر في موضعين آخرين من القرآن غير هذين الموضعين وهما سورة آل عمران وسورة الجمعة.

فقد ذكر في سورة آل عمران هكذا.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

كما ذكر في سورة الجمعة هكذا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

والأمر الذي يستدعي الانتباه هو أن هذا المضمون ذكر في المواضع الثلاثة على نظم واحد، وهو غير النظم الذي ذكر عليه في دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ولقد دلنا القرآن بهذا النظم، أو بهذا الاختلاف في النظم على حقائق مهمة جداً. فقد دلنا بنظمه الأول - وهو النظم الذي وردت عليه دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام - على أن التزكية هي غاية الغايات، وهي أقصى ما يُطالبُ به العبد، ولأجلها بعثت الرسل والأنبياء، ولأجلها بعث نبينا ﷺ، ولقد صرح النبي ﷺ بهذا الأمر حيث قال: (بُعثتُ لأتمم حُسْنَ الأخلاق)(١).

كما دلنا بنظمه الثاني - وهو النظم الذي وردت عليه الآيات الثلاث الأخر - على أن التزكية، وإن كانت غاية الغايات، فإنها في تَحقُّقها وظهورها ليست خاضعةً للترتيب المنطقي البحت، بل هي تتحقق - إذا تحققت - أو تظهر - إذا ظهرت - من أول الطريق، وهي تكون أول زاد للمقبل إلى الله.

وبيان ذلك أن تلاوة الآيات وتعليم الكتاب وتعليم الحكمة، هذه الأمور كلها بمنزلة الوسائل الموصلة إلى الغاية المنشودة وهي التزكية، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الغاية تنتظر لوجودها أو تحققها أن تتحقق أولاً تلك الوسائل كلها تحققاً كاملاً، ثم تتبعها هذه كما هو المعهود في شأن الوسائل والغايات؛ بل هذه الغاية تتفاعل مع تلك الوسائل من أول أمرها وتخدمها وتنميها وتحدو بها إلى الأمام وتبلغ بكمالها إلى كمالها.

وعلى هذا إذا تخلفت هذه الغاية ولم يُقَدَّرْ لها أن تُلازمَ تلك الوسائل فإن تلك الوسائل لن تعمل عملها ولن تؤتي أكلها.

---

(١) الموطأ للإمام مالك: باب ما جاء في حسن الخلق: ٢/ ٩٠٤.

وبعبارة أدق، فإن علم الكتاب والحكمة يتوقف أمره على أن يكون الدافع إليه هو الحرص على التزكية. ولو أراد إنسان أن يكسب هذا العلم بدون تصحيح النية أو بدون الحرص على التزكية فلن يبلغ ما يؤمله ولن يُعطى ما يتمناه.

وهكذا تكون النتيجة إذا عكس الأمر فلو أراد إنسان أن يتزكى وهو يستهين بما أنزل الله من الكتاب والحكمة، وحاول أن يبلغ مناه عن طريق غير هذا الطريق كما فعل المتصوفة - مثلاً - فلن يجني إلا الندم ولن يملأ يديه إلا التعب والنصب، وسيكون مَثَلُه كباسطِ كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.

وبعد الاطلاع على ما يوحيه إلينا هذا النظم من تلك الحقائق القيمة، نريد أن نعلم مناسبة كل من هذين النظمين لسياقهما وللملابسات التي تحيط بهما، فنقول وبالله التوفيق:

إن التزكية إذا كانت فكرة مجردة تعيش في الذهن، أو أمنية خالصة تجول في القلب، أو بنداً من بنود مخطط العمل فمحلها في الأخير ولا شك.

محلها في الأخير باعتبارها هدف الأهداف وغاية الغايات، فإن الغاية من شأنها أن تذكر في الختام، ومن شأنها أن تكون هي نهاية القائمة، إذا عملت للأعمال قائمة، كما نرى في دعوة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأما إذا كانت الدعوة قد سبقت هذه المرحلة - مرحلة كونها فكرة مجردة، وكانت قد بدأت فعلاً، وأصبحت حقيقة عملية واقعية، وكان الرسول أو الداعي واقفاً في مجال العمل والجهاد، كما نرى في المواضع الثلاث الأخر، حيث أن هذه الآيات تزلت والنبي ﷺ في جهدٍ جاهد وشغل شاغلٍ من تلكم الأعمال التي بُعث لأجلها، فإن التزكية لا تكون إذاً آخر الأمور ظهوراً وتحققاً، بل تواكبُ الدعوةَ خطوة خطوة وتنضج شيئاً فشيئاً حتى تبلغ كمالَها حينما تصل الدعوة إلى نُضجها وكمالها.

ولذلك اختلف النظم في تلك المواضع الثلاث، وقدم فيها ذكر التزكية عن موضعها في الآية الأولى.

هذا، وقد تكون هناك أسباب أخر لاختلاف هذا النظم في تلك المواضع الثلاث، فيمكن مثلاً أن نقول في هذه الآية، التي نتحدث عنها، إن السياق هنا أراد بهذا التقديم والتأخير أن يركز على ناحية العلم ويُنَوِّهَ بشأنه، ولذلك جعل تعليم الكتاب والحكمة في آخر الآية، والزيادة التي جاءت في آخر الآية ترشدنا إلى ذلك حيث قال

تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾.

ويمكن أن نستأنس لقولنا هذا ما سبق هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

ومثله ما جاء قبل هذه الآية: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

فالجو هنا جو التنويه بما جاء من العلم من عند الله.

الحقيقة الثامنة:

وبعدما انتهى السياق من ذكر تحويل القبلة جاءت هذه الآية:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

وهذه الآية كما لا يخفى آية عهد وميثاق بيننا وبين ربنا، وهي تشبه بمضمونها قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

فمجيء هذه الآية بعد ذِكْرِ تحويل القبلة يدل عن طريق النظم على أن القبلة هي معقدُ ميثاقٍ بيننا وبين ربنا.

ومن هنا اعتبرت الصلاة لما لها من صلة خاصة بهذه القبلة عنوان هذا العهد. وقال نبينا ﷺ: (العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر)[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: (خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً، استخفافاً بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إنْ شاء عذَّبه وإن شاء أدخله الجنة)[2].

ثم ربطُ هذا الميثاق بهذه القبلة في سياق ذِكر أهل الكتاب يشير إلى أن أهل الكتاب نقضوا - أول ما نقضوا - عهدهم بتخليهم عن هذه القبلة ورغبتهم عنها. ثم رغبتهم

---

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في ترك الصلاة: ٥/ ١٤، رقم الحديث (٢٦٢١).

(٢) الموطأ للإمام مالك: باب الأمر بالوتر: ١/١٢٣، رقم الحديث (٢١٤).

عن هذه القبلة هي التي أفضت بهم إلى إضاعة الصلاة ، فهم أضاعوها أي إضاعة! حتى لم يُبقوا لها أثراً ولا تركوا لها ذِكراً في شريعتهم!!

وبعدما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نأخذ فيما بعدها من الآيات.

* * *

نظم الآيات (١٥٣-١٦٢)

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن
يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ
ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

* * *

لقد بينا فيما مضى أن الكعبة بنيت على ملة الإسلام، بل هي قطب رحا هذه الملة. وبيّنا كذلك أن العنصر الأساسي في معنى «الإسلام» هو البذل والتضحية في سبيل الله، وبينا أن تحويل المسلمين إلى الكعبة المشرفة لم يكن خطباً يسيراً، بل كان ذلك إعلاناً بظهور أمة قد دعا لهم إبراهيم وهو يرفع قواعد البيت، وكان إعلاناً بمهمتها السامية الجليلة التي ستقوم بها في رحاب هذا الكون، وهي الشهادة بالحق على الناس - المهمة التي بعث لأجلها الرسل والأنبياء.

فبعدما انتهى السياق من تقرير القبلة التفت إلى المسلمين يذكرهم مهمتهم تلك ويحفزهم إلى القيام بها والتهيؤ لها... المهمة التي بنيت لها الكعبة، وأنشئت لأجلها هذه الأمة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

ثم إبراهيم، الذي أنشأ هذه البنية ودعا لهذه الأمة، ما بلغ ما بلغ إلا بعد ما ابتلي بكلمات فأتمهن، فأحرى بالأمة التي أنشئت استجابة لدعوته واجتُبيت لرفع لواء ملته، أن تُبتلى وأحرى بها أن تُمحَّصَ، فذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ومثله ما جاء في سورة محمد حيث قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد].

وعلى هذا فتلك الآيات الخمس جاءت كالجملة المعترضة في هذا السياق لاستجاشة همم المسلمين وتحريضهم على القيام بتلك المهمة الجليلة التي نيطت بهم ولتذكيرهم برسالة القبلة التي يستقبلونها في صلاتهم.

ثم عاد الكلام إلى ما كان فيه من أمر البيت وما يتصل به:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

جاءت هذه الآية لتفضح بني إسرائيل وتكشف ما أرادوا كتمانه من أمر الصفا والمروة وكونها من شعائر الله، فإنهم كما أَرْخَوْ سُدولَ الكتمان على بيت الله الحرام حيث قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

فكذلك أرخوها على جميع معالمه وأرخوه على كل شيء يَمُتُّ إليه بِصلةٍ ويوشك أن يبوح بسرِّهم ويكشف عن دسائسهم.

فكتموا «المروة» التي اختارها الله لأن تكون موضع قربان سيدنا إسماعيل وحرفوها في كتبهم عن «مروة» إلى «موريا» و«مورة» و«مريا» وادعوا أن هذا المكان يوجد في أورشليم لا في مكة التي يعمرها بنو إسماعيل(١).

---

(١) ومن أراد زيادة البيان في هذا الموضوع فليراجع (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح) للإمام =

إنهم لم يألوا جهداً في كتمان مكان الصفا والمروة وفي تعمية أمرهما باعتبارهما من أبرز معالم القبلة الإبراهيمية، التي رغبوا عنها لمجرد كونها في أرض بني إسماعيل.

فجاءت هذه الآية تكشف عن تلك المحاولة الخبيثة ، وتعلن للناس أمرهما وتبين لهم أنهما من شعائر الله:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .

كلمة موفقة للأستاذ عبدالله دراز:

ومما يسرنا ويُدخل البهجةَ في نفوسنا أن الأستاذ عبدالله دراز أيضاً وصل بفضل التأمل في نظم الآية وسياقها إلى نفس التأويل، فلله الحمد.

يقول - رحمه الله - في كتابه «النبأ العظيم» وهو يتكلم عن نظام هذه الآيات:

«. . . ثم أومأ إلى أن الجدال في هذه القبلة ليس صداً عن الشعائر التي في داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صدّ عما حوله من الشعائر ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ .

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين نحو ما أكد أمرَ القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلها في تاريخ إبراهيم، ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون»[1].

وبعدما ينتهي النص من تقرير القبلة وتأكيد أمر هاتين الشعيرتين يتوجه إلى أهل الكتاب يُشبعهم لوماً وتعنيفاً على كتمانهم ما أنزل الله من البينات والهدى ويتوعدهم بسوء مصيرهم إنْ لم ينتهوا عما هم فيه من الكفر والكتمان:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

= عبدالحميد الفراهي ص٢١-٢٢.

(١) النبأ العظيم: ص١٨٨.

وقبل أن نبدأ في الفقرة التالية نود أن نشير إلى بعض الحقائق التي تُستنبط من نظم هذه الآيات فنقول وبالله التوفيق:

الحقيقة الأولى:

قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

يُستفاد من نظم هذه الآية أن الصلاة هي التي تمد المؤمنَ بالصبر، وبقدر لجوء المرء إلى الصلاة تنشأ فيه قوة الصبر.

ولعل هذا هو السر في أن نبينا عليه الصلاة والسلام كان يكثر من الصلاة وكان يفزع إليها إذا حَزَبهُ أمر، فقد روى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى»(١).

الحقيقة الثانية:

ويستفاد كذلك أن الصبر على لأواء الكفاح وشدائد الجهاد في سبيل الله هو الغاية من الصلاة، وهو المقياس الدقيق لحسن صلاة المرء وكمالها، فكلما حسنت الصلاة واستكملت شروطها زودت المرء بزاد الصبر والصمود في سبيل الله، وإن كان المرء هلوعاً جزوعاً جباناً هراباً وهو يصلي فهذا يعني أنه يصلي ولا يصلي وصلاته تلك لا تغنيه ولا تقنيه ولا تُرضيه عند ربه لكونها فاقدة النتيجة.

وهذا يستفاد من نظم هذه الآية حيث جمع الله تعالى بين الصبر والصلاة في الوصية فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ثم اقتصر في بيان النتيجة على ذكر الصابرين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

فذكر الصابرين دون المصلين يشعر أن الصبر والصمود في سبيل الله هو الغاية من الصلاة، والصلاة وسيلة إلى تلك الغاية.

الحقيقة الثالثة:

التأمل في نظم هذه الآيات الخمس (١٥٣-١٥٧) ينبهنا إلى أهمية الصلاة وينبهنا إلى رفيع منزلتها من ناحية جديدة حيث نرى أن هذه الصلاة تغذي المؤمن بالصبر وتُغذِّيه

---

(١) مختصر سنن أبي داود: باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل: ٢/ ٩٤، رقم الحديث (١٢٧٤).

ثم تسمو به إلى أن تكون عليه صلواتٌ من ربه ورحمة، فصلاة العبد لربه سُلَّمٌ إلى أن تكون عليه صلوات من ربه ورحمة!!

وهذا الشعور يهز المؤمن هزاً، ويدخل في نفسه من البهجة والسرور ما يَجلُّ عن الوصف.

الحقيقة الرابعة:

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾.

يرشدهم هذا النظم إلى أن السعي يبدأ من الصفا إلى المروة.

ولقد فعل نبينا - عليه الصلاة والسلام - هكذا استنباطاً من هذا النظم كما نعرف من رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه حيث قال وهو يحكي لنا قصة حجة الوداع:

(... ثم خرج من الباب إلى الصفاة فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت)[1].

الحقيقة الخامسة:

التأمل في نظم هذه الآيات يكشف لنا السر في كون الصفا والمروة من شعائر الله، فإن الآية: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ جاءت بعد التنويه بشأن الصابرين، وهذا النظم يلح علينا أن نلتمس الصلة بين الصفا والمروة وبين هذه الصفة، فإذا بالموضعين لهما ارتباط بواقعة الذبح، فإن الصفا - كما مر معنا قريباً - كان مسكنَ إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - والمروة هو المكان الذي تمت فيه واقعةُ الذبح، وكانت هذه الواقعة أروع مثال للصبر في طاعة الله.

وقد نبهنا القرآن إلى هذا الجانب عند ذكره لنا هذه القصة حيث قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات].

الحقيقة السادسة:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هذه

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ: ١/٨٨٨.

الآية تدل بنظمها أن التوبة لا تتم باللسان وإنما تتم بإصلاح الحال والإقلاع عن السيئة التي اجترحها الإنسان، فالنطق بالتوبة، إذا لم يسانده العمل، لا يعتبر توبة، ولا تبرأ منه الذمة.

الحقيقة السابعة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

يستفاد من نظم هذه الآية أن اللعنة تبدأ من الله - سبحانه وتعالى - ثم تنتقل منه - تعالى - إلى الملائكة ثم منهم إلى الناس، ولا يبعد أن يكون الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مستفاداً من نظم هذه الآية، حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أُحبُّ فلاناً فأحبه قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»(١).

الحقيقة الثامنة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

وقبله جاءت هذه الآية:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

يتبين لنا بعد الجمع بين الآيتين أن المراد بـ«الذين كفروا» هم الذين كتموا ما أنزل الله، ثم هذا النظم يرشدنا إلى حقيقة أخرى، وهي أن كتمان الحق كفر، وهو - بمفرده - يكفي لأن يخرط المرء في سلك الكفار، فالذي يكتم الحق ويصر على هذا الكتمان يُخشى عليه الكفر وإنْ لم ينطق بكلمة الكفر، حتى ولو ادعى أنه مؤمن.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده، رقم الحديث (٢٦٣٧).

وبعدما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٦٣-١٧٦)

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾.

* * *

بعدما انتهى موضوع القبلة، وقد أعطي حقه من البيان والإيضاح وبعدما تُوعِّدَ أهلُ الكتاب وعُنِّفُوا على ما كانوا متلبسين به من جريمة كتمانها، انساق الكلام إلى التوحيد، الذي وضع عليه أساس هذه القبلة، والذي تركهم عليه أبوهم يعقوب وأخذ عليه منهم العهد والميثاق، حيث قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ [البقرة].

ولم يكن كتمانهم لهذه القبلة وعداءهم لهذه النبوة إلا نتيجة لانخلاعهم عن هذا العهد، وبُعْدِهم عن التوحيد، فذكَّرهم ربهم - تبارك وتعالى - هذا العهد حيث قال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

ذكرهم بأسلوب كله نصح ومودة ورقة وحنان.

ثم ذكر طائفة من نعمه الجسام، التي ينعمون بها ويتقلَّبون فيها، والتي تدعو كل من كان فيه ذرة من حياء أو ومضة من فكر سليم إلى الشكر لنعمه، واللجوء إلى حبه، والخضوع لأوامره:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

ثم تعجب من غباوتهم وسخافة عقولهم، حيث ينهلون من نعم الله ثم يجعلون له أنداداً(١) ويحبونهم كحب الله، مع أن هذا الحب كان من حق الله.

وهذا يشبه ما جاء في سورة التوبة حيث قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة].

ثم ذكر أن هؤلاء الأنداد لا يملكون ثواباً ولا يدفعون عنهم عذاباً، ويتبرؤون منهم يوم القيامة، وتعود أعمالهم كلها حسراتٍ عليهم، ويريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها.

ثم إن هذه النِدِّية كانت لها أشكال وألوان، منها أنهم حَرَّمُوا كثيراً مما أحل الله لهم من الطيبات.

ويؤيد ذلك ما رواه الترمذي عن عدي بن حاتم قال: (أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أَحلُّوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً

---

(١) ذكر القرطبي عن ابن عباس والسدي - رضي الله عنهم - أن المراد بالأنداد: الرؤساء المتبعون، يطيعونهم في معاصي الله. انظر الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٢٠٣.

حرموه)(1).

وعلى هذا جاء الأمر الإلهي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝١٦٩ ﴾.

ثم تحسَّرَ على غباوتهم وشدة غفلتهم، أنهم كلما دُعُوا إلى الحق والهدى يرفضونه لمجرد أنه لم يُؤْثَرْ عن آبائهم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ۝١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٧١ ﴾(2).

ثم وعظ المؤمنين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من تحريم ما أحل الله، فإن هذا يتنافى مع الشكر ويتنافى مع العبادة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٧٣ ﴾.

ثم تَوعَّد الذين يكتمون ما أنزل الله ويبتغون به عرضاً من الدنيا:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝١٧٦ ﴾.

وبيانُ ذلك أن اليهود قد حُرِّمَ عليهم كثير من الطيبات، وكان ذلك جزاء بغيهم واعتدائهم كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝١٤٦ ﴾ [الأنعام].

إلا أن رأفة الله بهم لم تجعل هذا الجزاء دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، بل جعلته

---

(١) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن: ٥/٢٧٨، رقم الحديث (٣٠٩٥).

(٢) ذكر ابن كثير عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن هذه الآية نزلت في طائفة من اليهود. انظر تفسير ابن كثير: ١/٢٠٤.

لفترة محدودة، وبشَّرتهم بمجيء نبيٍّ يُخلصهم مما هم فيه من شدة ومحنة، ويفتح عليهم أبواب الخير والسعادة، ويُحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم الإصر والأغلال حيث قال تعالى:

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

فكان من واجب هؤلاء القوم أن يَخرُّوا سُجَّداً لله شكراً وامتناناً على هذه النعمة التي أُفيضت عليهم، ثم يكونوا أول الناس إيماناً بهذا النبي، وأسبقهم إلى مساندته في مهمته.

ولكنهم نُكسوا على رؤوسهم فكذَّبوه وخالفوه، وشكَّكُوا الناس في نبوته، وقالوا، ما بال هذا النبي؟! فإنه ما ترك شيئاً إلا وخالفنا فيه وخالف رسلنا، فأحل ما حرموه وحرم ما أحلوه.

مع أنهم كانوا يعرفون أن هذا النبي ما جاء إلا ليدخلهم في رحمة ربهم بعدما طال حرمانهم، وطال شقاؤهم، فهو يحرم عليهم الخبائث ويحل لهم الطيبات، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

كانوا يعرفون هذا جيداً، ولكنهم ما أرادوا أن يخرجوا من شقائهم وتمادوا في غيهم وأصروا على كتمانهم فجاءت هذه الآيات تُنذرهم ما ينتظرهم من سوء المصير وعذاب السعير!

* * *

والشيء الذي نلاحظه في تلك الآيات هو أن هذا الموضوع... موضوع الإحلال والتحريم، أو موضوع طيبات الطعام وخبائثه.. جاء بعد موضوع تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، وعلى مثل هذا النظم جاءت مطالع سورة المائدة، فقد استهلت السورة بموضوع المسجد الحرام وما يتصل به مما يناسب المقام، حيث قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ

حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾ [المائدة].

ثم ذكر ما أحل للناس وما حرم عليهم من الطعام، غير أن السياق يميل هنا إلى تفصيل المحرمات أكثر مما يميل إلى تفصيل الطيبات بخلاف سورة البقرة فإن سياقها يميل إلى التنويه بشأن الطيبات، أكثر مما يميل إلى تفصيل المحرمات، قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ (٥)﴾ [المائدة].

ثم نلاحظ نفس الوضع في آخر سورة المائدة، حيث ذكر الله تعالى ما يحل من الصيد في حالة الإحرام وما لا يحل، وذكر ما يناسب المقام من توجيهات وتشريعات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾ [المائدة].

وبعد تلك الآيات مباشرة جاء ذكر الكعبة وما إليها من الشهر الحرام والهدي والقلائد، حيث قال تعالى:

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)﴾ [المائدة].

ثم نلاحظ في سورة البقرة في سياق تحويل القبلة هذا التوجيه الإلهي الكريم:

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [البقرة].

كما نلاحظ نفس التوجيه في سورة المائدة في ختام ذكر المحرمات حيث قال تعالى:

﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة].

هذا الوضع إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على ما يوجد من صلة وثيقة وسبب خاص بين المسجد الحرام وبين ما جاءت به هذه النبوة المباركة من إحلال الطيبات وتحريم الخبائث من الطعام.

والنبي ﷺ نفسه جمع بين الأمرين، على ما رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن نبينا - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته)[1].

والآن نعود مرة أخرى إلى تلك الآيات لنرى ما يستفاد من نظمها من نفائس الفوائد والحكم، وهي كما يلي:

الفائدة الأولى:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

تنبىء هذه الآية بنظمها أن الحب المطلق من حق الله، ومن أحب غير الله كحب الله فقد ظلم، ومن هنا اعتبر الشرك ظلماً عظيماً كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان].

الفائدة الثانية:

ثم قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

يتبين لنا من نظم هاتين الآيتين أن الاتباع هو مقياس الحب ومظهره، فمن اتبع أحداً

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب ٢٨ فضل استقبال القبلة: ١/ ١٠٢.

فقد أحبه، ومن لم يتبعه فقد رغب عنه وتخلى عن حبه، وإن كان يدعي أنه يحبه ويرغب إليه، ومن هنا يعتبر حب الله باتباع شرائعه وأوامره، التي جاءت عن طريق رسله كما قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران].

فمن رمى بشرائع الله عرض الحائط واتبع هواه ثم قال إنه يحب الله فهو أحد الكاذبين.

الفائدة الثالثة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ توحي إلينا الآية بنظمها أن أكل الطيبات من الشكر، والشكر لله يستلزم الأكل من الطيبات، فمن حرم على نفسه شيئاً من الطيبات - كائناً ما كان السبب - فقد أعلن عن نفسه أن ليس من الشاكرين.

الفائدة الرابعة:

ونستوحي كذلك من نظم الآية أن الاستمتاع بالطيبات من مستوجبات العبادة، فمن حرم على نفسه شيئاً منها، فقد اختلت عبادته، وإن كان نهاره صائماً وليله قائماً، ومن هنا نعرف أن الرهبانية - بجميع أشكالها وألوانها - لا مكان لها في دين الله، وهي ليست من الإسلام في شيء.

الفائدة الخامسة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ فقد ذكر تعالى في هذه الآية المَيتةَ، ثم الدم، ثم لحم الخنزير، ثم ما أهل به لغير الله، وهذا النظم يشير إلى أن ما أهل به لغير الله أشد هذه الأنواع وأكبرها مقتاً عند الله.

الفائدة السادسة:

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ فذكر الله هذا «الثمن القليل» بعد ذكر عيون المحرمات. وهذا النظم ينبىء أن شناعة هذا الثمن القليل وحرمته تفوق شناعة تلك المحرمات الأربع وحرمتها.

الفائدة السابعة:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ جاءت تلك الآية بعد آية الكتمان، ومن هنا تعتبر - بنظمها - تفسيراً للكتمان، فالاختلاف في الكتاب يعني كتمانه، والذين يختلفون فيه، يستوجبون عقوبة كتمانه.

وبعدما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآية (١٧٧)

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

* * *

إن هذه الآية بمضمونها وسياقها تذكرنا الآيات التي مضت معنا في أول الحديث مع بني إسرائيل، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

فنرى السياق هنا قد عاتبهم على أنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وحثهم على أن يوفوا بعهدهم ويؤمنوا بما أنزل إليهم مصدقاً لما معهم، وحذرهم من أن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون.

بينما نرى في الآية التي نتحدث عنها أنها خلعت عنهم فضيلة البر نهائياً بعدما أنذرتهم العاقبة الوخيمة التي تنتظرهم من جراء كتمانهم ما أنزل الله، وقد حذروا منه في أول الطريق.

إنها تخلع عنهم فضيلة البر نهائياً وتخلعها على قوم آخرين، يصلحون لها وهي تصلح لهم.

إنها قد فصَّلت مقومات البر وشروطه ومظاهره وأركانه ولكن ليس القصد منه إعلام الناس بمقومات البر وشروطه، وإنْ كان ذلك حاصلاً من دون قصد.

وإنما القصد منه خلعُ هذه الفضيلة عن هؤلاء جملة وتفصيلاً وتعريتهم عنها تعرية كاملة، فإننا عرفنا فيما مضى بالتفصيل أنهم أَخلُّوا بجميع متطلبات البر ومقتضياته التي فصلت هنا، فلم يدعوا ركناً من أركان البر إلا هدموه ولا شرطاً من شروطه إلا نقضوه، وبذلك استحقوا أن تخلع عنهم هذه الكرامة بجميع أطرافها حتى لا يبقى عليهم ظل من ظلالها ثم تخلع - في نفس الوقت - على قوم آخرين قد رشحوا للقيام بأعبائها والنهوض بتكاليفها.

والجدير بالذكر أن كثيراً من الناس لم ينتبهوا لبلاغة الأسلوب الذي وردت عليه الآية حيث قال تعالى:

﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ . . . ﴾ الآية.

فيقول مثلاً - الإمام ابن جرير - رحمه الله - وهو يفسر هذا الأسلوب.

«فإن قال قائل: فكيف قيل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وقد علمت أن البرَّ فعلٌ، ومَنْ اسم، فكيف يكون الفعل هو الإنسان؟ قيل: إن معنى ذلك غير ما توهمته، وإنما معناه: ولكن البر كمن آمن بالله واليوم الآخر، فوضع من موضع الفعل اكتفاء بدلالته ودلالة صلته التي هي له صفة من الفعل المحذوف كما تفعله العرب فتضع الأسماء مواضع أفعالها التي هي بها مشهورة، فتقول: الجودُ حاتمٌ، والشجاعة عنترة وإنما الجود حاتم، وإنما الشجاعة عنترة، ومعناها: الجودُ جودُ حاتم، فتستغني بذكر حاتم إذا كان معروفاً بالجود من إعادة ذكر الجود بعد الذي قد ذكرته فتضعه موضع جودهِ لدلالة الكلام على ما حذفته استغناءً بما ذكرته عما لم تذكره، كما قيل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف] والمعنى: أهل القرية، وكما قال الشاعر، وهو ذو الخرق الطهوي:

حسبت بغام راحلتي عناقاً وما هي وَيْبَ غيرك بالعناق

يريد بغام عناق أو صوت. كما يقال: حسبت صياحي أخاك، يعني به حسبت صياحي صياح أخيك، وقد يجوز أن يكون معنى الكلام: ولكن البارَّ مَنْ آمن بالله.

فيكون البر مصدراً وضع موضع الاسم[1].

والحق أن الآية في غنى عن مثل هذه التكلفات، التي لا تكسبها روعة ولا تكسبها معنى جديداً غير إخضاعها للقواعد التي درج عليها النحاة.

وإلا فالآية قد وردت على أسلوب إدماج فقرتين إحداهما في الأخرى، وهو أسلوب شائع معروف في القرآن وفي كلام العرب.

ويكون تقدير الكلام، إذا فصلنا الفقرتين، هكذا:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ . . . ﴾ إلخ، وليس البَر (بفتح الباء) من ولّى وجهه قبل المشرق والمغرب ولكن البر (بفتح الباء) من آمن بالله واليوم الآخر. . . إلخ.

وإذ كان المقصود هنا خلع هذه الفضيلة عن قوم على قوم والثناء على ناس وإدانة آخرين دون تعديد أركان البر وشروطه اكتفى السياق من الفقرتين بما كان يخدم هذا المقصود ويجليه وحذف البقية لمَّا أنَّ ذِكْرَهُ كان مُخِلاً به.

ولذلك نرى هذا الأسلوب يمثل لنا هؤلاء الأبرار وكأننا نراهم رأي العين، ونرى خصال البر تملأ إهابهم وتتجلى في صورهم وتجعل كل من رآهم يعرفهم بسيماهم.

وفي ذات الوقت ينكر على قوم آخرين قد تخلوا عن البر نهائياً وهم يحسبون أنه ملء أيديهم وملء إهابهم، وهم اليهود والنصارى، قاتلهم الله!

ثم هو يذكرنا أركان البر وشروطه كذلك بدون أن يبتعد بالذهن عن المقصود.

ولقد تضمنت الآية هذه الأمور كلها بفضل هذا الأسلوب - أسلوب إدماج الفقرتين إحداهما في الأخرى، حتى أصبحتا وكأنهما فقرة واحدة.

وبعدما انتهينا من ربط هذه الآية الكريمة بما قبلها، نعود إليها مرة أخرى لنتأمل في نظم أجزائها ونستنبط ما أودع الله فيه من فوائد وحكم وتوجيهات مهمةٍ غالية.

الفائدة الأولى:

نستوحي من نظم هذه الآية أن اليهود والنصارى إنما كانوا يولون وجوههم قبل

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ٩٥.

المشرق والمغرب لأنهم كانوا في واد والإيمان في واد، ولو أنهم كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لما لبثوا أن وَلَّوا وجوههم شطرَ المسجد الحرام، ولكنهم كانوا كما قال الله فيهم: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ (١٤٥) ﴾ [البقرة].

الفائدة الثانية:

ذُكرت في الآية مظاهر البر وأركانه وذُكِرَ في آخرها الإيفاء بالعهد بأسلوب خاص يميزه عما سبق.

هذا النظم بهذا الأسلوب يوحي إلينا أن الإيفاء بالعهد له شأن خاص من بين أركان البر، بل هو الأصل في معنى البر، وسائر ما ذكر من الصفات والمعاني منبثقة من هذا المعنى وناتجة منه.

ويشبه هذا النظم ما مر معنا في أول الحديث مع بني إسرائيل، وإن كان هناك فرق يسير في الموضعين، حيث ذكر هناك الإيفاء بالعهد أولاً: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) ﴾ [البقرة].

ثم ذكر البر حيث وجه العتاب إليهم في شأنه: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ [البقرة].

ولكن هذا الاختلاف في الترتيب لا يمنعنا من الوصول إلى ما وصلنا إليه، بل يمدنا بالاقتناع به والاطمئنان إليه. واختلاف الترتيب في الموضعين إنما هو بسبب الجو الذي يحيط بهما.

فالجو في الموضع الأول جو توجيه وإرشاد، فَوُعِظُوا وذُكِّروا أولاً بأن يوفوا بعهد الله ويقوموا لأداء ما يملي عليهم هذا العهد، ثم عوتبوا على أنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.

بخلاف الموضع الثاني حيث أن الجو فيه جو تنحية من جهة وجو تكرمة من جهة أخرى.

فقد نُحِّي بنو إسرائيل عن شرف البر، وفي نفس الوقت أُكرم به قوم آخرون، ثم ذكر - آخر ما ذكر - في سياق القوم الذين أكرموا بهذا الشرف أنهم يوفون بعهدهم إذا عادوا. وذكر هذا بأسلوب متميز خاص: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾.

وليس معنى ذلك إلا أن أكبر ما اجترحته اليهود والنصارى هو أنهم نقضوا عهودهم لما عادوا، ولأجل سلوكهم هذا خُلعت عنهم فضيلة البر.

هذا النظم وهذا الوضع يؤكد لنا أن الوفاء بالعهد هو الأساس وهو الأصل في معنى البر.

وتَغَيُّر الأسلوبِ هنا له شأن لا ينكر، وهو لا يخلو من دلالة خاصة.

والعرب كثيراً ما استعملوا كلمة البر في معنى الفضيلة التي يكون قوامها الإيفاء بالعهد، قال امرؤ القيس:

عليها فتى لم تَحملِ الأرض مثله ... أَبـرَّ بميثـاقٍ وأوفـى وأصبـرا(١)

وقال، وهو يمدح عوير بن شجنة رهطه:

فقـد أصبحـوا والله أصفـاهـم بـه ... أبـر بميثـاق وأوفـى بجيـران(٢)

ثم إذا كان البر بمعنى الإيفاء بالعهد، أو كان الإيفاء بالعهد هو الأصل في مدلوله فلا يضرنا إذا قلنا: إن البر هو الخير كله، أو هو جماع الخيرات، أو هو الخلق الحسن وما شابه ذلك مما هو مأثور في تفسيره، فإن الإيفاء بالعهد هو أساس كل خير، ولذلك قال عليه السلام: (لا دينَ لمن لا عهدَ له)(٣).

الفائدة الثالثة:

ومما تدل عليه الآية بنظمها أن الصبر والصمود في أحلك الظروف وأحرج المواقف هو تمام الوفاء بالعهد وهو ذروة البر وقمته كما أنه هو الزاد الوحيد لمن كان يريد أن يسلك سبيل البر.

ومن هنا قال سيدنا عمر في وصية له لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما -: (... واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتادُ الخير الصبر، فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك أو نابك)(٤).

---

(١) ديوان امرىء القيس: ص٩٥.

(٢) ديوان امرىء القيس: ص١٦٩.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٦/٢٨٨، مسند الإمام أحمد: ٣/١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/٤٨٣.

الفائدة الرابعة:

ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾.

وهذا الختام يوحي إلينا أن الصدق هو الذي يوصل إلى ذروة البر، ومن هنا قال - عليه الصلاة والسلام -: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة)[1].

الفائدة الخامسة:

ذكر الله أموراً كلها تتعلق بالاعتقاد والعمل ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، وهذا النظم يفيد أن الصدق - في أصله - سلوك وعمل، وهو يقاس دائماً بالسلوك والعمل، ولا يعتبر المرء صادقاً إلا إذا صدق عمله وسلوكه.

الفائدة السادسة:

ذكر الله مقومات البر وأركانه، ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بدلاً من أن يختمها بقوله: «وأولئك هم الأبرار» كما هو المتبادر إلى الذهن بحكم السياق.

وهذا النظم يفتح علينا حقيقة مهمة جداً، وهي أن التقوى هي روح البر وقوامه، وهي سنده وعماده، فكل عمل من أعمال البر إذا لم يكن يستند إلى التقوى فلا وزن له في ميزان البر، ولا عبرة به عند الله.

الفائدة السابعة:

ذكر الله تعالى من ضمن أركان البر: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فذكر إيتاء المال وذكر معه كون المال محبوباً إلى النفس.

وهذا النظم يرشدنا إلى أن أفضل الإنفاق أو أفضل الصدقة ما شَقَّ على النفس، ولا يبعد أن يكون الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - مستفاداً من هذا النظم حيث قال: (أتى رسولَ الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ قال: أن تَصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب ٦٩ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة]، ٧/٩٥.

قلت لفلان كذا ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان)[1].

الفائدة الثامنة:

ثم ذكر - تعالى - أول من ذكر في هذا السياق ذوي القربى، وهذا النظم يدل على أن أولى الناس ببر الرجل هم أقاربه، ومن هنا قال النبي ﷺ: (دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك)[2].

الفائدة التاسعة:

ذكر الله - تعالى - في هذه الآية الإيمان ثم إيتاء المال ثم إقامة الصلاة، ثم إيتاء الزكاة ثم قال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ فختم هذه الخصال بالإيفاء بالعهد.

ثم ذكر الإيفاء بالعهد بصيغة اسم الصفة بينما ذكر البواقي بصيغة فعل الماضي.

هذا النظم مع هذا التصريف كما يدل على أن الإيفاء بالعهد هو الأصل، وهو الجامع لهذه الخصال فكذلك يدل على أنه يَعمُّ الدينَ كله، ومن هنا قال ﷺ: (لا دينَ لمن لا عهدَ له)[3].

هذا ما فتح الله علينا عن طريق التأمل في نظم هذه الآية العظيمة، فله الحمد وله الشكر كما يحب ربنا ويرضى.

وبعدما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآية العظيمة نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٧٨-١٨٢)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ

---

(١) صحيح مسلم: باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، رقم الحديث (١٠٣٢)، ص٧١٦.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك: رقم الحديث (٩٩٥)، ص٦٩٢.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٦/٢٨٨، ومسند الإمام أحمد: ٣/١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.

فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

* * *

قبل أن نقدم إلى ربط هذه الآيات بما قبلها نريد أن نقف عند الآية الأولى ونطمئن إلى صحيح تأويلها، فإنها - على كثرة ما بُحثت - ما زالت بحاجة إلى بحث ودراسة موضوعية متكررة.

ثم إن هذه الدراسة ستكون لنا عوناً في مهمتنا وضماناً لنجاح سعينا واستقامةِ قصدنا بإذن الله.

فإذا تقصينا مذاهب المفسرين في تأويل هذه الآية وتأملنا في أقوالهم، فإننا نستخلص منها ما يلي:

١- يرى هؤلاء الأعلام أن المراد بالقصاص هنا حدُّ القتل، أي: قتل القاتل جزاء متكافأ بما كسب من جريمة القتل.

٢- ويرون أن المراد بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ فُرض وأُلزم وأثبت وما في معناه مما يدل على الوجوب.

٣- ويرون - مع هذا - أن القصاص ليس بلازم، وإنما اللازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتداء، والذي يراه لازماً إنما يراه على القاتل دون الولي، أو يراه على الناس إذا أرادوا، وهذا الخلاف - كما لا يخفى - خلافٌ شكلي وإلا فالمآل واحد. والنتيجة هي هي.

٤- ويرون أن القصاص حكمهُ حكم المباح، وهو الغاية عند التشاح، وإلا فالأفضل المطلوب هو العفو.

٥- ثم هم مختلفون في حكم هذه الآية أنها محكمة أم منسوخة، ولم يأت أحد من الفريقين بما يثبت دعواه.

هذا موجز ما قيل في هذا الموضوع[1] والدراسة الموضوعية لتلك الأقوال تجعلنا نحس فيها عدة إشكالات وهي كما يلي:

الإشكال الأول:

لقد ذكرت الحدود في القرآن في عدة مواضع، ولكنه ما جاء الخطاب في سياق تلك الحدود بـ«أيها الذين آمنوا» البتة. فإن الحدود ليست من اختصاص الجماهير، وإنما هي تخص أولي الأمر منهم. فذكر حد المحاربين - مثلاً - هكذا:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة].

وذكر حدَّ السارقين والسارقات هكذا: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة].

وذكر حد الزنا هكذا: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [النور].

ثم ذكر حد القذف هكذا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور].

تلك العبارات أو الأساليب التي استخدمها القرآن لبيان الحدود، ولا نرى في أي واحد منها الخطاب بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

فإن القرآن لا يوجه الخطاب بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلا إذا كان داعي الخطاب عاماً شاملاً يخص كافة المؤمنين دون طائفة منهم، كما نرى في هذه الآيات مثلاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) انظر - مثلاً - تفسير الطبري: ٢/١٠٢-١٠٣، المحرر الوجيز: ١/٤٩٥، ٤٩٦، زاد المسير: ١/١٨٠، تفسير الخازن: ١/١٤٦، تفسير القرطبي: ٢/٢٤٦، تفسير ابن كثير ١/٢٠٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة].

تلك بعض الأمثلة من هذه السورة نفسها، وإلا فالقرآن غني حافل بمثل تلك الأمثلة.

الإشكال الثاني:

لو كان المراد بالقصاص هو القود، أي: قتلُ القاتل بالقتيل، لتعيَّنَ الأخذُ به، فإنه كُتبَ علينا والمكتوبُ علينا لا محيدَ لنا عنه إلى غيره. كما أن الصيام كُتب علينا فلا محيد لنا عنه، حتى ولو كنا على سفر أو كنا مرضى فعلينا عِدَّةٌ من أيام أُخر.

وأما قول الإمام ابن جرير - رحمه الله -: «لا أنه وَجبَ علينا القصاصُ فرضاً وجوبَ فرضِ الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تركُه» فهو قول لا يخلو من ضعف، وليس عليه دليل.

ثم إذا تعين الأخذ بالقصاص بمعنى القود بطلت مشروعية الدية مع أن الآية تنوه بشأنها وتسميها (تخفيفاً ورحمة).

الإشكال الثالث:

لو كان المراد بالقصاص كما قيل لكانت العبارة مختلفة عما هي عليه الآن، وكانت هكذا: (كتب عليكم القصاص من القتلة).

أي: فرض عليكم أن تقتصوا من القاتلين، فإن قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ يكون معناه، إذا فسرنا القصاص بالمعنى المعروف: كتب عليكم أن تقتصوا في شأن المقتولين، وهو معنى لا يستقيم إلا بتكلفٍ شديد.

الإشكال الرابع:

ذكر الله موضوع القصاص في آيتين قصيرتين، وبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾.

وختم بقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

هذا الأسلوب القوي مع هذا الإيجاز الشديد في العبارة يزيد من قيمة الموضوع وأهميته وخطورته ما يجلُّ عن الوصف.

وبعيد جداً جداً أن يسبغ القرآن على هذا الموضوع بأسلوبه وعبارته هذه الأهمية البالغة، ثم لا يتجاوز ذلك الموضوع في حكمه أن يكون مباحاً من المباحات، ويترك للناس الخيار أن يأخذوه أو يعدلوا عنه إلى غيره.

الإشكال الخامس:

الجو الذي يسود الآيات أو اللون الذي يُلوِّنها لهما تأثير كبير في تحديد مرامي الآيات واتجاهاتها.

فنرى - مثلاً - الآيات التي تتناول الحدود الأخرى مثل حد المحاربين أو حد السرقة أو حد الزنا أو حد القذف، يظهر عليها لونُ الغضبِ والمقت والكراهية بحيث يكاد يُلمس بالراح، والجو كله جو إدانة وإخزاء وإعراض.

فلننظر آية الحراب كيف ترمي بشرر السخط والغضب:

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائدة].

ولننظر آية السرقة، كيف تصور لنا صرامة الدينونة وشدة البطش:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة].

ولننظر آية الزنا، كيف تجسد لنا الكراهية والامتعاض وشدة النكال:

﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [النور].

ولننظر آية القذف، كيف تمثل لنا العقوبة الصارمة العاجلة الدائمة:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور].

بالإضافة إلى أن الجو العام، الذي يحيط بتلك الآيات يماثل جوها الخاص في طبيعته وإيحاءاته.

أما آية القصاص، فنرى جوها ولونها يختلف تماماً عن جو تلك الآيات ولونها، فالجو فيها جَوُّ عفوٍ وتخفيف ورحمة، واللون الذي يلونها لونُ معروفٍ وإحسان وإمداد بالحياة!

ثم جوها العام كذلك يماثل جوها الخاص في هدوئه ورقَّتِهِ ويُسْرِهِ وعذوبته.

وهذا الوضع يلقي في روعنا أن تلك الآية ليست من آيات الحدود.

الإشكال السادس:

هذا المفهوم يزيد موضوع القصاص غموضاً وتعقداً، ويضطرنا إلى تأويلات بعيدة شاذة، ولا أدلَّ على ذلك من تلك الخلافات التي تشتمل عليها كتب التفسير حول هذا الموضوع.

ولا بأس بأن نشير هنا إلى شيء من تلك الخلافات حتى يتضح الموقف.

يقول الإمام أبو بكر الجصاص - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾.

«هذه الآية تدل على قتل الحر بالعبد والمسلم بالذمي والرجل بالمرأة لما بيَّنَّا من اقتضاء أول الخطاب إيجابَ عموم القصاص في سائر القتلى، وأن تخصيصه الحر بالحر ومن ذكر معه لا يوجب الاقتصار بحكم القصاص عليه دون اعتبار عموم ابتداء الخطاب في إيجاب القصاص»(١).

ويقول الإمام أبو بكر المعروف بابن العربي - رحمه الله - في تأويل تلك الآية: «قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ تعلق أصحابنا على أصحاب أبي حنيفة بهذا التنويع والتقسيم على أن الحر لا يقتل بالعبد لأن الله تعالى بَيَّنَ نظيرَ الحر ومساويه وهو الحر، وبين نظير العبد ومساويه وهو العبد».

ويقول رحمه الله: «فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ فلم يقتل الذكر بالأنثى؟ قلنا: ذلك ثابت بالإجماع، وهو دليل آخر، ولو تركنا هذا التقسيم لقلنا: لا

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ١/ ١٣٤.

يقتل الذكر بالأنثى.

ويقول - رحمه الله: «هل يقتل الأب بولده مع عموم آيات القصاص؟

قال مالك: يُقتلُ به إذا تبين قصده إلى قتله بأنْ أَضجعه وذبحه، فإن رماه بالسلاح أدباً وحنقاً لم يقتل به، ويقتل الأجنبي بمثل هذا.

خالفه سائر الفقهاء وقالوا: لا يقتل به.

وقد أُثِرَ عن رسول الله ﷺ أنه لا يُقادُ والدٌ بولِدِه، وهو حديث باطل ومُتعلَّقُهم أن عمر - رضي الله عنه - قضى بالدية مغلَّظة في قاتل ابنه. ولم ينكر أحد من الصحابة عليه. فأخذ سائر الفقهاء المسألة مسجلة، وقالوا: لا يقتل الوالد بولده. وأخذها مالك محكمة مفصلة، فقال: إنه لو حَذَفه بسيفٍ، وهذه حالة محتملة لقصد القتل وغيره، وشفقةُ الأب شُبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد إلى القتل تُسقط القودَ، فإذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله».

وقال رحمه الله: «احتج علماؤنا رحمة الله عليهم بهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ على أحمد بن حنبل في قوله: لا تقتل الجماعة بالواحد، قال: لأن الله تعالى شرط في القصاص المساواة، ولا مساواة بين الواحد والجماعة، لا سيما وقد قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة].

الجواب: أن مراعاة القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ، ولو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا واحداً لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم، وبلغوا الأمل من التشفي منهم».

وقال - رحمه الله -: «قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ...﴾ إلى آخرها.

قال القاضي رضي الله عنه: هذا قول مشكل تبلدت فيه ألباب العلماء، واختلفوا في مقتضاه، فقال مالك في رواية ابن القاسم: موجب العمد القود خاصة، ولا سبيل إلى الدية إلا برضا من القاتل. وبه قال أبو حنيفة، وروى أشهب عنه أن الولي مُخيَّرٌ بين أحد أمرين، إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية وبه قال الشافعي.

وقال مالك: تفسيره: مَنْ أعطى من أخيه شيئاً من العقل فليتبعه بالمعروف، فعلى هذا، الخطاب للولي، قيل له: إنْ أعطاك أخوك القاتل الدية المعروفة فاقبلْ ذلك منه واتبعه.

وقال أصحاب الشافعي: تفسيره: إذا أسقط الوليُّ القصاصَ، وعيَّن له من الواجبين له الدية فاتبعه على ذلك أيها الجاني، على هذا المعروف وأدِّ إليه بإحسان»[١].

هذه نبذة من تلك الخلافات التي لم تكن إلا نتيجة طبيعية لذلك التأويل الذي ذهب إليه الناس.

وبيانه أن فريقاً منهم رأى هذه الآية لا تنسجم مع طائفة من الأحاديث والروايات التي ليس من شأنها أن يُغْضى عنها ويغفل أمرها.

فهم رأوا - مثلاً - أن هذه الآية لا تبيح أن يقاد الحر بالعبد مع أن النبي ﷺ قال: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم)[٢] فكأنه - عليه السلام - جعل العبد مثل الحر في الدم إذ علق حكم التكافؤ بينهم بالإيمان.

وروى الليث عن الحكم أن علياً وعبد الله بن مسعود قالا: (إذا قتلَ الحرُّ العبدَ فهو به قوده)[٣].

وهم رأوا أن هذه الآية تقتضي أن يُقتلَ الوالدُ بولدهِ مع أن النبي ﷺ قال: (لا يُقتلُ الوالد بالولد)[٤].

يقول الإمام أبو بكر الجصاص - رحمه الله -: «هذا خبر مستفيض مشهور وقد حكم به عمر بن الخطاب بحضرة الصحابة من غير خلاف من واحد منهم عليه، فكان بمنزلة قوله: (لا وصيةَ لوارث) ونحوه في لزوم الحكم به، وكان في حيز المستفيض المتواتر»[٥].

وهم رأوا أن هذه الآية تقتضي ألا يقتل المسلم بكافر مع أن رسول الله ﷺ قتل رجلاً من أهل القبلة قتل رجلاً من أهل الذمة، وقال: أنا أحقُّ مَنْ وفى بالذمة[٦].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٦٢-٦٦ مع اختصار في العبارة.
(٢) سنن الدارقطني: كتاب الحدود والديات وغيره: ٣/ ١٣١.
(٣) المصنف لابن أبي شيبة: كتاب الديات: ٩/ ٣٠٦، وأيضاً أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من طريق منصور عن الحكم: ٨/ ٣٥.
(٤) سنن الدارقطني: كتاب الحدود والديات وغيره: ٣/ ١٤١.
(٥) أحكام القرآن للجصاص: ١/ ١٤٤.
(٦) المصنف لابن أبي شيبة: باب إذا قتل الذمي المسلم قتل به: ٩/ ٢٩٠، وسنن الدارقطني: كتاب الحدود والديات: ٤/ ١٣٥.

ولقد روى الأشهب عن أبي نضرة أن عمر بن الخطاب أقاد رجلاً من المسلمين برجلٍ من أهل الذمة»[١].

فمثل هذه الإشكالات ألجأتهم إلى أن يقولوا، ليتخلصوا منها:

«ليس توجيه الخطاب إلى المؤمنين بإيجاب القصاص عليهم في القتلى بموجب أن يكون القتلى من المؤمنين، لأن علينا اتباع عموم اللفظ ما لم تقم دلالة الخصوص، وليس في الآية ما يوجب خصوص الحكم في بعض القتلى دون بعض.

وإذا كان أول الخطاب قد شمل الجميع، فما عُطِفَ عليه بلفظ الخصوص لا يوجب تخصيص عموم اللفظ، لأنه إذا كان أول الخطاب مكتفياً بنفسه، غير مفتقرٍ إلى ما بعده، لم يجز لنا أن نقصره عليه»[٢].

وهكذا أراد هؤلاء أن يدفعوا التعارض الذي كانوا يحسونه بين الآية وبين طائفة من الروايات إلا أنهم ما كادوا يتخلصون من هذا الإشكال حتى وقعوا في إشكال آخر، حيث أنه إذا كان أول الخطاب مكتفياً بنفسه غير مفتقر إلى ما بعده فما فائدة قوله تعالى إذاً بعد ذلك الخطاب: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾؟

ولقد حاول هؤلاء أن يلتمسوا لتلك الزيادة توجيهاً، ولكنهم لم يأتوا بشيء[٣].

وأما الفريق الثاني فهم فضلوا أن يلتزموا بما رأوه موافقاً لمقتضى الآية، حتى ولو أفضى بهم ذلك إلى أن يقولوا للحديث الذي يراه الفريق الآخر في حيز المستفيض المتواتر: (إنه حديث باطل) كما رأينا ذلك في حديث (لا يُقادُ والدٌ بولده)[٤].

مع أنه كان أولى بهم، حين رأوا الحديث المستفيض المشهور يتعارض مع ذلك التأويل، أن يعيدوا النظر في تأويلهم، فإنه لا يتصور أن يتعارض حديث صحيح مع آية من آيات كتاب الله.

ثم هذا التأويل هو الذي أفضى بالإمام أحمد إلى أن يقول:

لا تُقتلُ الجماعة بالواحد، مع أنه روى يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة: كتاب الديات: ٩/ ٢٩٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص: ١/ ١٣٣-١٣٤ مع اختصار في العبارة.

(٣) انظر أحكام القرآن للجصاص: ١/ ١٣٤.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ٦٥.

إنساناً قتل بصنعاء وأن عمر قتل به سبعة نفر، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً[١].

علماً بأن هذه الآية لو كانت تقتضي أن لا تُقتلَ الجماعة بالواحد لم يكن سيدنا عمر ليقتل بإنسان واحد سبعة نفر، ولم يكن ليقول كلمته التي قالها - رضي الله عنه وأرضاه -.

ثم هذا التأويل هو الذي أنطق القاضي بما نطق به عن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ...﴾ حيث قال: «هذا قول مشكل تبلدت فيه ألباب العلماء!!».

فهذا التأويل هو الذي ألجأ الإمام مالك إلى أن يفسر هذا القول بتفسير شاذ، حيث أن العفو لا يَطَّرِدُ استعمالهُ بمعنى الإعطاء.

كما أنه هو الذي ألجأ أصحاب الشافعي إلى أن يفسروا قوله تعالى: (شيء) بالقصاص. ولا يخفى ما في هذا التفسير من بعد وضعف.

ثم إن هذا التأويل كان يقتضي ألا يقتل الذكر بالأنثى نظراً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾.

ولكنه انعقد الإجماع على خلاف ذلك.

وقد روى أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن وكان في كتابه: (أن الرجل يقتلُ بالمرأة)[٢].

فلننظر هذا التأويل كيف يزيد موضوع القصاص غموضاً وتعقداً وكيف يضطرنا إلى تأويلات بعيدة شاذة.

إضافة إلى ذلك أن هذا التأويل لا يستقيم معه نظم الكلام، وهو ينقض الرباط الذي يشد الآيات بعضها إلى بعض.

إذاً فما هو ذلك التأويل الذي يكون سليماً من تلك الإشكالات، ويكون متلائماً مع نظم الآيات وسياقها ومتلائماً مع لونها وجوها؟

قبل أن نعرج إلى الإجابة على هذا السؤال، أو إلى بيان التأويل الصحيح للآية،

---

(١) سنن الدارقطني: كتاب الحدود والديات وغيره: ٣/٢٠٢، رقم الحديث (٣٦٠).

(٢) سنن الدارمي: باب القود بين الرجال والنساء: ص٥٨٥-٥٨٦.

نريد أن ننبه إلى سبب خفاء هذا التأويل.

وبيانه أن أمر القصاص هو موضوع هذه الآية، ففهمها يتوقف على فهمه، ولا يمكن التوصل إلى صحيح تأويلها قبل التوصل إلى صحيح معناه.

ولكن الذي حدث هو أن هذا اللفظ لم يُعْنَ بدراسته عنايةً يستحقها، وتناقله الناس بمعناه المعروف الذي كان بحاجة إلى أن يتأكد من صحته[1].

تحقيق معنى القصاص:

ويبدو لي أن الإمام ابن تيمية - رحمه الله - كان موفقاً في رأيه وكان أقرب إلى الصواب حيث قال:

«لفظ القصاص يدل على المعادلة والمساواة فيدل على أن الله أوجب العدل والإنصاف في أمر القتلى»[2].

وقال - رحمه الله -: «ولكم في القصاص حياة» فإنهم إذا تفادوا القتلى وتقاصوا وتعادلوا لم تبق واحدة تطلب الأخرى بشيء فحيّ هؤلاء وحيّ هؤلاء، بخلاف ما إذا لم يتقاصوا فإنهم يتقاتلون وتقوم بينهم الفتن التي يموت فيها خلائق، كما هو معروف في فتن الجاهلية والإسلام، إنما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطائفتين وإلا فمع التعادل والتناصف الذي يرضى به أولو الألباب لا تبقى فتنة»[3].

والإمام الرازي - رحمه الله - أيضاً كان منتبهاً لهذا الجانب من معنى كلمة القصاص حيث قال:

«وسميت القصة قصة لأن بالحكاية تساوي المحكي، ويسمي المقص مقصاً لتعادل جانبيه»[4].

وعلى هذا المعنى ورد الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد - رضي الله عنه - حيث قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، يُكَفِّرُ اللهُ عنه كل سيئة

---

(١) انظر - مثلاً - تفسير الطبري: ٢/ ١٠٦، التفسير الكبير: ٥/ ٤٧، المحرر الوجيز: ١/ ٤٩٥، فتح القدير: ١/ ١٧٤، التفسير القيم: ص١٤٤.

(٢) دقائق التفسير للإمام ابن تيمية: ١/ ٢٤٩.

(٣) دقائق التفسير: ١/ ٢٤٨.

(٤) التفسير الكبير: ٥/ ٤٧.

كان زلّفها وكان بعد ذلك القصاص: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها)(١).

أي: كان بعد ذلك المعادلة فالحسنة تُعادلُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسيئة تعادل بمثلها.

ومن ذلك ما رواه الترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

(أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله مَنْ لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: «المفلس من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتي قد شتمَ هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيقعد فيقتصُّ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أُخذَ من خطاياهم فطُرِحَ عليه ثم طرح في النار)(٢).

فمما لا يخفى أن القصاص في هذه الرواية لا يعني الفعل بالإنسان مثل ما فعل، وإنما يعني إقامةَ العدل والقسط وإشكاء المظلوم وإرضاءه بما يعادل مظلمته من حسنات مَنْ ظلمه.

ومن هذه الناحية قيل ليوم القيامة: يوم القصاص كما قال يزيد بن أسد البجلي وهو يخطب الناس بصفين:

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة النجاة في الحياة الدنيا وعند الوفاة، وفيها الخلاص يوم الخلاص)(٣).

ولقد وردت هذه الكلمة مرتين في القرآن ما عدا هذين الموضعين. مرة في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب ٣١ حسن إسلام المرء: ١/ ١٥.

(٢) سنن الترمذي: باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص: ٤/ ٦١٣. رقم الحديث (٢٤١٨).

(٣) شرح ابن أبي الحديد: ١/ ٤٨٥، والأغاني: ١٩/ ٥٥، نقلاً من جمهرة خطب العرب: (١/ ٣٤٤).

ومرة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة].

والذي نلاحظه في تلك المواضيع كلها هو أنه لا يستقيم فيها لكلمة القصاص إلا معنى التعادل والتكافؤ والتساوي كما سنفصله فيما بعد بعون الله.

وأما المعنى الذي جنح له المفسرون - رحمهم الله - فهو لا يستقيم إلا بتكلف شديد.

تأويل الآية:

والآن نتوجه إلى بيان الوجه المفضل المقبول في تأويل الآية، فنقول: إن ما تفيده هذه الآية هو أنه كتب على المؤمنين أن يُقاصُّوا ويعادلوا في شأن القتلى، فيعادلوا الحرَّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. فإذا قتل الحر فلتكن له دية الحر، وإذا قتل العبد فلتكن له دية العبد، وإذا قتلت الأنثى فلتكن لها دية الأنثى من غير تفريق بين قوم وقوم، أو لون ولون، فالمؤمنون تتكافأ دماؤهم، وتتعين عليهم المعادلة في دياتهم، من غير أن تكون لهم الخيرة من أمرهم.

وهذا التأويل شبيه في جملته بما رواه ابن جرير، قال: حدثنا موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السدي قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ قال: اقتتل أهلُ ملتين من العرب، أحدهما مسلم، والآخر معاهد في بعض ما يكون بين العرب من الأمر، فأصلح بينهم النبي ﷺ وقد كانوا قتلوا الأحرار والعبيد والنساء على أن يؤدي الحر دية الحر، والعبد دية العبد، والأنثى دية الأنثى، فقاصَّهم بعضَهم من بعض.

وقال: حدثنا المثنى، قال: ثنا سويد بن نصر، قال: أخبرنا ابن المبارك، عن شعبة، عن أبي بشر قال: سمعت الشعبي يقول في هذه الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ قال: نزلت في قتال عمية، قال شعبة: كأنه في صلح، قال: اصطلحوا على هذا(١).

وروى سفيان بن حسين عن ابن أشوع عن الشعبي، قال: كان بين حيين من العرب

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ١٠٤.

قتال فقتل من هؤلاء، ومن هؤلاء، فقال أحد الحيين: لا نرضى حتى نقتل الرجل بالمرأة وبالرجل الرجلين. وارتفعوا إلى النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «القتل بواء»، أي: سواء، فاصطلحوا على الديات. ففضل لأحد الحيين على الآخر فهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾[1].

فلا فرق هناك بين ما ذكرناه وبين ما وردت به تلك الروايات، إلا أننا نرى هذه الآية شاملة محكمة سارية المفعول إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم. ولا داعي هناك لتخصيصها بحادث معين أو بوضع معين كقتال عمية مثلاً.

بل كلما حدث حادث القتل، سواء كان فردياً أو جماعياً كان على المؤمنين أن يحتكموا إلى هذه الآية الكريمة، فيعادلوا الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، أي: يؤدوا دية الحر إن كان المقتول حراً، ودية العبد إن كان عبداً، ودية الأنثى إن كانت أنثى.

فمن عُفيَ له - من أخيه - أي: ولي الدم - شيء مما يلزمه من الدية فليتبعه بالمعروف وليؤده إليه بإحسان.

وهذا الضابط في ذاته تخفيف من ربنا ورحمة. ويتجسد لنا كونه تخفيفاً ورحمة إذا وضعنا في اعتبارنا تلك الثارات الجاهلية، التي كانت تنوء بأثقالها قبائل العرب، والتي كانت تمتد وتمتد بلا حدود، وما كان لها أن تخبو إذا استعرت نيرانها حتى تأكل العشائر والبطون بكاملها.

وليس هناك أي فرق أو اختلاف ملحوظ في مدلول هذه الآية والتي وردت في سورة المائدة حيث قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة].

فهذه الآية تبين لنا ما شرع لبني إسرائيل في شأن الدية، فكان عليهم - كمثلنا - أن يعادلوا النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن، وكان عليهم أن يفعلوا في الجروح كذلك، فإن الجروح قصاص، أي: متكافئة متعادلة، فلا فرق بين جرح شخص وشخص وبالتالي لا فرق بين دية شخص وشخص.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ١/١٥١.

ولقد بينت الآية نفسها نوعية القصاص حيث ورد في آخرها: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ والظاهر في التصدق والصدقة أن يكونا بالمال.

فالصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القُربة[1]. والمتصدق: الذي يعطي الصدقة. ومنه الصَداق والصِداق: لمهر المرأة. وقد أصدقتُ المرأة: إذا سميتَ لها صداقاً[2].

فهذان اللفظان يدلان في أصلهما على التقرب بالمال، كما نص عليه أئمة اللغة، وكما نعلمه من تقصي استعمالاتهما في القرآن وفي كلام العرب، اللهم إلا أن تكون هناك قرينة تصرفهما عن معناهما الأصل، فهذا شيء آخر.

إضافة إلى ذلك أنه ورد ذكر التصدق في سياق الديات صراحة، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ... إلخ ﴿٩٢﴾﴾ [النساء].

والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وخير ما رجع إليه المرء في تفسيره هو نفسه.

ثم هناك روايات تعزز رأينا وتذهب بنا إلى ما ذهبنا إليه.

فقد أخرج ابن مردويه عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ قال: «الرجل تُكسر سِنُّه، أو تقطع يده، أو يقطع الشيء، أو يجرح في بدنه، فيعفو عن ذلك، فيحط عنه قدر خطاياه، فإن كان ربع الدية فربع خطاياه، وإن كان الثلث فثلث خطاياه، وإن كانت الدية حُطَّتْ عنه خطاياه كذلك»[3].

وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ الرجل تكسر سنه، أو يجرح من جسده، فيعفو عنه فيحط من خطاياه بقدر ما عفا من جسده، إن كان نصف الدية فنصف خطاياه، إن كان ربع الدية فربع خطاياه، وإن كان ثلث الدية فثلث خطاياه، وإن كانت الدية كلها فخطاياه كلها»[4].

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني: ص٢٧٨.

(٢) الصحاح للجوهري (صدق).

(٣) الدر المنثور: ٣/ ٩٢.

(٤) الدر المنثور: ٣/ ٩٢.

وذكر مكي حديثاً من طريق الشعبي أنه يحط عنه من ذنوبه ما عفي عنه من الدية(١).

تلك الروايات تبين لنا بوضوح أن الموضوع هنا موضوع الديات والمراد بالتصدق هو التصدق بالديات.

وبالجملة فلا علاقة لهذه الآية أو آية البقرة بموضوع حد القتل أو قتل النفس بالنفس، وإنما هما تعالجان موضوع الديات وتهيبان بالمعادلة فيها من غير ظلم ولا هضم ولا اعتداء.

وهذا المفهوم ليس فقط أنه يريحنا من كثير من المشاكل التي واجهها المفسرون - رحمهم الله - في تأويل الآية، بل يُجلِّي لها نظامها، ويسهل لنا مهمة ربطها بما حولها.

ارتباط الآية بما قبلها:

والآن فما هو وجه ارتباطها بما حولها؟

لقد رأينا فيما سبق أن الموضوع كان موضوع الترغيب في أكل الطيبات حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة].

ثم جاء ذكر ما حرم من الطعام، وكان ذلك تكملة لحديث الأكل من الطيبات، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

ثم جاء الوعيد على تَكَسُّبِ المال بكتمانِ ما أنزل الله وهو - كما لا يخفى - من جنس ما حرم من الطعام، بل من أقبح أنواعه، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٤٩٧.

ثم جاءت آية البر. ولقد فصلنا فيما مضى أنها ما جاءت إلا لتفضح بني إسرائيل وتسلبهم الشرف الذي كانوا يتبجحون به. إنها جاءت لتخلع عنهم فضيلة البر نهائياً، حيث أنهم كتموا الحق وكتموا ما أنزل الله واشتروا به ثمناً قليلاً.

وكان هذا الكتمان من أفدح ما اجترحه بنو إسرائيل، فحسن التعقيب هنا بذكر تلك الفضيحة تنبيهاً على فداحة خطبهم وشناعته.

ثم عاد الكلام إلى نصابه، وجاءت آيات القصاص والوصية لتحذر المؤمنين من هضم حقوق الآخرين وتعصمهم من التقصير في أدائها، وكل ذلك مما يكمل حديث الأكل من الطيبات والابتعاد من المحرمات. فأُمروا أن ينصفوا في شأن الديات ويوفوا الحقوق إلى أهلها إلا أن يتنازلوا هم عن بعض حقوقهم.

وأُمروا بالوصية قبل الموت حتى يُصيبَ كلٌّ ذي حق حقه مما تركوه من الخير، ولا يهضم القوي حق الضعيف ولا يعتدي بعضهم على بعض، وحُذِّروا من تبديلها حتى لا يعبث بها من أراد التطاول على حقوق الآخرين فيفوت الغرض منها. اللهم إلا إذا كان هناك جنف أو إثم في الوصية، فلا إثم عليهم في إصلاحها، فإن الوصية في ذاتها لا حرمةَ لها إلا إذا كانت تحقق غرضها، وكانت محفظة لحقوق من يستحقها.

كان هذا الأمر بالوصية قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت المواريث وعُرفت الفرائض تَعيَّنَ على المؤمنين التمسك بها، فإن المصلحة من الوصية - وهي سد باب من أبواب أكل المال بالباطل -قد تحققت بها على أكمل وجه.

وبعدما انتهينا من بيان نظم هذه الآيات وعرفنا وجه ارتباطها بما قبلها نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٨٣-١٨٨)

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ

فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

* * *

قبل أن نبحث موضوع نظم هذه الآيات فيما بينها، وقبل أن نميط اللثام عن وجه ارتباطها بما قبلها نود أن تكون لنا وقفة عند الآية الثانية والخامسة من هذه الآيات، فإن الآيتين ما زالتا بحاجة إلى بحث ودراسة، وبدون تلك الدراسة لا يمكن لنا التوصل إلى الرؤية الصحيحة لنظم تلك الآيات.

فنقف أولاً عند قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾.

نرى المفسرين - رحمهم الله - القدامى منهم والمحدثين، يؤولون الآية وهم يتصورون أنها ما جاءت إلا لتُرخِّصَ للمسافرين والمرضى في الإفطار عن الصيام وقضائه في أيام أُخر.

ثم منهم من رخص في الإفطار بشروط، ومنهم من بالغ في هذا الترخيص وأطلقه إطلاقاً، وأبى أن يقيده بتلك الشروط ، أو بأي شرط من تلك الشروط، ظناً منه أن هذا تقييد لما أطلقه النص القرآني، وهو أمر لا يسوغ ويتنافى مع طبيعة هذا الدين(١).

وهذا التصور في ذاته تصور لا نستريح إليه، ونراه نتيجة طبيعية لقلة التروي في سياق الكلام.

---

(١) انظر - مثلاً - الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٧٦، ٢٧٧ وتفسير البحر المحيط ٢/٣٢، وتفسير ابن كثير: ١/٢١٤، وفي ظلال القرآن: ١/١٦٨-١٧١.

ولو أنهم تأملوا في سياق الكلام وتمسكوا بالنظام لذهبوا إلى غير ما ذهبوا إليه، فإن الحديث في هذه الآية يتركز على إكمال عدة الصيام، لا على الإفطار عن الصيام.

وبيانه أن الله تعالى كتب على المؤمنين أن يصوموا أياماً معدودات إلا أنه قد يكون من المرضى والمسافرين مَنْ لا يقدر على الصوم لشدة المرض أو صعوبة السفر، ويفوته الصوم على رغم أنفه في تلك الأيام المعدودات، فيأتي التوجيه في حقهم أنهم إن لم يتمكنوا من الصوم أو من مواصلة الصوم في تلك الأيام المعدودات - أي الأيام المؤقتة بعدد معلوم - فلا يفوتنهم أن يكملوا تلك العدة من أيام أُخر إذا قدروا عليه. فالاهتمام كله منصب على توصية المرضى والمسافرين بإكمال عدة الصيام إذا فاتهم شيء منه بسبب المرض أو السفر، لا على الترخيص لهم في الإفطار، أو إلزامهم بالإفطار وقضائه في أيام أُخر.

وهذا الأمر، وإن كان واضحاً بيناً، ولم يكن بحاجة إلى دليل، إلا أننا نذكر هنا بعض الأدلة، حتى يبلغ الموضوع غايته من الوضوح وحتى يطمئن إليه كل من كان من أمره في شك.

الدليل الأول:

إن هذا الموضوع جاء متكرراً في هذه الآيات حيث قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ثم قال تعالى في الآية التالية بعدما نوَّه بشأن شهر رمضان ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ومعلوم أن الرخص بطبيعتها - لا تحتاج إلى تكرار، فإنها تكون سهلة سائغة، والنفوس تكون إليها مسرعة وفيها راغبة. بخلاف العزائم فإنها تكون مرة المذاق، ثقيلة على النفوس والطبائع لا تُقبل إليها إلا أن يُكررَ لها النداء.

ولذلك نرى القرآن مليئاً بتكرار العزائم، ولكن لا نجد شاهداً واحداً لتكرار الرخص.

الدليل الثاني:

أن الله تعالى خصص لبيان الرخص آية جامعة في نهاية الحديث حيث قال تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ . . .﴾ فجمع الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما رَخَّصَ فيه لهذه الأمة بخصوص الصيام. فلو كانت تلك الآية ترمي إلى الترخيص في الإفطار لكانت أولى بأن توضع في جنب هذه الآية أو تدمج فيها.

الدليل الثالث:

نرى السياق هنا قد ركز على إكمال العدة حيث ورد ذكره في آيتين اثنتين (١٨٤-١٨٥) أربع مرات. مرتين في الآية الأولى: ١- ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ٢- ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ومرتين في الآية الثانية: ١- ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ٢- ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

فالتأويل الذي يتلاءم مع هذه الظاهرة هو أن الله تعالى أمر المؤمنين أن يصوموا أياماً معدودات - أي: الأيام المؤقتة بعدد معلوم، وهي شهر رمضان - ويكملوا عدتها. فإذا لم يتمكنوا من إكمال عدتها في أوانها بسبب المرض أو السفر فليكملوها في أيام أُخر.

فالأصل هنا إكمال العدة وليس الترخيص بسبب المرض أو السفر.

الدليل الرابع:

افترض الله علينا صيام شهر رمضان، وجعله احتفالاً بنزول القرآن، فالمفروض أن يشترك في هذا الاحتفال جميع المؤمنين، ولا يتخلف عنه إلا مَنْ حبسهُ مرض أو سفر ولم يكن في وسعه أن يشترك فيه.

أما أن يكون هناك تحريض أو تشجيع أو توجيه للترخص في الإفطار باسم المرض أو السفر فهذا لا يتناسب مع هذه المناسبة، ولا يتناسب مع تلك المشاعر الحارة التي يريدها الله لكتابه في قلوب المؤمنين.

وعلى هذا جاء الأمر الإلهي أن يصوم هذا الشهر كلّ مَنْ شهده، أما من اضطر إلى الإفطار بسبب مرض أو سفر فلا جناح عليه، فإن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، إلا أنه مُلْزمٌ، إذا زال عنه الحرج، بأن يُكملَ العدة.

فالجميع مكلفون بإجلال هذا القرآن وبالاحتفال بهذا الشهر المعطاء بأن يكملوا هذه العدة، إما في أوانها أو في غير أوانها إذا لم يتمكنوا من إكمالها في أوانها.

الدليل الخامس:

لو كانت هذه الآية للترخيص في الإفطار، وكان الإفطار في السفر أو المرض أمراً مندوباً إليه لكان أولى الناس بتطبيقه النبي ﷺ وأصحابه، بينما الروايات الصحيحة تنقل إلينا أن النبي ﷺ صام في السفر وصام معه أصحابه ولم يلجؤوا إلى الإفطار إلا بعدما اضطروا إليه.

فقد روى الشيخان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بماء فرفعه إلى يده ليراه الناس فأفطر حتى قدم مكة، وذلك في رمضان(١).

وفي رواية لمسلم عن جابر - رضي الله عنه - أنه دعا بقدح من ماء بعد العصر(٢).

فإفطاره - عليه السلام - بعد العصر إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على شدة الموقف، وأنه - عليه السلام - ما لجأ إليه إلا بعدما اضطر إليه، وإلا فقد كان - عليه السلام - أحرصَ ما يكون على إكمال الصوم، ولذلك ظل باقياً على صومه إلى صلاة العصر.

ولذلك نرى الإمام مسلم - رحمه الله - قد ذكر هذا الحديث في باب سماه: (باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاق بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر).

وأيضاً روى الشيخان عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرّ شديد، حتى إنْ كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة(٣).

وهذا الحديث أيضاً يدل على حرص النبي ﷺ وأصحابه على إكمال الصوم مع بُعْدِ الشقة وفداحة المشقة.

ثم لم يعد هذا أمر اجتهاد واستنباط، فقد صرح النبي ﷺ بهذا الأمر حيث قال:

---

(١) متفق عليه. واللفظ للبخاري، انظر كتاب الصوم، باب ٣٨ من أفطر في السفر ليراه الناس.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الصيام: باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر.

(٣) متفق عليز واللفظ لمسلم. انظر كتاب الصيام: باب التخيير في الصوم والفطر في السفر.

(مَنْ كانت له حمولة تأوي إلى شبع فليصم رمضان حيث أدركه)[١].

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون، فهم ما كانوا يفطرون في أسفارهم ولا غزواتهم إلا إذا ضعفوا عن الصيام. يقول أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه -: (كنا نغزو مع رسول الله ﷺ في رمضان فمنا الصائمُ ومنا المفطر، فلا يجد الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم. يرون أن من وجد قوةً فصامَ، فإن ذلك حسنٌ. ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر فإن ذلك حسن)[٢].

فيفيد هذا الحديث أن الأفضل للقوي هو الصوم ويجوز للضعيف أن يفطر ولا بأس عليه.

ولا يعزُّ علينا أن نحمل الأحاديث الأُخر أيضاً هذا المحمل، وإن كانت تبدو في ظاهرها على خلاف ذلك.

ولنقبل الآن إلى الشطر الثاني من الآية، وهو قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الوجوه المأثورة في تأويل الآية:

لقد ذكر الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله أربعة وجوه ثم قال: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ منسوخ بقول الله تعالى ذكره ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ لأن الهاء التي في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ من ذكر الصيام.

ومعناه: وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين، فإذا كان ذلك كذلك وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن من كان مطيقاً من الرجال الأصحاء المقيمين غير المسافرين صوم شهر رمضان فغير جائز له الإفطار فيه والافتداء منه بطعام مسكين، كان معلوماً أن الآية منسوخة[٣].

---

(١) مختصر سنن أبي داود: كتاب الصيام، باب فيمن اختار الصوم في السفر، رقم الحديث (٢٣٠٣).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر.

(٣) تفسير الطبري: ٢/١٣٩.

هذا هو اختيار الإمام ابن جرير - رحمه الله - من بين الوجوه الواردة في تأويل الآية. والمفسرون الذين جاءوا من بعده ركنوا - في أغلبهم - إلى هذا التأويل.

تقويم رأي الإمام ابن جرير:

ولكن يتوجه إلى هذا التأويل اعتراض لا يمكن أن يُغْمَضَ عنه. وهو - كما يقول الإمام الرازي - رحمه الله -: «إن القائلين بأن هذه الآية منسوخة اتفقوا على أن ناسخها آية شهود الشهر، وذلك غير جائز، لأنه تعالى قال في آخر تلك الآية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ولو كانت الآية ناسخة لهذا لما كان قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ لائقاً بهذا الموضع لأن هذا التقدير أوجب الصوم على سبيل التضييق، ورفع وجوبه على سبيل التخيير، فكان ذلك رفعاً لليسر وإثباتاً للعسر فكيف يليق به أن يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾»[١].

ثم إن (على) إذا جاءت على مثل هذا الأسلوب، فإنها تدل على معنى الوجوب دون التخيير، بينما التأويل الذي ذهب إليه الإمام ابن جرير - رحمه الله - يعدل بنا عن هذا المعنى إلى معنى التخيير والترخيص.

تقويم سائر الوجوه:

وهذا الاعتراض كما يتوجه إلى هذا التأويل، يتوجه إلى سائر الوجوه التي ذكرها الإمام ابن جرير - رحمه الله - أو الإمام الرازي - رحمه الله - فإن تلك الوجوه كلها متشابهة من حيث أنها تفسر الآية على معنى التخيير أو الترخيص، الذي هو خلاف الأصل في معنى هذه الكلمة.

ثم ليس في الآية ما يدل على أنها وردت في شأن الشيخ الكبير أو المرأة العجوز ومَنْ في حكمهما، فتخصيصها بهؤلاء - كما نرى في الوجه الثاني والثالث والرابع عند ابن جرير - تخصيصٌ بدون مخصص.

وأما القول بأن (يطيقونه) بمعنى لا يطيقونه، أو يتجشمونه، أو يتكلفونه، أو يستطيعونه بجهد أو أقصى جهد، وما شابه ذلك مما وردت به كُتب التفسير[٢]، فهو

---

(١) التفسير الكبير: ٥/ ٨٠.

(٢) تفسير الطبري: ٢/ ١٣٨-١٣٩، الكشاف: ١/ ٣٣٥، المحرر الوجيز: ١/ ٤١٢، في ظلال القرآن: ١/ ١٧١.

مما لم نجد له شاهداً في القرآن ولا في كلام العرب، بل الأمر على العكس، فإن إطاقة الفعل يعني التمكن منه والقدرة عليه بكل سهولة ويسر. يقول الفيروز آبادي: (الإطاقة: القدرة على الشيء)[1].

ويقول الجوهري: (الطوق: الطاقة. وقد أطقتُ الشيء إطاقة، وهو في طوقي أو وسعي. وطوَّقني الله أداء حقك أي: قوَّاني)[2].

والشواهد على هذا المعنى كثيرة متوافرة.

منها ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (إياكم والوصال) قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله! قال: (إنكم لستم في ذلك مثلي. إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون، وفي رواية: فاكلفوا ما لكم به طاقة)[3].

ومنه قول سيدنا أبي بكر الصديق: (يا أيها الناس: إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطيق)[4].

ومنه قول سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: (لو أُطيق الأذان مع الخلِّيفى - أي: الخلافة - لأذنت)[5].

ونرى أنه ما فسرَّ مَنْ فسر (يطيقونه) بهذا المعنى إلا لأنه خفي عليه الوجه الصحيح. ولو أنه استطاع تأويل الآية بدون أن يلجأ إلى هذا القول لما لجأ إليه.

ونفس الاعتراض يتوجه إلى الوجه الخامس الذي ذكره الإمام الرازي، فإن تخصيص الآية بالمرضى والمسافرين بدون أن يكون هناك دليل يلجئنا إليه، قولٌ لا يخلو من ضعف.

الوجه الصحيح في تأويل الآية:

إذاً فما هو الوجه الصحيح في تأويل الآية؟

---

(١) القاموس المحيط: في مادة (ط، و، ق).

(٢) الصحاح للجوهري: في مادة (ط، و، ق).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الصيام: باب النهي عن الوصال في الصوم.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٤.

(٥) الصحاح للجوهري: (خ، ل، ف).

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - وهو يذكر الوجوه الواردة في تأويلها: «وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ وعلى الذين يطيقون الطعام. وذلك لتأويلِ أهل العلم مخالِفٌ. . .»(١).

وقال الفراء: «الضمير في «يطيقونه» يجوز أن يعود على الصيام، أي: وعلى الذين يطيقون الصيام، أن يُطعموا إذا أفطروا ، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ ويجوز أن يعود على الفداء، أي: وعلى الذين يطيقون الفداء فدية»(٢).

وقال ابن عطية: «والضمير في (يطيقونه) عائد على الصيام وقيل على الطعام وهو قول ضعيف»(٣).

وكاتب هذه السطور يرى هذه الأقوال أقرب شيء في تأويل الآية.

ولقد قال ابن عطية: (وهو قول ضعيف) ولكنه - رحمه الله - اكتفى بهذا الحكم المبهم ولم يبين لنا ما فيه من الضعف.

والحق أنه ليس في هذا التأويل ما يستوجب هذا الحكم.

أقصى ما يقال فيه ما قاله الجصاص - رحمه الله - حيث يقول: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قد اختلف في ضمير كنايته فقال قائلون:

هو عائد على الصوم، وقال آخرون: إلى الفدية، والأول أصح لأن مظهره قد تقدم والفدية لم يَجْرِ لها ذِكْر والضمير إنما يكون لمظهر متقدم. ومن جهة أخرى، أن الفدية مؤنثة والضمير في الآية للمذكر في قوله (يطيقونه)(٤).

وما احتج به الجصاص - رحمه الله - لا يغضُّ من قيمة هذا التأويل، فإن عود الضمير إلى متأخر لم يتقدم له ذكر ليس عيباً في الكلام، وخاصة إذا كان ذلك المتأخر مقدم الرتبة.

وقد أجاز ذلك ابن جني وابن عقيل وأجازه قبلهما الأخفش من البصريين وأبو

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ١٤١.

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٢٨٨.

(٣) المحرر الوجيز: ١/ ٥١٣.

(٤) أحكام القرآن للجصاص: ١/ ١٧٩.

عبدالله الطوال من الكوفيين[1].

ولذلك شواهد في القرآن وفي كلام العرب.

فمنه قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه].

ومنه قولهم: (في بيته يُؤتى الحكم)[2].

ومنه قول جزء بن ضرار وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام:

أتاني فلم أسرر به حين جاءني ... حديث بأعلى القنتين عجيب[3]

ومنه ما ذكره ابن عقيل في كتابه «شرح التسهيل»:

شـر يـوميهـا وأغـواه لهـا ... ركبـت عنـز بحـدجٍ جمـلا[4]

وأما قوله: «إن الفدية مؤنثة والضمير في الآية للمذكر» فنظيره قوله تعالى قبل هذه الآية بآيتين، حيث قال تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾.

فإن صح أن يرجع ضمير المذكر في قوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾ إلى الوصية فأي إشكال في رجع ضمير المذكر في (يطيقونه) إلى (الفدية).

وأما قول ابن جرير - رحمه الله -: (وذلك لتأويل أهل العلم مخالف) فهو لا يعدو أن يكون دعوى لا تساندها بينة، أو حكماً لا يعضده دليل.

وذلك لأنه ليس هناك تأويل موحَّد مُجْمَعٌ عليه عند أهل العلم، حتى يقال لغيره، إنه لتأويل أهل العلم مخالف. وإذا جاز أن تكون هناك أربعة وجوه في التأويل، وهي

---

(١) انظر المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل: ١/١١٢-١١٣.

(٢) المستقصى في أمثال العرب للزمخشري: ٢/١٨٣.

(٣) الحماسة لأبي تمام: ١/٢٠١، رقم القصيدة: (١١٧).

(٤) شرح التسهيل: ١/١١٢.

وعنز في قوله: (ركبت عنز) امرأة من طسم، وطسم قبيلة من عاد كانوا وانقرضوا. ويقال: إن عنزاً أُخذت سبية، فحملوها في حدج بالكسر، وهو مركب من مراكب النساء. وألطفوها بالقول والفعل، فقيل: هذه أكرم السباء. فقالت: هذا شر يومي، أي: حين صرت أكرم السباء، والشاهد في قوله: (شر يوميها) أي: ركبت عنز بحدج جملاً في شر يوميها.

كلها ليست مخالفة لتأويل أهل العلم، فلماذا لا يجوز أن يكون هناك وجه خامس أو سادس؟ وإذا كان هذا الوجه يعتمد على دليل علمي متين فكيف يعتبر مخالفاً لتأويل أهل العلم؟

فالأصل في الموضوع هو الدليل والبرهان، وهو الذي سيكون مقياساً لضعف هذا القول أو قوته.

فلننظر في هذا التأويل من هذه الناحية.

ولقد قلَّبنا هذا التأويل ظهراً لبطن، واختبرناه من ناحية الدليل والبرهان، فوجدناه أحكم شيء في هذا الباب.

وبيانه أنه يحق على الذين يطيقون الطعام، وهم الأغنياء والموسرون، أن يضموا إلى الصيام إطعامَ مسكين، فهم مطالبون بالصيام ومطالبون في نفس الوقت بإطعام مسكين.

ولعل ابن شهاب أيضاً كان يرى هذا الرأي حيث روى ابن جرير عنه:

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ يريد أن مَنْ صام مع الفدية فهو خير له(١).

ومن هنا قال - عليه الصلاة والسلام - عن رمضان: «إنه شهر المواساة»(٢).

وكان - عليه الصلاة والسلام - أجودَ ما يكون في شهر رمضان(٣).

وكان - عليه الصلاة والسلام - يُرغِّبُ الناسَ في هذا الشهر في الإنفاق، وكان يحثهم على الجود والمواساة وإطعام الطعام مستخدماً في ذلك مختلف الأساليب، فكان يقول - مثلاً -: (من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً)(٤).

إلى غير ذلك من عشرات الأحاديث التي وردت في هذا الباب.

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ١٤٣.

(٢) صحيح ابن خزيمة: باب فضائل شهر رمضان إن صح الخبر: ٣/ ١٩١. رقم الحديث (١٨٨٧).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، رقم الحديث (٢٣٠٨).

(٤) سنن الترمذي: باب ما جاء في فضل من فطر صائماً: ٣/ ١٧١ رقم الحديث (٨٠٧).

ولعل الحكمة في الحث على إطعام المسكين مع الحث على إكمال الصيام هي أن هذا الإطعام سيكون عوناً للمرء على القيام بمهمة الصيام أحسن قيام، ويهيىء نفسه لاستقبال الخيرات والبركات التي يفيض بها شهر رمضان.

فأُمِرَ المؤمنون أولاً أن يصوموا أياماً معدودات وأمروا أن يُكْمِلُوا عدة الصيام، ثم خص الأغنياء منهم بأمر آخر وهو أن يجمعوا مع الصيام إطعام مسكين، فهذا كما يَعِدُهم لتلقي النفحات الإلهية في رمضان ويعدهم للاستكثار منها، فكذلك يساعد إخوانهم الفقراء ويقويهم على صيام رمضان.

وهذا أمر دون أمر، وليس كالأمر الأول كما لا يخفى.

وعلى هذا، فهذه الآية محكمة باقية بحكمها غير منسوخة كما ذهب إليه الإمام ابن جرير - رحمه الله - وذهب معه ناس آخرون.

السر في تكرار الشطر الأول دون الثاني من الآية:

وهنا يثور سؤال: إن كان هذا الحكم باقياً فلماذا لم يُكرر مثلما كُرِّرَ حكم إكمال العدة؟

والجواب أن هناك فرقاً بين الواجبين، فإن الكلام هنا مركز على واجب الصيام، وهو الموضوع الرئيسي في تلك الآيات، بخلاف واجب الإطعام فإنه أُلحقَ به إلحاقاً، ليكون عوناً على أداء واجب الصيام. وليهيىء النفس للقيام به أحسن قيام، إضافة إلى ذلك إنه واجب إضافي وليس واجباً كواجب الصوم.

فأراد السياق أن ينبه بنظمه على هذا الفرق كما أراد أن يركز على ما هو أثقل على النفس وأشق.

وهذا التأويل يريحنا - والحمد لله - من تلك الإشكالات التي ترد على غيره من وجوه التأويل، إضافة إلى ذلك أنه أكثر روعة وأكثر حيوية من غيره مما اطلعنا عليه. فله الحمد وله الشكر على ما هدانا إليه.

والآن نتوجه إلى الآية الخامسة من هذه الفقرة، وهي قوله تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ

فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

مذهبان في تأويل الآية:

للناس في تأويل الآية مذهبان،

١- «ذهب جمهور المفسرين إلى أن في أول شريعة محمد ﷺ كان الصائم إذا أفطر حل له الأكل والشرب والوقاع بشرط أن لا ينام وأن لا يصلي العشاء الأخيرة، فإذا فعل أحدهما حرم عليه هذه الأشياء ثم إن الله تعالى نسخ ذلك بهذه الآية.

٢- وقال أبو مسلم الأصفهاني: هذه الحرمة ما كانت ثابتة في شرعنا البتة، بل كانت ثابتة في شرع النصارى، والله تعالى نسخ بهذه الآية ما كان ثابتاً في شرعهم»[1].

تقويم المذهبين:

هذان مذهبان في تأويل الآية، ولقد تأملنا في المذهبين وفي دلائلهما، فلم نجد في أي واحد منهما ما ينال إعجابنا.

والعجيب في الأمر أن موقف المفسرين - رحمهم الله - في هذه الآية يختلف عن موقفهم في الآية (١٨٤)، حيث أنهما موقفان متعارضان متعاكسان.

فحينما ننظر في تأويلهم لهذه الآية نعلم أن حكم الصوم في أوله كان في غاية اليسر والسهولة، حيث أنهم كان يَسَعُهم أن يصوموا، وكان يسعهم ألا يصوموا ويطعموا مكان كل يوم مسكيناً، حتى ولو لم يكن هناك أي عذر قاهر من سفرٍ أو مرض.

وحينما ننظر في تأويلهم لهذه الآية نعلم أن حكم الصوم في أوله في غاية الصعوبة والمشقة، حيث أنه كان يبدأ من بعد صلاة العشاء إلى غروب الشمس من النهار المقبل.

وعلى هذا فكانت مدة صومهم على الأقل اثنتين وعشرين ساعة متواصلة! وهذه مدة لا يستطيعها إلا أقل قليلٍ من الناس، وهم أيضاً ليسوا ببالغيها إلا بشق الأنفس.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن موقع الآية ونظمها وسياقها لا يقبل هذا التأويل ولا ينسجم معه البتة.

---

(١) التفسير الكبير: ١٠٣/٥.

فأي مناسبة بين هذه الآية - وفق هذا التأويل - وبين الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ . . . الآية﴾.

وأي مناسبة بين مضمون هذه الآية - وفق هذا التأويل - وبين قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإن الآية - وفق هذا التأويل - ما جاءت بياناً للناس وإنما جاءت لتنسخ أمراً كان ثابتاً في شرعنا - كما يقوله المفسرون - أو كان في شرعِ مَنْ قبلنا - كما يزعمه أبو مسلم -.

ثم إن كان الأمر أمرَ نسخ لحرمةِ مباشرةِ النساء في ليلة الصيام، بعد أن لم يصبر القوم عن شهواتهم وفاض كأسهم مسبقاً، فهم كانوا يباشرون نساءهم مع علمهم بحرمتها في لياليهم تلك، فما وجهُ قوله تعالى إذاً بعد هذا الإحلال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾؟ وما وجه قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾؟

فهذه الزيادات أو هذه التعقيبات لا تستقيم مع هذا التأويل ولا تتلاءم مع هذا الجو.

تأويل الآية:

وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل الآية إذاً؟

إن تأويل الآية - كما يمليه علينا السياق - هو أن المؤمنين أو عدداً غير قليل منهم حسبوا مباشرة النساء في ليلة الصيام عملاً يتنافى مع روح الصيام وقداسته ويتنافى مع التجرد المطلوب لله في تلك الأيام، فهم تورعوا من ذلك نهائياً وامتنعوا عنه امتناعاً كاملاً، وكأنه حرام محرم عليهم من عند الله.

وإذ حرموا ذلك على أنفسهم من تلقاء أنفسهم ومنعوها ما أَحلَّ الله لها من غير أن يأذن به الله سمى عملهم هذا خيانة مع أنفسهم، ثم تاب الله عليهم وعفا عنهم نظراً إلى نياتهم التي لم تكن تنطوي إلا على الخير والصدق مع الله.

ثم حثهم وحرضهم على إتيان ما أحل الله لهم، وخلط هذا الحث والتحريض بما يستميلُ أنفسهم ويزرع فيهم الشوقَ والرغبة في العمل الذي عافته أنفسهم ظناً منهم أنه يتنافى مع روح الصيام، ويتنافى مع حرمته وقداسته، ويتنافى مع التجرد الكامل المطلوب لله في تلك الأيام.

فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وقال تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

فقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ما جاء إلا زيادة في الترغيب والتحريض وزيادة في الاستمالة والتشويق. والمراد بـ«ما كتب الله لكم» هو الولد، كما يرشدنا إليه السياق.

وأما الأكل والشرب فهم بالغوا في الاحتياط في أمره، فكانوا يمسكون عنه في وقت مبكر، وأكثر الروايات تقول: إنهم كانوا يمسكون عنه إذا رقد أحدهم من الليل رقدة. والذي نستلهمه من الآية هو أنهم كانوا يمسكون عنه قبل تبين الفجر.

وليس هناك كبير فرق بين هذا وهذا، فإنهم ما كانوا يرقدون في رمضان إلا في ساعة متأخرة من الليل، فإذا رقد أحدهم في ساعة متأخرة من الليل، ثم استيقظ في الليل امتنع عن وجبة السحور خشية أن يكون الفجر قد طلع، أو يكون على وشك الطلوع، كانوا يفعلون ذلك لشدة احتياطهم لا لأنه حرم عليهم أن يأكلوا شيئاً بعد نومتهم. وما رواه معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أقرب للصواب وأشبه بطبيعة الموضوع حيث قال: (كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا تركوا الطعام والشراب وإتيان النساء)[1].

فكلام سيدنا معاذ أقرب إلى المفهوم الذي أشرنا إليه، وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك شِدَّةٍ في الاحتياط، لا لأنه كان محرماً عليهم في شريعتهم.

كانت هذه عادتهم في الطعام والشراب، وأما إتيان النساء فقد كانوا يمتنعون عنه نهائياً طوال شهر رمضان كما رواه ابن جرير عن السدي، قال: كتب على النصارى رمضان، وكتب عليهم ألا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم، ولا ينكحوا النساء شهر رمضان، فكتب على المؤمنين كما كتب عليهم، فلم يزل المسلمون على ذلك يصنعون، كما تصنع النصارى، حتى. . .)[2].

ودراسة الروايات تبين لنا أن الأمر فيها قد اختلط بعضُه ببعض، ولا تمكننا الرؤية الصحيحة الواضحة للموضوع إلا بعد جمع الروايات كلها وعرض بعضها على بعض،

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ١٦٤.

(٢) تفسير الطكبري: ٢/١٦٦.

ثم عرضها جميعاً على نص القرآن.

وبعد اتباع هذه الطريقة يتبين لنا ما يلي:

١- إن المؤمنين ما كانوا يمتنعون - حين يمتنعون - عن الطعام والشراب وإتيان النساء إلا لغاية تورعهم وشدة احتياطهم، وإلا فما كان هناك أمرٌ سابق من الله يُلزمهم بهذا. حتى وليس في أيدينا شيء ثابت أو شِبه ثابت يُثبت أن النصارى أو غير النصارى كانوا مأمورين بهذا حتى نقول: إن المؤمنين قد استوردوه منهم واتخذوه جرياً على عادتهم فيما سكتت عنه شريعتهم.

وقول أبي مسلم: إن هذه الآية جاءت تنسخ ما كان عند النصارى في شريعتهم، قول غير مسلّم، فإلى وقتنا هذا لم نطلع على شيء يوثق به في هذا الموضوع.

٢- المؤمنون كانوا يمتنعون عن إتيان النساء نهائياً طوال شهر رمضان.

٣- وإنهم كانوا يمسكون عن الطعام والشراب مبكرين قبل أن يتبين لهم الفجر.

فجاءت هذه الآية تعالج هذه الأمور، وتصحح الأخطاء التي وقع فيها المؤمنون لشدة تورعهم.

وإذ نزلت هذه الآية بعد نزول أمر الصيام بزمان، ونزلت لتبين لهم طبيعة شريعتهم السمحة الميسرة التي حباهم الله بها، نبه عليه السياق، فقال في آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

دفع شبهة:

بقي علينا أن نقطع دابر الوهم الذي تسرب إلى الأذهان في شأن قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ...﴾ الآية، فإن هذا الوهم كان أثره كبيراً في صرف الناس عن التأويل الصحيح للآية.

فإنه تبادر إلى أذهانهم لما سمعوا قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أن هذا إحلالٌ لشيء قد حُرِّمَ عليهم. وليس الأمر كذلك. فإن إحلال الشيء لا يستوجب أن يكون قد سبقه تحريمه. ونبين ذلك بعديد من الأمثلة، قال تعالى:

١- ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۝٥﴾ [المائدة].

٢- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۝٩٦﴾

[المائدة].

٣- ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴿١﴾﴾ [المائدة].

٤- ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج].

فهذه الأشياء كانت حلالاً لهذه الأمة منذ أول يومها، ولم يمض عليها يوم وهي حرام عليها، ومع ذلك فقد استخدم في تلك الآيات كلها نفس الأسلوب الذي استخدم في الآية التي نحن بصدد الكلام عليها.

ارتباط هذه الآيات بعضها ببعض:

ولنعد الآن إلى تلك الآيات لنعرف وجه ارتباطها بعضها ببعض، فنقول وبالله التوفيق:

إن الله تعالى أمر المؤمنين في الآيتين الأوليين أن يصوموا أياماً معدودات، أمرهم به كما أمر الذين من قبلهم، وأمرهم أن يكملوا عدتها من أيام أخر إذا لم يتمكنوا من صومها لعذر قاهر من سفر أو مرض.

ثم خص الأغنياء منهم بأمر آخر، وهو أن يلتزموا مع الصوم بإطعام المساكين حتى تلين قلوبهم وتتهيأ نفوسهم للاستكثار من خيرات الصيام وبركاته.

وأمرهم أن يتلقوا هذا الأمر ويطبقوه بكامل الشوق والحماس وطواعية النفس، فإن من تطوع خيراً، أي عَمِلَهُ طيّعاً به قلبه وطيّعةً به جوارحهُ فهو خير له. وبعد التنبيه على هذا المبدأ الأساسي في دين الله، عاد فرغّب في الصوم: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم بين ما هي تلك الأيام المعدودات، التي أُمِرَ المؤمنون بصيامها، ألا وهي شهر رمضان، شهر أنزل به القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

فأمرهم بصيام الشهر مع تكرار الأمر بإكمال العدة تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على خطورة أمره، ثم بَيّنَ الغايةَ من هذا الصوم، ألا وهي تكبير الله وشكره على أن هيأ لنا أسباب الهدى ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وعلى هذا فصيام رمضان عبارة عن الشكر لله وتكبيره على أنْ مَنَّ علينا بهذا القرآن.

ومن هنا كان أفضل أعمال المؤمن في رمضان الاشتغال بالقرآن والإكثار من تلاوته وتدارسه، وليست مشروعية صلاة التراويح في ليالي رمضان إلا سبباً إلى الإكثار من تلاوة القرآن في تلك الأيام.

ثم نبه تعالى على ذلكم الشعور القدسي الكريم، الذي ينبغي أن يفيض به قلب المؤمن بفضل صيام رمضان، وبفضل تدارس القرآن في تلك الأيام، ألا وهو شدة الحنين إلى ربه الودود الكريم، والحرص على رؤيته ولقائه والسؤال والبحث عنه للاتصال به والاطمئنان إلى رضوانه:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

ولا ندري كيف نعبر عما أُخفي في تلك الآية الكريمة من قرة أعين!

فناهيك بها دلالة على مزية صوم رمضان وعلى فضيلة تدارس القرآن في تلك الأيام.

ويغلب على ظننا أن تلك الآية هي التي ملكت على المؤمنين قلوبهم وجوارحهم، وشغلتهم بحلاوتها ونداوتها عن لذاتهم وشهواتهم، فهم زهدوا في نسائهم، وزهدوا في مآكلهم ومشاربهم ورغبوا عنها إلى الصيام وإلى تلاوة القرآن، اشتغلوا به آناء الليل وآناء النهار، فهناك تَداركهم التوجيهُ الإلهي الكريم، حتى لا يميل بهم الطريق إلى الرهبانية التي لا صلة لها بدين الله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ . . . ﴾ الآية.

وقد فصلنا القول في تأويل تلك الآية فيما مضى.

ثم تأتي الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

يقول الشيخ أبو حيان – رحمه الله – وهو يبرز مناسبة هذه الآية لما قبلها:

«ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وذلك أن من يعبد الله تعالى بالصيام، فحبس نفسه عما تعوده من الأكل والشرب والمباشرة بالنهار ثم حبس نفسه بالتقييد في مكان تعبداً لله تعالى صائماً له ممنوعاً من اللذة الكبرى بالليل والنهار جديرٌ أن لا يكون مطعمه ومشربه إلا من الحلال الخالص الذي ينور القلب ويزيده بصيرة ويفضي به إلى

الاجتهاد في العبادة فلذلك نهي عن أكل الحرام الماضي به إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه. وتخلل أيضاً بين آيات الصيام آية إجابة سؤال الداعي وسؤال العباد الله تعالى. وقد جاء في الحديث أنَّ مَنْ كان مطعمهُ حراماً وملبسه حراماً ومشربه حراماً ثم سأل الله أنَّى يستجاب له؟! فناسب أيضاً النهي عن أكل المال الحرام(١).

ثم يأتي الدكتور محمد عبد الله دراز فيكشف لنا ناحية جديدة من نواحي مناسبة هذه الآية لما قبلها حيث يقول:

«وينساق الحديث من الصوم المؤقت عن بعض الحلال، إلى الصوم الدائم عن السُّحت والحرام»(٢).

وسيزداد الأمر وضوحاً بإذن الله حينما نتكلم عن مناسبة هذه المجموعة من الآيات لما قبلها.

ما يستفاد من نظم هذه الآيات:

نعود مرة أخرى إلى تلك الآيات لنتأمل في نظمها ونرى ما أودع الله فيها من نفائس الفوائد وأطايب الحكم.

الفائدة الأولى:

إنما جعل شهر رمضان شهر الصيام لأجل كونه موسم نزول القرآن وهكذا كان الوضع في كل أمة، أنها كانت تصوم أيامها التي أُوتيت فيها الكتاب.

فإن صحت الرواية بأنه كُتبَ على كل أمة صيام رمضان كما كتب على هذه الأمة، كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: (صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم)(٣).

فمعنى ذلك أن كل أمة أوتيت كتابها في هذا الشهر، وأُمرت بصيامه وإلا فكل أمة كانت تصوم شهرها الذي أوتيت فيه كتابها.

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٥٥.

(٢) النبأ العظيم: ص١٩٧.

(٣) فتح القدير: ١/ ١٨١.

الفائدة الثانية:

افترض الله علينا صيام رمضان حتى نتهيأ ونستعد للانطباع بطابع القرآن الذي أنزل في هذا الشهر. فإعداد النفوس لحمل رسالة القرآن هو العامل الأساسي في افتراض صيام رمضان.

الفائدة الثالثة:

أمر الله الموسرين بإطعام مسكين، وأمر بهذا في سياق فرضية الصيام، وهذا النظم يفيد أن العناية بالفقراء والمساكين لها تأثير كبير في فعالية الصيام، فبها تتهيأ النفوس وتستعد لاستقبال بركات الصيام وللاستكثار منها، وكلما بسط الإنسان يده في هذه الأيام ازداد نصيباً من خيراتها.

الفائدة الرابعة:

قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ثم قال تعالى بعده مباشرة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ هذا النظم يفيد أن مجرد السفر أو مجرد المرض لا يكفي لإفطار رمضان. وإنما يجوز الإفطار إذا كان المرض أو السفر بحيث لو صام الإنسان معه وقع في العسر، فالعسر هو مناط الرخصة، وإذا زال العسر زالت الرخصة.

الفائدة الخامسة:

من خيانة المرء مع نفسه أن يشدد عليها ويحرمها من طيبات أُحِلَّتْ لها، حتى ولو كان ذلك بدافع الورع والتقوى، فالإسلام دين الفطرة، وهو يحب إشباع رغبات الفطرة وتلبية دواعيها في حدودها، ومن هنا يختلف طريقه عن طريق الرهبانية.

الفائدة السادسة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ وقال ذلك في سياق موضوع الصيام. هذا النظم يدل على أن الصيام من شروط الاعتكاف، والاعتكاف لا يتم بدونه.

الفائدة السابعة:

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ يفيد بنظمه أن الاعتكاف لا يكون إلا في

المساجد، ومن هنا قالت عائشة - رضي الله عنها - (لا اعتكافَ إلا بصوم، ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع)[1].

الفائدة الثامنة:

جعل الله تعالى موضوع الاعتكاف خاتمة موضوع الصيام، وهذا النظم يدل على أن من حسن الصيام أن ينتهي مع الاعتكاف، وأن أيامه هي الأيام الأخيرة من رمضان، كما يدل على أن الاعتكاف من مكملات الصيام، ومن جمع بين الصيام والاعتكاف فقد نال خيرات الصيام بحذافيرها.

وبعدما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات، نعود إليها مرة أخرى لنعلم مناسبتها لما قبلها.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

لقد سبق أن قلنا أثناء الحديث عن الآيات السالفة: (وجاءت آيات القصاص والوصية لتحذِّرَ المؤمنين من هضم حقوق الآخرين وتعصمهم من التقصير في أدائها إلى أهلها، فأُمروا أن ينصفوا في شأن الديات وأمروا أن يوفوا الحقوق إلى أهلها، إلا أنْ يتنازلوا هم عن بعض حقوقهم.

وأمروا بالوصية إذا حضرهم الموت حتى يصيبَ كل ذي حق حقه مما تركوه من الخير ولا يهضم القوي حق الضعيف ولا يعتدي بعضهم على بعض، وحُذِّرُوا من تبديلها حتى لا يعبث بها من أراد التطاول على حقوق الآخرين فيفوت الغرض منها).

وبعد هذه الآيات مباشرة جاءت آيات الصيام، ثم بعدها مباشرة جاءت الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذا النظم ينبىء أن السياق ما زال في موضوع التحذير من أكل الأموال بالباطل، وأنه ما تَخلَّلتهُ آياتُ الصيام إلا لتخدم هذا الموضوع، فلننظر في آيات الصيام من هذه الناحية.

(١) مختصر سنن أبي داود: باب المعتكف يعود المريض: ٣/ ٣٤٤، رقم (٢٣٦٣).

لقد علمنا فيما مضى في تأويل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أن المُوسِعين منا والموسرين مطالبون في أيام الصيام بأن يجمعوا بين الصيام وإطعام مسكين. وعلى هذا فيكون الصيام دورة تربوية يتربى فيها الأغنياء والموسرون على حب المساكين وتفقد أحوالهم.

ومن هنا قال نبينا - عليه الصلاة والسلام - عن شهر رمضان أنه شهرُ المواساة.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإن حلول رمضان - وهو شهر الصيام - يُذكِّرنا معشر المؤمنين بتلك النعمة الجسيمة التي منّ الله بها على هذه البشرية، ألا وهي نعمة القرآن.

وتلك النعمة إذا تذكرها المؤمن وعرف قدرها فإنها تزهده في كل نعمة سواها، وتميل به وبرغباته واهتماماته عن حطام الدنيا إلى ما هو خير وأبقى وأنفع له عند الله، فهو يتجافى عن دار الغرور وشهواتها ويتجافى عن أهلها وحكامها المغترين بزينتها.

فماذا يفتنه من الدنيا وقد ملأ يديه بنعمةٍ تَهونُ في جنبها كل نعمة سواها؟ وما الذي يذهب به إلى حكام السوء وهو في شغل شاغل عنهم، وموصول الحبل بربهم ومليكهم؟

وعلى هذا فالصوم بأعماله وبرامجه والقرآن بتوجيهاته وإيحاءاته يزرع في نفس المؤمن حب الله وحبَّ عملٍ يُرضيه، ويُحبِّبُ إليه كل حلال طيب ويكره إليه كل حرام خبيث، ويدفعه إلى الجود والسخاء وتفقد أحوال الضعفاء، فضلاً عن أن يأكل أموال الناس بالباطل، ولذلك كان أعلم الناس بالقرآن أجود الناس بالخير، وكان يبلغ منه الجود ذروته حين كان يتدارس القرآن مع جبريل - عليهما السلام - في شهر رمضان.

فقد روى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان. إن جبريل - عليه السلام - كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى ينسلخ، فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)[1].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل: باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة: رقم الحديث (٢٣٠٨).

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٨٩-٢٠٧)

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى
يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ
فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ
الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ
نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ
عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ
أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ
فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ
اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾

* * *

قبل أن نعالج بيان مناسبة هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها نود أن تكون لنا وقفة عند الآية الأولى من هذه الآيات، حتى ندرسها دراسة موضوعية جادة، فإن هذه الدراسة هي التي ستفتح لنا الطريق إلى نظم تلك الآيات، وتكون لنا عوناً في إدراك مناسبتها فيما بينها ولما قبلها.

ودراستنا هذه ستنقسم إلى قسمين: قسم يتناول الشطر الأول من الآية وهو قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾.

وقسم يتناول الشطر الثاني منها وهو بقية الآية.

فنبدأ بالشطر الأول من الآية، متضرعين إلى الله أن يسدد خطانا، ويلهمنا رشدنا وصوابنا.

يقول ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذا الشطر من الآية:

«ذكر أن رسول الله ﷺ سئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى ذِكْرُه هذه الآية جواباً لهم فيما سألوا عنه»(١).

هذا ما ذهب إليه ابن جرير - رحمه الله - في تأويل الآية. وهو التأويل المفضل عند أكثر الناس، والتأمل فيه يجعلنا نحس فيه عدة إشكالات: وهي كما يلي:

الإشكال الأول:

ما معنى سؤال الصحابة - رضي الله عنهم - أو غيرهم عن الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ومحاقه واستسراره، وقد بينها القرآن بوضوح قبل أن يثور في نفوسهم هذا السؤال، وذلك في سورتين من السور المكية حيث قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ١٨٥.

الإشكال الثاني:

لفظ الأهلة لا يقبل هذا التفسير، فإن الأهلة جمع الهلال، والهلال لا يطلق إلا على القمر في أول ليلته. يقول ابن منظور: (الهلال غرة القمر حين يهله الناس في غرة الشهر)(١).

ويقول الخازن - رحمه الله -: «والأهلة جمع هلال، وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلةمن الشهر»(٢).

وإلى مثله ذهب الشوكاني - رحمه الله - حيث قال: «وإنما قيل له هلال، لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته»(٣).

فإذا كان هذا هو وجه تسميته بالهلال تَعيَّنَ أنه لا يكون هلالاً إلا في أول ليلته، حين يرفع الناس أصواتهم بالإخبار عنه عند طلوعه.

وهذا المعنى كما يظهر بالتأمل في وجه تسميته، يظهر بتتبع استعمالاته كذلك، ولا بأس بأن نمر هنا على بعض الأمثلة:

أخرج الدارقطني عن أبي وائل قال: أتانا كتاب عمر بخانَقِين: أن الأهلة بعضها أعظم من بعض، فإذا رأيتم الهلال من أول النهار فلا تُفطروا حتى يشهد شاهدان أنهما رأياه بالأمس(٤).

وأخرج الدارقطني عن قيس بن طلق عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (جعل الله الأهلة مواقيتَ للناس، فإذا رأيتموه فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غُمَّ عليكم فأتموا العدة ثلاثين)(٥).

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: (والله يا ابن أختي إنْ كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال ثم الهلال: ثلاثة أَهِلَّة في شهرين وما أُوقدَ في أبيات

---

(١) لسان العرب: مادة (هـ، ل، ل).

(٢) تفسير الخازن: ١/١٦٦.

(٣) فتح القدير: ١/١٨٩.

(٤) سنن الدارقطني: باب الشهادة على رؤية الهلال: ٢/١٦٨.

(٥) سنن الدارقطني: كتاب الصيام: ٢/١٦٣.

رسول الله ﷺ نار)[1].

فنرى الروايتين الأوليين تستعملان الهلال والأهلة بالمعنى الذي أشرنا إليه، وأما الرواية الثالثة - وهي رواية عائشة - فهي لا تفسر بعبارتها معنى الهلال والأهلة فحسب، بل تقطع الطريق على الذين يفسرونهما بمعنى آخر كقول الجوهري: (الهلال أول ليلة والثانية والثالثة ثم هو قمر)[2].

أو كقول الأصمعي: (هو هلال حتى يحجر ويستدير له كالخيط الرقيق، وهو هلال حتى يبهر بضوئه السماء وذلك ليلة سبع)[3].

أو كقول الفيروز آبادي: (الهلال غرة القمر أو لليلتين أو إلى ثلاث أو إلى سبع ولليلتين من آخر الشهر ست وعشرين وسبع وعشرين وفي غير ذلك قمر)[4].

فهذه الأقوال لا تعدو أن تكون آراء واجتهادات لا يوجد لها أصل في كلام العرب، ورواية عائشة نص على أنه لا يكون في الشهر إلا هلال واحد.

الإشكال الثالث:

لقد وردت في هذا السياق ستة أسئلة غير هذا السؤال، وهي كما يلي:

١ - ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ . . . الآية ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة].

٢ - ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ . . . ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة].

٣ - ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة].

٤ - ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة].

٥ - ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

٦ - ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، انظر كتاب الزهد والرقائق. رقم الحديث (٢٩٧٢). وقد رواه البخاري مع اختلاف يسير في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها.

(٢) الصحاح للجوهري: مادة (هـ، ل، ل).

(٣) المحرر الوجيز: ٥٣١/١.

(٤) القاموس المحيط: مادة (هـ، ل، ل).

وهذه الأسئلة كلها متجانسة متشاكلة في طبيعتها واتجاهها، وآخذٌ بعضها بأعناق بعض، كما سنبينه فيما بعد.

وأما هذا السؤال فإنه سيصبح غريباً جد غريب في هذا الجو، إن رضينا بذلك التأويل الذي ذهب إليه الناس.

الإشكال الرابع:

هذا التأويل يبتر الشطر الأول من الآية من الشطر الثاني منها، وهذا أمر غير مستساغ حتى عند الذين لا يعترفون بالنظام ولا يعترفون بالمناسبات في آيات القرآن وسوره، فالآية الواحدة لا يمكن أن تشتمل على مضامين متنافرة متباعدة، لا يجمعها سبب ولا نسب.

وبعدما انتهينا من دراسة ما قيل في تأويل الشطر الأول من الآية نتوجه إلى تأويل الشطر الثاني منها.

تأويل الشطر الثاني من الآية:

يقول ابن جرير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بعدما ينقل الأخبار الواردة في سبب نزوله: «فتأويل الآية إذاً: وليس البر أيها الناس بأن تأتوا البيوت في حال إحرامكم من ظهورها، ولكن البر مَن اتقى الله فخافه، وتجنب محارمه، وأطاعه بأداء فرائضه التي أمره بها، فأما إتيان البيوت من ظهورها فلا بِرَّ لله فيه، فَأْتوها من حيثُ شئتم من أبوابها وغير أبوابها، ما لم تعتقدوا تحريم إتيانها من أبوابها في حال من الأحوال، فإن ذلك غير جائز لكم اعتقادُهُ، لأنه مما لم أُحَرِّمْهُ عليكم»[1].

هذا ما ذهب إليه ابن جرير في تأويل الآية ولم يكن هناك مانع من قبول هذا التأويل لولا أنه يُوقِفنا أمام عدة إشكالات. وهي كما يلي:

الإشكال الأول:

إن الوجوه التي ذكرها المفسرون في تأويل هذه الآية، ومنها ما ذهب إليه ابن

---

(١) تفسير الطبري: ٢/١٨٩.

جرير، تبتر الشطر الأول من الآية من الشطر الثاني منها.

ولقد حاول بعض المفسرين أن يلتمس الصلة بين الشطرين، ولكن محاولته هذه لا تخلو من تكلف، بل تَشِي بعدم اقتناعه هو بما حاول، فيقول أبو حيان، مثلاً، وهو يبرز المناسبة بين شطري الآية:

«ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر أن الأهلة مواقيت للحج استطرد إلى ذكر شيء كانوا يفعلونه في الحج زاعمين أنه من البر فبين لهم أن ذلك ليس من البرّ وإنما جرت العادة به قبل الحج أن يفعلوه في الحج، أو لما ذكر سؤالهم عن الأهلة بسبب النقصان والزيادة وما حكمة ذلك، وكان من المعلوم أنه تعالى حكيم فأفعاله جارية على الحكمة ردّ عليهم بأن ما يفعلونه من إتيان البيوت من ظهورها، إذا أحرموا، ليس من الحكمة في شيء ولا من البرّ، أو لما وقعت القصتان في وقت واحد نزلت الآية فيهما معاً ووصل إحداهما بالأخرى»[1].

هذا ما يفيدنا أبو حيان في مناسبة هذه الآية لما قبلها، وهذه المناسبة التي ذكرها (رحمه الله) لا تزيد على أن تجرّنا إلى سؤال آخر، وبيانه أنه كانت للعرب في جاهليتهم عادات أشد وأفظع وأبعد عن الحكمة والبرّ وكانوا يأتونها في حجهم، وكانت تلك العادات أولى بالإدانة والاستنكار من هذه، فكان مما ابتدعوه مثلاً: «أنه لا يطوف القادم إلى البيت إلا في ثياب الحمس ومن لم يجد ذلك طاف عرياناً، فإن طاف بثيابه ألقاها فلا يأخذها أبداً، لا هو ولا غيره، وتسمي العرب تلك الثياب اللقي، وسمحوا للمرأة أن تطوف وعليها درعها وكانت قبل تطوف عريانة وعلى فرجها نسعة»[2].

فإذا كان حجّهم مليئاً بمثل تلك المنكرات المزريات، فلماذا أنكر القرآن عليهم تلك العادة وترك غيرها مع كونها أعظم وأطمّ؟

ثم إن قوله (رحمه الله) «أو لما وقعت القصتان في وقت واحد نزلت الآية فيهما معاً ووصل إحداهما بالأخرى» يشي بعدم اقتناعه هو بما أسلف من القول ويشي بتذبذبه بين الوجهين.

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/٦٣.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٢/٩٨.

الإشكال الثاني:

قال تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

فعُطِفت هذه الآيةُ على ما قبلها، والعطف يدل على صلة بين المعطوف والمعطوف عليه، فما هي الصلة بين القتال في سبيل الله وبين تفنيد تلك العادة التي كانوا يأتونها في الحج أو بعد الحج؟

الإشكال الثالث:

لقد كرر السياق ذكر التقوى في هذه الآية فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وهذا التكرار إن دَلَّ على شيء فإنما يدل على فظاعة الأمر ونكارته وبُعدهِ من التقوى تمام البعد، مع أن ما ذكر من فعلهم وهو إتيان البيوت من ظهورها، وإن لم يكن من البر في شيء، ولكنه لم يكن يصطدم مع التقوى اصطداماً ظاهراً، وإنما كان ينم على سذاجتهم وقلة وعيهم فقط.

تلك إشكالات تجعلنا نشك في صحة ما ورد في سبب نزول هذه الآية، اللهم إلا أن يقال: إن ما وردت به الروايات لا يفسر السبب الحقيقي لنزولها، وإنما هو مما تشمله الآية بعموم دلالتها.

إذاً فما هو التأويل الصحيح للآية؟

تحقيق مدلول الأهلة:

قبل أن نرد على هذا السؤال، نود أن نقف مرة أخرى عند لفظ (الأهلة) ونتأكد من مدلوله، فإن له دوراً كبيراً في تحديد المراد من الآية.

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - في تحقيق هذا اللفظ: «الأهلة جمع الهلال، وجمع وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً واحداً في شهر، غير كونه هلالاً في آخر، فإنما جمع أحواله من الأهلة. ويريد بالأهلة شهورها، وقد يعبر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه»[1].

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٣٤١.

ويقول الإمام أبو حيان - رحمه الله -: «وقد يطلق الهلال على الشهر كما يطلق الشهر على الهلال»(١).

وقال ابن المقري: «وقيل: الهلال هو الشهر بعينه»(٢).

وليس هناك أي إشكال في إطلاق الهلال بمعنى الشهر بعدما تقرر أنه لا يكون في الشهر إلا هلال واحد، فكل هلال يكون عنواناً للشهر الذي أهل فيه.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من غرة كل هلال، وقلّما كان يفطر يوم الجمعة(٣).

وقال زرعة بن عمرو، وكان من الفرسان المذكورين، وقد أدرك الجاهلية والإسلام:

وأَفْنتنــي الليــالــي أم عمــرو ... وحِلّـي فـي التنائـف وارتحالـي
وتــربيتــي الصغيــر إلــى مــداه ... وتـأميلـي هـلالاً عـن هـلال(٤)

أي: أَضعفَ قُوايَ يا أم عمرو مرور الليالي وكثرة الأسفار وتربيتي الصغير حتى يبلغ أشده، وانتظاري الشهر بعد الشهر.

وعلى هذا فنقول: إن المراد هنا بالأهلة هي الشهور.

والشهور هي أشهر الحج بدليل السياق، واللام على الأهلة هي لام العهد، ولفظة الأهلة كانت أنسب للتعبير عن أشهر الحج من لفظة الشهور، فإنها تمثل لنا - بخلاف لفظة الشهور - تلك المشاعر التي كانت تفيض بها قلوب الناس عند حلول موسم الحج، حيث أنهم كانوا يرفعون أصواتهم من شدة الفرح إذا أقبلت تلك الأشهر المباركة، ولاحت لهم تلك الأهلة في أفق السماء.

مدار السؤال:

ثم لنعلم أن السؤال هنا كان عن تقديم أشهر الحج أو تأخيرها عن مكانها، وكان ذلك من عادتهم في الجاهلية وكانوا يفعلونه كلما دعتهم إليه المصلحة، وهو الذي

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٥٩.
(٢) كتاب المصباح المنير لابن المقري: ٢/ ٨٧٩-٨٨٠.
(٣) الفتح الرباني: ١٠/ ٢١٥.
(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام: ٢/ ٤٧٦.

كان يسمى عندهم (النسيء) فجاء الجواب على هذا السؤال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

والمواقيت واحده الميقات وهو الوقتُ المضروب للفعل، أي: تلك الأشهر أوقات محددة ومضروبة للناس حتى يَدَّخِرُوا فيها الخيرَ ويكسبوا فيها الأجر ويقوموا بأداء الحج، فما دام أن هذه الأشهر مواقيت محددة لأداء الحج وكسب الخير فلا يجوز التلاعب بها أبداً بتقديم أو تأخير، فإن التوقيت يتنافى مع تقديم فيه أو تأخير.

ويبدو أنه وجه هذا السؤال حينما قرر النبي ﷺ الخروج للعمرة سنة ست من الهجرة في شهر ذي القعدة وكان هذا القرار مبعث قلق شديد لفريق من المسلمين حيث أنهم كانوا يدركون جيداً أن قريشاً لن يسمحوا لهم بالدخول في شعاب مكة، وأنهم سيشهرون في وجوههم السلاح ويستقبلونهم - كما يستقبل العدو الموتور عدوه - في حنق وغيظ شديد.

ويبدو كذلك أن هذا الشهر كان من شهور النسيء عند المشركين، أو أنهم لما وصلتهم الأنباء بتوجه المسلمين إلى مكة أعلنوا النسيء حتى يتمكنوا من محاربتهم وصَدِّهم عن بيت الله.

فلم يكن من رأي هؤلاء الناس أن يخاطروا بأنفسهم، بل كانوا يرون أن يجتنبوا هذا الخطر بمسايرة المشركين في قانون النسيء، وتأجيلهم هذه العمرة إلى شهر آخر يعتبره المشركون من الأشهر الحرم، حتى يتسنى لهم الدخول في مكة آمنين من العدو، من غير أن يقتحموا الحرب أو يواجهوا الخطر.

فهم وجهوا إلى النبي ﷺ هذا السؤال وكأنهم يملأ إهابهم البرُّ ولا يقيمهم ويقعدهم إلا النصيحةُ للإسلام والمسلمين، مع أنهم ما أَهمَّتهم إلا أنفسُهم وما دفعهم إلى هذا السؤال إلا خوفهم وكراهيتهم للحرب والقتال.

فجاءهم الجواب من ربهم الذي كان مُطَّلعاً على ما يعتمل في صدورهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

معنى إتيان البيوت من ظهورها:

والمراد من إتيان البيوت من ظهورها - على ما يرجحه السياق - هو ما ذكره الإمام

القرطبي - رحمه الله - حيث قال: «وقد قيل إن الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البر من وجهه، وهو الوجه الذي أمر الله تعالى به، فذكر إتيان البيوت من أبوابها مثلاً ليشير به إلى أن نأتي الأمور من مأتاها الذي ندبنا الله تعالى إليه»(١).

وقال الإمام الرازي - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية: «فجعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية فإن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه، وفي ضده يقال: إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه»(٢).

وعلى هذا فالشطر الثاني من الآية لا يفسّره سبب آخر، وإنما هو تأكيد للشطر الأول منها.

أصالة هذا المفهوم:

وأما المفهوم الذي أشرنا إليه وهو أن السؤال هنا كان عن مشروعية النسيء فقد كان في السلف من ذهب إليه. فروى - مثلاً - عن القفال ما يشير إلى ذلك، حيث قال - رحمه الله -: «أفرد الحج بالذكر لبيان أن الحج مقصور على الأشهر التي عينها الله تعالى لفرض الحج، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر لأشهر أُخَر إنما كانت العرب تفعل ذلك في النسيء»(٣).

ويشبهه ما ذكره الإمام القرطبي - رحمه الله - حيث قال: «وقيل إنه النسيء وتأخير الحج به، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حراماً بتأخير الحج إليه والشهر الحرام حلالاً بتأخير الحج عنه، فيكون ذكر البيوت على هذا مثلاً لمخالفة الواجب في الحج وشهوره»(٤).

وبعد إبطال فكرة النسيء وتفنيدها جاء التحريض على القتال، الذي كانوا يكرهونه وكانوا قد أثاروا موضوع النسيء ليتخلصوا منه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٣٤٦.

(٢) التف سير الكبير: ٥/١٢٦.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٢/٦٢.

(٤) تفسير القرطبي: ٢/٣٤٥.

تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

لفتة بارعة:

ويحلو لنا أن نثبت هنا ما كتبه الإمام ابن كثير - رحمه الله - وهو يتحدث عن تلك الآيات فإنه أقرب للسياق وأوفق لنظام الآيات، يقول - رحمه الله -: «قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل مَنْ قاتله ويكفُّ عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال هذه منسوخة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة]، وفي هذا نظر لأن قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتالَ الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة]، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي: لتكن هِمَّتكم منبعثةً على قتالهم كما أن همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً»(١).

وبمثل ما قاله ابن كثير - رحمه الله - في تأويل: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ نقول في تأويل ما بعده من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

فليس المراد بالاعتداء هنا قتل النساء والولدان، أو قتال مَن لم يقاتلهم، أو إتيان ما نُهوا عنه، أو ابتداؤهم بالقتال في الحرم في الشهر الحرام، كما قيل وقيل.

المراد بالاعتداء:

فالاعتداء - بعموم لفظه - وإن كان شاملاً لهذه المعاني كلها إلا أن المراد به في هذا السياق هو التحذير من النكوص والإحجام وعدم الاستجابة لما أمروا به من

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٢٢٦.

القتال، فيكون معنى الآية: (قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا بالنكوص على أعقابكم أو بالتهيب من عدوكم).

وهذا المعنى كما يدل عليه السياق، فكذلك يدل عليه ما روي عن سيدنا عمر، حيث كان يقول عند عقد الألوية: (بسم الله وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء)[١].

فقوله - رضي الله عنه -: (ولا تجبنوا عند اللقاء) بعد قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم نجيء إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فهذه الآية أيضاً ما جاءت لتكف أيدي الناس وتهدىء من سورة غضبهم وتلزمهم بالعدل في بأسهم وفتكهم، كما قيل - وإن كان ذلك من أوليات الجهاد الإسلامي ولا شك - وإنما جاءت لتهييج الناس وإغرائهم بمن يعتدي عليهم وينتهك حرماتهم.

فليس المراد بالمماثلة هنا المماثلة في حجم الاعتداء وقدره، بل المراد بها المماثلة في عملية الاعتداء وكَيْلِ الصاعِ بالصاع.

فهو كما قال الفِند الزماني:

صفحنا عن بني ذهل ... وقُلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ... ـن قوماً كالذي كانوا
فلما صرح الشر ... فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوان ... دِناهم كما دانوا[٢]

فقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يشبه في مثليته قول الشاعر: (دِناهم كما دانوا).

وكذلك المراد بالتقوى هو الغضب لله ولدينه والاندفاع وراء داعي القتال بخفة

---

(١) العقد الفريد: ١/٩١.

(٢) الحماسة لأبي تمام: باب الحماسة: رقم القصيدة (٢).

وحماس، فمن أجاب داعي القتال فقد اتقى ومَنْ نكص وأحجم وتصامم فهو من العصاة المتمردين على الله.

ثم عاد الكلام إلى موضوع الإنفاق في سبيل الله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فإن هذه النكوص عن الجهاد والتماس مبرراته إنما يأتي نتيجة لحب المال، فالمرء إذا أُشرب في قلبه المال وأُحضر الشح فإنه يحرصُ على الحياة وينفر من الموت ويكره القتال في سبيل الله، والإنفاق هو الذي يداوي تلك النفوس ويمسح عنها أسقامها ويعيد إليها صحتها وطهارتها.

التشابه بين هذه الآيات وآيات سورة التوبة:

وتلك الآيات (١٨٨-١٩٥) تشبه في نظمها ومضامينها آيات سورة التوبة، حيث قال تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة].

فذكر هنا أولاً أكل أموال الناس بالباطل كما ذكر هناك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ... الآية﴾.

ثم ذكر النسيء حيث قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ أي: في شأن تلك الأربعة الحرم بتقديمها أو تأخيرها عن محلها، كما ذكر هناك، حيث قال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ... الآية﴾.

ثم حرض على القتال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾، كما حرض هناك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وجعل هذا القتال آية التقوى حيث قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وهذا التنبيه ورد في كلا الموضعين على نمط واحد وفي سياق واحد حيث قيل في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقيل في سورة التوبة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾.

ثم كشف القناع عن وجوه الذين كانوا يثيرون موضوع النسيء وكانوا يتحمسون له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾.

وهكذا سنرى في سورة البقرة قوله تعالى في شأن هؤلاء: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة].

وهذه المقارنة بين آيات السورتين تزيدنا قناعة إلى قناعة بما أسلفنا من تأويل تلك الآيات. فله الحمد وله الشكر على ما أرشدنا إليه.

والآن نعود مرة أخرى إلى الآيات التي كنا نتحدث عنها فنقول: بعدما انتهى السياق من تفنيد فكرة النسيء وانتهى من شحن تلك النفوس الضعيفة بشحنات الجهاد والقتال عاد إلى موضوع العمرة والحج، الذي كان موضوع الساعة، بالإضافة إلى أن الأشهر التي أثير السؤال عنها كانت هي مواقيت الحج والعمرة. والذين طرحوا هذا السؤال لم يطرحوه إلا لغفلتهم عن أهميتها. قال تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ

عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن
قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا
فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ
ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ
عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

هذه الآيات - كما نرى - تتناول موضوع الحج، وتبين بعض أحكامه، مع التركيز على روحه التي تسري في مناسكه، وهي الإكثار من ذكر الله وتزود تقواه.

فهي - في جملتها - واضحة من ناحية نظمها ورباط معانيها، إلا أن هناك مفهومات قد اشتهرت بين الناس وتسربت إلى كتب التفسير وهي لم تدع تلك الآيات تظهر من ناحية نظمها بكامل جمالها وبهائها، بل وتركت الدارسَ يحسُّ فيها نوعاً من الاقتضاب، مع أن الاقتضاب ليس من شأنها.

وبالتالي فهي بحاجة إلى تأمل ودراسة تنفي عنها الاقتضاب وتزيل عنها الغبش، وتجلي نظمها واضحاً ناصعاً يسر الدارسين ويقنع الباحثين.

وها نحن نذكر تلك المفهومات التي قد شاعت وانتشرت مع كونها لا تتلاءم مع السياق، ثم نذكر ما نراه أدنى إلى الصواب وأقرب للسياق.

المفهوم الأول:

لقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ على عدة أقوال.

والذي يظهر من السياق أن هذه الآية جاءت تخاطب الذين مضى معنا ذِكْرهم قبل قليل، وهم الذين كانوا يريدون أن يقعدوا عن الخروج للعمرة مع النبي ﷺ خوفاً مما كانوا يتوقعونه من الحرب والقتال، وهذا الخوف هو الذي دفعهم إلى أن يثيروا موضوع النسيء كما فصلناه آنفاً.

فبعد التحريض على القتال جاء التحريض على إتمام العمرة والحج، والمراد بالإتمام أداؤه والإتيان به كما جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة].

فيكون معنى الآية: (أناشدكم بالله أنْ تخرجوا لأداء العمرة والحج).

ولا يعنينا هنا ذلك الموضوع الذي أثير بتلك المناسبة، وهو كون العمرة واجبة أو غير واجبة، بعد ما ثبت أن النبي ﷺ قد استنفر العربَ ومَنْ حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه لأداء العمرة[1].

فالخروج لتلك العمرة بالذات كان واجباً، وإن لم تكن العمرة في نفسها واجبة، ثم تبع هذا الأمر قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

تحقيق معنى الإحصار:

ومعنى الإحصار في هذا السياق أوضح من الواضح، ولكن العجيب الذي يُضحَكُ له أن أكثر أهل اللغة قالوا: إن الإحصار هو ما كان من مرض أو نحوه، وأما ما كان من العدو فهو الحصر.

قال الزجاج: «الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض، فأما من العدو فلا يقال فيه إلا حصر، يقال: حُصر حصراً، وفي الأول: أُحصِر إحصاراً»[2].

والذي يظهر لنا من الفرق بين الحصر والإحصار بعد النظر في استعمالات القرآن هو أنه إذا قيل: حصره العدو، فمعناه أنه ضَيَّقَ عليه وأحاط به، وإذا قيل: أحصره العدو، فمعناه أن العدو حالَ بينه وبين ما يريد، وعلى الأول جاء قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

وعلى الثاني جاءت هذه الآية، التي نتحدث عنها، وأيضاً جاء قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة].

ولعل القاضي ابن عطية - رحمه الله - أراد أن يشير إلى نفس الفرق حيث قال: «والصحيح أن حصر إنما هي فيما أحاط وجاور وأحصر معناه جعل الشيء ذا حصر»[3].

فيكون معنى الآية إذاً: أناشدكم بالله أن تخرجوا لأداء العمرة والحج فإن حال

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٣٠٨.

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٣٧٢.

(٣) المحرر الوجيز: ١/ ٥٤٢.

دونكم العدو - الذين تخافونهم - فتقربوا إلى الله بما استيسر من الهدي وكفى.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - أيضاً - أيضاً - يميل إلى هذا المعنى، ويحتج له بدليل السياق حيث يقول: «اختلف العلماء في المراد بالإحصار في هذه الآية الكريمة فقال قوم: هو صَدُّ العدو المُحْرِم ومنعه إياه من الطواف بالبيت، وقال قوم: المراد به ما يشمل الجميع من عدو ومرض ونحو ذلك. ولكن قوله تعالى بعد هذا: (فإذا أمنتم) يشير إلى أن المراد بالإحصار هنا صد العدو للمحرم، لأن الأمن إذا أطلق في لغة العرب انصرف إلى الأمن من الخوف لا إلى الشفاء من المرض، ونحو ذلك ويؤيده أنه لم يذكر الشيء الذي منه الأمن، فدل على أن المراد به ما تقدم من الإحصار، فثبت أنه الخوف من العدو[1].

ولقد سبق الشنقيطي الإمام الشوكاني - رحمهما الله - بمثل هذا القول حيث يقول وهو يتحدث عن قوله تعالى: (فإذا أمنتم... الآية): «أي برأتم من المرض. وقيل: من خوفكم من العدو، على الخلاف السابق. ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنتم في ذهاب المرض، فيكون مقوياً لقول من قال: إن قوله: (فإن أحصرتم) المراد به الإحصار من العدو، كما أن قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يقوي قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر»[2].

حكم قضاء المحصر:

ثم هناك خلاف بين العلماء في وجوب القضاء على من أُحصر والذي يظهر من نظم الآية وسياقها هو عدم الوجوب، وبيانه أن الله تعالى قال بعد ذكر الإحصار: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

فألزم - سبحانه وتعالى - المحصر بما يفعله أو بما يلتزم به غير المحصر، تنبيهاً على أن المحصر قد كتب اسمه في سجل الحجيج وإن لم يشهد أماكن الحج، وأن هذا الإحصار لا يضيره شيئاً ولا يفيته الأجر، فعليه أن يلتزم - ما استطاع - بما يلتزم به الحجيج، فليتقرب إلى الله بما استيسر من الهدي ولا يحلق رأسه حتى ينتهي من ذكاة الأضاحي. وإذا اضطر إلى حلق رأسه وخلع إحرامه قبل ميقاته بسبب المرض فليفتدِ لذلك بصيام أو صدقة أو نسك.

---

(١) أضواء البيان: ١/١٠٦.

(٢) فتح القدير: ١/١٩٦.

فهذا النظم يفيد أن المحصَر في حكمه كغير المحصر وأنه يحلق رأسه ويتحلل من إحرامه بعدما ينتهي من ذكاة هديه، ولا قضاء عليه.

وهكذا فعل النبي ﷺ عام الحديبية ولا يبعد أن يكون فعله - عليه الصلاة والسلام - استنباطاً من نظم هذه الآية.

هذا، ولعل الأمر قد بلغ غايته من الوضوح، فلننتقل منه إلى مفهوم آخر.

المفهوم الثاني:

يقول القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

«فهذه شدة على القادم مكة من سائر الأقطار لما أسقط سفراً والمكي لا يقتضي حاله سفراً في عمرة ولا حج، لأنه في بقعة الحج، فلم يلزم شيئاً، لأنه لم يسقط شيئاً»(١).

ويقول الإمام الرازي - رحمه الله -: «قوله (ذلك) إشارة إلى ما تقدم، وأقرب الأمور المذكورة ذِكْر ما يلزم المتمتع من الهدي وبدله، وأبعد منه ذكر تمتعهم، فلهذا السبب اختلفوا. فقال الشافعي (رضي الله عنه): إنه راجع إلى الأقرب وهو لزوم الهدي وبدله على المتمتع، أي: إنما يكون إذا لم يكن المتمتع من حاضري المسجد الحرام، فأما إذا كان من أهل الحرم فإنه لا يلزمه الهدي ولا بدله، وذلك لأن عند الشافعي (رضي الله عنه) هذا الهدي إنما لزم الآفاقي، لأنه كان من الواجب عليه أن يحرم عن الحج من الميقات، فلما أحرم من الميقات عن العمرة ثم أحرم عن الحج لا من الميقات فقد حصل هناك الخلل فجعل مجبوراً بهذا الدم، والمكي لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فإقدامه على التمتع لا يوقع خللاً في حجه فلا جرم لا يجب عليه الهدي ولا بدله. وقال أبو حنيفة (رضي الله عنه): إن قوله: (ذلك) إشارة إلى الأبعد، وهو ذكر التمتع، وعنده لا متعةَ ولا قران لحاضري المسجد الحرام، ومَنْ تمتع أو قرنَ كان عليه دم هو دم جناية لا يأكل منه»(٢).

هذه عبارات تعطينا عن حج التمتع فكرة لا تكاد تتلاءم مع الفكرة التي يستقيها

---

(١) المحرر الوجيز: ١/٥٤٧.

(٢) التفسيير الكبير: ٥/١٥٨.

الباحث من القرآن نفسه، إذا تأمل في سياق آياته، فهي تصور لنا حجّ التمتع وكأنه عبارة عن تقصيرٍ وإساءة وجناية وكأن الهدي الذي يتقرب به المتمتع إنما هو جبر لذلك التقصير أو غرامة لتلك الجناية.

حكم حج التمتع كما يستفاد من نظم الآيات:

بينما إذا تأمل الباحث في نظم القرآن وجد حج التمتع أفضل من غيره، ولا يفوتنا التنبيه على أن التمتع في عبارة القرآن يشمل حج القران كما يشمل الحج الذي نسميه حج التمتع. ولعل الناس ذهلوا عن هذه الظاهرة لما أنهم لم يتّئدوا في تفسيره.

وإن أحسن شيء عثرنا عليه في تفسيره هو ما كتبه الإمام الزمخشري - رحمه الله - حيث قال: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ أي: استمتع ﴿بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقربه بالحج[(1)].

هذا، وإن النظم القرآني يوحي إلينا أكثر من ذلك، فإن الأمر لا ينتهي عند الأفضلية فقط، بل يفيد السياق أن حج التمتع يكاد يكون كمثلي حج الإفراد. وتلك فضيلة ومكرمة خص بها مَنْ لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام وذلك تقديراً للمشاق التي يكابدونها والتكاليف التي يتحملونها في سفرهم إليه.

ولا يعجزنا إدراك هذه النكتة إذا تأملنا في الأمور الآتية:

١- اختار السياق للجمع بين العمرة والحج لفظ (التمتع) ولا يخفى ما فيه في هذا السياق من رقة وعذوبة وحلاوة!

٢- ثم طلب من المتمتع أن يتقرب بالهدي، ولم يأت السياق لأداء هذا المعنى بعبارة تحمل مفهوم الإيجاب أو الإلزام، وإنما جاء بعبارة لطيفة سمحة: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ وهذه العبارة كما أنها تحمل توجيهاً لتقديم الهدي، فكذلك تومىء إيماء إلى الغاية المنشودة من وراء هذا الهدي، وهي تكميل المتاع الذي أراده المتمتع بالعمرة إلى الحج، فهذا الهدي يجبر ذلك النقصان أو يغطي ذلك الفرق الذي يوجد بين الحج والعمرة، وهكذا ترتفع العمرة إلى درجة الحج، فتجتمع للمتمتع حجتان في حجة.

٣- جاء التوجيه لمن لم يجد الهدي أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٤٥.

إلى أهله. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾. ولا يخفى على المتذوق الفطِن ما تحمل لفظة (كاملة) في هذا السياق من حلاوة أي حلاوة! ولا يخفى ما فيها من إيحاءات كأن هذه العبارة تنادي بلسانها أن لا تحسبوا هذه العشرة هينة! فإنها تتسم بالكمال وتصلح لأن تكون سلماً إلى الكمال، وتكمل ما ينقص العمرة حتى تصل إلى درجة الحج.

٤- ثم جاء في ختام الحديث: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وهذه اللام في (لمن) أظهر في معنى الاختصاص منها في أي معنى آخر، فهي تدل على أن هذه فضيلة ومكرمة خصَّ بها من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، دون من سواهم فما هي تلك الفضيلة أو تلك المكرمة؟ إذا لم تكن التي أشرنا إليها من أن حج التمتع يكاد يكون كمثلي حج الإفراد.

وبالجملة، فالمتأمل في نظم الآية يكشف لنا أن حج التمتع له شأن ليس لغيره، ولذلك آثر النبي ﷺ في الرأي الأرجح - أن يكون متمتعاً لا مفرداً.

وأما القول بأن من إتمام العمرة والحج أن يُفْرَدَ كل واحد منهما من غير تمتع ولا قران، وأن من حق العمرة أن تُقصدَ بسفرٍ ومن حق الحج كذلك، فهو قول ليس عليه دليل.

٥- ويمكن أن نستأنس لما قلناه في شأن حج التمتع بما أخرجه مالك عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (والله لأن أعتمرَ قبل الحج وأهدي أحبُّ إلي من أن أعتمر بعد الحج في ذي الحجة)(١).

فهذا نص واضح على أن التمتع بالعمرة إلى الحج أفضل من إفرادهما.

المفهوم الثالث:

يقول القاضي ابن عطية - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

«الجُناح أعمُّ من الإثم، لأنه فيما يقتضي العقاب وفيما يقتضي العتاب والزجر. و(تبتغوا) معناه: تطلبون بمحاولتكم. وقال ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعطاء: إن

---

(١) موطأ الإمام مالك بشرح الزرقاني، كتاب الحج، باب ما جاء في التمتع: ٣/ ٧٠.

الآية نزلت، لأن العرب تَحرَّجت - لما جاء الإسلام - أن يحضروا أسواق الجاهلية كعكاظ وذي المجاز ومجنة فأباح الله تعالى ذلك، أي: لا دَرَكَ في أن تَتَّجِروا وتطلبوا الربح. وقال مجاهد: كان بعض العرب لا يتجرون مُذْ يُحرمون، فنزلت الآية في إباحة ذلك[(١)].

ويقول ابن الجوزي - رحمه الله -: «الفضل ها هنا: التماس الرزق بالتجارة والكسب»[(٢)].

ويقول الزمخشري - رحمه الله -: «﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: عطاءً منه وتفضّلاً وهو النفع والربح بالتجارة»[(٣)].

وهكذا نرى المفسرين - رحمهم الله - قد نحوا في تأويل الآية منحى واحداً، كما هو واضح من كلامهم.

تقويم هذا التأويل:

ولقد قلّبنا هذا التأويل ظهراً لبطن فوجدناه حقيقاً بإعادة النظر فيه، لكونه لا يتلاءم مع سياق الآية وجوها. بل إن سياق الآية وجوها يأبى هذا التأويل كل الإباء، كما أن نظيرها من سورة المائدة تجعلنا نشك في صحته، وتعدلُ بنا عنه إلى غيره.

وبيانه أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد سبقته هذه الآية: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وجاء بعده قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

فالجو كله جو يسوده التقوى وذكر الله. جو يسمو بالمرء عن حطام الدنيا وشهواتها إلى نعيم الآخرة وجناتها. جو يزرع في المرء حب الله وابتغاء رضوانه ويزهده فيما يفتنه من ماله وسلطانه.

---

(١) المحرر الوجيز: ١/٥٥٨.

(٢) زاد المسير: ١/٢١٢.

(٣) الكشاف: ١/٣٤٧.

فإن قبلنا هذا التأويل فسيكون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ غريباً جدّ غريب في هذا الجو كأنه لم يصادف مكانه الذي يليق به.

ثم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عُطِفَ عليه قوله تعالى: (فإذا أفضتم... الآية) ولا بد من صلة ومناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه، ولا سيما إذا كان العطف بالفاء، فما هي الصلة والمناسبة بينهما، إذا رضينا بهذا المفهوم؟

وعلى هذا فنحن لا نستريح إلى هذا التأويل ونفضل أن نفسر الآية في ضوء نظيرها في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا... الآية (٢)﴾ [المائدة].

فقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ جاء في سياق الحج كما أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جاء في سياقه، فتصلح كلتا الآيتين لأن تُفسِّرَ إحداهما الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

ولقد ذكر أبو حيان - رحمه الله عن بعض السلف أنه قال في تأويل ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: «الفضل هنا هو ما يعمل الإنسان مما يرجو به فضل الله ورحمته من إعانةِ ضعيفٍ وإغاثة ملهوف وإطعام جائع».

والجدير بالذكر أن هذا القول مع أنه أحسن من غيره مما سبقه من الأقوال لم يصب المحزّ، فالقرآن نفسه بين لنا كيف نبتغي فضلاً من ربنا، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩)﴾.

فالفاء هنا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ تفيد التفصيل والبيان، والإكثار من الذكر والاستغفار هو الذي نركز عليه في حجنا، وهي الطريقة التي نبتغي بها فضلاً من ربنا، والبرُّ أنواعٌ وأشكال، ولكل محله الخاص.

ثم قال أبو حيان بعدما ذكر هذا القول: «واعترضه القاضي بأن هذه الأشياء واجبة أو مندوب إليها فلا يقال فيها لا جناح عليكم، إنما يقال في المباحات[(١)].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/٩٥.

وهذا الاعتراض يتمخض لنا عن أمرين:

١- الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية ليست من القوة والمتانة بحيث يُحتجُّ بها، فإنها لو كانت تتسم بالقوة والمتانة لما عدل عنها القاضي - رحمه الله - إلى دليل آخر.

٢- مما صرف الناس عن التأويل الصحيح للآية قلة انتباههم للمواضع التي يطرد فيها استعمال ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ [البقرة] وهذا الذي ساقهم إلى قبول تلك الروايات التي غيرت نمط الكلام وأفسدت عليهم النظام.

وهذا الوضع يلح علينا أن تكون لنا وقفة يسيرة نبين فيها ما خفي من معاني ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾.

معنى ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾:

إن كلمة ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أو ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ كما أنها تُستعمل للإباحة والترخيص ورفع الإثم فكذلك تستعمل للترغيب والتشويق والتحريض على الأمور الواجبة أو المندوب إليها. ونبين ذلك بالأمثلة.

قال تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء].

فالمثال الأول قد استعمل فيه: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ للأمر المندوب إليه بلا شك. وهو إصلاح ذات البين. والقرآن نفسه قد دل على خيريته حيث قال: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

والمثال الثاني قد استعمل: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ لِمَا يجب على مَنْ حج البيت أو اعتمر، وهو السعي بين الصفا والمروة.

والمثال الثالث قد استعمل فيه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ للقصر من الصلاة وهو أيضاً مما يجب على الجيش الإسلامي إن كان هناك خوف الفتنة من الأعداء.

فهذه الأمثلة الثلاثة حجة على من يقول: إن ﴿لَا جُنَاحَ﴾ يستعمل للإباحة والترخيص فقط، فإنه كما يستعمل للإباحة والترخيص فكذلك يستعمل للترغيب والتحريض والتوكيد، وقد يكون هذا الأسلوب أبلغ من غيره في التحريض والتوكيد.

المفهوم الرابع:

يقول الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

«وفي المخاطبين بذلك قولان. أحدهما: أنه خطاب لقريش، وهو قول الجمهور. الثاني: أنه خطاب لجميع المسلمين، وهو يخرج على قول من قال: الناس آدم أو إبراهيم.

والإفاضة ها هنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ: هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى صبيحة النحر، إلا أن جمهور المفسرين على أنها الإفاضة من عرفات، فظاهر الكلام لا يقتضي ذلك، كيف يقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ثم أفيضوا من عرفات؟! غير أني أقول: وجه الكلام على ما قال أهل التفسير: أن فيه تقديماً وتأخيراً، تقديره: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله»[(١)].

ويقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل تلك الآية بعدما يذكر الأخبار الواردة في سبب نزولها: «والذي نراه صواباً من تأويل هذه الآية، أنه عنى بهذه الآية قريش ومن كان متحمساً معها من سائر العرب لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله.

وإذ كان ذلك كذلك فتأويل الآية: فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وهذا إذ كان ما وصفنا تأويله فهو من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم، على نحو ما تقدم بياننا في مثله،

---

(١) زاد المسير: ١/٢١٤.

ولولا إجماع من وصفت إجماعه على أن ذلك تأويله، لقلت: أَوْلى التأويلين بتأويل الآية ما قاله الضحاك، من أن الله عنى بقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ من حيث أفاض إبراهيم، لأن الإفاضة من عرفات لا شك أنها قبل الإفاضة من جمع، وقبل وجوب الذكر عند المشعر الحرام، وإذ كان ذلك لا شك كذلك وكان الله عز وجل إنما أمر بالإفاضة من الموضع الذي أفاض منه الناس بعد انقضاء ذكر الإفاضة من عرفات وبعد أمره بذكره عند المشعر الحرام، ثم قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ كان معلوماً بذلك أنه لم يأمر بالإفاضة إلا من الموضع الذي لم يُفيضوا منه دون الموضع الذي قد أفاضوا منه، وكان الموضع الذي قد أفاضوا منه فانقضى وقت الإفاضة منه، لا وجه لأن يقال: أَفِضْ منه، فإذا كان لا وجهَ لذلك، وكان غير جائز أن يأمر الله عز وجل بأمرٍ لا معنى له، كانت بينة صحة ما قاله من التأويل في ذلك وفساد ما خالفه لولا الإجماع الذي وصفناه، وتظاهر الأخبار بالذي ذكرنا عمن حكينا قوله من أهل التأويل»[1].

هذا ما قاله ابن جرير وابن الجوزي - رحمهما الله - وكلامهما هذا يعرضُ لنا صورة غريبة للأسلوب الذي اتبعاه في تأويل الآية، فهما يوفّقان إلى تأويل أحسن وأجمل مما درج عليه الآخرون، ويدركان جيداً أن تأويلهما أقرب لظاهر الكلام وأوفق لما يقتضيه النظام، ثم يتنازل أحدهما عن تأويله الذي يراه أقوى وأهدى، إلى تأويلٍ لا يستريح إليه، لظنه - خطأ - أنه تأويل انعقد عليه الإجماع.

والآخر لا يتنازل عن تأويله، إلا أنه يلتمس للتأويل المرجوح وجهاً يكسبه وجاهة، وهو نفس الوجه الذي أشار إليه الإمام ابن جرير - رحمه الله - في مقاله حيث قال: «وهذا إذ كان ما وصفنا تأويله فهو من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم» وهنا يثور سؤال:

١- ما الدليل على أن هناك تقديماً وتأخيراً في الكلام؟

٢- ثم ما الحكمة أو النكتة البلاغية، التي استوجبت هذا التقديم والتأخير؟ فإن الأصل في الكلام هو الترتيب. وتقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم يعتبر عيباً في الكلام، إلا إذا كانت هناك حكمة ظاهرة أو نكتة رائعة تستوجب ذلك.

---

(١) تفسير الطبري: ٢/٢٩٣-٢٩٤.

وإليه أشار الإمام الرازي - رحمه الله - حيث قال: «هذا - أي التقديم والتأخير في الآية - وإن كان محتملاً إلا أن الأصل عدمه، وإذا أمكن حمل الكلام على القول الثاني - وهو ما ذهب إليه الضحاك رحمه الله - من غير التزام إلى ما ذكرتم ، فأي حاجة بنا إلى التزامه؟»(١).

٣- ثم ما الدليل على أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى قريش بالذات؟ فإنه في غيرها من الآيات عام وموجه إلى الجميع، إن تخصيص آية واحدة بقريش من بين سائر الآيات يحتاج إلى دليل واضح كالشمس.

وأما ما قاله الإمام ابن جرير - رحمه الله - من انعقاد الإجماع على هذا التأويل - أي: التأويل الذي يعتمد على القول بالتقديم والتأخير في الآية - فهو قول فيه نظر. فقد روى الإمام البخاري من حديث موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ما يقتضي أن المراد بالإفاضة هنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار(٢).

ولقد اختار الإمام الضحاك - رحمه الله - هذا القول كما ذكره الإمام ابن جرير - رحمه الله -.

هذا من ناحية النقل، وأما من ناحية العقل، فالعقل لا يقبل أبداً أن ينعقد الإجماع على معنى يخالفُ ظاهرَ الكلام، اللهم إلا أن يكون هناك سبب ظاهر قاهر يُلجِىءُ إلى ذلك.

وكان أولى بابن جرير أن يقيم على قول الضحاك إن كان قد اطمأنّ إلى قوته ورجحانه من ناحية النظم والمعنى، وكان أولى به أن لا يعدل عنه إلى غيره بسبب روايات لا تخلو من احتمال الخطأ.

رأي ثالث:

هذا، وهناك رأي ثالث قد يكون أرجح من غيره في تأويل الآية، ويكون أقرب لسياقها وأوفق لنظامها، وهو أن هذه الآية ليست بصدد ذكر موضع الإفاضة، فإنه معلوم مفهوم فالحاجّ إذا وصل إلى المشعر الحرام، فهو يفيض - بطبيعة الحال - من

---

(١) التفسير الكبير: ٥/ ١٨١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس.

المشعر الحرام. فليس القصد من الآية التنبيه إلى موضع الإفاضة، وإنما القصد منه التنبيه إلى كيفيتها وطريقتها التي يتبعها الحاج وقت إفاضته.

فالمطلوب من الحاج أن يفيض كما يفيض النبي ﷺ وأتباعه الصادقون.

ولقد سبق في نفس السورة أن أطلقت كلمة (الناس) وأريد بها هؤلاء المؤمنون الصادقون، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة].

فهذه الآية تأمر الجماهير أن يخلعوا تلك المنكرات التي كانوا يأتونها في إفاضتهم قبل أن يهديهم الله للإسلام، ويتبعوا في ذلك سبيل المؤمنين الصادقين، الذين كانوا يمثلون حينئذ ملة إبراهيم وكانوا يبذلون جهدهم ليحيوا معالمها ويجددوا آثارها.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بياناً وتفصيلاً لتلك الطريقة، التي يتبعها الحاج في إفاضته.

معنى ﴿مِنْ حَيْثُ﴾:

ونزداد ركوناً واطمئناناً إلى هذا التأويل حينما نتقصى استعمال كلمة ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ في القرآن الكريم، فإنها جاءت في معنى الكيفية أكثر منها في معنى الظرفية. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف].

أي: نظرته إليكم تختلف عن نظرتكم إليه، فأنتم تحسبونه ناصحاً لكم وهو لكم عدو، فاحذروه ولا تدعوه يفتنكم كما فتن أبويكم.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يشبه في روحه وإيحاءاته قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

ومن المواضع الذي جاءت فيها كلمة ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ في معنى الكيفية قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

أي: فأهلكهم الله بطريقة لم تخطر ببالهم ولم تكن في حسبانهم وهي أن قذف في

قلوبهم الرعب.

ومن تلك المواضع قوله تعالى في شأن المطلقات: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ (٦)﴾ [الطلاق].

أي: أسكنوهن كما تسكنون أنتم وليكن مستوى عيشهن شبيهاً بمستوى عيشكم. وهذا كما قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ (٧)﴾.

ومن تلك المواضع قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ (٦٨)﴾ [يوسف].

أي: ولما دخلوا كما أمرهم أبوهم، وقد أمرهم أبوهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ويدخلوا من أبواب متفرقة.

وهكذا نرى كلمة ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ قد اطرد استعمالها في القرآن في معنى الكيفية، ونرى أن الآية التي نتحدث عنها لو فسرت أيضاً بنفس المعنى كان أقرب لسياقها وأوفق لنظامها.

المفهوم الخامس:

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ فإذا فرغتم من حجكم فذبحتم نسائككم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾»(١).

ونرى جلة المفسرين - رحمهم الله - يتناقلون هذا المعنى الواحد في تأويل الآية مع أنه لا ينسجم مع السياق، لا أقول سياق الآيات، بل سياق تلك الآية نفسها.

ولعل الذي جعل الناس يقبلون إلى هذا التأويل هو ما ورد في الروايات من أن العرب بعدما كانوا ينتهون من أعمال الحج، كانوا يتفاخرون بآبائهم ويتعاظمون بأنسابهم، فأمرهم الله تعالى أن يشتغلوا بذكره دون غيره.

ولا يهمنا هنا أن العرب كانوا يفعلون ذلك أم لا، وإنما الذي يهمنا هنا هو أن هذه

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ٢٩٥.

الآية لم تتعرض لصنيعهم ذلك، ولو كانت قد تعرضت لذلك لاختلفت العبارة عما هي عليه الآن، وكانت نحو ما يلي: (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، فمن الناس من يقول: «أولئك آبائي فجئني بمثلهم» ومنهم من يقول: «أبي الإسلام لا أبَ لي سواه، إذا افتخروا بقيس أو تميم»).

ولكن السياق ما جاء على هذا النمط، بل جاء يحمل لوناً آخر وطابعاً آخر، فقوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ يوحي إلينا بأن السياق هنا غير ناظر إلى ما كانوا يفعلونه بعد رجوعهم إلى منى بالذات، وإنما هو مركّز على صرف اهتماماتهم عن حب الدنيا وشهواتها إلى الإكثار من ذكر الله تعالى والتزود بالآخرة.

وما استخدم هنا هذا الأسلوب - كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً - إلا مبالغة في التوكيد والتحريض على ذكر الله، فإن ذكر الآباء كان أحلى شيء في أفواههم، وأبرزه في حياتهم، وكان هذا في نظرهم مناطَ عِزِّهم وافتخارهم، كما هو غير خاف على كل من اطلع على أحوالهم ونظر في خطبهم وقصائدهم، فلم يكن هناك تشبيه أبلغ من هذا التشبيه لأداء هذا المعنى بهذه القوة.

فهو يشبه في حكمه ووضعه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴿١٤٦﴾﴾. فكلا التعبيرين لا يشيران إلى مشهدٍ خاص أو عادة خاصة وإنما هما أسلوبان من أساليب التعبير فقط.

هذا، وهناك أمر آخر يجدر التنبيه إليه، وهو أن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ . . . الآية﴾ جملة شرطية. فإن فسرنا ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ بقولنا: فإذا فرغتم أو فإذا انتهيتم، فسيستلزمُ هذا أن الذكر لا يلزم إلا بعد الفراغ من المناسك، فإن الجزاء يتبع الشرط، ولا يجب أو لا يجوز تحققه إلا بعد تحقق الشرط، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ . . . ﴿٩﴾﴾ [الجمعة]، فالسعي إلى ذكر الله وذر البيع لا يلزم إلا بعد النداء للصلاة.

وهذا المعنى لا يستقيم في الآية التي نحن فيها، فإن أنسب وقت للذكر، بل الوقت

الذي يجب فيه الذكر وجوباً مؤكداً هو الوقت الذي يزاول المرء فيه أعمال الحج لا بعده.

ثم إن هذا التأويل كما أنه يُخلّ بنظام هذه الآية نفسها، فكذلك لا ينسجم مع سياق ما بين يديها وما خلفها، وذلك من وجهين:

الوجه الأول:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ... الآية﴾ عطف على ما قبله بالفاء وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فإن فسرنا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ بقولنا: فإذا فرغتم أو فإذا انتهيتم، فهذا العطف بالفاء يوهم إذاً أن أعمال الحج تنتهي بانتهاء الإفاضة من المشعر الحرام، كما أنه يخل بالمصلحة التي تسببت إلى المبادرة بهذا التوجيه الكريم دون تفصيل بقية المناسك التي تتبع هذه الإفاضة، وسنشير إلى تلك المصلحة بإذن الله، حينما نذكر ما يترجح عندنا في تأويل الآية.

الوجه الثاني:

قال تعالى بعد هذه الآية بآية واحدة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ... الآية﴾.

والمراد بأيام معدودات هي أيام الحج بلا خلاف.

فإذا جمعنا الآيتين فسيكون المضمون حسب التأويل السائر هكذا: (فإذا فرغتم من أعمال الحج فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً.. واذكروا الله في أيام الحج، فمن تَعجَّلَ في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه).

ولا يخفى ما في هذا المضمون من الخلل وسوء الترتيب في أجزائه.

والآن نتوجه إلى بيان ما يترجح عندنا في تأويل الآية.

ولا شك أننا إن توصلنا إلى تأويل يكون سليماً من هذه الإشكالات ويكون أقرب لنظام الآيات، فإنه سيكون أرجح وأفضل وأجدر بالقبول والاختيار من غيره.

تأويل الآية:

إن التأمل في نظام هذه الآية وسياقها يذهب بنا إلى القول بأن المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ هو أداء تلك المناسك ومباشرتها، لا الفراغ منها، فيكون معنى الآية إذاً: (فإذا أديتم أعمالكم التي افترضها الله عليكم في حجكم فأكثروا من ذكر الله في تلك الفترة، أي الفترة التي تؤدون فيها أعمالكم).

ولا بأس أن نردف هذا القول بشيء من البيان والإيضاح، فنقول وبالله التوفيق: إن الله تعالى لم يقصد في هذه الآيات إلى أن يفصل مناسك الحج، وإنما أراد - كما هو واضح من السياق - أن ينبه إلى روحها وغايتها، وهي الرجوع إلى الله والإكثار من ذكره تعالى، والتزود بالكثير الكثير من التقوى.

وذكر الله تعالى بتلك المناسبة الإفاضة من عرفات والإفاضة من المشعر الحرام، وحرض الناس على أن يذكروا الله ويستغفروه أثناء تلك الإفاضة، وخص هذين المنسكين بالذكر، لأنهما يعتمدان على الأسفار والرحلات، والغالب في الأسفار والرحلات أنها تغفل المرء عن ذكر الله وتميل بطبيعته إلى النزهة والمتاع.

وقد كانت حال العرب قبل الإسلام كذلك، فقد تحولت هذه الأماكن عندهم إلى أماكن النزهة والمتاع، فخص الله تعالى بالذكر هذين المكانين وخصهما بالإرشاد والتوجيه، وخصهما بالتحريض على ذكر الله، حتى لا تتحول هذه الرحلات عند المسلمين كذلك إلى رحلات ترفيهية واستمتاعية.

ثم أجمل القول، وقال: فهكذا كلما أديتم مناسككم فلتكن قلوبكم وألسنتكم رطبة من ذكر الله، واذكروه كما تذكرون آباءكم، بل اذكروه أشد ذكراً.

ثم كرر - تعالى - هذا النداء فقال: ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ...﴾ الآية.

ونرى هذه الآيات التي وردت في شأن الحج تشبه في نظمها وأسلوبها تلك الآيات التي وردت في شأن صلاة الخوف، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى

مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

وبعد هذه التوجيهات التي اقتضاها الموقف في شأن صلاة الخوف قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء].

يقول الإمام الزمخشري - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإذا صليتم في حال الخوف والقتال ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فصلُّوها ﴿قِيَٰمًا﴾ مسايفين ومقارعين ﴿وَقُعُودًا﴾ جاثين على الرُّكب مرامين ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ مثخنين بالجراح ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾»[1].

ويقول الإمام الشوكاني - رحمه الله - «قيل معنى قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: إذا صليتم فصلوا قياماً وقعوداً أو على جنوبكم، حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال، فهي مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًاۖ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة]»[2].

فنرى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ... الآية﴾ ورد على نفس الأسلوب ونفس النظم اللذين ورد عليهما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ... الآية﴾ ففي كلا الموضعين نرى إجمال القول بعد شيء من التفصيل، ونرى التركيز على الغاية والروح بعد التلويح إلى الشكل والصورة، مع تشابه ملحوظ في العبارة وأسلوب الأداء.

* * *

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبات تلك الآيات (١٨٩-٢٠٣) فيما بينها، وهذا ما ظهر لنا من مفهوماتها، فله الحمد أولاً وآخراً، وله الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء بينهما.

والآن نتوجه إلى التماس وجوه المناسبة فيما بينها وبين ما سبقها من الآيات وما تلاها، متضرعين إلى الله أن يهدينا إلى سواء الصراط.

---

(١) الكشاف: ١/ ٥٦٠.

(٢) فتح القدير: ١/ ٥١٠.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

إن هذه الآيات قد سبقتها آيات الصيام، وكان بيت القصيد فيها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة].

ولا بد لنا إن كنا نريد الاطلاع على وجه المناسبة فيما بين آيات الصيام والتي جاءت بعدها، من أن نستعيد في الذهن ما قد هدانا إليه السياق من إيحاءات تلك الآية. فقد استوحينا من سياقها ما يلي:

(ثم نبه - تعالى - على ذلكم الشعور القدسي الكريم، الذي ينبغي أن يفيض به قلبُ المؤمن بفضل صيام رمضان، وبفضل تدارس القرآن في تلك الأيام، ألا وهو شدة الحنين إلى ربه الودود الكريم، والحرص على رؤيته ولقائه، والسؤال أو البحث عنه للاتصال به والاطمئنان إلى رضوانه:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ. . . ﴾ الآية، فالأصل في الصوم أن يُوَجِّه الوجوه إلى ربها، ويشعل في القلوب جذوة الحنين والشوق إليه - سبحانه وتعالى - ويدع العباد لا يَقرُّ لهم قرارٌ لشدة ما يشعرون به من الإلحاح في التساؤل عن ربهم، وكيفية الوصول إليه؛ وكيفية الحصول على رحمته ورضوانه.

وهكذا يعمل الصوم عمله في قلوب المؤمنين الصادقين.

إلا أن هناك ناساً آخرين مثلهم كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابل فتركه صلدا، فهم يخرجون من الصوم بما قد دخلوا به، ويودعون شهر الصيام وقلوبهم خاوية من ذكر الله، ومن آياتهم أنهم لا يتساءلون عن ربهم وعما يرضي عنهم ربهم وعما يقربهم إليه، وإنما تحوم أسئلتهم حول مصالح الدنيا ومتاعها وشهواتها ولذاتها تحوم حولها والناس قد لا ينتبهون لما وراءها، لأنهم يطرحونها بأسلوب يخدع الناس، ويخلطونها بما يوهمهم بالنصح والمودة والحب والحماس.

فهم يسألون - مثلاً - عن الأهلة، وكأنهم يملأهم الحب والإخلاص والنصيحة لله ولرسوله، مع أنهم ما حدا بهم إلى هذا السؤال إلا حبّ الدنيا والتربص بالإسلام وأهله وقد بينا ذلك في موضعه أثناء حديثنا عن الآية.

ولذلك نرى السياق، بعدما انتهى من الرد على سؤالهم، وانتهى من ذكر ما كان

يستوجبه الموقف من التحريض على القتال والحث على إتمام العمرة والحج - وقد بينا الصلة والمناسبة فيما بين هذه الموضوعات أثناء حديثنا عن تلك الآيات - نراه قد عاد إلى هؤلاء السائلين مرة أخرى، فأفصح عما كان يهيجهم إلى مثل هذا السؤال وعما كانت تنطوي عليه جوانحهم، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

وذكر إلى جانب هؤلاء قوماً ليسوا مثلهم، فهم يختلفون عنهم تماماً في سلوكهم وتطلعاتهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

وهؤلاء هم عباد الله الذين يسألون عنه ويتطلعون إلى قربه ورحمته ورضوانه، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ . . .﴾ الآية.

والآن وقد انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات فيما بينها ولما قبلها، نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٢٠٨-٢١٤)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

* * *

قبل أن نعالج إبراز مناسبات هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها، نود أن تكون لنا وقفة عند الآية الأولى من هذه الآيات ألا وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً. . . الآية﴾.

فإن القصور في تأويلها أو الخطأ في تحديد اتجاهها يكاد يحجب نظام هذه الآيات كلها، ويمنع الباحث أن يدرك ما تتمتع به هي الأخرى من حسن الارتباط وروعة التناسق فيما بينها.

فنبدأ أولاً بما قاله المفسرون - رحمهم الله - في تأويل هذه الآية وفي تحديد اتجاهها.

فمنهم من يؤول هذا الخطاب إلى المؤمنين الصادقين[1] ومنهم من يأخذه على إطلاقه، بل يبالغ في إطلاقه حتى يصل به إلى درجة لا يحتملها النص[2].

فنحن لا نجد في القرآن شاهداً واحداً لإطلاق وصف الإيمان على الذين رفضوا الإيمان بمحمد ﷺ ولو كانوا يؤمنون بالأنبياء الذين خَلَوْا من قَبلُ، وبالعكس هو ينص على كفرهم وفسقهم ويصمهم به في غيرِ ما آية.

فالقول بأن المراد بـ«الذين آمنوا» في هذه الآية هم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ قول يعلنُ عن نفسه بالبطلان.

وأما القول بأن المراد بـ«الذين آمنوا» في هذه الآية هم المؤمنون الصادقون فهو قول يأباه السياق. والمتأملُ في الآيات التي تتبع هذا الخطاب لا يدع لنا مجالاً لمثل هذا القول.

نأخذ - مثلاً - قوله تعالى بعد هذه الآية بآية واحدة. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

فهل يُتصوَّر أن يُوجَّه مثلُ هذا الوعيد أو التهديد إلى المؤمنين الصادقين المخلصين في إيمانهم؟

كلا! فلا عهدَ لنا في القرآن بمثل هذا الأسلوب وبمثل هذا التوعد إلا في شأن

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط: ٢/ ١٢٠، وتفسير ابن كثير: ١/ ٢٤٧.

(٢) تفسير الطبري: ٢/ ٢٣٥، وفتح القدير: ١/ ٢١٠.

الغافلين المستهزئين بآيات الله، الذين تبلغ بهم القساوة مبلغاً لا يجدي معه أي لون من ألوان التنبيه والإنذار.

ونظراً لهذا الواقع المتكرر في القرآن يربط الإمام ابن كثير - رحمه الله - هذه الآية بالكافرين، حيث يقول: «يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد ﷺ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ...﴾ الآية»[(١)].

أليس من الأولى إذاً أن نؤول الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ الآية، إلى قومٍ يستحقون هذا الوعيد وهذا التهديد، بدلاً من أن نقول إن الخطاب في الآية الأولى إلى قوم وفي الآية الثانية إلى قوم آخرين، من غير دليلٍ يوجب ذلك؟

وعلى هذا فلم يبق أمامنا إلا أن نقول: إن المراد بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الآية هم المنافقون المخادعون، وهم الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ... إلخ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... إلخ﴾.

فبعد الردّ على سؤالهم وبعد التنديد بتصرفاتهم جاء التوجيه الكريم لأن يثوبوا إلى رشدهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾، وجاء الوعيد والتهديد على ترددهم ونكوصهم وعدم الاستجابة لدعوة ربهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

ثم انصرف السياق إلى كبرائهم وطواغيتهم من اليهود، وتَوَعَّدهم على إصرارهم على الكفر بعدما جاءتهم الآيات البينات.

ثم ذكر داءهم العضال، الذي كانوا يعانون منه، والذي قعد بهم عن الإيمان وأخَّرهم عن ركبِ الإسلام، ألا وهو تبجحهم وانتفاشهم على ما يرون لأنفسهم من المكانة والفضل على غيرهم باعتبارهم أهلَ الكتاب ومهبط الرسالات منذ عهد قديم.

وما نشأ فيهم هذا التفكير إلا لأنهم ركنوا إلى الدنيا واغتروا بحياتها، فأصبحوا يَزِنُونَ الأمور بموازينها، وإلا فالتقوى هي مقياس الفضل والمكانة عند الله والمتقون هم

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٢٤٨.

الأفضلون المتفوقون يوم القيامة.

وأما هؤلاء الساخرون المتبجحون بأحسابهم، فلا يُقام لهم وزن ولا يُحسب لهم حساب، وإنما لهم عند الله سوء العقاب: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

ثم كشف حقيقةَ غرورهم، الذي كانوا يعيشونه، فكونهم من بيوتات الأنبياء لا يُكسبهم شرفاً ولا وجاهة، فالناس كلهم سواسية وكلهم أمة واحدة، ولا فضلَ لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى، ولم يبعث الله نبياً لتفخرَ أسرته على أختها، وإنما بعث مَنْ بعثَ ليبشروا الناس وينذروهم ويعودوا بهم إلى الهدى، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليكون حكماً يرجع إليه الناس في خلافاتهم.

وكان من واجب هؤلاء باعتبارهم أهل الكتاب أن يبادروا إلى الإيمان بهذا النبي وهذا الكتاب، ولا يتأخروا عنهما بعدما جاءتهم البينات على صدقهما، وتبين لهم أنهما من عند الله.

ولكنهم أُشربوا في قلوبهم الغرور، فسخروا من هذا النبي ومَنْ آمن به وسخروا من هذا الكتاب واختلفوا فيه بغياً وعدواً، فذلك قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

ثم عاد السياق إلى هؤلاء المنافقين، الذين كانوا يتهيبون من مخاطر الطريق، ولم تكن فيهم تلك الشجاعة الكافية التي تحدو بهم إلى الأمام، وتحملهم على عصيان طواغيتهم الذين كانوا مسيطرين على الموقف: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

وما أشبه هذه الآيات في نظمها ومضمونها بتلك التي مضت معنا في أول السورة، وخاصة تلك الآيات: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ

كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

ولقد فصَّلنا القول في هذه الآيات في محلها، وتناولناها بما فيه كفاية بإذن الله.

* * *

نظم الآيات (٢١٥-٢٢٧)

مما لا يخفى على المتأمل في الآيات (١٩٠-٢١٤) أنها كلها جاءت اعتراضاً واستطراداً حتى تلقي الضوء على خلفية السؤال الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ . . . إلخ﴾ وحتى تُعرِّي تلك العقليات المريضة، التي كانت تعمل في الظلام لتكدِّر على المسلمين الجو.

ثم عاد الكلام إلى مجراه، حتى يسوق إلينا نماذج أخرى من أسئلةِ هؤلاء. قال تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا
تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ
فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ
وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ
عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ
أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟

﴿وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

* * *

تلك ستة أسئلة وُجِّهتْ إلى النبي ﷺ بالإضافة إلى السؤال الأول، الذي مضى معنا في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ . . . إلخ﴾.

وهذه الأسئلة كلها متناسبة فيما بينها من ناحية اتجاهها ودلالاتها، وإن كانت تبدو في بادىء النظر أنها مختلفة، بل متنافرة لا يجمعها سبب ولا نسب، سوى أنها أسئلة وجهت إلى النبي ﷺ في شتى المناسبات.

ونحن سنحاول الكشف عن وجوه المناسبة فيما بينها، إلا أننا نريد أن نعرف قبل ذلك أن هذه الأسئلة لم تكن منبعثة من قلوب خالطتها بشاشةُ الإيمان، وإنما الذي أثارها في قلوبِ أصحابها هو النفاقُ وضعف الإيمان.

ولسنا نقول ذلك من عند أنفسنا، فالآيات نفسها تنطق بذلك، وتؤكده لنا بلسان نظمها.

ولقد علمنا شيئاً من ذلك أثناء حديثنا عن السؤال الأول، ولنتأمل الآن فيما تتضمنه الآيات التالية.

فجاء - مثلاً - قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ . . . الآية﴾ ثم جاءت هذه الآية: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

هذا السياق ينبئنا أنهم ما دفعهم إلى هذا السؤال إلا كراهيتهم للقتال، فإن الإنفاق والقتال هما طرفا الجهاد، والجهادُ بالمال لا يقدرُ عليه إلا مَنْ قدر على الجهاد بالنفس، فهما متلازمان لا يفترقان فلما قيل لهؤلاء القوم: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾، شق عليهم هذا الأمر كما كان يشق عليهم الأمر بالقتال، فسألوا: ماذا ينفقون؟ ولا يَخْفى ما يفيض به هذا السؤال من الملل والتضجر وضيق النفس، ولا يمكن أن يأتي هذا السؤال إلا من قلب أُحضرَ الشُّحَّ وأُطبقَ عليه البخلُ.

ثم جاء السؤال الثاني: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾. وبعد الرد عليه جاء هذا التنبيه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

ثم ذكرت في مقابل هذه الطائفة طائفةً أخرى قد خالطت بشاشةُ الإيمان قلوبها، فلم تَضِنَّ في سبيله بنفائسها ونفوسها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

هذا النظم وهذا السياق يشعر أن الذين أثاروا هذا السؤال لم يكونوا من المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله، وإنما كانوا من قوم آخرين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان.

ثم كرر السؤال الأول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ ﴾ هذا السؤال المتكرر في شأن الإنفاق إنْ دل على شيء فإنما يدل على مدى تضايق هؤلاء القوم من واجب الإنفاق. والتضايقُ من الإنفاق من آيات النفاق. وقد بين القرآن ذلك في موضع آخر، حيث قال في شأن المنافقين: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [التوبة].

ثم قوله تعالى في ختام هذه الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أيضاً يفيد بنظمه أن القوم كانوا منشغلين بالدنيا وكانت الدنيا هي موضعَ اهتمامهم ومحلَّ تفكيرهم دون الآخرة.

ثم جاء السؤال الخامس: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ . . . ﴾ وبعد الرد عليه قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

هذا التذييل أيضاً يُظهِرُ أن القومَ لم يكونوا بحيث يُوثَقُ بصلاحهم بل كانت شوائب الفساد والإفساد قائمة فيهم.

وبالجملة فنظم الآيات وسياقها يذهب بنا إلى القول بأن هذه الأسئلة لم تكن مطروحة من قبل المؤمنين الصادقين، وإنما المنافقون هم الذين طرحوها بوحي من كبرائهم من شياطين اليهود وطواغيتهم.

وجوه المناسبة بين تلك الآيات:

وبعد التنبيه إلى هذه الظاهرة الهامة نتوجه إلى التماس وجوه المناسبة بين تلك الأسئلة السبعة.

إن تلك الأسئلة في جملتها تمثل لنا قوماً يكرهون القتال في سبيل الله، ويكرهون الإنفاق، وهم منصرفون بجميع هممهم إلى حب الدنيا وشهواتها من الخمر والميسر والنساء.

أما السؤال الأول - وهو: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ - فقد بينا فيما سلف أنه كان سؤالاً عن النسيء، وكان الدافع إليه كراهية القتال في سبيل الله.

ولذلك نرى السياق يحرضهم على القتال بعدما ينتهي من الرد عليه مباشرة. ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

ونرى نفس النظم في سورة التوبة، حيث جاء التنديد ببدعة النسيء ثم جاء بعده مباشرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة].

وأما السؤال الثاني، وهو: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ فهو أيضاً يشبه في روحه ومنشئه السؤال الأول، حيث أن الدافع هو هو. ولقد صرح سبحانه وتعالى بذلك، إذ قال بعد الرد عليه مباشرة، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

ومن ناحية أخرى فإن الإنفاق والقتال صنوان، حيث أنهما طرفا الجهاد، فأحدهما جهادٌ بالمال، كما أن الثاني جهاد بالنفس، ولا فرق بينهما في أنهما يشقان على النفس، ولا تتهيأ النفسُ لأحدهما إلا إذا تهيأت للآخر.

وأما السؤال الثالث، فهو عودة إلى السؤال الأول، ولكن من باب آخر وبأسلوب آخر، فقد سألوا المرة الأولى عن النسيء، أي: إمكانية تناول الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير عن محلها، وكانوا يرمون بذلك إلى أن يدفعوا عنهم محنة القتال، التي كانت جاثمة على صدورهم وكانت تهدد مصالحهم.

فلما لم يأتهم الرد كما كانوا يشتهون، كرروا المحاولة للوصول إلى مطلبهم بأسلوب

آخر، وقالوا: وكأنهم لا يهمهم إلا الحفاظ على الأشهر الحرم وعلى حرمتها وقداستها - كيف نقاتل في الشهر الحرام؟ من الذي يراعي حُرمته إن لم نراع نحن؟ والله هذه كبيرة وما ينبغي لنا أن نرتكب هذه الكبيرة! إلى غير ذلك من الأقاويل التي توهم بظاهرها أنه ليس وراءها إلا الغيرة والحماس لله ولشعائر الله، مع أنه ليس هناك من الحماس والغيرة إلا اسمها ورسمها.

فرد الله على هذا التساؤل رداً منطقياً: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾.

ثم أماط عنهم اللثام، وحذرهم مما يوشكون أن يقعوا فيه لسوء استجابتهم لداعي الهجرة والجهاد: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

ثم جاء السؤال الرابع والخامس والسادس والسابع:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ . . .

وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ . . .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ . . .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ . . .

وهذه الأسئلة وإن كانت تبدو في ظاهرها متفرقة متباينة لا يمت بعضُها إلى بعض بصِلة، ولكن النظرة الفاحصة المتأملة في مراميها وسياقها تدرك أنها مترابطة فيما بينها برباط قوي.

ومما يؤيد ذلك أن هذه الأربعة جاءت معطوفة بعضها على بعض بخلاف ما سبق من الأسئلة، ولا يدل ذلك إلا على غاية الاتصال والترابط فيما بينها.

ولكن قبل أن نقدم على التماس هذا الاتصال والترابط بين هذه الأسئلة، نود أن نعرف القصد منها، أو نعرف المناسبة التي أثارتها واستوجبت الرد عليها، فإن ذلك سيساعدنا في معرفة وجه الاتصال والترابط فيما بينها.

مناسبة السؤال عن الخمر والميسر:

أما السؤال الأول - وهو قوله تعالى: ﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ... الآية﴾ - فقد ذكر الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في تفسيره قولين، أحدهما: أن عمر بن الخطاب قال: اللهم بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية، والثاني: أن جماعة من الأنصار جاءوا إلى النبي ﷺ وفيهم عمر ومعاذ، فقالوا: أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال. فنزلت هذه الآية(١).

وهكذا ذهب كثير من المفسرين - رحمهم الله - إلى أن هذه الآية نزلت رداً على سؤال المؤمنين.

ولكن التأمل في سياق هذه الآيات وغيرها من الآيات التي وردت بالسؤال في مواضع أُخر يُلحُّ علينا بأن هذه الأسئلة لم تُطرح أبداً من قبل المؤمنين، وإنما طرحت من قبل غيرهم ممن لم يُسْلموا أو أسلموا ولم يَحْسُنْ إسلامهم.

أما الآيات التي وردت في غير هذه السورة مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه].

أو قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

أو قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

أو قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف].

فهذه الآيات ليست بحاجة إلى إيضاح وتفصيل لكونها واضحة بينة في أمرها.

وأما الأسئلة التي وردت في هذه السورة، فقد أسلفنا القول فيها بإجمال، ثم تناولنا بعضها بالتفصيل، وسنفصل الباقي فيما يلي بإذن الله.

فنبدأ إذاً بهذه الآية التي نتحدث عنها، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ... الآية﴾، فنقول: إننا لا نرتاح كثيراً إلى ما ورد في الروايات من أن سيدنا

---

(١) زاد المسير: ١/ ٢٣٩.

عمر وسيدنا معاذ - رضي الله عنهما - سألا عن الخمر ورداً على سؤالهما نزلت الآية، وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول:

قال ربنا - تبارك وتعالى - في سورة النحل، وهي سورة مكية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴿٦٧﴾﴾، فنصت هذه الآية على أن الخمر ليست رزقاً حسناً، وبالتالي هي من الخبائث. وكون الخمر من الخبائث يكفي للحكم عليه بالحرمة، فإن من مزايا هذه الرسالة المباركة أنها جاءت لتحرم الخبائث. وقد نبه إليه سبحانه وتعالى في سورة الأعراف، وهي أيضاً سورة مكية، حيث قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾﴾.

فهذا النص لا يترك مجالاً، لأنْ يُشَكَّ في حرمة الخمر، فما بالك بسيدنا عمر وسيدنا معاذ وهما كانا من أدرى الناس بما تنطوي عليه الخمر من شر وفساد، حيث قالا: (فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال) وبالتالي كانا من أعرف الناس بحكمها ومكانها في دين الله.

الوجه الثاني:

أن العرب - رغم أنهم كانوا يحتسون الخمر وكان يعلّون منها وينهلون - قد أدركوا جيداً ما تنطوي عليه الخمر من أضرار وويلات. ولذلك نرى العقلاء منهم والصالحين كانوا يعزفون عنها، وكانوا يحذرون الناس من معاقرتها. ومن ذلك ما قال عفيف بن معد يكرب عم الأشعث بن قيس:

فــلا والله لا ألفــى وشــربــا ... أنــازعــم شــرابــاً مــا حَيِيــتُ
أبــى لــي ذاك آبــاءٌ كِــرام ... وأخــوال بعــزهــمُ ربيــت(١)

وقال عامر بن الظرب:

سـآلـة للفتـى مـا ليـس فـي يـده ... ذَهَّـابـة بعقـول القـوم والمـال
أقسمـت بـالله أسقيهـا وأشـربهـا ... حتى يفرق ترب القبر أوصالي
مـورثـةُ القـوم أضغـانـاً بـلا إحـن ... مُزرية بالفتى ذي النجدة الحالي(٢)

---

(١) كتاب الأمالي لأبي علي القالي: ١/ ٢٠٥.
(٢) كتاب الأمالي لأبي علي القالي: ١/ ٢٠٤.

وحرم قيس بن عاصم الخمر وقال في ذلك:

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً ... لسالبة مالي ومذهبة عقلي
وتاركتي من الضعاف قواهم ... ومورثتي حرب الصديق بلا تبل[٢]

وكان من أمثالهم السائرة فيما بينهم: (الخمر مفتاح كل شر)[١].

وقال ابن قتيبة: «وقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ حرموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها. وقالت عائشة - رحمة الله عليها -: (ما شرب أبو بكر - رحمة الله عليه - خمراً في جاهلية ولا إسلام).

وقال عثمان - رحمة الله عليه -: (ما تغنيت ولا تفتيت ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام، ولا مَسَستُ فرجي بيميني منذ بايعتُ رسول الله ﷺ»[٢].

فمن المستبعد جداً جداً من أمثال سيدنا عمر وسيدنا معاذ - رضي الله عنهما - أن يستفتيا في أمر الخمر أو يطلبا البيان الشافي في شأنها، وقد كان الأمر عندهم أبين من الشمس في رابعة النهار!

الوجه الثالث:

إن هذا السؤال ليس سؤال مَنْ يريد أن يستفسر ويطلب البيان وإنما هو سؤال من يستثقل الحكم ويطلب الرخصة ويريد أن يطلق لنفسه العنان، ولذلك آثر القرآن في هذه الآية أسلوب الجدال والاستدلال وأسلوب المقارنة بين النفع والخسران فقال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

وعلى أية حال فالموقف لا يقبل تلك الروايات التي نُقلت لنا في سبب نزول هذه الآية.

وإنما الذي يترجح في تأويل الآية هو أنه لما جاء النهي عن معاقرة الخمر ولعب الميسر اشتد ذلك على المنافقين ومَنْ على شاكلتهم ممن أسلموا ولم يحسن إسلامهم، فهم أثاروا هذا السؤال محتجين بما كان يتبع هذا الإثم من المنافع للناس.

---

(١) العقد الفريد: ١/ ٢٧٢، نقلاً من جمهرة خطب العرب: ١/ ١٣٧.

(٢) كتاب الأشربة لابن قتيبة الدينوري: حجج المحرمين لجميع ما أسكر. ص٢٤.

وبيان ذلك أن المتياسرين في المجتمع العربي كانوا يجتمعون ليلاً حيث يوقدون النار ويعقرون الناقة ويشربون الخمر ويلعبون الميسر وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ينتظرون ما يرمي به الأيسار من أنصبتهم التي حرموها على أنفسهم كرماً وأنفة.

ولقد أشاد عمرو بن قميئة بعظمة قومه فقال: إذا اشتد البرد وانعدم البرق وامّحى السحاب من السماء، فلا ترى فيها غيمة، وإن رأيت فسرعان ما تنقشع، ولقد يتفرق الغمام في السماء كأنه نعال بالية بانت منها سيورها، في هذا الوقت تهزل النوق فلا لبن، وحينئذ نملأ قدورنا طعاماً، ونقدمها فيسرع إليها الضيوف والغرباء، كما تسرع صغار الإبل التي نفرتها كبارها، وذلك بأنا نياسر بأقداح كاسبة، ونقدم ما كسبناه طعاماً للناس:

إذا النجم أمسى مغرب الشمس دائباً	ولم يكُ برق في السماء يليحها
وغاب شعاع الشمس في غير جلبة	ولا غمرة إلا وشيكاً مصوحها
وهاج عماء مقشر كأنه	نقيلة نعل بان منها سريحها
إذا أعدم المحلوب عادت عليهم	قدور كثير، في القصاع قديحها
يثوب إليها كل ضيف وجانب	كما ردّ دهداة القلاص نضيحها
بأيديهم مقرومة ومغالق	يعود بأرزاق العيال منيحها[1]

فهؤلاء الناس احتجوا للخمر والميسر بتلك المنافع التي كانت تحصل للفقراء والغرباء عن طريقهما، ولعلهم كانوا يقصدون بذلك إلى أن يجدوا سبيلاً للاسترسال وراء رغباتهم الجامحة الهابطة!

فقال تعالى رداً على هذا السؤال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

السؤال الخامس:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾، وجاء هذا السؤال متكرراً. وهذا التكرار يكشف لنا هؤلاء القوم كشفاً ويعطينا فكرة واضحة عما كان يخالج نفوسهم ويقلق بالهم، فهم كانوا مطبوعين على الشح وضيق النفس، وكانوا يكرهون الإنفاق أشد الكراهية، وما كان يهمهم إلا أن يتخلصوا منه كيفما استطاعوا.

---

(١) ديوان عمرو بن قميئة: ص٣٣-٣٤.

ثم هذا التكرار بهذا السياق كما يدل على بُخلهم وشُحِّهم، يدل على استهانتهم واستخفافهم بدين الله. فإنهم يحلو لهم أن يهلكوا أموالهم في معاقرة الخمر ولعب الميسر، ويودون أن يُرخَّصَ لهم فيهما، ولكنهم لا يرضون أن يتبرعوا بأموالهم في سبيل الله.

فالإنفاق في سبيل الله أثقل شيء على نفوسهم، كما أن الإنفاق في سبيل الهوى والشهوات أحب شيء إليهم.

فرد القرآن على هذا السؤال بأسلوب يملؤه السمو والترفع والاستغناء: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾!!

وللمفسرين في المراد بالعفو هما خمسة أقوال، منها: (ما تَطيبُ به أنفسهم من قليل وكثير، رواه عطية عن ابن عباس)[1].

فكأن معنى الآية: أنفقوا ما تطيب به أنفسكم عفواً صَفْواً مُبَرَّأً من شوائب الشح والبخل وضيق النفس. فالله غني عنكم وأنتم الفقراء إليه.

السؤال السادس:

ثم جاء السؤال السادس: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يقول الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في تأويل هذه الآية: «في سبب نزولها قولان. أحدهما: أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء]، انطلق من كان عنده مال يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه. فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروه للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية. هذا قول ابن عباس وعطاء وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل. والثاني: أنّ العرب كانوا يشددون في أمر اليتيم حتى لا يأكلون معه في قصعته ولا يستخدمون له خادماً، فسألوا النبي ﷺ عن مخالطتهم فنزلت هذه الآية، ذكره السدي عن أشياخه وهو قول الضحاك»[2].

---

(١) زاد المسير: ١/ ٢٤٢.

(٢) زاد المسير: ١/ ٢٤٣-٢٤٤.

هذان قولان ذكرهما الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - ولقد لجأ كثير من المفسرين - رحمهم الله - في تأويل الآية إلى هذين القولين، إلا أن الذي يترجَّح عندنا هو أنهما وإن كانا داخلين في عموم الآية وشمولها، ولكنهما لا يفسران السبب الحقيقي لنزولها، لأنهما لا ينسجمان مع نظمها وسياقها. فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾ كما تلتها هذه الآية: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

هذا السياق وهذا السباق لا يسمح لنا أبداً بأن نُخضع تفسيرَ الآية لهذين القولين.

فما هو تأويل الآية إذاً؟ وما هو تفسير هذا السؤال المثار بخصوص اليتامى؟

قبل أن نرد على هذا السؤال نود أن نتحقق معنى المخالطة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ فإن له تأثيراً كبيراً في تحديد اتجاه هذه الآية، كما أن له تأثيراً كبيراً في معرفة طبيعة هذا السؤال.

تحقيق معنى المخالطة:

يقول الزمخشري - رحمه الله - وهو يفسر معنى المخالطة: «وقد حملت المخالطة على المصاهرة»(١).

ولقد ذكر الإمام الرازي - رحمه الله - فيما ذكر من معاني المخالطة فقال: «والقول الرابع، وهو اختيار أبي مسلم، أن المراد بالخلط المصاهرة في النكاح، على نحو قوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾ [النساء]، وقوله عز من قائل: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النساء].

وأضاف - رحمه الله - قائلاً: «وهذا القول راجح على غيره من وجوه: (أحدها) أن هذا القول خلط لليتيم نفسه والشركة خلطٌ لماله. (وثانيها) أن الشركة داخله في قوله ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ والخلط من جهة النكاح، وتزويج البنات منهم لم يدخل في ذلك،

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٦٠.

فحمل الكلام في هذا الخلط أقرب. (وثالثها) أن قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ يدل على أن المراد بالخلط هو هذا النوع من الخلط، لأن اليتيم لو لم يكن من أولاد المسلمين لوجب أن يتحرى صلاح أمواله، كما يتحراه إذا كان مسلماً فوجب أن تكون الإشارة بقوله: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ إلى نوع آخر من المخالطة (ورابعها) أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فكان المعنى أن المخالطة المندوب إليها إنما هي في اليتامى الذين هم لكم إخوان بالإسلام، فهم الذين ينبغي أن تناكحوهم لتأكيد الألفة، فإن كان اليتيم من المشركات فلا تفعلوا ذلك»(١).

والإمام أبو حيان - رحمه الله - أيضاً يذكر هذا المعنى من ضمن المعاني التي يذكرها في تفسير المخالطة ثم يقول: «ورجح هذا القول بأن هذا خلطة لليتيم نفسه والشركة خلطة لماله. ولأن الشركة داخلة في قوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ ولم يدخل فيه الخلط من جهة النكاح فحملهُ على هذا الخلط أقرب، وبقوله: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۝﴾ [الأحزاب] فإن اليتيم إذا كان من أولاد الكفار وجب أن يتحرى صلاح ماله كما يتحرى في المسلم فوجب أن تكون الإشارة بقوله: فإخوانكم إلى نوع آخر من المخالطة وبقوله بعد: ولا تنكحوا المشركات، فكان المعنى أن المخالطة المندوب إليها في اليتامى الذين هم لكم إخوان بالإسلام»(٢).

وبهذا التفصيل نعلم أنه ليس هناك مانع من تفسير المخالطة بمعنى المصاهرة والمناكحة، بل يكون هذا التفسير أولى من غيره بناء على الحجج التي أشار إليها الإمام الرازي والإمام أبو حيان.

تأويل الآية:

والآن نجيء إلى تأويل الآية فنقول: إن هذا القرآن قد ركز على حقوق اليتامى تركيزاً خاصاً، وجاء في شأنهم بأوامر مشددة يرتجف منها القلب، فقال - مثلاً -: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝﴾ [النساء]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء].

إن هذا الوعيد وهذا التأكيد يكفي لأن يفزع منه المؤمنُ ويقشعر وقد حصل ذلك

(١) التفسير الكبير: ٦/ ٥٢.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٢/ ١٦١.

فعلاً كما تحكي لنا الروايات، إلا أن هؤلاء القوم، ممن سبق ذِكْرُهم وما زال السياق يذكرهم، لم يُفْزِعهم الموقف، وإنما كان جل همهم أن يُفتح لهم باب يمكّنهم من الاستمتاع بهؤلاء اليتامى، فهم أثاروا موضوع المصاهرة والمناكحة معهم.

ولم يكن الدافع إلى هذا السؤال - كما أشرنا - شدة الاهتمام بشؤون اليتامى ومصالحهم، أو شدة التورع مما ليس لهم أو لا يطيب لهم، وإنما الذي حفزهم إلى هذا السؤال هو اهتمامهم بأنفسهم وانشغالهم بما يشبع شهواتهم.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)﴾ [النساء].

فبين الله تعالى - رداً على سؤالهم - ما يحل لهم من المصاهرة والمناكحة معهم، مع التنبيه على أنه تعالى عليم بنياتهم وهواجس نفوسهم، فلو شاء لأعنتهم ولكنه شملهم بعطفهِ وكرمه. فليصلحوا نياتهم في شأن هؤلاء اليتامى وليحرصوا على إصلاح حالهم والقيام بمصالحهم، دون الانغماس في شهواتهم والاستمتاع بما لديهم.

وبما أنه تعالى عزيز حكيم فلا يفوته أن يؤاخذهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ولم ينتهوا عما هم فيه من اتباع الهوى والتفريط في جنب الله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ثم بين لهم أن هذه المصاهرة لا تصح ولا تجوز إلا إذا كانت تربطهم بهم آصرة الإيمان. فإذا وجدت آصرة الإيمان فلا مانع من المصاهرة معهم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ولقد تصدى أبو مسلم لربط هذه الآية بما قبلها، والتمس المناسبة بين الآيتين من ناحية أخرى، فقال: «بل هو متعلق بقصة اليتامى، فإنه تعالى لما قال: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وأراد مخالطة النكاح عطفَ عليه مما يبعثُ على الرغبة في اليتامى، وأن ذلك أولى مما كانوا يتعاطون من الرغبة في المشركات، وبَيَّنَ أن أَمَةً مؤمنة خير من مشركة وإن بلغت النهاية فيما يقتضي الرغبة فيها، ليدل بذلك على ما يبعث على

التزوج باليتامى، وعلى تزويج الأيتام عند البلوغ ليكون ذلك داعية لما أمر به من النظر في صلاحهم وصلاح أموالهم»[1].

هذا ما قاله أبو مسلم في مناسبة هذه الآية لما قبلها.

وكان هذا الرأي لا بأس به، لولا أن القرآن نفسه قد بين لنا أن الرغبة في يتامى النساء كانت حاصلة ومتوفرة عندهم سلفاً، ولم يكونوا بحاجة إلى أن تُثارَ فيهم هذه الرغبة، حيث قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النساء].

فليس هناك تحريضٌ وترغيب في نكاح هؤلاء اليتامى، وإنما هو تَرشيدٌ وتقويمٌ لتلك الرغبة، حتى لا تكون رغبة هابطة جامحة خالية من الشعور بالمسؤولية، ومُلْهية عما تمليه عليهم العقيدة.

السؤال السابع:

ثم جاء السؤال السابع وهو قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

يقول القرطبي - رحمه الله - وهو يفسر سبب هذا السؤال، أو سبب نزول هذه الآية: قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ ذكر الطبري عن السدي أن السائل ثابت ابن الدحداح - وقيل: أسيد بن حضير وعباد بن بشر، وهو قول الأكثرين. وسبب السؤال فيما قال قتادة وغيره: أن العرب في المدينة وما والاها كانوا قد استنّوا بسنّة بني إسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: كانوا يتجنبون النساء في الحيض ويأتونهن في أدبارهن مدة زمن الحيض، فنزلت. وفي صحيح مسلم عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ في البيوت. فسأل أصحاب النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يُريد هذا الرجل أن يدعَ من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر

---

(١) التفسير الكبير: ٦/ ٥٤.

فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهنّ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أنْ قد وَجدَ عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أنْ لم يَجِدْ عليهما.

قال علماؤنا: كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض، وكانت النصارى يجامعون الحُيَّض، فأمر الله بالقصد بين هذين[1].

لقد ذكر الإمام القرطبي وغيره من المفسرين - رحمهم الله -هذه الأسباب أو بعضها لنزول هذه الآية، والسبب الأول هو أكثرها رواجاً وانتشاراً بين الناس.

ولعل هذا القول قد استمد قوته ووجاهته مما رواه مسلم في صحيحه عن أنس - رضي الله عنه - في هذا الشأن، فكلاهما يرميان إلى معنى واحد، ولا فرق بينهما إلا في الإجمال والتفصيل.

إلا أن المتأمل في نظم هذه الآيات وسياقها لا يكاد يستريح إلى هذا القول لكونه لا يتلاءم معه.

فالأقرب لسياق الآيات وأسلوبها هو ما روي عن مجاهد رحمه الله - وقد مر معنا آنفاً - فإن هذه العبارة برمتها تركز على اعتزال النساء والابتعاد عنهن في حالة الحيض: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، وهذا الخطاب لا يوجه أبداً إلى قوم قد بالغوا في اعتزال الحيّض واجتنابهن، وغلوا في ذلك إلى أن كرهوا مؤاكلتهن ومجالستهن وأخرجوهن من بيوتهن.

وبالعكس من ذلك يُوجّه إلى قومٍ قد أسرفوا في إتيان النساء وملامستهن، حتى لم يراعوا في ذلك الحيض والطهر.

ويؤيد ذلك قوله تعالى في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

فهذا التذييل ينبىء أن القوم قد أتوا في ذلك بما يتنافى مع الطهر، وبذلك استحقوا أن يُزجى إليهم هذا التوجيه الكريم.

سبب نزول الآية، كما يمليه علينا السياق:

إن التأمل في نظم هذه الآيات وسياقها يوحي إلينا كأن شخصاً من هؤلاء القوم -

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٨٠-٨١.

وهم الذين أسلموا ولم يَحْسُنْ إسلامهم - أراد أن يأتي امرأته في حال الحيض، والمرأة استعصت عليه وتمردت بحكم وضعها الذي تتأذى فيه، وتكره كراهية شديدة أن يؤتى إليها في ذلك الحين.

وأدّى هذا التمرد والعصيان إلى أن آلى الرجلُ أن لا يدخل عليها بعد هذا، ولا يشمّ ريحها، كما هو معروف ومشاهد في أيّ مجتمع لا يتخلص من رواسب الجاهلية ويرى الزواج سبيلاً من سُبُلِ التلذذ والمتاع ليس إلاّ، فيهون عليه أن يهجر المرأة أو يرميها في سلة المهملات، إذا هي ترددت أو تأخرت في تلبية دعوته وإطفاء شهوته في وقت من الأوقات، كائناً ما كان السبب.

وبالجملة فهذه الحادثة هيّأت فرصة طيبة لبيان أمور وتعليمات تُعتبر من أساسيات الحياة الزوجية، ولا يمكن للبشرية أن تستغني عنها، أو تجحد فضلها وأهميتها البالغة في بناء أسرة هادئة مستقرة، أو في تكوين مجتمع عادل فاضل. قال تعالى:
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ
فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ
شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً
لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ
وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾.

إن هذه الآيات تظهر بادىء ذي بدء وكأنها تشتمل على تعليمات وتوجيهات مبعثرة متفرقة، ولكننا إذا وضعنا في اعتبارنا تلك الحادثة التي أشرنا إليها والتي استلهمناها من السياق نفسه، فستكون هذه الآيات كلها وكأنها حلقات متصلة آخذ بعضها بأعناق بعض.

ولا يهمنا هنا أن هذه الحادثة حدثت لمرة واحدة في تلك البيئة، أم تكررت وتعددت، فليس له أي تأثير على الموضوع، والحادثة الواحدة تكفي لأن تثير ذلك السؤال، وتكون مناسبة طيبة لتزويد الجماعة بتلك التوجيهات الغالية القيمة.

فتناول السياق أولاً موضوع الحيض وبين حكمه.

ثم عرّج إلى بيان مكانة الزوجة في حياة الرجل وأثرها في شقائه وسعادته، فالمرأة ليست من أدوات اللهو والمتاع والتسلية، حتى تُرمى كالمخلفات إذا هي ضعفت أو

تأخرت عن الاستجابة لداعي اللهو والمتاع والتسلية، وإنما هي في الواقع مزرعة يزرع فيها الرجل مصيره ويزرع فيها جنته وسعيره كما يزرع فيها نسله وذريته: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فحبلُه متروك على غاربه، فليأت حرثه أنى شاء وليزرع فيه ما شاء، علماً بأنه سيحصد ما زرع ويجني ما غرس، فإن غرس التقوى فسيجني ثمارها ويستبشر بحصيلتها، وإن غرس غير ذلك فهو الذي يصلى بناره ويتعرض لمرارته.

فقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ليس من باب رفع الحظر وفتح الباب على مصراعيه، كما ذهب إليه الزمخشري(١) والشوكاني(٢) وغيرهما.

فهذا التفسير لا يستقيم به المعنى. إضافة إلى ذلك أننا لا نحس فيه ومضة من تلك الرِّفعة التي هي من خصائص مطالب القرآن.

ولعل هذا المفهوم لم يجد طريقه إلى بطون الكتب وقرارة النفوس إلا بسبب ذهول الناس عن أسلوب الآية، مضافاً إلى ذهولهم عن نظامها وسياقها.

فإن هذه الآية أشبه شيء في أسلوبها بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر] وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت] ويقارب هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]، وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير]، وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر].

فهذه الآيات وإنْ خرجت مخرج الإباحة والترخيص، إلا أنها في الواقع ليست للإباحة والترخيص، وإنما هو أسلوب حكيم يخاطب العقول ويناديها نداء مباشراً حتى تعود إلى صوابها وتدرك ما يضرها مما ينفعها.

ومنه قول قراد بن عباد:

فآخ لحال السلم من شئت واعلَمنْ ... بأن سوى مولاك في الحرب اجنب(٣)

أي: كُنْ محباً لمن شئتَ في حال السلم، واعلم أن ابن عمك هو الذي ينفعك عند

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٦٢.

(٢) فتح القدير: ١/ ٢٦٦.

(٣) الحماسة لأبي تمام: ١/ ٣٣٦، رقم القصيدة (٢٢٦).

الحرب، وأن سواه أجنبي يتغافل عنك ولا ينصرك.

فقوله: (آخ لحال السلم من شئت) ليس إلا تنبيهاً له إلى أن يكون عاقلاً في مؤاخاته ولا يتخير لها إلا من ينفعه عند النوائب وإن كان الأسلوب يوهم بظاهره أنه تخيير وتحريض له على وضع الحب في غير موضعه.

وعلى هذا فليست هذه الآية إلا توجيهاً تربوياً وتصحيحاً لمكانة المرأة في الحياة، وتنبيهاً إلى أنها ليست - في الواقع - ملهى للرجل، وإنما هي له حرث ومزرعة يزرع فيها آخرته ويغرس مصيره إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولقد صادف هذا التوجيه مكانه، حيث أن الإتيان في حالة الحيض، لا يدل إلا على أن هذا الآتي لم يدرك مهمته ولا مهمة المرأة في الحياة، ولم يدرك شرف هذا اللقاء الذي حصل بينهما بفضلٍ من الله ونعمه.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الرجل إذا بلغ منه الغيظ بحيث يحمله على الانتقام من امرأته، ويُفضي به إلى أن يولي منها أو يعزم طلاقها لا بسبب إلا أنها لم تكن في حالة تمكنها من تلبية رغبته، فهذا أيضاً يعني أنه لم يدرك كرامة المرأة ومكانتها ووظيفتها في الحياة، ولم يعرف ذلك الأثر الخطير، الذي تقوم به المرأة في بناء مستقبله، وبالتالي هو بحاجة إلى أن يُبَيَّنَ له ذلك.

وعلى هذا فقد جاء هذا التوجيه الإلهي الكريم في مكانه وفي أوانه.

ثم انجرّ الكلام بمقتضى المقام إلى تفصيل موضوع الإيلاء حيث أن الذهول عن مكانة المرأة ووظيفتها في الحياة قد أدى من أدى إلى الإيلاء من امرأته، كما سبق أن أشرنا إليه.

وأما ما سبقه من موضوع الأيمان، فإنه ما جاء إلا كتمهيد وتقعيد لموضوع الإيلاء.

وبيانه أن الله تعالى لما أراد أن ينهى عن الإيلاء لم يقصر النهيَ عليه، بل جاء بتوجيه عام يشمل الأيمان الفاسدة كلها، فكل يمين يتنافى مع البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فاسد وقبيح، ولا يجوز للمسلم أن يأتيه ويجعل الله عُرضة له.

والإيلاء - كما لا يخفى - من هذا القبيل، حيث أنه عبارة عن حلف الرجل عند الغيظ والمغاضبة، أنه لا يقرب امرأته، ولا شك أن هذا يتنافى مع البر والتقوى

والإصلاح بين الناس، وفيه ما فيه من امتهانٍ للمرأة وهضم لحقها وقلة المبالاة بها.

ثم كان من فضل الله ورحمته أنه بعد ما حرم الأيمان الفاسدة، ذكر لنا حلاً لهذه المشكلة، إن وقعنا فيها، حيث قال تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

التفسير الخاطىء لكلمة اللغو:

ولا يفوتنا التنبيه إلى خطأ قد انتشر بين الناس في تفسير (اللغو) فإنه طالما حجب عنا نظام الآية وعَوَّقنا عن التوصل إلى صحيح دلالتها.

يقول الزمخشري - رحمه الله - في تفسير هذا اللفظ: «اللغو: الساقط الذي لا يُعتَدُّ به من كلام وغيره. واللغو من اليمين: الساقط الذي لا يعتد به في الأيمان وهو الذي لا عقد معه، والدليل عليه: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾»[١].

ويقول ابن عطية - رحمه الله -: اللغو: سَقطُ الكلام الذي لا حُكْمَ له، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأيمان، تشبيهاً بالسقط من القول، يقال: منه لغا يلغو لغواً، ولغي يلغى لغياً»[٢].

ويقول أبو حيان - رحمه الله - في تفسير هذا اللفظ: «مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، لأنه تعالى لما نهى عن جعل الله معرضاً للأيمان كان ذلك حتماً لترك الأيمان وهم يشقُّ عليهم ذلك لأن العادة جرت لهم بالأيمان فذكر أن ما كان منها لغواً فهو لا يُؤاخَذُ به، لأنه مما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شيء يجري على اللسان عند المحاورة من غير قصد. وهذا أحسن ما يُفَسَّرُ به اللغو لأنه تعالى جعل مقابله ما كسبه القلب وهو ما له فيه اعتماد وقصد»[٣].

وهكذا نرى المفسرين - رحمهم الله - قد اتجهوا اتجاهاً واحداً في تأويل هذا اللفظ. وقبل أن نحكم لهذا الاتجاه أو عليه نود أن ننبه إلى أمور لا بد أن نضعها في اعتبارنا، وهي كما يلي:

---

(١) الكشاف: ١/٣٦٣.

(٢) المحرر الوجيز: ٢/١٨٦.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٢/١٧٩.

١- جري اليمين على اللسان بدون قصد ليس شيئاً محموداً ولا مقبولاً حتى يراعيه الشرع ويترك الناس عليه.

٢- إن كانت هذه العادة قد تغلغلت فيهم حتى صعب عليهم التخلص منها، فليس معنى ذلك أن يُشَجَّعُوا عليها. والتصريح المتكرر بعدم المؤاخذة بها لا يعني إلا التشجيع عليها. وكم من عادة سيئة قد تعودوا عليها، ولكن القرآن عالجهم بحكمة حتى تخلصوا منها. والقوم إذا قدروا على التخلص من الخمر بعدما كانت تجري في عروقهم مجرى الدم فلا شك أنهم كانوا أقدر على أن يتخلصوا من أي رذيلة أخرى، كائنة ما كانت.

٣- إن كان الرجل بحيث يجري اليمين على لسانه من غير قصد، فهو سيجعل الله - ولا محالة - عُرضةً لأيمانه التي نُهِيَ عنه. فهذا النهي مع هذا الترخيص يصبح جمعاً بين المتناقضين.

٤- إن فسرنا اللغو بالمعنى الشائع، فسيكون هذا المعنى غريباً بين المعاني التي تحيط به. وهذا لا يتصور في أي كلام رفيع فضلاً عن القرآن الذي جعله الله ذروة في التناسب بين موضوعاته.

تلك أمور لا بد أن يضعها الباحث في اعتباره، وهي تصرفه عن ذلك التأويل صرفاً لا هوادة فيه.

تحقيق معنى (اللغو):

إذاً فما هو التأويل الصحيح لهذا اللفظ؟

يبدو للمتأمل فيه أن ما روي عن ابن عباس والضحاك في تأويل هذا اللفظ أقرب للصواب من غيره، حيث قالا - رضي الله عنهما -: «لغو اليمين هو المُكَفَّرة، أي: إذا كفرتَ اليمين فحينئذ سقطت وصارت لغواً. ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير»[(١)].

وعلى هذا فليس هذا (اللغو) من لغا يلغو لغواً أو لغي يلغى لغياً، وإنما هو من الإلغاء كالعونِ من الإعانة في قوله - عليه السلام -: (واللهُ في عونِ العبد ما دام العبد

(١) المحرر الوجيز: ٢/١٨٨.

في عونِ أخيه)[١].

ولهذا الاستعمال نظائر أخرى في كلام العرب، فمنه قول سيدنا أبي بكر لعكرمة - رضي الله عنهما - حيث قال: (مهما قلت إني فاعل فافعلْهُ. ولا تجعلْ قولك لغواً في عقوبة ولا عفو، ولا تَرْجُ إذا أمنت ولا تخافن إذا خُوّفت، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول، ولا تعدن معصية بأكثر من عقوبتها، فإنْ فعلت أَثمتَ وإن تركت كذبت)[٢].

فقوله - رضي الله عنه - (لا تجعل قولك لغواً) يعني طبّق كل ما قلت من عفو أو عقوبة ولا تُلْغِه إلغاء.

ومن ذلك ما قاله ذو الرمة وهو يهجو قوماً لم يُقْرُوه:

يعد الناسبون إلى تميم ... بيوت العز أربعة كبارا
يعدون الرباب لهم وعمرا ... وسعداً ثم حنظلة الخيارا
ويهلك بينها المرئي لغواً ... كما ألغيت في الدية الحُوارا[٣]

فـ(لغواً) في هذا البيت من الإلغاء، وليس من لغا يلغو لغواً أو لغي يلغى لغياً، أي: يهلك المرئي وسط تلك القبائل العزيزة وهو كالمُهْمَلِ الملغى، الذي أسقط من قائمة الاعتبار، فلا يُحسب له حساب، كالحُوار الذي يلغى في الدية فلا يحسب له حساب.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ معناه: لا يؤاخذكم الله بأيمانكم التي تتنافى مع البر والتقوى والإصلاح بين الناس إذا كنتم قد ألغيتموها وتخليتم عنها، وإنما يؤاخذكم بها إذا عقدتموها وأقمتم عليها.

وكسب القلوب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يؤدي هذا المعنى، فكسب القلوب يتضمن معنى الدوام والاستمرار والإصرار على الشيء، ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ

---

(١) مختصر أبي داود: باب في المعونة للمسلم: ٢٤٩/٧، رقم الحديث (٤٧٧٩).

(٢) عبقرية الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد: ص١٢٥.

(٣) ديوان ذي الرمة: ص٢٧٦، رقم القصيدة (٢٧). «والمرئي» نسبة إلى «مرأة» وهي القرية التي نزل بها الشاعر فلم يقره أهلها وكان ذلك سبب هجائه إياهم. و«الحوار» - بالضم وقد يكون ولد الناقة ساعة تضعه، أوالي أن يفصل عن أمه. والحوار لا يؤخذ في الدية.

﴿ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ [المائدة].

وما أجمل أن تفسر هذه الآية بتلك. والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

والكفارة التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة].

ليست كفارة الأيمان المعقدة، وإنما هي تلك الكفارة التي يدفعها المرء إذا أراد أن يلغي شيئاً من تلك الأيمان.

ومن هنا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فهذا في الرجل يحلف على أمر إضرار أن يفعله فلا يفعله، فيرى الذي هو خير منه، فأمره الله أن يكفر بيمينه ويأتي الذي هو خير»[1].

وأما الأيمان المعقدة أو التي كسبتها القلوب، وهي التي يصر عليها المرء ولا يريد أن يقلع عنها فسيؤاخذ بها عند الله حينما تفوته الفرصة، ولا يمكنه إلغاءها والتكفير عنها.

وكم نتعجب من القاضي ابن عطية حيث يقول: «والمؤاخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس المصبورة وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة، وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة، فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة، لأن المؤاخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المؤاخذة بأنها في الآخرة فقط تَحكُّمٌ»[2].

فقد جاء - رحمه الله - بكلام في غاية الضعف، فإن الكفارة ليست مؤاخذة ولا عقوبة، وإنما هي رحمة من الله وطهارة للمرء مما وقع فيه وخلاص له من العقوبة والمؤاخذة التي كانت تنتظره لولا أنه أقلع عن ذنبه وكفَّر عنه.

وهذا الأمر لا يبقى فيه مجال شبهة إذا تذكرنا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

فالمؤمنون لا يسألون ربهم من خلال هذا الدعاء أن يعفيهم من الكفارات وإنما

---

(١) تفسير الطبري: ٢/٤١٢.

(٢) المحرر الوجيز: ٢/١٨٨-١٨٩.

يسألونه أن يُعيذهم من سخطه وعقابه.

وكذلك قوله تعالى بعد ذكر كفارات الظهار: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝٤﴾ [المجادلة].

نص على أن الكفارات ما فُرضت على المؤمنين عقوبةً ومؤاخذة لهم، وإنما فرضت لتمدهم بإيمان إلى إيمانهم، أو تعيدهم إلى رحاب الإيمان إن كانوا قد خرجوا منه.

ويشبهه قوله تعالى في سورة النساء بعد ذكر كفارات قتل الخطأ: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٩٢﴾ [النساء].

فهذه حجة على أن الكفارات في الإسلام ليست عقوبة ولا مؤاخذة وإما هي توبة ورحمة.

والآن نعود إلى حديثنا السابق فنقول: ثم كان من فضل الله علينا ورحمته أنه بعد ما نهانا عن الأيمان التي تتنافى مع البر والتقوى والإصلاح بين الناس، ومنها الإيلاء من النساء، ذكر لنا حلاً لهذه المشكلة إن وقعنا فيها: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، ثم ذكر لنا أقصى مدة الإيلاء حتى يكسب هذا الموضوع نوعاً من الجدية، فللمرء أن يتروّى في خلال هذه المدة وعليه أن يجزم فيها بأحد الأمرين، فإما أن يفيء إلى ما هو أَوْلى به وهو التوادُّ والتراحم، أو يختار ما يقابله، وهو الطلاق والفراق: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٧﴾.

ومما يجدر التنبيه إليه أنه تعالى ذكر هنا أمرين: وهما الفيئة وعزم الطلاق، كما ذكر في الآية السابقة أمرين، وهما: (اللغو) و﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا، إن التالي جاء بياناً وتفصيلاً للسابق، فقوله تعالى: ﴿فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ كما أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

ثم إن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كان مناسبة طيبة لتفصيل أحكام الطلاق وما يتبعه أو يتصل به من قضايا العدة والرجعة والخلع والرضاع والخطبة والصداق والمتعة وما إلى ذلك. فنرى السياق يبادر إلى انتهاز هذه الفرصة السانحة

ويزدونا بتوجيهات قيمة في شأن الطلاق وما يتصل به.

* * *

نظم الآيات (٢٢٨-٢٣٧)

قال تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ
بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ
لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ
مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ
ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ
عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ
لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ
مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن
تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا
لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ
النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾.

* * *

يقول الأستاذ محمد عبد الله دراز وهو يبين مناسبة هذه الآيات لما قبلها: «ألا ترى

كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين، يطل القارىء منه على أفق متلبد ينذر باحتمال الفراق، فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريباً، بل وجد مكانه مهيأ له من قبل، كأن خاتمةَ حكم الإيلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها، فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي تلك العروة المنتظرة، وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها، وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً».

ويقول - رحمه الله -: «وتمضي السورة في هذا النمط الجديد، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها: عدة، ورجعة، وخلعاً ورضاعاً، واسترضاعاً، وخطبة، وصداقاً، ومتعة... إلى تمام هذه الحلقة الثانية (٢٣٧)[1].

ونرى أن هذه المجموعة من الآيات واضحة في نظمها ورباط معانيها وليست بحاجة إلى من يبين وجوه ارتباطها وتناسقها فيما بينها.

والجو العام الذي يسود هذه الأحكام كلها هو جو البر والتقوى والإصلاح بين الناس، كما كان الأمر في تلك الأحكام التي سبقتها.

فكما أنه - تعالى - كره الإيلاء من النساء لكونه يتنافى مع روح البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فكذلك كره لهم، إذا عزموا الطلاق، أن يحدثوا أنفسهم بضرار المطلقات والتضييق عليهن، وأمرهم أن يلتزموا دائماً وأبداً بما يُملي عليهم إيمانهم من التسامح والتكارم والإخاء والتعفف ورحابة الصدر، حيث قال تعالى:

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا... ﴾.

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾.

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ ﴾.

﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾

وهكذا نرى تلك الآيات تسمو بالنفوس إلى ذرى البر والتقوى والإصلاح والإحسان

---

(١) النبأ العظيم: ص٢٠١-٢٠٢.

كما أن الآيات التي سبقتها كانت تحلق في تلك الأجواء نفسها، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

* * *

نظم الآيتين (٢٣٨-٢٣٩)

بعد هذا الحديث المستفيض بخصوص الطلاق وأحكامه تطالعنا هاتان الآيتان: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

فما موقع هاتين الآيتين من تلك الآيات؟

وما وجه مناسبتهما لما بين يديهما وما خلفهما؟

إن البحث عن مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما يلزمنا أن نتراجع إلى مسار الكلام ونكرر النظر إلى تلك الأسئلة السبعة التي وجهت إلى النبي - ﷺ - والتي مضت معنا قبل قليل، فإن الآيات التي وردت تبحث موضوع الطلاق وما يتصل به إنما جاءت عرضاً واستطراداً، وليست من المقاصد الأصلية المستقلة، التي سيق لها الكلام، وقد بينا ذلك في موضعه.

فلا بد إذاً من العودة إلى تلك الأسئلة التي سبق ذكرها ولا بد من استحضار جوها وملابساتها التي كانت تحيط بها.

وقد وضح مما أسلفنا، أن تلك الأسئلة كانت موجهة من قبل منافقي اليهود ومن على شاكلتهم ممن آمنوا ولم تؤمن قلوبهم.

وكان الدافع إلى تلك الأسئلة اهتمامهم بالدنيا وشهواتها من الخمر والميسر والنساء والتهرب مما يحول دون شهواتهم، أو يعكر عليهم صفو نعيمهم من الجهاد بالنفس والنفيس في سبيل الله.

ولا يستغرب أبداً إذا جاء في مثل هذا الجو وهذا السياق ذلك التوجيه الكريم: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

فإنهم ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الركون إلى الدنيا والميل إلى شهواتها إلا

لقلة اهتمامهم بالصلاة والتهرب مما يمليه عليهم إيمانهم من الإنفاق والجهاد في سبيل الله.

وقد جاء ذلك واضحاً في موضع آخر حيث قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم].

فاتباع الشهوات لا يكون إلا نتيجة لإضاعة الصلاة، وما أضاع قوم صلاتهم إلا انغمسوا في شهواتهم.

والمحافظة على الصلاة هي التي تأخذ بيد العبد إلى الله وتقوّي صلته به وتحفظ له دينه وتمضي به قدماً في سبيل طاعة الله، ومن هنا قال سيدنا عمر - رضي الله عنه -: (إن أهم أمركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومَنْ ضيَّعها فهو لما سواها أَضيع)(١).

فذكرت هاتان الآيتان بعدما سبقهما من الآيات كما يذكر العلاج بعد ذكر المرض.

ولعل هذا هو السر في اختيار لفظة ﴿حَٰفِظُواْ﴾ في الآية دون لفظة ﴿أَقِيمُواْ﴾ فإن ﴿حَٰفِظُواْ﴾ أقربُ وأنسب للمقام إذا كان الخطاب موجهاً إلى قوم قد أضاعوا الصلاة، فإن إضاعة الصلاة تقابلها المحافظة على الصلاة لا إقامة الصلاة.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الآية جاءت على أسلوب العود على البدء، وهو أسلوب شائع في القرآن.

وتلك نكتة دقيقة لا بد من إيضاحها.

لقد رأينا في هذه السورة نفسها أن الله تعالى بعد أن أمر بتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، وبعد أن نبه الجماعة المسلمة إلى المهمة الجليلة، التي نيطت بها في هذا الكون، أزجى إليها هذه النصيحة الغالية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [البقرة].

ثم تطرق الحديث بمقتضى المقام إلى أمور وموضوعات متنوعة متلاحمة آخذ بعضها بأعناق بعض. وقد كانت لنا وقفات لا بأس بها عند كل من تلك الموضوعات، وفصلنا هناك وجوه ارتباطها بعضها ببعض، وفصلنا وجوه مناسبتها لما بين يديها وما خلفها.

---

(١) الموطأ للإمام مالك: باب وقوت الصلاة: ١/ ٦، رقم الحديث (٦).

ثم عاد الكلام على بدئه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ... الآية﴾.

ولا غرابة في هذا الأسلوب، فإن له نظائر وأشباهاً في القرآن وهي من الوضوح بحيث لا تحتمل الشك أو المراء.

نأخذ - على سبيل المثال - فاتحة سورة المؤمنون، حيث قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون].

ونرى نفس الأسلوب في سورة المعارج حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ [المعارج].

ونلاحظ في هذين المثالين أمرين:

الأمر الأول: أن صفات المؤمنين بُدئت بالصلاة وخُتمت بها، وهو الذي نسميه العود على البدء.

والأمر الثاني: أن المحافظة على الصلاة تذكر دائماً في آخر الشوط. هكذا رأينا في سورة المؤمنون: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وهكذا نرى في سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

ولا يمنعنا مانع من القول بأن الوضع في سورة البقرة أيضاً هكذا، فإن الأمر بالصلاة بدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ... الآية ۝١٥٣﴾، ثم ختم بقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

ولا بأس بأن نستأنس أيضاً لهذا التأويل الذي يفسر الآية على أنها جاءت على أسلوب العوذ على البدء بالجو الذي يحيط بالموضعين، فالجو في كلا الموضعين جدّ متقارب.

ففي الموضع الأول - مثلاً - نرى الأمر بالصلاة والصبر قد سبقه التنويه بكون تلك الجماعة أمة وسطاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۝١٤٣﴾ [البقرة].

بينما نرى في الموضع الثاني الأمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

فالأمة الوسط ما أقيم بناؤها إلا على الصلاة الوسطى، والصلاة الوسطى هي التي تجعل الأمة تحرز هذا الشرف وتنهض لهذا المنصب، وسنعود إلى هذه النكتة بشيء من التفصيل بإذن الله.

ونرى في الموضع الأول الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة، ونرى التنويه بشأن الصابرين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

بينما نرى في الموضع الثاني الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، ثم نرى مثالاً عملياً رائعاً للاستعانة بالصلاة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة].

والمعنيون بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ هم الذين استطاعوا الاستعانة بالصبر والصلاة بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة].

ونرى في الموضع الأول قوله تعالى بعد الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

فقد جمع السياق هنا بين الصلاة والقتال في سبيل الله، ومثل هذا النظم نرى في الموضع الثاني حيث قال تعالى بعد الأمر بالمحافظة على الصلوات: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾، وهكذا نرى الجو في كلا الموضعين جد متقارب، وهذا يَحْدُو بنا إلى القول بما قلناه آنفا من أن هذه الآية وردت على أسلوب العود على البدء، وأن الحديث عاد إلى الصلاة كما بدأ منها.

وحي هذا الأسلوب:

وهنا يثور سؤال: فما هي فائدة هذا الأسلوب؟

ولماذا تكرر ذلك في القرآن؟

والجواب أن هذا الأسلوب يوحي إلينا معاني لم نكن لندركها لولا أن القرآن قد لجأ إليه، فهذا الأسلوب يجسد لنا مكانة الصلاة وأهميتها في دين الله بشكل عجيب، ويبين لنا أن الصلاة هي أصل الدين، وهي عماد الدين، وهي ملاك الدين، والدين يبدأ منها

وينتهي إليها.

والأمة التي ترتضي لنفسها ملة إبراهيم، وتريد أن تقوم بدورها المرتقب في أداء هذه الرسالة العظمى، لا بد أن تكون الصلاة هي عنوان حياتها ومصدر قوتها ونشاطها، كما أنه لا بد أن تكون هي أول خطواتها وغاية غاياتها.

تأويل الصلاة الوسطى:

ويحسن بنا قبل أن ننتقل إلى حديث آخر، أن نطمئن إلى تأويل الصلاة الوسطى، فقد اختلف الناس في شأنها اختلافاً كبيراً، حتى روي عن سعيد بن المسيب - رحمه الله - أنه قال: (كان أصحاب رسول الله - ﷺ - في الصلاة الوسطى هكذا، وشبكَ بين أصابعه)(١). يريد أنهم كانوا في خلاف شديد في الصلاة الوسطى.

ويقول الإمام الشوكاني - رحمه الله -: «وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية عشر قولاً، أوردتها في شرحي للمنتقى وذكرت ما تمسكت به كل طائفة»(٢).

وأرجح تلك الأقوال عندنا وأقربها لنظم الآيات وسياقها هو ما روي عن سيدنا معاذ ابن جبل، فإنه قال في تفسير الصلاة الوسطى أنها الصلوات الخمس(٣).

ولقد ذكر ابن عطية نفس القول عن بعض العلماء فقال: «وقال بعض العلماء: الصلاة الوسطى المكتوبة الخمس»(٤).

ويظهر لنا أن سيدنا زيد بن ثابت أيضاً كان يرى نفس الرأي فقد أخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين، قال: سأل رجل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى، قال: (حافظ على الصلوات تُدْركها)(٥).

فجُعلت هذه الأمة أمة وسطاً، وأُمرت أن تحافظ على صلواتها، وأن تحاول أن تكون صلواتها كلها صلاة وسطى، أي: قمةً في حُسْنِها وروعتها وكمالها، حتى تؤتى

---

(١) زاد المسير: ١/ ٢٨٢.

(٢) فتح القدير: ١/ ٢٥٦.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٢٤١.

(٤) المحرر الوجيز: ٢/ ٢٣٦.

(٥) الدر المنثور: ١/ ٧٢٩.

أكلها بإذن ربها، وحتى تعدَّ الأمة لأداء مهمتها الجليلة، التي نيطت بها في هذه الحياة، وهي الشهادة بالحق على الناس، المهمة التي بعث لأجلها النبي ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

فالأمة لا تكون أمة وسطاً حتى تكون صلاتها صلاة وسطى والصلاة لا تكون صلاة وسطى حتى يملأها القنوت، أي: التضرع والخشوع، حيث قال تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

فهذا توجيه وترشيد من الله تعالى، حيث يتهيأ الوصول إلى الصلاة الوسطى لمن أراد أن يصل إليها.

وهذا التأويل هو الذي ينسجم مع نظم الآيات وسياقها، ويلائمه كل الملاءمة.

وأما بقية الوجوه، التي وردت بها الروايات، فهي لا تخلو من إشكال، ولا تنسجم مع نظم الآيات وسياقها.

بالإضافة إلى أن تأويلنا هنا جامع شامل، وبإمكانه أن يضم في بحبوحته سائر الروايات التي تبدو في ظاهرها متنافرة متعارضة.

فليست الصلاة الوسطى صلاة واحدة بعينها دون غيرها، وإنما هي كل صلاة تتحلى بالفضل والكمال، وتتندى بالخشوع والخضوع والتضرع إلى الله.

والخلاف الذي ورد في الصحيح الثابت من الروايات، ليس خلافاً في الرأي، وإنما هي أقوال قيلت في مختلف الأوقات حسب المناسبات، فحملها الناس على الخلاف في الرأي، ورووها على ظاهرها، حتى قال سعيد بن المسيب - رحمه الله - كما أثر عنه: (كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا. وشبك بين أصابعه)[١].

وليس الأمر كما قال - رحمه الله -: ونبينا - عليه الصلاة والسلام - لما قال يوم الأحزاب - مثلاً -: (شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً)[٢].

---

(١) زاد المسير: ١/ ٢٨٢.

(٢) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة=

فلم يكن يقصد بقوله هذا إلى حصر الحكم أو حصر الصفة على صلاة العصر، وأنها هي الصلاة الوسطى دون غيرها، بل كان ذلك مجرد حكاية للواقع، ومعلوم أن ثبوت الوصف لشيء لا يعني انتفاءه عن آخر. فإذا كانت صلاة العصر صلاة وسطى، فليس معنى ذلك أن غيرها من الصلوات ليست صلاة وسطى.

ولو وقع - مثلاً - أنه فاتته ﷺ صلاة الفجر دون صلاة العصر حتى طلعت عليه الشمس لكان من المحتمل جداً أن يقول عن صلاة الفجر مثلما قال عن صلاة العصر.

ويؤيد هذا ما ورد في بعض الروايات أنه - عليه الصلاة والسلام - قال ما قال ولم يكن صلّى يومئذٍ الظهرَ والعصرَ حتى غابت الشمس[1].

فلا ينصرف إذاً ما قاله - عليه الصلاة والسلام - إلى صلاة العصر فقط، بل ينصرف إليها جميعاً.

والمقام لا يسمح لنا بأن نتنفس في الكلام أكثر مما فعلنا، فإنه لا يتصل بموضوعنا اتصالاً مباشراً، مع أن ما قدمناه فيه كفاية بإذن الله.

والآن، وقد انتهينا من بيان المناسبات الواسعة المترامية لتلك الآية، نزيد فنقول: إن هذه المناسبات الواسعة المترامية لا تعني أبداً أن تلك الآية غريبة في بيئتها الخاصة أو غريبة بين الآيات التي تجاورها من قريب.

كلا! فقد وافقت تلك الآية مكانها، الذي لا يكون مكان أنسب منه، وأشد ملاءمة لها. فهذا المكان هو الذي قادنا إلى ما قادنا من تلك المناسبات الواسعة المترامية التي تقصد إليها الآية قصداً أولياً ومباشراً، كما أنه هو الذي يقودنا إلى ما يقودنا من مناسبات أخرى قريبة ومتصلة بما حولها من الآيات، وهي كما يلي:

المناسبة الأولى:

كان الحديث قبل تلك الآية يجري حول المحافظة على حقوق النساء - المطلقات منهن والمتوفى عنهن أزواجهن - فانتهز السياق هذه الفرصة بلباقة عجيبة، وانتقل من حديث المحافظة على حقوقهن إلى حديث المحافظة على حقوق ربهن، وعلى رأسها الصلوات.

= العصر. ١/ ٤٣٧، رقم الحديث (٦٢٨).

(١) الفتح الرباني: باب تأخير الصلاة لعذر الاشتغال بحرب الكفار ٢/ ٣٠٩، رقم الحديث (٢١٦).

المناسبة الثانية:

لقد تكرر قبل هذه الآية التحريض على التقوى في عدة آيات:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة].

ثم جاء في الآية الأخيرة، التي تلي هذه الآية: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة].

فلما كان الجو جو التحريض على التقوى، ناسبه أن يتبعه الأمر بالمحافظة على الصلوات فإن الصلاة هي التي تغرس في القلب بذور التقوى، وترسخ جذورها، وتهيب بالمرء أن يراقب الله في سره وعلنه وفي صغير أموره وكبيرها، بل وفي جميع شؤونه وأحواله.

ولقد صرح القرآن بذلك في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

المناسبة الثالثة:

الآيتان اللتان سبقتا هذه الآية تتضمنان الأمر بتمتيع المطلقات والتسامي بالنفس في أداء ما فرض لهن، وبعدهما مباشرة جاءت آية المحافظة على الصلوات. ولا يخفى أن تمتيع المطلقات وأداء مهورهن من الإنفاق والصلة بين الإنفاق والصلاة واضحة معلومة.

تلك ثلاثة أوجه لمناسبة هاتين الآيتين لما يجاورهما من الآيات.

ولن نجانب الصواب، إذا قلنا بعد هذا، إن هاتين الآيتين قد وافقتا مكانهما الذي لا يكون مكان أنسب منه وأشد ملاءمة لهما. كما أن الآيات التي سبقتهما جاءت شديدة الالتئام مستحكمة النظام، منسوقاً بعضها على بعض، وإن كان يبدو بادىء ذي بدء أنها موضوعات متفرقة، لا يربطها رابط ولا يشملها نظام.

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما نتوجه إلى ما بعدهما.

* * *

نظم الآيات (٢٤٠-٢٤٢)

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

* * *

لقد ذهل الناس في الغالب عن نظام هؤلاء الآيات.

وهذا الذهول أفضى بهم إلى الخطأ في تأويلها، وإلى الخطأ في استخراج الحكم منها، كما أفضى بهم إلى القول بما لا يتفق مع جودة الترتيب وروعة النظام، التي عهدناها في كلام الله.

وهذا الوضع يتطلب منا أن نطيل الوقوف عندها ونستعرض ما قيل فيها، ثم نتبين الوجه الصواب في تأويلها.

فلنعلم أن هناك مذهبين متوازيين في تأويل تلك الآية، فمن قائل بنسخها، ومن قائل بمُحْكميتها وسريان حكمها.

وممن قال بمحكميّتها واستمراريّة حكمها الأستاذ سيد قطب، حيث يقول - رحمه الله -: «والآية الأولى - أي الآية: (٢٤٠) - تقرر حق المتوفى عنها زوجها في وصية منه تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله، مدةَ حولٍ كامل، لا تخرج ولا تتزوج إن رأت من مشاعرها أو من الملابسات المحيطة بها ما يدعوها إلى البقاء... وذلك مع حريتها في أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليال كالذي قررته آية سابقة. فالعدة فريضة عليها، والبقاء حولاً حقٌّ لها... وبعضهم يرى أن هذه الآية منسوخة بتلك. ولا ضرورة لافتراض النسخ، لاختلاف الجهة كما رأينا. فهذه تقرر حقاً لها إن شاءت استعملته، وتلك تقرّر حقاً عليها لا مفر منه»[1].

ولقد قال بمثل هذا القول الدكتور عبد الله دراز - رحمه الله - حيث أنه يعتقد بقاء هذا الحكم واستمراريته إلا أنه يخصّصه ويقصره على زوجات المجاهدين دون

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٥٩/١.

غيرهم[1].

وبالجملة فهذان رأيان متوازيان في تأويل الآية. وإن كان الرأي القائل بنسخ الحكم هو الرأي المفضل عند أكثر الناس.

وهنا يثور سؤال: فأي هذين الرأيين أرجح وأقوى وأدنى إلى سداد القول؟

تقويم الرأيين في ضوء السياق:

ولن نجد أمامنا في هذا الموضوع وأمثاله من الموضوعات أفضل من الاحتكام إلى نظام الآيات وسياقها.

فلنرجع إلى هذا الحكم حتى نتمكن من تقويم هذين الرأيين، ونتمكن من معرفة الأقوى من الأضعف منها.

إن الوضع الذي نستلهمه بالتأمل في نظام الآيات وسياقها هكذا:

لقد تناول السياق قبل آيتي المحافظة على الصلوات: (٢٣٨-٢٣٩) موضوع تمتيع المطلقة غير المدخولِ بها وغير المفروض لها، حيث قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ثم جاء أن المطلقة المفروض لها غير المدخول بها يكون لها نصفُ المهر إلا أن تعفو أو يعفو زوجها، بخلاف المطلقة غير المدخولِ بها ولا المفروض لها، فإنه لا نصيبَ لها في المهر، وإنما لها المتاع: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثم ختم هذا الموضوع بآيتي المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى.

وهنا يثور سؤال: هل التمتيع خاص بالمطلقة غير المدخول بها ولا المفروض لها كما يُفهم من ظاهر الآية، أم يعمّ جميع المطلقات؟

ثم إن كان هذا الحكم يعم جميع المطلقات، فهل يعم المتوفّى عنها زوجها كذلك أم يكون مقصوراً على المطلقات فقط؟

---

(١) النبأ العظيم: ص٢٠٦.

لا بد أن تكون هذه الأسئلة قد ثارت في الأذهان واقتضت البيان الشافي في هذا الموضوع.

فجاء الوحي مرة ثانية يغطي ذلك الموضوع ويفصله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

حقائق تستفاد من نظم الآيتين:

والتأمل في نظم الآيتين يكشف لنا حقائق مهمة جداً، وهي كما يلي:

١- إن المتوفى عنها زوجها يُصرف لها المتاع لحولٍ كامل: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾.

٢- إن هذا المتاع لا يشترط فيه أن تبقى المرأة في بيت زوجها، فالمتاع حقها المستقل، وهي تستحقه أينما كانت.

٣- إذا أرادت المرأة أن تبقى في بيت زوجها المتوفى فلها الحق أن تبقى في بيته إلى حول كامل. وليس لورثة المتوفى أن يخرجوها: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾.

٤- هذه الوصية من الله وليست من الزوج، كما جاء ذلك مصرحاً في موضع آخر حيث قال تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء].

فلا تبطل هذه الوصية استناداً إلى قوله - عليه السلام -: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصيةَ لوارث)[1]. والمرأة تأخذ متاعها وتأخذ حقها من الميراث من غير أدنى حرج.

٥- هذه الوصية جاءت في سياق المتاع. وهي بيان وإيضاح لما ثار في الأذهان بخصوص المتاع، كما بيناه آنفاً، ولا صلة لها بموضوع العدة.

وهذا هو رأي الإمام مجاهد - رحمه الله - كما يظهر من رواية الإمام البخاري - رحمه الله - حيث قال: حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً. قال: كانت هذه العدة تعتدها عند أهل زوجها، واجب، فأنزل الله ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم

---

(١) مختصر سنن أبي داود: ٤/ ١٥٠.

﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ ﴿٢٤٠﴾﴾، قال: جعل الله لها تمام السنة، سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت ، وهو قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فالعدة: كما هي، واجبٌ عليها، زُعِمَ ذلك عن مجاهد[1].

فهذه الرواية تبين لنا أمرين، . أحدهما: أن هذه الوصية من الله وليست من الزوج، حتى نبطلها استناداً إلى قول النبي ﷺ: (لا وصيةَ لوارث).

والثاني: أن هذه الآية (٢٤٠) لا صلة لها بموضوع العدة. ولقد وهم الإمام الرازي -رحمه الله - في تفسير قول مجاهد حيث قال: (القول الثاني، وهو قول مجاهد، أن الله تعالى أنزل في عدة المتوفة عنها زوجها آيتين. إلخ).

فقول مجاهد واضح في مدلوله، وهو لا يقبل هذا التفسير.

وقد نستأنس لهذا الرأي بما يوجد من فرق واضح بين العبارتين، فإن القرآن كلما تناول موضوع العدة استخدم عبارة: (التربص بالنفس) أو عبارة: (بلوغ الأجل) أو صرح بلفظ (العدة) كما نرى في الآيات التالية:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة].

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة].

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ ﴿٤﴾﴾ [الطلاق].

وأما هذه الآية التي نتحدث عنها فعبارتها تختلف عن تلك العبارات كلها، وهذا الاختلاف لا يدل إلا على اختلاف الموضوع في كلا الموضعين.

فلا يصح أن تربط هذه الآية بآية العدة وتُجعلَ تلك ناسخةً لهذه.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن. . . الآية.

ولقد نبه القرآن نفسه إلى هذا الوضع، حيث قال في نهاية الحديث: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وهذا من عادة القرآن، فإنه كثيراً ما ينبه إذا جاءت الآية بياناً للحكم السابق بمثل تلك العبارة.

ولقد تكرر ذلك في سورة النور بصورة واضحة جداً، حيث جاءت الآيات تبين ما سبقها من الأحكام، فجاء النصّ بمثل تلك العبارة في كل مرة، حيث قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور].

ولقد سبق معنا مثل ذلك في سورة البقرة نفسها، حيث جاءت الآيات: (١٨٣-١٨٦) تذكر لنا واجب الصيام وأحكام الصيام.

وبعد فترة جاءت الآية: (١٨٧) تبين للناس بعض ما التبس عليهم من أمر الصيام. ثم نبه السياق على هذا الوضع، حيث جاء في آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ومن هذا النوع ما نرى في سورة النساء حيث قال تعالى وهو يذكر الفرائض لأصحابها: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء].

فهذه الآية أثارت تساؤلاً في الأذهان، واستفتى الناس في الكلالة، وطلبوا زيادة البيان، فأنزل الله تعالى جواباً على هذا الاستفتاء أو بياناً وإيضاحاً لهذا الموضوع: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وفي آخر الآية صرح تعالى بأن هذا بيانٌ وإيضاح لما التبسَ عليهم في شأن الكلالة: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء].

وعلى هذا فهاتان الآيتان (٢٤٠-٢٤١) أيضاً جاءتا بياناً وإيضاحاً للموضوع السابق، كما نبّه عليه السياق.

وشتان بين كون الآية بياناً وإيضاحاً للموضوع السابق وبين كونها منسوخة!

ومما يبعث الارتياح في أنفسنا أن الإمام الفراهي أيضاً سلك نفس الطريق في تأويل تلك الآيات، وتأمل في نظامها وسياقها، فتوصل إلى مثل ما توصلنا إليه، والفضل للمتقدم ولا شك. يقول - رحمه الله -: «هاتان الآيتان: (٢٤٠-٢٤١) نزلتا لبيان بعض ما بقيت فيه شبهة، فهما كالجملة المعترضة والضميمة بعد سرد الأحكام وختمها بذكر الصلاة عند القتال»[١].

٦- وإذا ثبت أن هذه الآيات لا صلة لها بآية العدة، فلا يصح أن تحسب مدة العدة: (أربعة أشهر وعشراً) في مدة المتاع.

فالمرأة تقضي العدة أولاً في بيت زوجها المتوفى، ثم يكون لها الخيار، فإن شاءت خرجت من البيت، وإن شاءت بقيت حولاً كاملاً ما عدا فترة العدة، وليس لأحد من الورثة أن يرغمها على الخروج قبل انتهاء هذه المدة.

٧- إن هذه الفترة التي تقضيها المرأة في بيت زوجها المتوفى بعد فترة العدة ليست للحداد على الزوج وإنما جعلت لها هذه الفترة مراعاة لظروفها، حتى تدبر لنفسها وتنظر في أمرها، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات، - وهي في بيت زوجها - ولها أن تتلقى خطبة الخطاب، ولها أن تُزوِّجَ نفسها ممن ترضى ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ﴾.

٨- آية التربص أربعة أشهر وعشراً متقدمة في التلاوة، متأخرة في التنزيل وهذه بعكسها[٢] فهو قول عظيم، ويحتاج لثبوته إلى دليل أوضح من القمر الساطع وأرسى من الطود المنيف.

ولعل الذين ذهبوا إلى هذا القول لم يذهبوا إليه إلا كرهاً، بعدما عجزوا عن التوفيق بين الآيتين، ولو أنهم ظهر لهم الوجه الصحيح، الذي هدانا إليه التأملُ في نظم هذه الآيات، لكانوا أسرع الناس إليه، وأبعدهم مما قالوا.

٩- المتاع حق لكل مطلقة، سواء كانت مدخولاً بها أو غير مدخولٍ بها، وسواء كانت مفروضاً لها المهر أو غير مفروض لها، فإن السياق هنا أطلق لفظ (المطلقات)

---

(١) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

(٢) تفسير البحر المحيط: ٢/٢٤٦.

من غير وصف ولا تحديد ولا استثناء.

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن العبارة جاءت في سياق المطلقات غير المدخول بهن ولا المفروض لهنّ هكذا: ﴿مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة]، وجاءت في سياق غيرهنّ هكذا: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

هذا النظم يفيد أن المطلقات الأخريات أحق بالمتاع من المطلقات غير المدخول بهن ولا المفروض لهن، فإن المسلم مطالب بالتقوى قبل أن يطالب بالإحسان. والتقصير في الإحسان قد يُتغاضى عنه، وأما التقصير في التقوى فلا خلاص للمرء من عقوبته إلا مَنْ رحم الله.

ومن هنا نرى المتعة واجبة لكل مطلقة، كائنة من كانت، ومن أي نوع كانت.

تلك حقائق تنكشف لنا حين نتأمل في نظم تلك الآيات وسياقها، ولا شك أنها بأجمعها تضع ثقلها في كفة الذين يقولون بمحكّمية تلك الآيات وسريان حكمها، دون من يقول بنسخها.

سر الفصل بين البيان والمُبيَّنِ عنه:

وقبل أن نغادر تلك الآيات إلى ما بعدها، نود أن نعالج شبهة قد تثور عنها في ذهن الدارس، وهي أنها إذا كانت بياناً لآية المتاع: (٢٣٦) فلماذا لم توضع في جنبها؟ ولماذا تخللت تلك الآيات آية المحافظة على الصلوات؟

والردُّ على هذا السؤال يكمن في استحضار تلك الصلة الماسة، التي توجد بين الصلاة وبين تلك الشرائع، فالصلة بين هذه وتلك أمسُّ من الصلة بين البيان والمبيّن عنه.

وما كانت هذه النكتة لِتُدركَ لولا أن الأمر كان على ما هو عليه الآن.

ثم إن هذه الآية - آية المحافظة على الصلوات - مرتبطة في أصلها بالأسئلة السبعة، التي وُجِّهتْ إلى النبي ﷺ وقد بيناه فيما مضى.

فكان الموقف يقتضي أن توضع هذه الآية بعد الأسئلة مباشرة، بدون أن يكون بينها وبينها أي فاصل، إلا أن الموضوعات التي تبعت السؤالَ الأخير وتفرعت منه وتشعبت كانت متلاحمة ومتداخلة بعضها في بعض، بحيث لم يكن في النص لتلك الآية مكان مناسب إلا بعد ما انتهى من تلك الموضوعات.

وبعدما انتهى النص من تلك الموضوعات جاء بتلك الآية، ولم يترك الآيات التي جاءت للبيان تأخذ مكانها إلا بعدها.

فإن الموقف الذي أشرنا إليه كان يتطلب ذلك، بالإضافة إلى أن هذا الفصل ما كان ليخدش أو يشوش تلك الصلة القائمة بين تلك الآيات والآيات التي اقتضت ذلك البيان.

بل يبين ذلك للقارىء الوضع التاريخي لتلك الآيات، حيث أنها نزلت منفصلة ونزلت بعد تلك الآيات، التي كانت تنتظر ذلك البيان، بفترة.

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها. فنحمده تعالى ونشكره ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٢٤٣-٢٥٢)

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا
ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ
يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ
لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا
أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ
يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ
وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ
مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ

دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

* * *

قبل أن نخوض في البحث عن مناسبة تلك الآيات لما قبلها نود أن ننبه إلى أمرين لم ينتبه لهما أكثر الناس، ومن هنا صعب عليهم التوصل إلى وجوه المناسبة فيها، كما صعب عليهم التوصل إلى الرؤية الواضحة لمراميها وأهدافها.

الأمر الأول:

يقول الزمخشري - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾:

«فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتةَ رجلٍ واحد بأمر الله ومشيئته، تلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أُمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف»(١).

ذلك ما قيل في تأويل هذه الآية، والذي نلاحظه في عبارات المفسرين - رحمهم الله - هو أنهم جميعاً يجدون أنفسهم أمام إشكال يلح عليهم، وهو: ما هو السبب في اختيار هذا الأسلوب ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ ولماذا لم ترد الآية هكذا: (فأماتهم الله ثم أحياهم) مثلما جاء في نفس السورة في قصة الذي مَرَّ على قرية، حيث قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]، ولماذا اختلف الأسلوب في الموضعين إنْ كان مدلولهما واحداً؟

لقد حاول المفسرون - رحمهم الله - أن يتخلصوا من هذا الإشكال بشتى الأجوبة ولكنها لا تخلو من ضعفٍ وتكلف.

ولقد نقل أبو حيان - رحمه الله -عن بعض السلف، أنه قال في تفسير هذا الموت: «معنى إماتتهم تذليلهم تذليلاً يجري مجرى الموت فلم تغن عنهم كثرتهم وتظاهرهم من الله شيئاً ثم أعانهم وخلَّصهم ليعرفوا قدرة الله في أنه يُذِلُّ من يشاء ويعز من يشاء»(٢).

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٧٧-٣٨٧.

(٢) تفسير البحر المحيط: ١/ ٢٥١.

ويظهر لنا هذا القول أرجح من غيره حين نتأمل في هذه الآية في ضوء نظيرها من سورة آل عمران حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران].

فما أشبه قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾.

إذاً فليس هناك مانع من أن نستعين بإحدى الآيتين في تفسير الأخرى والقرآن يفسر بعضُه بعضاً.

يقول ابن عطية - رحمه الله - في تفسير: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم. قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا يتجه أن يدعى عليهم بهذا مواجهةً وغير مواجهة. وقال قوم: بل أُمِرَ النبيُّ ﷺ وأمته أن يواجهوهم بهذا. قال القاضي أبو محمد: فعلى هذا زال معنى الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاظة»(١).

ومما لا يخفى أن معنى التقريع والإغاظة جاء في هذه الآية بزيادة قوله تعالى: ﴿بِغَيْظِكُمْۗ﴾ وإذا جاء ﴿مُوتُواْ﴾ بدون هذه الزيادة كما جاء في الآية التي نتحدث عنها، انصرف المعنى من التقريع والإغاظة إلى الخذلان وإمساك النصر وإلقاء الحبل على الغارب.

وهذا الذي حصل مع هؤلاء القوم فإنهم لما جبنوا ونكصوا وهربوا من الجهاد في سبيل الله وخرجوا من ديارهم وهم في كثرة كاثرة وجمع غفير خذلهم الله ووكَلَهُم إلى أنفسهم فبقوا يتيهون في الأرض عشرين سنة(٢).

ثم تابوا فتاب الله عليهم، وكتب لهم العزّ والحياة بعدما طال شقاؤهم وطال هوانهم، حتى صاروا كأنهم أموات.

هذا الذي ذهب إليه أستاذنا الإمام أبو الأعلى المودودي والأستاذ السيد محمد رشيد رضا - رحمهما الله - في تأويل الآية(٣).

وهذا الذي نميل إليه بحكم سياق الآيات ونظامها، بالإضافة إلى ما ذكرنا له من

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٢١٠.

(٢) انظر سموئيل: باب ٧، آية ٢.

(٣) انظر تفهيم القرآن: ١/ ١٨٤، ومختصر تفسير المنار: ١/ ٢٣٢.

شواهد ومؤيدات. وسيزداد الأمر وضوحاً حين نتكلم عن سياق الآيات ونظامها، ونكشف القناع عن وجوه مناسبتها لما حولها.

الأمر الثاني:

ذهب الناس إلى أن تلك الآيات، التي نتحدث عنها، تعرض علينا قصتين مستقلتين، لا صلة لإحداهما بالأخرى، حتى قيل إنه يفصل بينهما من الزمان ما يقارب مائة عام فأكثر.

ولا ندري ما الذي ذهب بهم إلى هذا الرأي؟

فإن كانوا قد لجؤوا إلى هذا الرأي بسبب روايات واردة بهذا الشأن، فهي كلها لينة الأسانيد[(١)]، وهي لا تصلح أبداً لأن يبنى عليها رأي علمي أو يعتمد عليها في تأويل آية.

وإن كانوا قد لجؤوا إليه مستندين إلى تكرار (ألم تر؟) فذلك لا يدل على اختلاف القصة واختلاف أبطالها.

فقد يتكرر (ألم تر؟) والقصة هي هي، وأبطالها هم هم، وإنما تختلف الجهات التي يُرادُ التنبيه إليها.

نأخذ - على سبيل المثال - الآيات التالية:

١ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ (٤٤) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) ﴾ [النساء].

٢ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء].

٣ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) ﴾ [النساء].

٤ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (٦٠) ﴾ [النساء].

٥ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/٢٤٦.

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟... إلخ ﴿٧٧﴾ [النساء].

فقد تكرر (ألم تر؟) في هذه السورة خمس مرات، مع أن الطائفة المشار إليها واحدة لم تختلف ولم تتغير، وإنما اختلفت الجهات واختلفت النواحي التي يراد التنبيه إليها.

وعلى أية حال فليس هناك أي شيء يجرّنا إلى القول بأن تلك الآيات تقص علينا قصتين مستقلتين مختلفتين؛ بل الراجح أن القصة الواحدة هي التي عرضت علينا مرتين، مرة بالإجمال وأخرى بالتفصيل.

وعرضت في المرة الأولى بسرعة هي أشبه بسرعة البرق، فذكر فيها طرفا الحديث (البداية والنهاية: خذلانهم وإسلامهم للموت ثم إحياؤهم) مع التنبيه على النقاط الرئيسية التي تستفاد من تلك القصة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

ثم عرضت القصة بالتفصيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... إلخ﴾.

وكان ذلك أقرب لبلاغة القول، فإن القصة إذا أُجملت وعرضت كلمح البرق، تَوقَّدَ الذهن وتعطش واستعد لتلقي التفاصيل، إضافة إلى ذلك أن القرآن لم يقتصر على إجمال القصة، بل شد انتباههم إلى الأهداف والمعاني التي تعنيهم منها.

وهذا كما يزيد الشوق لهيباً وتأججاً، فكذلك يصرف الذهن على النحو الذي تريده القصة ويساعده على الاتعاظ بها أكثر فأكثر.

رأي ابن عباس:

وهذا القول الذي قلناه من كون القصة قصة واحدة، شبيه بما روي عن ابن عباس فقد أخرج ابن جرير عنه - رضي الله عنه - في قوله تعالى: (حَذرَ الموتِ) قال: فراراً من عدوهم، حتى ذاقوا الموت الذي فروا منه، فأمرهم فرجعوا، وأمرهم أن يقاتلوا في سبيل الله، وهم الذين قالوا لنبيهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ٥٩٠.

الرفيع، ولا يمكن أبداً أن يدرك تلك النكتة ويقبلها عن طمأنينة وقناعة.

وقد بينا قبل ذلك أن وجه الخطاب في هذه الآيات بل في معظم هذه السورة إلى هذا الصنف الخاص من الناس، الذين أعلن عنهم القرآن في مستهل هذه السورة حيث قال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة].

ومن هنا لا يستبعد أن تكون قد ثارت في الأذهان بتلك المناسبة هذه التساؤلات الساخرة:

كيف الاستعانة بالصبر والصلاة؟

وهل يجدي الصبر والصلاة إذا أقبلت إلينا جحافل الأعداء؟

وماذا يغني الصبر والصلاة عن العدد والعدة، حتى نستعين بالصبر ونحافظ على الصلاة؟

إن الصلاة بلا ريب - لا تقدم شيئاً ولا تؤخر فلماذا هذا التركيز عليها؟

إن موقع هذه الآيات ونظمها وسياقها ولونها وأسلوبها، كل ذلك يوحي إلينا أن مثل هذه التساؤلات ثارت في تلك الأذهان المريضة، وكان طبيعياً أن تثور.

فجاءت تلك الآيات تعالج هذه التساؤلات بأن قصت عليهم قصة من قصصهم التي كانت معروفة عندهم، وكان أبلغَ وأقوى ردٍّ على تساؤلاتهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ؟ ﴾.

ألم تر؟ إنه للتشنيع والتفظيع وليس للتعجيب كما قيل.

فالفعلة كانت شنيعة وفظيعة حقاً، أنْ يحذروا الموت ويخرجوا من ديارهم وهم ألوف!

وإذا كانت المواقف تكسب بالعُدد والعتاد فلماذا خرج هؤلاء من ديارهم وهم بذلك العدد الضخم الهائل؟! فقد قيل إنهم كانوا ثمانين ألفاً، وإن كان هناك من يقول: إنهم كانوا أربعين ألفاً أو ثلاثين ألفاً[1].

وعلى أي تقدير فقد كانوا في عدد ضخم هائل بلا شك، ومع ذلك خرجوا من

---

(١) انظر المحرر الوجيز: ٢/ ٢٤٧.

ديارهم وحذروا الموت ولم يقفوا حتى يجابهوا العدو.

هذه واحدة.

ومرة أخرى: لما فَصلَ بهم طالوتُ لكي يجاهد معهم جالوت وجنوده، جبن هؤلاء وأحجموا ورفضوا بكل وقاحة أن يستجيبوا لملكهم وزعيمهم في ذلك الموقف الحرج، مع أنهم هم الذين اقترحوا على نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله.

فلماذا جبن هؤلاء ولماذا أحجموا عن القتال، فالقتال لم يُفرضْ عليهم فرضاً، وإنما كان ما كان على طلبٍ منهم؟

هل فعلوا ذلك لأنهم كانوا في قلة؟ كلا! فقد كانوا يومئذ على أقل تقدير سبعين ألفاً وإلا فقد قيل: ثمانين ألفاً، وقيل: مائة ألف[1].

ومع ذلك هم خافوا وهابوا وجبنوا ونكصوا وقالوا بكل وقاحة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

ثم ماذا صار؟ الحفنة القليلة من المؤمنين الخاشعين المصلين، الذين يخافون أنهم ملاقو رَبِّهم، والذين لم يكن عددهم يتجاوز ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً[2]، نادوا ربهم واستعانوا به: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ثم اقتحموا المعركة وحققوا انتصاراً رائعاً على عدوهم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

وهكذا كانت تلك القصة رداً وافياً مُسْكِتاً على تساؤلاتهم، وكانت دليلاً واضحاً على أن القوة هي قوة الإيمان، وهي التي تصنع الأعاجيب على أيدي رجال قليل عزل. وإذا لم تكن هذه القوة فالألوفُ المؤلفة والجحافل المدججة تصبح غثاء كغثاء السيل.

---

(١) زاد المسير: ١/٢٩٧.

(٢) أخرج ابن جرير بسنده عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: (أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي) وكان أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة مائة وبضعة عشر رجلاً. انظر: تفسير الطبري: ٢/٦٢١.

ومن هنا تبرز أهمية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴿١٥٣﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾.

ومن هنا نعرف الحكمة في عدم إعفاء المسلمين عن الصلاة في أي حال من الأحوال حتى ولو كانوا في حومة الهيجاء: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾.

وتزداد روعة هذه القصة ويزداد وقعها في النفوس حين ندرك انسجامها الكامل مع الجو، وندرك أن الذين سيقت لهم القصة رداً على تساؤلاتهم لم تكن معنوياتهم تختلف عن معنوياتهم، بل كانت تشاكلها تماماً في ضعفها وانهيارها، وهم أيضاً كانوا يحذرون الموت كما كان يحذر أسلافهم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف.

ولقد رسم القرآن حَذَرهم في مطالع هذه السورة كما رسم حذر أسلافهم في آخرها فقال: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

ولقد تناولنا هذا التمثيل الرائع المثير بالبيان والتفصيل في موضعه فلا داعي لأن نعود إليه.

وأيضاً مضى معنا قوله تعالى في أثناء أسئلتهم المتكررة: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

وهذا أيضاً يعطينا صورة واضحة عن الخوف والهلع الذي كان يعاني منه هؤلاء القوم.

هذه ناحية.

ومن ناحية أخرى فإننا إذا وقفنا عند تلك الآيات وقفة إمعان وتأمل وجدناها في صورتها العامة وكأنها جاءت بياناً وإيضاحاً لتلك المجموعة من الآيات التي ترتبط بها على سبيل العود على البدء.

فقد مضى معنا قوله تعالى في تلك المجموعة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

وهنا نرى مثالاً عملياً وشاهداً منظوراً لذلك الوعد الإلهي الكريم، حيث أن الحفنة

القليلة من المؤمنين الخاشعين من أصحاب طالوت لما واجهوا الموقفَ بصبر وصمود، من غير وهنٍ ولا ضعف ولا استكانة، وانقطعوا إلى الله انقطاعاً كاملاً متجهين إليه بهذا الدعاء الضارع الخاشع: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

أنجز الله وعده فأفرغ عليهم الصبر وأنزل عليهم النصر: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ مع أن الأسباب الظاهرة كلها كانت تبدو ضدّهم وكانت تقضي عليهم بالنكسة والهزيمة.

وهكذا نرى هذه الآيات قد جاءت تفسر لنا تفسيراً عملياً قوله تعالى في تلك المجموعة السابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وأيضاً مضى معنا قوله تعالى في تلك المجموعة: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾.

فنبهت هذه الآية بشكل إجمالي إلى سنة من سنن الله في أهل الدعوة، وهي الامتحان والابتلاء، ونبهت إلى أن المؤمنين سيجتازون - ولا بد - هذا الابتلاء في أشكاله المتنوعة.

ثم جاء السياق هنا بمثال عملي يوضح لنا أبعاد هذا الابتلاء ويُشَخِّص حكمته وأهميته في قوم يريدون أن ينهضوا بأعباء الدعوة: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ... الآية﴾.

فندرك من هذا المثال أن الابتلاء - مع مرارته - كان طهارة لتلك الجماعة المؤمنة الصابرة من العناصر الفاسدة، وهو الذي حفظ لتلك المعركة ميزتها وحفظها من أن تتحول إلى مأساة مخزية.

وبعبارة أخرى، إن الابتلاء هو الذي جلب النصر لتلك الفئة القليلة المؤمنة، وحَوَّلَ تلك المعركة الحاسمة إلى بطولة من البطولات الفذة الرائعة لتلك الجماعة.

ثم هناك شيء آخر نود أن ننبه إليه في سياق مناسبة هذه الآيات لتلك وهو أن ذلك الصنف الخاص من الجماعة المسلمة الذي وجه إليه الخطاب في تلك الآيات، لما

سمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، فكأننا نراه قد استغلق عليه ذلك القولُ واستعصى عليه فهمه فإن القتل والحياة في بادئ النظر شيئان متناقضان لا يجتمعان، فكيف يجوز أن يقتل ناس ثم يقال إنهم أحياء!

ومن هنا اقتضى المقام أن تُبيَّنَ للناس حقيقةُ الموت والحياة، فجاءت تلك الآيات تبين للناس هذه الحقيقة وترتفع بمداركهم من أفقها المعهود إلى أفق أعلى وأوسع.

ولا شك أن هذه القصة، التي قصها القرآن علينا في تلك الآيات كانت مادة صالحة وأداة طيبة لتقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان.

فالقوم لما هربوا في المرة الأولى من الجهاد وخرجوا من ديارهم حذر الموت، دخلوا في قائمة الأموات بمجرد هروبهم من الموت، ولو كانوا يأكلون ويشربون ويمشون ويركضون.

فإن الذي يهرب من الموت يوفر دليلاً على أنه ميت قبل أن يموت، وأنه لم يذق طعم الحياة، ولم يعرف ما هو الموت وما هي الحياة.

فإن الحياة ليست عبارة عن الأكل والشرب أو المشي والحركة وما إلى ذلك كما أن الموت ليس عبارة عن انعدام هذه الأمور، وإنما الحياة عبارة عن الاتصال بمن يملك الموت ويملك الحياة، ويوزعهما كيف يشاء، فمن اتصل بمن يملك الموت ويملك الحياة وجاهد في سبيله حتى نال رضاه فقد كسب الحياة، وهو حي، سواء عاش على ظهر الأرض أم توارى تحت التراب.

وهؤلاء هم الذين يعيشون وهم أحياء ويموتون وهم أحياء!

والذين يقاتلون ويستميتون في سبيل الله ينتصرون على الموت، قبل أن ينتصروا على أي شيء آخر، فإن قُتلَ هؤلاء فليس معنى ذلك أنهم فارقوا الحياة أو حرموا من الحياة، أو اختطفهم الموت وذهبوا أدراج الرياح. وإنما الواقع أنهم نالوا الحياة في أروع صورها وأحلاها وإن كنا لا نراها ولا نشعر بها.

وتلك الحياة هي التي تطول وتمتد، وتنمو وتزدهر، ويصحبها العز والمجد وتصحبها الكرامة والشرف.

وأما الحياة التي تنقطع عن أصلها ولا نعرف خالقها وواهبها، فهي تكون أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، وهي التي تهاب الموت وتخشى الجهاد، وتبقى ما تبقى في ظل الذل والهوان وسخط الله.

وهذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن حيث قال: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾.

قال لهم: ﴿مُوتُواْ﴾ لما هابوا الموت وهربوا من القتال في سبيل الله.

ثم لما انتبهوا وأفاقوا وتداركوا ما فاتهم وخاضوا معمعة القتال في سبيل الله كتب لهم الحياة وآتاهم الملك والحكمة وعلمهم مما يشاء.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

فالحياة والملك والعلم والحكمة كل أولئك من خيرات الجهاد وبركات القتال في سبيل الله.

والأمة المجاهدة هي التي تملأ أيديها من هاتيك النعم، وتعيش ما عاشت عزيزة كريمة متدفقة بالحياة وأسباب الحياة.

والجدير بالذكر أن القرآن كما يصرح بحياة المجاهدين في سبيل الله في هذه الدنيا وفيما بعدها، يصرح بموت مَنْ كفر بالله واستغنى عنه في هذه الدنيا وفيما بعدها كما نرى في تلك الآيات:

١- ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل].

٢- ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الروم].

٣- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام].

٤- ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم].

فتلك الآيات كما أنها تحكم على الكفار بأنهم أموات في هذه الدنيا، وإن كانوا –

حسبما ترى العين - أحياء يمشون ويتحركون، فكذلك تخبر عن كونهم أمواتاً في الآخرة، بحيث يأتيهم الموت من كل مكان، إلا أنهم لا يموتون ليذوقوا العذاب فهم يكونون أحياء وكأنهم أموات.

وبهذا نعلم أن الصلة بالله والقتال في سبيله هو سر الحياة في هذه الدنيا وفي الآخرة، والأمة المجاهدة هي التي تذوق لذة الحياة في الدارين.

وأما الأمة المتقاعسة المتخاذلة، التي تحذر الموت وتقعد عن مهمة القتال في سبيل الله، فلا حظَّ لها من الحياة، وإنما لها الموت، كما حصل مع بني إسرائيل في فترات من تاريخهم. وكما يحصل معنا اليوم، فإلى الله المشتكى!

والآن وقد انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها، نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيتين (٢٥٣-٢٥٤)

قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

* * *

لقد أشكل على الناس وجه ارتباط الآية الأولى بما قبلها، ولم نجد عند أحد منهم ما يسمن أو يغني من جوع.

فعموم المفسرين - رحمهم الله - لم يطرقوا رأساً هذا الموضوع، والذين طرقوه مثل الإمام الرازي والإمام أبي حيان فهم أيضاً لم يعطوه من الاهتمام ما كان يستحقه.

والذي نلاحظه في مقالهما هو أن أحدهما يركز على مطلع الآية دون بقية أجزائها[١] والثاني يلتمس للمناسبة وجهاً لا ينسجم مع جو الآية ومضمونها، بالإضافة إلى أنه لم

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٢٧٢.

يكن دقيقاً في مراعاة معنى الاقتتال[1].

والاقتتال هو الذي تركز عليه الآية، حيث جاء ذلك متكرراً فيها: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

فإن ذهلنا عن معنى الاقتتال فسيرمينا هذا بعيداً عن هدف الآية ومضمونها، كما حصل مع أبي مسلم وغيره من المفسرين - رحمهم الله -.

تحقيق معنى (الاقتتال):

ومن العجب أن كتب اللغة والتفسير لا تسعفنا بالمقصود إذا أردنا أن نعرف الفرق بين القتال والاقتتال، وبالعكس نرى المفسرين - رحمهم الله - قد خلطوا بعضهما ببعض.

والذي يترجح عندنا في معناهما بعد تقصي استعمالاتهما، هو أن الاقتتال يكون دائماً بدافع المصالح الشخصية العارضة أو الحزازات الجنسية الممقوتة، ولا يكون وراءه هدف رفيع أو غاية نبيلة.

أما إذا كان هناك هدف رفيع أو غاية نبيلة، وكانت الحرب بالدافع الديني النزيه، كما تكون بين الإيمان والكفر والحق والباطل فإن ذلك يسمى قتالاً وليس اقتتالاً.

وعلى هذا فالاقتتال يكون دائماً شؤماً على المجتمع، ولا يأتي إلا بالهلاك والدمار والشر والفساد، بينما القتال يكون خيراً ورحمة وهناء وسعادة إذا كان بدافع الإصلاح ودفع الفساد.

ولذلك نرى القرآن كلما دعا إلى محاربة الكفر أو مقارعة الباطل، فإنه يستعمل لفظ (القتال) دون لفظ (الاقتتال).

وقد استعمل القرآن لفظ (القتال) في موضع المدح أو التحريض في مختلف صيغه ومشتقاته أكثر من أربعين مرة، ولكن لم يستعمل لفظ (الاقتتال) إلا أربع مرات، وكله في موضع الذم والاستنكار، وهو كما يلي:

١- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

---

(١) التفسير الكبير: ٦/ ١٩٤-١٩٥.

٢- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

٣- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۝١٥﴾ [القصص].

٤- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۝٩﴾ [الحجرات].

أما الموضعان الأولان فسيتضح أمرهما بإذن الله حين نتناول تلك الآية في ضوء سياقها.

وأما الموضعان الأخيران فهما واضحان في معنى الذم والاستنكار، وليسا بحاجة إلى بيان أو إيضاح.

إلا أننا نريد أن تكون لنا وقفة قصيرة عند الموضع الرابع وهي آية الحجرات، فإنها جمعت الكلمتين - الاقتتال والقتال - في مكان واحد، وبذلك تساعدنا على إدراك الفرق بينهما، وتمام الآية هكذا: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾.

فالشيء الذي نلاحظه في تلك الآية هو أنها توجه الجماعة المسلمة إلى الإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين.

وهذا يدل على أن الاقتتال يكون في أصله ومن أول أمره مبنياً على الفساد ويؤدي إلى الفساد، فأُمِرَ المسلمون أن يقضوا على هذا الفساد قبل أن يتفاقم أمره بأن يصلحوا بين هاتين الطائفتين.

ثم إنْ حدث أن رأوا البغي وعدم الاستجابة لدعوة الإصلاح من إحدى الطائفتين فهناك أمروا بالقتال - لا الاقتتال - ضد تلك الطائفة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله وحتى يتمكنوا من إقامة القسط والإصلاح بينهما بالعدل.

وهذا الاختلاف في الاستعمال يُكسِبُ لفظ (القتال) نوعاً من السمو والشرف والنزاهة، ويجعله نظير الكلمة (الجهاد) بخلاف الاقتتال فإنه مقبوح مرذول، ولا يأتي إلا بالويل والثبور.

وحان لنا بعد هذا الإيضاح أن ندلي بدلونا في بيان مناسبة تلك الآية لما قبلها.

لقد مضى معنا في نهاية الفقرة السابقة قوله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

تلك النهاية تُعلمنا أن الله ما أرسل مَنْ أرسل من الرسل إلا ليطهِّرَ الأرض من الفساد. وكان القتال في سبيله جزءاً من وظيفتهم، حتى يتمكنوا من القيام بهذه المهمة العظمى.

وبما أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - منهم، فلا غرو أن ينظم صفوف القتال ويقيم عَلَمَ الجهاد، كما فعله إخوانه من قبل.

وكما أن أصحاب طالوت لما استعانوا بالله وصبروا كسبوا المعركة ضد عدوهم، على الرغم من كثرة عَددهم وعُدَدهم، فكذلك ستكون الغلبة لأصحاب محمد، وسَيُهزم الجَمْعُ ويولُّون الدُّبر.

وهذا كما أنه تنبيه للفريق الذين كانوا يكرهون القتال ويفرون من الجهاد خوفاً من الموت فكذلك تقريع وتسفيه لفريق آخر منهم، قد ملأتهم السفاهة والعنجهية والعصبية المنتنة الخبيثة، فكل واحد منهم تعصب لرسوله الذي ينتمي إليه، وأبى أن يؤمن برسول غيره، محتجاً بأن رسوله أفضل من غيره.

فزعمت اليهود - مثلاً - أن موسى أفضل من غيره، فإن الله خصه بميزة لم يخص بها غيره، حيث كلمه تكليماً، وهذا شرف يتفرد به موسى ولم يحصل لأحد سواه.

وزعمت النصارى أن عيسى أفضل من غيره لما أن الله آتاه من البينات، ما لم يُؤْتِ أحداً غيره، فكلم الناس في المهد، وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص إلى آخر ما هنالك من الآيات البينات.

وبناء على هذا افتخرت كل طائفة منهما على غيرها.

فقالت اليهود: ﴿ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴿١١٣﴾ ﴾.

وقالت النصارى: ﴿ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴿١١٣﴾ ﴾.

وقالت اليهود: ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴿١١١﴾ ﴾.

وقالت النصارى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ كُنتُمْ ﴿١١١﴾﴾.

وقالت اليهود: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴿١٣٥﴾﴾.

وقالت النصارى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾.

وقالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة].

وقالت النصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

وهذه العنجهية والغطرسة والعصبية المنتنة الخبيثة كما زرعت العداوة والبغضاء في قلوب بعضهم لبعض، وأدتهم إلى اقتتال ضروس فيما بينهم، فكذلك صَدَّتهم عن الإيمان بمحمد - عليه الصلاة والسلام - حين جاءهم، وحملتهم على الكيد والمكر بهذه الدعوة الناشئة المباركة التي بشر بها موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - قبل ظهورها بقرون.

ولقد مضت الإشارة إلى هذه الطائفة الباغية في نفس السورة بصفتها تلك حيث قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة].

وهذه الطائفة هي التي قرأنا عنها في مطلع السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة].

وهذه الطائفة التي يصورها التمثيل القرآني المثير بهذه الصورة القاتمة المخزية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة].

فجاءت تلك الآية تبرهن عن سفاهتهم وسوء تصرفهم: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية.

إن هؤلاء الرسل كلهم أسرة واحدة. كلهم رسل الله. وكلٌّ أُوتي من الفضل ما كان يناسبه ليكون له عوناً في أداء مهمته، فالفضل موزع عليهم وليس موقوفاً على أحد

منهم.

إذاً فليس من المعقول أن يكون هذا الأمر مَبعثَ خصام ونزاع وصراع فيما بين أتباعهم، حتى يفضي ذلك إلى الكيد للحق وأهله وإلى الكيد لرسل الله على رغم ما جاءهم من البينات.

وبالعكس كان من واجبهم أن يتعاضدوا ويتكاتفوا ويحشدوا طاقاتهم للمهمة التي بعث لأجلها هؤلاء الرسل، وهو القتال في سبيل الله، حتى يتحطم الطاغوت ويزول الفساد من الأرض.

وكان من واجبهم كذلك أن يكونوا أول مستجيب لرسول يأتيهم من عند ربهم ولكنهم عكسوا الأمر فأخذوا يقتتلون فيما بينهم، وكلما جاءهم رسول كذبوه، وبذلك أسهموا في نشر الشر وجلب الفساد، على خلاف ما كان ينتظر منهم.

فإذا عدل هؤلاء عن الطريق وتخلوا عن مهمتهم، فإنهم لا يضرون إلا أنفسهم، فإن الله ذو فضل على العالمين، وهو، لا محالة، دافعٌ هؤلاء المفسدين بأيدي هؤلاء المؤمنين، حتى لا تفسدَ الأرضُ، ويبقى لها صلاحها وخيريَّتها.

ولما انتهى النص من تنبيه هاتين الطائفتين من بني إسرائيل أزجى إلى المؤمنين هذه النصيحة الغالية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها تتجلى بوضوح حين ندرك أن المرض الذي كانت تعاني منه الطائفة الأولى - وهو حَذَرُ الموت أو كراهية الموت، والمرض الذي كانت تعاني منه الطائفة الثانية - وهو البغي والخصام، كان منشأهما حب المال وحب الدنيا.

ونستدل على الأول بما قالته الطائفة الأولى، حين قال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ٢٤٧﴾.

فكان هؤلاء القوم يقيسون كل شيء بمقياس المال، وكانوا يَزِنُونَ الأمورَ بهذا الميزان، وكان المال قد مَلَكَ عليهم لبّهم، حتى لم يعودوا يتصورون أي ميزة أو أي شرف في رجل لا تراكمُ عنده الأموال.

فهذا الحبّ الجمّ للمال هو الذي أصابهم بداء الجبن وكراهية الموت، وحملهم على أن يقولوا بكل وقاحة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴿٢٤٩﴾﴾.

ونستدل على الثاني بقوله تعالى - وقد مر آنفاً -: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

هؤلاء الكفار هم الذين كانوا يعانون من داء البغي وكانوا يختلفون ويقتتلون من بعد ما جاءتهم البينات، كما تصرح الآية التي بعدها: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

فهؤلاء الكفار كانوا يسخرون من الذين آمنوا لأنهم زُيِّنت لهم الحياة الدنيا، وكانوا مغترين بما يملكون من شهواتها وزخارفها، في حين كان فيه المؤمنون يعانون من الجوع وشظف العيش ما كانوا يعانون، ولم يكونوا يملكون قُوتَ يومهم أو ليلتهم.

وبالجملة فداء الجبن وداء البغي كلاهما ينشآن من حب المال وحب الدنيا، فبعد ذكر هذين الداءين ذُكِرَ دواؤهما، وهو الإنفاقُ في سبيل الله أو الإنفاق لوجه الله.

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما نتوجه إلى ما بعدهما.

* * *

نظم الآيات (٢٥٥-٢٦٠)

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ

﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

* * *

لقد مر معنا في الفقرة السابقة أن يوم القيامة لا يكون فيه بيع، ولا تجدي فيه خلة خليل ولا شفاعة شافع، فانتهز السياق هذه الفرصة السانحة، وجاء بعدها مباشرة بآية الكرسي، وهي أجمعُ آية وأشملها وأقواها في إبطال الشفاعة وتهديم بنياتها، فإن الشفاعة التي يعتقدها الغافلون أو الكافرون الظالمون تتعارض تعارضاً مباشراً مع صفات الله وأسمائه الحسنى.

هي تتعارض مع قدرته الكاملة وسلطته الواسعة ومراقبته الدقيقة وعلمه المحيط، الذي لا نهاية له.

فإنها لا تتصور إلا إذا افترضنا - والعياذ بالله - أنه تعالى ينقصه العلم وهو لا يحيط بكل شيء علماً، إذاً فالمجال مفتوح أمام الشافعين حتى يقوموا بوظيفتهم ويزكّوا من يشاءون من أوليائهم، كائناً ما كان وضعهم.

أو افترضنا - والعياذ بالله - أنه تعالى لا يملك السلطة الكاملة الواسعة المطلقة، وأن هناك من يتدخل في حكمه ويرغمه على ما يريد من عفو أو عطاء.

فجاءت هذه الآية تنفي هذه الشبهات وتنفي تلك الشفاعة التي كانت قائمة على هذه الشبهات.

هذه ناحية.

ومن ناحية أخرى فإننا علمنا قبل قليل أن قصة طالوت جاءت تكشف عن حقيقة الموت والحياة. وهي تبين لنا - فيما تبين - أن الصلة بالله والقتال في سبيله هو سر الحياة، والأمةُ المجاهدة في سبيله، المتصلة به هي التي تذوق لذة الحياة، وأما الأمة المتقاعسة المتخاذلة، التي تحذر الموت وتقعد عن الجهاد فلا حظَّ لها من الحياة،

وإنما لها الموت.

والآن نرى الكلام عاد إلى هذا الحديث مرة أخرى، حتى يفصله تفصيلاً بعد ما أومأ إليه إيماء.

وبيانه أن الله هو الحي القيوم، فهو الذي يملك الحياة ويمنح الحياة وهو القائم بأمر العباد والبلاد، فمن كان يريد الحياة والبقاء فليسرع إليه، ولا يعدل عنه إلى غيره، فإن فاقد الشيء لا يعطيه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾.

ثم جاءت ثلاثة أمثلة، كلها تتصل بموضوع الحياة والإحياء لتؤكد للناس هذه الحقيقة الهامة، وترسخها في أذهانهم.

ولكي نعرف موضع الاستدلال في تلك الأمثلة الثلاثة، لا بد أن نتأمل في كل جزء من أجزائها، ونستلهم دلالاتها وإيحاءاتها، فإن ذلك سيساعدنا في استيعاب أبعادها وملابساتها، كما يساعدنا في التماس مناسبتها لما قبلها.

القصة الأولى:

يظهر لنا بالتأمل في القصة الأولى أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - جهر بكلمة الحق عند الملك الذي كان قد استولى على رقاب الناس في تلك الأيام، وكان قد استعبدهم ظلماً وعدواً، وأرغمهم على أن يتخذوه إلهاً لهم من دون الله.

ذهب إليه إبراهيم وصدع أمامه برسالة التوحيد، وبيَّنَ له أنه عبدٌ من عباد الله ليس إلاّ، فلا يحقّ له أن يرغم الناسَ على عبادته وينازع الله في ألوهيته وسلطانه.

فاغتاظ الملك لهذا الكلام، وتوعده وهدّده بالقتل، فلم ينل هذا التوعد وهذا التهديد من إبراهيم شيئاً، وردّ عليه بجرأة المؤمن الواثق بربه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: هو الذي يملك الموت والحياة، وهو المتصرف في أعمار الناس، ومثلك لا يقدّمُ شيئاً ولا يؤخر.

وهناك أخذته العزة بالإثم وانتفخ وتبجح وقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، أي: أنا المتصرف في أعمار الناس، وأنا أملك الموت والحياة، فأحكم لمن أشاء بالحياة وأحكم لمن أشاء بالموت، وإذا أردت أن أمحو إنساناً وأمحو آثاره فليس هناك من يمسك بيدي ويمنعني مما أريد.

حينئذ دخل عليه إبراهيم من مدخل آخر وقال: إنْ كنتَ تملُك الموت والحياة، فهذه الشمس يأتي بها الله من المشرق فأتِ بها من المغرب.

ومعلوم أن هذا النظام الذي تجري عليه الشمس له ارتباط مباشر بحياة هذا الكون، وإذا أراد الله أن يطوي هذا الكون ويفني هذا العالم، فحينئذ تطلع الشمس من المغرب.

فطلوع الشمس من المشرق آية الحياة في هذا الكون، كما أن طلوعها من المغرب سيكون دليلاً على فنائه وخرابه.

فلما طلب منه إبراهيم أن يأتي بالشمس من المغرب فكأنه قال له: إن كنت تملك الموت والحياة، فتصرّفْ في حياة هذا الكون، واحكمْ عليه بالموت!

وكانت هذه حجة ظاهرة على أن الله هو الحي القيوم، وهو الذي يملك الموت والحياة، وما كان في حسبان الملك أنه سيؤتى بهذا الشكل، فأُفحمَ وبُهت ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

القصة الثانية:

مر رجل على قرية، وكانت هذه القرية - كما يبدو من السياق - قرية أهل الحق، فدمرها أعداء الله.

ولقد ورد في الروايات أن القرية هي بيت المقدس، والذي دمرها هو بختنصر. يقول الإمام ابن الجوزي - رحمه الله -: «وفي المراد بالقرية قولان. أحدهما: أنها بيت المقدس لما خربه بختنصر، قاله وهب وقتادة والربيع بن أنس»[(١)].

فقال هذا الرجل لما رأى هذه القرية وما بها من دمار وخراب: ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ ﴾.

والذي يترجح عندنا في شأن هذا الرجل، هو أنه كان من الكفار، وهو مما روي عن مجاهد - رحمه الله[(٢)]:

---

(١) زاد المسير: ٣٠٨/١.

(٢) زاد المسير: ٣٠٩/١.

الدليل الأول:

ومما يدل على ذلك هو سياق الكلام نفسه، كما أشار إليه الإمام الزمخشري - رحمه الله - حيث قال: «أو كالذي: معناه: أو أرأيت مثل الذي مر، فحذف لدلالة ألم ترَ عليه، لأن كلتيهما كلمة تعجيب، ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ كأنه قيل: أرأيت كالذي حاجَّ إبراهيم أو كالذي مر على قرية. والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمرود في سلك، ولكلمة الاستبعاد، التي هي أنّى يُحيي؟!»[1].

وهذا الدليل الذي استدل به الزمخشري قوي ووجيه ولا شك.

الدليل الثاني:

ثم إن تقصي هذا الأسلوب - أي: الأسلوب الذي وردت عليه الآية من قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ﴾ يزيدنا ركوناً إلى هذا الرأي ويجعلنا نقطع بصحته، فإن (الذي) وأخواتها كلما جاءت في القرآن بدون ذِكْرِ موصوفها مصحوبةً بـ«أرأيت» أو «ألم تر» أو «الكاف الجارة» وما شابه ذلك، فإنها تتضمن معاني السخط والإعراض والاستحقار، ولا يقصد بها إلا العصاةُ المتمردون المستكبرون.

ولا بأس بأن نمر هنا على بعض الأمثلة، قال تعالى:

﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال].

﴿كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة].

﴿كَالَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿١١﴾﴾ [الحشر].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون].

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٨٩.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النجم].

هذه الأمثلة كلها تعزز الرأي القائل بأن الذي مر على القرية كان من الكفار، بل لا يبعد أن يكون بختنصر هو الذي قال هذه الكلمة الطاغية بعدما دمر تلك القرية، ثم خرج يتفرج عليها.

وعلى أية حال، فانتظامه مع نمرود في سلك واحد إنْ دل على شيء فإنما يدل على أنه كان من طراز نمرود، وكان ممن أطغاهم الملك فتجرأ على الله واستهزأ بقدرته، وزعم أن الله لا يملك أن يعيد لتلك القرية ما فقدتها من الحياة والمجد والكرامة والملك.

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ قال: أنى تُعمر هذه بعد خرابها؟[1].

ولم يكن هذا السؤال سؤال استفهام أو استفسار أو استزادة علم واطمئنان كما زعمه كثير من الناس، وإنما كان ذلك إنكاراً وتمرداً واستبعاداً واستهزاء بقدرة الله.

فلما استهزأ هذا الطاغية بقدرة الله شاءت حكمته - تعالى - أنْ تُريه قدرته الواسعة المطلقة في نفسه، فأماته مائة عام ثم بعثه.

بعثه بعد مائةِ عام ليريه أن تفكيره وتقديره كان خطأ مائة في المائة، فإن تلك القرية المدمرة الخاوية على عروشها قد تحولت في خلال تلك الفترة من موت إلى حياة، ومن ضعف إلى قوة، ومن ذل وهوان إلى عز وسلطان.

فقد روي أن الله بعث إلى تلك القرية من عمرها وردَّ إليها جماعة بني إسرائيل حيث كملت على رأس مائة سنة[2].

وروي أن الله بعث لها ملكاً من الملوك يعمرها ويَجدّ في ذلك، حتى كان كمال عمارتها عند بعث القائل: ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[3].

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قال: إن أرميا لما خرب بيت المقدس وحرق الكتب، وقف في ناحية الجبل

---

(١) الدر المنثور: ٢/ ٣٠.

(٢) المحرر الوجيز: ٢/ ٢٩٣.

(٣) المحرر الوجيز: ٢/ ٢٩٤.

فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾ فأماته الله مائة عام ثم بعثه وقد عمرت على حالها الأول[١].

ثم كما ظهرت قدرةُ الله هذه على صعيد قومي اجتماعي، فكذلك ظهرت مع ذلك الرجل على صعيده الخاص، وكانت هذه صورة مصغرة لذلك الواقع الكبير.

وبيانه أن الطعام والشراب الذي كان مع ذلك المارّ لم يتغير وبقي كما كان صالحاً طازجاً على الرغم من تلك السنين التي مرت عليه.

وأما الحمار فمع قوته وجلده وصلابته لم يصمد لتلك السنين الطوال وأصبح عظاماً بالية نخرة.

فالقوي المنيع بَليَ وتَفتّتَ لما أرادت له قدرةُ الله ذلك.

والضعيف الذي يسرع إليه البلى ويُخشى عليه الفساد لم يتضرر بتقلبات الأيام والأعوام ولم يتأثر بها، ولو تأثراً خفيفاً، حين أحاطه الله برعايته.

إذاً فليست القوة المادية هي كل شيء في هذا الكون، وإنما هي إرادة الله ومشيئته، فهي التي تسيّر الأمور، وهي التي تحكم الظروف، وهي التي تملك الموت والحياة، وهي التي توزّع الفناء والبقاء.

هذه ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الله أنشز عظام ذلك الحمار بعدما بليت ونخرت وكساها لحماً من غير أن يواجه فيه أية صعوبة.

إذاً فهو أقدر على أن يقوّي عظام المهزومين المهضومين، وأقدر على أن يجري في عروقهم ماء الحياة، ثم يعيد لهم الكرة على أعدائهم.

وهذا الذي حصل مع تلك القرية المدمرة الخاوية على عروشها.

ونحن نجد في العهد القديم نفس التمثيل لإحياء أمة قد دُمِّرتْ وانكسرت حتى يئست هي من نفسها واستيأست فضلاً عن أعدائها الذين كانوا يريدون لها العفاء، ولا بأس بأن ننقله هنا حتى يتضح لنا وجه الاستدلال في هذا المثال.

---

(١) الدر المنثور: ٢/٢٩.

ورد هذا التمثيل هكذا: (كانت عليّ يدُ الربّ، فأخرجني بروح الربّ، وأنزلني في وسط البقعة، وهي ملآنة عظاماً، وأمرّني عليها من حولها، وإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة، وإذا هي يابسة جداً. فقال لي: يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟ فقلت: يا سيّد الربّ أنت تعلم. فقال لي: تنبأ على هذه العظام وقل لها: أيتها العظام اليابسة، اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. هأنذا أُدخلُ فيكم روحاً فتحيون، وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب.

فتنبأتُ كما أُمرت، وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعش فتقاربت العظام، كل عظم إلى عظمه. ونظرتُ وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لي: تنبأ للروح تنبأ يا ابن آدم وقل للروح، هكذا قال السيّد الربّ، هلمّ يا روح من الرياح الأربع وهبَّ على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأتُ كما أمرني، فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً.

ثم قال لي: يا ابن آدم، هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يَبست عظامنا وهلك رجاؤنا، قد انقطعنا، لذلك تنبأْ وقُلْ لهم: هكذا قال السيّد الربّ، هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي، وآتي بكم إلى أرض إسرائيل، فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي، وأجعل روحي فيكم فتحيون، وأجعلكم في أرضكم فتعلمون أني أنا الرب تكلمت وأفعل يقول الرب»(١).

القصة الثالثة:

روي في قصص هذه الآية أن الخليل - عليه السلام - أخذ هذه الطير حسبما أُمرَ وذكّاها ثم قطّعها قطعاً صغاراً وجمع ذلك مع الدم والريش، ثم جعل من المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء، وأمسك رؤوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله.

فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش، حتى التأمت كما كانت أولاً وبقيت بلا رؤوس ثم كرر النداء فجاءته سعياً حتى وضعت أجسادها في

---

(١) حزقيال: الإصحاح السابع والثلاثون: ١-١٤.

رؤوسها وطارت بإذن الله تعالى»(١).

ثم اختلف الناس في سبب هذا السؤال، الذي صدر من سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فقال الجمهور: إن إبراهيم - عليه السلام لم يكن شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة، وترجم الطبري في تفسيره فقال: وقال آخرون: سأل ذلك ربه لأنه شَكَّ في قدرة الله على إحياء الموتى، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن آيةٌ أرجى عندي منها. وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ؟﴾ وذكر حيث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: نحن أحق بالشك من إبراهيم.. الحديث. ثم رجح الطبري هذا القول الذي يجري مع ظاهر الحديث، وقال: إن إبراهيم لما رأى الجيفة تأكل منها الحيتان ودواب البرّ ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذه من بطون هؤلاء؟ وأما من قال: بأن إبراهيم لم يكن شاكاً، فاختلفوا في سبب سؤاله، فقال قتادة: إن إبراهيم رأى دابة قد توزَّعتها السباعُ فعجب وسأل هذا السؤال. وقال الضحاك: نحوه، قال: وقد علم عليه السلام أن الله قادر على إحياء الموتى. وقال ابن زيد: رأى الدابة تتقسمها السباع والحيتان لأنها كانت على حاشية البحر، وقال ابن إسحاق: بل سببها أنه لما فارق النمرود وقال له: أنا أحيي وأميت، فكر في تلك الحقيقة والمجاز، فسأل هذا السؤال. وقال السدي وسعيد بن جبير: بل سبب هذا السؤال أنه بُشِّرَ بأن الله اتخذه خليلاً أراد أن يدلّ بهذا السؤال ليجرب صحة الخلة، فإن الخليل يدل بما لا يدل به غيره. وقال سعيد بن جبير: ولكن ليطمئنَّ قلبي يريدُ بالخلة(٢).

ويظهر لنا من تَتَبُّعِ كتب التفسير أن الناس شبه متواطئين على صورة هذه القصة، التي أسلفناها، وإن كانوا مختلفين في سبب حدوثها.

وهنا يتردد في بالنا ما أشار إليه صاحب تفسير المنار، وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ حيث قال - رحمه الله -: «قالوا: والمعنى: جَزِّئهن واجعلْ على كل جبل منهن جزءاً، ورووا أنه ذبح الطيور ونتفها وقطعها أجزاء وخلطَ بعضها ببعض، ولا يدل الكلام على ذلك»(٣).

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٣٠٥.

(٢) المحرر الوجيز: ٢/ ٣٠١-٣٠٢.

(٣) مختصر تفسير المنار: ١/ ٢٥٥.

فإذا كان الكلام لا يدل على ذلك - والواقع أن الكلام لا يدل على ذلك - فكيف ذهب الناس إلى ما ذهبوا إليه؟ وكيف رضوا لتلك القصة بتلك الصورة التي لا يمليها عليهم النص ولا يحملها إليهم اللفظ؟

تحقيق معنى الجزء:

ولعل الذي أوقع الناس في هذه الغلطة هو عدم تَثَبُّتِهِم أو قلة تَحَرِّيهم في تحديد معنى الجزء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فإن (الجزء) يختلف مدلوله باختلاف موقعه.

فجزء الفرد غير جزء الجماعة، وجزء الجماعة أو جزء المجموعة غير جزء الفرد. فإذا قيل - مثلاً - اشتريت جزءاً من الشاة، يكون معنى ذلك: اشتريت بعض أطرافها كالرِّجْلِ أو الكتفِ أو الرأس وما إلى ذلك.

ولكن إذا قيل: اشتريت جزءاً من الغنم، يكون معنى ذلك: اشتريت عدداً من الشياه، أو شاة منها.

فالفرد الكامل أو عدد من الأفراد يعتبر جزءاً من الجماعة.

وعلى هذا إذا كانت أربعة طيور، فكل واحد من تلك الأربعة يعتبر جزءاً منها، ولا يجوز أبداً أن نقول: إن المراد بالجزء هنا أطراف الطير مثل الرجل أو الرأس أو الذنب وما إلى ذلك.

ولقد استعمل القرآن هذا اللفظ بهذا المعنى مرتين ما عدا هذه فقال:

١ - ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر].

٢ - ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الزخرف].

فهذان الموضعان واضحان كل الوضوح، ولا يحتملان معنى غير هذا المعنى، الذي أشرنا إليه.

والموضع الذي نتحدث عنه، أيضاً كان واضحاً كل الوضوح، ولم يكن هناك أي مبرر للعدول عن هذا المعنى، إلا أن الذي أفسد على الناس القضية ، هو أنهم لم

يجدوا في تلك القصة دليلاً على إحياء الموتى، إذا لم يذهبوا إلى المعنى الذي ذهبوا إليه.

هذا التفكير هو الذي زاغ بهم عن الطريق وحملهم على أن يُحمّلوا اللفظَ ذلك المعنى الذي لا يحتمله! وهذا منهج غير سليم، فإن الخطأ لا يؤدّي إلا إلى الخطأ، ولا يمكن أبداً أن نصل عن طريق الخطأ إلى المعنى الصحيح السليم.

فمن واجبنا أولاً أن نبقي اللفظ على معناه، ثم نبحث عن تأويل يوافق ذلك المعنى، ويتضمن دليلاً على إحياء الموتى.

فما هو ذلك التأويل إذاً؟

تأويل الآية:

إن التأمل في تلك الآيات يكشف لنا أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن يسأل عن كيفية إحياء الموتى يوم القيامة، فالإيمان بالحياة الآخرة، أو الإيمان بالبعث بعد الموت من أوليات الإيمان. وما كان لنبيٍّ فضلاً عن أبي الأنبياء - أن يسأل رؤية شيء هو من أولويات الإيمان، فإنه يؤمن به من أول يومه كما يؤمن بالأرض التي يمشي عليها، أو الشمس التي تشرق فوق رأسه.

إنه يؤمن بأساسيات الإيمان ويطمئن بها كما يطمئن بشيء يلمسه بيديه ويشاهده بعينيه.

وليس هذا مقصوراً على النبي فقط، بل المؤمن العادي أيضاً يحصل له هذا الاطمئنان إذا أقبل إلى الله بتجرد وإخلاص، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر].

فالإيمان بأساسيات الإيمان وأولياته ليس موقوفاً على الرؤية والمشاهدة، كما قال مَنْ قال مستنداً إلى قوله ﷺ: (ليس الخبرُ كالمعاينة)[1].

---

(١) فتح القدير: ١/٢٨١.

وهو يحصل للأنبياء ولغير الأنبياء بمجرد الإقبال إلى الله والإيمان بما جاء من عنده بتجرّد وإخلاص، كما نعرف ذلك من الآيات التي أشرنا إليها آنفاً.

وأما القول بأنّه - عليه السلام - لما بشّر بأن الله اتخذه خليلاً أراد أن يُدِلّ بهذا السؤال، ليجرّب صحة الخلة، فإن الخليل يُدلّ بما لا يُدلّ به غيره(1).

فهذا قول لا يستند إلى أساس، وما قاله مَنْ قاله إلا رجماً بالغيب، فإن هذا الدلال ليس إلا من شأن المتصوفة، أهلِ الخرافة والبطالة!

وأما سيدنا إبراهيم - عليه السلام - الذي كان من أخصّ خصوصياته التأوّه والإنابة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

فهيهاتَ هيهات أن يتدلل ذلك الأوّاهُ المنيب على ربه ويقف منه موقفاً يتنافى مع تأوهه وإنابته.

وهنا يبرز السؤال مرة أخرى: فما هو التأويل الصحيح للآية؟

وما هو الاطمئنان الذي كان يريده سيدنا إبراهيم - عليه أفضل الصلوات والتسليم-؟

إن الردّ على هذا السؤال سهل وميسّر بإذن الله، ولكن لا بدّ له من تفصيل.

إن النظرة السريعة العاجلة إلى حياة إبراهيم وإلى تاريخ دعوته تُوقِفنا أمام مشهدين عجيبين، مشهدين مختلفين متباعدين.

أحدهما مظلم قاتم يثير الأسى واليأس! ولا ترى فيه أية بارقة من بوارق الأمل!

والآخر وَضِيءٌ مشرق، يبعثُ الفرح ويدعو إلى العجب! ويفوق كل تقدير وكل حساب وكل ما يحلم به أيّ حالم من البشر!

وبيانه أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لبث في قومه أمداً طويلاً يدعوهم إلى الإسلام وإلى هجر الأوثان، وكم بذل في هذه السبيل من جهد! وكم قاسى فيها من الشدائد والمحن!

---

(1) المحرر الوجيز: ٢/٣٠٢.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟

لم تتجاوز دعوته أن تكون صيحةً في وادٍ أو نفخاً في رماد!

ما آمن به من قومه إلا لوط - عليهما صلوات الله وسلامه -:

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

﴿ وَنَجَّيۡنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء].

ما آمن به إلا رجلٌ واحد فقط! في خلال هذه الفترة الطويلة، الفترة التي لا تقلّ عن خمسة وثلاثين عاماً!

فقد ورد في العهد القديم: (فذهب أبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط، وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران)[1].

وأما الجماهير فكانوا كما قال القائل:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً ولكن لا حياةَ لمن تنادي

هذا مشهد، ويا له من مشهد محزن قاتل!!

* * *

ثم هناك مشهد آخر.

يبشره ربه ببشارة ما بعدها بشارة: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة].

ويَعهدُ إليه عهداً يحمل معنى تلك البشارة، وسيكون سبباً إلى تلك البشارة: ﴿ وَطَهِّرۡ بَيۡتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعۡلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَـٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج].

هذا العهد وتلك البشارة تعني أن دعوة إبراهيم، التي لم يستجبْ لها إلا رجل واحد على مر السنين، والتي لم تصادف من القوم إلا قلوباً ميتة متحجرة، ستنشرح لها الصدور وستفتح لها القلوب، وستقبل إليها أقوام وأقوام، وستسرع إليها أجيال وأجيال! وستنمو هذه الدعوة وتزدهر حتى يسمع صداها من كل فج وصوب،

(١) سفر التكوين: الإصحاح الثاني عشر، آية: ٥.

وسيكون صاحبها، الذي لقي من الناس كل عداء وكل استنكار، إماماً لهم وقدوة إلى يوم القيامة!

هذا مشهد، وذاك مشهد!

مشهدان مختلفان متباعدان في تاريخ هذه الدعوة، دعوة أبينا إبراهيم - عليه أفضل الصلوات والتسليم:

فما ظننا بإبراهيم؟

أليس يأخذه العجب إذا شاهد ذلك المشهد المتكرر المحزن بعينيه ثم سمع هذه البشرى بأذنيه؟

أليس يثور في نفسه سؤال، سؤال كله عجب واستغراب:

كيف يتم هذا التحول العجيب في موقف الناس؟ وكيف يتحول الموت إلى الحياة؟

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ؟﴾ هناك سأله ربه: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أولم تؤمن بهذا الوعد وبهذا العهد؟ قال إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

إن إبراهيم أراد أن يطمئن إلى هذا الوعد وإلى هذه البشرى، مثلما فعل زكريا - عليه السلام - لما جاءته الملائكة يبشرونه بيحيى كما نرى في تلك الآيات:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

إن سيدنا زكريا هو الذي دعا ربه أن يَهبَ له ذريةً طيبة، فلما استجاب الله دعاءه وبشره بيحيى عَجب واستغرب وقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ!!﴾.

ولم يكن هذا العجب وهذا الاستغراب وهذا السؤال لشكٍّ في قدرةِ الله أو لشك في وعده، وإنما كانت طبيعة الموقف هكذا، فأراد أن يتأكد وأراد أن يطمئن.

وهكذا كان الأمر مع سيدنا إبراهيم.

إنه أراد أن يتأكد من وعد الله وأراد أن يطمئن، لا لشك في قدرته، أو لشك في وعده، وإنما كانت طبيعة الموقف هكذا.

موقف كله يدعو إلى العجب والاستغراب.

موقف لا يستطيع الإنسان أمامه إلا أن يتحير وإلا أن يُشْدَه، كائناً من كان، ومن أي طراز كان.

هناك أقبلت إليه العناية الإلهية تعالج حيرته وتَصفُ له ما يطمئن به قلبه: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ولكي نستوعب هذا المشهد لا بد لنا من أن نتأكد أولاً من معنى قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فإنه عَزبَ عن كثيرٍ من الناس وخفيَ عليهم، فأخطؤوا الهدف، ولم يستوعبوا المشهد.

تحقيق معنى ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾:

إن قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ مشتق من صاره يصوره صوراً، أي: أماله. والصَّوَرُ بالتحريك: الميل. ورجلٌ أصْورُ: بيِّنُ الصَّوَرِ، أي: مائلٌ مشتاق. ويقال: صُرْ وجهك إليّ، أي: أَقْبِلْ عليّ. ومنه يقال: عصفور صوار للذي يجيب إذا دعي[1].

ويقال: وأرى لك إليه صورة: أي: ميلة بالمودة. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما -: إني لأُدني الحائضَ مني وما بي إليها صَوَرةٌ إلا ليعلم الله أني لا أجتنبها لحيضها. ويقال: هو أصور إلى كذا: إذا مال عنقه، ووجَّهه إليه. قال:

فقلتُ لها غُضِّي فإني إلى التي تريدين أن أحبو بها غير أصور[2]

إن هذا الاستعراض السريع لكلمة (صور) ومشتقاتها يبين لنا أن هذه الكلمة تتضمن في أصلها معنى الأُنس والشوق والإقبال والميل بالمودة. ومنه قول القائل:

---

(١) انظر الصحاح للجوهري: (مادة: ص، و، ر).

(٢) انظر أساس البلاغة: (مادة: ص، و، ر).

الله يعلــم أنــا فــي تَلفُّتِنــا يومَ الفراق إلى أحبابنا صور(١)

وهذا المعنى موجود في أكثر مشتقاته، فيقال - مثلاً - للشكل: الصورة، لأن الشكل هو الذي يُستأنس به. وهو الذي يجتذب الأنظار ويجلب الشوق والمودة. ويقال: رجلٌ صَيِّرٌ لمن يكون حسن الصورة، فيقبل إليه الناس ويستأنسون به. ويقال للرائحة الطيبة ولوعاء المسك: الصُّوَار، والصوار ككتاب وغراب، لأن الطبائع تميلُ إليه من بعيد وتحبه وتستأنس به، وقد يكون هناك تجريد في المعنى، فيراد مجرد الإقبال إلى الشيء من غير أن يكون فيه معنى الأنس والشوق.

ومنه يقال للقرن: الصور، لأنه يشد الانتباه ويستلفت الأنظار، والقرآن نفسه أشار إلى هذا المعنى حيث قال:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل].

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [القمر].

ومنه يقال: صارة الجبل، أي: أعلاه، فإن أعلى الجبل هو الذي يستلفت النظر، والنظر يقع أول ما يقع على أعلى الجبل.

وهكذا نرى أن الأصل في هذه المادة هو معنى الشوق والإقبال إلى الشيء إذا كان لازماً ومعنى الإيناس والإيلاف إذا كان متعدياً.

ويتأكد هذا المعنى إذا جاءت هذه المادة مع (إلى) كما نرى في الآية: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

فيكون معنى الآية: فأَمِلْهنَّ إليك وآنسهنّ بك حتى يَستجبن لك إذا ناديتهن، ويسرعن إليك إذا دعوتهن، كالعصفور الصوار، الذي يجيب إذا دعي.

وأما القول بأن (صُرْهن) معناه: قطّعهنّ كما ذهب إليه جمع من المفسرين(٢)، فهو

---

(١) انظر لسان العرب: (مادة: ص، و، ر).

(٢) ومن ذهب إلى هذا المعنى الإمام القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٠١)، والإمام ابن كثير: (تفسير ابن كثير: ١/ ٣١٥)، والقاضي ابن عطية: (المحرر الوجيز ٢/ ٣٠٥)، والإمام السيوطي: (الدر المنثور: ٢/ ٣٥).

قول فيه نظر. ولقد أحسن الفراء إذ قال: «وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، ضَمَّ الصادَ العامةُ وكان أصحاب عبدالله يكسرون الصاد، وهما لغتان. فأما الضم فكثير وأما الكسر ففي هذيل وسليم، وأنشدني الكسائي عن بعض بني سليم:

وفَـرْعٍ يَصِيـر الجيـدَ وَحْـف كـأنـه ... على اللِّيت قِنوانُ الكرومِ الدوالح

ويفسّر معناه: قطّعهن، ويقال: وجههنّ. ولم نجد قطعهن معروفة من هذين الوجهين»(١).

إذاً فنسبة هذا القول إلى ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة نسبة خاطئة، فإنهم - رضي الله عنهم - كانوا أجل من أن يفسروا الآية بمعنى غير معروف في لسان العرب.

ولعل الذين وقعوا في هذا الخطأ، إنما وقعوا فيه لأنهم أخطأوا معنى (الجزء) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ولو أنهم وُفِّقوا في تأويله لما وقعوا فيما وقعوا فيه.

والآن، وقد انتهينا من تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يمكننا أن نستوعب المشهد الذي تعرضه الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وبيان ذلك أن الله تعالى قال لإبراهيم: خذ أربعة من الطير، وآنسهنَّ إليك حتى يَألفنَكَ ويستأنسن بك، ثم وزع تلك الطيور الأربعة على جبال أربعة، ثم ادعهن، فإذا دعوتهن أتينك سعياً.

ويوحي إلينا الموقف أن المراد بالجبال هي الجبال الأربعة في الجهات الأربع حتى إذا دعا تلك الطيور الأربعة أتينه من كل جانب.

وكان القصد من ذلك التمثيل مجرد تقريب الواقع الموعود إلى الذهن، حتى يطمئن إبراهيم أن هذا الوعد الإلهي سيتم بهذا الشكل، وأن القلوب التي تنفر اليوم من هذه الدعوة وتتنكر لها ستقبل إليها غداً ساعية مسرعة، ستقبل إليها من كل حدب وصوب، ومن كل جهة وناحية.

إن البشرية التي تبدو اليوم ميتة متحجرة ستسري فيها الحياة وستدبّ فيها الحركة

---

(١) معاني القرآن للفراء: ١/ ١٧٤.

وستنمو فيها المشاعر[1] وستطير هي إلى تلك الدعوة وإلى تلك الملة كما تطير الطيور إلى أنيسها وأليفها.

كانت هذه لفتة بارعة أو لمحة دالة، ووجد فيها إبراهيم كل ما كان يبغيه فقد اقتنع واطمأن، ولم تعد به حاجة إلى أن يجرب هذا فعلاً، وإنما كان يكفيه أن يتصور ذلك المشهد، ثم يقيس هذا على ذاك.

وكان الأمر كذلك فيما نرى.

أرجى آية في القرآن:

وبالجملة فهذه الآية تحمل في طواياها بشارة عظيمة لهذه الملة، ملة أبينا إبراهيم، وبالتالي تحمل بشارة عظيمة لهذه الأمة كذلك، فإنها إنما بعثت استجابة لدعوة إبراهيم، وبعثت لترفع لواء ملته، فهي ستنمو وتزدهر، كما أن ملة إبراهيم ستنمو وتزدهر.

ولا يملك الباطلُ أن يقضي على هذه الأمة أو يعرقل مسيرها، كما لا يملك أن يقضي على هذه الملّة أو يعرقل مسيرها، وكلاهما ستتسع رقعتهما وتتسع ولا تزال تتسع بإذن الله.

وهنا يحضرنا ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فقد أخرج ابن جرير عن عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن أيوب في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، قال: قال ابن عباس: (ما في القرآن آية أرجى عندي منها)[2].

وروى ابن جرير: عن سعيد بن المسيب قال: اتّعد عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو أن يجتمعا. قال: ونحن يومئذ شَبَبَة، فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة، فقال عبد الله بن عمرو: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، حتى ختم الآية، فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول إنها، وإن أرجى منها

---

(١) قال القرطبي: قال بعض أهل المعاني: إنما أراد إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي القلوب. (انظر الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢٩٩).
ومما يؤيد هذا المعنى ما روي عن عباد بن منصور، قال: سألت الحسن عن قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قال: سأل نبي الله ﷺ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وذلك مما لقي من قومه من الأذى، فدعا ربه عند ذلك مما لقي منهم من الأذى فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (تفسير ابن أبي حاتم: ٣/١٠٣).

(٢) تفسير الطبري: ٣/ ٣٤.

وعلى صفته الأولى، كأنه لم تمسه حرارة الشمس وكأنه كان في ثلج!

وأما الحمار فلم يَنْجُ من تصرفات الشمس ومن تأثيرها، فبليَ وتفتت وأصبح عظاماً ورفاتاً، لأن مشيئة الله كانت تريده كذلك.

هذا ما فتح الله علينا في مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٢٦١-٢٧٤)

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ

بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

* * *

إن كنا نريد الاطلاع على نظم هذه الآيات وحسن مناسبتها لما قبلها، فلنرجع قليلاً، لنكرر النظر في العرض الأول لقصة طالوت، حيث ذكر الله إحياء قوم بعدما أسلمهم للموت والهوان إلى حين، ثم نبه إلى العاملين الأساسيين، اللذين كان لهما دور فعال في عودة هؤلاء القوم إلى ميدان الحياة، حيث قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

فالقتال والإنفاق في سبيل الله، هما السبيلان الموصلان إلى كنز الحياة. وما تخلى قوم عن هذين السببين إلا هووا في هاوية الذل والموت، وما أقبلوا إليهما إلا فاضوا بالحياة.

ولقد استوفى القتال في سبيل الله حظه من التنويه والتفخيم في العرض الثاني من قصة طالوت، ثم استطرد الحديث إلى موضوع الحياة والأحياء، وجاءت الأمثلة الثلاثة تبلور هذا الموضوع وتؤكده.

والآن نرى السياق عاد بنا مرة أخرى، حتى يتناول ثاني اثنين من ذينك السببين الموصلين إلى كنز الحياة، ألا وهو الإنفاق في سبيل الله.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وما أشبه هذه الآية بتلك التي مضت معنا في العرض الأول لقصة طالوت.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ثم مما تهتزُّ له النفس أن الكلام لم يقفز إلى هذا الموضوع قفزاً وإنما تخلص إليه في غاية اللطف والدقة.

وبيانه أن الموضوع السابق كان موضوع الحياة، فإن الآية - كما فصلناها تفصيلاً - تبشر بأن الملة الإبراهيمية سوف تزخر بالحياة وسوف تهفو إليها النفوس، وتهوى إليها الأفئدة من كل ناحية ومن كل جهة.

وبعد هذه الآية مباشرة جاءت آية الإنفاق، ولكنها ما جاءت بلون غريب، وإنما جاءت وكأنها - مثل أختها - تفيض بالحياة وتتدفق بالحياة: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾.

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية الكريمة: «إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف، إنما يبدأ بالحض والتأليف.. إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله.. إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة: صورة الزرع. هبة الأرض أو هبة الله. الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره. يعرض هذه الصورة الموحية مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله.

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾.

إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة! أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر، وتأثيراً في الضمائر.. إنه مشهد الحياة النامية. مشهد الطبيعة الحية. مشهد الزرعة الواهبة. ثم مشهد العجيبة في عالم النبات: العود الذي يحمل سبع سنابل، والسنبلة التي تحوي مائة حبة!

وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء. إنه لا يعطي بل يأخذ، وإنه لا ينقص بل يزاد.. وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها، تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة.. إن الله يضاعف لمن يشاء. يضاعف بلا عدة ولا حساب. يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها»[1].

إذاً فليس هناك شيء مما يشبه المنافرة أو الاقتضاب في الكلام فإن الكلام قد انتقل من موضوع إلى موضوع تجمعهما قرابة ماسة ومناسبة واضحة، ألا وهي التدفق بالحياة.

ثم إن السياق وضع موضوع الحياة والأحياء بين القتال والإنفاق. وذكر القتال أولاً والإنفاق ثانياً، وخصص للإنفاق مساحة أوسع وأكبر من مساحة القتال، ثم حذر

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٣٠٦.

فيه من المنّ والأذى والسمعة والرياء والشح والخيلاء وأمر بالإخلاص فيه والتجرد لله.

هذا النظم يكشف لنا وجهاً جديداً لأهمية الإنفاق في سبيل الله، فإن الإنفاق ليس فقط أنه صنو القتال في سبيل الله في كونه مصدراً للقوة والحياة، بل هو - فوق ذلك - قاعدة للقتال في سبيل الله ووقاية له من كل ما يطرأ عليه ويفسده.

فهو الذي يُروِّضُ النفسَ ويربيها على البذل والتضحية، وهو الذي يزكيها وينقيها ويمسح عنها شوائب السمعة والرياء، وهو الذي يغسل عنها أدران البطر والخيلاء، ويكبح ما يثور في النفس من نوازع التكبر والاستعلاء.

وبعبارة أخرى فإن الإنفاق إذا كان كما وصفه القرآن، فإنه هو الذي يعدّ النفس للقتال، ثم هو الذي يصحِّحُ خطّ السير، إذا اتّجه المسلم إلى حومة القتال.

وهناك يؤدي القتال مهمته في دفع الفساد وإزالة الشر، ويكون مجلبةَ خيرٍ ورحمة للعباد والبلاد، كما يكون مصدر قوة وحياة للشعوب والجماعات.

ثم هناك فوائد أخرى تستفاد من نظم تلك الآيات وهي كما يلي:

الفائدة الأولى:

قال الله تعالى قبل البدء في موضوع الإنفاق: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة].

ثم ورد في شأن أولياء الله أنهم يكونون في مأمن من الخوف والحزن، حيث قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس].

ولقد وردت نفس البشرى وتكررت في سياق الإنفاق في سبيل الله، حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة].

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

إن التأمل في هذا النظم يكشف لنا، أن الإنفاق إذا كان بروح صادقة من الإيمان فهو يُكسب العبد ولاية ربه.

ثم إن هذه البشرة لم تتكرر في سياق أيّ عمل كما تكررت في سياق الإنفاق في سبيل الله، وهذه الظاهرة تدل على أن الإنفاق يُكسب العبد من ولاية ربه ما لا يُكسبه غيره.

الفائدة الثانية:

ثم إذا عدنا إلى تلك الآية مرة أخرى، نعني قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية، وتأملنا في نظمها وسياقها ورأينا أن الله لم يأمر بعد هذا البيان إلا بالإنفاق في سبيله، علمنا أن الإنفاق في سبيل الله هو الطريق المباشر إلى اكتساب النور. وكلما ازداد العبد إنفاقاً في سبيل الله، ازداد حظاً من هذا النور.

ونجد تأييد ذلك في سورة الحديد، بشكل أوضح وأبين، حيث تكرر ذلك النور في سياق الإنفاق في سبيل الله، حيث قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد].

فتلك الآيات واضحة كل الوضوح في الدلالة على ما أشرنا إليه، وإن كانت تلك الدلالة أيضاً عن طريق نظم الآيات وسياقها.

الفائدة الثالثة:

قال تعالى بعدما أمر بالإنفاق من طيبات الأموال:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

إن التأمل في نظم هذه الآية وسياقها يرشدنا إلى أن الحكمة تكون من بركات الإنفاق في سبيل الله، وهذه الحكمة هي التي تتقدم بالأمة في طريق الحياة، وتفتح أمامها سبل الحياة.

ثم إذا انضم إلى هذا الإنفاق القتال في سبيل الله، انضم إلى تلك الحكمة الملك والسلطة، واستكملت الأمة نصيبها من الحياة. وقد مر ذلك معنا في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴿٢٥١﴾﴾.

الفائدة الرابعة:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الآية.

إن التأمل في نظم هذه الآية يكشف لنا أن المنّ والأذى يتنافى مع الإخلاص والتجرد لله. ولا يتصور وجوده إلا إذا كان الإنفاق بدافع الرياء.

ثم هذا الرياء يتنافى أيضاً مع الإيمان بالله واليوم الآخر. ووجود أحدهما يستلزم انتفاء الآخر.

وهنا نتذكر قول نبينا - عليه الصلاة والسلام -: (من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك)[1].

ولا يبعد أن يكون هذا القول مستفاداً من نظم تلك الآية.

الفائدة الخامسة:

قال تعالى في مطلع حديث الإنفاق: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم قال تعالى في ختام الحديث: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالآية الأولى تشترط في الإنفاق أن يكون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وألا يتبعه مَنٌّ ولا أذى، بينما الآية الثانية تشترط فيه فقط أن يكون سراً وعلانية، ولا تتعرض للشرطين السابقين.

---

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للساعاتي: ١٩/ ٣٢١.

وهذا النظم يرشدنا إلى حقيقة هامة جداً، وهي أن الإنفاق إذا كان سراً وعلانية إذا كان رئاء الناس. فالمرائي إنما ينفق علانية ليرائي الناس، وأما الإنفاق سراً فهو ليس من شأن المرائين.

ولعل هذا هو السر في أن الله أقرّ إبداء الصدقات: فإن للإبداء ثمراته ونتائجه إلا أنه حرض مع ذلك على أن إخفائها ليكون ذلك علاجاً لما يخشى من الإبداء من مرض الرياء: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

فإبداء الصدقات وإخفاؤها إذا كانا جنباً إلى جنب، فهو أدنى أن تكون تلك الصدقات خالصة لوجه الله، وأدنى أن تكون بعيدة من آفة الرياء، وأدنى أن تحقق أهدافها وتؤتي ثمراتها بإذن ربها.

وليس هذا خاصاً بالصدقات، بل الأمر هكذا في الصلوات وفي جميع العبادات، فمنها ما يستحب علانية ومنها ما يستحب سراً.

فالله افترض على المسلمين خمس صلوات مع الجماعة، وبجانب ذلك حث على صلاة الليل ورغب فيها، حتى تكون صلاة الليل علاجاً لصلاة النهار، وتكون وقاية لها مما يخشى عليها من آفة الرياء.

وحينئذ يمكن لصلاة النهار أن تؤتي ثمراتها وتؤدي دورها في تهذيب النفوس وتربيتها.

تلك عيون الحقائق، التي تظهر لنا عن طريق التأمل في نظم تلك الآيات وسياقها، فنحمده تعالى حمداً كثيراً على أن هدانا إليها، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٢٧٥-٢٨١)

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا
سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى

ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾.

* * *

إن مناسبة هذه الآيات لما قبلها واضحة ظاهرة. فإن الآيات التي سبقتها كانت تبحث موضوع الإنفاق في سبيل الله، وهذه الآيات تبحث موضوع الربا، والصلة بين الربا والإنفاق كالصلة بين الظلمات والنور أو الظل والحرور، فهما ضدان متقابلان لا يلتقيان، لا يلتقيان في أول الطريق ولا في منتصفه ولا في آخره.

ولقد تناول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - هذا الموضوع تناولاً حسناً وأبرز هذا الاختلاف الذي يوجد بينهما، وكان فيه موفّقاً.

ولا بأس بأن ننقل هنا نبذة منه حتى تتبين مناسبة هذه الآيات لما قبلها بتبين الاختلاف الذي يوجد بينهما.

يقول الأستاذ الإمام - رحمه الله -: «الوجه الآخر المقابل للصدقة، التي عرض دستورها في الدرس الماضي.. الوجه الكالح الطالح هو الربا!

الصدقة عطاء وسماحة وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل.. والربا شح وقذارة ودنس وأثرة وفردية..

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد. والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه. من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكدّه، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئاً.

ومن ثم فهو - الربا - الوجه الآخر المقابل للصدقة.. الوجه الكالح الطالح!

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح الطاهر الجميل الودود! عرضه عرضاً منفراً، يكشف عما في عملية الربا من قبح وشناعة، ومن جفاف في

القلب وشرّ في المجتمع وفساد في الأرض وهلاك للعباد».

ويزيد - رحمه الله - فيقول: «إنهما نظامان متقابلان: النظام الإسلامي والنظام الربوي! وهما لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة.. إن كلاً منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة. وينتهي إلى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف. ومن ثم كانت هذه الحملة المفزعة، وكان هذا التهديد الرعيب»(١).

والقرآن نفسه نبّهنا إلى هذا الفرق الشاسع، الذي يوجد بين الإنفاق وتعاطي الربا وبيّن لنا بنصه ونظمه أنهما خطان متوازيان متعاكسان يذهب كل واحد منهما في جهة غير التي يذهب فيها الآخر.

١- فالإنفاق في سبيل الله يقرب العبد إليه ويجعله من أوليائه، وتعاطي الربا يقطعه من ربه ويوقفه موقف المحارب المعادي لله ولرسوله!

٢- والإنفاق يكون بركة لصاحبه وسبباً إلى مضاعفة أجره فيبارك الله له في أعماله كلها ويضاعف له أجرها: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ ﴿٢٦١﴾ ﴾.

بينما الربا يحبط أعمال المرابي كلها كما نعلم ذلك عن طريق التأمل في نظم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

فهذه الآية وضعت في خلال الحديث عن الربا وعواقبه السيئة الوخيمة، وتفيد بنظمها أن المرابين لا تُقبل لهم صلاة ولا زكاة، ولا إيمان ولا أي عمل صالح.

٣- والإنفاق سبب إلى الحياة، فهو يملأ إهاب الأمة بمقوماتها، ويكسبها العز والفوز والفلاح. ولقد فصلنا ذلك فيما مضى.

والربا سبب إلى البوار والدمار وطريق إلى المحق والسحق والهلاك، كما قال تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾.

٤- والإنفاق طريق إلى النور، فهو يجعل للمنفق نوراً يمشي به في الناس، وسيكون

---

(١) في ظلال القرآن: ٣١٨/١.

له يوم القيامة نوراً يسعى بين يديه. ولقد بينا ذلك فيما مضى.

والربا ظلم كما يصرح به في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

وهو كفر وإثم كما يعلن به قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

والظلم والكفر والإثم ظلمات بعضها فوق بعض، ولقد قال نبينا - عليه الصلاة والسلام - (الظلم ظُلمات يوم القيامة)[1].

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها فنحمده تعالى على حسن توفيقه ونشكره بما هو أهله. ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيتين (٣٨٢-٢٨٣)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

* * *

إن هذه الأحكام تكملة للموضوع الذي تناولته الآيات السابقة فإنها قد حذرت من التعامل بالربا. والربا نوعان:

(١) مختصر صحيح البخاري للزبيدي، كتاب المظالم، رقم الحديث (١١١٧).

فنوع منه يكون صريحاً مكشوفاً، وهو الذي يتفق عليه الطرفان باسم الربا، ويتم هذا التعامل بينهما عن تراض منهما.

ونوع آخر يكون خفياً دقيقاً قد لا ينتبه له الناس، وهو الذي يتم بدون اتفاق سابق من الطرفين. ومثاله أن يتداين فريقان بدون كتابة ولا شهود، ثم تمضي فترة، وبعدها يثور بينهما خلاف في المبلغ الذي اتفقا عليه أو تداينا عليه، فالمقرض - مثلاً - يدعي على المستقرض فوق المبلغ الذي دفعه إليه، وينجح في انتزاع هذا المبلغ من كيسه، فهذا المبلغ الذي يزيد على المبلغ المستحق يكون (ربا) ولا شك.

وقد يكون الأمر على العكس، فالمستقرض يريد أن يُرجِعَ إلى المقرض أقل من المبلغ الذي استلمه منه، فالذي يبقى عند المستقرض من حق المقرض يكون (ربا) ولا شك، سواء كان هذا التصرف من المقرض أو المستقرض عن قصد أو بدون قصد.

والآيات السابقة ما كانت تتناول إلا ذلك النوع الواضح المكشوف من الربا، ولو وقف النص عند هذا الحد لكان المجال واسعاً مفتوحاً أمام الذي يريد أن يزاول ذلك النوع الثاني من الربا.

وأما الذي لا يريد ذلك ويحرص أن يكون نزيهاً ملتزماً بحدود الله في معاملاته فهو أيضاً لم يكن بمفازة من أن يقع في هذا الوحل؛ بل كان الأغلب أن يقع فيه وهو لا يعلم ولا يشعر.

فجاءت تلك الأحكام تسد هذه الثغرة وتضع المعول على رأس الربا حتى تقضي عليه نهائياً، وحتى لا يقع فيه من يريده أو لا يريده.

ومن هنا نرى أن الرأي القائل بوجوب الكتابة والإشهاد عند التداين هو الرأي. وأما ما قاله الفراء من أن: «هذا الأمر ليس بفريضة، إنما هو أدب ورحمة من الله تبارك وتعالى. فإنْ كتب فحسن وإن لم يكتب فلا بأس، وهو مثل قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۝٢﴾ [المائدة]، أي: فقد أبيح لكم الصيد، وكذلك قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ۝١٠﴾ [الجمعة]، ليس الانتشار والابتغاء بفريضة بعد الجمعة، إنما هو إذن»[1].

---

(١) معاني القرآن للفراء: ١/ ١٨٣.

فهو قول لا يخلو من ضعف، ونحن نتعجب من الفراء كيف لم يفرق بين الموضعين، مع أن الأمر كان واضحاً جداً. فإن الأمر جاء في الموضعين، اللذين ذكرهما بعد النهي، والأمر إذا جاء بعد نهي سابق أفاد معنى الإباحة، كما هو مقرر في كتب المعاني.

والوضع هنا مختلف تماماً فإنه أمر مستأنف لم يسبقه نهي ولا حظر.

ثم إن أغضينا الطرف عن هذا الإشكال، فماذا نفعل بتلك التوكيدات الجادة المتكررة، التي تبعت هذا الأمر، وهي كما يلي:

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾.

﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾.

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾.

﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾.

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾.

﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾.

﴿ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾.

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾.

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾.

هذه التوكيدات المتكررة المتعاقبة في شأن الكتابة والإشهاد ماذا تفيد؟

وهل مفهوم الإباحة والتخيير أيضاً يحتاج إلى هذه التوكيدات المتكررة المتعاقبة الصارمة؟

الواقع أن الوضع جد غريب!

ولعل الذي أدى بالناس إلى هذا الوضع الغريب هو قلة اعتنائهم بنظام الآيات، وعدم انتباههم لخطورة الموقف، فإن الموقف هو موقف مكافحة الربا وموقف تضييق الخناق عليه، وموقف القضاء عليه نهائياً، حتى لا يبقى له ذكر ولا أثر في المجتمع.

وهذا هو السر في أن السياق أعقب هذا الأمر بتلك التوكيدات المتكررة المتعاقبة الصارمة.

وبالجملة فنحن نقول بما قال صاحب الظلال - رحمه الله -: «الكتابة أمر مفروض بالنص، غير متروك للاختيار في حالة الدين إلى أجل»(١).

ولقد روي عن الضحاك - رحمه الله - أنه قال: «آية الدين حكم الله وفصّله وبيّنه فليس لأحد أن يتخيّر في حكم الله»(٢).

وممن تبنى هذا الرأي وتحمّس له من أعلام المفسرين الإمام ابن جرير - رحمه الله(٣) -.

تحقيق القول في مشروعية الرهن:

ومما يوحي إلينا السياق أن الرهن لم يشرع إلا كبديل لأمر الكتابة، ولم يشرع إلا في حالة عدم وجود الكاتب، حذراً من الوقوع في الربا أو شبهة الربا، فلا يشرع إلا في هذه الحالة الخاصة.

وبمجرد وجود الكاتب يبطل هذا الحكم ويجب رد الرهان إلى صاحبها. هذا هو المتبادر من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾.

فالمراد بالأمانة هي الرهان والمؤتمن هو الدائن، والمراد من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تهيؤ الكتابة بوجود الكاتب، فإذا وجد الكاتب وتهيأت الكتابة وحصل الأمن من جحود المستدين ومماطلته، فهناك يجب رد الرهان إلى صاحبها وهذا هو الأقرب للتقوى.

وهذا هو التأويل الذي يلائم جو الآية وسياقها.

فالكتابة والإشهاد كما بينا، أمر مفروض بالنص، ولم يترك لنا فيهما الخيار حتى نستغني عنهما إذا كانت الثقة متبادلة، ونلجأ إليهما إذا لم تتوفر دواعي الأمن والثقة.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٣٣٥.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٣/ ١٢٠٣.

(٣) تفسير الطبري: ٣/ ٩٣.

وأمر الرهن كذلك، فهو لا يختلف عن الكتابة والإشهاد من حيث هو بديل لهما، فكما أن الكتابة والإشهاد واجبان إذا تيسرا، فكذلك الرهن واجب في وقت تعذرهما. ولا بد لنا في التداين من أحدهما بصرف النظر عن تبادل الثقة والأمن أو عدم تبادلهما.

وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن نفسر قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية بذلك التفسير الذي لا يتفق مع طبيعة الموقف.

بل يتعين علينا أن نفسره بوجوب رد الرهان إلى صاحبها، إذا تيسرت الكتابة وحصل الأمن من جحوده ومماطلته.

قال ابن جرير: حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا أبو زهير عن جويبر، عن الضحاك قوله: وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة، فمن كان على سفر فبايع بيعاً إلى أجل فلم يجد كاتباً فرخّص له في الرهان المقبوضة، وليس له إن وجد كاتباً أن يرتهن[1].

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ قال: لا يكون الرهان إلا في السفر[2].

والذي يظهر من نظم الآية وسياقها هو أن السفر ليس هو السبب في مشروعية الرهن، وإنما السبب هو عدم وجود الكاتب، وإنما ذكر السفر لأنه مظنّة إعوازه في الغالب. فلو حدث - مثلاً - إعواز الكاتب في الحضر فليس هناك مانع من مشروعيته في الحضر.

وهذا الذي يستفاد من كلام الضحاك - رحمه الله -.

وأما ما روي عن مجاهد من اشتراط السفر لمشروعية الرهن، فهو أيضاً - فيما نرى - جاء بحسب الواقع الذي كان يعيشه - رحمه الله - فإنه ما كان يتصور في تلك الأيام، كما لا يتصور اليوم، أنْ لا يوجد كاتب في الحضر، ومن هنا قال: (لا يكون الرهان إلا في السفر).

فمناط الحكم إذاً ليس هو الحضر والسفر، وإنما هو عدم وجود الكاتب، فيشرع

---

(1) تفسير الطبري: ٣/ ٩٢.

(2) الدر المنثور: ٢/ ١٢٥.

الرهن إذا لم يوجد الكاتب وإذا وجد فلا يشرع.

كلمة قيّمة للفراهي:

وأخيراً نقفل هذا الموضوع بكلمة للإمام الفراهي حيث قال: «الآيتان (٢٧٢-٢٧٣) فيما يتعلق بالتعاون دون الصدقة وهو القرض. وأوجب فيه الكتابة أو الرهن حين تتعذر الكتابة. فلا رهنَ فيما عدا ذلك، كما ذهب إليه مجاهد والضحاك - رحمهما الله - فقالا: لا يجوز الرهن إلا في السفر (انظر ابن جرير الطبري ٣/ ٩٢).. فأوجب أداء الرهن عند ارتفاع الضرورة.. وأعلن به النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع فذكر الرهن مع الربا والدم: (الطبري: ١٧٥٣)[١] وترى اليوم كيف اختلط الربا بالرهن. وإنما خفي هذا الأمر لأن الرهن عبر بالأمانة»[٢].

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما فنحمده تعالى على حسن توفيقه ونشكره بما هو أهله.

وقبل أن نغادر الآيتين إلى ما بعدهما، نعود إليهما مرة أخرى، ونلقي عليهما نظرة أوسع وأشمل وأدق باعتبارهما مسك الختام لأحكام هذه السورة.

إن النظر في هاتين الآيتين من هذه الناحية يكشف لنا أنهما كما تتمتعان بحسن المناسبة وحسن النظام في إطارهما الخاص، تنسجمان تمام الانسجام مع الجو العام لهذه السورة.

وبيانه أن أفظع جريمة اقترفها بنو إسرائيل - كما نعلم من هذه السورة - هي أنهم نقضوا العهد وكتموا الشهادة، والآيات الصريحة في ذلك كما يلي:

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ١٥٠.

(٢) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾ [البقرة].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ (٨٥)﴾ [البقرة].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٤)﴾ [البقرة].

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾ [البقرة].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩)﴾ [البقرة].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾ [البقرة].

تلك آيات تسجل على بني إسرائيل نقضَ العهد والميثاق وتسجل عليهم كتمان الحق وكتمان الشهادة بالنص على هذه الكلمات، وإلا فالآيات التي تفيد هذا المعنى وتشير إلى هذه الجريمة، أكثر منها مرات ومرات.

ثم لما بعثت هذه الأمة لتقوم بدورها في هذا العالم ناداها ربها بتلك الكلمات:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ (١٤٣)﴾ [البقرة].

وهكذا نرى هذه السورة يسودها جو العهد والميثاق وجو أداء الشهادة والقيام بالحق.

فأمة وُصِمت بأنها نَقضت العهدَ والميثاق وكتمت الشهادة وكتمت الحق.

وأمة بُعثت لتقوم بمهمة الشهادة على الناس، كما أن الرسول بعث ليقوم بمهمة

الشهادة على هذه الأمة.

فلنرجع إلى هاتين الآيتين مرة أخرى لنراهما كيف تنسجمان تمام الانسجام مع هذا الجو العام لهذه السورة.

وإن كنا نريد أن ندرك هذا الانسجام التام فلا يكلفنا هذا أكثر من أن نضع في اعتبارنا هذه التوجيهات التي تشتمل عليها هاتان الآيتان.

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾.

﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾.

﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ ﴾.

﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ ﴾.

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ ﴾.

فقد تكررت لفظة (الشهادة) بمختلف مشتقاتها في آيتين اثنتين ثماني مرات.

وتلك ميزة تتميز بها هاتان الآيتان من بين سائر آيات القرآن، فإننا لا نجد في القرآن آيتين تكررت فيهما لفظة الشهادة كما تكررت في هاتين الآيتين.

وهذا الوضع يكفي لأن يلوّن جو الآيتين بلون (الشهادة) ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، بل جمع السياق في هاتين الآيتين جميع مقومات الشهادة أو عيون مقومات الشهادة، فلنتدبر هذه التوجيهات:

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾.

﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ ﴾.

﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ ﴾.

﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾.

فقد جمع الله في هذه التوجيهات - كما نرى - سِنَّ الشهادة: وهو أن يكون الشاهد قد بلغ مبلغ الرجال، ونِصَاب الشهادة: وهو رجلان أو رجل وامرأتان، ومقومات الشهادة: وهو العدل والقسط والأمانة والتقوى.

ثم إن هذه التوجيهات، التي تضمنت التنويه بالشهادة ومقوماتها إنما جاءت بمناسبة التنويه بالعقد والتحريض على أن نأخذه مأخذ الجد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾، أي: إذا تداينتم بدين، أيّ دين، سواء كان صغيراً أو كبيراً، فاكتبوه. ولقد بين السياق نفسه هذا الإبهام فيما بعد، فقال: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾.

والقارىء المتأمل يتعجب من الزمخشري - رحمه الله - كيف لم ينتبه لهذه النكتة مع عُلوِّ كعبهِ في تذوق النكات البلاغية، حيث قال: ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم ﴾ دايَنَ بعضُكم بعضاً. يقال: داينت الرجل: إذا عاملته (بدينٍ) معطياً أو آخذاً كما تقول بايعته إذا بعته أو باعك، قال رؤبة:

دايَنْتُ أروى والديون تُقْضى فَمَطلَتْ بعضاً وأدَّتْ بعضا

والمعنى: إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه. فإن قلت: هلا قيل إذا تداينتم إلى أجل مسمى؟ وأي حاجة إلى ذكر الدَّين، كما قال: داينت أروى ولم يقل بدين؟ قلت: ذكر ليرجع الضمير إليه في قوله: ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ إذا لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين، لتنويع الدين إلى مؤجل وحال»(١).

ولعل القارىء لا يبالغ إذا قال: إنّ هذا التأويل الذي ذهب إليه الزمخشري تكلُّفٌ محض، وهو لا يكشف شيئاً من جمال هذا الأسلوب. وبيانه أن رجع الضمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿ فَٱكْتُبُوهُ ﴾ إلى (دين) المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ ليس له وجه وجيه، فإن المأمور بكتابته في الآية ليس هو الدين، وإنما هو التداين.

---

(١) الكشاف: ١/٤٠٢.

أي: لا يكتب قدر المبلغ فقط، بل تقيّد المعاملة كلها بجميع تفاصيلها، وعلى هذا فالضمير راجع إلى التداين، وليس إلى (دين).

ولم يكن هناك أي إشكال من ناحية الإعراب لو أن السياق كان قد استغنى عن ذكر لفظة (دين) ومن هنا يظهر ضعف هذا القول.

ولعله - رحمه الله - لو انتبه إلى تلك النكتة التي أشرنا إليه لما ذهب إلى ما ذهب إليه.

وعلى أية حال فجاءت هذه الآية تؤكِّد للناس أمرَ العقد وتحرّضهم على أن يأخذوه مأخذ الجد، ولا يرتضوا فيه بالهوينى، حتى لا يكتبوه، أو يكتبوه إذا كان كبيراً، ولا يكتبوه إذا كان صغيراً.

فنرى هاتين الآيتين كيف تتناولان موضوع العقد والشهادة، وكيف تأخذانهما مأخذ الصرامة والجد، وبذلك تنسجمان تمام الانسجام مع الجو العام لهذه السورة.

وكأنهما توحيان بهذا الانسجام أن الأمة إذا كانت جادة في أمر الديون التي تتداين بها، وكانت جادة في العقود التي تبرمها فيما بينها، وكانت تشعر بمسؤولية الشهادة في معاملاتها وتصرفاتها، فسيكون هذا إعداداً وتربية لها للإيفاء بعهد ربها، وللقيام بتلك الشهادة العظمى، التي بعثت لأجلها، ألا وهي الشهادة على الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

ومن هنا ندرك خطورة شأن هاتين الآيتين، وندرك السر في كونهما مسك الختام لأحكام هذه السورة، وندرك السر في كون الآية الأولى منهما أطول آية في أطول سورة في أعظم صحيفة الأمة.

وبعد هاتين الآيتين، اللتين جعلهما الله مسك الختام لأحكام هذه السورة تطالعنا خواتيم آياتها وموضوعاتها.

* * *

نظم الآيات (٢٨٤-٢٨٦)

قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

* * *

تلك ثلاث آيات بقيت لنا من هذه السورة.

ولقد عني عدد من المفسرين - رحمهم الله - بإبراز مناسبتها لما قبلها، واهتموا بها اهتماماً خاصاً باعتبارها خواتيم هذه السورة العظيمة[١].

ولا شك أنها كانت محاولات قيمة مشكورة، ولقد أبرزت لنا تلك المحاولات جوانب هامة لمناسبة تلك الآيات لما قبلها.

إلا أن الذي ينقصها جميعاً هو أنها قطعت الآية الثالثة الأولى من الآيتين الأخيرتين، وهذا الشيء حجب الكثيرين عن الرؤية الواضحة الكاملة لنظام تلك الآيات، كما أدى ببعضهم الآخرين إلى تكلف واضح صارخ في تحميل العبارة معنى لا تحتمله كما نرى عند الدكتور عبد الله دراز بحيث جعل الآية الأولى (٢٨٤) آية الإحسان[٢] ولا صلة لها بموضوع الإحسان، لا من قريب ولا من بعيد. وسنبين ذلك فيما بعد.

والذي يترجح عندنا هو أن الآية الثالثة الأولى أيضاً من خواتيم هذه السورة. وهي أقرب نسباً إلى ما بعدها من الآيتين، دون آيتي الدين والرهان.

وحجتنا في ذلك هي سياق الكلام ووحي النظام نفسه، فإن المعنى لا يستقيم كما يستقيم إذا وَصَلْنا هذه الآية بالآيتين الأخيرتين دون السابقتين، وسيتضح هذا الأمر حينما نتبين وجه المناسبة في هذه الآيات.

دراسة الروايات الواردة في شأن خواتيم السورة:

ثم هناك روايات تعزز هذا الموقف وترشدنا إلى الظاهرة التي توصلنا إليها من خلال التأمل في سياق الكلام.

---

(١) انظر - مثلاً - (تفسير البحر المحيط: ٢/٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٤)، و(مختصر تفسير المنار: ١/٢٨٢-٢٨٣)، و(النبأ العظيم: ص٢٠٩، ٢١٠)، و(في ظلال القرآن: ١/٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) النبأ العظيم: ص٢٠٩.

فقد أخرج الخطيب في «تلخيص المتشابه» عن ابن مسعود قال: من قرأ الثلاث الأواخر من سورة البقرة فقد أكثر وأطاب[1].

وأخرج أحمد والنسائي والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الشِّعب» بسند صحيح عن حذيفة أن النبي ﷺ كان يقول: (أُعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي)[2].

وأخرج الدارمي عن الشعبي قال: قال عبد الله: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة، لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح. أربعاً من أولها، وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث خواتيمها، أولها: لله ما في السموات[3].

فهذه الروايات تفيد أن المراد من خواتيم البقرة ليست الآيتان فقط، بل المراد منها الآيات الثلاث الأخيرة.

قد يثور هنا سؤال: كيف يكون التوفيق بين هذه الروايات والروايات التي تفيد أن المراد من خواتيم البقرة هما الآيتان فقط، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كَفَتاه)[4].

والجواب على هذا السؤال سهل وميسر بإذن الله، إذا وضعنا في اعتبارنا أن الآيتين الأخيرتين عبرتا عن دعوات ضارعة خاشعة وهذه الدعوات لم تترك من الخير شيئاً إلا اشتملت عليه ولا من الشر شيئاً إلا استعاذت منه.

إذاً فهي تخص كل مؤمن ومؤمنة وتتصل بحياتهما اتصالاً مباشراً، والمؤمن بحاجة إلى أن تكون هذه الدعوات دائماً في باله، حتى يمكنه القيام بمهمته التي نيطت به.

والنبي ﷺ نفسه نبه إلى هذه الناحية، حيث أخرج الدارمي، عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أُعطِيتهما من كنزهِ الذي تحت العرش فتعلَّموهُنَّ وعلّموهن نساءكم، فإنهما صلاة وقرآن ودعاء)[5].

---

(١) الدر المنثور: ٢/١٣٩.

(٢) الدر المنثور: ٢/١٣٨.

(٣) سنن الدارمي: باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي: ص٨٤٤.

(٤) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل البقرة: ٦/١٠٤.

(٥) سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن، ص٨٤٦.

وعن محمد بن المنكدر قال: قال رسول الله ﷺ في أواخر سورة البقرة: (إنهن قرآن وإنهن دعاء وإنهن يدخلن الجنة وإنهن يرضين الرحمن)[1].

ثم إن هاتين الآيتين كما أنهما دعاء فكذلك هما ثناء على النبي ﷺ وعلى أمته، حيث أخرج ابن جرير عن حكيم بن جابر قال: لما أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾. قال جبريل: «إن الله عز وجل قد أحسنَ الثناء عليكَ وعلى أمتك، فَسَلْ تُعطَهْ» فسأل[2].

فهذه أمور تضفي على الآيتين الأخيرتين أهمية خاصة وتهيب بالأمة أن تعيرهما كلَّ إقبال وكل اهتمام وكل تقدير.

ومن هنا جاءت بعض الروايات تُنوِّه بشأنهما خاصة وتحث على الحرص عليهما كل الحرص.

إلا أن هذا لا يغض من شأن الآية الثالثة الأولى ولا يتعارض مع كونها من الخواتيم، وليس هناك أي إشكال إذا كانت بعض الروايات تسمي الآيتين الأخيرتين فقط بالخواتيم وبعضها الآخر تشرك الآية الثالثة الأولى أيضاً في هذا الحكم فهذا له وجه وذاك له وجه.

وسيزداد الأمر وضوحاً إذا عرفنا وجه المناسبة في تلك الآيات، وعرفنا وجه مناسبتها لما قبلها.

مناسبة الآيات لما قبلها:

إن دراسة هذه السورة والتأمل في نظام آياتها يكشف لنا أن هذه السورة في أغلب قطاعاتها ومعظم أجزائها تقصد بالخطاب إلى الطائفة الثالثة التي ورد ذكرها في أول هذه السورة، وهم الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾.

حتى المواضع التي جاء فيها الخطاب مُصدَّراً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهذه المواضع أيضاً تشمل - في الغالب - مع المؤمنين الصادقين، هؤلاء القوم الذين

---

(١) الدر المنثور: ٢/١٣٨.

(٢) تفسير الطبري: ٣/١٠٢.

آمنوا، ولم يستقرّ الإيمان في قلوبهم ولم يتحلّ بالاستقامة سلوكهم.

فأول آية جاء فيها الخطاب مصدّراً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هي تلك الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

وبعدها مباشرة جاء قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

فهذه الآية تشير أن الخطاب السابق وإن كان خطاباً عاماً يشمل كافة المؤمنين، إلا أنه كان في الواقع موجهاً إلى الذين كانوا على صلة بكفار أهل الكتاب، وكانوا يستمعون إلى أحاديثهم ويتأثرون بإيحاءاتهم.

ويصبح الموقف واضحاً جلياً حين يتكرر إليهم الخطاب بعد قليل يعنّفهم وينكر عليهم سلوكهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

فهذا الخطاب أميلُ - ولا شك - إلى هؤلاء القوم الذين كانوا على صلة بأهل الكتاب، وكان يخشى منهم اقتفاء أثرهم واتباع سننهم.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة].

فتعليق هذا التوجيه الكريم على هذا الشرط: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ له دلالته التي لا تخفى على من يتأمل فيه. وهذا الأسلوب لا يتخذه القرآن أبداً إلا إذا كان في القوم من يدّعون الإيمان ولم يحسن إيمانهم، وكان هؤلاء هم المقصودين بالخطاب بالقصد الأول.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ... الآية ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة].

فسياق الآية وأسلوبها يدلّ على أن هذا الخطاب، وإن كان موجّهاً إلى كافة المؤمنين، إلا أنه أميل إلى قوم كانوا يضنُّونَ بالمالِ وكانوا يراءون بالإنفاق، وكانوا يُتبعونه المنَّ والأذى، ولم يكن يحفزهم إلى الإنفاق تلك الروح الصادقة من الإيمان بالله واليوم الآخر.

وأوضح من ذلك كله قوله تعالى في سياق التنديد بالربا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩ ﴾ [البقرة].

فلون تلك الآيات وسياقها يدل على أن الخطاب هنا، وإن كان بلفظه يعم جميع المؤمنين، إلا أنه أميل إلى قوم كانوا يتعاملون بالربا وكانوا من ناحية سلوكهم وتصرفاتهم بحيث يخشى منهم ألا يطيعوا أمرَ الله ولا يرتضوا ما شرعه لهم فلا ينفّذوه في حياتهم، ولا يحكّموه في معاملاتهم.

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن السياق قد فرق هنا بنظمه بين (الذين آمنوا) وبين (المؤمنين) فـ«الذين آمنوا» يطلق على كلٍّ من المؤمن الصادق والمنافق المرائي، ويطلق على كل من ادعى الإيمان سواء دخل الإيمان في قلبه أو بقي كلمة بلا روح على لسانه، بينما (المؤمنون) يطلق على الذين خلصت نياتهم وصدق إيمانهم وظهرت دلائله في سلوكهم وتصرفاتهم.

تلك بعض النماذج مما يعزز قولَنا الذي سبق أن قلناه، وهو أن هذه السورة في أغلب قطاعاتها ومعظم أجزائها تقصد بالخطاب إلى القوم الذين آمنوا ولم يحسن إيمانهم، وكانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ولست هنا بصدد تفصيل هذا الموضوع، فقد انتهيت منه في الصفحات السابقة، حيث أبرزت هذه النكتة في خلال بحثي كلما سنحت لي الفرصة، وخاصة في خلال دراستي لتلك الأسئلة التي وردت في هذه السورة.

والآن أرتقي خطوة أخرى فأقول: إن الآية الأولى من تلك الآيات الثلاث التي جاءت كخاتمة للسورة، ناظرة إلى هؤلاء الذين آمنوا وما حسن إيمانهم، وكانوا يبدون للناس غير ما كانوا يخفون في أنفسهم، فجاءت تخاطبهم هذه الآية حسب واقعهم وتُجْمِلُ لهم القول في شأنهم: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾.

فكانت هذه الآية إنذاراً لهم وتنبيهاً إلى أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها قبل أن يحاسبهم الله، فإنهم إذا حاسبهم الله فلن يكون هناك أحد يغني عنهم من عذابه من شيء، وهو الذي يتصرف حينئذ كيف يشاء، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

فهذه الآية تشبه في سياقها وصياغتها ودلالتها قوله تعالى في السورة التي بعد هذه السورة، حيث قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران].

وهذه الآية كما أنها تساعدنا في فهم المراد من تلك الآية فكذلك تميل بنا إلى رد قول الذين زعموا فيها النسخ، فإنها لو كانت منسوخة لما تكرر مضمونها في سورة نزلت بعدها.

ولعل الذين ذهبوا إلى القول بنسخ تلك الآية إنما ذهبوا إليه لأنهم لم يظهر لهم المحمل الصحيح لقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ وسنبين ذلك فيما بعد بإذن الله.

وعلى أية حال فجاءت هذه الآية تنبيهاً وإنذاراً لقوم كانوا يتعثرون في إيمانهم وكانوا يخافون من تبعات المهمة التي نيطت بهم، ألا وهي الشهادة على الناس: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

ثم في مقابل تلك الطائفة ذكرت طائفة أخرى صدقوا الله في إيمانهم واستجابوا لدعوتهم في خشوع وإخلاص: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

ولقد سبق أن علمنا الفرق بين (الذين آمنوا) وبين (المؤمنين) فالطائفة الأولى كانت طائفة (الذين آمنوا) وهذه طائفة (المؤمنين) - المؤمنين الذين سبق ذكرهم في مطلع هذه السورة، حيث قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ... ﴾ إلخ.

فالمؤمنون آمنوا بما أُنزلَ إليهم من ربهم، وعلى رأسهم الرسول ﷺ، كلهم آمنوا بما أنزل إليهم في صدق وحرارة وخشوع وإخلاص كما يمثل لنا ذلك قولهم: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

وأيضاً نعلم ذلك بالتأمل في النظم الذي وردت عليه الآية، فإن الدعوات التي تبعت هذا الإقرار وهذا الدعاء لم تكن منفصلة منه، إلا أن السياق فصل بين هذا وتلك بقوله

تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾.

وكأن السياق أراد بهذا النظم أن يوحي إلى هؤلاء المؤمنين أن قلوبهم الصادقة المؤمنة لما هاجت وفاضت بتلك الأدعية الخاشعة الضارعة أسرعت إليهم الاستجابة قبل أن تصعد تلك الأدعية إلى ربها. فقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ ليس رفعاً أو نسخاً لحكم سابق كما قيل، وإنما وُضِع هذا القول حيث وضع تطييباً لخواطر هؤلاء المؤمنين وتطميناً لنفوسهم أن الدعوات التي خفقت بها قلوبهم نالت الاستجابة قبل أن تنطق بها شفاههم! فهم سينالون المغفرة عند ربهم، ولا يؤاخذون على خطأ أو نسيان، ولا يحمل عليهم ربهم إصراً كما حمله على مَنْ قبلهم ولا يُحمّلهم ما لا طاقةَ لهم به، وهم سينالون العفو والمغفرة والرحمة، وسينتصرون على القوم الكافرين فليفرحوا بذلك وليطمئنوا.

يقول أستاذنا الإمام عبد الحميد الفراهي - رحمه الله -: «قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ... الآية﴾ تطييب من الله لقلوب المؤمنين ولا نسخَ فيها لما مر من أمر المحاسبة»(١).

ويشبهه ما قاله من قبل العلاّمة ابن الزبير الغرناطي شيخ أبي حيان - رحمهما الله - حيث قال: «فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾، فاعلم أن هذا إيمان الرسول ومَنْ كان معه على إيمانه وأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، لا كقول بني إسرائيل: سمعنا وعصينا، وأنه أثابهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمؤاخذة بالخطأ والنسيان عنهم فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾»(٢).

وممن سبقهما بالقول بعدم نسخ ما مرّ من أمر المحاسبة سيدنا ابن عباس - رضي الله عنهما حيث روي قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ فذلك سرّ أمرك وعلانيته ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ وإنها لم تنسخ(٣).

وأيضاً روي عن الربيع بن أنس قوله عن هذه الآية: (هي مُحْكَمة لم ينسخها

---

(١) مذكرات القرآن للفراهي، (مخطوط).

(٢) البرهان في ترتيب سور القرآن، ص٩.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: ١٢٠٨/٣.

شيء)[1].

ثم إن هذه الأدعية الحارة الضارعة كما تمثل لنا بنظمها وسياقها ذلك الجو الحلو اللطيف، الذي أشرنا إليه فكذلك تُذكِّرنا ذلك المشهد الرائع الجميل، حين كان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يرفعان القواعد من البيت، فكانت أيديهما الطاهرة ترص اللبنات، وكانت قلوبهما الخاشعة تخفق بهذه الكلمات: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

فهذه الأدعية التي جعلها الله مسك الختام لهذه السورة الكريمة - السورة التي تشتمل على الدعوة التي دعاها إبراهيم وإسماعيل لهذه الأمة، هذه الأدعية توحي بما يملؤها من حرارة الإسلام وبريق الإيمان، وأن الأمة التي كان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يتطلعان إليها ويتمنيان وجودها، هي تلك الأمة.

فهي أمة قد آمنت بما أنزل إليها ربها أروع إيمان، واستجابت لدعوته أحسن استجابة، فكانت مثلاً فذاً في السمع والطاعة والبذل والتضحية.

ومن هنا كانت أمة مسلمة حقاً كما أرادها إبراهيم.

إذاً فهذه الخاتمة الجميلة لهذه السورة الكريمة كانت إعلاناً باستجابة دعاء إبراهيم. وكانت إعلاناً بأن الأمة التي ظل إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يحلمان بها طوال السنين قد أخذت طريقها إلى الوجود لتلعب دورها المرتقب في هذا الكون العظيم.

ومما هو غنيٌّ عن الذِّكرِ أن هذه الأدعية الحارة الضارعة الخاشعة لم تكن نتيجة وَهنٍ أو ضعف أو استكانة وما إلى ذلك، وإنما كانت نتيجة إحساس مُرْهَفٍ بضخامة المهمة وعظم المسؤولية. وهذا الإحساس المرهف هو الذي حملهم على أن يتزودوا بهذا الزاد الكريم - زاد الدعاء والتضرع إلى الله - قبل أن ينزلوا في المعركة.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٣/١٢٠٧.

فهذا الدعاء والتضرع إلى الله كان دليلاً على صفاء نيتهم وصدق عزيمتهم وعلوّ همتهم وكان مؤهلاً لهم للقيام بتلك المهمة الجليلة التي لم ينهض لها غيرهم.

ومن الظواهر العجيبة في تاريخ الدعوة أن أية أمة من الأمم لم توفق إلى تلك الدعوات الضارعة الخاشعة كما وفقت إليها هذه الأمة.

فأصحاب طالوت لما برزوا لجالوت وجنوده لم يزيدوا على أن قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة].

والحواريون الذين استجابوا لدعوة سيدنا عيسى وتقدموا لنصره لم يزيدوا على أن قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

وصحابة الأنبياء الآخرين لم يُؤْثَرْ عنهم غير قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران].

أما تلك الدعوات الطويلة الضارعة الخاشعة - كما نرى في خاتمة هذه السورة وكما سنرى في أول آل عمران وفي خاتمتها - فهي من خصائص هذه الأمة - الأمة التي بُعثت استجابةً لدعوة سيدنا إبراهيم، فجاءت تشبه - بعض الشبه - أباها إبراهيم في دعواته الطويلة الضارعة الخاشعة، كما وردت في هذه السورة وفي سورة إبراهيم.

وبالجملة فهذه الآيات الثلاث، التي جعلها الله ختاماً لهذه السورة الكريمة، كانت اختصاراً عجيباً لمضمونها، حتى جعلت آخرها تعانق أولها بشكل عجيب.

ولكن لا عجب، فذلك تقدير العزيز العليم.

* * *

عمود السورة

إذا أردنا أن نعرف عمود هذه السورة ونعرف اتجاهها، فلا تغب عن بالنا تلك الآيات التي تلمع فيها كأنها نار على يفاع:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ .
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلتَّوَّابُ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ
وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾
ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ .
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ .
بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ
﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ
ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ .
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ
﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ .
﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ .
وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ .
تلك الآيات التي تتلألأ في مختلف أنحاء السورة وتلمع فيها كأنها نار على يفاع،
والتأمل فيها يساعدنا في تحديد عمودها واتجاهها، ألا وهو تقرير حقية القرآن والدعوة
إلى الإيمان به.

إ فبدئت السورة بالإشادة بالقرآن والتنويه بشأنه وخُتمت بالثناء على الرسول وصحبه
ءَ

[ال أنهم يؤمنون به.
ثم الآيات التي تحفّ بها فاتحة السورة وخاتمتها أيضاً تحمل نفس اللون وترجع إلى
،
ذلك نفس النقطة.
هذا إجمال القول في هذا الباب وتفصيله فيما يلي.
ثم إن أوائل هذه السورة (١-٢٠) تقسم الناس إلى ثلاث فرق حسب مواقفهم من هذا
من مه
أرخاها

الكتاب، ثم يوجه النصح إلى الفرقة ...
عبادة ...

ثم تناول السياق ما حرّمه بنو إسرائيل من طيبات الطعام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

ولقد تناول السياق ها الموضوع حيث أنه كان من علامات هذا الكتاب أنه يُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ . . . ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وهكذا نرى السياق تناول موضوع القبلة وموضوع إحلال الطيبات لكونهما من دلائل حقية هذا القرآن ومن دلائل كونه ذلك الكتاب الذي بشرت به كتبهم ونادت به رسلهم منذ مئات السنين (١٤٢-١٧٦).

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذه الظاهرة حيث قال بعد ما انتهى من هذين الموضوعين: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

ومما نلاحظ في هذه الآيات (١٤٢-١٧٦) أنها وإن كانت لا تخاطب بني إسرائيل خطاباً مباشراً، كما رأينا في الآيات التي قبلها، إلا أنها تتناولهم من حين لآخر وتوجه إليهم القول بطريق غير مباشر، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

أو كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

أو كقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

فالكلام – في هذه المجموعة من الآيات – وإن كان متّجهاً – في أغلبه – إلى الذين آمنوا إلا أنه قد ينصرف انصرافاً إلى بني إسرائيل.

ثم تجيء آية البر: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ

ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾.

تلك الآيات التي تتلألأ في مختلف أنحاء السورة وتلمع فيها كأنها نار على يفاع، والتأمل فيها يساعدنا في تحديد عمودها واتجاهها، ألا وهو تقرير حقية القرآن والدعوة إلى الإيمان به.

فبدئت السورة بالإشادة بالقرآن والتنويه بشأنه وخُتمت بالثناء على الرسول وصحبه أنهم يؤمنون به.

ثم الآيات التي تحفّ بها فاتحة السورة وخاتمتها أيضاً تحمل نفس اللون وترجع إلى نفس النقطة.

هذا إجمال القول في هذا الباب وتفصيله فيما يلي.

إن أوائل هذه السورة (١-٢٠) تقسم الناس إلى ثلاث فرق حسب مواقفهم من هذا

الكتاب، ثم يوجه النصح إلى الفرقة الثالثة منهم أن يؤمنوا بهذا القرآن. ويفيئوا إلى عبادة ربهم، إن كانوا يريدون العزة والكرامة، وكانوا يريدون أن يكونوا في مأمن من الخوف والحزن يوم القيامة: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

ثم يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل أن يوفوا بعهدهم مع الله، ويؤمنوا بهذا القرآن الذي جاءهم مصداقاً لما بَشَّرت به كُتبهم ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً.

ويوجه النصح إلى المؤمنين كذلك أن يستعينوا بالصبر والصلاة ويطمئنوا أنهم سيلقون أجرهم عند الله (٤٠-٤٦).

ثم يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل مرة أخرى، وتُفصّل مواقفهم من أنبيائهم السابقين، ومواقفهم من كتابهم الذي آتاهم ربهم، حيث أنهم حرّفوه وبدّلوه وزادوا فيه ونقصوا، فكتبوا الكتاب بأيديهم، ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، وهم نكصوا عن أحكامه وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، ونبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلْكِ سليمان.

ثم كان من صنيعهم كذلك أنهم أثاروا الشبهات حول هذا الكتاب، وصاحوا وجلّبوا أنه جاء ينسخُ الشرائعَ التي أنزلها إليهم ربهم. إذاً فليس هذا الكتاب من عند الله، فإنه لو كان من عنده لم ينسخ ما جاء من عنده!

وهكذا يستمر السياق في بيان موقفهم من كتاب الله ورسله في القديم والحديث، ثم يختم الحديث، بقولٍ يبدّد كل ما نسجوه من شبهات: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

فطالما أن الصالحين منهم يستقبلون هذا الكتاب بالشوق والحب والحفاوة، ويؤمنون به ويتلونه حق تلاوته، فليس له مدلول إلا أن الذين يطعنون فيه وينثرون حوله الشبهات هم الكاذبون المفسدون (٤٧-١٢١).

ثم يناديهم السياق مرة أخرى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

ثم يقص عليهم قصة أبيهم إبراهيم، ويقص عليهم قصة بنائه لهذا البيت، ويُذكِّرهم

تلك الأدعية الحارة الخاشعة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

إذاً فما أُخرجت هذه الأمة، وما بُعث فيهم هذا الرسولُ، وما أُنزل إليهم هذا الكتاب إلا استجابةً لدعوة إبراهيم وإسماعيل!

فإن كانوا يعادون هذه الأمة، ويعادون هذا الرسول ويعادون هذا الكتاب، فهذا العداء سيؤديهم - لا محالة - إلى عداء إبراهيم!! ثم يؤديهم إلى عداء إسحاق ويعقوب!! وبالتالي سيقطع صلتهم بتاريخهم المجيد الذي هو موضع افتخارهم!!

وهكذا يستمر السياق في الحديث معهم حول هذا الموضوع بمختلف الأساليب.

ثم ينهي الحديث معهم بعد إقامة الحجة عليهم بهذا القول الفصل، وبهذا الوعيد الرهيب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ (١٢٢-١٤١).

ثم يتناول السياق موضوع تحويل القبلة، فإن هذا الموضوع كانت له صلة وثيقة بهذا الكتاب وبهذه البعثة المباركة، حيث أن الكعبة هي قبلة إبراهيم. وقد دعا إبراهيم لهذا الرسول وهذه الرسالة وهو مشغول بهذا البناء الكريم.

وقد كان من علامات هذا الكتاب وعلامات هذه النبوة أنهما يعيدان الأمر إلى نصابه، ويعودان بالناس إلى ملة إبراهيم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

فتناول السياق هذا الموضوع لكونه ذا صلة وثيقة بموضوع هذا الكتاب، إضافة إلى ذلك أن الآيات السابقة قد هيأت جواً ملائماً لتناول هذا الموضوع.

ثم انساق الكلام من موضوع تحويل القبلة إلى موضوع الصفا والمروة، فإنهما أيضاً من معالم ملة إبراهيم، فكان لا بد أن يُبيَّنَ أمرهما، وكان لا بد أن تُخرقَ الستور التي أرخاها عليهما بنو إسرائيل حتى يكتموا أمرهما.

ثم تناول السياق ما حرّمه بنو إسرائيل من طيبات الطعام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾.

ولقد تناول السياق ها الموضوع حيث أنه كان من علامات هذا الكتاب أنه يُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ... ١٥٧ ﴾ [الأعراف].

وهكذا نرى السياق تناول موضوع القبلة وموضوع إحلال الطيبات لكونهما من دلائل حقية هذا القرآن ومن دلائل كونه ذلك الكتاب الذي بشرت به كتبهم ونادت به رسلهم منذ مئات السنين (١٤٢-١٧٦).

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذه الظاهرة حيث قال بعد ما انتهى من هذين الموضوعين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦ ﴾.

ومما نلاحظ في هذه الآيات (١٤٢-١٧٦) أنها وإن كانت لا تخاطب بني إسرائيل خطاباً مباشراً، كما رأينا في الآيات التي قبلها، إلا أنها تتناولهم من حين لآخر وتوجه إليهم القول بطريق غير مباشر، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠ ﴾.

أو كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤ ﴾.

أو كقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ﴾.

فالكلام - في هذه المجموعة من الآيات - وإن كان متّجهاً - في أغلبه - إلى الذين آمنوا إلا أنه قد ينصرف انصرافاً إلى بني إسرائيل.

ثم تجيء آية البر: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ

بِٱللَّهِ. . . إلخ ﴿١٧٧﴾.

ولقد بينّا في تأويلها أن وجه الخطاب فيها إلى بني إسرائيل ولقد جاءت هذه الآية لتخلع عنهم فضيلة البرّ نهائياً حيث أنهم لم يوفوا بالعهد، ولم يؤمنوا بهذا القرآن، وأخلوا بكل ما يملي عليهم واجب البر.

وبعد هذه الآية ينصرف عنهم السياق انصرافاً نهائياً، كأنهم بعد إخلالهم بمقومات البرّ ومتطلباته - وعلى رأسها الإيمان بهذا الكتاب - لم يصلحوا لأن يوجه إليهم القول بأي طريق كان، بطريق مباشر أو غير مباشر.

فالسياق ينصرف عنهم انصرافاً كاملاً إلى جماعة الذين آمنوا، فيعظهم ويرشدهم ويأمرهم وينهاهم ويعطيهم حشداً من التوجيهات والتشريعات المتنوعة (١٧٨-٢٨٣).

ولا نريد أن نطيل الوقوف عند تلك التوجيهات والتشريعات، فقد سبقت لنا وقفات وجولات عند كل واحدة منها، وسبق أن بينا حسن موقعها وحسن مناسبتها فيما بينها.

والآن لا يهمنا إلا أن نقول: إن هذه التوجيهات - مع اختلاف طبيعتها وألوانها - تخدم هدفاً واحداً موحداً، فهي - في مجموعها - تُعِدّ المرء إعداداً روحياً، وتعلمه حسن التلقي لما جاء من عند ربه، وهل أدلّ على ذلك من قوله تعالى في سياق الطلاق وعدة الطلاق:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾.

فهذه التوجيهات والتشريعات كلها تصرف اهتمام المرء إلى تقوى الله وحسن التمسك بكتابه، وهذا هو السر في أنه كثر ذكر التقوى في هذه الآيات، حتى أصبحت هي الأخرى أبرز شيء في هذا الجو، ولا تخفى صلة التقوى بحسن التلقي لكتاب الله. وقد ورد التنبيه إلى هذه الحقيقة في مستهلّ هذه السورة حيث قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

فالتقوى هي أساس الانتفاع بهذا الكتاب، ولا ينتفع به إلا مَنْ كان عنده رصيد

طيب منها.

ومما نلاحظه كذلك في هذه الآيات أنه كثر فيها ذكر الإنفاق وكثر الترغيب فيه والحث عليه مع التحذير الشديد مما يقابله من أكل الربا وأكل الأموال بالباطل.

ولقد شغل هذا الموضوع مساحة أوسع وأكبر من أيّ موضوع آخر في هذه الآيات.

وهذه الظاهرة أيضاً تخدم نفس الهدف الذي أشرنا إليه من الإيمان بالقرآن والتمسك به، حيث أن اليهود والنصارى لم يُلْهِهم عن كتابهم إلا حبُّ الدنيا والميل إلى شهواتها كما مضى معنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ... الآية ﴿١٧٤﴾﴾.

ويقابل ذلك ما ذكر لنا في أول هذه السورة من الملامح البارزة الرئيسية لمن ينتفعون بهذا الكتاب ويهتدون به ومنها أنهم ينفقون مما رزقهم الله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

فالإنفاق في سبيل الله يمسح عن القلب أدران حب الدنيا والميل إلى شهواتها، ويذكي فيه الشوق إلى كتاب الله والحرص على التمسيك به، ويجعل منه تربة خصبة صالحة لهذه البذرة الطيبة المباركة.

فكان من المناسب جداً في هذه السورة - وهي سورة تدور حول الإيمان بالقرآن والتمسك به - أن يبرز فيها هذا الموضوع، ويكثر من الترغيب فيه والحث عليه، كما كان من المناسب جداً أن تبرز فيها حقيقة التقوى ويكثر من الترغيب فيها والحث عليها.

وبالجملة فالقسم الأول من هذه السورة - وهو الذي يخاطب بني إسرائيل أو يتحدث عنهم - تقرير لحقية القرآن ودعوة إلى الإيمان به، وتقريع وتعنيف على الإعراض عنه والتشكيك في أمره، والصد عن سبيله.

والقسم الثاني منها - وهو الذي يخاطب الذين آمنوا - يدعوهم إلى حسن الاستجابة وحسنَ التلقي لكتاب الله وشرائعه، بعد الإيمان به والانضمام إلى لوائه، ويرشدهم إلى ما يساعدهم على ذلك من التقوى والمحافظة على الصلاة والإنفاق لوجه الله.

ثم تأتي الخاتمة، وهي تعرض صورة مشرقة منيرة لإيمان الذين آمنوا بهذا القرآن حق الإيمان، ثم شعروا بعظم المسؤولية وشدوا مآزرهم للنهوض بتكاليفها، متضرّعين إلى ربهم أن يعينهم في أمرها.

هذا ما تيسر لنا في بيان عمود هذه السورة العظيمة بعون الله وتوفيقه.

فلك الحمد يا رب، كما تحبه وترضاه، ولك الثناء كما أثنيت على نفسك.

* * *

الباب الثالث
نظام سورة آل عمران

إن النظرة الفاحصة المتأملة في هذه السورة تكشف للناظر فيها أنها - كأختها - نموذج رائع لدقة النظام وحسن التناسق فيما بين آياتها، ولقد أُحكِمَ نسجها وأُتقِنَ بناؤها فما ترى في وحي الرحمن من تفاوت.

وها نحن نتناول في ما يلي هذه السورة فقرة فقرة ونحاول أن نكشف القناع عن وجه نظامها وعما تتمتع به من نَسْجٍ محكم وبناء متقن.

كما سنشير إلى نبذة من تلك الحكم والمعاني الغالية التي تزخر بها، والتي لا تنكشف إلا بعد إنعام النظر في نظامها وسياق آياتها.

* * *

نظم الآيات (١-١٨)

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

* * *

تلك ست آيات جاءت كمطلع لهذه السورة الكريمة.

وتلك الآيات تركز في مجموعها على تقرير ظاهرة التوحيد حيث بدئت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ وختمت بقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

فهو المتفردُ بالألوهية لأنه - تعالى - هو الحي القيوم وهو العزيز الحكيم، وأما

غيره فليس له منها نصيب، لأنه ليس له نصيب من هذه الصفات التي تعتبر من مقومات الألوهية، ولا تقوم لها قائمة بدونها.

وبعبارة أخرى فإن هذه الآيات جاءت تؤكد للناس دين الإسلام، فإن التوحيد النقي الخالص هو جوهر الإسلام وليس للإسلام معنى سواه.

وقد ذكرت هذه الحقيقة بأسلوب أوضح في نفس السورة حيث قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴿١٩﴾ ﴾.

فهاتان الآيتان تفيدان بنظمهما أن الإسلام هو دين التوحيد الخالص، والدعوة إلى التوحيد وإفراد الله بالألوهية هي الدعوة إلى الإسلام.

وبهذه الدعوة جاء هذا القرآن، وجاء بها التوراة والإنجيل: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾.

ثم إن القرآن ليس مجرد نداء إلى هذه الدعوة، بل جعله الله فرقاناً يفصل بين الحق والباطل: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

ولقد سبق معنا مثل هذا الوصف في شأن التوراة حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

فكما أن التوراة جاءت لتفرق بين الحق والباطل وجاءت لترفع قوماً وتضع آخرين، فكذلك جاء هذا القرآن ليقوم بمثل تلك المهمة، ويكبت كل مَنْ حاد عن الطريق، وكفر بآيات الله، وعلى رأسهم هؤلاء اليهود والنصارى، الذين تَنكَّبوا عن هدي الله، ولم يقيموا التوراة والإنجيل، ولم يقبلوا ما جاءهم به هذا النبي، مع أنه جاء مصدقاً لما بين يديه.

فليعلم هؤلاء أنهم لا يَخْفَونَ على الله، ولا بد أن يلاقوا جزاء عملهم.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ شبيهاً بقوله تعالى في سورة الملك: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك].

فالمخلوق لا يمكنه أن يخفى على الخالق، ولا يمكنه أن يفلت من يديه وينجو من عقابه إذا أراد به ذلك.

ثم تطالعنا هذه الآيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ
مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا
وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ (٨) رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ
ٱلۡمِيعَادَ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ
ٱلنَّارِ (١٠) كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (١١) قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (١٢) قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ
فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ (١٣) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ
ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (١٥) ٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٦) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ
وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ (١٧) شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا
بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (١٨)﴾.

* * *

وقبل أن نبين مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها، نود أن ندرس ما ورد في سبب نزولها، فإن هذا سيكون لنا عوناً على إدراك ما يوجد فيها من وجوه المناسبة.

* * *

سبب نزول الآيات:

يقول الأستاذ سيد قطب: «وتذكر عدة روايات أن الآيات ١-٨٣ نزلت في الحوار مع وفد نصارى نجران اليمن الذي قدم المدينة في السنة التاسعة للهجرة. ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات. فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت في الفترة الأولى من الهجرة، حيث كانت الجماعة المسلمة بَعدُ ناشئة، وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها وفي سلوكها»[1].

(١) في ظلال القرآن: ١/٣٥٢.

ويزيد - رحمه الله - فيقول: «إذا أخذنا بالروايات التي تقول: إن الآيات الأولى من هذه السورة إلى بضع وثمانين آية منها قد نزلت في مناسبة قدوم الوفد من نصارى نجران اليمن، ومناظرته للرسول ﷺ في أمر عيسى عليه السلام، فإن هذا الدرس بجملته يكون داخلاً في إطار هذه المناسبة، لولا أن هذه الروايات تُوقِّتُ مجيء ذلك الوقفر بالسنة التاسعة للهجرة، وهي السنة المعروفة في السيرة باسم «عام الوفود» حيث كان الإسلام قد انتهى إلى درجة من القوة والشهرة في الجزيرة العربية كلها - وفيما وراءها كذلك - جعل الوفود من شتى بقاع الجزيرة تَفِدُ على النبي ﷺ تخطب ودَّهُ، أو تعرض التعاهدَ معه، أو تستجلي حقيقة أمره.

ونحن كما أشرنا فيما تقدم نحس أن الموضوع الذي تعالجه هذه الآيات، وطريقة علاجها له، كلاهما يرجح أن هذه الآيات نزلت مبكرة في السنوات الأولى للهجرة. . ومن ثم فنحن أميل إلى اعتبار ما ورد في هذه السورة من حجاج وجدل مع أهل الكتاب، ونفي للشبهات التي تضمنتها معتقداتهم المنحرفة، أو التي تعمدوا نثرها حول صحة رسالة النبي ﷺ وحقيقة عقيدة التوحيد الإسلامية وكذلك ما اقتضاه كيد أهل الكتاب من تحذير للجماعة المسلمة وتثبيت، نحن أميلُ إلى اعتبار هذا كله غير مقيدٍ بحادث وفد نجران في السنة التاسعة، وأنه كانت هناك مناسبات أخرى مبكرة هي التي نزل فيها هذا القرآن من هذه السورة.

ومن ثم سنمضي في استعراض هذه النصوص بوصفها مواجهة لأهل الكتاب غير مقيد بهذا الحادث الخاص المتأخر في التاريخ»[1].

إن هذا الإشكال الذي نبه إليه الأستاذ سيد قطب بشأن ما وردت به الروايات إشكال وجيه جداً، ولا يملك باحث أن يتغافل عنه، فنحن نؤيد رأي الأستاذ - رحمه الله - عن وعي وقناعة، ثم نزيد فنقول:

إشكال آخر:

لا ينحصر الإشكال في أن وفد نصارى نجران جاء متأخراً في السنة التاسعة للهجرة وأن هذه الآيات تطلب بجوّهاوطبيعتها مناسبة أو مناسبات مبكرة لنزولها.

بل هناك إشكال آخر، ولعله أخطر شأناً من الأول، وهو أن هذه المجموعة تشتمل

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٣٦٢.

على آيات لا تَصْدُقُ إلا على اليهود.

نأخذ - مثلاً - قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

ومن يكون أولئك غير اليهود؟ إن أعمالهم هذه من الاشتهار بحيث لا يلزم أن يسمّوا بأسمائهم، وإنما تكفي الإشارة لأعمالهم لِيُعْلَمَ مَنْ هم!

وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾.

فإن القرآن لم يصم بالزيغ إلا اليهود، حيث قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف].

كما لم يطلق وصف «الراسخين في العلم» إلا على الصالحين منهم حيث قال: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء].

إذاً فلا يصح القول بأن هذه الآيات تتناول النصارى أو تخص وفداً منهم، يُعرفُ بوفدِ نصارى نجران.

ولعل الذي ذهب بالناس إلى هذا القول، أو حَملَهم على قبول روايات أدتهم إلى هذا القول - على الرغم من ضعفها ورقة إسنادها - هو أن قدراً كبيراً من هذه الآيات تحتوي على ذكر عيسى وأم عيسى - عليهما الصلاة والسلام -.

ولكن مجرد هذا السبب لا يكفي للقول بأن هذه الآيات ناظرة إلى النصارى، وأنها جاءت تخاطبهم وترد على تساؤلاتهم.

إشكال ثالث:

ولو أننا قلنا بمثل هذا القول، فإنه سيوقفنا أمام إشكال يعوزنا التخلص منه، وهو أن مناظرة هؤلاء النصارى وجدالهم إنما كان يدور حول الاعتقاد بإلهيّة عيسى وبنوته وما إلى ذلك، فما بال القرآن قد استفاض في ذكر نذر امرأة عمران، ثم في نشأة مريم

ثم في قصة زكريا ويحيى؟ وما صلة هذه القضايا بتلك؟

وأيضاً تناول القرآن هذا قصة عيسى بأسلوب لا يتفق أو لا يتناسب مع القضية التي قد أثارها هؤلاء.

فما علاقة تلك القضية بمكر اليهود بعيسى وبرفعهِ وبوعدِ متّبعيه بالغلب والنصر إلى يوم القيامة؟

وإنما كان يكفي في مثل هذا الجو أن يعارض هؤلاء بما ورد في سورة مريم، فقد كانت سورة مريم رداً مقنعاً وجواباً مفحماً لكل من يعتقد في عيسى غير ما كان عليه من البشرية والعبودية.

وليست قصة النجاشي وبطارقته عنّا ببعيد.

فما كان من سيدنا جعفر بن أبي طالب إلا أن تلا عليهم من هذه السورة الكريمة وإذا بهم قد انهمرت دموعهم واخضلّت لحاهم! ولم يسع أحداً منهم أن يعارض تلك الآيات ولو بكلمة واحدة.

وعلى أية حال فالتأمل في تلك الآيات وسياقها وملابساتها المحيطة بها يذهب بنا إلى القول بأنها لا صلةَ لها بحادثِ وفد نصارى نجران، بل هي أَعَمُّ من ذلك.

ثم إن الخطاب فيها وإن كان موجهاً إلى أهل الكتاب - وأهل الكتاب يشمل الطائفتين: اليهود والنصارى - إلا أنها في أصلها ناظرة إلى اليهود، وسيزداد الأمر وضوحاً حين نتناول تلك الآيات بالتفصيل وندرسها في ضوء سياقها.

مناسبة الآيات فيما بينها:

والآن وقد انتهينا من دراسة ما ورد في سبب نزول تلك الآيات نتوجه إلى التماس وشائج الربط فيما بينها.

لقد علمنا في الفقرة السابقة أن تلك الآيات الست تركّز في مجموعها على تقرير ظاهرة التوحيد وبالتالي على تقرير ملة الإسلام، فإن الإسلام هو دين التوحيد، والتوحيد هو جوهر الإسلام.

وهذه الآيات تصوّر لنا كأن أعداء الإسلام - وهم اليهود - يستقبلون هذه الدعوة شرَّ استقبال وينثرون حولها الشبهات، فيقولون - مثلاً -:

إذا كان هذا الدين دينَ التوحيد الخالص فما بال قرآنه يزعم عن عيسى أنه خلق من غير أب! وهل يُخلَقُ بشرٌ من غير أب! وكيف يمكن أن يخلق بشر من غير أب؟! هيهات هيهات أن يخلق بشر هذا الخلق، وإن صحّ أن عيسى خلق من غير أب فلا جرم أنه ليس بشراً، وإنما هو إله مع الله.

إذاً فأين بقي التوحيد الذي يزعمه القرآن؟ وما معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وما إلى ذلك؟ إن دعوى القرآن تنتقض على لسانه نفسه!

وكان هذا أنموذجاً لاتباع اليهودِ ما تشابه من الكتاب وعُدولهم عن آياته المحكمات، فإنَّ كون عيسى عبداً وبشراً رسولاً كان واضحاً وضوح الشمس، وكم من آية محكمة في القرآن قد تناولت هذه القضية تناولاً جاداً وبيَّنته بياناً شافياً، إلا أن اليهود ما كانت تعنيهم تلك الآيات.

وإنما الذي كان يشغل بالهم هو أن عيسى كيف خُلق من غير أب؟ وما هي حقيقة هذا الخلق، وما هي تفاصيله؟ هم كانوا يريدون أن يدركوا كُنْه هذا الحادث، ويعلموا تأويله، مع أن العقل البشري يعجز عن إدراكه وعلم تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله.

ولم يكن الدافع إلى اتباع هذا الأمر المتشابه أو الحادث المتشابه إلا ابتغاء الفتنة، فإن صنيعهم هذا قد تمخض عن شبهتين. شبهة حول هذا الدين الجديد الذي جاء به النبي ﷺ، وشبهة حول شخصية عيسى، الذي كانوا يحملون عليه الحقد منذ قديم، وبذلك رموا عصفورين بحجر واحد، وأظهروا للناس أن الدين هو دينهم، ولا يضره إذا كانت فيه شائبة الشرك، فإن الشرك لا يخلو من أي دين، حتى هذا الدين الجديد الذي ينادي بالتوحيد ويتبرأ من الشرك.

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن القرآن عَلَّلَ (اتباع المتشابه) بقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ وهذا أيضاً يذهب بنا إلى القول بأن وجه الخطاب في تلك الآيات إلى اليهود، فإن اليهود، إذ أثاروا هذه القضية لم يكونوا يقصدون بذلك إلا أن ينثروا الشبهات حول هذا الدين الجديد، ويُنفِّروا الناسَ عنه، وأنسب كلمة تنطبق على هذا الموقف السلبي ابتغاء الفتنة.

بخلاف النصارى فإنهم لو كانوا وراء هذه القضية وأرادوا بذلك أن يدافعوا عن معتقداتهم - سواء حقاً أو باطلاً - فإن هذا لا يسمى ابتغاء الفتنة، وإنما هو جهل أو

شقاق وما إلى ذلك.

وبالجملة فإن فريقاً من اليهود قابلوا هذه الدعوة باتباع المتشابهات دون المُحْكمات وعارضوها بخبث التصرف وابتغاء الفتنة، بينما الفريق الآخر منهم وهم الراسخون في العلم استقبلوها بكل حفاوة وحرارة وبكل حرص وشوق كما قال تعالى: ﴿وَالرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

وما هو ذلك الميعاد الذي تشير إليه الآية الكريمة؟

الظاهر المتبادر أن المراد به هو الذي ذُكِرَ في الآية التالية: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة].

وهذا أيضاً يُعزِّزُ قولَنا الذي أسلفنا من أن المراد بالراسخين في العلم هنا هم العلماء الصالحون من اليهود قبل غيرهم. وقولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ استبشار بذلك الوعد الذي سبق لهم من ربهم حيث أنهم آمنوا بهذا الرسول وعَزَّروه ونصروه، فبذلك استحقوا كل ما يتضمنه الوعد من نعمة وسعادة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ تأكيد لذلك الميعاد وتطييب لقلوبهم وتبشير لهم أنهم سوف يجدون ربهم عند وعده.

وبعد ذكر هذا الموقف المشرق لهؤلاء الراسخين في العلم، ينصرف الحديث مرة أخرى إلى القوم الذين في قلوبهم زيغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَٰرِ﴾.

إن هذه الآيات تدعوهم إلى أن ينتبهوا من سكرتهم ويعلموا أن أموالهم وأولادهم التي قد غرّتهم وحملتهم على التلاعب بآيات الله لن تغني عنهم من عذاب الله من شيء، كما أن آل فرعون ومن قبلهم لم تغن عنهم أموالهم ولا جنودهم، وكلهم لاقوا مصيرهم حين كذّبوا بآيات ربهم.

وإن لم يكن عندهم استعداد لأن يتّعظوا بالماضي البعيد فليتّعظوا بالحاضر القريب.

فقد كان بمرأى منهم ومَسمع أن فئتين التقتا ببدر. فئة مؤمنة وأخرى كافرة.. والفئة الكافرة كانت تفوق الفئة المؤمنة في عَدَدها وعُدَدها. كانت تفوقها في عَدَها ثلاث مرات وفي عُدَدها عدة مرات، إلا أنهم لما التقوا انعكس الوضع، فقد رأت الفئة الكافرة تلك الفئة المؤمنة مِثْليهم، وليس أن الأمر قد شبّه لهم بل رأوهم هكذا رأي العين، فإن الله قد أيدهم بنصره، وأنزل إليهم جنوداً من عنده. فلم يغن عنهم عَدَدهم وعُدَدهم التي كانوا مغترّين بها، وانجلت المعركة بانتصار ساحق للفئة المؤمنة التي كانوا يزدرونها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

لا شك أن حادثاً واحداً كهذا الحادث يكفي للاعتبار لمن كان من أولي الأبصار، خاصة وقد كان هذا الحادث تصديقاً واضحاً لما جاء في كتبهم عن النبوة الأخيرة الخالدة، حيث قال لهم يسوع: (إنَّ ملكوتَ الله يُنزَعُ منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. ومَنْ سقط على هذا الحجر يترضّض ومن سقط هو عليه يسحقه)[1].

حقاً، إن هذه المعركة كانت تصديقاً واضحاً لمثل هذه النبوءات التي وردت بها كتبهم، وكانت تكفي للاعتبار لمن كان من أولي الأبصار، ولكن أين أولو الأبصار؟!

فقد زُيِّنَ للناس حب الشهوات.. وأنّى لمن أخلد إلى الشهوات أن يبصر الآيات ويعتبر بها؟!

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ... وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

ثم في مقابل تلك الشهوات، التي لا تعدو أن تكون متاع الحياة الدنيا، ذكر ما هو خير وأبقى وذكر الذين يستحقونه ويستمتعون به عند الله: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ... وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

ويتبين مما تقدم أن الفوز كله مرتبط بمشيئة الله، فهو يؤيد بنصره من يشاء في الدنيا، وهو الذي يكرم من يشاء بنعيم الآخرة. وهذا الوضع إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على أنه ليس في هذا الكون إله غير الله، فالأمر كله بيده، وهو قائم بالقسط فلا يظلم أحداً ويسوق إلى كل أحد ما يستحقه.

وهذا أمر يشهد به الله ويشهد به أولو العلم - كما مر في أول هذه الفقرة - وتشهد به الملائكة حيث أنهم نزلوا في بدر وفي غير بدر ليقاتلوا أهل الكفر، فذلك قوله

---

(١) إنجيل متى: باب ٢١، آية ٤٤.

تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

فوائد تستفاد من نظم الآيات:

وبعدما انتهينا من هذه الآيات وبيان مناسبتها فيما بينها نعود إليها مرة أخرى لِنُلمعَ إلى بعض الفوائد التي تُستفاد من نظمها:

١- ذُكر الراسخون في العلم في مقابل الذين في قلوبهم زيغ، وهذا النظم يفيد أن الرسوخ في العلم لا يجتمع مع الزيغ، وإنما يصحب الإيمان واستقامة السلوك وخوف الآخرة، وكلما قويت صلة المرء بالله ازداد رسوخاً في العلم، وأما من كان مقطوع الصلة بالله فلا يمكنه الفوز بهذا الكنز ولو أفرغ مكتبات العالم كلها في ذهنه.

٢- اتباع المتشابهات يورث الزيغ في القلب كما أن زيغ القلب يحملُ على اتباعِ المتشابهات.

هذا الذي نعلمه من قول الراسخين في العلم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ بعد قولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾ فهم يتضرعون إلى الله أن يحفظهم من اتباع المتشابهات فيما بعد كما حفظهم الآن حتى لا يقعوا في الزيغ بعد إذ نجاهم منه.

ولعل هذا هو السبب في نهي النبي ﷺ عن الكلام في القدر، فإن المقادير أيضاً من المتشابهات. ولا يعلم تأويلها إلا الله.

٣- ثم قولهم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾ بعد قولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾ وقولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ يفيد بنظمه أن خوف الآخرة هو الذي يزم النفس ويحفظها من الزيغ ويمنعها من الخوض في المتشابهات ويحفزها إلى الإيمان بكل ما جاء من عند الله.

٤- ذكر السياق هنا مشهدين متقابلين. أحدهما: مشهد الذين في قلوبهم زيغ، والثاني مشهد الراسخين في العلم. وجاء في الأول أنهم يتبعون ما تشابه به من الآيات ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وجاء في الثاني أنهم يبادرون إلى الإيمان بكل ما جاء من عند ربهم ويستعيذون به من أن يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم.

وهذا النظم يفيد أنه ليس هناك فارق بين الفريقين إلا أن أحدهما يسارع إلى الإيمان

بكل ما جاء من عند الله ويطلب منه الثبات والاستقامة على ذلك، بينما الآخر يخوض في المتشابهات ويمتنع من الإيمان بها.

فالقول بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابهات قولٌ لا ينسجم مع السياق ولا يتفق مع نظم الآيات.

٥- ليس من الرسوخ في العلم أن يعلم المرء تأويل كل شيء، فهذا من شأن الرب وليس من شأن العبد، وإنما الرسوخ في العلم أن يعرف الإنسان حقيقته ويعرف حدوده ويعرف أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً، ثم يكون حريصاً غاية الحرص على كل ما جاء به من عند ربه، ويتلقاه بيد الشوق والقبول من غير تقاعس ولا تردد في أمره.

٦- لقد تحير الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾، ولم يكن هذا التحير إلا نتيجة طبيعية لقلة اعتنائهم بنظم الآية وسياقها، وإلا فالأمر كان واضحاً جداً ولم يكن ليجشّمهم هذا العناء[1] الذي لاقَوه في سبيله.

وإنْ كنا نريد أن نتوصل إلى حقيقة الأمر في هذا الموضوع فلنضع في اعتبارنا أموراً يمليها علينا السياق، وهي كما يلي:

* إن وَجْهَ الخطاب في هذه الآيات إلى اليهود وليس إلى المؤمنين، كما بيناه فيما تقدم.

* إن كان المؤمنون هم الذين رأوا عدوّهم مِثْليهم، فليس فيه آية لليهود ولا لأشياعهم.

* لو كان المراد من قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾، أن المؤمنين رأوا عدوهم مثليهم مع أنهم كانوا ثلاثة أضعافهم لم تكن هناك أية حاجة لزيادة قوله تعالى: ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ فإن هذه الزيادة تفيد أنهم رأوا هكذا وكان الأمر كما رأوا. ولو كان الواقع خلاف ما رأوا، لاكتفى السياق بقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾.

* ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ولا يخفى ما في هذه الزيادة من تأكيد وتفخيم للنصر الذي نزل على المؤمنين، وبعيد جداً جداً أن يكون

---

(١) ومن أراد أن يقدر الموقف فليراجع - مثلاً - تفسير القرطبي ٤/٢٥-٢٦، و(المحرر الوجيز ٣/٢٨-٣١)، و(معاني القرآن للفراء ١/١٩٤، ١٩٥).

المراد بذلك النصر المؤكد المفخم أن المؤمنين رأوا عدوهم مِثْليهم في حين كونهم ثلاثة أضعافهم.

* ثم جاء في نهاية الحديث قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ولا يخفى ما في هذه العبارة من دلالات وإيحاءات وهي كلها تظل غير مفهومة إذا قلنا في تأويل الآية مثلما قالوا.

ولعل أحسن قول وأقربه لسياق الآية هو ما قاله الإمام ابن كثير - رحمه الله - حيث قال: «وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾، قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر أن المسلمين مِثْليهم في العدد رأيَ أعينهم، أي: جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم»[1].

ويقاربه ما قاله المهائمي - رحمه الله - حيث قال: «تلك الآية أن المشركين كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً مع مائة وتسعين فرساً ﴿يَرَوْنَهُم﴾، أي: المسلمين وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر مع فرسين وسبعين بعيراً وستة أدرع وثمانية سيوف ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾، أي: مثلي المشركين لا بطريق التخييل، بل ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من غير احتياج إلى إراءة ذلك لكنه أراهم لتكون عبرة»[2].

٧- إن الآيتين (١٦-١٧) تذكران لنا عدة صفات لعباد الله المتقين، والملاحظ فيها أنها بُدئت بالاستغفار: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وختمت به: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ وهذا النظم يبين لنا أهمية الاستغفار وعظم شأنه في حياة المؤمن.

٨- ثم إن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يشير بنظمه إلى أن أكبر شيء يَشغلُ بالَ المؤمن الصادق هو أن تغفر له ذنوبه وينجو من عذاب النار، ولعل هذا أدق مقياس يستطيع المؤمن أن يقيس به إيمانه.

٩- قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ... ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ يفيد بنظمه أنه لا لقاء بين حب الشهوات وحب الله، والمطلوب من المؤمن أن يحب الله من كل قلبه وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأما تلك

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٥٠.

(٢) تبصير الرحمن وتيسير المنان: ١/ ١٠٥.

الشهوات التي تذكرها الآية، فإن المؤمن لا يحبها وإنما يستخدمها ويستعين بها في طاعة الله. وإن شئت فقل: إن المؤمن إذا أحب شيئاً منها فإنما يكون حبها خاضعاً لحب الله.

تلك بعض الحقائق تستفاد من نظم تلك الآيات. فنحمده سبحانه على أن هدانا إليها، ثم نقبل إلى ما بعدها من الآيات.

* * *

نظم الآيات (١٩-٢٢)

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٢﴾.

* * *

لقد خُتمت الفقرة السابقة بقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ومما لا يخفى أن هذه الكلمة هي عنوان الإسلام وروحه وجوهره وعماده.

فلما ثبتت هذه الكلمة وثبت أنه لا إله إلا الله ارتقى الكلام خطوة أخرى فنبَّه إلى أن هذا الدين هو الذي ارتضاه الله لخلقهِ، فهذا هو الدين، ولا اعتبار لدين آخر عند الله.

وهنا يثور سؤال: إذا كان هذا الدين الذي اصطفاه الله لخلقه، فما بال أهل الكتاب يُعرِضون عنه ويتنكرون له؟ وما بالهم قد سخَّروا طاقاتهم لمحاربته؟ مع أن الموقف كان يقتضي أن يكونوا في طليعة جيشه، ويجاهدوا لتقدمه وازدهاره.

فجاء الرد عليه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

ثم قيل للرسول ﷺ: طالما أن هؤلاء يعانون من داء البغي فلا خير في محاجتهم ولا داعي لتضييع الوقت معهم، وإنما عليك أن تبلغ الرسالة وتصارحهم أنك رضيتَ بالإسلام ديناً، ورضي معك من اتبعك به ديناً، وأي واحد من الركب لا يبغي عنه

حِوَلاً فليكفوا عن المحاجَّة وليقطعوا الرجاء إن كانوا يحسبون أنهم يتمكنون من إضلال أحد ممن اتبعك، ولينظروا في أمرهم هم وليقرروا في شأنهم: هل هم يسلمون أو لا يسلمون، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فسيذوقون وبال بغيهم فليس الله غافلاً عنهم.

وما كان هؤلاء ليسلموا فإنهم لم يكونوا يحاجون بحثاً عن الحق، وإنما كانوا يريدون أن يشككوا الناس في أمر دينهم ويقذفوهم في الشقاء الذي كان يحيط بهم.

ومثل تلك المحاجة مضت معنا في سورة البقرة، حيث قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [البقرة].

ونظراً إلى هذا الوضع يتقدم السياق إليهم بالوعيد والتهديد: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: إن الذين درجوا على الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء وقتل أوليائهم ممن يأمرون بالقسط، لا يرجى منهم اليوم أن يفيئوا إلى الحق ويثوبوا إلى الرشد، وإنما لهم أن يذوقوا العذاب الأليم، ويبوؤوا بالخسران المبين.

حقائق تستفاد من نظم الآية وسياقها:

ثم ترشدنا هذه الآية بنظمها وموقعها إلى عدة حقائق وهي كما يلي:

١- الكفر بآيات الله هو الذي يُجرِّىء على قتل الأنبياء وقتل من يقوم مقامهم من العلماء والصلحاء.

٢- الأنبياء كلهم جاءوا ليأمروا الناس بالقسط ويقيموهم عليه، وهذا يستفاد من نظم هذه الآية، ثم جاء صريحاً في موضع آخر، حيث قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد].

٣- أن الإسلام هو دين القسط، وما دام أن اليهود أعداؤه وظلوا في تاريخهم الطويل المديد يقتلون الذين يأمرون به لا يرجى منهم اليوم أن يغيروا موقفهم ويدخلوا في دين الإسلام، الذي جاء ليقوم الناس به.

٤- إن قتل الآمرين بالقسط من جنس قتل الأنبياء، والذين يقتلون دعاة القسط

والهدى لا يبعد أن يُلْحَقُوا عند الله بقتلةِ الأنبياء.

وفي واقعنا الراهن ما يُصدِّقُ ذلك، فإن قوماً قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة يدوسون مقدسات المسلمين بأقدامهم ويعبثون بأعراضهم، والمسلمون - مع كثرة عددهم وضخامة إمكانياتهم - لا يستطيعون حيلة ذلك ولا يهتدون سبيلا، كأنهم أصبحوا أهون على الله من عدوهم، وليس ذلك - فيما نرى - إلا لأن دعاة القسط عُذّبوا وشرّدوا وقُتّلوا على أيدي نفرٍ منهم، وما زالوا يعذّبون ويشرّدون ويقتّلون. وطال ذلك وامتدّ ولكن لم يعرق لهم جبين، بل نال هؤلاء النفر منهم كل تقدير وكل تعزيز وكل احترام! فإلى الله المفزع وإليه المشتكى.

٥- تفيد هذه الآية بنظمها أن اليهود في يومهم ذلك لم ينتهوا عند الحِجاج واللجاج، بل همّوا بقتل النبي وأصحابه، كما فعلوه مع أنبيائهم وصحابتهم في تاريخهم الطويل المديد.

تلك بعض الحقائق التي تستفاد من نظم الآية وسياقها. فلله الحمد وله الشكر على أن هدانا إليها.

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات لِمَا قبلها وفيما بينها وانتهينا من بيان ما يستفاد من نظمها نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٢٣-٣٢)

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

* * *

لقد رأينا في الفقرة السابقة أن أهل الكتاب قد لجأوا إلى الحجاج واللجاج بعدما أخفقوا في ميدان الاستدلال، وكانوا يحاجون الرسول وصحابته في أمر الإسلام، ولم يكن هناك شيء يحسم هذا النزاع وينهي هذا الحجاج واللجاج إلا أن يحتكموا إلى كتاب الله. ولكن أنّى لهم أن يحتكموا إليه، وقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم؟ فأُمِرُ الرسول ﷺ أن يختصر معهم الكلام ولا يسترسل في المحاجة، فإن المحاجة مَع البغي لا تأتي بخير.

وهنا نرى السياق يتعجب من إعراضهم عن كتاب الله بعد ما أوتوا نصيباً منه، فإن المفروض فيمن يحمل علم الكتاب أن يكون أسرع الناس إليه، وأحرصهم على الاحتكام إليه.

وأما أن يسترسل مع البغي ويعطي مقاده بيد الجهل فهذا ليس من شأن العلماء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

ولكن من أين جاء هذا البغي؟ وكيف استساغ هؤلاء أن يعرضوا عن كتاب الله وقد دُعوا إليه ليحكم بينهم؟

نرى الآية التالية تفصح عن هذا السبب: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

هذا التصور الخاطىء المنحرف هو الذي جرّأهم على الله وحملهم على البغي والإعراض عن كتاب الله.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وبعدما انتهى السياق من وصف الداء الذي كان يعاني منه أهل الكتاب والذي كان يحملهم على أن يتخذوا موقف العداء ضد الإسلام وأهله، التفت إلى المسلمين ليرسِّخ في قلوبهم جذور الإسلام وحقيقته: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

إن هاتين الآيتين تبينان للمسلم أبعاد كلمة الإسلام، فالإسلام ليس مجرد كلمة تقال باللسان، وإنما هو أن يعتقد المرء من صميم قلبه أن الله هو مالك الملك، فهو الذي يرفع من يشاء ويضع من يشاء ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، والخير كله بيده، وليس شيء إلا وهو آخذ بناصيته. حتى هذا الكون الواسع العريض خاضع لقدرته فهو الذي يقلب الليل والنهار وهو الذي يملك الموت ويمنح الحياة.

إن موالاة الكفار تشي بأن المرء لم يتخلص بعد من رواسب الشرك فهو يقيم وزناً للكفار، ويحسب أنهم يكسبونه العزة من دون الله، كما قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء]، بينما الإسلام لا يقر لغير الله إلا الضعف والعجز والنقص ويرد الملك والعزة والكمال إلى الله.

فاقتضى الموقف أن يتبع بيان حقيقة الإسلام وأبعاد الإسلام هذا التحذير وهذا الوعيد: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

ثم لا يختلف الحكم إذا كانت هذه الموالاة ظاهرة مكشوفة أو خافية مستورة، ولا يختلف كذلك إذا كانت باسمها أو بغير اسمها، فلا عبرة بالألفاظ والأسماء أو بالصور والأشكال وإنما العبرة هنا بواقع الأمر.

فإذا كان الرجل يحمل للكافرين المودة والصداقة في قلبه أو كان يخدم مصالحهم من غير أن يظهر نفسه، فليعلم أنه لن يخفى على الله وإن خفي على الناس.

وكانت الآية السابقة تكفي للتحذير من هذا الولاء بأنواعه ولكن شاءت رأفة الله بعباده أن يفصّل لهم الأمر ويكرر لهم التحذير: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثم ذكر مقياس الحب والولاء، المقياس الذي يُقاس به حبُّ كل إنسان وولاؤه، ويعلم من يحب الله ويواليه ممن يبذل الحب والولاء لغيره: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: الطاعة والاتباع هو الذي يكون مقياس الحب والولاء، ويلحق كل إنسان بمن يطيعه ويتبعه، فمن كان يحبّ الله ويزعم أنه أسلم وجهه لله فَلْيُقِمْ عليه الدليلَ باتباع الرسول وإطاعته. ولقد مضى معنا في السورة السابقة نفس التنبيه ونفس التحذير بشيء من التفصيل، حيث قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

ولقد أسلفنا الكلام على تلك الآيات في موضعها.

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، نعود إليها مرة أخرى لننبه إلى بعض المفهومات التي شاعت وانتشرت مع أن السياق لا يقبلها، ولا ينسجم معها.

مفهوم الآية (٢٤):

يقول الإمام ابن عطية - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

«وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الإشارة فيه إلى التولي والإعراض، أي: إنما تولوا وأعرضوا لاغترارهم بهذه الأقوال والافتراء الذي لهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة]، إلى غير ذلك من هذا المعنى وكان من قول بني إسرائيل: إنهم لن تمسهم النار إلا أربعين يوماً، عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل، قاله الربيع وقتادة، وحكى الطبري أنهم قالوا: إن الله وعد أباهم يعقوب أن لا يُدخلَ أحداً من ولده النار إلا تَحِلَّةَ القسَم، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لليهود: (من أول من يدخل النار؟)، فقالوا: نحن فترة يسيرة ثم تَخْلُفُونَنا فيها، فقال: (كذبتم) الحديث بطوله»(١).

تقويم تلك المذاهب:

تلك المذاهب التي ذهب إليها أئمة التفسير في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٤٧-٤٨.

﴿تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

وتلك المذاهب - على اختلافها في عدد الأيام وتأريخها - ترجع في أصلها إلى مذهب واحد وهو القول باعتراف أهل الكتاب على أنفسهم بأنهم سيدخلون نار جهنم لأيام معدودات.

وهذا القول يصطدم مع نظم الآية وسياقها، فقد جاء بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

والذي يستفاد من هذه الآية هو أنهم ما كانوا يعتقدون أصلاً أنهم سيجمعون ليوم الحساب ويحاسبون على أعمالهم، ثم يوضعون حيث تضعهم أعمالهم.

وبالعكس من ذلك كانوا يزعمون أنفسهم شعب الله المختار، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وكانوا يعتقدون أن الجنة خُلقت لهم وهم خُلقوا لها، وليس لدخولهم إياها إلا أن يفارقوا هذه الدنيا ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

وأما النار فقد خلقت للآخرين، وهم يبعدون عنها ولا يسمعون حسيسها، فجاءت هذه الآية - الآية (٢٥) - تُبطِلُ زعمهم وتظهر سخافة قولهم.

وبالجملة فهذه الآية - الآية (٢٤) - بنظمها وسياقها تصرفنا عن القول بأنها اعتراف منهم على أنفسهم أنهم سيدخلون نار جهنم لأيام معدودات. وأيضاً مما يُضعِفُ هذا القول أننا لا نجد في كتبهم شيئاً يفيد أنهم كانوا يعتقدون ذلك.

ولقد كان الأستاذ رشيد رضا - رحمه الله - محقاً ودقيقاً في كلامه حيث قال: «وليس في كتب اليهود التي في أيديهم وعد بالآخرة ولا وعيد، فكل ما وعدت به على العمل بالكتاب هو الخير والخِصْب والسلطة في الأرض، وما أوعدت به هو سلب هذه النعم وتسليط الأمم عليهم، ولكن الإسلام بين لنا أن كل نبي أمر بالإيمان باليوم الآخر ووعد وأوعد، فهذا هو الحق سواء أوجِدَ في كتبهم أم لم يوجد، يعني: أننا نعد هذا مما أضاعوه ونسوه»(١).

وهنا يثور سؤال: فما هو المفهوم الصحيح للآية - المفهوم الذي يسلم من هذا الإشكال وينسجم مع نظم الآية وسياقها؟

---

(١) مختصر تفسير المنار: ص٣٠٧.

وإن أردنا الجواب عن هذا السؤال فلنستحضر في ذاكرتنا قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة].

فكما أن اليهود والنصارى لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، رد إليهم قولهم هذا بحجة: فَلِمَ يُعذبكم بذنوبكم؟

فكذلك لو أنهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾، لكان من المحتمل الغالب أن يردّ قولهم هذا بحجة: فَلِمَ مَسَّتكم النارُ في الأيام الخالية؟

فتحفّظاً من هذا الاعتراض قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾، أي: لن تمسنا النار إلا ما مَسَّتنا في أيام معدودات قد مضت.

ولقد وردت هذه الآية على أسلوب قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدخان].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصافات].

وأما مس النار فليس ذلك خاصاً بمس نار جهنم، بل هو أعمّ من ذلك، فقد كانت العرب تستعمله بمعنى حلول العقوبة ونزول البلاء والمحنة، ومنه قول حسان بن ثابت - رضي الله عنه -:

يا ابني رفاعة ما بالي وبالكما ... هل تقصران ولم تمسسكما ناري[(1)]

ويقاربه قول عدي بن زيد:

أعاذل مَنْ تُكتبْ له النار يَلْقَها ... كفاحاً ومن يُكتب له الفوز يسعد[(2)]

ومنه قول زياد بن حمل:

إذا سقى الله أرضاً صوب غادية ... فلا سقاهنّ إلا النار تضطرم[(3)]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت: ص١٢٦.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٢/٥٠٨.

(٣) ديوان الحماسة: ٢/٢١٧ رقم ١٢٣.

وعلى هذا فيكون المراد بالأيام المعدودات الأيام الخالية، التي حَلَّ بهم فيها سخط الله.

ولا يخفى أن هذا التأويل ينسجم تماماً مع نظم الآية وسياقها، وينسجم مع الجو الذي نزلت فيه، فإن الجو جو الحجاج واللجاج وجو المكابرة والعناد، وما كان أهل الكتاب ليعترفوا على أنفسهم في مثل ذلك الجوّ أنهم سيدخلون نار جهنم ولو لثانية واحدة، فضلاً عن الأيام المعدودات.

وهل يُتصور ممن يزعمون أنفسهم شعب الله المختار! وشعب الله المدلل!! وأبناء الله وأحباؤه! ويزعمون أنه لن يدخل الجنة غيرهم! هل يتصور منهم أن يقولوا عن أنفسهم أنهم سيدخلون نار جهنم لأيام معدودات؟ وخاصة في مثل ذلك الجو الذي يسود تلك الآيات!

وأما ما قاله الناس في تأويل ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فإنهم لم يقولوه إلا عن رأي منهم واجتهاد، ولم يستندوا في رأيهم هذا واجتهادهم إلى شيء يعتد به.

ولقد كان الأستاذ رشيد رضا مصيباً في كلامه إذ قال: «روى ابن جرير وغيره من المفسرين: أن بعض اليهود قالوا ذلك، وأن هذه الأيام المعدودات هي أربعون يوماً مدة عبادتهم العجل، والمختار: أنه لم يثبت في عدد هذه الأيام شيء»[1].

وبالجملة فالملابسات التي تحيط بالآية تعزّز التأويل الذي هدانا إليه نظم الآية وسياقها.

مفهوم الآية (٢٨):

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

«معنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني بذلك فقد برىء من الله وبرىء اللهُ منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر إلا أن تتقوا منهم تقاة، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم

---

(١) مختصر تفسير المنار: ص٣٠٧.

على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل»[١].

ويقول الإمام الشوكاني - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية: «وفي ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً»[٢].

إشكالات تكتنف هذا التأويل:

هذا ما قاله ابن جرير والشوكاني، وإليه ترمي أقوال المفسرين - رحمهم الله - في تأويل هذه الآية، والذي نلاحظه فيها هو أنها جميعاً تحوم حول معنى واحد، وهو إباحة موالاة الكافرين إذا كانت الظروف تقتضي ذلك. والباحث إذا تأمل في هذا التأويل، فإنه يسائل نفسه:

١- إن كان المؤمنون في سعة من موالاة الكافرين إذا خافوا شرهم، فما الذي نُهوا عنه في هذه الآية؟

٢- المؤمن لا يتصور منه من أول أمره أن يوالي الكافرين إلا ظاهراً، كما لا يتصور منه أن يواليهم إلا في حالة خوف وشدة فعلام جاء هذا الوعيد وهذا التهديد؟

٣- الذين كانوا يوالون الكافرين لم يكونوا يوالونهم إلا بهذا الدليل، حيث كانوا يقولون: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ فماذا كان ذنبهم حتى تعرضوا للوم والعتاب والتقريع؟ حيث قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة].

٤- لم يرد النهي في أول الآية عن إظهار الولاء للكافرين، حتى يكون هذا الاستثناء ترخيصاً لهم في إظهاره، إذا اقتضى الأمر، وإنما جاء النهي عن اتخاذهم أولياء فيكون الاستثناء منه - على هذا التأويل - ترخيصاً في اتخاذهم أولياء، وهذا شيء لا يقرّه أحد.

---

(١) تفسير الطبري: ٣/١٥٢.

(٢) فتح القدير: ١/٣٣١.

٥- إن هذا التأويل يجعل هذا الجزء من الآية - إلا أن تتقوا منهم تقاة - غريباً في جو غير منسجم مع ما قبله وما بعده، كأنه لم يصادف مكانه.

فقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران].

ولقد فسّر النبي ﷺ هاتين الآيتين ولخص دلالاتهما وإيحاءاتهما فقال: (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف)[١].

فإذا كان المؤمن مطالباً بأن يستوعب هذه الدلالات والإيحاءات، وكان مطالباً بأن يعيش في هذا الجوّ الذي يملؤه الشعور بجلال الله وقدرته وواسع ملكه وعظيم سلطانه.

وكان مطالباً بأن يستشعر أن الله هو الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع وله العزة وله الكبرياء ولا معقب لحكمه ولا رادَّ لأمره.

فما مناسبة تزويده برخصة الولاء أو إظهار الولاء للكافرين في هذا السياق؟ وما معنى تهيّبه وتخوّفه من أهل الكفر ولجوئه إلى ما يسمونه (التقية)؟!

إن الجمع بين هذا التوجيه وتلك الرخصة لا يعني إلا عدم جديّة هذا التوجيه!! وحاشا لكلام الله أن يكون فيه شيء من ذاك.

تلك عدة إشكالات تثور في ذهن الباحث إذا تأمل في ذلك التأويل، ولذلك نرى في السلف من امتنع عنه.

فقد روى ابن جرير عن قتادة في قوله: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، قال: لا يحل لمؤمن أن يتخذ كافراً ولياً في دينه، وقوله: إلا أن تتقوا منهم تقاة، قال: أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك، حدثني محمد بن سنان عن الحسن في قوله: إلا أن تتقوا منهم تقاة، قال: صاحبهم في الدنيا معروفاً الرحمَ وغيره فأما في الدين فلا»[٢].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة: ٤/٦٦٧، رقم الحديث (٢٥١٦).

(٢) تفسير الطبري: ٣/١٥٣.

وكان هذا التأويل لا بأس به لو أنه كان منسجماً مع نظم الآية وسياقها، فإنه أيضاً - كسابقه - لا يخلو من هذا السقم، وإن كان أرجح منه وأقوى لسلامته من تلك الإشكالات التي أشرنا إليها.

تأويل الآية:

وهنا يثور سؤال: فما هو التأويل الصحيح، الذي يَسْلَمُ من تلك الإشكالات ويتلاءم مع نظم الآية وسياقها؟

يبدو لي أن فضيلة الشيخ أمين أحسن كان موفقاً في تأويل الآية حيث قال: «إن (تقاة) في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ قد وقع مفعولاً مطلقاً، كشأنه في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ (١٠٢)﴾ وهو يفيد التأكيد.

وعلى هذا فيكون معنى الآية: إن الذين يتخذون الكفار أولياء على حساب الإسلام والمسلمين، ليسوا من الله في شيء وإنما يعتبر هؤلاء منهم كما جاء في موضع آخر: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ (٥١)﴾ [المائدة].

فمن المستحيل أن تجتمع ولاية الله مع ولاية أعدائه، ومن كان يريد أن يكون ولياً له فليقطع حبله من أعدائه وأعداء دينه وأعداء المخلصين من عباده.

فكأن هذه الجملة وقعت استثناء من قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لا يستثنى من هذا الحكم إلا مَن اجتنب موالاة الكفار وحذرها حق الحذر، وأما من أباح التقية مستنداً إلى هذه الآية فلا شك أنه ذهل عن كل من أساليب اللغة وشواهد القرآن ونظم الآية وسياقها. ولعلنا لم تعد بنا حاجة إلى تفنيد هذا القول بعدما تبين التأويل الصحيح للآية»[1].

هذا ما دَبَّجتهُ يراعة الشيخ أمين أحسن في تأويل هذه الآية. ويبدو أن أستاذه الإمام عبدالحميد الفراهي - رحمه الله - أيضاً كان يحمل نفس الرأي حيث يقول وهو يبين معنى الاتقاء: «الاتقاء في أصل معناه يكون من خوف ضرر وعلى هذا يأتي على أربعة أوجه».

ثم يذكر الوجه الأول فيقول: «الأول: هو التحفظُ مما يخاف الضرر منه كما في

---

(١) تدبر القرآن: ٢/ ٦٨.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾»[1].

هذه العبارة تفيد أنه - رحمه الله - أيضاً كان يرى نفس الرأي، وكان يؤول الآية إلى نفس التأويل.

وعلى أية حال فنحن نميل إلى هذا التأويل ونراه أشبه بالصواب لكونه أوفق لنظم الآية وسياقها.

وقبل أن ننتقل إلى حديث آخر نودّ أن ننبه إلى الأسباب التي كانت مَزلّة أقدام الآخرين، حتى يتّضح الأمر، ولا يبقى فيه موضع شبهة.

السبب الأول:

أن الناس لم يستوعبوا دلالة الاستثناء في هذه الآية، فإن الاستثناء لا يكون دائماً بمعناه العادي المشهور، بل كثيراً ما يفيد معنى التأكيد ويأتي لتعزيز المعنى السابق، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ما جاء إلا لتأكيد الجملة السابقة ويكون تقدير الكلام، إذا فصلنا العبارة هكذا: (ولا تقولن إني فاعل ذلك غداً. إنك لست فاعلاً شيئاً إلا أن يشاء الله).

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ما جاء إلا لتأكيد الجملة السابقة، ويكون تقدير الكلام إذا فصلنا العبارة، هكذا: (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً، لا يذوقون فيها إلاحميماً وغساقاً).

وهكذا الأمر في الآية التي نتحدث عنها، ويكون تقدير الكلام، إذا فصلنا العبارة، هكذا: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ليس لكم إلا أن تتقوا منهم تقاة).

السبب الثاني:

أن الناس لم ينتبهوا للفرق بين اتقاء الشيء والاتقاء من الشيء. فإن الاتقاء إذا

(١) مفردات القرآن للفراهي: ص١٩.

تعدى إلى المفعول فإنه يؤدي معنى الخوف منه، وإذا تعدَّى بـ«من» فإنه يتضمن مع الخوف معنى الابتعاد منه.

ومنه قول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية وهي ترثي ابنها قيس بن زياد، وهو من تلك الأبيات التي كانت تتمثل بها عائشة - رضي الله عنها - بعد وفاة النبي ﷺ:

قد كنتَ ذات حمية ما عشتَ لي　　أمشي البراز وكنتَ أنت جناحي

فاليومَ أخضع للذليلِ وأتقي　　منه وأدفع ظالمي بالراح[1]

أي: فاليوم أخضع للذليل وأبتعد منه مخافة شره وإن ظلمني أحد فأدفعه بالراح لا بالسلاح. ومن ذلك قول كعب بن زهير:

يعضعضهن عضيض الثقا　　ف بالسمهرية حتى تلينا

ويكدم أكفالها عابساً　　فبالشدِّ من شره يتقينا

إذا ما انتحت ذات ضغن له　　أصر فقد سل منها ضغونا[2]

فقد بين الشاعر بقوله: (فبالشد من شره يتقينا) أن الاتقاء من العدو أو من شر العدو يكون بالشد والابتعاد منه لا بالالتصاق به والمصانعة معه.

وقد يكون هناك تجريد في اللفظ، فلا يراد به إلا معنى الابتعاد والتجنّب دون معنى الخوف.

ومنه ما ورد عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: (لقد كنت أفتل قلائد هدي رسول الله ﷺ ثم يبعث به ويقيم فما يتقي من شيء)[3].

وعلى هذا فيكون معنى الآية: (إلا أن تحذروهم وتبتعدوا منهم ابتعاداً).

---

(١) الحماسة لأبي تمام: باب المراثي: ١/٤٤٤.

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير للسكري: ص١٠٤ الثقاف: آلة من خشب تسوى بها الرماح. السمهرية: الرماح، نسبة إلى سمهر، رجل كان يُقَوِّمُ الرماح. يكدم: يعض. الشد: العدو. صر الفرس والحمار أذنه وبأذنه يصر صراء وأصر بها: سواها ونصبها للاستماع.

(٣) مسند أحمد: ٦/ ١٨٥.

السبب الثالث:

أن الناس وهموا أن تأويلهم هذا يؤيده قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل][1].

والواقع على العكس فإن لكل من الآيتين محملاً يختلف عن محمل أختها، ولا يسعنا أن نحملهما محملاً واحداً.

والجدير بالانتباه أن القرآن لم يرخص في حالة الإكراه أيضاً في النطق بكلمة الكفر إلا بعد ما قيّده بكونِ القلب مطمئناً بالإيمان. فكيف يتصور أن يتساهل هنا هذا التساهل في إباحة التقية أو إباحة النطق بكلمة الكفر؟ وكيف يتصور أن يبيح ذلك كلّما خاف المرء من شر الكفار؟ فحالة الخوف غير حالة الإكراه وبينهما بون شاسع.

وبالجملة فتلك ثلاثة أسباب كانت مزلة أقدام في تأويل الآية فيما نرى بالإضافة إلى قلة اهتمام الناس بنظام الآية وسياقها.

والآن، وقد بلغ الأمر غايته من الوضوح، وظهر ارتباط كل آية بأختها، وظهرت مناسبتها لما قبلها ما بعدها، نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٣٣-٦٣)

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ

---

(١) ومن شاء فليراجع - مثلاً - تفسير ابن كثير: ١/٣٥٧.

بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٤١) وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٢) يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا
كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥)
وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ
كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ
وَٱلْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ
ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا
تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ
ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ
رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا
ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ
إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ
كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ
فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٦٣) ﴾.

* * *

إن هذه الآيات عبارة عن قصص رائع لآل عمران، وهي مرتبطة فيما بينها برباط واضح وثيق كما هو الشأن في حلقات قصة واحدة.

إذاً فليس موضع اهتمام الباحث طلب المناسبة فيما بينها، وإنما الذي يهمه فيها هو أن يلتمس الوشائج التي تربطها بما قبلها.

لقد مرّ معنا في الآيات السابقة أن اليهود كانوا يحاجون الرسول في ملة الإسلام، وكانوا يبذلون محاولاتهم الخبيثة المشؤومة لإطفاء نوره واجتثاث جذوره، وكانوا

يحلمون بإحباط الجهود التي كانت تبذل في سبيل إعلاء كلمته.

ولقد بلغت بهم شقوتهم إلى أن همّوا بقتل النبي وصحابته. وهكذا كان المسلمون يمرون في تلك الأيام بظروف عصيبة قاسية.

وفي مثل تلك الظروف لقّنهم لسان الوحي ذلكم الدعاء حتى يسكب برد الاطمئنان في كل قلب تعبث به عواصف الخوف والحزن واليأس: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

إن هاتين الآيتين كما أنهما تبينان للمسلم أبعاد كلمة الإسلام - كما بيناه - فيما تقدم - فكذلك تسكبان برد الاطمئنان في قلبه، وتمسحان عنه كل ما يعلق به من الحزن واليأس. فطالما أن الله هو مالك الملك وبيده أزمة الأمور فماذا يخافه المؤمنون من غير الله؟ وماذا عسى الأعداء أن يفعلوا بهم إذا كانت نواصيهم بيد ربهم وهم لا يستطيعون أن يمسكوا عنهم رحمةً يريدُ ربهم أن يفيضها عليهم؟ بل ولا يستطيعون أن يستبقوا مما عندهم شيئاً إذا أراد ربهم أن ينزعه منهم.

وبعد غرس هذه الحقيقة في أذهانهم من خلال هذا الدعاء تناول السياق موضوع موالاة الكافرين من دون المؤمنين وجاء ذلك عرضاً للمناسبة التي بيّناها فيما تقدم.

ثم عاد السياق إلى حديث الأول وذكر قصص آل عمران باعتباره شهادة تاريخية واضحة لهذه الحقيقة.

فالجو الذي يسود هذا القصص كله في جو الاصطفاء والتكريم ثم جو الإعزاز والتأييد لآل عمران على رغم أعدائهم الذين كانوا يمكرون بهم ويبغون لهم السوء.

والآيات التي لها دور بارز في إعداد هذا الجو أو لفت الانتباه إلى هذا الجو كما يلي:

١ - ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٢ - ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

٣ - ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا

﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

٤- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٥- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

٦- ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فهذه الآيات تبين لنا مدى ما قسم الله لآل عمران من العزة والكرامة والسيادة والوجاهة. وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول:

أن الله تعالى ذكر الصفوة المختارة من عباده فذكر فيهم آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران. والآية بنظمها تفيد أن هؤلاء هم زبدة البشرية كلها وكفى بها مفخرة لآل عمران.

الوجه الثاني:

لما ولدت امرأة عمران تلك الصغيرة المباركة التي سمتها مريم تَقبَّلها الله بقبولٍ حسن وأنبتها نباتاً حسناً وهيأ لتربيتها أفضل من كان في عصرها وهو نبي الله زكريا، ثم رزقها من عنده رزقاً حسناً من العلم والحكمة ورزقها بغير حساب، حتى أصبحت مثار العجب والاستغراب لزكريا نفسه. وهذه الرعاية الخاصة والاهتمام الفريد لم يذكرهما القرآن لأي واحد غير مريم.

الوجه الثالث:

لما جاءت الملائكة إلى زكريا لتبشره بيحيى ذكروا من صفاته التي سيتحلى بها، أنه يكون سيداً، حيث قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

كما ذكروا في صفات عيسى التي سيتحلى بها أنه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة. حيث قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

وتلك ميزة خَصَّ الله بها آل عمران، حيث لم تُذكر صفة السيّد إلا ليحيى من بين سائر الأنبياء كما لم تأت البشارة بحصول الوجاهة في الدنيا والآخرة بهذا النص الواضح إلا لعيسى.

ومن ناحية أخرى فإن أول صفة ذكرت ليحيى من بين صفاته الأخرى أنه يكون مصدقاً بكلمة من الله. وهذا النظم ينبه إلى أهمية هذه الصفة من بين سائر صفاته، كأن أول غرض بُعث لأجله يحيى هو أن يصدق بعيسى ورسالته.

وهذا كله إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدل على حظوةِ هذا البيت وخطورة شأنه وعظم مكانته عند الله.

الوجه الرابع:

لما حاول بنو إسرائيل أن يقتلوا عيسى لم يتمكنوا منه على قلة أنصاره وأحاطه الله بنصرته ورعايته ورفعه إليه بكل حب وإكرام، ووعده في ذات الوقت أنه سينزل نصره على الذين اتبعوه وهم سيظلون منتصرين على عدوهم الكافرين إلى يوم القيامة.

تلك النقاط الرئيسية التي تستلفت الانتباه من هذا القصص، وهي بجملتها تؤكد للمؤمن أن الله هو مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وإذا أحب قوماً وأراد أن يُعزَّهم أعزهم ونصرهم من حيث لا يحتسبون، وليس هناك من يحول دون ذلك أو يستبدّ بالأمر وينفّذ ما يريده ويهواه.

فكم حاول اليهود أن يقتلوا عيسى وكم حاولوا أن ينالوا من أمه مريم ويمسّوا كرامتها ، وكم حاولوا أن يخلعوا عنهما ما ألبسهما اللهُ من ثوب العزة والوجاهة في الدنيا والآخرة.

ولقد كانت القوة والسلطة والعدة والعدد كل أولئك معهم، ولكن مع ذلك هل استطاعوا شيئاً؟ هل استطاعوا أن يلحقوا بهما ضرراً أو يحركوا لهما ساكناً؟ كلا! بل باؤوا بالخيبة والفشل وخزي الدهر وباؤوا بغضب من الله.

فإذا كانت معاملة الله مع آل عمران هكذا، حيث اصطفاهم فأكرمهم ونعّمهم

وأسقاهم ماء غدقاً، وكفاهم شَرَّ كل عدو كان يحرُق عليهم الأرَّم حنقاً[1]، فليفرح المؤمنون وليطمئنوا على مصيرهم وليرجوا من الله كل خير فإن الله لن يخذلهم بعد ما اجتباهم وسيكفيهم شرّ أعدائهم الذين يمكرون بهم ويضمرون لهم الشرّ، وسينيلهم ما يحبّونه من الغلب والنصر والعزة والملك.

وجوه أخر للمناسبة:

هذا، وهناك وجوه أخر لمناسبة هذه الآيات لجوّها وسياقها فلا بأس بأن تكون لنا وقفات معها قبل أن ننتقل منها إلى ما بعدها، فإن هذه الوجوه ستكشف لنا نواحي أخرى لروعتها وحسن نظامها.

الوجه الأول:

لقد رأينا في الفقرة السابقة أن المسلمين لُقّنوا هذا الدعاء: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴿٢٦﴾ . . . وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هذا الدعاء – كما لا يخفى – عبارة عن طلب الملك والعزّة والحياة، وتلقينه من الله سبحانه وتعالى لا يعني إلا أن المسلمين إذا دعوا به سينال منه القولَ والاستجابة.

والظروف التي لقّن المسلمون فيها هذا الدعاء كانت ظروفاً عصيبة قاسية، وكانوا فيها مهدّدين بالخطر من كل جانب. . والتقديرات القريبة والمؤشرات الظاهرة ما كانت تسمح أبداً بأن يحلم فيها بالعز والملك، أو يتصور أن هذا الدعاء سيتحقق.

ولكن السياق الحكيم أُتبع تلك الفقرة فقرة تجعلُ كل بعيدٍ قريباً وكل مستحيل ممكناً، وتجعل كل غريب شاذ كأنه شيء عادي لا غرابة فيه ولا شذوذ.

فهل يستغرب المسلم شيئاً أو يستبعده كائنة ما كانت الظروف إذا علم أن الله استجاب لزكريا وحقق أمنيته في الذرية مع أن الظروف والملابسات المحيطة به كانت تجعلها مستحيلة مائة في المائة؟

أو هل يستغرب شيئاً ويستبعده إذا علم أن السيدة مريم أنجبت نبيَّ الله عيسى بدون أن يمسها بشر؟

---

(١) الأرم: الأضراس. يقال: فلان يَحْرُقُ عليك الأرّم: إذا تغيّظ فحكّ أضراسه بعضها ببعض (الصحاح: أرم).

فإن الله إذا استطاع أن يجعل المرأة العاقر والكبير الطاعن في السن ينجبان الذرية أو يجعل الفتاة العذراء تأتي بالولد من غير أن يمسّها بشر استطاع أن يفعل كل شيء، وليس هناك عسير أو مستحيل بالنسبة إلى قدرته الواسعة القاهرة.

الوجه الثاني:

لقد رأينا في الفقرة السابقة كيف نُهِيَ النبي ﷺ من أن يسترسل مع أهل الكتاب في المحاجّة وأُمر أن يختصر معهم الكلام، فإن قوماً قد أُشربوا في قلوبهم البغي وتنكبوا عن الهدى من بعد ما جاءهم العلم، لا مطمعَ لطامع في إيمانهم: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وهنا نرى ذلك البغي متمثلاً شاخصاً مع نبي الله عيسى، فكم رأوا على يديه من آيات بينات، وكانت لهم في كل منها موعظة ومُزْدَجر. ولكن العجب كل العجب، أن الذي كان يُحيي الموتى بإذن الله لم يستطع أن يحيي تلك القلوب الميتة المتحجرة!! والذي كان يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله لم يستطع أن يبرىء هؤلاء مما كانوا يعانون منه من داء البغي!! والذي كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، لم يستطع أن ينفخ فيهم روح الإيمان فيسمو بأرواحهم من حضيض الشهوات إلى علياء مرضاة الله!!

وبالعكس من ذلك ازدادوا بغياً إلى بغيهم وأرادوا أن ينفذوا فيه خطّتهم الإجرامية والعياذ بالله. فإذا كان موقف بني إسرائيل القدامى من نبيهم هكذا فلا غرو إذن أن يكون موقفُ خَلَفِهم من نبيهم موقفهم من نبيهم بالأمس.

الوجه الثالث:

لقد رأينا في الفقرة السابقة أن أهل الكتاب كانوا يحاجون في ملة الإسلام، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم ليثبتوا أن الملة اليهودية أو النصرانية هي الملة المُفضَّلة وهي التي جاءت بها النبوات السابقة: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

وهنا نرى الحواريين لما آمنوا بعيسى واستجابوا لدعوته هتفوا بهذه الكلمات: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران].

إن هذه الكلمات تُنبىء - أول ما تنبىء - أن الملة التي بُعث بها عيسى وكان يدعو إليها هي ملة الإسلام. وهذا هو السر في أن الحواريين لما استجابوا لدعوته استجابوا لها بهذه الكلمات: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

وإذا ثبت هذا في عيسى ثبت فيمن سبقوه من الأنبياء بالأَوْلى فإنه لم يأت بملة جديدة وإنما جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة وجاء ليجدِّد ما عفا من معالمها وتعاليمها: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران].

فهذه الآيات تفيد بنظمها أن الذين يحاجّون اليوم في ملة الإسلام ويحاربونها، إنما يحاربون ما جاءت به كتبهم ورسلهم، قبل أن يحاربوا هذا النبي وهذا القرآن.

الوجه الرابع:

لقد سبق منا القول في أول السورة أن المراد بـ«الذين في قلوبهم زيغ» وبـ«الذين يتبعون ما تشابه من الآيات» هم اليهود.

ولقد أشرنا هناك أن اليهود قد أثاروا موضوع مولد عيسى - جرياً على عادتهم في اتباع المتشابهات - ليحققوا منه أغراضاً ثلاثة في وقت واحد:

١- أن يقدحوا في نسب عيسى ويشكّكوا الناسّ في أمره، وقد ساعدهم على هذا القدح وهذا التشكيك أن العقل عاجز عن إدراك كنه هذا الخلق كما هو عاجز عن إدراك كنه كل أمر متشابه.

٢- أن يشككوا الناس في أمر الإسلام ويوهموهم أن القول بمولد عيسى بدون أب يُعزِّزُ القولَ بألوهيته ويتنافى مع عقيدة التوحيد التي يهتف بها الإسلام.

٣- أن يلتمسوا مبرراً للشرك الذي قد توغل في دينهم بحجة أن هذا الدين الجديد أيضاً لا يخلو من الشرك، وإن كان يزعم أنه بريء من الشرك.

فقصّ القرآن قصص آل عمران من أوله إلى آخره، بحيث إذا أصاخ السامع إلى ذلك القصص فإنه يجد فيه رداً حاسماً للشبهات التي أثارها اليهود، ويدرك في ذات الوقت خبث النوايا التي كانت تعمل وراءها، لأنه لا يجد فيه إلا الطهر والتقى والزكاة والعفاف متمثلاً شاخصاً يكاد يلمس بالراح، ويشعر بجانب ذلك أن عيسى ما كان إلا عبداً من عباد الله، وقد أنعم الله عليه واصطفاه برسالته، فكان ينجز كل ما ينجز بإذنه،

والله هو الذي كان يكلؤه ويرعاه ويحفظه من كيد الأعداء.

وهكذا كان هذا القصص وحده يكفي لتبديد شبهات اليهود في عيسى وأم عيسى، كما كان يكفي لتفنيد الشبهة التي أثاروها ليعكروا بها صفو عقيدة التوحيد، ثم ليتذرعوا بها إلى الغارة على ملة الإسلام وإلى القول بأن دينهم هو الدين الصحيح القويم.

ولعل هذا هو السر في أن السياق لما انتهى من هذا القصص لم يتنفس في الرد على شبهاتهم بل أجمل القول في آيتين اثنتين:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

تنبيه هام:

ومما يجدر التنبيه إليه أنَّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أظهرُ في الرد على اليهود منه في الرد على النصارى، ويظهر ذلك بالتأمل في نظم الآية نفسها.

فإن قوله تعالى: ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ إنما جاء بياناً وإيضاحاً لما سبقه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ فهو يحدد وجه المماثلة بين سيدنا عيسى وسيدنا آدم، وهو أن الله تعالى خلق سيدنا عيسى بقوله: (كن) كما خلق سيدنا آدم بقوله: (كن) بكل يُسْرٍ ويسهولة وبدون أي صعوبة أو كلفة.

وهذا أنسب للرد على اليهود منه للرد على النصارى، فإن اليهود هم الذين كانوا يستبعدون هذا النوع من الخلق وكانوا يشكون فيه ويشكّكون، كأنهم كانوا يعتبرونه خارجاً عن قدرة الله، فبيَّن لهم أن هذا الخلق هيّن جداً بالنسبة إلى قدرته، وإن كان غير مفهوم لدى العقل البشري القاصر المحدود.

وإذا تقصينا هذه العبارة في القرآن فإننا نجده دائماً يستعملها في مثل هذا الموطن.

ونرى في هذه الفقرة نفسها أن السيدة مريم لما استغربت البشرى بمولد عيسى وقالت: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ أجابها الله تعالى بمثل هذه العبارة حيث قال: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

أما لو كان الأمر كما قاله الناس من أن هذه الآية جاءت للرد على النصارى[1] لاختلفت العبارة عما هي عليه الآن، وجاءت على نحو هذا القول: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب وأم).

ثم إن هذا الاستدلال ضعيف جداً ونحن ننزّه القرآن عن مثله، فإنه لو جاء إلى النصارى بمثل هذا الاستدلال وقال لهم: إن آدم خُلق من غير أب وأم ولم يكن ابن الله، فكيف يكون عيسى ابنَ الله لكونه خُلق من غير أب؟ ألم يكن من المحتمل أن تقول النصارى رداً عليه: «طيب، إذا كان الأمر هكذا فنحن نقول في آدم أيضاً كما قلنا في عيسى ونقول: إن آدم وعيسى كليهما ابنا الله».

ولو كانت النصارى قد قالت هكذا، ولا يبعد من الخصم - إذا كانوا قوماً لُدّاً، وكانوا في ساحة المناظرة - أن يقولوا هكذا، فماذا كان قد بقي في هذا الاستدلال من قوة؟

ولعل هذا هو السر في أن القرآن تناول هذا الموضوع عدة مرات، وأنكر على النصارى ما يعتقدونه في عيسى، ولكنه لم يلجأ أبداً إلى هذا النوع من الاستدلال.

وبالجملة فهذه أمور تشجعنا على القول بأن هذه الآية أظهر في الرد على اليهود منه في الرد على النصارى.

* * *

وبعد، فتلك وشائج قوية متينة متلاحمة تربط تلك الآيات بما سبقها، بحيث تهتز له النفس اهتزازاً ولا نملك إلا أن تقول: سبحان مَنْ أنزل هذا القرآن الذي لا يُدركُ غورهُ ويَجِلُّ عن الوصف إعجازه.

آية قد تحير الناس في أمرها:

وقبل أن ننتقل من هذه الآيات إلى غيرها نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فإن الناس تحيروا في تأويله تحيّراً فظيعاً ولم نجد عند أحد منهم ما يقنع ويغني من جوع.

فكم نتعجب حين نرى أن منهم من قال في تأويل الآية: أن المراد بـ«الذين

(١) انظر - مثلاً - تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٧، والتفسير الكبير: ٨/ ٧٤.

اتبعوك» هم النصارى فهم فوق اليهود، وذلك لأن ملك اليهود قد ذهب ولم يبق لهم مملكة وملك النصارى باق. فعلى هذا القول يكون الاتِّباعُ بمعنى المحبة والادعاء لا اتباع الدين، لأن النصارى وإن أظهروا متابعة عيسى - عليه السلام - فهم أشدُّ مخالفةً له وذلك أن عيسى - عليه السلام - لم يرض بما هُمْ عليه من الشرك[1].

ليت شعري من أين جاءوا بهذا المعنى الغريب للاتِّباع فإنه لا عهد لنا به في القرآن ولا في الحديث ولا في الكلام العربي الذي يُحتجُّ به؟

وإنما الذي عهدناه في القرآن والحديث وفي كلام العرب أن هذا اللفظ نقيض الادعاء تماماً، وهو يفيد معنى الملازمة واقتفاء الأثر والمشي خلف من يتّبعه كظلّه، ومن هنا قيل للظلّ: التُّبّع، لأنه يلازم الشيء ولا يفارقه.

ولقد استعمل القرآن هذا اللفظ بهذا المعنى قبل هذه الآية بآية واحدة، حيث قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وأما التبرير لهذا المعنى بأن ملك اليهود قد ذهب وملك النصارى باق، فهو تبرير ضعيف، فإن ملكهم إن كان باقياً في يومنا هذا فمن يضمن لنا بقاءه إلى الغد أو إلى يوم القيامة؟

وليس أقل غرابة منه أن يقال: (ومعنى اتبعوك، أي: في الدين والشريعة وهم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع) (البحر المحيط: ٢/ ٤٧٤).

أو يقال: (يدخل في ذلك أمة محمد لأنها متبعةٌ لعيسى) (المحرر الوجيز: ٣/ ١٠٦).

فإن هذا قولٌ لا نجد له تأييداً من الكتاب والسنة، والذي نجده هو عكس ذلك. فقد قال نبينا - عليه الصلاة والسلام -: (إنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حَلَّ له إلا أن يتبعني)[2].

ويؤيده قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

---

(١) انظر تفسير الخازن: ١/ ٣٠٠.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: ١/ ١٧٤، ومسند أحمد ٣/ ٣٨٧.

فنحن - أمة محمد ﷺ مأمورون بأن نتبع رسولَنا، ورسولنا فقط، وأما الأنبياء الآخرون فلم نؤمر إلا بالإيمان بهم وبما أنزل إليهم، والإيمان غير الاتِّباع، وبينهما فرق واضح.

ولقد وهم الإمام ابن كثير - رحمه الله - إذ جعل الإيمان والاتباع شيئاً واحداً، حيث قال وهو يتحمس لهذا الرأي: (... فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤوهم إلى الروم فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة) (تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٧).

فهذا كلام جميل ولا شك، ولكن غير الجميل فيه أنه فسر الاتباع بالإيمان، كأنهما شيء واحد. وهذا خطأ.

فالمسلمون كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً، ولكن لم يكونوا متّبعين له أبداً، ثم إن البشارة التي تتضمنها الآية، والتي أراد الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين - رحمهم الله - أن يربطوها بهذه الأمة إن كانت قد تحققت لهذه الأمة في فترة من التاريخ فهي الآن أصبحت قصة من قصص التاريخ، ولا نرى لها من باقية في واقعنا الراهن.

وتلك أيضاً حجة ظاهرة على الذين ركنوا لهذا التأويل.

وأما القول بأن المراد بالفوقية هنا هي الفوقية الروحانية الدينية أو فوقية الفضائل والآداب، كما ذهب إليه صاحب تفسير المنار[١] فهذا أيضاً تفسير غريب على لغة القرآن. وكم تكرر هذا اللفظ في القرآن، ولكنه في كل مرة جاء بغير هذا المعنى.

ويظهر لنا من كلامه - رحمه الله - أنه لم يلجأ إلى هذا التأويل إلا بعد ما اضطر إليه وبعد ما رأى الأبواب كلها مُرْتجةً أمامه، ولو أنه ظهر له تأويل أسلم وأفضل من هذا التأويل، لعدل عنه إليه.

وبالجملة فتلك ثلاثة أوجه من التأويل تبدو في بادىء النظر أنها تتسم بالوجاهة والقوة، ولكنها لا تخلو من ضعف وتكلّف كما بيناه، ويمكن أن نقيس عليها بقية الأوجه التي ذهب إليها الناس، فهي أسوأ حالاً من أخواتها التي مرّ ذكرها ومضى الكلام عليها.

وليست هذه التأويلات كلها إلا نتيجة لقلة الاهتمام بنظم الآية وسياقها، فالناس

---

(١) انظر مختصر تفسير المنار: ١/ ٣٢٩.

فسروها بعيدة عن جوّها، مقطوعة عن أخواتها، فنالهم ما نالهم من الحيرة والكلال.

وإلا فالأمر كان واضحاً جداً، وكان الطريق إليه معبّداً سهلاً، وكان بإمكانهم أن يتوصلوا إلى بغيتهم بدون أن يلقوا من سفرهم هذا نصباً.

تأويل الآية:

فالتأمل في نظم الآية وسياقها يبين لنا أن المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ في الآية هم الحواريون، الذين قالوا قبل قليل: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، والمراد بالذين كفروا هم اليهود المعاصرون الذين كانوا يمكرون بهم وبرسولهم عيسى لينالوا منهم ويعبثوا بحياتهم وكرامتهم، والذين قال الله فيهم في نفس الآية: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

فاليهود لما بلغوا من مكرهم ما بلغوا وكادوا ينفّذون في عيسى وأتباعه أو صحابته ما أرادوا، بشر الله عيسى بأنهم لن يصلوا إليه ولن يبلغوا منه ما أرادوا وأنه تعالى سيحبط كيدهم ويرفعه إليه ويطهره منهم.

ولكن ماذا سيكون شأن الحواريين؟ الحواريين الذين استجابوا لدعوة عيسى أروع استجابة، وشدّوا مآزرهم لنصرته في ساعة العسرة، هل يتركهم ربّهم لقمة سائغة لأعدائهم بعدما يرفع إليه عيسى؟

كلا! فلن يخذل من قام لنصرته ونصرة رسوله، فإنه أوجب على نفسه أن ينصر من ينصره، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

فبشر عيسى أنه كما سينصره ويعزه برفعهِ إليه وتطهيره من الذين كفروا فكذلك سيعز أصحابه من بعده وينصرهم على عدوهم، حتى يفارقهم عيسى وهو مطمئن إلى مصيرهم ويودّعه هؤلاء، وهم أيضاً وادعون مطمئنون أن الله سيتولاهم بنصرته ورعايته كما تولى رسولهم وسيدهم.

هذا الذي يمليه علينا نظم الآية وسياقها، ويجمع هذا المفهوم - كما نرى - إلى وضوحه وسهولته شدة الانسجام مع طبيعة الموقف والسلامة من تلك الإشكالات التي رأيناها في التأويلات السابقة.

ثم نزداد اطمئناناً إلى هذا المفهوم ونزداد إليه ارتياحاً حين نجد له شاهداً في كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ

﴿... إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف].

فقد ذكر تعالى في هذه الآية التي نتحدث عنها الوعد بتأييد الحواريين على عدوهم وذكر في سورة الصف تَحقُّقَ ذلك الوعد حيث أنهم انتصروا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

قد يقول قائل: إن الوعد ينص على استمرار هذا الغلَبِ والانتصار إلى يوم القيامة: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهذا لم يتحقق للحواريين فإنهم انقرضوا وانقرض ذلك الانتصار الذي حققوه على عدوهم.

هذا إشكال يبدو وجيهاً في باديء النظر ولكنه سيؤول ويتلاشى إذا وضعنا في اعتبارنا ما يلي:

إن المنتصر إذا مات وهو عزيز منتصر فهو عزيز منتصر إلى يوم القيامة.

والذليل المخذول إذا مات وهو ذليل مخذول فهو ذليل مخذول إلى يوم القيامة. إن الحواريين لما أيدهم الله بنصره وأظهرهم على عدوهم وهم ماتوا على ذلك، فمن يستطيع أن يخلع عنهم تلك الكرامة والعزة التي ألبسها الله إياهم إلى يوم القيامة، وأعداؤهم اليهود لما سلط عليهم الذل والهزيمة وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف وهم ماتوا على ذلك فمن يستطيع أن يمسح عنهم ذلك الذل والهوان الملازمين لهم إلى يوم القيامة.

والعرب ما كانت تَعزبُ عنهم هذه الحقيقة، ولذلك قال عبيد بن الأبرص وهو يخاطب حجراً:

أنـــتَ المليـــكُ عليهـــم وهم العبيدُ إلى القيامة[1]

فالملك إذا دام له الملك ولفظ أنفاسه الأخيرة وعلى رأسه تاج الملك فهو يُذكر إلى يوم القيامة بذلك العزّ والشرف ويعتبر مليكاً إلى يوم القيامة، والذين كانوا تحت ملكه وسيطرته يعتبرون له سوقة ورعية وعبيداً إلى يوم القيامة.

هذا، وهناك أمر آخر جدير بالانتباه، وهو أن الظروف التي جاءت فيها هذه

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص: ص٧٨.

البشرى كانت ظروفاً سيئة جداً، كانت حالكة مظلمة لا تُرى فيها بارقة من بوارق الأمل.

فلما جاءت البشرى في مثل تلك الظروف جاءت بلا حدود ولا قيود، جاءت بألفاظ تفيض بالأمل وتوحي بدوام النصر، فإن الرب الرحيم الودود إذا توجه إلى عباده المؤمنين المنكوبين برحمته ومودته فإنه لا يكيل لهم بالمكيال ولا يزن لهم بالميزان وإنما يصب لهم صباً ويفرغ عليهم إفراغاً.

إذا وضعنا في بالنا هذه الظاهرة فإنه لا يصعب علينا أن ندرك لماذا خص الله سيدنا عيسى وصحابته الحواريين بهذه المعاملة الخاصة الفريدة.

وبالجملة فنحن نميل إلى ما مال إليه الضحاك ومحمد بن أبان وابن جريج حيث قالوا: إن المتبعين له هم في وقت استنصاره وهم الحواريون جعلهم الله فوق الكافرين(١).

فهذا الرأي أقربُ لنظم الآية وسياقها وأسلم من الإشكالات التي أسلفنا الإشارة إليها.

* * *

هذا ما تيسر لنا في تأويل هذه الآيات وفي التماس مناسبتها لما قبلها وفي التماس الوشائج التي تربطها بجاراتها، فلك الحمدُ يا رب ولك الشكر كما تحبه وترضاه.

والآن وقد انتهينا من هذه الآيات، نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٦٤-٧١)

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ
شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط: (٢/٤٧٤)، وتفسير القرطبي (٢/١٠٢)، والمحرر الوجيز (٣/١٠٦).

إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾.

* * *

قبل أن نلتمس مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها نود أن تكون لنا وقفة عند آيتين قد أشكل على الناس أمرهما، وهما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

فإننا إذا توصلنا إلى مفهومهما الصحيح، تعبّد لنا الطريق، ولم يصعب علينا إدراك وجوه المناسبة فيما بين تلك الآيات.

تأويل الآية (٦٥):

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تأويل الآية الأولى: «أي: كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدّعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟»[١].

ونرى المفسرين - رحمهم الله - قد درجوا في تأويل الآية على مثل هذا المفهوم[٢].

وهنا يثور سؤال: هل كان نزول التوراة ميلاداً للديانة اليهودية ونزول الإنجيل كان ميلاداً للديانة النصرانية؟

وإن صح القول بأن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن يهودياً لأن التوراة ما نزلت إلا من بعده، أولم يكن نصرانياً لأن الإنجيل ما نزل إلا من بعده، فماذا نقول عن موسى وعيسى وغيرهما من الرسل الذين جاءوا في تلك الفترة؟

هل نقول: إن موسى كان يهودياً لأنه جاء بالتوراة وعيسى كان نصرانياً لأنه جاء

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/٣٧٢.

(٢) انظر - مثلاً - تفسير الطبري: ٣/ ٢١٥-٢١٦ وفتح القدير: ١/ ٣٤٩، وتفسير النسفي: ١/ ١٦٢.

بالإنجيل، والرسل الذين جاءوا بينهما كانوا هوداً والذين جاءوا بعد عيسى كانوا نصارى؟!

لا شك أن الأمر على خلاف ذلك، فإنه ما أُنزلت التوراة و الإنجيل إلا بدين الإسلام وملة الإسلام، والرسل والأنبياء كلهم جاءوا ليقودوا الناس إليهما.

وما نجمت اليهودية أو النصرانية إلا بعدما انحرف القوم عن هذين الكتابين، فلما جاء القرآن ما زاد على أن طالبهم بإقامتها، حيث قال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة]، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

وبعد الإلمام بمواقف المفسرين في تأويل الآية وبعد الاطلاع على ما فيها من ضعف، لم يبق أمامنا إلا أن نستعين بالله ثم نبحث عن تأويل آخر سليم من هذه الإشكالات ومنسجم مع نظام الآيات، فنقول وبالله التوفيق: من الواضح المعلوم أن أهل الكتاب كانوا يحاجون المسلمين في سيدنا إبراهيم وكانوا يبذلون جهدهم ليقطعوا صلته بالإسلام ويثبتوا أنه كان يهودياً أو نصرانياً، حتى يثبت أن الدين هو دين اليهودية أو النصرانية، وأما الإسلام فهو شيء طارىء مُحدَثٌ لا ينتمي إلى أصل، وليست له جذور ثابتة في التاريخ.

ولكن هل كانت هذه الدعوى قائمة على أساس من كتاب أو كانت عندهم أثارة من علم؟ كلا فلم يكن عندهم شيء من هذا ولا ذاك، وما كانت محاجتهم تستند إلى أساس!

نعم، كانت عندهم التوراة والإنجيل، ولكنهما كانا في وادٍ وهم في واد.

إنهما كانا يناديان أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً.

ولو أنهم أصاخوا لندائهما أو احتكموا إليهما لكانت الفتنة قد ماتت في مهدها، بل قبل ميلادها.

ولكنهم أعرضوا عنهما، وتصامّوا عن رسالتهما وهما في أيديهم وبين ظهرانيهم.

فعاتبهم القرآن على هذا الحجاج واللجاج في إبراهيم وعاتبهم على الإعراض عنهما،

مع أنهما نزلا من بعده ويشتملان على المعلومات الوافية الكافية الدقيقة في شأنه.

نعم، كان هذا الحجاج وهذا اللجاج معقولاً ومفهوماً إلى حدّ ما، لو كان الكتابان قد نزلا قبل إبراهيم، وكانا ساكتين في شأنه، أمّا وقد نزلا من بعده، وهما يحملان المعلومات الوافية في شأن ملّته ودينه فما الذي يبرر موقفهم الذي وقفوه من هذا الموضوع؟ وإنما كان أولى بهم وأجدر وأليق بعقولهم، لو كانوا يعقلون، أن يرغبوا عن حجاجهم ولجاجهم إلى حكم الكتابين، ويسلّموا له تسليماً.

تأويل الآية (٦٦):

ثم جاء قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية: «يعني بذلك جل ثناؤه ها أنتم هؤلاء القوم الذين خاصمتم وجادلتم فيما لكم به علم من أمر دينكم الذي وجدتموه في كتبكم وأتتكم به رسل الله من عنده ومن غير ذلك مما أوتيتموه وثبتت عندكم صحته فلِمَ تُحاجون يقول: فلم تجادلون وتخاصمون فيما ليس لكم به علم، يعني في الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه ولم تجدوه في كتب الله ولا أتتكم به أنبياؤكم ولا شاهدتموه فتعلموه»[١].

ونرى المفسرين - رحمهم الله - قد درجوا في تأويل الآية على مفهوم واحد، شأنهم في الآية التي قبلها[٢].

ولا ندري كيف ذهب الناس إلى أنَّ أهل الكتاب لم يكن لديهم عِلْم بأمر إبراهيم ودينه ولم يجدوه في كتب الله ولم تأت به أنبياؤهم.

فهذا القول وأمثاله ليس لها سند في كتاب الله.

ولو أنهم أنعموا النظر في هذه الآيات نفسها لوجدوا الأمر على عكس ما ذهبوا إليه.

فقوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

---

(١) تفسير الطبري: ٣/٢١٦-٢١٧.

(٢) انظر - مثلاً - تفسير البحر المحيط: ٢/٤٨٥، وروح المعاني: ٣/١٩٥، وتفسير ابن كثير: ١/٣٧٢، وفي ظلال القرآن: ١/٤١١-٤١٢.

صريح في أن محاجة أهل الكتاب في دين إبراهيم لم تكن لجهلهم بدينه وملته، فهم كانوا يعرفون دينه وملته وكانوا يعرفون جيداً أنه كان حنيفاً مسلماً ولكنهم مع ذلك كانوا يحاجون ويمارون ويدعون أنه كان منهم حتى يضلوا الناس ويبعدوهم عن الإسلام - الإسلام الذي كان يهدد مصالحهم ويهدد كيانهم!

وأوضح من ذلك قولُه تعالى في ختام هذه الفقرة: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١ ﴾.

فهم كانوا يحاجون ويمارون ويكفرون مع أنهم كانوا على بيّنة من الأمر وكانوا يعرفون الحق من الباطل وكانوا يشهدون به إذا خلوا إلى إخوانهم!

وإن أردنا زيادة البيان في هذا الموضوع فلنرجع إلى الآيات التي مضت معنا في سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٣ ﴾ [البقرة].

ولقد أسلفنا الكلام على هذه الآيات في موضعها، وكانت لنا عندها وقفات لا بأس بها.

وبالجملة فكاتب هذه السطور لا يرتاح إلى ما ذهب إليه الناس في تأويل هذه الآية، ويرى الخطأ في تأويلها ناتجاً عن الخطأ في تأويل الآية السابقة، ومن قلة الاعتناء بنظم الآية وسياقها.

وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل هذه الآية؟

والتأمل في نظمها سيجعل الجواب عنه سهلاً ميسراً بإذن الله.

لقد علمنا في الآية السابقة أن أهل الكتاب كانوا يحاجون في دين إبراهيم وملته وكانوا يزعمون أنه كان يهودياً أو نصرانياً، مع أن التوراة والإنجيل كانا في أيديهم وكانا يبينان لهم أنه كان بريئاً من الشرك بأنواعه وكان حنيفاً مسلماً.

فهم كانوا يحاجّون فيما علموه علم اليقين، وهو كونُ إبراهيم حنيفاً مسلماً. كانوا يحاجّون في هذا الأمر لينكروه ويرفضوه وينفّروا الناس عنه.

وفي ذات الوقت كانوا يحاجون فيما لم يكن عندهم به علم، وهو كون إبراهيم

يهودياً أو نصرانياً. فكانوا يحاجون في هذا الأمر، ليروّجوه ويوهموا الناس أنه هو الحق.

يقول الإمام الشوكاني - رحمه الله -: «والذي لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم»[1].

ويقول صاحب تفسير المنار - رحمه الله -: «﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو كون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً!»[2].

فجاء التقريع والتعنيف على موقفهم هذا، الذي لا يقبله عقل سليم ولا منطق مستقيم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: إن كان قد بلغ بكم الولوع بالحجاج واللجاج إلى أن تُنكروا ما هو ثابتٌ معلوم عندكم، فما بالكم تصرّون على ما لا تعلمون! وبأي منطق وعلى أي أساس تتفوّهون بما تجهلون؟!

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: هو الله - سبحانه وتعالى - مصدر العلم، وما جاء من عنده فهو العلم، وأما أنتم فليس عندكم منه شيء إلا ما جاءكم من عنده، فقولوا في إبراهيم ما علّمكموه. ولا تقولوا من عندكم شيئاً، فإنه لا صلة له بالعلم ولا صلة له بواقع الأمر.

مناسبة الآيات لما قبلها:

وإذا علمنا المفهوم الصحيح لهاتين الآيتين، سهل علينا معرفة وجوه المناسبة فيما بين هذه الآيات، خاصة وقد مضت إليها إشارات مفيدة خلال الحديث عن هاتين الآيتين. فَلْنُعِدْ إذاً هذا الموضوع إلى موضوع مناسبتها لما قبلها.

لقد علمنا سابقاً ان اليهود قد أثاروا قضية مولد عيسى - عليه السلام - وكان من ضمن الأغراض التي أرادوها من وراء هذه الفتنة هو أن يلتمسوا مبرّراً للشرك الذي توغل في دينهم ورنّق صفو عقيدة التوحيد التي جاءت بها رسلهم.

فقص القرآن عليهم قصص سيدنا عيسى من أوله إلى آخره بأسلوب ينفي عنه شبهة الألوهية ويثبت له العبودية الكاملة الواعية التي تشعر بمسؤوليتها تجاه ربها.

---

(١) فتح القدير: ١/٣٤٩.

(٢) مختصر تفسير المنار: ١/٣٣٣.

ثم ختم هذا القصص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فكانت هذه مناسبة طيبة لأن تزجى إليهم هذه النصيحة الغالية بشأن إخلاص العبادة وتوحيد الألوهية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

ثم إن التوحيد والإسلام كانا قضيتين متداخلتين بعضهما في بعض، فإن الإسلام هو دين التوحيد والتوحيد هو روح الإسلام وجوهره ولا يمكن الفصل بينهما بحال من الأحوال.

وأهل الكتاب قد يجدون في أنفسهم استعداداً للإقرار بعقيدة التوحيد، إذا كانت بصورة مجملة، وكانت لا تمسّ عاداتهم وتقاليدهم، ولكن يصعب عليهم جداً أن يقبلوها في إطار الإسلام فينخلعوا عمّا كانوا فيه من اليهودية أو النصرانية تماماً.

فكانوا كلما قوبلوا بالدعوة إلى الإسلام بعد الدعوة إلى التوحيد، امتعضوا منها ولجؤوا إلى المحاجة في دين إبراهيم وأصروا على أنه لم يكن يمت بصلة إلى الإسلام، وإنما كان يدين بدين اليهودية أو النصرانية. والدين هو الدين الذي كان عليه - صلوات الله عليه -.

فبعد ما انتهى السياق من دعوتهم إلى التوحيد، أقبل إلى هذا الموضوع - موضوع دين إبراهيم - وحاجّهم بأسلوب لا يترك لهم حجة للفرار عن دين الإسلام إلا أن يكون الشقاق قد أصمّهم وأعمى أبصارهم. وقد رأينا ذلك فيما تقدم بشيء من التفصيل.

وقد مضت معنا مثل هذه المحاجة في أول السورة والسياق نفس السياق والموضوع نفس الموضوع، ولا فرق بين الموضعين إلا من ناحية الإجمال والتفصيل. (انظر الآيات ١٨-٢٠).

هذا ما تيسر لنا في تأويل هذه الآيات وفي بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٧٢-٩١)

قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٦) أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ (٩٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٩١) ﴾.

* * *

قبل أن نتكلم في مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها نود أن تكون لنا وقفة عند بعض الآيات التي قد أشكلت على الناس، فإننا إذا عرفنا تأويلها تيسر لنا التوصل إلى حسن نظامها ووجوه مناسبتها فيما بينها.

فنبدأ أولاً بالآية التي قال عنها الواحدي - رحمه الله -: «إن هذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً»[١].

والتي قال عنها الإمام القرطبي - رحمه الله -: «هذه الآية أشكل ما في السورة»[٢]. ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

تأويل الآية (٧٣):

فلننظر إذاً ما قاله الأئمة الأعلام في تأويل هذه الآية.

فكم بذل هؤلاء من جهد وكم بذلوا من محاولات ليتوصلوا إلى التأويل الصحيح للآية، ولكن دون جدوى. فكل محاولة زادتهم حيرة إلى حيرتهم، وأدتهم من تكلف إلى تكلف.

وهذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج منا إلى تدليل أو تفصيل، فعباراتهم هم تنطق بهذا الوضع، وتعلن عن نفسها بالضعف[٣].

ولا بأس بأن نثبت هنا ما علق به المجلس العلمي بفاس على ما كتبه صاحب المحرر الوجيز في تأويل هذه الآية فإنه يؤكد لنا هذا الوضع ويعزز لنا هذا الموقف، يقول المجلس: «إن الذي تثلج به النفس من الوجوه التي ذكروها في هذه الآية هو ما صدر به البيضاوي وأبو السعود وهو الوجه الثاني عند الآلوسي، وقال: إن الأوجه لتأييده بقراءة ابن كثير وكونه أفيد من الأول عنده وأقل تكلفاً من غيره وأقرب إلى المساق وفسر به قبلهم الزمخشري وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ الآية، من كلام أحبار اليهود لأتباعهم ومعناه، والله أعلم، ولا تقروا بهذا الإيمان الظاهري الذي قصد بالرجوع عنه آخر النهار رجوع المسلمين عن دينهم، إلا لمن تبع دينكم أولاً وهم اليهود الذين أظهروا الإسلام أول النهار وكفروا آخره.

وهنا انتهى كلام اليهود لأتباعهم، ثم قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هدى الله

---

(١) روح المعاني: ٣/٢٠١.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/١١٢.

(٣) ومن شاء فليراجع - مثلاً - الجامع لأحكام القرآن: ٤/١١٢-١١٤ ومعاني القرآن للفراء: ١/٢٢٢، والكشاف: ١/٤٣٧-٤٣٨ وتفسير ابن كثير: ١/٣٧٣، وتفسير النسفي: ١/١٦٣.

خبر إنَّ، أي: إن هداية المسلمين لما جاء به محمد ﷺ هي هداية من الله. ومَنْ يهد الله فلا مُضلَّ له، فلا تطمعوا في رجوعهم عن دينهم، وقوله سبحانه: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ الآية، تعليل لمقدَّرٍ بلام محذوفة، والمعنى: لأَنْ يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضائل، أو لأَنْ يحاجُّوكم عند ربكم فيغلبوكم، قلتم ما قلتم ودبرتموه لا لشيء آخر، أي: فما بكم من الحسد على أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم هو الذي دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم ودبرتموه خوفاً من أن يشارككم غيركم في تلك الفضائل، ثم رد الله عليهم حصر الفضائل فيهم بقوله: قل إن الفضل بيد الله (انظر تمامه في الألوسي)»(١).

هذا التعليق وهذا الترجيح إن دل على شيء فإنما يدل على عدم ارتياح المجلس لسائر الوجوه التي ذكرها المفسرون - رحمهم الله - لما يكتنفها من ضعف وتكلف شديد.

ثم اختيارهم لما اختاروه - على ما به من عِلّات - يدل على أنه لم يكن إلا اختياراً نسبياً، ولو أنهم اطلعوا على أفضل منه لركنوا إليه، وآثروه على غيره.

إذاً فما هو تأويل هذه الآية؟

إن التأمل في نظم الآية وسياقها يلهمنا في تأويلها ما يلي: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ جزء من الخطة التي دبرها أهل الكتاب لإضلال المسلمين عن دينهم، وهي قولهم لأتباعهم وجنودهم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فهم لما أرادوا أن يرسلوا هؤلاء لإنجاز هذه الخطة المشؤومة نصحوهم أن ينجزوها بكل تيقظ وانتباه فلا يقبلوا أي نصح، أو أي كلام إلا ممن كان على دينهم حتى لا يتأثروا هم قبل أن يؤثروا ولا يقعوا في شبكة المسلمين قبل أن يوقعوهم في شبكتهم.

ثم ذكروا الدافع الذي دفعهم إلى تدبير هذه الخطة حتى ينشطهم للعمل لها ويدفعهم إلى إنجازها وتنفيذها كما دفعهم إلى وضعها وتدبيرها: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، أي: انشطوا لهذه الخطة ونفذوها لئلا يؤتى أحد ذلك الشرف الذي حباكم الله به وحتى لا يمكن هؤلاء أن يحاجوكم عند ربكم إن لم تؤمنوا بنبيهم ولم تتبعوا سبيلهم.

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ١٢٩ (بالهامش).

فأهل الكتاب كان يحزّ في صدورهم أن شرف النبوة والرسالة، الذي كان ثاوياً فيهم منذ مئات السنين، نُزع منهم بمبعث هذا النبي في بني إسماعيل. وهذا الشعور المشؤوم كان حجر عثرة في طريقهم إلى الإسلام، بل كان يدفعهم إلى الكيد به والمكر بأهله.

وتفكيرهم المعكوس لم يكن يوجههم إلى أن يسموا بأنفسهم عن هذه العنصرية المنتنة وينضموا إلى هذا الركب الكريم لينالوا نصيبهم من خيرات تلك النبوة المباركة، بل كان يحفزهم ليبذلوا ما في وسعهم لإضلال المسلمين عن دينهم، فإنهم إذا ضلوا عن دينهم حُرموا من الشرف الذي أراد الله أن يخلعه عليهم كما خلعه عليهم قبلهم، وتحققت بغيتهم التي كانت تقضّ عليهم مضاجعهم، وهي أن لا يؤتى المسلمون مثل ما أوتي هؤلاء قبلهم.

كما أنهم إذا ضلوا عن دينهم أَمِنَ هؤلاء من أن يحاجهم أحد عند ربهم.

وانطلاقاً من هذين الغرضين كان أهل الكتاب يعملون بجميع وسائلهم ومخططاتهم ليزيغوا المسلمين ويصرفوهم عن دينهم، وكانت هذه الخطة التي تذكرها الآية على رأسها.

وهاتان الآيتان أشبه ما تكونان بما جاء في سورة الحديد حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فالآية التي نتحدث عنها تكشف للمسلمين كيد أهل الكتاب وسعيهم في إضلالهم وتؤيسهم أنهم لن ينجحوا في مسعاهم، إذا كان الله يريد أن يؤتيهم فضله ويختصهم برحمته.

وأما آية الحديد، فهي توصي المؤمنين بالتقوى والإيمان بالرسول حتى ينالوا نصيبهم من رحمة الله وحتى يُخْفِقَ فيهم كيد أهل الكتاب ويفشل مسعاهم لإبعادهم من فضل الله.

وبهذا نعلم أن الإيمان هو الضمان الوحيد لبقاء فضل الله على المسلمين، وهو الذي من شأنه أن يُمكِّنهم من محاجة أهل الكتاب عند ربهم.

وهم كانوا يدركون ذلك جيداً، وكانوا يدركون سرّ عزّ المسلمين وشرفهم فكانوا يدبّرون ويخططون ليصرفوهم عن إيمانهم حتى لا يُؤتَوا مثل ما أُوتي هؤلاء قبلهم، وحتى لا يحاجوهم عند ربهم.

وعلى هذا فجاءت هذه الآية على أسلوب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات]، أي: لئلا تصيبوا، أو حتى لا تصيبوا.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فهو جملة معترضة بادر بها السياق قبل أن يتم حديثهم إشعاراً بأن قولتهم هذه - وهي: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ - قد بلغت من الشناعة بحيث لا تحتمل التأجيل، وهي جديرة بأن تُنكرَ في لحظتها الأولى. فإن الهدى هدى الله والدين هو دينه، ودينُ الله أحق بالاتباع، وهداه أحرى بالاقتفاء، ومن عدل عنهما إلى غيرهما فقد ضيع نفسه.

هذا ما يظهر في تأويل هذه الآية بعد التأمل الطويل المتكرر فيها.

وهو - كما لا يخفى - منسجم تمام الانسجام مع نظمها وسياقها، فقد سبق هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وجاء بعدها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾.

وهذا السياق يفيد أن هذه الخطة وإن كانت وضعت لإضلال المسلمين عن دينهم، ولكنه بالذات لم يكن غاية الغايات عندهم وإنما الذي كان يهمهم ويشغل بالهم هو أن يجردوا المسلمين من ذلك الشرف الذي أكرمهم الله به، ويتخلصوا من ذلك الخزي الذي سيلاحقهم إذا حاجَّهم المسلمون عند ربهم.

ولم يكن هناك طريق يؤديهم إلى هذه الغاية ويخلِّصهم من هذا الخزي إلا أن يضلوهم عن دينهم، فهم بثّوا جنودهم المعلّمين المدرّبين في صفوفهم لينجزوا لهم ما يريدون، فآذنهم تعالى أنهم لا يستطيعون ما يريدون، فإن الفضل بيده يؤتيه من يشاء.

* * *

ثم إن هذا التأويل ليس فقط أنه أقرب من غيره لنظم الآية وسياقها، بل هو خلو في

ذات الوقت مما يحسّه الدارس فيما مضى من التأويلات من ضعف وتكلف. ولله الحمد.

* * *

تأويل الآية: (٨٠):

ومما أشكل على الناس في هذه المجموعة من الآيات قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

يقول الزمخشري - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية: (﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له)[١].

ونرى المفسرين - رحمهم الله - شبه متواطئين على هذا المعنى، مع أن هذا المعنى يفكك نظم العبارة ويجعل الآية مقطوعة الصلة عن جاراتها[٢].

ذهول عن أسلوب الآية:

ولعل الذين ذهبوا إليه لم يذهبوا إليه إلا لذهولهم عن أسلوب من أساليب الكلام، فإن اسم الفاعل وغيره من أسماء الصفة لا تدل دائماً على قيام الوصف في موصوفها، بل تدل أحياناً على كونه من واجبه ومما ينبغي أن يتحقق فيه.

ومن هذا النوع قوله تعالى في نفس السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ لا يدل على كونهم شهداء بالفعل، وإنما يذكّرهم تلك المهمة التي نِيطتْ بهم وكان من واجبهم أن يقوموا بها وينهضوا لأدائها ولكنهم تخلّوا عنها، ألا وهي مهمة الشهادة بالحق على الناس.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود].

فقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ليس استهزاء أو تهكماً كما قيل، وإنما هو

---

(١) الكشاف: ١/ ٤٤٠.

(٢) ومن شاء فليراجع مثلاً تفسير الطبري: ٣/ ٢٣٥، وتفسير البحر المحيط: ٢/ ٥٠٧، وتفسير أبي السعود: ١/ ٣٨٠، وتفسير النسفي: ١/ ١٦٦.

استنكار لقوله وإشعار بأنهم وجدوه على غير ما يليق به، فإنه من المفروض أن يتصرف تصرف الحليم الرشيد، ولكنه أخلف ظنهم بكلامه، وأتى بما هو ليس من شأنه.

وهذا يشبه في روحه ومدلوله كلام قوم صالح لسيدنا صالح: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود].

فقوله: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾، وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ يجريان في اتجاه واحد ويعبران عن معنى واحد، والذي يفرق بينهما هو اختلاف الأسلوب فقط.

وكان هذا الأسلوب مألوفاً عند العرب وكانوا يستعملونه في كلامهم، ومن ذلك قول مالك بن حريم الهمذاني:

أنبئت والأيام ذات تجارب ... وتبدي لك الأيام ما لست تعلم
بأن ثراء المال يرفع ربه ... يُثني عليه الحمدَ وهو مُذَمَّمُ[1]

فقوله: (وهو مذمم) لا يعني أنه مذمم بالفعل فإن الأمر على العكس والناس يثنون عليه ويكرمونه ويثنون عليه الحمد وإنما يعني أنه ينال بثرائه ثناء الناس وإن كان من شأنه أن يذم ويقبّح ويجعل غرضاً للشتيمة.

ومن ذلك قول يزيد بن الحكم الثقفي وهو يعظ ابنه بدراً:

ولقد يكون لك الغريب ... أخاً ويقطعك الحميم[2]

فليس المراد بالحميم الذي يكون حميماً بالفعل، وإنما المراد به هو الذي كان من واجبه أن يكون حميماً، فإن الذي يكون حميماً بالفعل لا يكون قاطعاً للرحم أو صارماً لأواصر القرابة أو المودة بحال من الأحوال، فبينهما بون شاسع. وعلى هذا فيكون تقدير العبارة هكذا: (ولقد يكون لك الغريب أخاً ويقطعك القريب الذي كان من شأنه أن يكون حميماً.

ونرى الآية التي نتحدث عنها قد وردت على مثل هذا الأسلوب فيكون معنى الآية هكذا: (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم من شأنكم وواجبكم أن تكونوا مسلمين).

---

(١) الحماسة: ١/٥٩٨، رقم المقطوعة (٤٣٩).

(٢) الحماسة: ١/٦١٣، رقم (٤٥١).

وإذا أوَّلنا الكلام إلى هذا المعنى لم يكن هناك أي إشكال في أن تكون هذه الآية أيضاً ناظرة إلى أهل الكتاب كشأن أخواتها، وانسجم الكلام مع ما قبله وما بعده تمام الانسجام.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

لقد علمنا في الآيات السابقة أسلوباً من الأساليب التي كان يتبعها أهل الكتاب ليضلوا المسلمين عن دين الإسلام، ألا وهي المحاجة في ملة إبراهيم ودينه، فإن هذه المحاجة كانت ترمي - أول ما ترمي - إلى إضلال المسلمين عن دينهم والتشكيك في أمرهم ولذلك وردت بعد ذكرها هذه الآية: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران].

والآيات التي نتحدث عنها الآن تبين لنا أساليب أخرى كانوا يتبعونها لإضلال المسلمين وتنفيرهم عن دينهم.

فمن ذلك ما ذكر في الآيتين الأوليين من هذه الآيات، حيث قال تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

ولقد أسلفنا الكلام على هذه الخطة المدبّرة بشيء من التفصيل، وبعد ذكرها وذكر ما قدر لها من الخيبة والفشل جاءت هذه الآية: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وهذه الآية تكشف القناع عما تنطوي عليه صدور أهل الكتاب من البغض والحقد على المسلمين من ناحية أخرى، فقد بلغ من بغضهم وحقدهم عليه أنهم استباحوا أموالهم واستباحوا حرماتهم ولم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة.

فإذا كان هذا حالهم معهم في أمر دنياهم فماذا يكون حالهم معهم في أمر دينهم! فلا ينخدع المسلمون من كيدهم وخداعهم وليحذروهم كل الحذر!!

ثم إن هذا الوضع كما يدل على حقدهم الدفين ضد المسلمين فكذلك يوفر دليلاً على نقض عهدهم مع الله، حيث أنهم قد عاهدوا الله أنهم سيؤمنون برسله يعزّرونهم

(انظر الآية ١٢) من (المائدة) ولكنهم لم يراعوا ذلك وارتضوا لأنفسهم غير ما كان يمليه عليهم عهدهم.

فجاء قوله تعالى ينذرهم عاقبة غدرهم بعهد الله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

وبعدما انتهى السياق من ذكر هذه الخطة المدبرة لإضلال المسلمين عن دينهم وانتهى من كشف الغيظ الذي كان يتأجج عليهم في صدورهم أقبل إلى خطة أخرى من خططهم ليحذر المسلمين منها: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وكان مما يَلْوون به ألسنتهم ما يوحي أن أحداً من أنبيائهم - مثلاً - أمرهم بعبادته أو أمرهم أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله، وكانوا يقصدون بذلك إلى أن يُوهِموا المسلمين أن عقيدة التوحيد التي يعرضها الإسلام عقيدة طارئة محدثة، والشرك الذي يلوّن حياتهم هو الأصل الأصيل الذي دعت إليه الكتبُ السابقة ودعت إليه الرسل والأنبياء، فجاء قوله تعالى ينبّه على كذبهم وينبّه على سفاهتهم وينبّه على أن دعواهم هذه مما يأباه العقلُ السليم ويرفضه المنطق المستقيم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

وبعدما انتهى من تفنيد هذه الدعوى عقلياً ومنطقياً، رجع إليها ففنّدها تاريخياً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾.

فهؤلاء يزعمون أن أنبياءهم أمروهم أن يكونوا عباداً لهم من دون الله، أو أمروهم أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله.

وبعبارة أخرى أمروهم أن يشركوا بالله ولا يألوا جهداً في معارضة هذا النبي الذي يدعوهم إلى الإسلام مع أن الواقع التاريخي يكذّب ذلك، فقد أقرّ هؤلاء النبيون كلهم

أنهم ليؤمِنُنَّ بهذا النبي ولينصُرنّه إذا أدركوه. وهذا الإقرار أول دليل على أنه ليس هناك خلاف بينه وبينهم، فكلهم كانوا دعاة إلى الإسلام وكانت هذه أمتهم أمة واحدة.

ثم التفت السياق إلى تلك الطائفة من أهل الكتاب يَصِمهم بالفسق حيث أنهم يُعرِضون عن الحق بعدما تبين لهم وأسفر، ويتعجب منهم على عدولهم عن الإسلام ورغبتهم عنه مع أنه دين هذا الكون وكل من في السموات والأرض خاضعون له ومنتظمون في سلكه: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ثم أُزجيت النصيحة إلى المسلمين أن يستمسكوا بدينهم ويعضّوا عليه بالنواجذ ولا يبالوا بمخالفة مَنْ خالفهم وحربِ من حاربهم وكيد من كايدهم وليعلموا أن الإسلام هو الدين المقبول عند الله وأهله هم المفلحون عنده، وأما من أعرض عنه وأبى فليس له إلا الهلاك والخسران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم كرّ السياق على أهل الكتاب يتوعّدهم ويتهدّدهم على سوء موقفهم الذي وقفوه من هذا الرسول والذي كان يناقض تماماً ذلك العهد والميثاق الذي أخذ من أنبيائهم والذي كان يوجب عليهم أن يبادروا بالإيمان به ولا يدّخروا وسعاً في نصره وشدّ أزره: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ومما نلاحظه في هذه الآيات أنها تتفق تماماً مع طبيعة الموقف الذي تتناوله فكما أن هؤلاء الأعداء شنوا غارة شعواء على هذا الدين ليغزوه من كل جانب ويحاربوه بكل أسلوب، فكذلك نرى هذه الآيات تصبُّ عليهم اللعنةَ وكأنها تنصبّ عليهم من كل جانب: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وكما أنهم لم يفتروا ساعةً عن حربِ هذا الدين وأهله فكذلك لا يفتر عنهم العذاب يوم القيامة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

• واليوم هم يستهينون بدين الإسلام ويشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ولكنهم يودون يوم القيامة لو يقبل منهم ملء الأرض ذهباً ويتجاوز عن تفريطهم في حق الإسلام.

* * *

سر الفرق بين آيتي البقرة وآل عمران:

وقبل أن نغادر هذه الآيات إلى ما بعدها نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فقد مضت معنا هذه الآية في سورة البقرة أيضاً ولكن مع شيء من الفرق حيث قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

وهنا يثور سؤال: ما السر في هذا الفرق الذي نلاحظه في الموضعين؟ ثم ما السر في تكرر هذه الآية هنا بعدما مضت معنا في سورة البقرة؟

أما الفرق بين الموضعين من ناحية «إلى» و«على» فالتأمل في نظم الآيتين وسياقهما يظهر لنا أن الآية الأولى وهي التي في سورة البقرة جاءت في جو الاعتزاز والافتخار حيث جاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]. كما جاء بعدها قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة].

فاليهود والنصارى لما اعتزّوا باليهودية والنصرانية وادّعوا أنها هي طريق الهدى دون غيرها أُهيبَ بالمسلمين أن يعتزّوا بدينهم الإسلام، الذي أنعم الله به عليهم، والذي كان دين أبيهم إبراهيم، ودين الرسل والأنبياء أجمعين.

وكان «إلى» أنسب بهذا الجو وألصق بهذا المعنى. والقرآن كلما أراد أن يبرز هذا الجانب أو يعبّر عن هذا المعنى - وهو خيريّةُ الشيء وكونه رحمةً ونعمة - عدّى (الإنزال) بـ«إلى» كما نرى في الآيات التالية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء].

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ].

﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص].

وتكرر (أوتي) في هذه الآية أيضاً يؤدي دوره أداء هذا المعنى، ويساعد في إبراز هذا الشعور الذي يموج به قلب المؤمن تجاه نعمة الإسلام - النعمة التي لا تعدلها أي نعمة في العالم على الإطلاق.

وأما آية آل عمران فيسودها جو الفرض والإيجاب فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

كما جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وهذا السياق ينادي بأن الإنسان مكلف باتباع ملة الإسلام ومَنْ عدل عنها لم يحمد عاقبته وكان الخسران نصيبه.

ومن المعلوم أنه إذا كان السياقُ سياقَ فرضٍ وإيجاب، فحرف (على) يكون أولى به، ولذلك حسن أن يقال هنا: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ... إلخ ﴾ كأن المعنى: آمنا بالله وما فرض علينا وما فرض على إبراهيم... إلخ.

ثم لكون السياق سياق فرض وإيجاب اكتفى السياق بإيراد (أوتي) مرة واحدة. ولم يكرره كما كرر في آية البقرة. فإن تكراره هنا كان من شأنه أن ينقل الذهن إلى جو غير الجو الذي يحيط بالآية.

سر تكرار الآية:

بقي علينا أن نكشف القناع عن سرّ تكرر هذه الآية بعد مضيها في سورة البقرة، فنقول: إن هذه الآية تعرض علينا صورة واضحة دقيقة للإيمان المطلوب، بحيث لا تترك فرصة لمن يريد التلاعب به والخداع في أمره.

فالإيمان لا بد أن يكون كما جاء به الإسلام، وكما جاء به هذا النبي، وكما جاء به الأنبياء كلهم، ولو أراد أحد أن يؤمن بنبي دون نبيّ، أو يؤمن بطريقة غير طريقة الإسلام، فهو باطل مردود، ولا قيمة له عند الله.

ولذلك كانت هذه الآية من أشد الآيات على اليهود والنصارى، وعلى كل من حاد عن الطريق واتبع هواه.

فجاءت أولاً في سورة البقرة لتنبّه اليهود والنصارى من سُباتهم وتبيّن لهم أن الإيمان الذي يتبجّحون به، والذي تمليه عليهم يهوديّتهم ونصرانيّتهم باطل ومرفوض. وليس من الهدى في شيء.

وإنما الذي يعتبر عند الله هو الإيمان الذي جاء به الإسلام وجاء به هذا النبي وجاء به الأنبياء كلهم، فإن كانوا يريدون الهدى فليعودوا إليه. ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

ثم تكررت في هذه السورة لتضعهم أمام مرآة تُجلّيهم للناظرين، ثم تعلن انسلاخهم من الهدى واليأس من عودتهم إليه، كما يظهر من قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا ما يظهر لنا في سر تكرار هذه الآية وفي مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها فنحمده - تعالى - ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (٩٢-٩٩)

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ

صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ
إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا
تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

* * *

يقول الإمام ابن عطية - رحمه الله - وهو يذكر موقع الآية الأولى من هذه الآيات، ويذكر مناسبتها لما قبلها: «ذهب بعض الناس إلى أنْ يصلَ معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى أنه لا يقبلُ من الموافي على الكفر ملء الأرض ذهباً وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحض على الإنفاق من المحبوب المرغوب فيه»[١].

ويقول الإمام أبو حيان - رحمه الله -: «مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما أخبر عمن مات كافراً أنه لا يقبل ما أنفق في الدنيا أو ما أحضره لتخليص نفسه في الآخرة على الاختلاف الذي سبق حضّ المؤمن على الصدقة وبيّن أنه لن يدرك البر حتى ينفق مما يحبّ»[٢].

تقويم هذا الرأي:

وهكذا نرى الناس قد نحوا منحى واحداً في ربط هذه الآية بما قبلها[٣] مع أنه لا يخلو من تكلف بالإضافة إلى أن أسلوب الآية نفسها لا يشجعنا على القول بمثله.

وأما مناسبتها لما بعدها فالناس ساكتون عنها إلا ما رواه ابن عطية عن بعضهم أنه قال: «ثم ذكر - تعالى - تقرب إسرائيل عليه السلام، بتحريم ما كان يحبّ على نفسه ليدل تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الإنفاق من المحبوب، وفسر جمهور المفسرين هذه الآيات، على أنها معان منحازة، نظمتها الفصاحة المعجزة

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ١٥٧.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٥٢٣.

(٣) ومن أراد التوسع فليراجع (فتح القدير: ١/ ٣٦٠)، و(روح المعاني: ٣/ ٢٢٢)، و(مختصر تفسير المنار: ١/ ٣٥٢)، و(في ظلال القرآن: ١/ ٤٢٤).

أجمل نظم»[1].

ولعلنا لسنا بحاجة إلى التعليق عليه، فهو أسوأ حالاً مما سبق، فإن تحريمَ ما أحلَّ الله أو تحريم نعمة من نعمه ليس من البر أو التقرب أو الإنفاق في شيء، ولذلك لما أراد النبي ﷺ أن يفعله لسبب من الأسباب، جاءه النهي عن ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم].

وأما ما حرم إسرائيل على نفسه فالذي يترجح في شأنه هو أنه - عليه السلام - فعلَ ما فعل لمرضٍ كان يعاني منه.

وإليه أشار صاحب الكشاف - رحمه الله - حيث قال: «وقيل أشارت عليه الأطباء باجتنابه ففعل ذلك بإذن من الله، فهو كتحريم الله ابتداء»[2].

فإسرائيل - عليه السلام - إنما حرم على نفسه ما كان يخاف منه الضرر على صحته.

وأما القول بأنه حرم على نفسه أحبَّ الطعام إليه وأشهاه إيفاءً بنذرِه أو حرصاً منه على نيل البر، فهو قولٌ يعوزه الدليل، والشرع لا يقرّ مثل هذه النذور، ولا يسمح بتحريم ما أحل الله، إلا أن يكون الإنسان مضطراً إليه بسبب مرض قد نشب فيه أظفاره، ولم تبق له حيلة إلا أن يجتنب ما يضره.

وأما ما ذكروه في مناسبة الآية لِمَا قبلها فهو أيضاً لا يخلو من تكلف.

فإن الآية التي قبلها ما جاءت لبيان ما لا ينفع الكفار من الإنفاق البتة، وإنما جاءت للتنبيه على أن فرصة الإيمان إذا فاتتهم فإنها لن تعود ولن تعوض، ولو أراد أحد بعد فواتها أن يتداركها بملء الأرض ذهباً لم يقدر عليه.

إذاً فلا يستقيم ربط الآية بما قبلَها على الوجه الذي ذكروه.

هذه ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب الآية أيضاً لا يشجعنا على القول بما قيل في تأويلها ومناسبتها لما قبلها، فإن هذا التأويل يعتمد على أن يكون الخطاب في قوله تعالى:

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/١٥٧.

(٢) الكشاف: ١/٤٤٥.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ. . . إلخ﴾ موجهاً إلى المؤمنين. والمعهود في ﴿لَن﴾ أنها إذا دخلت على صيغة الخطاب كما نرى في هذه الآية، فإنها توحي - في الغالب - بجوّ يسوده الجحود والإنكار، أو التردد وعدم الاقتناع وسيتبيّن ذلك بأمثلتها، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء].

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر].

فهذه الآيات قد دخلت فيها (لن) على صيغة الخطاب، ولا يخفى أنها كلها توحي بجو يسوده الجحود والإنكار والتردد وعدم الاقتناع.

ومثل هذه المواقف يكون تأويل الخطاب فيها إلى غير المؤمنين أولى من تأويله إلى المؤمنين، وخاصة إذا كانت القرائن الأخرى تؤيد ذلك.

منشأ الوهم:

ولعل الذين أوّلوا الخطاب في الآية إلى المؤمنين لم يؤولوه إليهم إلا لما وردت به الآثار.

فقد روي - مثلاً - عن أنس - رضي الله عنه - أنه قال: (كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً، وكان أحبّ أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله ﷺ: (بخ. ذلك مال رابح. ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين). قال أبو طلحة: أفعل يا

رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[1].

إن مثل هذه الآثار هي التي ذهبت بهم في تأويل الآية إلى ما ذهبوا إليه، مع أنها لا تلزمنا أبداً بأن نفسر الآية بها، بل يسعنا أن نقول: إن تلك الآثار كلها داخلة في عموم هذه الآية، والآية نزلت في أصلها بمناسبة أخرى وجاءت في شأن قوم آخرين.

ومما يؤيد ذلك ما رواه أنس - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أو هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة] قال أبو طلحة: يا رسول الله، حائطي الذي بكذا وكذا صدقة، ولو استطعت أن أُسِرَّه لم أُعلنه، فقال رسول الله ﷺ: (اجعله في فقراء أهلك)[2].

فهذه الرواية تبين لنا الموقف وتساعدنا في تفسير سائر المواقف التي تشبه هذا الموقف، فإنها تبين لنا أن هذه الآية وحدها لم تكن تحملهم على أن ينفقوا في سبيل الله من أحب أموالهم إليهم، بل كانت هناك آيات أخرى تملي عليهم هذا الموقف مثل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وإن قرأ هؤلاء تلك الآية بمناسبة إنفاقهم من أحب أموالهم إليهم فليس معنى ذلك أنهم كانوا يحسبون أنفسهم معنيين بهذا الخطاب، بل جل ما يقال: إنهم كانوا يعتبرون أنفسهم داخلين في عمومه، وكان ذلك نتيجة طبيعية لحرصهم الشديد على تطبيق كتاب الله وأحكامه.

وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل هذه الآية؟ وإلى من وجّه الخطابُ فيها؟ وما وجه مناسبتها لما قبلها وما بعدها؟

فنرجع إلى البحث عن تأويل هذه الآية ولكن نودّ قبل ذلك أن نكون على بينة من أمرين.

الأمر الأول:

الإنفاق ليس خاصاً بما يسمى في العرف العام بالمال، بل هو أعمّ من ذلك، فكما أنه يطلق على الذهب والفضة ومشتقاتهما وعلى كل ما يمتلكه الإنسان من عرض هذا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون: ٥/ ١٦٩- ١٧٠.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٧٤.

الأدنى فكذلك يطلق على العلم والحكم ويطلق على الرحمة والنصيحة وما إلى ذلك. والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء].

والمراد بخزائن الرحمة هنا هو الكتاب والحكم والنبوة كما يظهر بالتأمل في سياق الآية. ولقد استخدم القرآن هذا التعبير لهذا المعنى في سورة (ص) أيضاً حيث قال: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص].

ولقد استخدمت كلمة (خزائن) كذلك لأداء هذا المعنى كما استخدمت كلمة (الرحمة) في مثل هذا السياق لتؤدي نفس الغرض حيث قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]، فالخزائن والرحمة وخزائن الرحمة، كلها يستعملها القرآن في سياق الكتاب والحكم والنبوة.

فيكون معنى الآية: لو أنكم كنتم تملكون هذه الأشياء إذاً لأمسكتموها حتى تنحصر فيكم ومنعتموها من أن يُنفقَ منها شيء على غيركم، وكان الإنسان بخيلاً ممسكاً.

ومن هنا نعرف أن القرآن استعمل (الإنفاق) في سياق الكتاب والحكم والنبوة.

فالإنفاق ليس خاصاً بما يسمى في العرف العام بالمال، بل هو يطلق على الكتاب وعلم الكتاب ويطلق على النبوة وعلم النبوة وما إلى ذلك.

الأمر الثاني:

أن الحب نسيب البخل، والحب المفرط للشيء هو الذي يحمل الإنسان على أن يبخل به على غيره. ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة إشارة واضحة، حيث قال: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر].

فقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ ناظر إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ناظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ

طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

فحبّهم المال حباً جماً هو الذي يحملهم على أن يبخلوا به ويمنعهم من أن يحضّ بعضهم بعضاً على طعام المسكين.

فالحب هو أصل البخل، وعلى هذا يستعمل أحياناً وكأنه مرادف للبخل، كما هو شائع مطرد في الألفاظ التي تكون بينها نِسبةُ الأصل والفرع.

ومنه قول عدي بن زيد، وهو من فحول الجاهلية:

عسى سائل ذو حاجة إن منعته ... من اليوم سؤلاً أن يُيَسّر في غَدِ
وللبخلة الأولى لمن كان باخلاً ... أعفّ، ومن يبخل يُلم ويُلهّد
وأبدت لي الأيام والدهر أنه ... ولو حبّ، من لا يُصلح المال يَفسُد[1]

موضع الشاهد هنا قوله: (ولو حبّ) حيث أراد به معنى البخل.

أي: بيّنت لي الأيام أن البخل لا يمنع المال من الفساد، وإنما يمنعه منه الإصلاح والاقتصاد وحسن الرعاية وحسن التنمية، فمن لم يتّخذ تلك الأسباب فسدَ مالُه، ولم يمنعه من الفساد بخله.

والأمر في الآية التي نتحدث عنها كذلك، فقد أطلقت فيها كلمة الحب وأُريدَ بها البخلُ كما سنبينه.

تأويل الآية:

وبعد هذه التقدمة نعود إلى الآية فنقول: الخطاب في هذه الآية وما بعدها ما زال موجهاً لأهل الكتاب.

وقد علمنا في الآيات السالفة أن أهل الكتاب قد أَرْخَوْا سُدولَ الكتمان على كل ما جاء في كتبهم عن هذه النبوة المباركة مما كان يبشر بها ويذكر آياتها وعلاماتها.

وليس ذلك فحسب، بل أذاعوا في الناس ما ينفيها وينفّرهم عنها، ويوهمهم أن التي بشرت بها الرسلُ والكتب ليست هذه النبوة! وعلى ذلك وجه العتاب إليهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) جمهرة أشعار العرب: ٢/ ٥١٢.

﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [آل عمران].

فجاءت هذه الآية بعد كل ما مضى مما يفضحهم ويكشف حالهم، لتبين لهم أنهم ليس أمامهم طريق، إن كانوا يريدون أن ينالوا البر إلا أن يبينوا للناس ما كتموهم ويصدعوا بكل ما يبخلون به مما ورد في كتبهم في شأن هذه النبوة المباركة: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

ويمكن أن يستأنس هنا بما ورد في سورة البقرة، والسياق نفس السياق، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة].

فوصفت لهم هذه الآية، إن كانوا يريدون أن يخرجوا من اللعنة التي تحيط بهم، ثلاثة أمور: التوبة، والإصلاح، والتبيين.

وهنا يثور سؤال، فلماذا اقتصر السياق هنا في سورة آل عمران على أمرين فقط، وهما: التوبة والإصلاح، ولماذا لم يذكر الثالث، وهو التبيين، حيث قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

والجواب عنه أن السياق لم يترك الثالث وإنما عدل به عن مكانه مع أخويه ليذكره مستقلاً في مكان آخر وبأسلوب آخر تنويهاً بشأنه وإبرازاً لأهميته وتنبيهاً على أنه لا معنى للتوبة والإصلاح ولا اعتبار لهما ما لم ينضم إليهما التبيين، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

ولقد تكرر هذا المضمون في نفس السورة وبأسلوب آخر حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران].

وسنتناول تلك الآية بالبيان والإيضاح في موضعها بإذن الله.

وهذا المفهوم يجعل الآية مرتبطة بما قبلها وبما بعدها أيَّ ارتباط، أما ارتباطها بما قبلها فقد علمناه آنفاً، وأما ارتباطها بما بعدها فهو أن السياق بعدما انتهى من بيان أهمية التبيين وضرورته وانتهى من بيان خطورة أمرِهِ أقبل إلى موضوعين هامين قد ركّز

أهل الكتاب على كتمان أمرهما، وهما موضوع الطعام وموضوع البيت.

أما موضوع الطعام فقد كان من أمره أنهم أشاعوا في الناس أن هذا الذي يدّعي النبوة إن كان صادقاً في دعواه فما باله يخالف ملة إبراهيم ويخالف الأنبياء السابقين حيث يحلّ من الطعام كل ما كان حراماً عندهم؟!

وأما موضوع البيت فأشاعوا عنه أن البيت الذي بناه إبراهيم هو بيت المقدس وليس الكعبة، فإن كان هذا نبياً وكان مبعثه لإحياء ملة إبراهيم وتجديد معالمها فما باله قد رغب عن بيته إلى بيتٍ لا صِلةَ له به؟!

فأما الشبهة الأولى فأجاب عنها القرآن بأن الطعام كله كان حلاً لبني إسرائيل وما حرم عليهم منه شيء، لا في كتاب منزل، ولا على لسان نبيٍّ مرسل. نعم، لقد حرم إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - شيئاً من ذلك، ولكنه حرمه على نفسه لظروف كانت تخص به، ولم يحرمه على قومه، وأيضاً صار ما صار قبل نزول التوراة، وهم لا شأن لهم بما حدث قبل نزولها.

فعلامَ هذه الجَلبة وهذا الضجيج؟! هل يريدون أن يتبع الحق أهواءهم فيحرم كل ما حرموه على أنفسهم وعلى غيرهم ظلماً وبغياً وافتراء على الله؟!

وهذه الآية وإن اختلفت فيها الآراء إلا أن ما ذكرناه أولى بالسياق وأقرب لنظام الآيات، ولقد كان الضحّاك يؤوّل الآية هذا التأويل[1].

ومما يوحي إلينا السياق أن كل ما حرمه بنو إسرائيل على أنفسهم من الطعام إنما حرموه بعدما توغل فيهم الشرك، وكان الشرك هو الذي يملي عليهم تلك التحريمات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى بعد كشف القناع عن حقيقة الواقع: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

والتأمل في نظم سورة الأنعام أيضاً يؤيد هذا القول ويذهب بنا إلى ما ذهبنا إليه.

وأما الشبهة الثانية فأجاب عنها القرآن بأن أول بيت وضع للناس - وقد وضعه إبراهيم ليكون قبلة لهم ومصلى - هو الذي يوجد بمكة. ففيه آيات لا يمكن إنكارها، وهي لا توجد في غيره.

---

(١) انظر تفسير الطبري: ٤/ ٣.

فهو الذي يمتاز بكونهِ مقامَ إبراهيم فإن إبراهيم جعله مقاماً له ولذريته واتخذه مركزاً لدعوته حيث قال تعالى حكاية عنه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم].

وهو الذي يمتاز بكونه مأمناً للجميع، فكل مَنْ دخله كان آمناً، وتلك ميزة لا توجد في غيره، وكان ذلك من آيات هذا البيت حيث دعا له إبراهيم فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة].

ثم هذا البيت هو الذي يحجه الناس: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾.

وهذا أيضاً من آيات كونه بناء إبراهيم، فإن إبراهيم لما انتهى من بنائه أمره ربه بأن يُؤذنَ في الناس بحجِّهِ حيث قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج].

فكونه بيتاً محجوجاً يقصده الناس من كل حدب وصوب آيةٌ بينة على كونه ذلك البيت الذي بناه إبراهيم.

تلك ثلاث آيات بينات تتوافر في هذا البيت ولا تتوافر في غيره، وهي تكفي لتبديد شبهة قد أثارها أهل الكتاب وتكفي لإدحاض حجتهم.

وبالجملة فهذان أمران قد ركز أهل الكتاب على كتمان حقيقتهما، ولبس الحق بالباطل فيهما ليتوصلوا بذلك إلى التشكيك في أمر هذه النبوة المباركة ويتمكنوا من إثارة الشبهات حولها، فبيّن السياق أمرهما وكشف القناع عن حقيقتهما ليكون الناس منهم على حذر وليتنبهوا لتلك الشبهات الكاذبة التي يثيرونها حول هذه النبوة ليصرفوهم عنها.

ومن ناحية أخرى فإن هذا كان تنبيهاً لأهل الكتاب إلى أن الله شهيد على كل ما يعلمون وليس بغافل عنهم فإن لم يثوبوا إلى رشدهم ولم يتوبوا ولم يصلحوا ولم يبينوا فإنهم لا يضرون إلا أنفسهم، وأما هذا النبي فلن تعرقل مسيره تلك الشبهات التي يثيرونها حوله، فإن الله سيكشف أمرها ويجعل تلك المكائد كلها في نحور أصحابها.

لفتة هامة:

وقبل أن نغادر هذه الآيات إلى ما بعدها نودّ أن ننبه إلى نكتة هامة يرشدنا إليها

التأمل في نظم الآيات وسياقها، وهي أنه تعالى وجه الخطاب إلى أهل الكتاب في موضعين من السورة بأسلوب واحد متقارب، فقال في الموضع الأول: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١ ﴾ [آل عمران].

وقال في الموضع الثاني: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٩ ﴾.

فالأسلوب في الموضعين واحد متقارب إلا أن هناك فرقاً يسيراً بينهما، وذلك أن الخطاب الأول وجه إليهم مباشرة، ووجه إليهم الثاني بواسطة.

فقال في الموضع الأول: يا أهل الكتاب... يا أهل الكتاب... إلخ، وقال في الموضع الثاني: قل يا أهل الكتاب... قل يا أهل الكتاب... إلخ.

فما هو السر في هذا الفرق الذي نلاحظه في الموضعين؟

إذا أردنا أن ندرك هذا السر فلنضع في اعتبارنا موقع كل من الخطابين، وبيانه أن الخطاب الأول وجه إليهم وهم في ساحة حوار ونقاش، وكان للحديث بقية، والكلام معهم وعنهم ولم ينته بعد فكان أنسب بالمقام أن يوجه الخطاب إليهم مباشرة، فإنه يعبّر عن ذلك القرب الذي ينبغي أن يوجد بين المتكلم والمخاطب.

وأما الخطاب الثاني فقد وجّه إليهم بعدما فصّل لهم القول تفصيلاً وبعدما وعظوا وذكروا وحذروا وأنذروا ولكنهم لم يتّعظوا ولم يذكروا، فلم يبق لهم إلا أنْ يُنذروا الإنذار الأخير ثم يُتركوا وشأنهم.

فوجه إليهم الإنذار بواسطة، والإنذار إذا جاء بواسطة فهو يعني الإنذار مع الإعراض.

وهذا يزيد من شدته وصرامته، ويُؤذنُ في ذات الوقت بانقطاع الحديث ونهايته، فكان هذا إنذاراً نهائياً صارماً لأهل الكتاب في هذه السورة، وبعده مباشرة عدل عنهم الخطاب إلى جماعة المؤمنين، ليحذرهم من كيدهم ويمنعهم من الاستماع إليهم.

* * *

هذا ما تيسر لنا في مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٠٠-١١٧)

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (١١٢) ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾.

* * *

يقول صاحب تفسير المنار وهو يذكر مناسبة الآية الأولى لما قبلها: «واتصال الآية بما قبلها ظاهر جليّ. فإنه بعد ما وبّخ أهل الكتاب على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله، وهو الإسلام، أثر إقامة الحجج عليهم وإزالة شبهاتهم، ناسب أن

يخاطب المؤمنين مبيناً لهم أن مَنْ كان هذا شأنُهم في الكفر وهذا شأن ما دعوا إليه في ظهور حقيقته لا ينبغي أن يُطاعوا ولا أن يُسمعَ لهم قولٌ، فإنهم دعاة الفتنة ورواد الكفر»[1].

وهذه المناسبة التي ذكرها صاحب تفسير المنار لا تخص الآية الأولى فقط، بل تشمل هذه الآيات كلها وتشمل ما بعدها، فإنها كلها في جملتها تحذّر المؤمنين من أهل الكتاب وتحذّرهم من طاعتهم وانتصاحهم وتحذّرهم من الثقة بهم والاستماع إليهم، وقد أشرنا إليه في نهاية الفقرة السابقة.

فمناسبة هذه الآيات لما قبلها واضحة ظاهرة، وهي ليست بحاجة منا إلى إيضاح وتفصيل.

مناسبة الآيات فيما بينها:

وأما مناسبتها فيما بينها فسنبيّنها فيما يلي:

إن هذه الآيات تحذر المؤمنين أولاً بأنهم إن أطاعوا أهل الكتاب واستمعوا لأي فريق منهم فإنهم سيخسرون دينهم وإيمانهم ولا يلبثون أن يقعوا في الكفر بعد إذ أنجاهم الله منه.

ثم تهيب بهم أن يعتصموا بالله ويتقوه حق تقاته ويحرصوا على أن يعيشوا على الإسلام ويموتوا عليه، فإنه هو الذي يضمن لهم خير الدنيا والآخرة، وقد جرّبوا ذلك وشاهدوه بأعينهم، حيث أنهم كانوا قبل الإسلام أعداء متصارعين فأصبحوا بفضله إخواناً متحابين وكانوا قبله واقفين على حافّة الهاوية فأخذ الله بأيديهم وأنجاهم منها.

ثم تذكرهم مهمّتهم في هذه الحياة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فليس من واجبهم أن يعتصموا بحبلِ الله في حياتهم الفردية فحسب، بل مهمّتهم في هذه الحياة أن يكونوا دعاة إلى الخير ويكونوا آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر.

ومما نلاحظه في الآيات أن النهي عن التفرق جاء فيها مرتين: مرة بعد الأمر بالاعتصام بحبل الله حيث قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، ومرة

---

(١) مختصر تفسير المنار: ١/ ٣٦٠.

أخرى بعد توجيه المؤمنين إلى واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهذا النظم يفيد أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير له دور في منع الأمة من التفرق كما أن الاعتصام بحبل الله له دور، ولا يمكن الحفاظ على وحدة الأمة إلا بتعامل الاثنين.

فإن أرادت الأمة جمع كلمتها وتوحيد صفوفها فلا بد لها من الاعتصام بحبل الله ولا بد لها في ذات الوقت من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالقيام بأحد الواجبين لا يغني عن القيام بالآخر.

أو بعبارة أخرى:

«إن الاعتصام بحبل الله لا يتمّ ولا يُعتبرُ إلا بعد القيام بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالقيام بهذا الواجب من تمام الاعتصام بحبل الله، وهو لا يؤتي أكله من توحيد الكلمة ومنع الأمة من الشتات والفرقة إلا بعد أن يلحق به ما هو من تمامه.

وعلى أية حال فالاعتصام بحبل الله لا بد منه، إذا كانت الأمة راغبة في اجتماع كلمتها وتوحيد صفوفها وتضافر جهودها، كما أن القيام بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد منه، فهما أمران متلازمان، يكمل بعضهما بعضاً.

ثم هناك وجه آخر لمناسبة هذه الآيات فيما بينها، وهو أنه لما انتهى السياق من تزويد المؤمنين بما يحفظهم من أن يعبث عابث بدينهم وإيمانهم - وهو أن يعتصموا بالله ويَتَّقوهُ حقَّ تقاته ويقرروا أنهم لن يموتوا إلا وهم مسلمون - ارتقى بهم خطوة أخرة فذكّرهم أنهم ليس من شأنهم فقط أن يقفوا من عدوهم موقف الحمية والاتقاء حتى يَسلمَ لهم دينُهم وإيمانهم، بل مهمّتهم في هذه الحياة أن يكافحوا الشر بالخير ويحاربوا المنكر بالمعروف.

وهذا الكفاح وهذا الموقف الشجاع ليس فقط أن يدفع عنهم خطر الأعداء بل يمهد لهم الطريق إلى الفلاح. ويكسبهم بياض الوجه ورحمة الله في الآخرة.

ولكنهم إن تخاذلوا وتقاعسوا عن هذا الكفاح وتفرقوا واختلفوا كما تفرق الذين من قبلهم واختلفوا فليس لهم إلا سوء العذاب وليس لهم إلا سواد الوجه.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ فما دام أن الله له ما في السموات وما في الأرض وهو يملك أزمة الأمور وعواقبها فليس من الرأي إلا أن يعتصموا بحبله ولا يستمتعوا إلى غيره، وليعلموا أن الله ما يتلو عليهم هذه الآيات إلا ليشملهم بعطفه ورحمته فالظلم ليس من سنّته ولا من طريقته.

ثم يتوجه السياق إلى المؤمنين يعرفهم مكانتهم وينبّههم على مهمّتهم وعظم مسؤوليتهم بأسلوب جديد: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾.

فهؤلاء المؤمنون الذين استجابوا لدعوة هذا النبي وآمنوا برسالته خير أمة أخرجت للناس. والدليل عليه أنهم من أبرز صفاتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وهذه الآية تذكرنا الآية التي وردت في وصف نبينا ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

فأول وصف ذُكِرَ للنبي ﷺ في هذه الآية هو أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

ويظهر أن التوراة والإنجيل كما ذكرا من أبرز صفاته ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فكذلك ذكرا من أبرز صفات صحابته أيضاً أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ويمكن أن يستأنس لهذا القول بما ورد في سورة التوبة في وصف هؤلاء المؤمنين، حيث قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة].

فالتأمل في نظم هاتين الآيتين يسوقنا إلى أن التوراة والإنجيل كانا يتضمنان تلك الصفات التي يذكرها القرآن لهؤلاء المؤمنين كما كانا يتضمنان ذلك الوعد الذي كان

نتيجة لتلك الصفات، والذي يشير إليه القرآن.

وإن أبرز صفة من بين تلك الصفات - كما لا يخفى - هي كونهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والحافظين لحدود الله.

فإذا تأملنا في هذه الآية التي نتحدث عنها وتأملنا في تلك الصفات التي تذكرها الآية لهذه الأمة: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مع استحضار تلك الظاهرة التي أشرنا إليها، تبين لنا ما ترمي إليه هذه الآية.

فهذه الآية - فيما يظهر لنا - إشعار للمؤمنين بتلك المسؤولية التي أُلقيت على أعناقهم حيث جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، الأمة التي بشرت بها التوراة والإنجيل وذكرت من أبرز سماتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وفي ذات الوقت هي إشعار بتلك الكرامة التي ألبسها الله هؤلاء المؤمنين وإشعار بذلك الشرف الذي خصهم به من بين أمم سائر النبيين.

فعليهم أن يستشعروا دائماً جسامة هذه المسؤولية ويشمّروا عن ساق الجد للقيام بتكاليفها كما أن عليهم أن يستشعروا عظم الشرف الذي حباهم الله به فلا تَستخفنّهم تلك الشبهات التي يثيرها الأعداء حول دينهم ونبيّهم ليبعدوهم عنه.

هذا ما ترمي إليه هذه الآية بالنسبة لهؤلاء المؤمنين.

وأما أهل الكتاب فهي توجّه إليهم النصح كذلك ولكن بصيغة الغائب وبأسلوب يملؤه التحسر: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فإن أهل الكتاب كان من واجبهم أن ينضمّوا إلى صفوف هؤلاء المؤمنين ويكونوا لهم عوناً وعضداً في أعمالهم فإن المهمة التي كانت تؤرقهم وكانت تُقيمهم وتُقعدهم ليلَهم ونهارهم هي نفس المهمة التي ذكرتها لهم كتبهم وبشرت بها رسلهم، فهم كانوا أولى الناس بمساندتهم ومؤازرتهم، ولكن لم يستجب لنداء الواجب إلا قليل منهم وأما أكثرهم فقد آثروا الفسق على الإيمان ولم يحبّوا أن يأخذوا نصيبهم من تلك الكرامة التي ساقها الله إليهم.

فجاءت الآيات تحثّ المؤمنين على مواصلة السير في طريقهم، وتحثهم على أن يؤدوا مهمتهم غير مبالين بما يفعله أهل الكتاب لعرقلة مسيرهم، فإنهم لن يضروهم

شيئاً، وإنما هم يستكملون نصيبهم من الذلة والمسكنة وغضب الله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

وبعدما ينتهي السياق من ذكر هؤلاء الفاسقين المعتدين يتوجه إلى الصالحين منهم ليثني عليهم حُسنَ استجابتهم لداعي الإيمان وينوّه بحسن مشاركتهم للمؤمنين فيما نِيط بهم من مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة في الخيرات: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

ومما نلاحظه في الآيات التي سيقت في شأن الفاسقين المعتدين من أهل الكتاب، أنها تذكر لهم العقوبة التي يلاقونها في هذه الدنيا من الذلة والمسكنة ولا تذكر ما سيلاقونه في الآخرة.

نعم، إن قوله تعالى: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ كان من شأنه أن يشمل عذاب الدنيا والآخرة، ولكنه لما وضع بين قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ﴾ انحصرت دلالته في عذاب الدنيا دون الآخرة بحكم سياقه وبحكم جوه الذي يحيط به.

فكان يقتضي الموقف أن يذكر ما يصيرون إليه في الآخرة بعد ذكر ما صاروا إليه في هذه الدنيا حتى تكتمل الصورة. فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

وأما الصالحون المؤمنون منهم فقد أجمل حسن ثوابهم في هذه الدنيا وفي الآخرة في آية واحدة حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

وتتجلى لنا روعة هذه الآية وحسن موقعها أكثر فأكثر حين ندرك أن هذه الآية الواحدة القصيرة ليس فقط أنها أجملت حسن ثواب الصالحين في هذه الدنيا والآخرة

بأسلوب يثلج الصدر ويشفي النفس، بل مهدت الطريق في ذات الوقت لكي يعود السياق إلى ذكر سوء عاقبة الكافرين في الآخرة بدون أن تشعر النفس في تلك الآيات بشيء من الفجوة أو الاقتضاب وما إلى ذلك.

حقائق تستفاد من نظم الآيات:

وبعدما انتهينا من دراسة هذه الآيات وعرفنا الوجوه التي تربطها فيما بينها نعود إليها مرة أخرى لننبه إلى حقائق أخرى هامة تستفاد من نظمها:

١- قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

التأمل في نظم هذه الآية يبين لنا أن الاعتصام بالله عبارة عن الاعتصام بآيات الله وسنة رسوله وهو الهدى وهو الصراط المستقيم، وما عدا ذلك فهو غيٌّ وضلال وغفلة عن الله.

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، تفيد هذه الآية بنظمها أن تقوى الله حقَّ تقاته هي أن يعيش المرء وهو مسلم ويموت وهو مسلم، فكأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ تفسير لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

٣- وكذلك تفيد الآية بنظمها أنه لا يتيسر للمرء أن يموت وهو مسلم إلا إذا كان يتقي الله حق تقاته، فالقول بنسخ أحد الأمرين يستلزم القول بنسخ الآخر.

وعلى هذا فالذين قالوا بنسخ قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ قد أخطأوا وأبعدوا.

وليس هناك تعارض بين الآيتين حتى نقول بنسخ إحداهما ولقد كان صاحب تفسير المنار موفقاً كل التوفيق في تأويل قوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ حيث قال: «أي: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً»(١).

٤- قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾. ترشدنا هذه الآية بنظمها إلى أن الاعتصام بحبل الله هو السبيل إلى وحدة الأمة، وهو العلاج لما دهاها من داء

---

(١) مختصر تفسير المنار: ١/٣٦١.

الفرقة، فلا يمكن توحيد صفوفها ولا يمكن منعها من الفرقة والشتات ما لم تعتصم بحبل الله.

٥- وبعد هذه الآية مباشرة جاء قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

هذا النظم يرشدنا إلى أن الأمة لا يمكنها أن تظل معتصمة بحبل الله إذا لم تقم بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا أمر يصدقه الواقع، فأمتنا الإسلامية ظلت معتصمة بحبل الله ما دامت قائمة بهذا الواجب، ثم لما غفلت عنه دب الضعف والاسترخاء في اعتصامها بحبل الله، وما زال الأمر بها كذلك حتى بعدت عن الله بقدر بعدها عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦- الاتحاد في الله والأخوة بروح الله مما يكسب بياض الوجه في الآخرة، والعكس يكسب العكس كما نعرف ذلك بالتأمل في سياق قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾.

هذا ما أردنا أن ننبه إليه مما يستفاد من نظم هذه الآيات.

* * *

سر الفرق بين آيتي البقرة وآل عمران:

وقبل أن نغادر هذه الآيات إلى ما بعدها نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ فقد سبق معنا نفس القول في سورة البقرة ولكن مع اختلاف في ترتيب بعض الكلمات، حيث قال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة].

فما هو السر في هذا الاختلاف؟

والجواب عنه يكمن في استحضار جو الآية وأهدافها في الموضعين.

إن هذه الآية وردت في سورة البقرة في سياق حكاية اعتداءات اليهود، وحكاية مواقفهم المخجلة المستمرة من كتب الله وأنبيائه عبر تاريخهم الطويل المديد.

إذاً فهذه الآية في أصلها تتصل باليهود القدامى ولا تعني إلا أن تذكر العقوبة التي

لاقوها لقاء عصيانهم واعتدائهم.

وأما آية آل عمران فهي تتصل بالمعاصرين لعهد النبوة كما يظهر من سياقها، حيث جاء قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وهي جاءت هنا لتحقق غرضين اثنين:

الأول: أن تربط على قلوب المؤمنين وتدخل في نفوسهم برد الاطمئنان: أن هؤلاء اليهود الذين يحملون الحقد عليهم لا يستطيعون أن يلحقوا بهم ضرراً، أو يحركوا لهم ساكناً، وماذا يفعل هؤلاء وقد كانت الذلة والمسكنة حليفهم، وكان غضب الله جُلَّ ما يملكونه في أيديهم.

والثاني: أن تُدخلَ اليأس في قلوب أهل الكتاب أنهم لا يملكون أن يمنعوا عن المؤمنين ما كتب لهم ربهم من العز والنصر والسعادة، فإن كانوا يريدون لأنفسهم الخير، فلا سبيل إليه إلا أن يعتصموا بحبل من الله وحبل من الناس وذلك بانضمامهم إلى ركب الإسلام ولجوئهم إلى الدين الذي طالما أبغضوه وحاربوه. فالإسلام هو الذي يضمن لهم خير الدنيا والآخرة، وإلا فليس لهم إلا الذلة والمسكنة وغضب الله أينما ساروا وأينما ثقفوا.

هذا هو جو الآية في السورتين، وتلك هي الأغراض التي جاءت الآية لتحققها في الموضعين.

والآن، وقد علمنا هذه الأمور، لا يعز علينا أن ندرك السر في الاختلاف الذي نلاحظه في الموضعين.

فآية البقرة ليس من أهدافها إلا أن تحكي لليهود تلك النهاية السيئة التي لاقاها أسلافهم نتيجة عصيانهم واعتدائهم، حتى يعتبروا بها ولا يُعرِّضوا أنفسهم لما تعرضوا له. فاقتضى الموقف أن تذكر لهم تلك النهاية بكلمات وجيزة سريعة: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وأما آية آل عمران، فهي تتناول موضوع الساعة، وتحمل في طيها التحريض والتطمين للمؤمنين، والإنذار والتوبيخ لأهل الكتاب المعاصرين كما بيّناه آنفاً.

فنرى السياق هنا قد تنفس في العبارة مراعاة لطبيعة الموقف، فإن التحريض

والتطمين والإنذار والتوبيخ، كل ذلك من طبيعته الإسهاب والتفصيل، فذلك قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

فنظراً إلى طبيعة الموقف، التي أشرنا إليها، زِيد هنا في العبارة: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وذكرت ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ في جملة مستقلة خلافاً لما رأيناه في آية البقرة، فقيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

فلما ذُكرت ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ مفصولة عن ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ وذكرت في جملة مستقلة، وضعت تلك الجملة بعد قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ فجاء قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في مكانه السابق وعلى ترتيبه في الآية الأولى أي بعد قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾.

و﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ ذكرت في الآية الأولى مع ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ بالتبع فجاءت مقدمةً على قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بالتبع ولما ذكرت في الآية الثانية مفصولة عن ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ وذكرت جملة مستقلة، جاءت متأخرة عنه، فبقي قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في مكانه هو، وإنما تغيرت ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ عن مكانها، للحكمة التي أشرنا إليها.

* * *

هذا ما تيسر لنا في مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها وهذا ما ظهر لنا مما يتضمنه نظمها، فنحمده تعالى بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١١٨-١٢٩)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

* * *

قبل أن نأخذ في بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها، نود أن تكون لنا وقفة عند بعض الآيات التي تَحيَّر الناسُ في تأويلها، فإنه لا بد لنا منها للتوصل إلى روعة نظمها وحسن مناسبتها.

تأويل الآية (١١٩):

يقول الإمام أبو حيان - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿هَٰأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

«﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: الكتاب اسم جنس أي: بالكتب المنزلة، قاله ابن عباس، والتوراة والإنجيل أو التوراة أقوال ثلاثة»[(١)].

هذا ما قاله أبو حيان في تأويل هذه الآية.

وهذا هو الرأي المفضل عند كثير من الناس، إلا أن هناك إشكالات تجعلنا نتردد في صحته ونتأخر عن قبوله.

منها: أنهم يجعلون (الكتاب) في هذه الآية اسم جنس، ويؤولونه إلى الكتب المنزلة كلها.

وهنا يثور سؤال: إن القرآن قد استعمل لفظ (الكتاب) أكثر من (٢٥٠) مرة، فهل هناك شاهد واحد لاستعمال هذا اللفظ بمعنى الجمع؟

وإذا لم يكن هناك شاهد واحد لهذا الاستعمال، أليس من الأفضل أن نترك اللفظ على معناه ثم نبحث عن تأويل يناسبه؟

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٤٠.

ومنها: أن قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ جاء في سياق العتاب والإنكار فكيف يجوز أن يعطف عليه ما هو محض الحق وعين الصواب، بل هو من الواجبات، فإن الإيمان بالكتب الإلهية السابقة مما يوجبه علينا ديننا؟

ولعل هذا الإشكال هو الذي جعل الزمخشري - رحمه الله - يعدل عن هذا التأويل حيث قال: «والواو في ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ للحال وانتصابها من لا يحبونكم، أي: لا يحبونكم، والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم؟»(١).

ولكن هذا التأويل أيضاً لا يخلو من إشكال، فقد نقله أبو حيان في كتابه ثم علق عليه فقال: «وهو حسن إلا أنه فيه من الصناعة النحوية ما يخدشه وهو أنه جعل الواو في ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ للحال وأنها منتصبة من ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ والمضارع المثبت إذا وقع حالاً لا تدخل عليه واو الحال، تقول: جاء زيد يضحك، ولا يجوز: ويضحك»(٢).

ثم لا ينحصر الإشكال في هذه النقطة فقط، وإلا لكان الأمر هيّناً، وكان بإمكاننا أن نلتمس له مبرراً، وإنما رأس الإشكال عندنا أن الموقف لا يقبل هذا المعنى، وكم من آية جاءت في القرآن لتحذير المؤمنين من حب الكافرين وولائهم ولكنها لم تلجأ أبداً إلى هذا النوع من الاستدلال.

بالإضافة إلى أن لفظ الكتاب لا يطلقه القرآن على جنس الكتاب، فتأويله إلى الكتب السابقة المنزلة تأويلٌ بعيد ومخالف لعادة القرآن.

إضافة إلى ذلك أن هذا التأويل لا يمتّ بصلة قريبة ولا بعيدة إلى نظم الآيات وسياقها. إذاً فليس أمامنا إلا أن نبحث عن تأويل آخر يكون سليماً من هذه الإشكالات ويكون منسجماً مع جو الآيات.

فما هو ذلك التأويل؟

إن التأمل في نظم الآيات وسياقها بل في نظم السورة كلها يرشدنا إلى أن المراد بالكتاب هنا هو الكتاب الذي مضى معنا ذكره في نفس السورة، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ

---

(١) الكشاف: ١/٤٥٩.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٣/٤٠-٤١.

هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران].

ولقد مضى معنا نظير هذا المضمون في سورة البقرة أيضاً حيث قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

إذاً فيكون معنى الآية هكذا: (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وقد بلغ بكم هذا الحب إلى أنكم تؤمنون بكل ما يأتون به إليكم، ولو كان مما كتبتهُ أيديهم).

فالعتاب والملام هنا ليس على الحبّ فقط، بل على الحبّ والإيمان معاً. وليس المراد بالإيمان هنا الإيمان بالوحي والتنزيل، وإنما هو تصديق ما يكتبه أهلُ الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، وكان ذلك - كما علمناه - أسلوباً من الأساليب التي اتخذها أهل الكتاب لإضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم.

ولا يخفى أن هذا التأويل يريحنا من الإشكالات التي سلف ذكرها، بالإضافة إلى أنه متلائم مع جو الآية وسياقها.

فله الحمد وله الشكر على ما هدانا إليه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا إليه.

تأويل الآيتين (١٢٧-١٢٨):

إذا نظرنا فيما قاله أعلام المفسرين - رحمهم الله - في تأويل هاتين الآيتين، فإننا نستخلص منه ما يلي:

١- قَطعُ طرفٍ من الذين كفروا أو كَبتُهم إنما حصل في غزوة بدر ولم يحصل في غزوة أحد، على الرأي المختار عند الأكثرين[١].

٢- الوعد بإنزال الملائكة لم يحصل في غزوة أحد وإن حصل فلم ينجز، لأن المسلمين لم يَفُوا بالشرطين اللذين بني عليهما ذلك الوعد، وهما الصبر والتقوى[٢].

٣- هذا الوعد الذي تذكره تلك الآيات بخصوص إنزال الملائكة، يتعلق بغزوة بدر، وليس بغزوة أحد. وكان هذا الوعد أولاً بألف، ثم بثلاثة آلاف، ثم بخمسة

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٥٦/٤، الكشاف ٤٥٢/١، زاد المسير: ٤٥٤/١، تفسير أبي السعود: ٤١٢/١، روح المعاني: ٤٨/٤.

(٢) انظر: تفسر أبي السعود: ٤١٣/١، روح المعاني: ٤٨/٤.

آلاف[1].

٤- الشطر الثاني من الآية (١٢٨) يتّصل بغزوة بدر حيث إنه معطوف على قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ أو ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾، بينما الشطر الأول منها يتصل بغزوة أحد - على الأرجح عند الأكثرين - أو غزوة أخرى غيرها. وبالتالي فهناك فاصل زماني لا يقل عن عام كامل بين نزول شطري آية واحدة[2].

٥- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنما جاء عتاباً للنبي ﷺ حين دعا على قوم أو همّ بالدعاء عليهم[3].

تلك النقاط الرئيسية التي تتمخض لنا من مجموع ما قيل في تأويل هاتين الآيتين.

والعجيب في الأمر أن أية نقطة منها لا تتّسم بالواقعية ولا تنسجم مع نظم الآيات، بل هي تتركنا في واد وتترك الآيات في واد، كما سنبينه فيما يلي.

أما القول بأن قطع طرف من الكفار أو كبتهم إنما حصل في غزوة بدر ولم يحصل في غزوة أحد، فهو مبني على القول بأنه لم ينزلْ مددٌ من الملائكة في غزوة أحد أنها انتهت بهزيمة المسلمين.

وهذا القول على الرغم من رواجه وانتشاره خطأ في خطأ. وذلك من عدة وجوه:

١- إن هذه الآيات لا تقبل هذا القول كما سيتضح حين نتحدث عن نظمها.

٢- قال تعالى في نفس السورة في سياق الحديث عن غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴿١٥٢﴾﴾ الآية، فأيّ وعدٍ صدقه الله المسلمين في غزوة أحد إذا لم يكن وعدَ الإمدادِ بالملائكة؟ فإننا لا نجد في سياق هذه الغزوة إلا هذا الوعد، حيث قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال النبي ﷺ يوم أحد: (هذا جبريل آخذٌ برأس فرسه، عليه أداةُ الحرب)[4].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١/ ٤١٤، روح المعاني: ٤/ ٤٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٥٦، تفسير البحر المحيط: ٣/ ٥٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤/ ٥٦، تفسير البحر المحيط: ٣/ ٥٣.

(٤) صحيح البخاري: باب غزوة أحد.

٣- تناولت سورة الأنفال حديث غزوة بدر بالتفصيل، ولم يذكر هناك إلا وعد الإمداد بألف من الملائكة، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال].

فالقول بأن هذا الوعد تطور من ألف إلى ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف يحتاج إلى دليل يكون أظهرَ من الشمس. والواقع أنه ليس هناك شيء يستحق أن يسمّى دليلاً فكيف بدليل يكون أظهر من الشمس!

٤- ولو سلمنا هذا القول - بصرف النظر عما فيه من ضعف - وسلَّمنا أن هذه الآيات تتصل بوقعة بدر، وتذكر ذلك الوعد الذي حصل ببدر، فإن هذا لا يقدم شيئاً ولا يؤخر، بل يكون ذلك تأكيداً مؤكداً لما أراد أن ينفيه هؤلاء، فإن تذكير ما حصل ببدر بهذه المناسبة لا يعني إلا الوعد بحصول مثل ذلك مرة أخرى.

فإن جاء المدد في وقعة بدر بخمسة آلاف من الملائكة مع أن عدد الكفار ما كان يتجاوز ألفاً، فسيكون المدد هذه المرة بخمسة عشر ألفاً، فإن عدد الكفار يزيد الآن على ما كانوا عليه في بدر ثلاث مرات.

٥- وأما القول بأن المشركين لم يُقتل منهم في هذه الغزوة إلا ثمانية عشر رجلاً أو اثنان وعشرون رجلاً - على اختلافٍ في الروايات - وأن هذه المعركة انتهت بهزيمة المسلمين فهو بحاجة إلى أن يعاد فيه النظر.

فأما عدد قتلى المشركين فأقوى شيء يعتمد عليه في هذا الموضوع قوله تعالى، وقد مر بنا آنفاً: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾.

قال ابن قتيبة: (إذ تحسونهم بإذنه)، أي: تستأصلونهم بالقتل. يقال: سَنَةٌ حسوس: إذا أتت على كل شيء وجراد محسوس: إذا قتله البرد[1].

وقال الجوهري: حَسَسناهم: أي: استأصلناهم قتلاً. ويقال: البردُ مِحَسَّة للكلأ، أي: أنه يحرقه. والحس: بَردٌ يحرق الكلأ[2].

فلما استعمل القرآن هنا كلمة الحسّ لتصوير ذلك الموقف، والقرآن دائماً يكون دقيقاً غاية الدقة في استعمالاته واختيار كلماته، علمنا بذلك أن المسلمين قتلوا

---

(١) تفسير غريب القرآن: ص١١٣-١١٤.

(٢) الصحاح: ح. س. س.

المشركين قتلاً ذريعاً حتى كادوا يستأصلونهم. وإذا أردنا أن نقدّر هول الموقف ونقدّر ما أنزل الله من النصر يوم أحد فلننظر إلى ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - حيث قال: (ما نُصِرَ رسول الله ﷺ في موطن ما نصر في أحد، فأُنكرَ ذلك عليه، فقال: بيني وبينكم كتاب الله، إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

فأين نكون من تلك الآية حين نقول: إن المسلمين ما استطاعوا أن يقتلوا طوال هذه المعركة أكثر من ثمانية عشر رجلاً أو اثنين وعشرين رجلاً؟!

وأما القول بأن هذه المعركة انتهت بهزيمة المسلمين فهو أيضاً مخالف للواقع، وإلا فالواقع أنهم هم الذين كسبوا هذه المعركة.

نعم، إنهم مسّهم قرح، ولحقهم بلاء وأصابهم غمّ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم خسروا الموقف وباءوا بالهزيمة.

جلُّ ما في الأمر أنهم فوجئوا بفترة عصيبة في أثناء القتال لأسباب فصّلها القرآن، فتعكّر عليهم صفو ذلك الانتصار الساحق الرائع الذي حققوه في أول الأمر، ولم يستطيعوا أن يخرجوا من المعركة على الرغم من انتصارهم فيها إلا وهم محزونون لما مَسَّهم فيها من قرح وجرح.

ولذلك نرى القرآن لا يسمّي هذه النكسة الطارئة أو هذه الفترة العصيبة العابرة هزيمة، بل يختار له تعبيراً آخر دقيقاً غاية الدقة حيث يقول: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

إذاً فما الذي يمنعنا من أن نقف عند هذا الحد؟ وما الذي يحملنا على أن نعدل في وصف هذه المعركة عن التعبير القرآني الدقيق إلى تعبير آخر، لا يعطينا صورة صادقة عن طبيعتها ونتائجها؟ بل ويلجئنا إلى حمل تلك الآيات على معاني لا تحتملها!

فالحق الذي لا مِريةَ فيه أن هذه الآيات كلها تتصل بوقعة أحد، وذكر النصر في وقعة بدر إنما جاء هنا استطراداً.

والوعد الذي تذكره هذه الآيات قد أُنجز في وقعة أحد بشهادة القرآن نفسه فإن الشروط كلها كانت متوفرة، والمسلمون لم يقتحموا هذه المعركة إلا بدافع من التقوى،

---

(١) زاد المسير: ١/ ٤٧٥.

ثم واجهوا الموقف بكل صبر وصمود،نعم، قد مس طائفة منهم طائف من الشيطان في أثناء المعركة وطرأ عليهم طارىء من الفشل والعصيان ولكن سرعان ما تذكروا وانتبهوا وعادوا إلى صوابهم فعاد إليهم النصر من جديد وعادت إليهم الملائكة يُثبّتون أقدامهم.

وأما ما قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أنه نزل ردعاً للنبي ﷺ حين دعا على قومٍ أو همّ بالدعاء عليهم، فهو أيضاً باطل من عدة وجوه:

١- فأما كون هذه الآية نزلت بمناسبة أخرى غير وقعة أحد فهو قول لا ينسجم مع جو الآية وسياقها، ولا شأن لنا بقولٍ لا ينسجم مع جوّ الآية وسياقها.

٢- وأما القول بأنه - عليه السلام - همّ بسبّ الذين انهزموا يوم أحد فهو باطل بنص القرآن، فإنه يصرّح بأن الله عفا عنهم حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ وما كان للنبي أن يدعو على قوم قد عفا الله عنهم.

٣- وأما القول بأنه - عليه السلام - دعا على قريش يوم أحد فهو محجوج بما ورد في الروايات من أنه - عليه السلام - لما كُسرت رباعيّته وشُجَّ وجهه يوم أحد، شق ذلك على أصحابه شقاً شديداً وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: «إني لم أبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

وأيضاً روي عن سيدنا عمر (رضي الله عنه) أنه قال للنبي ﷺ في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح] الآية، ولو دعوتَ علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فقد وُطِىءَ ظهرُكَ وأُدمي وجهك وكُسرت رباعيتك فأبيتَ أن تقول إلا خيراً، فقلتَ: ربِّ اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون.

وأما الروايات التي اعتمد عليها الناس في تأويل هذه الآية فهي ليست صريحة في الدعاء على الأعداء فكان أولى بهم أن يؤولوها إلى تلك التي كانت أصرح منها وأقرب إلى ما عهدناه في سيرته المباركة من الرأفة والشفقة والحلم والعفو عن الناس (سلامُ الله وصلواته عليه).

٤- لو افترضنا أن النبي ﷺ دعا على قومه، فكأيِّنْ من نبيٍّ دعا على قومه، ولكن

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤/ ٢٠٠.

هل رُدَّ عليه بمثل هذا الردّ؟

فسيدنا موسى - عليه السلام - قد دعا على فرعون ومَلَئِه بهذه الكلمات القاسية: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس].

فلم يقل له ربه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وإنما قال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس].

وكذلك تقدم سيدنا نوح - عليه السلام - إلى ربه بتلك الدعوات الحارة القاسية في شأن قومه، ولكن هل قال له ربه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾؟

وإنما الذي نراه أنه أسرعت إليه الاستجابة قبل أن يتم دعوته كما يظهر لنا بالتأمل في نظم قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح].

وهكذا سنة الله في أنبيائه، فإنه يكرمهم باستجابة دعوتهم إذا دعوه، ولا يمهل قوماً إذا دعا عليهم نبيهم، إذاً فكيف يقال: إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - دعا على قوم فجاءت هذه الآية ردعاً له؟!

٥- إن دعا النبي ﷺ على قوم فلا يعني ذلك أنه زعم أنه له من الأمر شيء، حتى يقال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ فإن الدعاء من طبيعته ومن أولِ دلالاته التضرعُ والانكسار والافتقار والتفويض إلى الله.

فهذا القول بالمعنى الذي فُسِّرَ به لا يمكن أن يُوجَّه إلى نبي قد تحرر من نفسه وتجرّد عن هواه وكان صورة حية صادقة للإخبات والإنابة إلى الله. وإنما يوجّه مثل هذا القول - بذلك المعنى - إلى رجل كانت تُحَدِّثُه نفسه - كذباً - أنه هو صاحب الأمر، أو أن له شركاً في الأمر.

وبالجملة فقد وَهِمَ الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ فإنه ليس ردعاً ولا عتاباً للنبي ﷺ كما زعموه، وإنما هو شيء آخر كما سنبينه.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

وبعد هذه المقدمات نتوجه إلى بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، فنقول:

لقد مضى معنا في الفقرة السابقة التحذير من الأعداء الصرحاء من أهل الكتاب، الذين كانوا يجاهرون بعداوتهم للإسلام وكانوا يهاجمونه علناً في ضوء النهار، وكانوا ينثرون حوله الشبهات حتى يثيروا بلبلة في صفوف المسلمين.

والآن نرى السياق انصرف عنهم إلى إخوانهم الذين كانوا يحاربون الإسلام بسلاح النفاق وكانوا يحاربونه في جنح الظلام.

كان هؤلاء يخرجون إلى المسلمين في ثوب النصح والمودة وكانوا يبشّون في وجوههم وينبسطون إليهم وكأنهم منهم، وبعد أن يكسبوا ثقتهم كانوا يُفضون إليهم بأشياء من شأنها أن ترنّق صَفْوَ عقيدتهم وتُوهنَ صِلتهم بكتابهم وتزعزع ثقتهم بنبيهم.

وكانوا يفعلون ذلك كله بلباقة لا ينتبه لها ضعفاء المسلمين حيث أنهم كانوا يأتون بما يأتون به إليهم بعد ما يكتبونه بأيديهم، ثم كانوا يَلْوُونَ به ألسنتهم ليحسبه المسلمون مما أنزله الله، فيأخذوه مأخذ الجد، ويُودِعُوه قرارة نفوسهم.

وهكذا كانوا يخادعون المسلمين وكانوا لا يألونهم خبالاً.

فجاءت هذه الآيات تحذر المسلمين من أن يتخذوا بطانة من دونهم، وجاءت تحذرهم من كيدهم وخداعهم وتبين لهم ما يكنّون لهم في صدورهم.

وبعد هذا التحذير وهذا التنوير وهذا التبصير يذكر لهم السياق من واقعهم ما يُشخِّص لهم أن الذين اتخذهم المسلمون وليجة وبطانة كيف يتحينون لهم الفرص حتى لا يألوهم خبالاً، وإذا سنحت لهم فرصة فكيف يستغلونها أسوأ استغلال وكيف يُوضِعون خلالهم يبغونهم الفتنة: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ . . . إلخ﴾.

إن هذه الآيات - كما لا يخفى - تتناول ما حصل بين صفوف المؤمنين بأُحد قبل أن تستعر الحرب، فقد كان النبي ﷺ يُبوِّئهم مقاعد للقتال، وهؤلاء اليهود، الذين كانوا من بطانة المؤمنين ووليجتهم وخرجوا فيهم ليقوموا بدورهم في إفساد أمرهم، كانوا يوضعون خلالهم يخوّفون عدوهم ويثبّطون هممهم.

وما زالوا يسعون فيهم ويسعون ويدسون سمومهم ويدسون حتى كادوا ينجحون في تثبيط طائفتين من المؤمنين، لولا أن تداركهما ولاية الله!

وإذا أردنا أن نقدّر ضخامة الجهد الذي بذله هؤلاء في إفساد أمر المؤمنين ثم نقدّر

حجم تأثيرهم فيهم فلنضع في حسابنا أن هاتين الطائفتين اللتين همّتا أن تفشلا لم تكونا من عامة المؤمنين أو من ضعافهم، بل كانتا من رسوخ الإيمان وحُسنِ الصلة بالله بحيث قال الله فيهما: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

ومع ذلك فقد قذف فيهم هؤلاء من الرعبِ بحيث استعصى على النبي ﷺ أن ينزعه من قلوبهم ويعيدهم إلى صوابهم، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

فهذا الأسلوب الذي خاطب به النبي ﷺ هؤلاء المؤمنين: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم إلخ﴾ كما يَشِي بذلك الجهد والتعب الذي قاساه في المحاولة معهم، فكذلك يشي بأنه - عليه الصلاة والسلام - على الرغم من هذا الجهد والتعب لم يستطع إقناعهم ولم يستطع أن يعيدهم إلى صوابهم.

ولعلنا لا نبعد إذا استنبطنا من هذا الوضع أن الرعب الذي ملأ هؤلاء المؤمنين لم يكن ناتجاً من ذلك الفرق الكبير الذي كان يوجد بين عددهم وعدد عدوهم بقدر ما كان ناتجاً من تلك الأكاذيب التي كتبها اليهود بأيديهم عن نهاية المعركة ونتائجها ثم قالوا هذا من عند الله!!

فإنه لو كان الأمرُ أمرَ العدد فقط لكان يكفي لاطمئنانهم أن يسمعوا من نبيهم أن الله سيمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، ولكنهم لم يقتنعوا بما قال لهم نبيهم ولم يطمئنوا حتى ناداهم ربهم من فوق سبع سموات، يذكرهم النصر الذي أنزله عليهم يوم بدر: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

ويبشرهم بتلك الكلمات الحانية، حتى يزيل الرعب من قلوبهم ويسكب برد الاطمئنان في نفوسهم: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

ويذكر لهم واجبهم الذي يمليه عليهم ذلك الوعد: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

أي: فاستبشروا بهذا الوعد واطمئنوا بهذا النصر، واعلموا أن النصر لا يأتي إلا من عند الله فإنه هو العزيز وهو الحكيم، ولا عزيزَ غيره ولا حكيم غيره فكونوا مع ربكم يكن النصر حليفكم.

وبعد تطمين المؤمنين وتبشيرهم بالنصر على المشركين يتناول السياق هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب، الذين لم يألوهم خبالاً ولم يدخروا وسعاً في إفساد أمرهم.

يتناولهم السياق ليذكر مصيرهم وما سيؤول إليه أمرهم: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

وهنا يثور سؤال: إذا كانت هذه الآيات تتناول الذين كفروا من أهل الكتاب، فما معنى قطعِ طرفٍ منهم، فإنهم كانوا مرافقين لجيش الإسلام، ولم تكن هناك حرب فيما بينهم ولم يحدث أن قُتل أحد منهم بتلك المناسبة فضلاً عن أن يقتل طرف منهم؟

إن هذا سؤال وجيه ولا شك، ويمكن أن يقال رداً عليه: إن الذين فسروه بهذا المعنى لم يعتمدوا فيه على شيء ثابت، وإنما ذهبوا إليه بما ظهر لهم بقرينة الحال، وإلا فنحن نقَّبنا فيما تحت أيدينا من كلام العرب، ولكن لم نعثر على شاهد لهذا المعنى. فليس من مدلول هذا اللفظ القتل والإهلاك كما ذهب إليه الناس، وإنما مدلوله هو الذي نراه في جميع مشتقاته، وهو فصلُ قطعة من الشيء من مجموعه أو إفراز البعض عن كله. ومنه يطلق القطيع على طائفة من البقر والغنم لأنها تفرز عن جماعتها. يقال: اقتطعت قطيعاً من غنم فلان.

فيكون معنى الآية: ليفرزْ من هؤلاء الكافرين طائفةً منهم ممن فيهم خيرٌ وصلاح أو يذلهم فينقلبوا خائبين.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ تفسيراً وتأكيداً لهذا المعنى. فقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ يؤكد قوله تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ يؤكد قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾.

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أي: لِيُنقصْ بأن يسلموا»[1].

واللام في هذه الآية جاءت على حد قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿٨﴾ ﴾ [القصص].

أو قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس]، وهي اللام التي تسميها النحاة: لام العاقبة، أو لام المآل.

---

(١) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

فيكون إذاً تأويل الآية هكذا: اصبروا أيها المؤمنون واتقوا واستبشروا بهذا الوعد واطمئنوا فإن هذا ليس فقط أنه يؤهلكم للنصر من الله ويكسبكم الانتصار على عدوكم المشركين، بل يكون من نتائجه كذلك أنكم ترتاحون من أعدائكم الذين تسربوا إلى صفوفكم على غفلة منكم، فإنهم بعد ذلك إما يعتبرون بما شاهدوا من نصر الله ينزل إليكم فينتبهون من غيّهم ويفيقون ويتوبون إلى الله فيتوب عليهم وإما يُذِلُّهم اللهُ ويخزيهم فينقلبون بغيظهم حيث لم ينجح كيدهم ثم يعذبهم الله في الدنيا والآخرة.

وجاء بين هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾.

وهذا القول بجوِّه وسياقه كما يدل على شدة غضب الله عليهم حيث أنه - تعالى - تولى أمرهم بنفسه فليس للنبي أن يتدخل في شأنهم أو يحاول لأن يشفع لهم.

فكذلك يدل على شدة رأفة النبي ﷺ بأعدائه حيث أنه كان من المحتمل - لولا هذا النهي - أن يرق لهم ويشفع لهم إذا رأى غضب الله عليهم، كما فعل أبوه إبراهيم - عليه السلام - لما علم أن الملائكة جاءت بالعذاب على قوم لوط حيث جعل يجادل ربه فيهم: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود].

إذاً فقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ يشبه في جوّه وسياقه ودلالاته وإيحاءاته قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة]، بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة].

ولقد تكررت هذه الآية في مثل ذلك الجو وبمثل تلك الإيحاءات، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المنافقون].

ثم ختم هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، إطماعاً لهم في رحمة الله ومغفرته، فباب التوبة أمامهم مفتوح على رغم ما ارتكبوه وما اقترفوه! فإن الله غفور رحيم، ولا أَحبَّ إليه من أن

يغفر لعباده إذا استغفروه ويشملهم برحمته، إذا استرحموه، ولكن إذا أصر قوم على عصيانهم وطغيانهم فليس هناك من ينجيهم من عذابه.

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٣٠-١٣٦)

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ۞ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾.

* * *

لقد علمنا فيما مضى أن السياق حذر المؤمنين أولاً من أعدائهم الصرحاء المكشوفين من أهل الكتاب فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) ﴾.

ثم حذرهم من صنف منهم كانوا يتظاهرون لهم بالمودة والصداقة وكانوا يخدعونهم بمعسول من القول بينما كانت صدورهم تغلي لهم بالعداوة وكانوا يعضّون عليهم الأنامل من الغيظ، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾، وهنا نرى السياق يحذّرهم من عدوهم الثالث وهو الربا فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

هؤلاء الثلاثة هم أعداء المؤمنين!

أما العدوّان الأولان فأمرهما ظاهر واضح، ولكن العدو الثالث قد يكون موضع غرابة عند كثير من الناس.

ولكن الواقع أن هذا العدو الثالث أفتك من العدوين الأولين كما أن العدو الثاني أفتك من الأول، فكلما قربَ العدو وخفيَ أمرهُ كان ضرره أشد وكان خطره أكبر.

فلننظر إلى ما يخلفه الربا من آثار سيئة ونتائج سلبية في المجتمع.

أليس أنه يزرع الأحقاد في النفوس ويثير الضغائن في القلوب؟

وهل أَضرُّ للمجتمع وأفتكُ به من أن تُنزعَ منه المودة والرحمة ويسوده الحقد والضغينة؟ وهل يريد لنا الأعداء من وراء مؤامراتهم المتواصلة ومنظماتهم السرية أكثر من ذلك؟ ثم ليس هذا آخر ما في الأمر، فهناك سلبيات أخرى متعددة، التي يخلّفها الربا في المجتمع وكل واحدة منهن أضرّ بالمؤمنين من جحافل الأعداء. وسيأتي ذكر طائفة منها في موضعها.

وبالجملة فتلك أصناف ثلاثة من الأعداء، وكان من لطف الله بالمؤمنين أنه جمعها في مكان واحد وحذّرهم منها بأسلوب واحد، فقال جل من قائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا . . . ﴿١١٨﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً . . . إلخ ﴾.

وأما الآيات التسع التي تتناول ما حدث بأُحد قبل نشوب الحرب وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ . . . ﴿١٢١﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ فهي جاءت اعتراضاً للمناسبة التي أشرنا إليها في أثناء حديثنا عن تلك الآيات.

* * *

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها، فله الحمد وله الشكر وله الثناء كما أثنى على نفسه.

هذا، وهناك وجه آخر لمناسبة تلك الآيات لما قبلها، وسنذكره في أثناء حديثنا عن مناسبتها لما بعدها.

حقائق تستفاد من نظم الآيات:

وقبل أن نغادر تلك الآيات إلى ما بعدها نود أن ننبه إلى بعض الحقائق التي تستفاد من نظمها، وهي كما يلي:

١- الربا والفلاح لا يجتمعان ولا يلتقيان، والمرابون أبعد ما يكونون من الفلاح.

٢- الربا، إذا استمر عليه المرء، يؤديه إلى الكفر ثم يؤديه إلى النار.

٣- الربا يورث في الإنسان البخل والشح ويمنعه من الإنفاق، فهو لا ينفق في السراء، ولا ينفق في الضراء.

٤- الربا يورث الغلظة والجفاء وقسوة القلب، ولا يزال الإنسان يأكل الربا حتى يكون قلبه كالحجارة أو أشد قسوة فهو لا يعرف كظم الغيظ ولا يعرف العفو عن الناس ولا يعامل الناس إذا عاملهم إلا بالغلظة والجفاء .

بينما الإنفاق في سبيل الله يُرقِّقُ القلبَ وينبت فيه الحب والمودة والرأفة والإيثار، ويُمكِّنُ المرء من كظم الغيظ والعفو عن الناس.

٥- الربا يطمس على القلب ويطفىء نور العقل ويجعل صاحبه فاقدَ الشعور وفاقد الوعي. فهو يفعل الفواحش ويأتي الموبقات ويمسي ويصبح وكأنه لم يفعل شيئاً!! فلا يذكر الله ولا يستغفر للخطايا ويستمرّ على دأبه هذا طول الحياة!

وأما الذي ينفق في سبيل الله فهو يتمتع - على العكس من ذلك - بسلامة القلب واستنارة العقل وشفافية الروح فلا تزلّ به قَدَمه ولا يقع في الذنوب إلا ويذكر ربه في تلك اللحظة ويستغفره ويتوب إليه ويخرج من خطيئته تلك وما عليه منها شيء.

هذا بعض ما يستفاد من نظم تلك الآيات وسياقها. وناهيك به دلالة على خطورة أمر الربا وفداحة خَطْبِهِ وكونه من أعدى أعدائنا. فلا كان الربا، ولا نامت أعين المرابين!

وبعدما انتهينا من بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٣٧-١٤٨)

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

* * *

قبل أن نأخذ في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، نود أن تكون لنا وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فقد تعثر الناس في تأويله.

وهذه العثرة أفضت بهم إلى عدة عثرات، كما شَوَّشت عليهم نظم تلك الآيات، فسنستعرض أولاً ما قيل في تأويله، حتى نتبين ما فيه من ضعف ثم نبحث عن تأويل ينسجم مع نظمه وسياقه.

تأويل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية: «يعني تعالى ذكره: وتلك الأيام نداولها بين الناس أيام بدر وأحد، ويعني بقوله: نداولها بين الناس نجعلها دولاً بين الناس مصرفة، ويعني بالناس المسلمين والمشركين، وذلك أن الله عز وجل أدال المسلمين من المشركين ببدر فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين وأدال المشركين من المسلمين بأحد فقتلوا منهم سبعين سوى مَنْ جرحوا منهم»(١).

ويقول الزمخشري - رحمه الله -: «المراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة، نداولها: نصرفها بين الناس، نُديلُ تارةً لهؤلاء وتارة لهؤلاء»(٢).

هذا ما ذهب إليه ابن جرير والزمخشري. وهذا الذي ذهب إليه المفسرون - رحمهم

---

(١) تفسير الطبري: ٤/٦٨.

(٢) الكشاف: ١/٤٦٦.

الله - في تأويل هذه الآية. وملخصه أن المشركين هم الذين كسبوا المعركة والمسلمون باءوا فيها بالخيبة والهزيمة.

إشكالات تكتنف هذا التأويل:

وهذا التأويل لا يخلو من عدة إشكالات وهي كما يلي:

١- إن هذا التأويل يفسر (الأيام) بأوقات الظفر والغلبة، ولم يجر هناك ذِكْرٌ لظفر المشركين وغلبتهم حتى نرجع (تلك) إلى تلك الأوقات.

٢- إن هذا التأويل يجرّنا إلى أن نصرف قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ عن ظاهره ونؤوله إلى معنى لا يتبادر إلى الذهن - فيقول - مثلاً - ابن عطية في تأويله: «والمعنى: إنْ مَسَّكم في أحد فقد مَسَّ كفار قريش ببدر بأيديكم»(١).

ويقول القرطبي - رحمه الله -: «والمعنى: إن يمسسكم يوم أحد قرح فقد مس القوم يوم بدر قرح مثله»(٢).

وهكذا نرى المفسرين رحمهم الله - نحوا منحى واحداً في تأويل هذه الآية(٣).

وهذا التأويل - كما لا يخفى - لا يخلو من ضعف وتكلف، وهو نتيجة طبيعية لذلك التأويل الذي مر معنا آنفاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وإلا فأسلوب الآية يأبى كل الإباء أن نصرف قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ إلى وقعة بدر ويوحي إلينا بكل إصرار أنَّ ما لحق المشركين في يوم أحد لم يكن أقلّ ولا أخف مما لحق المسلمين في ذلك اليوم، بل ربما كان أشدّ منه وأكثر.

والنظرة الفاحصة النافذة في الروايات التي وردت بهذا الخصوص تصدق ذلك، وها نحن نذكر هنا نبذة منها، فهي تساعدنا في إدراك طبيعة الموقف:

ذكر أصحاب المغازي أن أبا دجانة - رضي الله عنه - لما أخذ السيف من رسول الله ﷺ قاتل به حتى أمعن في الناس، فكان لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان إذا كَلَّ السيفُ يشحذه ولم يزل يضرب به العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل.

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٢٤١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٢١٧.

(٣) انظر - مثلاً - روح المعاني: ٤/ ٦٧، وتفسير أبي السعود: ١/ ٤٢. وفتح القدير: ١/ ٣٨٤.

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديداً. وفي البخاري أنهم لما اصطفوا للقتال خرج سباع بن عبد العزى فقال: هل من مبارز؟ فخر إليه حمزة، فشد عليه، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله. وفي رواية: فكان كأمسِ الذاهب، وكان تمامَ واحدٍ وثلاثين قتلهم حمزة.

وكان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ من أصحابه أبو طلحة فإنه استمر بين يدي النبي ﷺ يحوز عنه بحجفته وكان رجلاً رامياً شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء، فلم يزل يرمي بها. وكان الرجل يمر بالجعبة من النبل فيقول ﷺ: انثرها لأبي طلحة. وكسر ذلك اليوم قوسين أو ثلاثة.

وكان سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - من الرماة المذكورين. وفي رواية عن سعد أنه قال: «أجلسني رسول الله ﷺ أمامه، فجعلت أرمي وأقول: اللهم سهمكَ فارم به عدوك، ورسول الله ﷺ يقول: اللهم استجبْ لسعد، اللهم سدّد رميته، وأجب دعوته، حتى إذا فرغت من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما في كنانته».

وفي الشرف: «أن سعداً - رضي الله عنه - رمى يوم أحد ألف سهم ما منها سهم إلا ورسول الله ﷺ يقول له: ارم فداك أبي وأمي. ففداه في ذلك اليوم ألف مرة»(١).

هذا غيض في فيض وإلا فالبطولات الرائعة التي سجلها أصحاب النبي ﷺ في غزوة أحد بأيديهم تحتاج إلى سِفْرٍ كبير.

وهل يعقل بعد هذا أن يقال: إن المشركين لم يقتل منهم في غزوة أحد إلا نيف وعشرون؟!

ولقد ذكر صاحب السيرة الحلبية هذه البطولات الرائعة التي ظهرت على أيدي صحابة رسول الله ﷺ في هذه الغزوة ثم قال: «وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون، وقيل: اثنان وعشرون».

ثم قال - رحمه الله - متعجباً من قلة هذا العدد الذي يذكر لقتلى المشركين:

---

(١) السيرة الحلبية: ٢/ ١، ٥-٧، ٥، باختصار.

«أقول: انظر هذا مع ما تقدم من أن حمزة وحده قتل واحداً وثلاثين!»[١].

فالواقع أن هذا العدد الذي يذكر لنا عدد لا يقبله العقل ولا يقبله المنطق بل يرفضه رفضاً طول الخط.

اللهم إلا أن يقال: إن هذا العدد لا يعبر عن مجموع قتلاهم وإنما يعبر عن عدد قادتهم وصناديدهم وأصحاب لوائهم، الذين قتلوا في تلك المعركة، فقد ثبت أن أصحابَ لوائهم قُتلوا واحداً بعد واحد، ولم يزل لواؤهم ملقى على الأرض حتى أخذته امرأة منهم تدعى عمرة بنت علقمة ورفعته لهم فاستداروا به واجتمعوا عنده[٢].

وأما عدد عامتهم الذين أصيبوا في المعركة فلم تحفظه لنا الروايات، إلا أن القرائن متضافرة على أنه كان عدداً هائلاً، فقد هدّهم المسلمون هداً وقتلوهم قتلاً ذريعاً، حتى كادوا يستأصلونهم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾.

وبالجملة فما مس المشركين من قرح وجرح في هذه الغزوة لم يكن أقل ولا أخف مما مس المسلمين، بل كان أكثر منه وأشدّ. والمِثليّة التي تذكرها الآية ليست في قدر القرح وحجمه وإنما هي في مطلق المسيس، على حد قول القائل:

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا[٣]

إذاً فنحن نعود لما قلناه مسبقاً فنقول: إن ما قاله الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ لا يخلو من ضعف، وهذا الضعف نتيجة طبيعية لذلك الضعف الذي سبقه في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٣- ومثلما حدث في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ حدث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الناس صرفوه عن ظاهره وأوّلوه - كسابقه - إلى مفهوم لا يتبادر إلى الذهن، وما اضطرهم إليه إلا ذلك التأويل الذي درجوا عليه لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

---

(١) السيرة الحلبية: ٢/ ٥٤٧.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٢/ ١٥٤.
(٣) الحماسة: ١/ ٩٧، رقم القصيدة (٢٨).

فيقول - مثلاً -أبو حيان - رحمه الله - في تأويله: «لما انهزم من انهزم من المؤمنين أقبل خالد يريد أن يعلو الجبل فقال رسول الله ﷺ: لا يَعْلُنَّ علينا اللهم لا قوةَ لنا إلا بك، فنزلت، قاله ابن عباس، وزاد الواقدي أن رماة المسلمين صعدوا الجبل ورموا بحبل المشركين حتى هزموهم فذلك قوله: وأنتم الأعلون. وقال القرطبي: وأنتم الغالبون بعد أُحد، فلم يخرجوا بعد ذلك إلا ظفروا في كل عسكر كان في عهده عليه السلام، وفي كل عسكر كان بعد ذلك ولو لم يكن فيه إلا واحد من الصحابة. وقال الكلبي: نزلت بعد أحد حين أُمروا بطلبِ القوم مع ما أصابهم من الجراح وقال: لا يخرج إلا مَنْ شهد معنا أمس فاشتد ذلك على المسلمين فنزلت؛ نهاهم عن أن يضعفوا عن جهاد أعدائهم وعن الحزن على من استشهد من إخوانهم فإنهم صاروا إلى كرامة الله، قاله ابن عباس أو لأجل هزيمتهم وقتلهم يوم أحد، قاله مقاتل، أو لِمَا أصاب النبيَّ ﷺ من شجّهِ وكسرِ رباعيته، ذكره الماوردي، أو لما فات من الغنيمة، ذكره أحمد النيسابوري، أو لمجموع ذلك.

وآنسهم بقوله: وأنتم الأعلون، أي: الغالبون وأصحاب العاقبة وهو إخبار بعلوٍّ كلمة الإسلام، قاله الجمهور وهو الظاهر، وقيل: أنتم الأعلون، أي: قد أصبتم ببدر ضعف ما أصابوا منكم بأحد أسراً وقتلاً فيكون وأنتم الأعلون نصباً على الحال، أي: لا تحزنوا عالين، أي: منصورين على عدوكم»(١).

تلك الاتجاهات المعروفة في تأويل هذه الآية.

وهنا يثور سؤال: ما الذي يمنع الناس من أن يحملوا الآية على ظاهرها، ويقولوا: إن المسلمين هم الذين علوا وانتصروا في تلك الغزوة، حيث إن القرآنَ واضح في بيانه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

وكانت تكفينا للقولِ بما قلناه هذه الآية وحدها ولكن لا بأس بأن نشير إلى قرائن أخرى تدعمه، وتثبت أن المسلمين كان حليفهم النصر، والمشركون هم الذين باؤوا بالخيبة والهزيمة، وهي كما يلي:

القرينة الأولى:

إن المنافقين الذين صحبوا المسلمين في تلك المعركة - وما صحبوهم إلا ليزيدوهم

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٦١-٦٢.

خبالاً - كم حاولوا - في أثنائها وبعد رجوعهم منها - أن يشوّهوا وجهها، ويعرضوها في صورة موحشة قاتمة، حتى يخذلوا المسلمين وينفّروهم عن دينهم ويزعزعوا ثقتهم بنبيهم، ولكنهم ما استطاعوا أن يجدوا شيئاً يستعينون به في تسميم الجوّ وبث القلق والفزع أكثر من أن يقولوا:

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران].

وهذا الوضع إنْ دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أن المسلمين كانوا هم المنتصرين، وكانت الهزيمة في نصيب أعدائهم، وإلا لما سكت عنها المنافقون وأبرزوها أيَّ إبراز، وتردد ذكرها على كل لسان وفي كل مكان فإنها كانت تصلح لأنْ تكون أفضل وقودٍ للفتنة التي أرادوا أن يؤجِّجوا نيرانها بين المسلمين.

القرينة الثانية:

لما انقضت الحرب وعزم المشركون على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم: «موعدكم الموسم ببدر»، فقال النبي ﷺ: «قولوا: نعم قد فعلنا» قال أبو سفيان: «فذلكم الموعد» ثم انصرف هو وأصحابه»[1].

وهنا يبرز سؤال: إذا كان المشركون هم المسيطرين على الموقف، وقد أصابوا حد المسلمين وشوكتهم، فما الذي حملهم على أن يضربوا الموعد للعام المقبل؟ فإن المنتصر لا يؤجل الأمر إلى الغد ولا يمهل العدو حتى يستجمع قوته ويستجدّ نشاطه بل يقضي عليه في أقرب فرصة، وأما تأجيل الأمر وضرب الموعد فهو من دأب العاجزين المهزومين.

القرينة الثالثة:

إن المسلمين لم يبرحوا أرض المعركة حتى رحل أعداؤهم عنها، ثم لما رحلوا عنها تبعوهم إلى مسافة بعيدة لا تقل عن ثمانية أميال من المدينة.

وهل يدل ذلك إلا على أن المسلمين كانوا هم المنتصرين في المعركة وأن هِمَمهم

---

(١) زاد المعاد: ٣/٢٤١.

كانت قويةً عالية كما هو الشأن في الغالبين المنتصرين؟

وأما ما روي من أن أبا سفيان وأصحابه هموا بالرجوع إلى المدينة ليستأصلوا شأفة المسلمين، فمن يدري! لعلها كانت مجرد حيلة سياسية حتى يشاع عنهم هذا القول، ويغطّوا به على هزيمتهم المنكرة، ثم رجعوا على أعقابهم وكأنهم يغمغمون فيما بينهم وبين أنفسهم: (رضيتُ من الغنيمةِ بالإياب!). والقرائن كلها تعزز هذا الاحتمال، منها ما روي من أن أبا سفيان لقي بعض المشركين يريد المدينة، فقال: هل لكَ أن تبلغ محمداً رسالة، وأُوقِّرَ لك راحلتكَ زبيباً إذا أتيتَ إلى مكة؟ قال: نعم، قال: أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكرَّةَ لنستأصله ونستأصل أصحابه[١].

فهل كان يريد أبو سفيان من هذه الرسالة إلا التخفيف من هوانه والتغطية على هزيمته؟

وعلى أية حال فالهمُّ هَمٌّ والواقع واقع وشتان بينهما.

إن خروج المسلمين في طلب العدو واقع منظور مشهود وله دلالاته وإيحاءاته وأما هَمُّ المشركين بالرجوع إلى المدينة فهو شيء لم يشهده الناس ولا يمكن أن يُعارضَ به هذا الواقع.

فالآية واضحة في مدلولها والقرائن متضافرة في تأييدها وليس هناك شيء يكذب انتصار المسلمين في أحد، ومع ذلك انصرف الناس إلى تلك التأويلات! ولعل السبب فيه هو التأويل الذي درجوا عليه لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وهنا يبرز سؤال: فما هو التأويل الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؟ وقبل الرد على هذا السؤال نودّ أن نتحقق معنى (المداولة) التي وردت في هذه الآية، فإن هذا سيساعدنا في التوصل إلى ما نريد والله ولي التوفيق.

تحقيق معنى المداولة:

يقال: دالت الأيام، أي: دارت، ومنه الدولة: أي: انقلاب الزمان. والدول: انقلاب الدهر من حال إلى حال[٢].

---

(١) زاد المعاد: ٣/٢٤١.

(٢) القاموس المحيط: (د، و، ل).

ويقال: صار الفيء دُولةً بينهم يتداولونه، يكون مرة لهذا ومرة لهذا. وتداولته الأيدي، أي: أخذته هذه مرة وهذه مرة. واندال القوم: تحولوا من مكان إلى مكان[١].

وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكَرَّة لهم عليه. والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم[٢].

هذه عدّة استعمالات لهذه المادة.

ويتبين لنا بعد التأمل فيها أمران:

١- الأصل في هذه المادة هو الانقلاب والانتقال والتحول، سواء كان من يد إلى يد أو من مكان إلى مكان أو من حال إلى حال.

٢- إذا كان معمول هذه المادة من ذوات العين كالدرهم والدينار - مثلاً - كان المراد هناك النقل أو الانتقال من يدٍ إلى يد أو من مكانٍ إلى مكان. وإذا كان غير ذلك كالأوقات والأيام أو الدهر والزمان - مثلاً - كان المراد هناك النقل أو الانتقال من وصف إلى وصف، ومن حال إلى حال.

فإذا قيل: الدهر دول وعقب ونوب، كان معناه: أن الدهر يكون دائماً في دوران ولا يستقرّ على حال، وتتعاقب فيه الشدة والرخاء وتتناوب فيه الأفراح والأحزان.

وإذا قيل: الله يداول الأيام بين الناس، كان معناه أن الله يصرّفها بين الناس ويقلّبها من حلو إلى مرّ ومن مرّ إلى حلو، ومن حسن إلى سيىء ومن سيىء إلى حسن ومن مُفرح إلى محزن ومن محزن إلى مفرح، فتكون تارة لهم وتارة عليهم.

وإذا جعل الله الأيام حلواً لأحد لم يستلزم ذلك أن يجعلها لآخر مراً، وإذا جعلها مراً لأحد لم يستلزم ذلك أن يجعلها لآخر حلواً.

تأويل الآية:

والآن ننتقل إلى تأويل الآية فنقول: إن المسلمين - على الرغم من انتصارهم في المعركة وإثخانهم العدو - كانوا محزونين. وذلك أن نخبة طيبة من إخوانهم قتلوا في

(١) الصحاح: (د، و، ل).
(٢) أساس البلاغة: (د، و، ل).

المعركة وقد مثّل بهم الأعداء بكل خبث وحقد وشراسة، فكان منظراً رهيباً قاتلاً. فقد ذكرت الروايات أن رسول الله ﷺ جاء نحو حمزة بعد انقضاء الحرب فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنهُ ومُثِّلَ به فجُدع أنفه وأذناه وقطعت مذاكيره، فنظر ﷺ إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجعَ لقلبِهِ منه وقال: (لن أُصابَ بمثلك أبداً! ما وقفتُ موقفاً قط أغيظَ إليّ من هذا)[1].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: (ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً أشد من بكائه على حمزة - رضي الله عنه -وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نَشَقَ - أي شهق - حتى بلغ به الغشي)[2].

فإذا كان هذا شأن رسول الله ﷺ فكيف بمن دونه!

إضافة إلى ذلك أنهم ما كان يؤرّقهم الحزن على من فُجعوا بهم من إخوانهم فحسب، بل كانوا مرتّحين بسبب الجراحات التي قد أصابتهم أنفسهم وفوق ذلك كله بما أصاب رسولهم الذي كان أعزَّ عليهم من أنفسهم ومن إخوانهم.

ومما زاد في هول الموقف أنها كانت مفاجأة محضة، حيث أنهم ما كانوا يتوقعون ما حدث! بل ما كانوا يتوقعون معشار ما حدث! فقد كان ما شاهدوه في معركة بدر - وهي لم يمض عليها أكثر من عام - حاضراً شاخصاً في أذهانهم، ماثلاً أمام أعينهم: حيث منحهم الله أكتاف المشركين، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين ورجعوا إلى المدينة سالمين غانمين.

فإذا نال هؤلاء هذا النصر المؤزر! وقد أُمدّوا بألف من الملائكة، فماذا يكون من شأنهم إذا أُمدوا بخمسة آلاف منهم! هكذا كان ظنهم.

فلما صُدموا تلك الصدمة العنيفة حيث كثر فيهم القرح وكثر فيهم القتل كان طبيعياً أن يحزنوا، على الرغم من ذلك الانتصار الساحق الذي سجلوه على عدوهم وعلى الرغم من ذلك الحسّ الرهيب الذي فعلوه فيهم.

وهنا أقبل إليهم ربهم يسكب برد العزاء في قلوبهم، فقال فيما قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ

---

(١) سيرة النبي، لابن هشام: ٣/ ٦١١.

(٢) السيرة الحلبية: ٢/ ٥٣٤.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾.

أي: ما أصابكم من محنة وبلاء ليس بدعاً في تاريخ الدعوات، بل هذه سنة من سنن الله في العباد، أنه يصرّف هذه الأيام بينهم ويقلّبها من حال إلى حال ومن لون إلى لون فتتعاقب فيها الشدة والرخاء وتتناوب فيها النعم والمحن، وقد تجتمع الشدة والرخاء، وتجتمع النعم والمحن، وقد ينزل النصر ويملؤه الفرح كل الفرح، وقد يأتي النصر ويأتي معه القرح والجرح.

والسرّ في هذه السنة أنها تكشف الناس وتظهر كل واحد في لونه، إما مؤمناً وإما كافراً.

إذاً فهذه المحنة التي حلّت بكم ما حلّت إلا لتفرق بين المؤمنين منكم والكافرين حتى يمحق الله الكافرين، وأما المؤمنون فسيمدهم بعونه وتأييده ويؤهّلهم لتلك المهمّة الرفيعة التي اجتباهم لها وهي مهمة الشهادة بالحق على الناس.

* * *

هذا ما يظهر لنا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولقد ذكر الإمام القرطبي في تأويله ما يقارب هذا التأويل حيث قال - رحمه الله -: «وقيل: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ من فرحٍ وغم وصحة وسقم وغنى وفقر»(١).

ومما يرجح هذا المفهوم أنه يجعل الآية تنسجم مع ما قبلها وما بعدها تمام الانسجام، بخلاف المفهوم الأول، فإنه يفكّك النظام ولا تلتئم معه الآية بما حولها إلا بتكلف شديد وتعسّف ظاهر فإن الناس لم يستطيعوا - بعد هذا التأويل الذي مالوا إليه - أن يوفّقوا بين هذا القول وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ إلا بعد أن صرفوهما عن ظاهرهما وأوّلوهما إلى مفهوم لا يستقيم مع أسلوبهما، كما بيناه فيما مضى.

ثم ليس فقط أن هذا الكلام - بهذا التأويل - لا يتلاءم مع سباقه، بل لا يتلاءم مع سياقه كذلك، حيث جاء بعد قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/٢١٨.

وتفصيل هذا الإجمال أن تأويل ما تذكره الآية من (مداولة الأيام بين الناس) إلى إدالة المشركين على المسلمين في الحرب لا يعني إلا أن هزيمة المسلمين أمام المشركين أيضاً من صور ابتلائهم وتمحيصهم وأن هذه الظاهرة قد تكررت في التاريخ وتكررت باعتبارها سنة من السنن الإلهية في هذا الكون.

وهذا أمر لا نجد له تأييداً من القرآن ولا من التاريخ.

أما القرآن فقد تناول موضوع ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم في عدة مواضع وفصل صور الابتلاء وأسبابه، ولكن لم يذكر أبداً من ضمن تلك الصور أو تلك الأسباب إظهار المشركين على المؤمنين.

نأخذ - مثلاً - قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

فقد جمع - تعالى - في هذه الآية أسباب الابتلاء ولكن لم يذكر من ضمنها الهزيمة أمام الأعداء، وبالعكس من ذلك نجد القرآن ينقض ذلك، حيث ذكر من سنة الله التي لا تَخلُّفَ فيها أنه كلما التقى الجمعان كانت الدولة للمرسلين وأصحابهم، وكانت الهزيمة حليف أعدائهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

والتاريخ أيضاً لا يمدنا بمثال واحد يفيد أنه كان هناك لقاء بين جند نبيّ وأعدائهم، ثم كانت الكرَّةُ لهم عليهم ولو لفترة قصيرة محدودة.

فإذا كان هذا شأن جنود الأنبياء بصفة عامة فكيف بجند خاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - وقد ورد في علاماتهم وصفاتهم ما يلي:

(إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمةٍ تعملُ أثماره. ومَنْ سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه)[١].

(تنويهاتُ الله في أفواههم وسيفٌ ذو حدين في يدهم ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب، لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد)[٢].

---

(١) إنجيل متى: ٢١/ ٤٤.

(٢) المزمور: ١٤٩/ ٦-٨.

إن مثل هذه النبوءات التي وردت في شأن هذا النبي وأصحابه كثيرة يطول ذكرها، وهي لا تقرّ أبداً فكرة هزيمة النبي وأصحابه في غزوة أحد، ولا تقرّ ذلك التأويل الذي ينبني عليها.

هذا، وهناك أمر آخر نود أن ننبه إليه قبل أن ننتقل إلى بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، وهو أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ليس موجّهاً إلى المؤمنين كما ذهب إليه من ذهب من المفسرين - رحمهم الله[1].

ولا بد لنا من الانتباه لضعف هذا الرأي، فإنه يكاد يفسد علينا قضية نظام تلك الآيات ويكاد يحجبنا عن الرؤية الصحيحة الواضحة الدقيقة لاتجاهها وأهدافها، بل لا يبعد أن يكون هذا الرأي هو الحجر الأول لذلك البنيان الشامخ الذي هدّمناه قبل قليل، وهو فكرة هزيمة النبي ﷺ وأصحابه في غزوة أحد.

إذاً فلا بد لنا من كشف عوار هذا الرأي فنقول وبالله التوفيق: إن هذا الأسلوب التي وردت عليه هذه الآية أسلوب شائع في القرآن، إلا أنه لا يستخدمه القرآن أبداً إلا إذا كان الخطاب موجّهاً إلى أعداء الله. وها هي تلك الآيات التي وردت على مثل هذا الأسلوب:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

هذه الآيات كلها - كما لا يخفى - جاءت في سياق الخطاب إلى المشركين والكفار.

فإذا كان القرآن لا يستخدم هذا الأسلوب أبداً إلا للكفار والمشركين فكيف يصح أن

---

(١) انظر تفسير الطبري: ٤/٦٥.

يقال هنا: إن الخطاب موجه في الآية إلى معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به مع أنها جاءت على نفس الأسلوب؟

وهنا يثور سؤال: فإلى من وُجِّه الخطابُ في هذه الآية.

والجواب أن الخطاب في الآية موجه إلى أهل الكتاب الذين كانوا يعايشون المسلمين في المدينة وكانوا لا يألونهم خبالاً وكانوا يخدمون مصالح أعدائهم وهم في داخل صفوفهم!

ولقد كان لتصرفاتهم العدائية المشؤومة دور كبير فيما أصاب المسلمين في تلك الغزوة من جروح وقروح، ثم لم يشف صدورهم أنهم عكّروا على المسلمين صفو انتصارهم بدسائسهم بل ظلّوا يبثون سمومهم وينكؤون قروحهم بعد قفولهم إلى المدينة. فوجَّه الخطابَ إليهم أن يفيقوا من سكرتهم ويعتبروا بمن مضى قبلهم ولا يعرّضوا أنفسهم للعاقبة الوخيمة التي لاقاها أسلافهم من جراء تكذيبهم.

وسيزداد الأمر وضوحاً حين ندرس الآيات القادمة، ونتأمل في إيحاءاتها ودلالاتها.

مناسبة الآيات فيما بينها:

وبعد هذه المقدمات المهمة التي كان يقتضيها المقام نتوجه إلى تلك المجموعة من الآيات لنبين مناسبتها فيما بينها فنقول: بعد ذلك الوعيد والتنبيه الذي وجّه إلى أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والذي فصلناه آنفاً جاء قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وصارت هذه الآية معبرة لطيفة انتقل عليها الكلام من أهل الكتاب إلى المؤمنين بلطافة عجيبة، حيث أن الشطر الأول من الآية وهو قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ ناظر إلى أهل الكتاب والشطر الثاني منها وهو قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ناظر إلى المؤمنين، فكانت هذه الآية مناسبة طيبة لتقديم العزاء إلى المؤمنين بعد توجيه الوعيد والتحذير إلى أعدائهم الماكرين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

وهذه الآيات تتضمن العزاء والسلوى من عدة وجوه، وهي كما يلي:

١- لا سبب بين الوهن والحزن وبين الإيمان، فالمؤمن المتجرّد لله لا يعرف إلا البذلَ والتضحية ولا يجزع من الشدائد والمحن فإن كنتم مؤمنين حقاً فلا يتطرق إلى قلوبكم الوهن والحزن.

٢- ما دام أنكم أنتم الغالبون المنتصرون فأيّ معنى للوهن والحزن؟ فإن الغلب والانتصار يُحلّي كل مرّ ويُنسي كل غم.

٣- إن ما أصاب عدوكم من قرح وجرح ليس أقلّ ولا أخفّ مما أصابكم.

٤- إن الأيام لا تجري على سنن واحد ولا تستقر على حال واحدة بل تظل في تقلب وتحول من حلو إلى مرّ ومن مرّ إلى حلو، فليس من شأن العاقل أن يجزع من تقلّبات الأيام.

٥- إن كانت هذه المحنة قد ساءتكم فلها جانب آخر سيسرّكم ويسعدكم فإنها كشفت الجماعة كشفاً، وأظهرت كل إنسان بما فيه، فسيلقى كل إنسان ما يستحقه فأما الذين آمنوا فسيأخذ الله بأيديهم إلى الخير والسعادة وأما الكافرون الظالمون فليس لهم من الله إلا السخط والمحق.

وهكذا نرى تلك الآيات قد جمعت في غضونها العزاء والسلوى من جهات شتى.

ثم اقتضى الموقف أن يخلط هذا العزاء والسلوى بشيء من العتاب والتنبيه على ما بدر منهم من الجزع وقصور في الصبر في أثناء المعركة، فذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

إن هذه الآيات - كما لا يخفى - تعاتب المؤمنين أولاً على أنهم لم يكونوا من الصبر والجلد ورباطة الجأش وشدة المراس حيث كان ينبغي لهم أن يكونوا، أو كان يملي عليهم الموقف أن يكونوا، حيث أنهم طلاب الجنة، وما خاضوا هذه المعركة إلا لينالوا به الجنة، فإذا كانت الجنة هي بغيتهم، فالجنة لا يصلح لها إلا الصابرون

المجاهدون، الذين يصمدون لهولِ الموقف ولا تزعزعهم الأحداث مهما كبرت وعظمت!

ويتناول السياق بهذه المناسبة ذلك الحادث الفاجع الذي كان مبعث الوهن والحزن في قلوبهم، وكان هو السبب الأول في اضطراب أمرهم واختلاط حابلهم بنابلهم، ألا وهو خبر مقتل رسول الله ﷺ فما كاد القوم يسمعون بهذا الخبر الكاذب المشؤوم حتى خانتهم جوارحهم واستطيرت أفئدتهم ولم يستطيعوا أن يجابهوا الموقف بصبر وصمود. يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - «ويصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمداً قد قتل، ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وفرّ أكثرهم، وكان أمر الله قدراً مقدوراً»[1].

فيتناول السياق هذا الحادث ليجعل منه مناسبة طيبة لعلاج هذا الضعف الذي ظهر منهم، فيهيب بهم أن يتذكروا عظم ما أفاء الله عليهم من نعمة الإسلام وكرامة الإيمان، ويهب بهم أن يقدروها حق قدرها ويكونوا من الشاكرين لها فيحيوا عليها ويموتوا عليها ولا يتوانوا في المحافظة عليها والذود عن حقيقتها مهما عظم الخطب وجلّ المصاب، حتى ولو كان ذلك موت النبي أو قتله - صلوات الله وسلامه عليه -.

ويعلمهم كذلك أن الله هو الذي قدّر الآجال ولن يموت إنسان قبل أن يستوفي أجله، إذاً فلا داعي للجبن والفشل ولا داعي للوهن والحزن.

وبالعكس من ذلك ينبغي لهم أن يكونوا شاكرين لهذه النعمة عاضّين عليها بالنواجذ ولو كلّفهم ذلك ما كلّف، فإن أجرهم لن يضيع وثوابهم لن يفوت، والذين شكروا لهذه النعمة ولم يتزعزعوا لهذا الحادث سينالون ثوابهم وسيحمدون عاقبة شكرهم.

ثم يذكر لهم السياق أن ما أصابهم في سبيل الله ليس أول حادث في تاريخ الدعوات والرسالات حتى يهنوا ويحزنوا، أو ينقلبوا على أعقابهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

فتاريخ الدعاة والدعوات وتاريخ الأنبياء والنبوات حافل بالشدائد والصعوبات إلا أن

---

(١) زاد المعاد: ٣/١٩٨.

المؤمن حقيق ألا يعتريه الوهن والضعف إذا ابتلي بشيء منها، وحقيق ألا يساوره الشك في أمر الله ووعده، بل عليه أن يعتصم بالصبر ويحسن صلته بالرب، فيستغفره ويتوب إليه، ثم يسأله الثبات ويسأله النصر. فإن الثبات والنصر لا يؤخرهما إلا الخطايا والذنوب، ولا يجلبهما إلا الدعاء والاستغفار والتوبة النصوح.

هكذا كان دأب السائرين على هذا الدرب قبلكم، وهكذا ينبغي أن يكون دأبكم، فكونوا شاكرين، وكونوا صابرين، وكونوا محسنين. والله يحب الصابرين، ويحب المحسنين وسيجزي الشاكرين.

وهكذا نرى تلك الآيات جاءت آخذاً بعضُها بأعناقِ بعض، من غير أن نشعر فيها بشيء من الاضطراب أو الاقتضاب.

وبعدما انتهينا من دراسة تلك الآيات وعلمنا مناسبتها فيما بينها، نعود إليها مرة أخرى لننظر مناسبتها لما قبلها.

مناسبة الآيات لما قبلها:

إذا أردنا أن نعرف مناسبة تلك الآيات لما قبلها فهي واضحة ظاهرة، وهي كما يلي:

١- لقد مر معنا في الفقرة السابقة قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾.

ويطالعنا في هذه الفقرة قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فالآية الأولى ترغيب في مغفرة من الله وترغيب في جنته الواسعة.

والآية الثانية وعد وتبشير بهاتين النعمتين لمن توفرت فيه الشروط المذكورة أو النعوت المذكورة.

والآية الثالثة إيذان للمؤمنين بأنهم لن يدخلوا الجنة إلا بعد اجتيازهم اختبار الصبر والجهاد، حيث أن هذا الاختبار هو الذي سيكون ميزاناً أو مقياساً لتوفر تلك الشروط.

٢- لقد ختمت الفقرة السابقة بقوله تعالى في صفات المتقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

وهذه الفقرة أيضاً ختمت بما هو شبيه بذلك الختام حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

ولا يخفى أن هذه الآية مثال عملي رائع لما ذكر في ختام الفقرة السابقة من فضيلة اللجوء إلى الذكر والاستغفار.

٣- لقد تكرر قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ في الفقرتين معاً. وهذه دلالة واضحة على اتحاد الفقرتين أو تشابههما في اللون والاتجاه.

هذه ثلاث مناسبات ظاهرة بين هاتين الفقرتين.

إلا أننا إذا تدبرنا تلك الآيات وأنعمنا فيها النظر ظهرت لنا وشائج أُخَر تربطها بما قبلها، وهي في غاية الروعة والجمال، وجديرة بأن نحرص عليها كل الحرص وهي كما يلي:

يكشف لنا التأمل في هذه الآيات أنها يسودها جو الصبر والشكر، حيث ذُكر فيها الصبر مرتين وكذلك الشكر مرتين.

ولقد ذكر هذان الأمران في هذه الآيات بأسلوب يجعلهما أبرز شيء فيها ويجعلهما يشدان الانتباه إليهما، حيث قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

والشيء الذي نلاحظه هنا هو أن الشكر وإن كان قد ذُكر مرتين في آيتين مستقلتين مثل الصبر، إلا أن آيتيه وضعتا بين آيتي (الصبر) وهكذا تداخل بعضهما في بعض.

وهذا النظم يفيد أن هناك سبباً ماساً وصلةً قوية بين (الصبر) و(الشكر) وأن الصبر لا يتحقق إلا بالشكر، كما أن الشكر لا يعتبر إلا بعد الصبر، فهما شيئان متلازمان،

وقرينان لا يفترقان، وكل واحد منهما يخدم الآخر ويقويّه ويغذّيه وينمّيه ولا وجود لأحدهما بدون صاحبه، والصلة بينهما صلة الروح والجسد، أو صلة الأصل والفرع أو صلة الأساس والبناء.

فالشكر أساس للصبر والصبر نتيجة للشكر ودليل عليه، ولذلك نرى القرآن يجمع بينهما فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ].

إذاً فلا بأس بأن نضم آيتي الشكر إلى آيتي الصبر ونقول: لقد تكرر ذكر الصبر في هذه الآيات أربع مرات، مرتين صراحة ومرتين كناية، أو مرتين بالعبارة ومرتين بالدلالة.

وبالتالي يسعنا أن نقول: إن هذه الآيات يسودها جو الصبر. والصبر أبرز شيء فيها.

وأما الآيات التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فالجو الذي يسودها هو جو التقوى، حيث تكرر ذكر التقوى في هذه الفقرة ثلاث مرات:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

تلك ثلاثة مواضع ذكرت فيها التقوى بلفظها وإلا فهذه الفقرة بكاملها تشتمل على التنويه بشأن التقوى وتفصيل أماراتها ومظاهرها وتفصيل المثوبة التي أعدّها الله لمن يتصف بها.

وبالجملة فهذه الفقرة يسودها جوّ التقوى والتي بعدها يسودها جوّ الصبر ويتبيّن لنا حُسْنُ موقع هاتين الفقرتين إذا تذكرنا أن الفقرة التي سبقتهما تشتمل على هذا التوجيه الكريم: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

فقد ذكرت هذه الآية أن الصبر والتقوى هما سلاحا المؤمن في وجه العدو، وإذا كان المؤمن يملكها فلا خوف عليه من كيدهم.

وورد في نفس الفقرة قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ ﴾.

فالصبر والتقوى هما وسيلتان إلى استنزال النصر من الله، كما أنهما وقاء المؤمن ضد العدو.

فلما كان هذان الأمران من الخطورة والأهمية بهذا المكان تناولهما السياق واحداً واحداً بكلام مستقل في فقرتين مستقلتين تنويهاً بشأنهما وترغيباً في التمسك بهما.

ثم ليس فقط أن الفقرة الأولى تتناول جانب التقوى وتجلّيها والفقرة الثانية تتناول جانب الصبر وتجلّيه، بل الأمر أعمق منه وأعجب.

إن الذي يدرس هذه الآيات بادىء ذي بدء يستغرب ويسائل نفسه، كيف جمع الله هاتين الفقرتين ووضعهما في مكان واحد وفي سياق واحد، مع أن الجوّ فيهما يختلف اختلافاً واضحاً، حيث إن الجو في الأولى جو إخاء ومودة وبر ومرحمة، جو يملؤه الإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس والذكر والاستغفار، بينما الجو في الأخرى جو كفاح وجهاد، وقتل وقتال. ولا يخفى ما بينهما من فرق كبير.

ومما يزيد الأمر غرابة أن هذه الفقرة قد سبقها الحديث عن الحرب كما تلاها، وعلى هذا فقد اكتنفها الحديث عنها من كلا طرفيها.

إن الذي يدرس هذه الآيات سيستغرب هذا الوضع ولا شك، ولكن التأمل فيها يزيل هذا الاستغراب، ويجعل الوضع طبيعياً ومنسجماً مع جوّه تمام الانسجام.

فالجوّ في الفقرة الأولى أيضاً جو كفاح وجهاد كمثله في الثانية وكمثله فيما قبلها. فإن الأمور التي ذكرت في تفصيل صفات المتقين وملامحهم كلها توحي بالكفاح والجهاد. نأخذ - مثلاً - الإنفاق فالمرء لا يقدر عليه أبداً - وخاصة في الضراء - إلا بعد كفاح طويل وجهاد مرير مع النفس.

وكذلك الأمر في كظم الغيظ والعفو عن الناس، فإنهما أثقل شيء على النفس، ولا يقدر عليهما إلا من قضى فترة طويلة في الجهاد مع نفسه حتى تحرر منها تحرراً كاملاً.

وكذلك الأمر فيما ذكر من صفاتهم من ذكر الله والاستغفار للذنوب، فإن هذه الآية تصورهم لنا وكأنهم في صراع دائم مع أنفسهم وهم يَغلبون ويُغلبون، فإذا غُلبوا مرة

من المرات فلا ينكسرون ولا يستسلمون، ولا يسترسلون مع الذنوب ولا يصرّون، بل سرعان ما ينتبهون ويتذكرون، ويستغفرون ثم يعودون إلى ما كانوا فيه من الصراع من جديد.

فالواقع أن حياة المؤمن كلها جهاد وكفاح، وهو قبل أن ينزل في ساحة الحرب ويشتبك مع أعداء الله، يكون قد مكث دهراً طويلاً في الجهاد مع نفسه بين أهله وأخوانه. والجهاد في ساحة الحرب لا يكون إلا جزءاً قصيراً من جهاده الطويل الذي يعيشه طول حياته في بيئته ومجتمعه.

إذاً فلا اختلاف في جو الفقرتين، وإنما هو انتقال من معركة إلى معركة ومن جهاد إلى جهاد.

وهذا الجهاد الأول هو الأساس للجهاد الثاني. فالموفّق في هذا الجهاد هو الذي يكون موفقاً في ذلك الجهاد، والذي لم يسبق له أن يجاهد نفسه حريٌّ ألا يكون موفّقاً في النزال مع عدوه.

إلا أن هناك فرقاً يسيراً بين الجهادين، حيث أن الجهاد الأول يحتاج إلى التقوى أكثر مما يحتاج إلى الصبر، والجهاد الثاني يحتاج إلى الصبر أكثر مما يحتاج إلى التقوى، وإن كان الجهادان يحتاجان إلى الاثنين، ولا يغني أحدهما غناء الآخر.

ولعل هذا هو السر في أن السياق أبرز جانبَ التقوى في الفقرة الأولى، وأبرز جانب الصبر في الفقرة الثانية، وإن كان كلا الأمرين موجودين في كلتا الفقرتين.

وبما أن الإحسان عبارة عن هذين الأمرين، تكرر فيهما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. فنحمده تعالى بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٤٩-١٥٥)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾.

* * *

قبل أن نشتغل بالحديث عن نظم هذه الآيات لا بد لنا من أن تكون لنا وقفة عند بعض الآيات التي لم تحرّر بعد على كثرة ما درسها الدارسون وتأمّل فيها المتأمّلون.

تأويل الآية: (١٥١):

منها قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يقول الإمام ابن عطية في تأويل هذه الآية: «وسبب هذه الآية: أنه لما ارتحل أبو سفيان بالكفار بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وقال: (انظرِ القومَ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم متشمرون إلى مكة، وإن كانوا على الخيل فهم عائدون إلى المدينة)، فمضى عليّ فرآهم قد جنبوا الخيل، فأخبر رسول الله ﷺ، فَسُرَّ وسر المسلمون، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فتجهّز واتّبع المشركين يُريهم الجلدَ، فبلغ حمراء الأسد، وإن أبا سفيان قال له كفار قريش: أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبق إلا الفلّ والطريد نَنصرفْ عنهم؟ ارجع بنا إليهم حتى نستأصلهم فعزموا على ذلك، وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي قد جاء إلى رسول الله ﷺ وهو على كفره، إلا أن خزاعة كلها كانت تميل إلى رسول الله ﷺ، فقال له: والله يا محمد لقد ساءنا ما

أصابك، ولَوَدَدْنا أنك لم تُرزأ في أصحابك، فلما سمع رسول الله ﷺ والناس بما عزمت عليه قريش من الانصراف، اشتد ذلك عليهم، فسخَّر الله ذلك الرجل معبد بن أبي معبد، وألقى بسببه الرعب في قلوب الكفار، وقال صفوان بن أمية: لا ترجعوا فإني أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذي كان، فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء، وهي - بعد - متناولة كل كافر»[1].

هذا ما ذهب إليه الإمام ابن عطية في تأويل هذه الآية.

إشكالات تكتنف هذا التأويل:

وهذا التأويل، وإن كان هو التأويل المفضل عند كثير من الناس، لا نسكن إليه لعدة وجوه، وهي كما يلي:

١- هذا التأويل يعتمد على القول بانتصار المشركين في غزوة أحد، وهذا مخالف للواقع ومتعارض مع ظاهر القرآن.

وقد بيّنا ذلك وفصّلناه فيما مضى.

٢- إن هذه الآية نزلت بعد انصراف كل من الفئتين من ساحة الحرب ووعدت بما وعدت به من إلقاء الرعب في قلوب الكافرين لمستقبل الزمان حيث قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ . . . إلخ﴾ بينما الروايات صريحة في أن هؤلاء المشركين قد داخَلَهم الرعب وهم لم يزايلوا ساحة الحرب، فقد ورد فيما ورد في شأنهم، أنهم جنبوا الخيل وقعدوا على أثقالهم عجالاً. (انظر المحرر الوجيز: ٣/٢٦٩) وفي رواية: قعدوا على الأثقال سراعاً عجالاً. (ابن جرير: ٤/٩٢).

إن هذه السرعة والعجلة في القعود على الأثقال إن دلت على شيء فإنما تدل على ذلك الرعب الذي كان يملأ قلوبهم وكان يدعوهم إلى أن يهربوا بأنفسهم قبل أن يُحاط بهم.

وتَخَوُّفُ المسلمين من دخولهم المدينة أيضاً يؤكد هذا الوضع، فإن العدو الموتور الذي يفقد وعيه هو الذي يأتي بتلك التصرفات الشاذة، ويريد أن يقتص لما أصابه في حومة الوغى بقتل النساء والذراري في المدن والقرى، وإلا فالمنتصر يعتبر ذلك سُبَّةَ الدهر، ويحسبه عاراً لا يفارقه إلى الأبد.

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/٢٥٩-٢٦١ (باختصار).

فإذا كان المشركون قد داخلهم الرعب وهم ما زالوا في ساحة الحرب فما معنى الوعد بإلقائه في قلوبهم بعد انصراف كلٍّ من الفئتين إلى محلّهم؟

٣- لقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

و(الظلم) لم يذكر في هذه السورة إلا في سياق الكافرين من أهل الكتاب، وها هي تلك الآيات التي ورد فيها ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

تلك المواضع التي ذكرت فيها جريمة (الظلم).

وهذه الآيات كلها جاءت في سياق الكفار من أهل الكتاب كما لا يخفى على المتأمل فيها.

إذاً فحملُ الآية على نظائرها أولى من صرفها إلى غيرها.

٤- إن الله تعالى إذا توعّد قوماً بإلقاء الرعب في قلوبهم فإنه لا يعني بذلك أنهم سيداخلهم الرعب فهم سينسحبون من الموقف أو سيهربون مما يتوقعون من الخطر، وكفى، كما حدث مع أبي سفيان وأصحابه، وإنما يكون ذلك إيذاناً بأن القوم قد حانت عقوبتهم، وحان لهم أن يذوقوا وبال أمرهم، وجاء ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

فإذا ألقى الله الرعب في قلوب قوم فإنه سرعان ما يجعلهم نكالاً للآخرين، ولا

يعطيهم الفرصة حتى يرجعوا إلى بيوتهم سالمين آمنين.

٥- إذا أوّلنا الآية إلى أبي سفيان وأصحابه فإننا لا نجد لها محملاً واضحاً بخلاف ما إذا أولناها إلى كفار أهل الكتاب، الذين لم يكن لهم هَمٌّ ولا وَسَنٌ في تلك الأيام إلا تثبيط عزائم المسلمين وتخويفهم عاقبة السير مع نبيهم، فإن الأمر يكون واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، فإن هذه الآية تتوعدهم بإلقاء الرعب في قلوبهم ولم يكد يمضي على هذا الوعيد نصف عام حتى أتى دورهم وألقى الله الرعب في قلوبهم حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر].

فكانت هذه الغزوة - غزوة بني النضير - تحقيقاً لذلك الوعد الذي تتضمنه هذه الآية، وقد نزلت الآية مع أخواتها بعد غزوة أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، ولم يكد يمضي عليها أربعة أشهر حتى كانت قصة بني النضير وكانت قصتهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة[١].

ثم بعد عام ونصف من هذه القصة كانت قصة بني قريظة، وكانت هذه القصة أيضاً - كقصة بني النضير - إنجازاً لذلك الوعد ومثالاً واضحاً لإلقاء الرعب في نفوس هؤلاء الكفار، حيث إن رسول الله ﷺ لما انصرف إلى المدينة بعد الانتهاء من غزوة الأحزاب لم يكن إلا أنْ وضع سلاحه فجاءه جبريل، فقال: أَوضعتَ السلاح، والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها؟! فانهضْ بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسول الله ﷺ على إثره في موكبه من المهاجرين والأنصار[٢].

ثم صار ما حكى الله في شأنهم حيث قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾ [الأحزاب].

وبالجملة فهذه خمسة وجوه تمنعنا من القول بما قيل في تأويل هذه الآية، وتذهب بنا إلى أنها ناظرة إلى كفار أهل الكتاب. والله عنده علم الصواب.

* * *

---

(١) زاد المعاد: ٣/١٢٩، والسيرة الحلبية: ٢/٥٩٩.

(٢) زاد المعاد: ٣/١٣٠.

تأويل الآية: (١٥٢):

ومن تلك الآيات التي ما زالت بحاجة إلى بحث ودراسة جادة، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله: «يعني بقوله جل ثناؤه: حتى إذا فشلتم، حتى إذا جبنتم وضعفتم، وتنازعتم في الأمر، يقول: واختلفتم في أمر الله، يقول: وعصيتم وخالفتم نبيكم فتركتم أمره وما عهد إليكم وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرهم ﷺ بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشِّعْبَ بأُحد بإزاء خالد بن الوليد ومَنْ كان معه من فرسان المشركين الذين ذكرنا قَبلُ أمرَهم. وأما قوله: من بعدما أراكم ما تحبون، فإنه يعني بذلك من بعد الذي أراكم اللهُ أيها المؤمنون بمحمدٍ من النصرِ والظفر بالمشركين»[١].

ويقول رحمه الله -: «يعني جل ثناؤه بقوله: منكم من يريد الدنيا الذين تركوا مقعدهم الذي أقعدهم فيه رسولُ الله ﷺ في الشِّعب من أُحد لخيل المشركين ولحقوا بمعسكر المسلمين طَلَبَ النهبِ إذ رأوا هزيمة المشركين، ومنكم من يريد الآخرة يعني بذلك الذين ثبتوا من الرماة في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسول الله ﷺ واتبعوا أمره محافظة على عهد رسول الله ﷺ وابتغاء ما عند الله من الثواب بذلك من فعلهم والدار الآخرة»[٢].

إشكالات تكتنف هذا التأويل:

هذا ما ذهب إليه الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية، وهذا هو التأويل المفضل عند كثير من الناس، إلا أن هذا التأويل تكتنفه عدة إشكالات، وهي كما يلي:

إن ملخص هذا التأويل أن عصيانَ الرُّماة وعدم لزومهم مراكزهم هو الذي جلب عليهم ما جلب من سوء وغم، وأما الفشلُ والتنازع في الأمر فلا نجد لهما مكاناً في

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ٨٤.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٨٥.

هذا التأويل. نعم يذكر هذا التأويل اختلاف الرماة فيما بينهم - وهو أن ناساً منهم تركوا مراكزهم في الشعب واندفعوا إلى الغنيمة، بينما الآخرون لزموا مراكزهم ولم يوافقوا إخوانهم فيما أرادوا، بل أرادوا أن يمنعوهم منه - إلا أن هذا الاختلاف شيء، والتنازع في الأمر شيء آخر. فالتنازع هو التخاصم وهو أن يصرّ كل من الفريقين على رأيه ويصر على موقفه بدون احتكام ولا استناد إلى الله ورسوله، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء].

وأما إذا لزم فريق أمر الله ورسوله واعتصم به، وأراد الآخر أن يخالفه ويعدلَ عنه إلى غيره، فهذا ليس من التنازع، وإنما هو طاعة من فريق وعصيان من فريق آخر.

ثم أين موقع الفشل في هذا التأويل؟ فإن الذين تركوا مراكزهم لم يتركوها بدافع الفشل وإنما تركوها بدافع الرغبة في الغنيمة، وشتان بين الفشل والرغبة في الغنيمة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الرماة إذا كانوا قد لازموا مراكزهم في وقت القتال وفارقوها بعدما انهزم المشركون ولاذوا بالفرار وتأكد عندهم أنه لا حاجة بهم إلى لزومهم مراكزهم فإنَّ هذا أوْلى بأن يُحملَ على خطأ في الاجتهاد دون العصيان، فإنهم لم يتركوا مراكزهم وفي بالهم أنهم يخالفون أمر الرسول عليه السلام، وإنما تركوها وهم يحسبون أنهم قد أدّوا واجبهم كما كان الرسول ﷺ يريده منهم.

فهذه الحادثة أشبه شيء بما حدث في غزوة بني قريظة، حيث أن الرسول ﷺ قال لأصحابه يومئذ: (لا يصلينّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة)، وفي رواية: (مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينّ العصر إلا ببني قريظة). فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أُمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يُرِدْ منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، لم يعنّف واحدة من الطائفتين[1].

إذاً فالأمر هناك أمر الاجتهاد وليس أمر العصيان.

---

(١) زاد المعاد: ٣/ ١٣٠، والسيرة الحلبية: ٢/ ٦٥٩.

وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة في التعبير فلنقل: إنهم اجتهدوا فأخطأوا وكان أولى بهم وأجدر أن يظلوا في مراكزهم كإخوانهم الآخرين.

ولكن ليس لنا أن نقول أنهم عصوا أمر الرسول، فإنهم ما كانوا يريدون ذلك، ولو أرادوه لفعلوه قبل ذلك حين كانت الحرب قائمة على ساقها وكانت تسحب بينهم أذيالها.

ولعل هذا هو السبب في أن النبي ﷺ لم يعنّفهم بعد انقضاء الحرب ولم يعاقبهم كما لم يعنّف الذين صلّوا العصر في الطريق ولم يعاقبهم.

وكذلك القرآن لم يؤاخذهم على هذا التصرف ولم يعنفهم ولم يتناولهم بالعتاب ولم يحكم عليهم بالعقاب.

وبالجملة فهذه القصة لا تصلح لأن تكون تفسيراً لهذه الآية لأنه لا يصدق عليها الفشل والتنازع في الأمر ولا العصيان إلا بتكلف شديد. إضافة إلى ذلك أن هذا التأويل لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾، فإن الغنائم لا تجمع ولا يمكن أن تجمع إلا بعد رؤية الغلب والانتصار، فإذا أقبل هؤلاء إلى جمعها بعدما رأوا انهزام المشركين وانتصار المؤمنين، ففيم العتاب عليهم، أو ما هو وجه الملام والإنكار في تصرفهم؟

وهذا كله على افتراض الصحة والدقة فيما وردت به الآثار، وإلا فالأمر كما قاله الإمام ابن عطية - ولعله خيرُ تفسيرٍ لما ذهب إليه الناس من ربط هذه الآيات - وما حدث في تلك الغزوة من أحداث - بتلك القصة حيث قال - رحمه الله -: «اختلفت الروايات في هذه القصة من هزيمة أحد اختلافاً كثيراً، وذلك أن الأمرَ هولٌ، فكل أحد وصف ما رأى وسمع»(١).

ومن ذلك - كما يوحيه إلينا الموقف - أن نفراً من المسلمين أقبلوا إلى جمع الغنائم بعدما رأوا انتصارهم وانهزام عدوهم، وما كادوا يفعلون ذلك حتى اضطرب أمر المسلمين وتعكّر الجو عليهم، فمن رأى هذا المنظر خُيِّلَ إليه أن الذين اشتغلوا بجمع الغنائم هم الذين كانوا موكلين بحفظ الثغر، فلما فارقوا مقاعدهم سنحت للمشركين فرصة الهجوم عليهم من ورائهم فوقعت المأساة وحدث ما حدث من أحداث.

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/٢٦٨.

هذا ما خُيِّلَ إلى مَنْ شهد هذا المشهد وكان الواقع على غير ما خيل إليهم.

ثم لما رأوا أن القرآن يذكر في سياق الحديث عن هذه المأساة التنازع في الأمر أضافوا إليه أن الرماة كلهم لم يفارقوا مراكزهم وإنما وقع بينهم الخلاف في هذا الأمر ففارق بعضهم وبقي بعضهم، والذين بقوا في مقاعدهم لم يستطيعوا أن يقاوموا خيل المشركين لما هجموا عليهم، لأنهم كانوا قلة فكان أن تمكّن المشركون من قتلهم ثم دخلوا على المسلمين من ورائهم وأحاطوا بهم. وهكذا اكتملت جوانب القصة، ثم رويت هذه القصة وحُدِّثت وشاعت وانتشرت مع أنها لم تكن صورة دقيقة صادقة لما وقع، وإنما الذي وقع على غير ما ترويه هذه القصة!

إذاً فما هي الصورة الصادقة لما وقع؟ وما هو التأويل الصحيح لهذه الآية؟

قبل أن نرد على هذا السؤال نود أن نضع في اعتبارنا نظائر هذه الآية من سورة الأنفال، فإنها ستكون لنا عوناً في تمثل الصورة الصادقة لأحداث تلك المعركة، كما ستكون لنا عوناً في التوصل إلى التأويل الصحيح للآية.

يقول تعالى وهو يذكّر المؤمنين ما امتنّ به عليهم في غزوة بدر: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال].

ثم يقول تعالى، وهو يزوّد المؤمنين بتوجيهات تفيدهم في مثل تلك المواطن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال].

منشأ الفشل والتنازع في الأمر:

فالآية الأولى تفيد أن الفشل والتنازع في الأمر إنما تُنشئهما المهابةُ من العدو، فإذا امتلأ القلب بشعور كثرة العدو وشدة بأسه، دبّ الفشل وظهر التنازع في الأمر.

والآيتان الأخريان تفيدان أن قلة الثبات وقلة الصبر هما اللذان يؤديان إلى الفشل والتنازع في الأمر، حيث بدئت هذه التوجيهات بالأمر بالثبات وختمت بالأمر بالصبر، ووضع بينهما النهي عن الفشل والتنازع في الأمر.

ولا يخفى أن قلة الصبر وقلة الثبات شيء واحد كما أن قلة الصبر والمهابة من العدو أصلهما واحد، فمن قلّ صبره تهيّب عدوه، وكذلك العكس.

وأما الفشل والتنازع في الأمر فهما كذلك شيئان متلازمان وقد يأتي الفشل ويتبعه التنازع في الأمر كما نستوحيه من الآية الأولى.

وقد يكون الأمر على العكس حيث يأتي التنازع في الأمر ثم يتبعه الفشل كما نستلهمه من الآيتين الأخريين.

تأويل الآية كما يمليه علينا السياق:

والآن نرجع إلى حديثنا لاأول فنقول: هل هناك مانع من القول بأن المؤمنين قد خامر قلوبهم الخوف من كثرة العدو وشدة بأسهم، وهذا الخوف هو الذي أدّاهم إلى ما أدّاهم من الفشل والتنازع في الأمر؟

ولقد أشار السياق نفسه إلى هذه الظاهرة إشارة واضحة، حيث مضت معنا في الفقرة السابقة هذه الآيات:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

والجوّ الذي يسود هذه الفقرة أيضاً جو الخوف والرعب، وما أوضح قوله تعالى في هذا المعنى: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ . . . ﴿١٥٤﴾ ﴾ الآية.

هذا، وسيطالعنا قوله تعالى في نفس السورة وفي نفس السياق: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

فهذه الآيات واضحة في أن المؤمنين قد داخلَ قلوبهم الخوفُ من العدو. وهذا الخوف هو الذي أداهم إلى ما أداهم من الفشل والتنازع في الأمر.

هذا إجمال القول في هذا الموضوع، ولا بد من تفصيل، فنقول: لقد علمنا في أول الحديث عن هذه الغزوة في سياق قوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا . . . ﴿١٢٢﴾ ﴾ الآية أن جمعاً من المنافقين قد صحبوا المؤمنين في هذه الغزوة، وما

أنهضهم للخروج معهم إلا حرصهم على إفساد أمرهم وإيقاع الفتنة في صفوفهم.

وهكذا كان الأمر! فما كادوا يصلون إلى موقع الحرب حتى ظهرت بوادر الفشل في صفوف المؤمنين، وما كان ذلك إلا نتيجة لجهودهم ودسائسهم الخبيثة المشؤومة، حيث أنهم خوفوا أعداءهم وهولوا أمرهم، وقالوا للمؤمنين، وكأنهم لهم ناصحون: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

وما زالوا بهم كذلك يثبّطون هممهم ويخوّفون عاقبة الصراع مع عدوهم، حتى دبّ الرعب في قلوب طائفتين منهم وأوشكوا أن يفشلوا لولا أن تداركهم نعمة من ربهم. وقد بيناه وفصلناه في أثناء دراستنا لقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ولقد أخفق كيدهم في تلك المرة ولا شك، إلا أنهم عرفوا من خلال تلك المحاولات أن مواضع الضعف موجودة في صفوف المؤمنين، وأنهم إن أخفق كيدهم في هذه المرة فلن يخفق في كل مرة.

فلما رأوا - بعدما استعرت نار الحرب بين المؤمنين والمشركين - أن كفة المؤمنين راجحة، وأنهم يَحسّون عدوهم حَسّاً، لم يستطيعوا أن يصبروا على هذا الوضع، وشدّوا مآزرهم ليقوموا بدورهم في إفساد أمرهم، وجعلوا يُوضِعون خلالهم يبغونهم الفتنة وأشاعوا بينهم أن رسول الله ﷺ قد قتل.

وما كاد المؤمنون يسمعون بهذا الخبر حتى خارت قواهم وانهارت هممهم، وفترت عزائمهم، ثم تغير الوضع!

وكان كل ما حدث طبيعياً، فقد كان هذا المكر ولا شك، لِتزولَ منه الجبال فكيف بهؤلاء الرجال!

وظل المنافقون يشيعون هذا الخبر وظلّوا يخذّلون المؤمنين، ويثبّطون هممهم، حتى ملئت قلوبهم رعباً، ودبّ فيهم الفشل والتنازع في الأمر، ثم أدّاهم ذلك إلى أن عصوا الله ورسوله، حيث تركوا مراكزهم ونسوا واجبهم ثم ولوا مدبرين.

وقد عصوا قبل ذلك أيضاً حين استمعوا لكلام هؤلاء المنافقين وجعلوهم موضع ثقة ومودة عندهم، مع أنهم قد حُذّروا منهم أشد تحذير حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

فهذا العصيان هو الذي أفسد علهيم الأمر وجرّهم من عصيان إلى عصيان وجرّهم إلى الفشل والتنازع في الأمر، ثم جرّهم إلى ما جرّهم من سوء وغم!

ولو أنهم أطاعوا الله ورسوله فحَذِروا ما حُذِّروا منه لما كان لهؤلاء الأعداء أن يفسدوا عليهم الأمر ويعكّروا عليهم الجو.

ومن هنا نعلم أن خبر مقتل النبي ﷺ لم يكن حدثاً اتفاقياً وإنما كان كيداً وتدبيراً من هؤلاء الأعداء.

وهذا الكيد، وإن كان قد نجح في عامة المؤمنين إلا أن جلّة الصحابة قد فطنوا له، وعرفوا أنه لا يعدو أن يكون من أراجيف المنافقين! وليس القصد منه إلا الفتّ في عضد المسلمين! فقد أخرج ابن المنذر عن كليب قال: خطبنا عمر بن الخطاب، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول إنها أحدية، ثم قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فصعدت الجبل فسمعت يهودياً يقول: قتل محمد، فقلت: لا أسمع أحداً يقول: قُتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه[1].

وهذه الصورة أصدق عندنا وأشبه بما عهدناه في سيدنا عمر بن الخطاب وأمثاله من الصورة التي تعرضها الرواية الأخرى وهي التي ذكرها الإمام ابن القيم - رحمه الله - حيث قال: (وانتهى أنس بن النضر إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يُجلسكم؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، فقال: فما تصنعون بالحياة بعده، فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل)[2].

وبالجملة فهذا ما يظهر لنا في تأويل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ فالرعب والخوف هو الذي أدّى بالناس إلى هذا الفشل والتنازع في الأمر وهو الذي أدى بهم إلى العصيان.

والعجيب في الأمر أنهم ما فشا فيهم هذا الرعب والخوف إلا بعد ما رأوا النصر والظفر متمثلاً شاخصاً أمامهم، وذلك لأنهم صدموا بخبر أذهلهم وأنساهم أنفسهم، ألا

---

(١) فتح القدير: ١/ ٣٨٨.

(٢) زاد المعاد: ٣/ ٢٠٩.

وهو خبر مقتل رسول الله ﷺ.

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذه الظاهرة بنظم آياته حيث قال بعدما عاتبهم على الجزع وقلة الصبر: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

فهذا النظم يفيد أن هذا النبأ هو الذي أذهلهم وأفسد عليهم أمرهم كما يدل على أنهم لم يكن لهم ذنب إلا أنهم لم يجابهوا الموقف بصبر وصمود، ولو كان طلب الغنيمة هو السبب في اختلال نظامهم واضطراب أمرهم لما عاتبهم السياق على قلة الصبر والضعف في الجهاد وإنما عاتبهم على شح النفس وقلة الزهد والركون إلى الدنيا وشهواتها.

ثم هذا التأويل كما أنه يضع الأمور في نصابها ويريحنا من الإشكالات التي أشرنا إليها، يجعل قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ ظاهراً واضحاً في مفهومه ومنسجماً تمام الانسجام مع ما قبله، فإنه لم يكن هناك مبرر للخوف من العدو والفشل والتنازع في الأمر بعدما رأوا النصر والظفر متمثلاً شاخصاً أمام أعينهم.

فالذي حدث كان في غاية الغرابة وفي غاية العجب! وما كان ينبغي له أن يحدث كائنة ما كانت الظروف وكائنة ما كانت الأسباب!

* * *

هذا ما يظهر لنا في تأويل الآية، حتى نمعن النظر في نظمها ونكرر التأمل فيها وفي نظائرها، ونرى أننا تناولنا أطراف الحديث كلها، ولم يبق هناك ما يحتاج إلى بيان وإيضاح، وإن كان قد بقي شيء فسيتضح بإذن الله، حين نتفرغ للحديث عن نظم تلك الآيات، ونبين وجوه مناسبتها فيما بينها.

تأويل الآية (١٥٤):

ومن تلك الآيات التي تحتاج إلى بحث ودراسة جادّة قوله تعالى: ﴿... وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾ الآية.

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله: «يعني بذلك جل ثناؤه وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهمتهم أنفسهم يقول: هم المنافقون لا همّ لهم غير أنفسهم فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها في شغلٍ قد أطار عن أعينهم

الكرى يظنون بالله الظنون الكاذبة ظَنَّ الجاهلية من أهل الشرك بالله شكاً في أمر الله وتكذيباً لنبيه ﷺ ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ومُعْلٍ عليه أهلَ الكفر به يقولون هل لنا من الأمر من شيء»[١].

فالإمام ابن جرير يعتبر هذه الطائفة من المنافقين.

إلا أن صاحب تفسير المنار يعدل عنه إلى رأي آخر فيقول: «فهذه الطائفة من المؤمنين ولا حاجة إلى جعلها في المنافقين كما قيل، فإن هؤلاء سيأتي الكلام فيهم. وما من أمة إلا وفيه الضعفاء والأقوياء في الإيمان وغيره»[٢].

ثم يقول - رحمه الله - بعدما ينتهي من تفسير هذه الآية: «هذا، وإن جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اخترناه في هذه الطائفة، فقالوا: إن المراد بها المنافقون ولكن يعارض فهمهم هذا كون الخطاب قبله وبعده للمؤمنين، والكلام عن المنافقين سيأتي بعده، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فإن المصائب إنما تكون بعد الابتلاء والاختبار تمحيصاً للمؤمنين، كما قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وبأساً وضعفاً للكافرين كما قال: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[٣].

هذا ما يراه صاحب تفسير المنار في شأن تلك الطائفة.

ولعل رأيه - رحمه الله - أوجه وأرجح من رأي غيره وذلك من عدة وجوه:

١- أن الآية واضحة في أن النعاس لم يغشَ جميع المؤمنين وإنما غشيَ طائفة منهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وأما الطائفة الأخرى فبقيت في قلقها واضطرابها فأين تلك الطائفة الأخرى إذا لم تكن هذه التي ذُكرت بعدها؟

٢- هناك فرق واضح بين ما يذكره السياق عن هذه الطائفة وبين ما يذكره عن المنافقين. فقد ذكر عن هذه الطائفة أنهم يقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ بينما ذكر عن المنافقين أنهم يقولون: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران]

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ٩٣.

(٢) مختصر تفسير المنار: ١/ ٤٢٠.

(٣) مختصر تفسير المنار: ١/ ٤٢١ (بحذف واختصار).

﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران].

فالقول الأول يوحي بالحزن والموجدة والصلة الروحية العميقة بين هؤلاء وبين من قتل من إخوانهم، فهم ينسبون القتل إلى أنفسهم ويعتبرون ما أصاب إخوانهم كأنه أصابهم هم: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾.

بينما القول الآخر يوحي بالسخرية والشماتة ونكء القرح وذر الملح على الجرح: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾.

وهكذا ذكرهم الله تعالى فحكى عنهم: ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ وذكر المنافقين فحكى عنهم: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران].

ولا يخفى ما بين الحكايتين من فرق واضح حيث أن الحكاية الأولى توحي بالخوف والتهيّب والاستحياء فهم خافوا النبي واستحيوا منه أن يقولوا له: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾، أي: لو قبل رأينا في البقاء في المدينة لما قُتلنا ههنا. بينما الحكاية الأخرى توحي بالخداع والنفاق والحقد والضغينة.

٣- إن ربط هذه الآية بالمنافقين يُفسدُ نظمَ الآيات، ويوقعنا في إشكالات لا نكاد نجد مصدراً منها. وسيتضح ذلك حين ندرس نظم تلك الآيات.

تلك ثلاثة أوجه تشفع للرأي الذي مال إليه صاحب تفسير المنار بالإضافة إلى الوجهين اللذين نبّه إليهما هو نفسه.

ولعل أكبر شيء ذهب بالناس إلى أن هذه الآية ناظرة إلى المنافقين قوله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾.

ولكن لا يلبث هذا الظن أن يزول إذا وضعنا في بالنا نظير هذه الآية في سورة الأحزاب، حيث قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب].

فما أشبه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ بقوله تعالى: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾.

وإذا كان هناك وُجِّه الخطاب إلى المؤمنين بإجماع المفسرين، فلا إشكال في تأويل هذه الآية أيضاً إلى المؤمنين دون المنافقين.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

والآن - وقد انتهينا من دراسة تلك الآيات - نعود إليها مرة أخرى لنعرف مناسبتها لما قبلها وفيما بينها.

لقد كانت الفقرة السابقة - كما رأينا - تعزية للمؤمنين وتسلية لهم على ما أصابهم في غزوة أحد من قرح وجرح، وكانت تنبيهاً لهم كذلك على ما ظهر منهم من ضعف وقلة صبر وتحريضاً لهم على حسن التأسي بمن سبقهم من الأنبياء وأتباعهم الصابرين المحتسبين.

وهنا نرى السياق يحذرهم من أعدائهم من أهل الكتاب ويحذرهم من الاستماع إليهم والانخداع بأحاديثهم، التي ترمي إلى خلخلة صفوفهم وبلبلة أفكارهم وترمي إلى تشكيكهم في أمر دينهم وإزالة ثقتهم بقيادتهم، وترمي إلى أن تُلْقي في روعهم أن الله قد تخلى عن نصرهم وأسلمهم لعدوهم وما وعدهم هو - جل وعلا - ورسوله إلا غروراً، وأنهم إنْ يطيعوهم ويضعوا أيديهم في أيديهم فإنهم لينصرنُّهم وليكونُنَّ لهم عوناً وعضداً فيما ينوبهم و. . . و. . . .

فالسياق يحذرهم من هذا الكيد ويبين لهم أن الله هو مولاهم وناصرهم وهو خير الناصرين، وأما هؤلاء الأعداء، الذين يريدون أن يستغلوا هذه الفرصة شر استغلال، ويريدون أن يفتنوهم عن دينهم، ويردوهم على أعقابهم، فقد قرب أجلهم، وعما قليل ليصبحُنَّ نادمين ، حيث أن الله سيلقي في قلوبهم الرعب وسيذيقهم وبال أمرهم، فالذي يريد أن يأوي إليهم، إنما يأوي إلى بيت يريد أن ينقضَّ، وسينقض من قريب!

ثم يبين لهم السياق أن الله لم يخلف ما وعدهم ولم يتخلَّ عن نصرهم - كما يزعم لهم أعداؤهم - بل هو مقبل إلى نصرهم ورعايتهم مذ أول لحظتهم حيث سلطهم على عدوهم فحصدوهم بسيوفهم حتى كادوا يستأصلونهم! وظل هذا النصر حليفهم حتى ظهر منهم ما ظهر من الفشل والتنازع في الأمر والعصيان.

وكانت هذه الظاهرة دليلاً واضحاً على أن فيهم من يريد الدنيا وفيهم من يريد الآخرة، فإن الفشل والتنازع في الأمر والعصيان ليس من دأب من يريد الآخرة، وإنما

هي من علامات أهل الدنيا.

ولكن مع هذا كله، فإن الله لم يتخل عنهم.

وإنْ صرفهم عنهم فإنه لم يصرفهم ليعذبهم، أو يسلط عليهم عدوهم وإنما صرفهم عنهم ليبتليهم، ويميز من يريد الآخرة منهم ممن يريدُ الدنيا حتى يعود إليهم النصر الذي انحبس عنهم وما انحبس عنهم إلا لاختلاط أمرهم، واشتمالهم على من يريد الدنيا ويريد الآخرة. وعلى هذا فقد كان هذا الابتلاء في مصلحتهم، وكان من فضل الله عليهم. ولقد نبه السياق إلى هذه الناحية، فقال بعد ذكر هذا الابتلاء: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

فلما تميزت صفوفهم، وتطهرت نفوسهم بفضل هذا الابتلاء، عاد إليهم النصر مرة أخرى، وأنزل عليهم ربهم من بعد الغم أَمنةً نُعاساً يغشى طائفة منهم.

هذا ما عامل الله به عباده المؤمنين المتقين، وأما الضعاف منهم والفارون والفاشلون فقد كان من لطف الله وسعة فضله أنه لم يغلّظْ عليهم كذلك، بل شملهم بعفوه وحلمه وغفرانه، وجعل هذه المحنة ابتلاء لما في صدورهم، وتمحيصاً لما في قلوبهم، وترك لهم الفرصة حتى يتداركوا ما فاتهم، ويصلحوا ما فسد من شأنهم.

إذاً فليس من شأن المؤمنين، وليس في صالحهم، أن يستمعوا لقول أعدائهم، ويشكوا في أمر دينهم ونبيهم، ويسيئوا الظن بربهم الذي وسعهم بفضله ونصره فينقلبوا خاسرين!

لفتة هامة:

وقبل أن نغادر تلك الآيات إلى ما بعدها نود أن ننبه إلى أمر هام يستفاد من نظمها، فإنه كثيراً ما عزب هذا الأمر عن الأذهان، وبالتالي لم يتيسّر للناس أن يتمثّلوا تلك المعركة الفاصلة على وجهها، ولم يتيسّر لهم أن يأخذوا عنها صورة دقيقة واضحة.

إن التأمل في نظم تلك الآيات يوحي إلينا أن الصورة التي تمثلها لنا هذه الآية: ﴿ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ... خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لم تكن هي الصورة الختامية التي انتهت بها المعركة، بل أفاق المؤمنون واستمسكوا بعدما أنزل الله عليهم النعاس أمنةً منه، وقد أنزل الله عليهم ذلك النعاس وهم مشتملون بالسلاح،

والحرب قائمة ورحى القتال دائرة، فلم تكن إلا موجة من النعاس - ولعلها لم تستمر إلا ثواني معدودة - فإذا بهم - وهم طائفة من المؤمنين - في منتهى القوة والنشاط. وقد زال عنهم كل ما كان بهم من الخوف والرعب، فهم أسرعوا إلى النبي ﷺ بل طاروا إليه زرافات ووحداناً حتى اجتمعوا حوله، ثم كرّوا على المشركين وشدّوا، وقتلوا وضربوا، حتى أمسكوا زمام الموقف.

وهكذا انتهت المعركة بانتصار المؤمنين لا (بإصعادهم) و(توليهم)! والأمور التي تقودنا إلى هذا القول كما يلي:

١- لقد عطف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا . . . الآية﴾، على قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ . . .﴾ أو على قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ . . .﴾ الآية، ومعلوم أن هذا الإصعاد وهذه الإثابة قد حصلا والحرب دائرة وقائمة على ساقها، فلا بدّ إذاً أن يكون إنزالُ الأمنةِ أو إنزال النعاس أيضا في نفس الفترة حتى يتحقق الاتحاد بين المعطوف والمعطوف عليه.

٢- قال تعالى عن الطائفة الأخرى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

يقول الإمام الزمخشري - رحمه الله - في تأويله: «ما بهم إلا هَمّ أنفسهم لا همّ الدّين ولا همّ الرسول ﷺ والمسلمين»[1].

ويقول العلامة الألوسي - رحمه الله -: «أي جعلتهم ذوي همٍّ وأوقعتهم فيه أو ما يهمهم إلا أنفسهم لا النبي ﷺ ولا غيره، مِنْ أَهمَّهُ بمعنى جعله مهماً له ومقصوداً. والحصر مستفاد من المقام، وذكر بعضهم أن العرب تطلق هذا اللفظ على الخائف الذي شغله هَمُّ نفسه عن غيره»[2].

ومما لا يخفى أن هذه الآية جاءت على أسلوب التقابل، وحذف من الجملتين ما ذكر في مقابلهما، ويكون تقدير العبارة هكذا: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة أخرى ما غشيهم هذا النعاس فهم كانوا في خوف ورعب، وهذه الطائفة قد أهمّتهم أنفسهم بينما الطائفة الأولى ما كان يهمّهم إلا أمر دينهم وعقيدتهم).

---

(١) الكشاف: ١/ ٤٧٢.

(٢) روح المعاني: ٤/ ٩٤.

والصورة التي نتمثلها من هذه العبارة هي أن الحرب لم تنته بعد والصراع بين العسكرين مستمرّ ومحتدم. وطائفة من المؤمنين قد اقتحموا المعركة غير خائفين ولا وَجِلين وليس لهم همٌّ إلا أن يدافعوا عن دينهم وعقيدتهم وطائفة أخرى يرتجفون من العدو ولا يهمهم إلا أن ينجوا بأنفسهم ويتخلصوا من الخطر الذي يحدق بهم.

٣- إن النعاس الذي يذكره القرآن هنا لم يكن إلا لإزالة الخوف من قلوب المؤمنين حتى يثبتوا في الحرب ويستمروا في القتال مع أعدائهم، وليس المراد به ذلك النوم الثقيل الطويل الذي ينامه الإنسان وهو خلي البال، وإنما المراد به أخف النوم[١] ولا يطول ذلك إلا ثواني معدودة.

ومما يجدر الانتباه أن هذا النعاس أنزل على المؤمنين في بدر قبل أن تنشب الحرب وأُنزل في أُحد في أثنائها.

والسر في ذلك أن المؤمنين في غزوة بدر كانوا - قبل أن يلاقوا العدو - في خوف شديد منهم، كما يظهر من الآيات التي وردت في شأنها وهي قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الأنفال].

فلما كان المؤمنون قد ملئوا رعباً من أول أمرهم، أنزل الله عليهم النعاس قبل أن يقابلوا عدوّهم حتى يواجهوا الموقف بصبر وصمود، ولا يولوهم الأدبار كما قال تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال].

وأما غزوة أحد فلم يكن المؤمنون فيها - كما كانوا في غزوة بدر - خائفين من العدو، بل أقبلوا إليها وهم كأسود الشرى يستعذبون طعم اللقاء، وكانت هممهم عالية، ومعنوياتهم قوية شامخة. فما كادت الحرب تستعر نارها حتى جعلوا يَحسُّون عدوهم حسّاً.

---

(١) زاد المسير: ١/ ٤٨٠.

إذاً فلم يكن المؤمنون بحاجة إلى أن ينزل عليهم النعاس في أول أمرهم، وإنما مست الحاجة إليه بعدما تمكن المنافقون بكيدهم ومكرهم من تخويفهم وتخذيلهم وتثبيط هممهم. وقد بينا ذلك وفصلناه فيما مضى.

وهناك أنزل الله عليهم النعاس أَمنةً منه، حتى يستمسكوا ويعودوا إلى ما كانوا فيه من قوة وحماس وشدة بأس، ويعودوا إلى ما كانوا فيه من ضرب العدو وجزٍّ رؤوسهم، وهضم أنوفهم. وقد تم ذلك ولله الحمد.

وبالجملة فإذا كان النعاس إنما ينزله الله تعالى على عباده المؤمنين ليربط به على قلوبهم ويثبت به أقدامهم فليس هناك مانع من القول بأن المؤمنين قد اجتمعوا بعد هذا النعاس حول النبي ﷺ ثم كانت لهم صولات وجولات في صفوف المشركين، حتى انجلت المعركة بانتصارهم واندحار عدوهم.

تلك ثلاثة أمور تستفاد من نظم هذه الآية، وهي تدفعنا دفعاً إلى القول بما قلنا. وسيأتي معنا قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ... ١٦٧﴾ [آل عمران].

وهاتان الآيتان أيضاً تعززان هذا الموقف ولا تُبقيان مجالاً للشك في هذا الأمر. وسنبين ذلك حين نتناولهما بالحديث بإذن الله.

الرد على شبهتين:

وقبل أن نقفل هذا الموضوع نود أن نرد على شبهتين قد تثوران في الذهن بهذا الخصوص وهما كما يلي:

١- إنْ صح أن المؤمنين اجتمعوا بعدما أنزل عليهم النعاس ثم كَرُّوا على المشركين كرّة فاصلة فلماذا سكت عنه السياق ولم يذكره.

٢- إن أواخر هذه الآية لا تشعر بجوها وطبيعتها أنّها تتصل بما جرى في موقف القتال أو في أوان القتال فكيف يصح ربط أولها بما لا يرتبط به آخرها؟

هاتان شبهتان قد تثوران في ذهن الباحث، فلا بد من علاجهما.

أما الشبهة الأولى فهي لا تلبث أن تزول إذا وضعنا في اعتبارنا أنه ليس من عادة القرآن أصلاً أن يسرد القصص بكاملها أو يفصّل جميع جوانبها.. فهو لا يذكر منها إلا

ما يقتضيه الموقف ويتطلبه الموضوع. ولقد علمنا قبل قليل أن هذه الآيات، التي نتحدث عنها الآن، إنما جاءت لرد شبهة قد أثارها اليهود في نفوس المؤمنين وهي أنه تعالى وعدهم النصر ثم أخلف وعده وتركهم غرضاً لسيوف عدوّهم حتى أصابهم ما أصابهم من قرح وجرح وقتل.

فجاءت هذه الآيات تُبطلُ هذه الشبهة وتبين لهم أن الله قد صدَقهم وعده وحاطهم بنصره ورعايته في كل مرحلة من مراحل هذه الغزوة، وإنما أصابهم ما أصابهم من عند أنفسهم.

وإذا وضعنا في بالنا هذه الظاهرة فسنرى أن السياق لم يترك من هذه القصة شيئاً مما كان يخدم هذا الموضوع، كما لم يذكر منها ما لم تكن له صلة بالموضوع.

ومن الظاهر أن شدّ المسلمين على المشركين بعدما أنزل عليهم النعاس لم تكن له صلة بالموضوع، فكان أولى بالسياق أن يطوي ذكره ويترك نظم الكلام هو الذي يشير إليه.

وأما الشبهة الثانية فهي أيضاً لا تلبث أن تنقشع إذا علمنا أنه لا غرابة في هذا الأسلوب، فهو أسلوب مُطَّردٌ في القرآن، فكم من آية في القرآن نرى أولها يتصل بزمان وآخرها بزمان آخر.

نأخذ - مثلاً - آية من هذه السورة نفسها وهي قوله تعالى في شأن سيدنا عيسى:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران]، فأولها وهو قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من قول الله أو من قول الملائكة للسيدة مريم. وأما أواخرها وهي قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ... إلخ﴾ فهي من كلام سيدنا عيسى لقومه، والفاصل بين الشطرين هو الفاصل بين البشارة بميلاده وبين قيامه - عليه السلام - في قومِهِ بمهمةِ الرسالة والدعوة إلى الله.

إذاً فهذا أسلوب من أساليب القرآن، وعليه وردت تلك الآية التي نتحدث عنها الآن. فشطرها الأول وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ... ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾ متصلٌ بما جرى في موقف القتال، بينما الثاني وهو قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ... إلخ﴾ حكاية عما كانوا يقولون للنبي - عليه السلام - أو كانوا يحدثون به

أنفسهم بعد القتال.

ولقد جمع السياق بين الموقفين على ما بينهما من فاصل لشدة الشبه بينهما، كما جمع بين القولين في الآية السابقة لشدة الصلة بينهما.

هذا ما تيسر لنا في تأويل تلك الآيات وفي بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها. فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٥٦-١٧٩)

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ
غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ
قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ
عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا
غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ
أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ
نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ
مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ
فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ
سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا
فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾
وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ
ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

* * *

قبل أن نلتمس وجوه المناسبة في تلك المجموعة من الآيات نود أن تكون لنا وقفة عند بعض مواضعها التي تَحيَّر الناسُ في أمرها، فإن التوصل إلى بديع نظمها وحسن المناسبة بين آياتها لا يمكن قبل التوصل إلى صحيح تأويلها.

سبب نزول: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾:

فمن تلك المواضع قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ الآية.

يقول الإمام ابن الجوزي في تأويله: «وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال.

أحدها: أن قطيفة من المغنم فُقدت يوم بدر، فقال ناس: لعل النبي ﷺ أخذها، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلاً غَلَّ من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: أن قوماً من أشراف الناس طلبوا من رسول الله ﷺ أن يخصهم بشيء من الغنائم، فنزلت هذه الآية. نقل عن ابن عباس أيضاً.

والرابع: أن النبي ﷺ بعث طلائع فغنم النبيُّ ﷺ غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

والخامس: أن قوماً غلوا يوم بدر، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول النبي ﷺ: «مَنْ أخذ شيئاً فله» فقال لهم ﷺ: «ألم أعهدْ إليكم ألا تبرحوا؟! أظننتم أنَّا نغل؟!» فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب ومقاتل.

والسابع: أنها نزلت في غلول الوحي، قاله القرطبي، وابن إسحاق.

وذكر بعض المفسرين أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عيبِ دينهم وآلهتهم، فسألوه أن يطوي ذلك، فنزلت هذه الآية»[١].

تلك سبعة أقوال ذكرها الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في سبب نزول هذه الآية.

وأما الآخرون، فهم أيضاً يحومون حولها ولا يَعدُونها إلا قليلاً.

والجدير بالذكر أن جميعهم وقفوا منها نفس الموقف الذي وقفه الإمام ابن الجوزي منها، حيث أنهم يذكرونها جميعاً أو يذكرون بعضها بدون أن يقوّموها أو يرجحوا بعضها عن بعض.

ولا يدل ذلك إلا على أنهم لم يذكروها عن رضا وقناعة، وإنما ذكروها لأنهم لم يطلعوا على خيرٍ منها، ولو اطّلعوا عليه لأقبلوا ولم يميلوا إلى ما مالوا إليه.

إذاً فضعف هذه الأقوال لا يحتاج منا إلى نقاش، وأي نقاش فيما لا يتلاءم مع نظم الآية وسياقها، ولا يتلاءم مع جوها وطبيعتها، بل يبدّد شملها ويقطعها عما بين يديها وما خلفها؟

فليست مهمتنا الآن أن نعكف على تلك الأقوال لنبين ضعفها ونكشف عُوارها وإنما الذي يهمنا أن نُنقِّبَ عن تأويلٍ آخر يتسم بالقوة والوجاهة وينسجم مع نظم الآية وسياقها وجوّها وطبيعتها.

ولكن قبل أن نبدأ مسيرنا للتنقيب عنه لا بد لنا أن نتحقق معنى كلمة الغلول، فقد وهم الناس في معناه، ولعل هذا الوهم هو الذي لم يدعهم يصلون إليه.

تحقيق معنى الغلول:

نرى علماء اللغة شبه متواطئين على تفسير (الغلول) بالخيانة أو بالخيانة في المغنم والفيء خاصة[٢].

---

(١) زاد المسير: ١/٤٨٩-٤٩٠.

(٢) انظر مثلاً، الصحاح للجوهري: مادة (غلّ)، والقاموس المحيط، والمفردات للراغب: كتاب الغين.

والأمر عند أئمة التفسير أيضاً لا يختلف عما رأيناه عند علماء اللغة، فهم أيضاً يفسرون الغلول بالخيانة أو بالخيانة في الفيء والمغنم خاصة.

وكم نتعجب حين نرى هذا الوضع ونرى هذا التواطؤ منهم على قصر الغلول على معنى الخيانة، ثم نرى العرب لم يقصروه عليه بل استعملوه بمعنى أوسع منه.

فمن ذلك ما قاله زهير وهو يمدح الحارث بن ورقاء، الذي أغار على بني عبدالله بن غطفان وأخذ إبل زهير وراعيها يساراً، ثم رد يساراً إليه.

أبلغْ لديك بني الصيداء كلهم ... أن يساراً أتانا غير مغلولِ
ولا مهانٍ ولكن عند ذي كرم ... وفي حبال وفيٍّ غيرِ مجهولِ[1]

أي: أتانا يسار من غير أن يُهان أو يراد به سوء، فإنه كان عند كريم وفيّ معروف بالكرم والوفاء فشمله بإكرامه وحاطه بنصحه ومودته.

ومن ذلك أيضاً ما قاله عبيد الراعي في قصيدته الشهيرة التي يمدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من ظلم السُّعاة، وهم الذين يأخذون الزكاة من قبل السلطان:

إن السعاة عصوك يوم أمرتهم ... وأتوا دواهي، لو علمتَ وغولا
كتبوا الدّهيم من العداء لمسرف ... عاد، يريد خيانة وغلولا
ذخر الخليفة لو أحطت بعلمه ... لتركت منه طائفاً مفصولا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه ... بالأصبحية قائماً مغلولا[2]

موضع الشاهد هنا قوله: (يريد خيانة وغلولا) فقد عطف الشاعر (غلولاً) على (خيانة) وهو يدل على أن هناك فارقاً بينهما، حيث أن العطف يدل على المغايرة، فالذين فسروا الغلول بالخيانة لم يتحروا الدقة في تفسيره ولا وجه له إلا أن يقال: إنه تفسير تقريبي وليس حقيقياً.

ثم إذا تمثّلنا الجو الذي قيلت فيه هذه الأشعار علمنا أنه لم يُرِدْ بالغلول هنا إلا ذلك التصرف الجائر الذي يكون بدافع الغل بمعنى الحقد والضغينة. فالغلّ والغلول بينهما صلة ماسة، وليس الغلول إلا ما يمارسه الإنسان بدافع الغِلّ، وهو خلاف النصح

---

(١) ديوان زهير: ص٥٥.

(٢) جمهرة أشعار العرب: ٣/ ٩٣٩.

والمودة. وأما ما قاله أبو عبيد من أن الغلول في المغنم خاصة ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد[١] فهو لا يخلو من ضعف. ولقد استدل عليه بما لا يدل عليه.

تأويل الآية:

إذاً فيكون معنى الآية: ليس لنبيٍّ أن يكون غالاً لقومهِ غيرَ ناصحٍ لهم.

وقد ذهب سماحة الشيخ أمين أحسن في تأويلها إلى ما يقارب هذا المعنى، حيث قال: «هذا تنزيه ساحة النبي ﷺ من تلك التهمة التي وجهها المنافقون إليه بعد هزيمة أحد[٢]، وأشاعوها بين المسلمين وروَّجوها لكي ينفِّروهم عنه.

وتفصيلها أننا ائتمنّا هذا الرجل ووكلنا إليه أمورنا وحكّمناه في خيرنا وشرنا فإذا به يستغل هذه الثقة استغلالاً سيئاً، ويهدر أموالنا وأرواحنا لكي يصل إلى ما تُمنِّيه به نفسهُ وتتطلع إليه.

لقد أشرنا عليه بأن نكافح العدو محتمين بالمدينة ولكنه لم يُقِمْ لرأينا وزناً وخرج بإخواننا ليفترسهم أعداؤنا، هذا، ورب الكعبة، تغرير بالقوم ومكر بهم وإساءة إليهم!

وهذه التهمة تشير إليها الآيات التي مضت معنا وسيأتي بيانها فيما يلي كذلك.

فأبطلها القرآن بأنها تهمة كاذبة باطلة، فإن النبي ليس من شأنه أن يغدر بأمته ويتخلى عن نصحهم ومودتهم ويتصرف تصرفاً يتنافى مع مصلحتهم. إنه لا يخطو خطوة إلا بإذن الله، ولا يعمل عملاً إلا ويريد به وجه الله. إنه لا يغيب عن باله أن كل غلول سَيُسألُ عنه المرء أمام الله، وسيعاقب عليه عقاباً وفاقاً. إن من اتبع رضوان الله لا يجعل كمن باء بسخطٍ من الله. إنه لا بد أن يختلف مصيرهم وتختلف درجاتهم كما اختلفت أعمالهم. فالله بصير بما يعمله العاملون وبما يقترفه المقترفون»[٣].

وسيزداد الأمر وضوحاً حين نلتمس وجوه المناسبة في تلك الآيات.

---

(١) انظر الصحاح للجوهري: مادة (غل).

(٢) إن فكرة هزيمة المسلمين في أحد فكرة باطلة خاطئة، وهي لا تلبث أن تنهزم أمام جيش الأدلة القاطعة. ولقد بينا ذلك فيما مضى بما فيه كفاية بإذن الله.

(٣) تفسير تدبر قرآن: ٢/٢١١.

تأويل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ الآية:

ومما أشكل على الناس وتحيروا في أمره قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله: «يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك أَوَ حين أصابتكم أيها المؤمنون مصيبة وهي القتلى الذين قُتلوا منهم يوم أحد والجرحى الذين جرحوا منهم بأحد، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفراً قد أصبتم مثليها، يقول: قد أصبتم أنتم أيها المؤمنون من المشركين مِثْلَي هذه المصيبة التي أصابوها منكم وهي المصيبة التي أصابها المسلمون من المشركين ببدر وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين قلتم أنَّى هذا ومن أين أصابنا هذا الذي أصابنا ونحن مسلمون وهم مشركون وفينا نبيُّ الله ﷺ يأتيه الوحي من السماء وعدوُّنا أهلُ كفر بالله وشرك»(١).

هذا ما ذكره الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله. والجدير بالذكر أنه ادعى الإجماع عليه حيث قال بعدما ذكر هذا التأويل: «ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن تأويل سائر الآية على ما قلنا في ذلك من التأويل»(٢).

بينما الباحث إذا تأمل فيه استبعد أن ينعقد الإجماع على مثله وتردد في قبوله من عدة وجوه، وهي كما يلي:

١- أن تأويل قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ إلى ما حصل في غزوة بدر من قتل المشركين وأسرِهم لا يخلو من تكلفٍ وليس هناك قرينة تدل عليه.

٢- أن الذين قتلوا المشركين وأسروهم في غزوة بدر كانوا من صفوة المؤمنين، ولم يُؤْثَرْ عنهم أبداً أنهم قالوا عند أي مصيبة أصابتهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾؟! فهذا قولٌ يوحي بالهلع والجزع وضعف الإيمان وقلة الصبر ولا يتصور صدوره إلا ممن كان على مثل هذا الوضع. ومن يكون أولئك غير أهل النفاق؟

٣- أن السياقَ سياقُ لوم وتعنيف وتقريع ليكن تأويل: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ بحيث يتلاءم مع هذا السياق. نعم، كون مصيبة عدوهم مِثْلَي مصيبتهم قد يُهوِّن الخَطْب

---

(١) و (٢) تفسير الطبري: ٤/١٠٨.

ويورث السلوة، ولكنه مع ذلك ليس من الضرورة بحيث يوجب الملام والتقريع إذا لم يتسلَّ المرءُ ولم يتعزَّ بهذا الوضع.

هذه أمور تجعل الباحث يتردد في قبول ما ذهب إليه الإمام ابن جرير وغيره من أئمة التفسير، وتلح عليه بأن يبحث عن تأويل آخر يناسب المقام ويتلاءم مع السياق، ويكون سليماً من تلك الإشكالات.

فماذا يكون ذلك التأويل؟

إن التأمل في هذه الآية وما حولها يوحي إلينا أن الخطاب فيها موجّه إلى أهل النفاق الذين قد لعبوا دورهم في إفساد أمر المؤمنين، وجلبوا عليهم المصائب والمحن، ثم لما أصابتهم نفحة منها ضجوا وصاحوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا؟!﴾.

فقيل لهم: أنتم الذين صنعتم كذا وكذا مما جلب على إخوانكم ما جلب ولما أصابتكم مصيبة - وكنتم أنتم السبب فيها، وقد أصبتم إخوانكم مثليها، أي: أضعافها. قلتم: من أين هذا؟ إنما هو من عند أنفسكم وبشؤم صنيعكم.

ومما يسرنا أن من جلة المفسرين رحمهم الله من أشار إلى مثل هذا التأويل، فيقول مثلاً العلامة الألوسي - رحمه الله -: «أو أفعلتم ما فعلتم من الفشل والتنازع أو الخروج من المدينة والإلحاح على النبي ﷺ ولما أصابتكم غائلة ذلك قلتم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ وهذا على تقدير توجيه الإنكار لاستبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها»(١).

ويقول العلامة أبو السعود - رحمه الله -: «أو أفعلتم ما فعلتم ولما أصابتكم غائلته قلتم أنَّى هذا على توجيه الإنكار إلى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها»(٢).

ويقول الإمام الأخفش - رحمه الله -: «فهذه الألف ألف الاستفهام دخلت على واو العطف، كأنه قال: صنعتم كذا وكذا ولما أصابتكم، ثم أدخل على الواو ألف الاستفهام»(٣).

وسيزداد الأمر وضوحاً حين نتحدث عن نظم تلك الآيات، ونبين مناسبتها فيما بينها.

---

(١) روح المعاني: ٤/١١٥.
(٢) تفسير أبي السعود: ١/٤٤٢.
(٣) معاني القرآن للأخفش: ١/٢٢٠.

تأويل الآية (١٦٧):

ومما أشكل على الناس والتبس عليهم أمره قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾.

فيتلخص لنا من كلام ابن جرير مثلاً أن هذه الآية تشتمل على قصتين مختلفتين، فأول الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ يتصل بما حدث في أثناء المعركة، وبقية الآية تتصل بما حدث قبل نشوبها حين كان النبي ﷺ وأصحابه في طريقهم إلى أحد[١].

كما يتلخص لنا من كلام ابن عطية أن الآية كلها تتصل بقصة واحدة وهي قصة انخذال عبدالله بن أبيّ وأصحابه ورجوعهم إلى المدينة[٢].

فأما اتصال هذه الآية بقصة عبدالله بن أبيّ وأصحابه فنحن لا نسكن إليه من ناحيتين:

الأولى: أنه كان من كلام عبد الله بن أبيّ، لما همّ بالانخزال: (عصاني وأطاع الولدان ومَنْ لا رأيَ له. سيعلم ما ندري، عَلامَ نقتل أنفسنا؟ ارجعوا أيها الناس)[٣].

والروايات كلها تذكر كلامه هذا بهذا النص أو بما يشبهه ويقاربه.

فإنْ صح أنه قال حينئذ هذا الكلام، والقرائن كلها تجزم بأنه قال، فكيف نقبل أنه قال في نفس اللحظة كلاماً آخر لا ينسجم مع هذا الكلام ويختلف معه اختلافاً واضحاً في لونه وطبيعته وإيحاءاته وهو ما تذكره الآية: ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾، فالأول - كما لا يخفى - كلام عدوٍّ مُجاهرٍ مكاشر، بينما الثاني كلام صديق مراوغ مخادع، وشتان بينهما، وهيهات هيهات أن تجمعهما مناسبة واحدة.

إذاً فكلا الكلامين يرتبطان بمناسبتين مختلفتين ولكنه التبس الأمر على الرواة، فذكروهما بمناسبة واحدة.

---

(١) انظر تفسير الطبري: ٤/ ١١٠-١١١.

(٢) المحرر الوجيز: ٣/ ٢٩٠.

(٣) السيرة الحلبية: ٢/ ٤٩٤، وسيرة النبي لابن هشام: ٣/ ٥٨٤.

والناحية الثانية: أن السياق لا يقبل اتصال الآية بما حدث قبل التقاء الجمعين فإنها إنما جاءت لتبين حكمة ما أصاب المسلمين في ذلك اليوم، لا لتفصل ما حدث قبله.

إذاً فالإمام ابن جرير كان أقرب للصواب إذ ربط أول الآية بما حدث في ذلك اليوم، إلا أنه لم يثبت على هذا الموقف، بل ربط بقيتها بقصة عبد الله بن أبيّ، ويا حبّذا لو أنه ثبت على موقفه ذلك ولم يعدل عنه ما لم يكن هناك صارف يصرفه عنه.

فالذي يظهر لنا بعد التأمل في نظم الآية وسياقها هو أن هذا الحوار إنما جرى بين المؤمنين والمنافقين في أثناء المعركة.

وبيانه أن المؤمنين لما أفاقوا مما كانوا فيه - بعدما أنزل الله عليهم النعاس أمنة منه - والتفُّوا حول نبيهم ﷺ كَرُّوا على المشركين كرةَ رجلٍ واحد وحاولوا جهدهم ليتداركوا من الأمر ما فاتهم، وقد بينا ذلك فيما مضى وفصلناه، إلا أن المنافقين تجنبوا الحرب وقعدوا عنها فإنهم قد قضوا مهمتهم من تخذيل المسلمين وتثبيط هممهم وكانوا مطمئنين أن الأمر لن يعود إلى نصابه ولن يصلح من أمر النبي ﷺ وأصحابه ما فسد.

فلما قال لهم المؤمنون يحثّونهم ويحرّضوهم على القتال - وهم يظنّون أنهم منهم - ﴿ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ﴾، و(أو) هنا للترقي على حدّ قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات]، فيكون معناه: تعالوا قاتلوا المشركين. وليس القتال هو آخر الأمر، بل ادفعوهم واقمعوهم واستأصلوا شأفتهم.

فلما قال لهم المؤمنون ذلك، ردوا عليهم بقولهم: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾.

وكانوا يقصدون بكلامهم هذا أننا في حيرة عمياء، لا ندري كيف نقاتلهم بعدما سيطروا على الموقف سيطرة كاملة، وبعدما أمسكوا بأزمّة الأحداث بأيديهم، ولو كان بإمكاننا الآن أن نقاتلهم لاتبعناكم واستجبنا لدعوتكم، ولكن الأمر لم يعد يحتمل القتال!

فلم يكن جوابهم هذا رفضاً لدعوة المؤمنين فقط، بل كان في ذات الوقت تخذيلاً لهم وتثبيطاً لهممهم وتيئيساً لهم مما كانوا يَرجُونه من النصر، وإن كان يُوهِمُ بظاهره أنهم لم يقصروا شيئاً ولم يقعدوا عن القتال إلا لعجزهم عنه وإليه يشير قوله

تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

وعلى هذا فالآية كلها تتصل بما جرى في أثناء الحرب وتفصّل أن ما أصاب المسلمين فيها كيف كان اختباراً لهم، وتمييزاً بين المؤمنين منهم والمنافقين: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾.

ثم الذي قلناه لا يدل عليه نظمُ الآية وسياقها فحسب، بل يدل عليه أسلوبها كذلك.

وبيانه أن الله تعالى قال هنا: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكان يقتضي ذلك أن يقال بعده (وليعلم المنافقين) حتى يتم التشابه والجناس بين الجملتين، ولكن النص عدل عنه وجاء بالجملة الثانية على غير هذا الوجه، فقال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ فما هو السر في هذا الفرق؟

لقد حاول صاحب تفسير المنار أن يميط اللثام عن هذا السر فقال: «ولم يقل (المنافقين) كما قال (المؤمنين) لأن النفاق لم يكن صفةً ثابتة لهم كثبوتِ إيمان المؤمنين فإنّ منهم مَنْ تاب بعد ذلك وصدق في إيمانه»(١).

ولكن قوله - رحمه الله - لا يخلو من إشكال، وهو أنه إن كان الأمر كما قال فلماذا وردت كلمة (المنافقين) في الآيات التي نزلت قبل هذه الآية، مثل قوله تعالى في سورة العنكبوت وهي سورة مكية: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت].

أو كقوله تعالى في سورة الأنفال - وهي من السور التي نزلت قبل سورة آل عمران: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال].

إذاً فالأمر على غير ما أشار إليه.

والذي يظهر لنا في هذا الموضوع هو أن السياق أراد أن ينبّه هنا على ما جَدَّ وحدث يومئذ من مظاهر النفاق فذكرهم بصيغة تدل على حدوث نفاقهم وتُبرزهم للناس

(١) مختصر تفسير المنار: ١/ ٤٣٤.

وكأنهم يزاولونه في ساعتهم تلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ ثم فصّل ذلك النفاق الذي ظهر منهم: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟... إلخ﴾.

وأما المؤمنون فلم يذكرهم بصيغة تدل على الحدوث لأنه لم يكن القصد هنا إبراز مواقفهم التي تدل على حدوث إيمانهم، فكان أَوْلى أن يُذكروا بصيغة تدل على رسوخهم فيه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

تأويل الآيتين: (١٧٢-١٧٣):

وأيضاً مما التبس على الناس أمره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

فللناس في تأويل هاتين الآيتين ثلاثة مواقف فمنهم من أوّلَ الاثنتين إلى غزوة حمراء الأسد[1]، ومنهم من أوّل الأولى إلى غزوة حمراء الأسد والأخرى إلى غزوة بدر الصغرى[2]، ومنهم من أوّل الاثنتين إلى غزوة بدر الصغرى[3].

تلك ثلاثة مواقف، ولا رابع لها.

وحين يراها الباحث ويتأمل فيها، يسائل نفسه: الحديث، قبل الآيتين، كان يدور حول غزوة أحد وأحداثها، فما الذي يمنعنا من أن نؤولهما - كأخواتهما - إلى غزوة أحد وأحداثها؟

وهل هناك إشكال إذا قلنا: إنهما تعرضان أمامنا مشهداً جديداً من مشاهد تلك الغزوة نفسها، وهو مشهد يقابل ذلك المشهد الذي مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴿١٥٣﴾﴾؟

فإن كان هناك ناس يُصْعِدون ولا يلوون على أحد والرسول يدعوهم في أخراهم، فقد كان بإزائهم ناس آخرون قد استجابوا لدعوة الرسول أروع استجابة ولم يكادوا يسمعون نداءه ﷺ حتى طاروا إليه على ما بهم من قروح وجروح، وعلى رغم تخذيل المنافقين وتثبيطهم، حتى اجتمعوا حوله وَفَدَوْهُ بأنفسهم وأرواحهم، وسجلوا في تلك

---

(١) انظر تفسير الطبري: ٤/١١٦-١١٨.

(٢) انظر الكشاف للزمخشري: ١/٤٨٠.

(٣) انظر معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن: ١/٣٧٨-٣٧٩.

الساعة الحاسمة بطولات لا يكاد ينساها الزمان على ما مرّ عليها من قرون وقرون! ولا يكاد التاريخ يقابلها بأمثالها إلا ممّا سجلوه هم وإخوانهم بأيديهم!

ويمكن أن يستأنس لذلك بما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: نزلت هذه الآية فينا ثمانية عشر رجلاً ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ. . . الآية﴾[1].

فهذا العدد الذي ذكره ابن مسعود - رضي الله عنه - لا يمكن تأويله إلا إلى ما ذكرناه وإلا فالذين شهدوا غزوة حمراء الأسد أو غزوة بدر الصغرى كانوا أضعاف هذا العدد.

ويبدو أنه - رضي الله عنه - يعني بهذا العدد تلك الصفوة المختارة الذين ثبّتهم الله وربط على قلوبهم ووقاهم عدوى الفشل والإصعاد في حين اضطرابِ أمر المسلمين وتعكّر الجوّ عليهم، فهم ظلّوا على صمودهم واستقامتهم وكانوا أول من استجاب لدعوة الرسول - عليه السلام - حين دعاهم.

ثم لما أنزل الله عليهم النعاس أفاق المُصْعِدون وانتبهوا وتذكّروا ثم أسرعوا إلى رسولهم والتفوا حوله، ثم كان من شأنهم ما ذكرناه.

وبالجملة فالتأمل في نظم الآيات وسياقها يكشف لنا أن هاتين الآيتين تتصلان اتصالاً أولياً بغزوة أحد وأحداثها.

والاستجابة هي الاستجابة التي ظهرت في تلك الغزوة نفسها.

والمراد بالتثبيط والتخذيل اللذين تذكرهما الآيةُ الثانية هو ما كان يفعله المنافقون الذين صحبوا المؤمنين من أول أمرهم، وقد بيّنّا فيما مضى كيف أنهم لعبوا دورهم المشؤوم في تثبيط المؤمنين وتخذيلهم في أثناء الغزوة.

ويمكن أن نستأنس هنا بما قاله أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قيل له يوم أحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فأنزل الله هذه الآية[2].

ثم هذا التأويل لا يمنعنا، إذا أردنا أن نقول: إن الآيتين تشملان بعموم ألفاظهما ما حدث في كل من غزوة حمراء الأسد أو غزوة بدر الصغرى.

---

(١) الدر المنثور: ٢/ ٢٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٣٠.

قد يقال هنا، إذا كانت الآيتان ناظرتين إلى غزوة أحد وأحداثها وكانتا تتصلان بها اتصالاً أولياً فماذا نقول إذاً فيما يتلوها من قوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ فقد مسَّ الناس فيها محنة وبلاء ومسّهم فيها قرح وجرح، ولم يعودوا منها بشيء يُعتبر نعمة وفضلاً؟

فلنعلم أن المراد بالنعمة والفضل هنا هو في قوله تعالى في ذكر الشهداء: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ فليس المراد به أنهم لم يُؤذِهم أحد كما قيل، فالقرآن لا يسمي الأذى في سبيل الله سوءاً وإنما يسميها الحسنى، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة].

وإنما المراد به - فيما نرى - أنهم أدّوا واجبهم أحسن أداء، وقضوا ما عليهم من غير تفريط ولا تقصير، حتى لم يُثْنِهم عنه تجريح ولا تثبيط.

فالذي أدّى واجبه وقضى ما عليه يعتبر بعيداً من السوء، والذي فرّط فيه وقصّر، أو تهيّب من أدائه وتأخر يعتبر ممن مسّه السوء.

والعرب ما كانت تعزب عنهم هذه النكتة، كما يدل عليه قول قطريّ بن الفجاءة المازني حيث يقول:

لا يركنن أحد إلى الإحجام ... يوم الوغى متخوفاً لِحمام
فلقد أراني للرماح دريئة ... من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبت بما تحدّر من دمي ... أكنافَ سرجي أو عنان لجامي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ... جذع البصيرة قارح الأقدام[1]

فقوله: (ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب) على رغم ما تحدّر من دمه حتى خضب أكناف سرجه وعنان لجامه! لا يعبّر إلا عن المعنى الذي اخترناه في تأويل الآية.

فهؤلاء المؤمنون لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله وهذا الذي جعلهم ينقلبون بنعمة وفضل منه، ولو كانوا قد مسهم السوء لكانت النتيجة على العكس من ذلك.

---

(١) الحماسة لأبي تمام: ١/٨٧، رقم القصيدة (٢٠).

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مدح لهؤلاء المؤمنين وإشادة بحسن قيامهم بالواجب.

والجدير بالانتباه أن السياق لم يذكر هذه الزيادة - وهي: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ - في شأن الشهداء كما ذكرها في شأن هؤلاء المؤمنين، واقتصر هناك على ذكر استبشارهم بنعمةٍ من الله وفضلٍ، وذلك لأنهم بذلوا مهجهم في سبيل الله وأدّوا واجبهم أداء لا يدانيه أي أداء، وبذلك استغنوا عن أيّ مدح وأيّة إشادة، ولم يبق لهم إلا أن يتقلبوا في نعمة الله وفضله، ويُتَوَّجُوا بكرامته وحسن عطائه.

تأويل الآية (١٧٩):

وأيضاً مما أشكل على الناس والتبس عليهم أمره قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

فيقول - مثلاً - الإمام ابن عطية - رحمه الله - في تأويله: «واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾، فقال مجاهد وابن جريج وابن إسحاق وغيرهم: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما كان الله ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين مشكلاً أمرهم، يجري المنافق مجرى المؤمن، ولكنهم مُيِّزَ بعضُهم من بعض، بما ظهر من هؤلاء وهؤلاء في أُحد من الأفعال والأقوال، وقال قتادة والسدّي: الخطاب للكفار، والمعنى: حتى يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان والهجرة، وقال السدي وغيره: قال الكفار في بعض جدلهم: أنت يا محمد تزعم في الرجل منا أنه من أهل النار، وأنه إذا اتبعك من أهل الجنة، فكيف يصح هذا؟ ولكن أخبرنا بمن يؤمن منا وبمن يبقى على كفره.، فنزلت الآية، فقيل لهم: لا بد من التمييز - وما كان الله ليطلعكم على الغيب - فيمن يؤمن ولا فيمن يبقى كافراً، ولكن هذا رسول مجتبى فآمنوا به. فإن آمنتم نجوتم وكان لكم أجر. وأما مجاهد وابن جريج وأهل القول، فقولهم في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أنه في أمر - أُحد - أي ما كان الله ليطلعكم على أنكم تهزمون، فكنتم تعمون عن هذا. وأيضاً فما كان ليطلعكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسمية لهم، ولكن هذا بقرائن أفعالهم وأقوالهم في مثل هذا الموطن، وحتى في قوله ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ غاية مجردة، لأن الكلام قبلها معناه: الله يخلص ما بينكم بابتلائه وامتحانه حتى يميز، قال الزجاج وغيره: روي أن بعض الكفار قال: لم لا يكون جميعنا أنبياء؟

فنزلت هذه الآية»[1].

وأضاف الإمام الشوكاني - رحمه الله - إلى هذه الأقوال قولاً أخر فقال: «وقيل: الخطاب للمشركين. والمراد بالمؤمنين مَنْ في الأصلاب والأرحام، أي: ما كان الله لِيذَرَ أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم وبينهم»[2].

تلك عيون الأقاويل التي ذكرت لنا في تأويل هذه الآية. وهي تكفينا لإدراك ما واجه الناس من حيرة وكلال في تأويلها.

ويطول بنا الحديث إن أردنا أن نتناول كلاً من تلك الأقاويل بالبحث والنقاش إلا أننا سنذكر هنا نقاطاً يمكن أن تعتبر عياراً لها، ويمكن أن تُعرضَ عليها فيعرف ما فيها من قوة أو ضعف. وهي كما يلي:

١- إذا أمكن حمل الآية محملاً يربطها بما حولها فهو أولى وأفضل حتماً من أن نقول إنه كلام مستأنف، ولا صلة له بما قبله ولا بما بعده.

٢- الآيات قبل هذه الآية في ذكر المنافقين. وهذه في سياقتها فكونها بأن تكون فيهم أشبه منها بأن تكون في غيرهم. هكذا قال الإمام ابن جرير - رحمه الله -[3] وهي لفتة هامة لا بد أن ننتبه لها.

٣- هذه الآية - كأخواتها - نزلت بعد غزوة أحد. وتلك الغزوة قد هتكت أستار المنافقين وكشفتهم للناس كشفاً كما ينص عليه قوله تعالى في هذه الفقرة نفسها: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ . . . الآية﴾.

إلا أن مَيْزَ الخبيثِ من الطيب لم يحصل بعد إلى انقضاء تلك المعركة وإلى نزول تلك الآية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾.

وهذا يدل على أن كشف المنافقين شيء، وميزهم من المؤمنين شيء آخر.

٤- القرآن دائماً يعلّق الميز بالخبيث فيقول: حتى يميز الخبيث من الطيب، ولا يقول: حتى يميز الطيب من الخبيث. كما نرى في هذه الآية التي نتحدث عنها الآن،

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٣٠٤-٣٠٥.

(٢) فتح القدير: ١/ ٤٠٤.

(٣) تفسير الطبري: ٤/ ١٢٥.

وكما نرى في آية سورة الأنفال وهي قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال].

ومنه ما جاء في سورة يس حيث قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس].

ومنه ما ورد في حديث النبي ﷺ حيث قال: (مَنْ ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها).

إذا وضعنا في بالنا هذه الظاهرة ثم تأملنا في تلك الأمثلة بجوها وسياقها علمنا أن الميز لا يعني كشف الشيء وفرزه وعزله عن غيره فحسب، بل يتضمن معه معنى المَحْقِ والسحق والإبعاد والإهلاك، فإذا قيل: (حتى يميز الخبيث من الطيب) يكون معناه: حتى يمحق الخبيث ويزيله بعد إبانته من الطيب وإفرازه عنه.

تلك أربع نقاط يمكن أن نعرض عليها تلك الأقاويل ونعرف ما فيها من خلل وضعف.

وهنا يثور سؤال: فما هو تأويل هذه الآية؟

والذي يظهر لنا في تأويلها - بعد التأمل في سياقها - هو أنها جاءت تعزية وتسلية للمؤمنين على ما جلبه عليهم المنافقون في تلك الغزوة من شر وبلاء. فقيل لهم: ما يمكن أيها المؤمنون أن يَذَركم ربكم - وهو شديدُ الرأفة بكم - على هذه الحال التي أنتم عليها الآن، حيث أنكم تعانون من مكر هؤلاء المنافقين وكيدهم، فسيمحقهم الله ويلحقهم بمصيرهم، بعدما انكشف أمرهم وأسفر خبثهم.

ثم يجيب السياق على سؤال قد يختلج في صدورهم، وهو: إذا كانت رأفة الله بهم لا تقبل أن تذرهم على ما هم عليه. فلماذا لم يطلعهم مسبقاً على ما كان يخفيه المنافقون من الغشّ والكيد لهم، حتى يكونوا منهم على حذر وحتى لا يلاقوا ما لاقوه من عناء وعنت بسببهم؟ فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي: ليس من سنة الله أن يُطلعَ العبادَ على ما تشتمل عليه الصدور وتنطوي عليه الجوانح، بل يجتبي من رسله من يشاء. وذلك الرسول هو الذي يكون سبباً لانكشاف الناس، حيث أن المؤمنين المتقين يلازمونه في السراء والضراء، وأما المنافقون فهم لا يلبثون أن ينقشعوا عند الضراء.

ثم يهيب بهم السياق أن لا يجزعوا مما أصابهم وأن يظلوا مستمسكين بالإيمان والتقوى حتى ينالوا ما أعد لهم من حسن المثوبة وعظيم الأجر: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

وبعدما انتهينا من دراسة ما أشكل علينا من تلك الآيات نعود إليها مرة أخرى لنرى مناسبتها لما قبلها وفيما بينها.

لقد مر معنا في أواخر الفقرة السابقة قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾.

وهذا القول - إذا تأملنا فيه - يبين لنا أمرين:

١- أن النبي ﷺ وقف من تلك الطائفة - على الرغم من فشلهم وقعودهم - موقف اللطف واللين. وهذا اللطف واللين هو الذي جرأهم على أن يأتوا إليه ويقولوا له: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وكانوا يقصدون بقولهم - فيما نرى - أن النبي ﷺ استبد بالأمر ولم يقبل منهم رأيهم في البقاء في المدينة، وهذا الاستبداد بالرأي هو الذي جلب عليهم ما جلب ولو قبل منهم رأيهم لما صار المسلمون إلى ما صاروا إليه.

٢- إن قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾ كان يَشِي - فيما يشي به - باستماعهم إلى المنافقين وتأثرهم بما يوحون إليهم، فإنهم بقولهم هذا كانوا يضاهئون قولهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾.

فجاء السياق ينبههم في هذه الفقرة أن يحذروا هؤلاء المنافقين ولا ينخدعوا بمعسول كلامهم ولا يحسبوا أنهم حين يقولون لهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ فإنهم يقولونه بدافع النصح والمودة أو بباعثٍ من الحزن والشجا على موتهم أو قتلهم، وإنما يقولون ذلك لينكأوا قروحهم ويذرّوا الملح على جروحهم، ثم يثبّطوا هممهم ويفلّوا عزائمهم ويزيغوا بهم عن مغفرة الله ورحمته إلى سخطه وغضبه، فإن أعرضوا عنهم ولم يستمعوا لحديثهم يكن ذلك حسرة في قلوبهم وهم أنفسهم يكتوون بنارهم ويموتون بغيظهم.

وأما الغزو أو الضرب في الأرض فلا صلة لهما بالموت والحياة، فإن الموت

والحياة بيد الله وهو الذي يحكم لمن يشاء بما يشاء ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

هذه ناحية. ومن ناحية أخرى فإن القتل في سبيل الله أو الموت فيها لا يزيد المرء إلا سعاة ولا يُنيله إلا مغفرة ورحمة. إذاً فلماذا يتأخر المرء عن إحراز تلك السعادة ولماذا يتردد في نيل تلك المغفرة والرحمة؟ فالمغفرة والرحمة - ولا شك - خير مما يجمعون: ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

ومن ناحية أخرى، فإن الموت والقتل كليهما يؤديان إلى مكان واحد، إذاً فلماذا يخاف المرء من القتل؟ ولماذا يركن إلى أن يموت على الفراش موت البعير؟

﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

وهكذا يستمر السياق في تحذير المؤمنين من أعدائهم المنافقين ويستمر في توعيتهم وترشيدهم، ثم ينصرف إلى النبي ﷺ بسرعة عجيبة مدهشة.

﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ . . . ﴾ الآية.

فما هو السرّ في هذا الانصراف السريع العجيب؟

لقد علمنا آنفاً أنه - عليه الصلاة والسلام - قد عامل هؤلاء المؤمنين بالعطف واللين على الرغم من جبنهم وفشلهم وعلى الرغم من قعودهم عن نصرته والاستجابة لدعوته.

ولم يكن ذلك إلا لأنه - عليه الصلاة والسلام - قد جُبلَ على العطف واللين وإلا فذنبهم كان أشد وأفظع وكان حقيقاً بأن يترك على قلبه الكريم آثاراً من الحزن والأسى. وبالتالي كان الموقف يقتضي أن يتبع ذلك ما يمسح عن قلبه ذلك الأسى، ويسكب عليه برد العزاء.

إلا أنه كان من مقتضى الموقف كذلك أن يُعاجلَ هؤلاء القاعدون بالتنبيه والتوجيه والترشيد بدون تأجيل ولا تأخير.

فجمع السياق بين المقصدين بأن تناول القاعدين أولاً بما يلزمهم ثم انتقل إلى تعزيته - عليه السلام - وتسليته بأسلوب يتدارك هذا التأخير فقال: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾.

فهذه (الفاء) تطوي تلك المسافة كلها، التي تحول بين الموقف وبين تلك التعزية، وتربطها بمتعلقها بسرعة عجيبة مدهشة.

وكم نهتزّ لروعة هذا الانتقال وبراعته حين نضع في اعتبارنا تلك الآية التي سبقت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فقد جعل السياق من هذه (الرحمة) التي تذكرها هذه الآية معبرة لطيفة للانتقال إلى (رحمة) أخرى تتضمن له - عليه السلام - عزاء وسلوى حيث قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، أي: كان من خالص رحمة الله عليك أيها النبي، أنه جعلك ليناً لهم فإنك لو غلظت عليهم وقسوت لكانوا قد انفضُّوا من حولك، وهذا أمر لم تكن لترضى به أبداً. فإنه لا أقرّ لعينك من أن يستقيموا على الحق. فطالما أنك لنت لهم بخالص رحمة الله عليك، فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر.

ولقد أشكل على الناس قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وتحيروا في حكمة هذا الأمر في هذا السياق[١].

ومنشأ الحيرة أنهم لم يُنعموا النظر في جو هذا الأمر وسياقه.

والذي يظهر لنا بعد التأمل فيه هو أنه جاء تكميلاً لمعنى العفو، فإنه لا يتم العفو عنهم إلا إذا عادت العلاقات معهم كما كانت قبل حدوث هذا التقصير، فأُمرَ - عليه السلام - بأن يستغفر لهم الآن، كما كان يستغفر لهم سابقاً، ويشاورهم الآن كما كان يشاورهم سابقاً.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

يقول الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله: «وأما قوله: فإذا عزمت فتوكل على الله فإنه يعني فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك وتدع وتحاول أو تزاول على ربك فثقْ به في كل ذلك وارضَ بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم، فإن الله يحب المتوكلين وهم الراضون بقضائه، والمستسلمون لحكمه فيهم، وافقَ ذلك

(١) انظر - مثلاً - الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٥٠.

منهم هوى أو خالفه»[1].

وعلى هذا فيكون هذا القول رداً لتلك الطائفة الذين أهمّتهم أنفسهم، حيث قالوا: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ؟﴾ وقالوا: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ ويكون إقراراً لما فعله - عليه السلام - حيث خالف رأيهم، بعدما ظهر له الحق، وخرج إلى أُحد متوكلاً على الله، ولم يعبأ بخلاف مَنْ خالفه في ذلك.

ويكون تبييناً لمعنى ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ فإن الأمر بمشاورتهم في الأمر لا يعني أن يكون - عليه السلام - ملزماً برأيهم حتى يسخطوا عليه ويرموه بالاستبداد بالرأي إذا لم ينزل عند رأيهم، وحتى يحمّلوه مسؤولية العواقب كلها، على رغم كونها نتيجة محضة لسوء تصرفهم هم، كما فعلوه في هذه الغزوة.

وهم من الأوهام الشائعة:

وهنا نود أن ننبه إلى وهم من الأوهام الشائعة في الناس، وهو أن النبي ﷺ كان يرى ما يراه عبد الله بن أبيّ وأصحابه من المكث في المدينة، وإنما خرج - عليه السلام - إلى أحد بعدما اشتدّ إلحاحُ أصحابه عليه.

فهذا أمر لا يقبله إلا من ذهل عن سياق الآيات، وإلا فالآيات تذهب بنا إلى غير هذا القول، وتوحي إلينا بأنه - عليه السلام - لم يخرج إلى أُحد إلا بعد ما اجتمع عليه رأيه ورأي جلّة أصحابه. وإنما الضعفاء والمنافقون هم الذين كانوا يرون المكث في داخل المدينة حتى يكونوا في أمنٍ ودَعة وحتى لا يفاجأوا بما يكرهونه من سوء وأذى.

هذا الذي يظهر لنا من هذه الآية التي نتحدث عنها الآن من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهذا الذي يظهر لنا من قول ضعفاء المؤمنين: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ ويظهر من قولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ ويظهر من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ . . .﴾ الآية، كما سنبينه.

ومما يسرّنا أن سماحة الأستاذ أمين أحسن ممن سبقنا إلى هذا الرأي حيث يقول: «تذكر لنا كتب السيرة والتاريخ أنه - عليه السلام - كان يرى - مع مَنْ يرى - أن يتحصّن بالمدينة ويكافح العدو من داخلها إلا أن المتحمّسين من أصحابه ألحوا عليه

---

(١) تفسير الطبري: ٤/ ١٠١.

واستكرهوه على الخروج. وهذه حكاية ليس لها سندٌ من الواقع.

فالواقع أنه - عليه السلام - لما طرح الموضوع أمام الجماهير احتفظ برأيه الخاص، حتى يبدي كل ذي رأي رأيه بدون تحفظ ولا تردد.

وكان القصد منه أن يبلو أخبار الناس ويبلو هممهم، حتى يكون على بيّنة من معنويّات الجيش ومشاعرهم قبل أن يقحمهم في المعركة.

فتعصّب عبد الله بن أبيّ وأصحابه للبقاء في المدينة والتحصّن بها وجنح جلّة أصحابه للخروج منها.

فلما تأكد لديه - عليه السلام - ما عليه أصحابهُ من قوةٍ وتحمّس أو ضعف وتقاعس دخل بيته ثم خرج بعدما لبس لأمته وتقلّد سلاحه.

وكان هذا إيذاناً بأن الرأي هو رأي الخروج إلى العدو، فَخُيّلَ إلى بعض أصحابه - ولم يكن ذلك إلا نتيجة لتورعهم - أنه عليه السلام ربما جنح لهذا الرأي لشدة تحمّسهم وإلحاحهم عليه، فاعتذروا لذلك وأرادوا أن يسحبوا رأيهم ويَكِلُوا الأمر إليه - عليه السلام -.

فقال - عليه السلام -: (ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأْمتهُ أن يضعَها حتى يحكمَ الله بينه وبين عدوه)[1].

أي: لن ننثني عن هذا الرأي بعدما عزمنا عليه.

فلما رأى عبدالله بن أبيّ وأصحابه أنه لم يقبل رأيهم انخذلوا وارتدّوا على أعقابهم خاسرين.

ولا يغيبنّ عن بالنا أنه - عليه السلام - كان من عادته، كلما أراد أن يخرج بهم إلى غزوة ذات خطر، أن يستكشف رأي أصحابه ويستطلع ما عندهم بمختلف الأساليب.

ولقد فعل كذلك بمناسبة بدر. وبتلك المناسبة قال رئيس من رؤساء الأنصار كلمة رائعة لا زالت - ولا تزال - ترن في أذن الدهر[2].

---

(١) زاد المعاد: ٣/٢٩٣.

(٢) تدبر قرآن: ٢/٢٠٩.

هذا ما يراه سماحة الأستاذ أمين أحسن في هذا الموضوع، ولا شك أنه تحليل أدق وأروع مما نجده عند الآخرين، وأقرب لسياق الآيات وأوفق لطبيعة الموقف مما تذكره كتب السيرة والتاريخ.

والمقام لا يسمح لنا بأن نُطيلَ الوقوف هنا أكثر مما فعلنا، فنرجع إلى حديثنا السابق فنقول: بعدما انتهى السياق من توجيه النبي ﷺ إلى التوكل على الله بعد انعقاد العزم على شيء أقبل إلى الناس يعلمهم سرّ الغلب والهزيمة فقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ليس النصر مرهوناً بما ترونه من الرأي حتى تتعصّبوا له وتُرجِعوا الأحداثَ كلها إلى أنه لم يقبل منكم رأيكم، فالنصر يأتي من عند الله، ولا سبيل إليه إلا أن تواكبوا النبيَّ وتساندوه فيما انعقد عزمه عليه متوكلين على الله. وأما إذا اعتمدتم على رأيكم فرأيكم لا يُنيلكم النصرَ إنْ حبسه الله عنكم وخذلكم وعدوكم.

الفرق بين الأسلوبين:

ومما يجدر بالذكر أن الناس لم ينتبهوا للفرق بين أسلوبي الجملتين، وهما:

وقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

ومن هنا لم يفرّقوا بين مدلوليهما وأوّلوهما تأويلاً واحداً. فيقول - مثلاً - الإمام الزمخشري - رحمه الله -: «﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه ونحوه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴿٢﴾﴾»(١).

ويقول الإمام أبو حيان - رحمه الله -: «هذا التفات إذ هو خروج من غيبة إلى الخطاب، ولما أمره بمشاورتهم وبالتوكل عليه أوضح أن ما صدر من النصر أو الخذلان إنما هو راجع لما يشاء وأنه متى نصرَكم لا يمكن أن يغلبكم أحد ومتى خذَلكم فلا ناصرَ لكم. فما وقع لكم من النصر أو حلَّ بكم من الخذلان كيومي بدر

(١) الكشاف: ١/٤٧٨.

وأُحد فبمشيئته»[١].

فنرى هذين الإمامين لم يتنبها للفرق بين دلالة الأسلوبين وأوّلا الجملتين وكأنهما وردتا على أسلوب واحد.

فهل الأمر هكذا؟ وإن كان هكذا فلماذا فرّق السياق بين الجملتين؟ ولماذا لم يوردهما على أسلوب واحد فيقول: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فلا ناصر لكم) على نحو قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴿٢﴾﴾ [فاطر].

فإن كان السياق قد فرّق بين الجملتين ولم يوردهما على أسلوب واحد كما أورد الآية التي أشرنا إليها من سورة فاطر، فلا بد أن يكون هناك فرق بين دلالة الأسلوبين فما هو ذلك الفرق؟

الفرق بين دلالتهما - فيما نرى - هو أن الأسلوب الأول يحتمل تحقق الشرط وما يترتب عليه في الوقت الحاضر والغابر كما يحتمل تحققه في المستقبل، بخلاف الثاني، فإنه يفيد عدم تحققه في الوقت الحاضر مع إمكان تحققه في المستقبل.

أما دلالة الأول فهي مفهومة معلومة ولا إشكال فيها.

وأما دلالة الثاني، فيمكن استيعابها إذا وضعنا في اعتبارنا قوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك].

فهاتان الآيتان شبيهتان في أسلوبهما بالشطر الثاني من الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

وعلى هذا يَسَعنا أن نقيس الموضعين أحدهما على الآخر، ونقول: كما أن الخذلان وإمساك الرزق لم يتحققا إلى الوقت الذي نزلت فيه الآيتان من سورة الملك مع إمكان تحققهما فيما بعد إذا اقتضى الأمر.

كذلك لم يتحقق الخذلان إلى الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية من سورة آل عمران مع إمكان تحققه فيما بعد إذا اقتضى الأمر.

---

(١) البحر المحيط: ٣/١٠٠.

ومن هنا لا يستقيم القول بأن المؤمنين نُصروا يوم بدر وخُذلوا يوم أحد، فأسلوب الآية يأبى هذا القول، وما ذهبَ إليه من ذهب إلا لغفلته عن هذا الأسلوب.

وبعد هذا الإيضاح نعود إلى حديثنا، فنقول: إن هذه الآية تذكّر المؤمنين سرّ الغلب والهزيمة وتبيّن لهم أن مفتاح النصر هو التوكل على الله فعليهم أن يتوكلوا عليه ويكونوا طَوعاً لنبيه ورهناً لإشارته إذا دعاهم إلى أمر قد عزم عليه.

ثم يعرج الكلام بمناسبة السياق إلى تفنيد شبهة كان يزرعها المنافقون في قلوب هؤلاء المؤمنين حيث كانوا يقولون لهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ والتي قد بدأت تَحيكُ في صدورهم وتختلجُ في نفوسهم كما يظهر من قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

وبيان تلك الشبهة - وقد مضت الإشارة إليها في أثناء حديثنا عن معنى الغلول - أن المنافقين حاولوا جهدهم - بعدما اضطرب حبل المؤمنين في غزوة أحد - أن يقذفوا في روعهم أن هذا الرجل الذي ائتمنّاه على أمرنا وملّكناه نواصينا، ليس لنا ناصحاً، ولو كان لنا ناصحاً لما رمانا في هذه الورطة ولما استبدّ برأيه دون رأينا مع أن الصواب كان معنا، وكانت المصلحة فيما رأينا.

فتناول السياق هنا تلك الشبهة بالردّ والتفنيد، فإن التوكل على الله والمسارعة إلى طاعة النبي ﷺ شبه مستحيل ما دامت هذه الشبهة تختلج في النفوس، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

ولقد أسلفنا تأويل هذه الآيات في أثناء حديثنا عن معنى الغلول.

إلا أن الجدير بالذكر أن هذه الآيات لا تفيد نزاهة ساحة النبي عن الغلول فحسب بل تفيد بنظمها وأسلوبها أن الذين يتّهمون النبي به، هم الذين يملأ إهابهم الغلُّ، ويسود تصرّفاتهم الغلول، وسينكشف ذلك يوم القيامة، ثم يُساقون إلى جهنم، فإن الله لن يجعل مَن اتبع رضوانه - وهم النبي وأصحابه - كمن باء بسخط منه - وهم المنافقون وأصحابهم - وستختلف درجاتهم عند الله. والله بصير بما يعملون، فسيوفيهم جزاءهم غير منقوص!

وبعد هذا الوعيد وهذا التهديد على تشكيك المؤمنين في نُصح النبي ومودته وأمانته

جاء السياق بحجة ساطعة قاطعة على نزاهة ساحته - صلوات الله عليه - عن الغلول وكونه نصحاً محضاً ونعمة مهداة للمؤمنين، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فالرسول من أنفسهم وهم يعرفونه من أول يومه ويعرفون صدقه وأمانته ونصحه وحنانه كما يعرفون أبناءهم!

ثم هذا الرسول جاء إليهم بأكبر نعمة تحت أديم السماء، وهي آيات الله!

ثم ليس له همّ ولا وَسنٌ إلا أن يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم وقد علّمهم فعلاً وطهرهم وزكاهم بعدما كانوا يتيهون في ضلال ليس بعده ضلال!

فإن لم يوجد النصح والأمانة عند من يتمتع بهذه المزايا فعند من يوجد إذاً؟!!

وبعد إقامة الحجة على نصح النبي وأمانته، يتوجه السياق إلى المنافقين ليهدم أساسهم الذي بنوا عليه هذه الفتنة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

أي: هذه المصيبة التي أصابتكم لم تُصبكم بصنيع هذا النبي، حتى تتّهموه في رأيه وصنيعه، وتشكّوا في نصحه وأمانته، ثم ترموه بالغلول وإرادة السوء، فإن الذي أصابكم إنما أصابكم من عند أنفسكم. فأنتم الذين جلبتم على أنفسكم هذه المصيبة وجلبتم على إخوانكم أضعاف ما جلبتم على أنفسكم! فالمسؤولية كلها تقع على أعناقكم وليس على عنق هذا النبي!

ثم الذي أصابكم إنما أصابكم بإذن الله حتى يهتك سِتركم ويكشف مساوئكم ويظهر للناس ما تنطوي عليه جوانحكم من الكفر والنفاق، فقد تهتّك ستركم وانكشفت مساوئكم وظهر للناس كفركم ونفاقكم!

ثم بمناسبة قول المنافقين لإخوانهم الذين قتلوا في تلك المعركة: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ يستطرد السياق إلى ذكر هؤلاء المقتولين.

وبما أنهم كانوا يذكرونهم بأسلوب يشعر كأنهم كانوا سفهاء إذا لم يُصيخوا إلى نصحهم ومشورتهم ولو أنهم أصاخوا إلى نصحهم ومشورتهم لما لقوا هذا المصير البائس الذي يرثى له!

ولم يكونوا يقصدون بتلك الكلمات أن يشاركوا أهليهم في حزنهم وتفجعهم، بل كانوا يقصدون بها أن يوجعوهم ويُذْكوا في نفوسهم نار الأسى والحزن على تعاسة حظهم! ثم يثبطوا هممهم ويفلّوا عزائمهم.

فالقرآن يقابل أسلوبهم هذا بأسلوب يبطل كيدهم، ويعطي القضية لوناً آخر. إنه يذكرهم بأسلوب يُدخل البِشْرَ والسعادة في نفوس أهليهم وذويهم، ويجعلهم يشعرون كأنهم هم المحظوظون المجدودون دون الآخرين: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

فيا لها من صورة وضيئة رفيعة عالية شفيفة مشرقة.

وهل يشعر المرء، إذا نظر في هذه الصورة الشفيفة المشرقة أنهم ماتوا وهلكوا؟!

كلا! إنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وفي نعمته وفضله يتقلّبون وينعمون!

ومما يزيد في روعة هذه الصورة أنها تضم إلى هؤلاء الشهداء إخوانهم الذين كانوا معهم في حربهم ونضالهم، وقد أبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن عقيدتهم، إلا أنهم لم يقدّر لهم أن يشربوا كأس الشهادة معهم، فهي تضمّهم إليهم وتُلحقهم بهم في أجرهم: ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

فكأن هذه الآيات تفتح نافذة من نوافذ الجنة ينظر منها المجاهدون إلى مقاعدهم منها، وهم يمشون على الأرض!

وأيم الله تلك ميزة لم يذكرها النص لأحد غير هؤلاء الأبطال الأبرار، الذين سجّلوا ذكريات بِرّهم وبطولتهم في صفحات (أُحد)!

ويستمر السياق في مدح المجاهدين ويستمر في الإشادة بحسن بلائهم في الحرب: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟

﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

ولقد أسلفنا الكلام على هذه الآيات بما فيه كفاية بإذن الله.

والجدير بالذكر أن هذه الآيات (١٦٩-١٧٤) إنما جاءت اعتراضاً بمناسبة قول المنافقين لإخوانهم الذين قتلوا في الحرب: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ وقد سبق أن أشرنا إليه.

ثم يعود الكلام إلى ما كان فيه من ذكر المنافقين، إلا أن هذا العود على البدء أو هذه النقلة من موضوع إلى موضوع تتم بسرعة وبطريقة عجيبة لا ينتبه لها القارىء إلا بعد حين.

فقد جعل السياق قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ مناسبة طيبة للتخلص من هذا الموضوع إلى موضوع آخر، فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ثم يستمرّ الكلام في توعدهم بما ينتظرهم من عذاب عظيم وعذاب أليم وعذاب مهين، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

وهذه الآيات تصور لنا ضخامة الجهد الذي بذله المنافقون في إلحاق الضرر بالمؤمنين في غزوة أحد.

ثم يقبل السياق إلى المؤمنين يثبّتهم على الإيمان والتقوى ويطمئنهم أن الله لن يذرهم هكذا يعانون من المنافقين بل سيمحقهم ويريحهم منهم: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

ولقد أشبعنا الكلام على هذه الآية فيما مضى.

* * *

هذا ما تيسر لنا في تأويل تلك الآيات وفي بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى ونشكره على حسن توفيقه، ثم نستأنف المسير، والله الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

نظم الآيات (١٨٠-١٨٩)

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

* * *

قبل أن نأخذ في البحث عن نظام تلك الآيات نود أن تكون لنا وقفة عند الآيتين الأوليين منها، فإنهما ما زالتا بحاجة إلى بحث ودراسة جادة على كثرة ما درسهما الدارسون وبحثهما الباحثون.

تأويل الآية (١٨٠):

أما الآية الأولى فيقول ابن عطية - رحمه الله - في تأويلها: «وقال السدي وجماعة من المتأولين: الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ونحو ذلك، وقال ابن عباس: الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علّمهم الله من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل التفسير»[١].

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٣٠٥.

فللعلماء في تأويل الآية مذهبان، كما ذكره ابن عطية وكما ذكره غيره من أعلام التفسير.

إلا أن المذهب الأول هو الذي حظي بالقبول والتأييد عند أكثرهم كما يظهر من كلامهم. وإن كان المذهب الثاني هو المذهب الراجح من عدة وجوه، وهي كما يلي:

١- المذهب الثاني أشد مناسبة لسياق الآية وجوّها الذي وردت فيه، بخلاف الأول، فإنه يجعل الآية غريبةً في جاراتها مقطوعةً عن سياقها. وسنبين ذلك فيما بعد، حين نتحدث عن نظم الآيات ومناسبتها لما قبلها وفيما بينها.

٢- كل كلمة وكل صيغة تكون لها طبيعة خاصة ودلالة خاصة والقرآن يراعيها بمنتهى الدقة، فلنحرص نحن أيضاً على مراعاتها في تأويل آياته واستنباط معانيه.

فلنضع في بالنا، إذا أردنا تأويل هذه الآية، أن القرآن لا يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ إلا في سياق أعداء الله، كما نرى في هاتين الآيتين، ما عدا هذه الآية التي نتحدث عنها:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال].

٣- لقد تناول القرآن موضوع كنز المال وعدم إنفاقه في سبيل الله في موضع آخر، فذكر هناك عقوبة غير هذه العقوبة التي ذكرت في هذه الآية، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة].

فالذي يظهر بعد التأمل في الموضعين أن آية سورة التوبة تذكر جزاء البخل بالمال بينما سورة آل عمران تذكر جزاء البخل بالعلم. فالذي يبخل بالعلم يُطوَّقُ ما بخلَ به يوم القيامة. ولقد صرح به النبي ﷺ في حديث رواه أبو هريرة، حيث قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفحتْ له صفائحُ من نار، فأُحمي عليهم في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه

وظهره، كلما ردّت أُعيدت له في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله: إما إلى الجنة وإما إلى النار)[١].

٤- هذه السورة لم تتناول موضع الإنفاق في سبيل الله البتة، فتكون الآية مفاجأة محضة إذا ذهبنا في تأويلها المذهب الأول وقلنا إنها جاءت تتوعد الذين يمنعون الزكاة ويكنزون المال، بخلاف ما إذا أوّلناها إلى بُخْلِ أهل الكتاب بالعلم الذي ائتمنوا عليه وكُلّفوا بتبيينه للناس، فإنه ينسجم تماماً مع الجو العام الذي يسود هذه السورة.

وبالجملة فتلك أربعة أسباب رئيسة تجعلنا نميل في تأويل الآية إلى المذهب الثاني دون الأول، وإن كان في الناس من يرى الأول هو الأوجه والأفضل.

* * *

تأويل الآية (١٨١):

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ. . .﴾.

فيقول ابن عطية - رحمه الله - في تأويلها: «وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت بسبب فنحاص اليهودي، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى بيت المدراس ليدعوهم، فوجد فيه جماعة من اليهود قد اجتمعوا على فنحاص - وهو حَبْرهم - فقال أبو بكر له: يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من حاجة وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً لما استقرَضَنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، في كلامٍ طويل غضب أبو بكر منه، فرفع يده فلطم وجه فنحاص وسبّه وهمّ بقتله، ثم منعه من ذلك أنّ رسولَ الله ﷺ قال له: (لا تحدث شيئاً حتى تنصرف إليّ)، ثم ذهب فنحاص إلى النبي ﷺ فشكا فِعْلَ أبي بكر، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: (ما حملك على ما صنعت؟) قال: يا رسول الله! إنه قال قولاً عظيماً فلم أملك نفسي أنْ صنعتُ ما صنعت، فنزلت الآية في ذلك.

وقال قتادة: نزلت الآية في حيي بن أخطب، وذلك أنه لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة: ٢/ ٦٨٠.

﴿ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة] قال: يستقرضنا ربنا؟ إنما يستقرض الفقير من الغني. وقال الحسن بن أبي الحسن ومعمر وقتادة أيضاً وغيرهم: لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية، قالت اليهود: إنما يستقرض الفقير من الغني، ولا محالة أن هذا قول صدر أولاً عن فنحاص وحيي وأشباههما من الأحبار، ثم تقاولها اليهود، وهو قول يغلط به الأتباع، ومَنْ لا علمَ عنده بمقاصد الكلام، وهذا تحريف اليهود التأويل على نحو ما صنعوا في توراتهم. وقوله تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ دالٌّ على أنهم جماعة»[1].

هذا ما يراه ابن عطية في تأويل هذه الآية.

وهذا هو التأويل المفضل عند كثير من الناس.

إلا أن الباحث إذا تأمل في هذا التأويل وجد نفسه أمام عدة إشكالات، منها:

١- أن قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ خطاب عام يتوجه إلى الجميع، وليس خطاباً موجهاً إلى اليهود خاصة، بل ليس موجّهاً إليهم أصلاً، وإنما هو موجّه إلى جماعة المؤمنين. فكيف يصحّ إذاً أن يقول اليهود رداً عليه: (يستقرضنا ربنا؟) كما هو مذكور في الرواية.

٢- ثم ما وجه قولهم في هذا التأويل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ فقد كان المفروض أن يقولوا - إذا كانوا قائلين لا محالة -: (إن الله فقير وعباده أغنياء) أما التركيز على (نحن) وحصر الغنى على أنفسهم دون سائر الناس، فهذا أمر لا يظهر له وجه في هذا التأويل.

٣- إن قولهم هذا قد عطف عليه قتلهم الأنبياء حيث قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فإن كان العطف من شأنه المناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه فما هي المناسبة بين هذين الأمرين؟

وأما القول بأنهما في العِظَم أخوان (كما قاله الزمخشري[2] والألوسي[3]) أو ما شابه ذلك فلا يخفى ما فيه من تكلف.

٤- تذكر الروايات أنهم قالوا ما قالوه بمرأى ومسمع من المؤمنين، ولكن الآية تشير

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/٣٠٦-٣٠٧.

(٢) الكشاف: ١/٤٧٤.

(٣) روح المعاني: ٤/١٤١.

بلفظها وعبارتها أنهم ما قالوه إلا في مجالسهم الخاصة وهم يحسبون أنه سيبقى سراً فيما بينهم، فقد جاءت الآية على نمط قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة].

وقد روي عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: (الحمد لله الذي وَسِعَ سمعهُ الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، لا أسمع ما تقول، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية[1].

فتبيَّنُ لنا هذه الآية بسبب نزولها طبيعةَ قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ أو ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ حيث أن القرآن لا يستعمله إلا في سياق النجوى حيث يظن القائل أن كلامه لا يسمعه إلا من يناجيه.

بل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ آكدُ في هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ لدخول لام القسم عليه.

وهذا التأكيد يفيد أن اليهود قالوا قولتهم هذه في مجالسهم الخاصة المغلقة وهم واثقون تماماً أنها لن تجاوز الآذان التي تستمع إليهم. فقُرِّعُوا بأن الله قد سمعها سماعاً قطعياً لا مجال فيه للشك، فهي ستُكتبُ عنده وهم سيذوقون وبالها.

وبالجملة فهذه أربعة أمور تصرفنا عن المذهب الذي ذهب إليه الإمام ابن عطية وغيره في تأويل هذه الآية.

تأويل الآية بنظائرها:

إذاً فما هو تأويلها؟

إن تأويلها سيكون واضحاً شاخصاً بإذن الله إذا وضعنا في اعتبارنا أشباهها ونظائرها في كتاب الله. فقد جاءت مثل هذه الآية في سورة فاطر، حيث قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

وكذلك قوله تعالى في سورة محمد: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٦/٤٦.

فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

فمن الواضح المعلوم أن (الفقراء) في الموضعين لم يُستعمل بمعنى قليلِ المال أو خفيف ذات اليد، كما أن (الغنى) لم يستعمل بمعنى صاحب الثراء الواسع، والمال الممدود.

فالقرآن نفسه يبيّن لنا معنى الغنى والفقر ويبيّن قصده من ذكرهما، حيث قال في الموضع الأول بعد ذكر غنى الله وذكر افتقار الناس إليه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

وقال في الموضع الثاني: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾.

يقول الإمام أبو حيان - رحمه الله - وهو يفسر آية سورة فاطر: «هذه آية موعظة وتذكير وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم لا يستغني أحد عنه طرفة عين وهو الغني عن العالم على الإطلاق وعرّفَ الفقراء ليريهم شديد افتقارهم إليه إذ هم جنس الفقراء وإن كان العالم بأسره مفتقراً إليه فلضعفهم جُعلوا كأنهم جميع هذا الجنس ولو نكّر لكان المعنى أنتم من الفقراء وقوبل الفقراء بالغنى ووصف بالحميد دلالةً على أنه جواد منعم فهو محمود على ما يسديه من النعم مستحق للحمد، ولما ذكر أنه الغني على الإطلاق ذكر ما يدل على استغنائه عن العالم وأنه ليس بمحتاج إليهم، فقال: إن يشأ يُذهبكم، أي: إن يشأ إذهابكم يذهبكم وفي هذا وعيد بإهلاكهم»[1].

ولا بأس بأن نشير هنا إلى نكتة هامّة تناسب المقام، ولم يشر إليها أبو حيان، وهي أن الآية تفيد بسياقها أن الله حين يرسل رسله إلى عباده ويدعوهم إلى عبادته وطاعته فإنه لا يفعله عن حاجةٍ وافتقار إليهم بل يفعل ما يفعل رأفة بهم وشفقة عليهم وإلا فهو غني عنهم وقادر على إهلاكهم وقادر على إنشاء قوم آخرين خير منهم، فليفيقوا من غفلتهم وليحذروا أن يصيبهم وبالُ كفرهم وإعراضهم.

فهذه الآية وأمثالها تكون من قبيل الإنذار والتحذير ولقد وجه مثل هذا الإنذار والتحذير إلى أهل الكتاب في سورتنا هذه، حيث قال تعالى بعد ما أزاح الستر عن

---

(١) البحر المحيط: ٧/٣٠٧.

كفرهم وكتمانهم للحق: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران].

ولقد كان من واجب أهل الكتاب أن ينتبهوا من سكرتهم بعد هذا التحذير ولكنهم لجّوا في عتوهم واستكبارهم.

وبلغ منهم العتوّ والاستكبار إلى حدّ الاستهتار فجعلوا يسخرون من هذا التحذير في مجالسهم وقالوا لأتباعهم وعملائهم بكل وقاحة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

وكأنهم كانوا يقصدون بذلك أن الله لن يستغني عنهم وإن كان يتوعدهم ويسخط عليهم، فإنه لن يجد قوماً يقومون مقامهم ويسدّون فراغهم، وبالتالي سيضطرّ إلى أن يُرضيهم ويعيدَ إليهم شرفهم وكرامتهم - قاتلهم الله!

ولعلهم لم يحملهم على هذا الغرور إلا أن الله طوّل لهم وأرخى لهم حبلهم، وأبقى فيهم الرسالة والنبوة لمدة قرون على الرغم من عُتوِّهم ونفورهم وعلى الرغم من قتلهم الأنبياء بغير حق.

فزعموا أن استمرار الرسالات فيهم مع شناعة موقفهم منها ومن أصحابها لم تكن إلا لخيريّتهم وتفوّقهم على سائر الأمم.

إذاً فهي من حقهم واختصاصهم وستعاد إليهم كما كانت فيهم!!

كان هذا تفكيرهم. وهذا التفكير هو الذي حملهم على أن يجنّدوا طاقاتهم لمحاربة هذه النبوة المباركة وحملَهم على أن يصلوا ليلهم بنهارهم بمكرهم وكيدهم وعدائهم لهذه الأمة الناشئة المسلمة، وحملهم على أن يقولوا لأتباعهم وعساكرهم بكل وقاحة وسوء أدب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

إذاً فموقفهم هذا وقولهم هذا لم يكن إلا امتداداً لموقفهم القديم من رسلهم وأنبيائهم. ومن هنا جمعهما القرآن في الوعيد والتهديد، فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها وفيما بينها:

وبعدما انتهينا من دراسة هاتين الآيتين وعرفنا صحيح تأويلهما، نرجع إلى تلك المجموعة من الآيات لنبيّن مناسبتها لما قبلها وفيما بينها.

لقد رأينا في الفقرة السابقة كيف أثار المنافقون شبهات حول شخصية النبي ﷺ

وأرادوا أن ينفّروا المسلمين منه، ويزعزعوا ثقتهم به، فاتّهموه في رأيه وتدبيره واتّهموه في صدقه ونصحه وأمانته، وتأخّروا عن نُصرته وحمايته في ساعة العسرة والحرج وحاولوا جهدهم ليثبّطوا المؤمنين وليصرفوهم عنه كما انصرفوا هم عنه ﷺ.

ثم رأينا السياق كيف تناول موقفهم هذا بالتفنيد والتنديد والتهديد، وختم الحديث عنهم بأنهم سيذوقون وبال أمرهم وسينالهم ما قدّر لهم من المحق والسحق والهلاك، ثم سيسلمون لما ينتظرهم من عذاب عظيم وعذاب أليم وعذاب مهين!

وبعدما ينتهي السياق منهم يعرج إلى أساتذتهم وكبرائهم من أهل الكتاب، فيتوعّدهم على بشاعة موقفهم من هذه النبوة المباركة حيث كتموا أمرها وأرخوا عليها سدول التعمية والإخفاء، وما أَحبُّوا أن يخرج الناسُ مما هم فيه من حيرة عمياء وجاهلية جهلاء: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

ثم ذكر ما كان يقوله اليهود لأوليائهم وأذنابهم ليثبتوهم على غيّهم وضلالهم ثم يستعينوا بهم على كتمان أمر هذه النبوة ويستعينوا بهم على تنفير الناس عنها، حيث قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾.

فهذان القولان من جملة ما قالوه فيما بينهم حتى لا ينخذل أحد منهم وحتى يستمرّ كل منهم في ضلاله وإضلاله.

أما القول الأول فقد أشبعنا الكلام عليه.

وأما الثاني فلم يكن ذلك إلا استغلالاً سيئاً للظاهرة التي كانت توجد عندهم، حيث أن القربان الذي تذكره الآية كان شيئاً معهوداً عندهم وكثر ذِكرُهُ في صحفهم وكتبهم، وكثر حدوثه على أيدي رسلهم وأنبيائهم[1].

فاستغله علماء اليهود لإضلال قومهم عن هذه النبوة ولإيهامهم بأنه من شروط النبوة وعلاماتها، وقد عهد إليهم ربهم ألا يؤمنوا لرسولٍ إذا لم يتوافر عنده هذا

---

(١) انظر - مثلاً - قضاة: ٦: ٢٠-٢١، ١٣، ١٩-٢٠، أحبار ٩: ٢٤-٢٥، تواريخ ٧: ١-٢.

الشرط! مع أنه لم يكن أبداً من تلك العلامات التي كانت تذكرها لهم كتبهم إلا أن الحقدَ قد أصمّهم وأعمى أبصارهم!

ومما يجدر بالانتباه أن السياق أتبع كل واحد من هذين القولين ما كان يناسبه، فأتبع الأول ما كان يناسبه من الوعيد والتهديد حيث أنه كان ينمّ عن صرف الغرور والتبجح والقحة وسوء الأدب في حق الله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

وأتبع الثاني ما يكشف حقيقة صدقهم وتمسكهم بعهد الله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ثم يلتفت السياق إلى النبي ﷺ يُسلّيه ويهوّن عليه ما يلقاه منهم من إعراض وتكذيب، فإنه ليس أول حادث في تاريخهم، فهناك سلسلة طويلة من الرسل قد لقوا منهم ما يلقاه هو منهم اليوم: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

ثم إن هذه الظاهرة التاريخية لا تحمل في غضونها برد العزاء والسلوى فحسب، بل تؤكد للمؤمنين أن من طبيعة هذا الطريق البلاء والابتلاء والمشقة والعناء، فليس أنهم قد اجتازوا الابتلاءات، وانتهى الأمر، فالمتاعب والابتلاءات ستواجههم على طول هذا الطريق ولا تنتهي إلا بانتهائه، فليكن الصبر والتقوى هو زادهم وشعارهم في جميع مراحله: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

إلا أن من بلاغة القول أن السياق قبل أن يفتح أعينهم على متاعب الطريق وآلامها يُبشِّرهم بتوفيةِ أجورهم يوم القيامة ويبشرهم بزحزحتهم عن النار وإدخالهم الجنة حتى يكون ذلك حافزاً لهم ومشجعاً على الصبر والتقوى، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن هذه الآية تكمل العزاء والتسلية التي كانت تتضمنها الآية السابقة.

وبعدما ينتهي السياق من تسلية النبي وتبشير أصحابه وينتهي من حثّهم على التقوى

وحثّهم على الصبر على ما سيواجهونه من بلاء وعناء، يعود مرة أخرى إلى أهل الكتاب ليعنّفهم على نقضهم الميثاق وكتمانهم ما كُلّفوا بتبيينهِ للناس من أمر هذه النبوة المباركة الخالدة وعلاماتها الواضحة الناطقة، ويعود إليهم ليتوعّدهم على فرحهم بمحاربتها والمكر بأهلها وليوبّخهم مما يمنّون به أنفسهم من غير أن يقدّموا عملاً يؤهلهم له، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

يقول العلامة الألوسي في تأويل الآيتين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد بهم أحبار اليهود خاصة - وإليه ذهب ابن جبير - وهو المروي عن ابن عباس من طريق عكرمة، وإما يشملهم وأحبار النصارى - وهو المروي عنه من طريق علقمة - وإنما ذُكِّروا بعنوان إيتاء الكتاب مبالغة في تقبيح حالهم، وقيل: رمزاً إلى أن أخذَ الميثاق كان في كتابهم الذي أوتوه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ جواب ميثاق لتضمّنه معنى القسم، والضمير للكتاب، أي: باللهِ لتظهرُنَّ جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التي من جملتها أمر نبوة محمد ﷺ وهو المقصود بالحكاية، وظاهر كلام السدي وابن جبير أن الضمير لمحمد ﷺ وإن لم يصرح باسمه الشريف عليه الصلاة والسلام».

ويقول - رحمه الله -: «أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنهم (يفرحون) بكتمانهم صفة رسول الله ﷺ التي نطق بها كتابهم: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ﴾ بأنهم متّبعون دين إبراهيم عليه السلام فعلى هذا يكون الموصول عبارة عن المذكورين سابقاً، الذين أخذ ميثاقهم، وقد وضع موضع ضميرهم، وسيقت الجملة لبيان ما يستتبع أعمالهم المحكية من العذاب إثر بيان قباحتها، وفي ذلك من التسلية أيضاً ما لا يخفى»[1].

لقد ذهب الناس في تأويل هاتين الآيتين مذاهب شتى إلا أن ما ذكرناه من كلام الألوسي أقرب لسياق الآيات من غيره. وأما ما عداه من الأقوال فهو لا يعدو أن يكون من قبيل الاستشهاد بالآية على حادثة بعينها، أو من قبيل انطباق تلك الآية عليها، كما هو معروف في روايات أسباب النزول.

ثم نزيد فنقول: الذي يظهر لنا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾

---

(١) روح المعاني: ٤/١٤٩-١٥١ (بحذف واختصار).

هو أنهم يريدون أن يُحمدوا عند الله بما لم يفعلوه، فيريدون أن يُحسبوا عنده من الأبرار وينالوا ما سيناله الأبرار مع أنهم كانوا أبعدَ الناس من البرّ، فهم لم يبرّوا بميثاقهم، بل نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وسندرك روعة هذا التأويل وحُسْنَ مناسبته حين ندرس الآيات التالية بإذن الله.

حسن مناسبة الآيات باعتبارها تمهيداً لختام السورة:

والآن وقد انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها وفيما بينها، نعود إليها مرة أخرى لنرى حسن مناسبتها باعتبارها تمهيداً لختام هذه السورة.

فالباحث حين يتأمل في هذه الآيات لا يقضي منها العجب حين يرى أنها تتصل بما قبلها اتصالاً وثيقاً -كما بيناه آنفاً - ثم يرى في ذات الوقت أنها تتصل بأوائل السورة اتصالاً عجيباً، وهي تنقل القارىء من الغزو المسلّح الذي وقع بساحة أُحد، والذي كان موضوع تلك الآيات، إلى الغزو الفكري المستمر الذي كان يعمّ أرجاء المدينة وما حولها، والذي كان موضوع تلك الأوائل.

ثم يتمّ ذلك كله ببراعة عجيبة مذهلة، حيث أن القارىء لا يروعه إلا انتقاله من جوّ إلى جوّ آخر. فما أشبه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران]، بقوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران].

وما أشبه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران]، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران].

وما أشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران].

ومن عجيب المناسبة أن أواخر الشطر الأول من هذه السورة - كما علمناه سابقاً - تدور حول موضوع كتمان اليهود لعلامات هذه النبوة المباركة الخالدة.

وهذه الفقرة - التي تعتبر من أواخر الشطر الثاني لهذه السورة وتعتبر تمهيداً لختامها - أيضاً تتناول نفس الموضوع وتدور حوله.

* * *

هذا ما تيسّر لنا في تأويل تلك الآيات وفي بيان مناسبتها لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله، ثم نتوجه إلى ما بعدها.

* * *

نظم الآيات (١٩٠-٢٠٠)

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (١٩٤) فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ (١٩٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٩٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

* * *

لقد وقفنا عند كل فقرة من فقرات هذه السورة والتي قبلها وقفات لا بأس بها إلا أن هذه المجموعة من الآيات تتطلب منا اهتماماً خاصاً، لما روي عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - حيث قالت: (إن رسول الله ﷺ قال: (هل لكِ يا عائشة أن تأذني لي الليلةَ في عبادة ربي)، فقلت: يا رسول الله، إني لأحبُّ قُربكَ وأحب هواك قد

أذنتُ لك، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صبّ الماء، ثم قام يصلي. فقرأ من القرآن وجعل يبكي حتى بلغت الدموع حِقْويه، ثم جلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلّت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله! أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً)، ثم قال: (وما لي لا أبكي وقد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . . إلخ﴾، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» وروي «ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأملها»[1]. فنعوذ بالله أولاً من أن نكون ممن قرأها ولم يتفكر فيها، أو ممن لاكها بين فكّيه ولم يتأملها.

كما نسأله تعالى أن يفتح علينا مما تشتمل عليه من كنوز العلم والحكمة.

ثم نرجع إلى ما يهمّنا منها الآن، ألا هو البحث عن نظامها فنقول: إن الآيات السابقة كانت تتعلق بتوعد اليهود والمنافقين على سوء أدبهم في حق الله وعلى سوء موقفهم من عهوده ومواثيقه، ومن رسله ورسالاته، ثم جاءت هذه الآيات لتشيد بذكر المؤمنين وحسن أدبهم في حق الله وتنوّه بحسن موقفهم من عهوده ومواثيقه وحسن سيرتهم مع رسله ورسالاته.

فهؤلاء المؤمنون لا تخلو حالة من حالاتهم أو لحظة من لحظاتهم إلا وهم يذكرون فيها ربهم، ويتفكرون في خلقه ويستجيرون من عذابه.

بينما هؤلاء اليهود يستكبرون ويتبجّحون ويريدون ليفجروا أمام الربّ فيقولون بكل وقاحة وسوء أدب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴿١٨١﴾ ﴾.

إن هؤلاء المؤمنين استقبلوا الرسول بحرص وشوق وحفاوة بالغة. ولقد صوره القرآن تصويراً بليغاً موحياً، حيث قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا. . . إلخ﴾.

فقد كان من الممكن أن يقال: (ربنا إننا سمعنا الرسول يدعو إلى الإيمان. . . إلخ) ولكن السياق عدل عنه إلى ما نراه.

وليس ذلك - فيما نرى - إلا ليصور شدة حرصهم على الإيمان، وسرعة استجابتهم

---

(١) تفسير أبي السعود: ١/ ٤.

لداعي الإيمان.

فإن كلمة (منادياً) بمادّته وصيغته وتنكيره أدلّ على هذا المعنى من كلمة (الرسول) ثم زيادة (ينادي) بعد (منادياً) تزيد من دلالته على ما يدلّ عليه، وتشخصه للسامع حتى إن السامع يشعر وكأنه يسمعُ دويَّ نداءٍ يملأ الأجواء ويرنّ في الآذان، وإذا بالناس يسارعون إليه ملبّين ومستجيبين!

فهم استجابوا لدعوة الإيمان بمجرد أن ناداهم مناد إليه!

هم استجابوا لدعوته من غير أن يسألوه الآية على ما يدعو إليه!

هكذا كانت حال هؤلاء المؤمنين الميامين، الذين آمنوا برسول الله.

ولا شك أن هذا المشهد يختلف تماماً مما شهدناه في الآيات السابقة، حيث أن اليهود أبوا أن يؤمنوا برسول الله، وقالوا - افتراء على الله -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾.

ثم لم يكن ذلك أول حادث في تاريخهم، فكم من رسل جاؤوهم بالبينات وبالذي قالوه، وجاؤوهم بالبينات والزُّبرِ والكتابِ المنير، ثم كذَّبهم هؤلاء ولم يستحيوا من قتلهم!

إن هؤلاء المؤمنين قد علّمهم ربهم في الفقرة السابقة فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

فنرى من حسن استجابتهم لتعليم ربهم أنهم نسوا كل ما كانوا يقاسونه من أعدائهم، وأقبلوا إليه يسألونه أن يقيهم عذاب النار، ويحفظهم من خزي يوم القيامة، وأخذوا يتضرعون إليه أن يغفر لهم ذنوبهم ويُكفِّر عنهم سيئاتهم ويحشرهم مع الأبرار.

فكل هذه الأدعية الحارة الضارعة الطويلة تدور حول موضوع الآخرة ولم يكن لهذه الحياة الدنيا فيها نصيب! مع أنهم كانوا يكابدون في تلك الأيام ما يكابدونه وقد آذنهم لسان الوحي أن المحنة التي يعانون من مرارتها ستمتد وتستمر: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

هكذا كانت حال هؤلاء المؤمنين، حال كلها خشية وإنابة وتضرع ولجوء إلى الله،

وسرعة الاستجابة لتوجيهاته وتعاليمه! كانت أجسادهم تمشي وتتحرك مع الناس، وكانت قلوبهم مع الله!

وأما هؤلاء اليهود فلم يكن لهم همّ ولا وَسَنٌ إلا هذه الحياة الدنيا، فقد انصرفوا بكل هومهم إلى نعيم الدنيا ورخائها ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً!

إن هؤلاء المؤمنين كانوا يعملون ليل نهار لدين الله وقد هاجروا لأجله وأوذوا في سبيله، وقاتلوا وقتلوا، ومع ذلك فهم خاشعون لله ويخافون عذابه ويبتهلون إليه بهذه الدعوات الحارة الضارعة ليجيرهم من عذاب النار ويجيرهم من خزي الآخرة.

ولا شك أن هذا المشهد يختلف تماماً مما شهدناه في الفقرة السابقة حيث أن اليهود أساؤوا الأدب مع الله وقتلوا رسله وأنبياءه، ووقفوا حياتَهم لمحاربةِ دينه، ثم هم يفرحون ويمرحون ويختالون ويفخرون ويطمعون أن ينالوا عنده أجر العاملين وثواب المجاهدين!

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

لفتة هامة:

ومما يجدر بالانتباه أن السياق لو اقتصر في استجابة دعائهم على ما يلي من قوله تعالى: (فاستجاب لهم ربهم أنّي لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار) لكانت فيه كفاية، ولم يكن في الاستجابة نقص.

ولكنه أسهب في ذكر هذه الاستجابة، فذكر أولاً سَعَتها وشمولها، وكان ذلك هو الأنسب للموقف والأوفق لطبيعة الأدعية، التي كان يملؤها الخوف والوجل: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ ثم عدّدَ جلائلَ أعمالهم وكبار تضحياتهم، وكأنها هي مؤهلاتهم.

وطالما كانت المؤهلات معهم، فهي ستكسبهم الكرامة والوجاهة والمكانة عند الله: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

فهذه الاستجابة لا تغادر عملاً من أعمال الجهاد والكفاح إلا وتعمّه ولا تغادر عاملاً

من هؤلاء العاملين المجاهدين إلا وتشمله!

ولا يخفى ما يحمل لهم هذا الأسلوب من قرة أعين، فهو ليس في الواقع إلا تنويهاً بشأنهم، وتطييباً لنفوسهم، وإشادة بأعمالهم وتضحياتهم.

ثم قال تعالى، وفيه أيضاً بيان لكرامتهم وتطييب لنفوسهم: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

وعلى هذا فهذه الآية جاءت على نمط قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

فذكر تلك الصفات الخمس بعد ذكر دعائهم واستغفارهم لا يعني إلا تنويهاً بشأنهم وتطييباً لنفوسهم وإشادة بسلوكهم وأوصافهم، فالأمر في هذه الآية كمثله في أختها من خاتمة هذه السورة، سواء بسواء، ولا فرق بينهما إلا كالفرق بين الماء والماء أو التمر والتمر.

وهذا أسلوب من أساليب القرآن، قد غاب عن الكثيرين فلم يدركوا تلك الحكمة التي تستفاد من هذا الأسلوب ولم يدركوا السرّ في تفصيل تلك الأعمال التي تُفصّلها هذه الآية.

فيقول - مثلاً - صاحب الظلال - رحمه الله - وهو يبين محتويات هذه الاستجابة الإلهية: «إن أولي الألباب هؤلاء تفكروا في خلق السموات والأرض، وتدبروا اختلاف الليل والنهار، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح، واستجابت فطرتهم لإيحاء الحق المستكنّ فيه، فاتجهوا إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع الواجف الطويل العميق، ثم تلقوا الاستجابة من ربهم الكريم الرحيم، على دعائهم المخلص الودود.. فماذا كانت الاستجابة؟

لقد كانت قبولاً للدعاء، وتوجيهاً إلى مقوّمات هذا المنهج الإلهي وتكاليفه في آن: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾.

إنه ليس مجرد التفكر ومجرد التدبر، وليس مجرد الخشوع والارتجاف، وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزي ومن النار.. إنما هو «العمل». العمل الإيجابي الذي ينشأ عن هذا التلقي، وعن هذه الاستجابة، وعن هذه الحساسية

الممثَّلة في هذه الارتجافة. العمل الذي يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكر والتدبر، والذكر والاستغفار، والخوف من الله، والتوجه إليه بالرجاء؛ بل العمل الذي يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة، والذي يقبل من الجميع: ذكراناً وإناثاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس. فكلهم سواء في الإنسانية - بعضهم من بعض - وكلهم سواء في الميزان.

ثم تفصيل للعمل، تتبين منه تكاليف هذه العقيدة في النفس والمال، كما تتبين منه طبيعة المنهج، وطبيعة الأرض التي يقوم عليها، وطبيعة الطريق وما فيه من عوائق وأشواك، وضرورة مغالبة العوائق، وتكسير الأشواك، وتمهيد التربة للنبتة الطيبة، والتمكين لها في الأرض، أياً كانت التضحيات، وأياً كانت العقبات: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾(1).

هذا ما حرره صاحب الظلال في تأويل هذه الآية أو في كيفية هذه الاستجابة.

ويرى صاحب هذه الكليمات المتواضعات أن كلامه هذا وإن كان في غاية الروعة والجودة والجمال، إلا أنه لم يصادف مكانه والسياق لا يقبله، فإن السياق هنا ليس سياق التوجيه والتنبيه والترشيد، وإنما هو سياق الإشادة والإطراء والتنويه.

ثم ليست هذه تمام المشكلة، فهناك أمور أخر تصرفنا عنه وتدفعنا إلى الرأي الذي أشرنا إليه وهي كما يلي:

١- لقد ذكر السياق هنا تلك الصفات أو تلك الأعمال بصيغة الماضي: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ والمعهود في اللغة أن صيغة الماضي تستعمل للحديث عن الواقع وللحكم على ما حدث، وأما التوجيه والترشيد فتناسبه صيغة الأمر أو صيغة المضارع.

وعلى هذا فلو كان المراد هنا التوجيه والتنبيه لكانت صياغة الكلام هكذا: (فالذين يهاجرون ويخرجون من ديارهم... إلخ) على نحو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٥٤٨-٥٤٩.

٢- إن القرآن إذا مدح قوماً بأنهم يذكرون الله أو يذكرون الله كثيراً، أو يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، أو تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، أو لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، إلى آخر ما هنالك فإن المراد بالذكر هناك لا يكون مجرد الذكر باللسان وإنما يكون المراد به الذكر الكامل المطلوب الذي يصبغ الحياة كلها بصبغة الإيمان والإحسان.

إذاً فليس هناك ما يمنعنا من القول بأن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ يشمل جميع تلك الصفات والأعمال التي ذُكرت في آية الاستجابة، ثم فُصِّلَت تلك الصفات وكُرِّرت تلويناً للجو بلون المدح والإشادة والتنويه. وقد علمنا فيما سبق أن هذه الآيات إنما جاءت لتعرض حسن سيرة المؤمنين وصفاتهم بعد عرض صفات اليهود وسيرتهم البغيضة الممقوتة، فناسب ذلك أن تبرز صفات هؤلاء المؤمنين بحيث يتحقق هذا الغرض وقد تحقق والحمد لله.

ومما يؤيد ذلك أن النبي ﷺ بكى بكاء شديداً حين نزلت هذه الآيات، ولما سأله بلال عن سبب بكائه، قال - عليه السلام -: (أفلا أكون عبداً شكوراً؟!) ثم قال: (ومالي لا أبكي وقد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . . إلخ﴾» فكان - عليه الصلاة والسلام - يبكي بكاء على نزول هذه الآيات شكراً لربه - تبارك وتعالى - حيث أثنى على أصحابه ثناء عطراً، وأشاد بذكرهم ونوه بهم تنويهاً أيَّ تنويه!

ولعمري إن النعمة إذا عظمت وجلّت فلا يعبِّر عن عظمتها في نفس الإنسان وفرحه بها مثل الدموع الغزار التي تنحدر انحداراً ولا تنقطع!

وقد كانت حاله - عليه السلام - في تلك الليلة شبيهاً بذلك كما تذكرها لنا الرواية.

٣- لقد مر معنا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ولقد أُزجيت هذه النصيحة إلى الأمة الناشئة المسلمة بعد ذكر بني إسرائيل وذكر تاريخهم الطويل الحافل بالكفر بآيات الله ونقض مواثيقه وقتل أنبيائه والإعراض عن شرائعه وأوامره.

فإن صح ذلك - وهو صحيح - فلا جرم أنها كانت تعني - أولَ ما تعني -

الاستقامةَ والطاعة والاستجابة الكاملة المطلقة لأوامر ربهم في جميع نواحي حياتهم.

فسورة البقرة تزجي إليهم هذه النصيحة وسورة آل عمران تشهد بأنهم طبّقوها في أروع صورها وأوسعها وأشملها حيث أنهم أُمروا بالذكر بدون تحديد ولا تفصيل فهم امتثلوا له امتثالاً كاملاً غير منقوص: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

فالمراد بالذكر هنا ليس الذكر باللسان كما أنه ليس المراد في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، وإنما المراد به الامتثال لأوامر الله كلها ومنها الهجرة والجهاد والقتل والقتال والصبر على الأذى وما إلى ذلك.

إذاً فهذه الصفات أو هذه الأعمال إنما ذُكرت في الآية تنويهاً بشأن المؤمنين وتطييباً لنفوسهم وليس المقصود بها التوجيه إلى تلك الأعمال والتنبيه إلى أهميتها كما قيل.

ويستمر السياق في تطييب نفوس المؤمنين وتبشيرهم بحسن العاقبة عند الله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۝١٩٨﴾.

تحقيق معنى (التقلب):

وقبل أن نبيّن حسن مناسبة هذه الآيات وحسن ارتباطها بما قبلها نود أن نتحقق معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فإنه سيساعدنا في التوصل إلى ما نريد.

يقول الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في اليهود، ثم في ذلك قولان:

أحدهما: أن اليهود كانوا يضربون في الأرض، فيصيبون الأموال فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثاني: أن النبي ﷺ أراد أن يستسلف من بعضهم شعيراً فأبى إلا على رهن، فقال النبي ﷺ: «لو أعطاني لأوفيتُه، إني لأمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض»، فنزلت، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والقول الثاني: أنها نزلت في مشركي العرب، كانوا في رخاء، فقال بعض المؤمنين: قد أهلكنا الجهد، وأعداءُ الله فيما ترون، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل.

وفي معنى «تقلبهم» ثلاثة أقوال.

أحدها: تَصرُّفهم في التجارات، قاله ابن عباس، والفراء، وابن قتيبة، والزجاج.

والثاني: تَقلُّب ليلهم ونهارهم، وما يجري عليهم من النعمة، قاله عكرمة ومقاتل.

والثالث: تقلبهم غير مأخوذين بذنوبهم، ذكره بعض المفسرين»(١).

هذا ما قيل ويقال في تأويل هذه الآية. والباحث المتأمل يتردد في قبوله من ناحيتين:

إحداهما: أنه لا يتلاءم مع السياق الذي وردت فيه هذه الآية، فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله وقاتلوا وقتلوا، لم يفعلوا ذلك كله إلا بعد ما عرفوا طبيعة هذا الطريق وطبيعة هذا الدين.

هم قد عرفوا من أول يومهم أن الطريق الذي يسلكونه ليس لهم فيه إلا شظف وحرمان ومتاعب وآلام ومشقات وأهوال!

وأما أجرهم وثوابهم فهو عند الله.

إذاً فمن المستبعد جداً أن يحيكَ في قلوبِ أمثالهم: (أن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد)!

والناحية الثانية: أن الله تعالى قد استعمل لفظ (التقلب) في مواضع من القرآن إلا أنه لم يستعمله في هذا المعنى الذي ذهبوا إليه في تأويل هذه الآية.

نذكر مثلاً - قوله تعالى - في سورة النحل: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النحل].

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى

(١) زاد المسير: ١/ ٥٣١-٥٣٢.

ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر].

فهاتان الآيتان قد استعمل فيهما لفظ (التقلب) وسياق الكلام نفسه يبين ما هو المراد به في هذين الموضعين.

فليس هناك ذِكْرُ المكاسب والتجارات وإنما الذي ذكر هنا هو مكر السيئات، وتكذيب الأحزاب للرسل والرسالات واشتغالهم بالدسائس والمؤامرات وهَمُّهم برسولهم ليأخذوه، ومجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق.

إذاً فالمراد بالتقلب هنا هو الجدّ والاجتهاد والمجيء والذهاب للكيد بالحق وأهله وللمكر بهم ولإحباط جهودهم ومساعيهم.

ويشبهه ما قاله بعض الأعلام في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ حيث قال: «في تقلبهم في مكرهم وحِيَلِهم فيأخذهم قبل تمام ذلك»[١].

ويقاربه ما روي عن الضحاك وابن جريج ومقاتل حيث قالوا في تفسيره: «في ليلهم ونهارهم، أي حالةَ ذهابِهم ومجيئهم فيهما»[٢].

ولقد استعمل هذا اللفظ للجدّ في نشر الحق ورعايته وإرساء أصله وتوطيد بنيانه كذلك، حيث قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء].

يقول الحسن - رحمه الله - في تأويله: «وتصرفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين»[٣].

ويقول الزمخشري - رحمه الله -: «ثم أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة، وهو ذِكْرُ ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سر أمرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٥/ ٤٩٥.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٥/ ٤٩٥.

(٣) زاد المسير: ٦/ ١٤٩.

منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة. والمراد بالساجدين المصلُّون».

ويقول - رحمه الله -: «ويحتمل أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين»(١).

إذاً فالقرآن يستعمل لفظ (التقلب) للتشمير عن ساق الجد، سواء كان للحق أو للباطل.

فيكون معنى الآية: لا تظنن أن تقلب هؤلاء الكافرين في البلاد وسعيهم لوقف تيار الإسلام، سيعرقل مسيره، فإنه سينمو ويزدهر على الرغم من معارضة الأعداء، وعلى الرغم من إخراجهم المسلمين من ديارهم، وعلى الرغم من ظلمهم واضطهادهم، وقتلهم وقتالهم.

ثم إن تقلبهم هذا لن يمتد وإنما هو إمهال لأجل معدود، ثم هم يردون إلى ما ينتظرهم من سوء المصير وعذاب السعير، وهكذا ترتبط الآية بما قبلها.

وكان من بلاغة القول أن يوجه إلى هؤلاء الكفار هذا الإنذار بعد ما سبقه من تبشير المؤمنين وحسن التنويه بأعمالهم، حتى يكون ذلك أطيبَ لنفوسهم وأقرّ لأعينهم وأشحذ لهممهم فوجّه إليهم هذا الإنذار بأسلوب يشوبه الإعراض، وبهذا يتم المشهد وتكتمل الصورة.

ثم يعود السياق إلى ما كان عليه من الحديث عن حسن مثوبة المؤمنين: ﴿ لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

ويبدو بادىء ذي بدء أن هذه الآية تكرار محض لما سبقها قبل آيتين وهو قوله تعالى: ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾.

ولكن التأمل في الآيتين وسياقهما يكشف لنا أنها تزيد على الآية السابقة أمرين.

وبيانه أن الآية السابقة تقتصر على تبشير المؤمنين بإدخالهم الجنات بينما هذه الآية تضيف إليه بشرى الخلود في تلك الجنات: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٣٢.

وذلك أنه لما قيل في ذكر الكفار: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ انتهز السياق هذه الفرصة وبيّن أن متعة الكفار إن كانت قليلة منتهية ذاهبة، فإن متعة المتقين دائمة خالدة باقية.

وكان من الممكن أن تُجمعَ البشارتان في آية واحدة، كما فعل في كثير من المواضع، إلا أن البشرى إذا جاءت بمناسبة تقتضيها فإنها تكون أوقع في النفس وأحلى في الأذن، ثم إن إفراد كل منهما بآية مستقلة كان له تأثير كبير في إيجاد جوّ يلائم الموقف، حيث أنه عمل عمله في تلوينه بلون اللطف والنعمة والكرامة.

هذا، وهناك أمر آخر، وهو أن هذه الآية تبشر هؤلاء المؤمنين بنظمها أن دعاءهم قد استُجيب وأن أسماءهم سُجلت في سجل الأبرار: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

وقبل أن نتعدّى هذه الآية إلى ما بعدها نودّ أن تكون لنا وقفة عند كلمة (الأبرار). فقد تكررت هذه الكلمة في هذه الآيات مرتين. ولقد مر قبلها نسيبها وهي كلمة (البر) في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ . . . ﴿٩٢﴾﴾ ولقد بينّا هناك أن المراد بها هو الوفاء بعهد الله وميثاقه الذي أُخذ من أهل الكتاب في شأن الكتاب وهو أنهم لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه. والخطاب هناك موجه إليهم على وجه الخصوص دون غيرهم وإن كانت الآية تعم - بعموم ألفاظها - كل من كان على شاكلتهم. ومما لا يخفى أن كلمة الأبرار أيضاً تكررت هنا في نفس السياق.

فالرعيل الأول من هذه الأمة يتضرعون إلى ربهم أنهم سمعوا المنادي، واستجابوا لدعوته، وانضمّوا إلى ركب الإيمان، ولكنهم لا يستطيعون أن يبرّوا بعهدهم، ويقوموا بأعباء هذه الأمانة حتى يتولاهم ربهم برعايته وحسن توفيقه.

فقولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ يوحي بشعورهم بجسامة المهمة وعظم المسؤولية، مع ما يوحي من حرصهم الشديد على أن يكون مَحياهم ومماتهم في سبيل البر بعهدهم فلا يأتيهم الموت إلا وهم سائرون على الدرب، قائمون على العهد.

ثم يبشرهم ربهم باستجابة دعوتهم وإحرازهم مكانة الأبرار: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ولكن بعد ما يصدقون ما عاهدوا الله عليه، فيتحملون في سبيله كل مشقة وكل بلاء وكل عناء.

هذا، ومما يزيد كلامنا هذا قوة إلى قوته أنه سبق هذه الآيات ذِكْرُ أهلِ الكتاب وذكر نقضهم ميثاقهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ

وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

وتبعها الثناء على الصالحين منهم الذين أوفوا بعهدهم ولم ينقضوا ميثاقهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾.

وأما الإنفاقُ من أحبِّ الأموال فلم يجر له ذِكْرٌ في هذا السياق، مع أن الموقف كان يتطلب ذكره، إن كان هو الطريق الوحيد لنيل البر، أو كان هو السمة البارزة لجماعة الأبرار.

وبالجملة فهذا ما يظهر لنا في حقيقة مفهوم البر والأبرار.

وبعد هذا التبشير المكرر لهؤلاء الأبرار يجيء ذكر المؤمنين من أهل الكتاب: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

لقد أراد الله أن تختم خواتيم هذه السورة العظيمة بمدح هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب، ويا لها من مفخرة عظيمة نالها هؤلاء دون غيرهم.

ومن الواضح المعلوم أن الآيات السابقات المبشرات كانت تشملهم فيمن تشملهم إلا أن السياق أفردهم بالذكر هنا تنويهاً بشأنهم وتفخيماً لأمرهم.

ولا شك أنهم كانوا أحق به وأهله، حيث أن اليهود هم الذين كانوا يقودون تلك المعارضة التي كان يعاني منها الإسلام في داخل المدينة وخارجها، فالذين آمنوا منهم كانوا يتعرضون لعدوانهم وشراستهم أكثر من غيرهم، وكانت محنتهم أقسى وأدهى من محنة غيرهم.

ومن هنا يحسب لهم السياق حساباً خاصاً ويخصهم بالتنويه والتبشير مرة أخرى بعد تبشيرهم والتنويه بهم مع غيرهم في المرة الأولى.

ثم يجيء الختام الأخير لهذه السورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

تأويل المصابرة:

ولقد اختلف الناس في تأويل (المصابرة) و(المرابطة) اللتين أُمر بهما المؤمنون في

هذه الآية.

والذي يظهر لنا بعد التأمل في نظم الآية وسياقها وبعد تتبع الاستعمالات القرآنية لمثل هذه الكلمات، أن المراد بالمصابرة هو مصابرة المؤمنين فيما بينهم، ومباراتهم في الصبر على لأواء الجهاد ومشاقّ الطريق.

وكذلك المراد بالمرابطة هو مرابطة المسلمين فيما بينهم ومسابقتهم في الاستعداد للغزو بالإقامة في الثغور وربط الخيل فيها والترصد للعدو.

فمدلول المصابرة والمرابطة في هذه الآية شبيه بمدلول المسابقة والمسارعة في قوله تعالى:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ... الآية ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران].

وأما لو كان المراد بالمصابرة والمرابطة هنا مصابرة الكافرين ومرابطتهم، لكانت العبارة هكذا: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا الكافرين ورابطوهم... إلخ)، بتعدية الفعلين إلى المفعول به.

فأما وقد ورد الفعلان بدون إظهار المفعول به فالمفهوم من مثل هذا الأسلوب هو ما ذكرناه.

وهذا المفهوم كما أنه يترجح من ناحية الأسلوب يترجح من ناحية نظم الآية وسياقها، وسيتبيّن ذلك حين نعرف حسن موقعها وحسن مناسبتها لما قبلها.

إذاً فما مناسبتها لما قبلها؟

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - وهو يعالج هذا الموضوع: «سياق السورة حافل بذكر الصبر وبذكر التقوى.. يُذكران مفردين، ويذكران مجتمعين. وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلة، ومن ثم تختم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة وإلى المرابطة والتقوى، فيكون هذا أنسب ختام»(١).

(١) في ظلال القرآن: ١/٥٥١.

هذا ما قاله الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في مناسبة هذه الآية لما قبلها، وهي مناسبة وجيهة ولا شك، فنحن نشكر للأستاذ الإمام تلك الكلمة القيمة، ثم نقول: إنه - رحمه الله - ذكر مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها باعتبارها خاتمة لهذه السورة، ولكن مناسبتها للآيات التي تليها والتي تعرف بخواتيم هذه السورة؟ إن هذا سؤال مهمّ جداً. والتأمل فيه يفتح علينا ناحية جديدة من بلاغتها وروعتها وحسن نظامها.

لقد علمنا فيما سبق أن هذه الآيات إنما جاءت لتنوه بشأن تلك الثلّة المباركة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين استجابوا لدعوته فور سماعهم، ثم أسهموا في تنميتها وتعزيزها بدموعهم ودمائهم! والذين أُخرجوا من أجلها من أهلهم وديارهم، وفجعوا بسببها في نفوسهم ونفائسهم، ثم لم يفلّ ذلك كله من صبرهم وصمودهم!

جاءت هذه الآيات لتنوه بجلائل أعمالهم وعظيم تضحياتهم وجاءت لتبشرهم بجزيل الثواب الذي ينتظرهم عند ربهم.

ولقد تناولت الآيات هذا الموضوع بأسلوب يملأ نفسَ من يتلوها اليوم غِبطةً وسروراً، مع علمه بأنه ليس له نصيب منها، فكيف بمن نزلت في مدحهم هم وتبشيرهم والتنويه بشأنهم والإشادة بذكرهم! وهل يسعنا أن نقيس فرحهم وسرورهم الذي فاضت به نفوسهم حين رنّت في أسماعهم تلك الآيات العطرات المبشرات؟

فكان من الحكمة أن تقرع أسماعهم تلك الوصية القوية المحكمة بعد ما رنّت فيها هذه الإشادة وهذه البشارة حتى لا تكون لها آثار سلبية؛ بل تغدو تلك الإشادة وتلك البشارة تنبيهاً لهم إلى عِظَمِ التبعة وضخامة المسؤولية، ثم حثاً وتحريضاً لهم إلى مزيد من الحماس والنشاط والصمود والثبات، والبذل والتضحية ومواصلة الخطو ومضاعفة الجهد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ومما يجدر بالانتباه أن الأمر بالصبر والتقوى قد تكرر في هذه السورة ثلاث مرات وفي غيرها من السور عدة مرات، إلا أن الأمر بالمصابرة والمرابطة لم يرد إلا في هذه الآية.

ولعل السبب في ذلك هو ما أشرنا إليه، من أن هذه الوصية جاءت في جو يفيض بالمدح والتنويه والإشادة والبشارة، فناسب ذلك أن تكون تلك الوصية أيضاً مكافئة لتلك الإشادة والبشارة في قوتها وجزالتها. ولا شك أن إضافة (المصابرة) و(المرابطة) إلى تلك الوصية قد أكسبتها من القوة والجزالة والتوكيد ما جعلها مكافئة لتلك الإشادة

والبشارة.

هذه نكتة هامة جداً. وبعد الوقوف عليها تصبح مناسبة الآية لما قبلها واضحة مثل وضح النهار. ثم هذه النكتة تساعدنا في فهم قول النبي ﷺ أيضاً في شأن تلك الآيات (ويل لم قرأها ولمن يتفكر فيها!) أو (ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأملها!).-

* * *

هذا ما تيسر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها وفيما بينها، فنحمده تعالى ونشكره بما هو أهله.

مناسبة هذه الخواتيم لأوائل السورة:

ثم نعود إليها مرة أخرى -باعتبارها خواتيم هذه السورة - لنرى مناسبتها لأوائلها.

ومما يدلّ على مناسبة هذه الخواتيم لأوائل السورة اتحادهما في فواصل الآيات وقوافيها.

ولقد انتبه لهذه الظاهرة الأستاذ سيد قطب، ولا غرابة فيه، فهو جدير به وأهلٌ له باعتباره فارس هذا المضمار.

يقول - رحمه الله - وهو ينبّه إلى هذه الظاهرة: «ولا بد من وقفة أخرى أمام هذا الدعاء - أي الدعاء الذي ورد في هذه الخواتيم - من جانب الجمال الفني والتناسق في الأداء.

إن كل سورة من سور القرآن تَغلبُ فيها قافيةٌ معينة لآياتها - والقوافي في القرآن غيرها في الشعر، فهي ليست حرفاً متحداً، ولكنها إيقاع متشابه - مثل: «بصير. حكيم. مبين. مريب». «الألباب. الأنصار. النار. قرار». «خفياً. شقياً. شرقياً. شيئاً». . . إلخ.

وتغلب القافية الأولى في مواضع التقرير. والثانية في مواضع الدعاء. والثالثة في مواضع الحكاية.

وسورة آل عمران تغلب فيها القافية الأولى. ولم تبعد عنها إلا في موضعين:

أولهما في أوائل السورة وفيه دعاء، والثاني هنا عند هذا الدعاء الجديد.

وذلك من بدائع التناسق الفني في التعبير القرآني.. فهذا المد يمنح الدعاء رنة

رخية، وعذوبة صوتية، تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهال»[1].

فنرى الأستاذ سيد قطب قد انتبه لهذا الاتحاد الذي يوجد في فواصل الآيات وقوافيها في أوائل السورة وخواتيمها، وهو يتذوق هذا الجمال الفني والتناسق الفني ويتملاه ويستمتع به كدأبه في مثل تلك المواقف.

وكم كان تذوقه - رحمه الله - لجمال هذه القافية وروعتها لو أنه أدرك أنه ليس من جمالها فقط أنها تمنح الدعاء بمدّها رنة رخيّة وعذوبة صوتيّة تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهال، بل من جمالها كذلك أنها تربط آخر السورة بأولها على ما بينها من مسافة هائلة شاسعة! ولا شك أن هذا الجمال يفوق الجمال الأول - وإن كان له شأنه وميزته! - عدة مرات، والمتأملُ إذا تأمل فيه وجد فيه لذة لا تُقاس بتلك اللذة التي يجدها حين يتأمل في الجمال الأول.

فنحن سنحاول فيما يلي أن نتأمل في ذلك الجمال، وأملنا وطيد في أن هذه المحاولة ستسفر لنا عما يسرّ الخاطر ويقرّ الناظر بإذن الله.

إن تشابه قافية الخواتيم لقافية الأوائل من هذه السورة إنْ دلّ على شيء فإنما يدل على عود الكلام على بدئه.

ونحن إذا تأملنا في تلك الآيات وجدنا الأمر هكذا.

فما أشبه قوله تعالى في أول السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ بقوله تعالى في آخر السورة: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾.

فالآية الأولى تذكر أولي الألباب وتذكر الراسخين في العلم والآية الثانية تذكر سماتهم وتبين سيرتهم.

الآية الأولى تذكر مسارعة الراسخين في العلم - وهم أولو الألباب - إلى الإيمان بكتاب الله في مقابل استكبار أهل الزيغ وتلاعبهم بآياته.

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٥٤٧-٥٤٨.

والآية الثانية تصور حسن موقفهم من آيات هذا الكون وتذكر تَفكُّرهم فيها وحُسْنَ تلقِّيهم لدروسها وعظاتها.

فهم يتذكرون بكتاب الله المفتوح في هذا الكون كما يتذكرون بكتابه الذي أنزله على رسوله.

* * *

ثم ما أشبه قوله تعالى في أول السورة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ بقوله تعالى في آخرها: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

فقولهم: ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ يعكس نفس المشاعر التي يعكسها قولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ فكلاهما يعبّران عن حرصهم على التمسك بأهداب هذه الرسالة والموت تحت لوائها والبر بالعهد والميثاق الذي أبرموه على أنفسهم حين آمنوا بها ووصلوا حبلهم بحبلها.

فكلتا الدعوتين متشابهتان في محتوياتهما.

وأما ما نراه من الزيادة في الدعاء الثاني من قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ فهو ليس في الواقع زيادة، وإنما هو طلب شيء يقرّبهم إلى مطلوبهم، حيث أن الذنوب والسيئات هي التي تورث الزيغ في القلب، ولا تدع الإنسان ينهض بأعباء البر.

* * *

ثم ما أشبه قوله تعالى في أول السورة: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ بقوله تعالى في آخرها: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

فالدعاء الأول يصوّر لنا كأن عباداً من عباد الله الخاشعين خرّوا أمامه ساجدين، ليستجيروه من عذاب النار، فطفقوا يقولون: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ... ﴾.

وما بلغوا من كلامهم إلى هذا الحد حتى اختنقت أصواتهم بالبكاء، فلم يستطيعوا أن يُكملوا حديثهم ولم يستطيعوا أن يزيدوا على ما قالوه.

وإذا بربهم الودود الرحيم يتوجه إليهم بخطابه المباشر، يسكّن قلوبهم الخائفة المرتجفة، ويسكب فيها برد الاطمئنان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وهذا الدعاء له ميزته وله دلالته، فما نعلم في القرآن دعاء ورد على مثل هذا الأسلوب، حيث أن القوم ينادون ربهم بأصواتهم الخاشعة الضارعة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ...﴾ ثم تسكت أصواتهم قبل أن يُفصِحوا عما يريدون.

وإذا بربهم يقبل إليهم ليسكنهم ويطمئنهم، أنهم سيجدون كل ما وعدوا به!

ثم لا ندري كيف نعبّر عما نحس في هذا الأسلوب من خوف وخشية وخشوع وتواضع وتضرّع وإخبات ثم رجاء وتطلع مع شعور بالتقصير!

فلا ندري كيف نعبر عما يشتمل عليه قوله تعالى في هذا الجو وفي هذا السياق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ففيه من سكينة وطمأنينة وقرة عين ما يجلّ عن الوصف!

ثم نشعر حين نضع بجانب هذا الدعاء تلك الأدعية التي وردت بها الخواتيم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

حين نضع تلك الأدعية الخاشعة الواجفة الطويلة بجانب ذلك الدعاء الضارع الوجيز نشعر كأن هؤلاء القوم هم رفعوا أيديهم مرة أخرى ليكملوا ما بقي من حديثهم مع ربهم، وليسكبوا بين يديه من دموعهم - بعدما أراقوا في سبيله من دمائهم - ليجيرهم من عذاب النار!

نكتة هامة:

ومما يجدر بالانتباه أن ذلك الدعاء الذي ورد في أول السورة ختم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وهذه الأدعية أيضاً تختم بنفس الختام مع فرق يسير: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وهذا الختام كما يدل على روعة المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، يدل على حسن تجاوب هؤلاء المؤمنين مع ربهم، حيث أنه تعالى قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ

ﭐلۡمِيعَادَ﴾ فتلقوا منه ما علّمهم وردّدوه في خشوع وإخبات: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

هذه نكتة نفيسة هامة. والذين خفيت عليهم تحيروا في تأويل الآية. فيقول - مثلاً - الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - وهو يفسرها: «فإن قيل: ما وجه هذه المسألة والله لا يخلف الميعاد؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أنه خرج مخرج المسألة ومعناه: الخبر، تقديره: فآمنا، فاغفر لنا لتؤتينا ما وعدتنا.

والثاني: أنه سؤال له، أن يجعلهم ممن آتاه ما وعده، لا أنهم استحقوا ذلك، إذ لو كانوا قد قطعوا أنهم من الأبرار لكانت تزكية لأنفسهم.

والثالث: أنه سؤالٌ لتعجيل ما وعدهم من النصر على الأعداء، لأنه وعدهم نصراً غير مؤقت، فرغبوا في تعجيله، ذكر هذه الأجوبة ابن جرير، وقال: أَوْلى الأقوال بالصواب أن هذه صفة المهاجرين، رغبوا في تعجيل النصر على أعدائهم، فكأنهم قالوا: لا صبرَ لنا على حلمك عن الأعداء، فعجّلْ خِزيهم، وظَفَرنا بهم»[1].

ولا يخفى ما في هذه الأجوبة الثلاثة من ضعف وتكلف. ونحن على يقين بأنهم - رحمهم الله - لو انتبهوا لِمَا أشرنا إليه لآثروه على ما ذهبوا إليه. فلله الحمد وله الشكر على ما هدانا إليه.

* * *

ثم ما أظهر المناسبة بين قوله تعالى في أول السورة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

وبين قوله تعالى في آخرها: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

فهاتان الآيتان تمثلان لنا مشهدين مختلفين متقابلين:

أحدهما: مشهد أهل الزيغ من اليهود والنصارى، الذين غرّتهم الحياة الدنيا فهم

---

(١) زاد المسير: ١/٥٢٩.

غرقوا في شهواتها وآثروا متاعها على ما عند الله من أجر وثواب وحسن المآب.

والثاني: مشهد أولي الألباب من صحابة رسول الله ﷺ الذين تجافوا عن زينة الدنيا وشهواتها إلى نعيم الآخرة، وثوابها، فلم ينالوا من الدنيا إلا متاعبها وآلامها وعاشوا حياتهم كلها وهي عطاء وأداء ووفاء وابتلاء!! فهم أُبعدوا عن أهلهم وأولادهم، وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم، ونالهم من الأذى ما نالهم، وقُتلَ من إخوانهم من قتل، ومع ذلك كله لم يكن لهم همّ ولا وَسَنٌ إلا أن يجيرهم ربهم من عذاب النار!

ثم ما أظهر المناسبة بين قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

وبين قوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾.

فالذي يقرأ الآيتين الأوليين يثور في ذهنه سؤال:

فهل أسلم منهم من أحد؟؟

وهل أقبل أحد منهم إلى الهدى؟ أم لَجُّوا كلهم في عُتُوٍّ ونُفور؟

فتأتي الآية الثالثة الأخرى ترد على هذا السؤال: إن نفوساً قدسية منهم قد أقبلوا إلى الهدى وانضموا إلى هذا الركب الكريم فهم يؤمنون بما أُنزل إليهم وما أنزل إلى هؤلاء المؤمنين.

ومما يُستأنس به في هذا المقام تشابه الموضعين في شيء يخصُّهما، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فإن هذا التنبيه أو هذا التذييل لم يرد في السورة إلا في هذين الموضعين. ولا يدل ذلك إلا على وجود صلة خاصة ومناسبة ماسّة بينهما.

ثم ما أظهر المناسبة بين قوله تعالى في أول السورة: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾.

وبين تلك الآيات التي ختمت بها السورة.

فإنه لا فرق بينهما إلا في الإجمال والتفصيل، حيث إن الآيات التي خُتمت بها السورة إنما هي تصوير رائع ومفصل لتلك الصفات التي أُجملت في أولها.

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تمثيلٌ وتفصيل لقوله تعالى: (القانتين).

والأدعية الحارة الضارعة التي تتبعه تمثيل وتفصيل لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾.

ثم قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ تصوير وتفصيل لقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾.

فهذه الأعمال لا ينجزها إلا من كان على ذروة عالية من الصبر والصدق والإنفاق.

ومما يدل على صلة هذه الآيات بتلك أن النبي ﷺ كان يقوم من آخر الليل ليستغفر ربه، فكان يبدأ بهذه الآيات فيقرؤها. فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن ابن عباس، قال: بتُّ عند خالتي ميمونة، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ثم استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده. ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والطبراني والحاكم في «الكنى» والبغوى في «معجم الصحابة» عن صفوان بن المعطل السلمي قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ في سفر، فرمقت صلاته ليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام، فلما كان نصف الليل استيقظ فتلا الآيات العشر، آخر سورة آل عمران، ثم تَسوَّكَ، ثم توضأ فصلى إحدى عشرة ركعة[1].

فدلَّ - عليه السلام - بعمله هذا أن أنسب شيء للاستغفار بالأسحار هي تلك الآيات التي ختمت بها سورة آل عمران.

---

(١) الدر المنثور: ٢/ ٤٠٧.

فكأنه تعالى أجمل في أول السورة عيون صفات المؤمنين وعلى رأسها الاستغفار بالأسحار، ثم فصَّل في آخرها تلك الكلمات التي كانوا يستغفرون بها.

* * *

تلك وجوه من مناسبة هذه الخواتيم لأوائل السورة.

ولا شك أن الاطلاع عليها يكشف لنا ناحية جديدة من بلاغة تلك الآيات وإعجازها.

فنحمده تعالى ونشكره على ما هدانا إليه وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

ومما لا يخفى أن رؤيتنا هذه تختلف اختلافاً ما عن رؤية الأستاذ الإمام سيد قطب - رحمه الله - وهي تتلخص فيما يلي:

إن هذه الأدعية، التي تشتمل عليها الخواتيم، كان لها شأن خاص، وجو خاصّ، وطبيعة خاصة، فاختار لها السياق قافية تناسب جوها وطبيعتها.

والتزم السياق بهذه القافية في دعاء فاتحة السورة كذلك، لأن الأدعية في الموضعين كانت متشابهة في جوّها وطبيعتها.

وهكذا الآيات الأخر - ما عدا الأدعية - كانت متشابهة في الموضعين في مضمونها ومحتوياتها، فجاءت على قافية واحدة متقاربة، كما أنها كانت مشابهة لتلك الأدعية في جوها وملابساتها فشابهتها في قافيتها.

* * *

وبعدما انتهينا من دراسة وجوه المناسبة في فقرات هذه السورة العظيمة، وانتهينا من البحث عن نظامها ووشائجها التي تربطها فيما بينها وتحكم نسجها، نعود إليها مرة أخرى لنبين عمودها، الذي تدور حوله السورة كلها بجميع فقراتها، مثلما فعلناه في السورة التي قبلها.

ثم نبيّن صلة هذه بتلك، ونبين ميزة كل منهما، حتى يكون الحديث عن نظام السورتين واضحاً متكاملاً من جميع نواحيه.

* * *

عمود السورة

إن عمود هذه السورة - كما يظهر لنا بعد التأمل في محتوياتها - هو الدعوة إلى الإيمان بهذه البعثة المباركة والدعوة إلى اتباعها، مع تبديد الشبهات التي كان يثيرها أهل الكتاب ليصرفوا المؤمنين عنها.

والآيات التي تقودنا إلى هذه الظاهرة كما يلي:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾.

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

تلك بعض الآيات التي تذهب بنا إلى القول بما قلناه، من أن عمود هذه السورة هو التنبيه إلى مكانة هذه البعثة المباركة، والحث على تعزيزها وحسن الاستجابة لها، مع

القضاء على تلك الشبهات التي أثيرت حولها.

والقضايا التي تناولتها هذه السورة، كلها تدور حول هذه النقطة.

وبيانه أن النصف الأول من هذه السورة يدور - في مجموعه - حول موضوع ملة الإسلام وتقريرها، وتفنيد الشبهات التي أثيرت حولها، وإزاحة السدول التي أُرخيت على معالمها، كما بينا ذلك وفصلناه أثناء حديثنا عن تلك الآيات.

ولم يعالج السياق هذا الموضوع، حين عالجه في تلك الآيات، إلا لتقرير هذه البعثة المباركة وإقامة الحجة على حقيّتها، فإن الإسلام هو عنوان هذه البعثة، وما بعث النبي ﷺ إلا ليعيد ركب الحياة إلى ملة الإسلام.

وأهل الكتاب لم يشدوا مآزرهم لمحاربة الإسلام إلا وهم يعلمون أن هذه الحرب إنما تعني الحرب مع هذه البعثة. وهم سينجحون في إضعاف أمرها وتقويض بنيانها بقدر نجاحهم فيها. ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذه الصلة بين الأمرين إشارات واضحة. فمنه ما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

وعلى مثل هذا النظم جاء قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾، حيث جاء بعده قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

فهذه الآيات تفيد بنظمها أن الإقرار بهذه البعثة هو إقرار بالإسلام، وكذا الرغبة عن الإسلام لا تعني إلا الرغبة عن هذه البعثة، فهما شيئان متلازمان لا يفترقان، حيث يثبت أحدهما بثبوت الآخر وينتفي بانتفائه.

وعلى مثل هذا النظم جاء قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ حيث جاء بعده مباشرة: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

فبنى كونَ هذا النبيِّ أَوْلى الناس بابراهيم على كون إبراهيم حنيفاً مسلماً.

وبالجملة فهذه الآيات تعالج موضوع ملة الإسلام لتخلص منه إلى تقرير هذه البعثة المباركة.

ومما يؤيد هذا القول أن السياق، قبل أن يفتح باب هذا النقاش مع أهل الكتاب، يقرر لهم ضرورة اتباع هذه النبوة المباركة، ويقرر لهم ضرورة طاعتها مع طاعة الله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فقد ذكر الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - في سبب نزول الآية الأولى وجوهاً، منها: «أن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية، فعرضها النبي ﷺ عليهم فلم يقبلوها، رواه أبو صالح عن ابن عباس»[1].

وكذا ذكر - رحمه الله - في سبب نزول الآية الأولى وجوهاً، منها: «أن النبي ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. ونحن أشد حباً لله مما تدعونا إليه، فنزلت: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ ونزلت هذه الآية. هذا قول مقاتل»[2].

هذا ما يظهر لنا في النصف الأول من هذه السورة: (١-٩٩).

وأما النصف الآخر: (١٠٠-٢٠٠) فهو يبدأ بتحذير المؤمنين من طاعة أهل الكتاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

ثم يتعجب السياق من حدوث ذلك - إن حدث منهم - وهم تُتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ولم يقتصر السياق على هذا التحذير الواحد، بل تبعته تحذيرات متعددة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ... الآية ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟

---

(١) زاد المسير: ١/ ٣٧٣.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٧٤.

عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

وفي مقابل هذا التحذير المكرر من طاعة أهل الكتاب، يكرر التوجيه إلى طاعة الرسول:

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا... الآية ﴿١٠٣﴾ ﴾.

ويتكرر التنويه بشأنه – عليه السلام –: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ... الآية ﴿١٦١﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

هذا، ولقد رأينا في أثناء دراستنا لتلك الآيات، كم حاول الأعداء من أهل الكتاب بمناسبة غزوة أُحد أن يكسبوا الموقف، فينفّروا المؤمنين عن نبيهم، ويوقعوا البلبلة في صفوفهم ولكن الله سلّم، وردّ كيدهم في نحورهم، وجعل من مناوأتهم لهذه البعثة المباركة سبباً لظهور أمرها وقوة شوكتها، وأثنى على المؤمنين حُسْنَ اتباعهم وسرعة استجابتهم للرسول: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

وتوعّد المنافقين على تربصهم وتقاعسهم عن نصرته – عليه السلام –: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

ثم توعد الذين كانوا يكتمون أمر هذه النبوة: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

كما بشر الذين اتبعوا الرسول ونصروه بحُسنِ المثوبة في الآخرة، مع تحريضهم على أن يستمرّوا فيما هم فيه ويصبروا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

ولقد سبق هذا التحريض تحريض مثله، حيث قال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

ومما يجدر بالانتباه أن أبرز دعاء تشتملُ عليه الخواتيم هو ذلكم الدعاء الذي يمثل حسن استجابة المؤمنين لنداء الرسول، وشدة مسارعتهم إلى الإيمان به، ثم تَمنِّيهم الموت في سبيل ذلك العهد الذي أبرموه على أنفسهم بمبايعة الرسول: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

وهكذا نرى هذه السورة العظيمة تدور بموضوعاتها كلها حول موضوع اتباع الرسول والتشبث به، مع تبديد الشبهات التي أثيرت حوله - عليه السلام -.

وهذا الذي نقصده بعمود السورة.

* * *

ارتباط السورة بالتي قبلها

إن النظرة الفاحصة المتأملة في هذه السورة والتي قبلها تحسّ السورتين، وكأنهما شقيقتان أو توأمان، وذلك لما يوجد بينهما من تشابه وتقارب وتلاحم عجيب.

والقرآن نفسه نبّهنا إلى هذه الظاهرة بنظم آياته، حيث تكررت في هذه السورة كثير من الآيات التي قد مضت معنا في سورة آل عمران كقوله تعالى:

١ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

٢- أو كقوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

٣- أو كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

٤- أو كقوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

٥- أو كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

٦- أو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

فقد مضت معنا هذه الآيات كلها في سورة البقرة مع فرق يسير في بعض كلماتها.

فالآية الأولى تشبه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

والآية الثانية تشبه قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

والآية الثالثة تشبه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

والآية الرابعة تشبه قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

والآية الخامسة تشبه قوله تعالى: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

والآية السادسة تشبه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

فهذه الآيات كلها جاءت مكررة في هذه السورة، ولا يوجد في الموضعين إلا فرق يسير.

وهذا التكرار إن دل على شيء فإنما يدل على تشابه السورتين وتلاحمهما إلى حد بعيد.

ولقد عني عدد من العلماء بالبحث عن وجوه هذا التناسب والتشابه بين السورتين، كالإمام السيوطي في كتابه (أسرار ترتيب القرآن: ص٨٣-٨٨) أو العلامة أبي جعفر بن أبي الزبير شيخ أبي حيان في كتابه: (البرهان في ترتيب سور القرآن ص٩-١١) أ الأستاذ أمين أحسن في تفسيره: (تدبر القرآن: ٢/ ٩-١٣).

إلا أنه ليس من ضرورة هذا البحث أن ينقل هنا ما كتبه هؤلاء الأعلام، فإن ما كتبوه أشبه بالعمل السريع المرتجل بينما الأمر كان بحاجة إلى طول البحث ودقة النظر.

فنحن نحيل من أراد الاطلاع على عملهم، إلى كتبهم، ونقتصر هنا على تسجيل ما توصلنا إليه من خلال دراستنا الدائبة المستمرة للسورتين.

وقد ظهر لنا - والحمد لله - من وجوه التناسب بين السورتين ما تقر به العين وتهتز له النفس، فنحمده - تعالى - حمداً لا نهاية له، ونشكره شكراً يليق بفضله، حيث أنه تعالى هدانا إلى تلك الوجوه بمحض فضله وكرمه، وما كنا لنهتدي إليها لولا أن هدانا الله.

والوجوه التي ظهرت لنا للتناسب بين هاتين السورتين كما يلي:

١- السورتان متشابهتان في غُرَّتيهما، حيث بدأت كل واحدة منها بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ كما بدأت كل واحدة منهما بالتنويه بشأن القرآن والإشادة بذكره مع تفرد الثانية بذكر الرسول مع القرآن حيث قال تعالى في الأولى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال في الثانية: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴿٤﴾﴾.

وهذا التشابه في المطلع والعنوان لا يدل إلا على التشابه فيما وراءه من المعنى والموضوع.

والأمر في الواقع هكذا، فإن الموضوع في كلتا السورتين جد متقارب حيث أن الأولى دعوة إلى الإيمان بالقرآن والتمسك به، كما أن الثانية دعوة إلى اتباع الرسول

والمسارعة إلى أوامره وما جاء به من عند ربه.

على هذا فهاتان السورتان جاءتا على نمط قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

حيث أن الأولى تشبه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ لكونها دعوة إلى الإيمان بما أنزل الله - تبارك وتعالى -.

والثانية تشبه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ لكونها دعوة إلى اتباع رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - .

ثم إن هذين الأمرين يلتقيان في واجب الإيفاء بالعهد، حيث إن بني إسرائيل قد أُخذ منهم العهدُ على لسان رسلهم أن يؤمنوا بهذا القرآن، كما أخذ منهم العهد على أن يؤمنوا بهذا الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وقد ذكر هذان العهدان في هاتين السورتين عدة مرات.

فالسورة الأولى دعوة إلى أن يوفوا بعهدهم الأول، كما أن الثانية دعوة إلى أن يوفوا بعهدهم الثاني.

٢- ثم إن هاتين السورتين متشابهتان في خاتمتيهما أيضاً كما أنهما متشابهتان في فاتحتيهما، حيث أن الخاتمتين كلتيهما مدح وثناء لصحابة رسول الله. وقد بينا ذلك وفصلناه تفصيلاً في أثناء دراستنا لتلك الآيات.

ثم إنهما تشتملان على أدعية حارة ضارعة من المؤمنين واستجابة عجيبة سريعة من الله.

وهكذا نرى الخاتمتين متقاربتين جداً في جوّهما ومحتوياتهما.

٣- إن سورة البقرة ختمت بدعاء النصر على الكافرين: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

فجاءت هذه السورة تتوعد الكافرين من أول أمرها، وجاءت تبشرهم بالهزيمة وسوء العاقبة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران].

٤- إن سورة البقرة تذكر تاريخ بني إسرائيل إلى عهد سيدنا موسى، ثم تجيء سورة آل عمران لتكمل هذه السلسلة وتقصّ علينا أنباء آل عمران.

٥- إن سورة البقرة كانت مرحلة إعداد وتربية للجهاد، وكانت مرحلة حثّ وتحريض عليه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

ثم جاءت سورة آل عمران لتنتقل بهؤلاء المؤمنين من مرحلة الإعداد والتربية إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ، فدخلت بهم في معركة فاصلة بين الإسلام والكفر ثم تناولت أحداث تلك المعركة بالتفصيل ليكون ذلك إعداداً لما سيتبعها من المعارك.

٦- إن سورة البقرة تفصّل سمات المنافقين وملامحهم وتفصّل مواقفهم وتصرفاتهم، من غير أن تَصِمَهُمْ بالنفاق أو من غير أن تطلق عليهم لفظ (النفاق).

بخلاف سورة آل عمران فإنها تكشف عنهم القناع وتُعرِّيهم وتصمهم بهذه الرذيلة: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

ثم نرى الأمر في السورة التي تليها - وهي سورة النساء - أشد من ذلك وأفضح، حيث أنها تكشفهم كشفاً وتعرّيهم تعرية كاملة، وتقذفهم بهذا اللقب مرة بعد مرة:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

٧- إن سورة البقرة يغلب عليها طابع الدعوة والتوجيه فهي تدعو بني إسرائيل وترشدهم إلى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويفيئوا إلى الحق الذي نسوه بعدما ائتمنوا عليه، وإن كانت هذه الدعوة والتوجيه لا تخلو في كثير من الأحيان من اللوم والتعنيف.

٨- إن سورة البقرة تحتوي على مجموعة طيبة من الأحكام والشرائع، بينما سورة آل عمران لم تتناول الشرائع والأحكام البتة. ثم جاءت بعدها سورة النساء وسورة المائدة، وهما أيضاً تشتملان على قدر طيب من الشرائع والأحكام.

هذا الوضع يدل على أن هذه السورة - سورة آل عمران - إنما جاءت لتكمل سورة البقرة وجاءت لتخدمها في بعض أهدافها التي تتصل بعمودها، ومما يدل على ذلك أن سورة آل عمران بنيت على آية من آيات سورة البقرة، بل بنيت على جزء صغير منها، حيث قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ . . . الآية﴾ فبنيت سورة آل عمران على هذا الجزء الصغير من آية سورة البقرة، حيث قال تعالى في مستهل هذه السورة: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾.

٩- إن سورة البقرة تخاطب جماهير اليهود والنصارى، وتتحدث عنهم، بينما سورة آل عمران تخاطب علماءهم وأحبارهم وتتحدث عنهم.

ولعل هذا السر في أن هذه السورة يغلبها جوّ الحِجاج واللجاج، كما نرى ذلك واضحاً صريحاً في مثل تلك الآيات: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

وهذا الجو يخص هذه السورة دون سورة البقرة. ولعل السر في ذلك ما أشرنا إليه.

١٠- إن الصراع العقائدي الذي شهدناه في سورة البقرة قد احتد واشتد في هذه السورة. ولذلك نرى هذه السورة يغلبها جوّ الحجاج واللجاج، كما مر معنا آنفاً.

ولعل هذا هو السرّ في أن هذه السورة تحث المؤمنين حثاً على أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وتعدُّ ذلك من صميم مهمتهم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾.

وذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الضمان الوحيد لانتصارهم على

العدو، وهو الطريق الوحيد لسلامته من شر ذلك الصراع العقائدي الذي يهدد كيانهم، ويكاد يمزق شملهم!

ولقد بينا ذلك وفصلناه في أثناء دراستنا لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

* * *

تلك عشرة وجوه لارتباط هذه السورة بالتي قبلها، وهي من الوضوح بحيث لا تخفى على كل مَنْ تَدبَّرها وتمعَّن فيها.

وإلا فقد تكون هناك وشائج أخرى تربط هذه السورة بالتي قبلها، ومن يستطيع أن يحيط بها علماً!

فإن هذا الكتاب لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي بدائعه، وحسبنا أن وفّقنا إلى ما ذكرناه، فله الحمد وله الشكر على ما هدانا إليه.

* * *

الخاتمة

كم حزّ في نفسي وكم اعتصر فؤادي ما قاله المستشرقون قديماً وحديثاً عن القرآن! القرآن الذي هو أساسُ عزنا ومجدنا، والذي هو أحبُّ إلينا من أنفسنا وأهلينا!

فمن ذلك ما تقوله موسوعة برتانيكا - وبئس ما تقول!:

«وهكذا، فما أكثر ما يوحي إلينا القرآن بسوء نظمه وأسلوبه، إنه ما جُمعَ وأُلِّفَ إلا بطريقة عشوائية بحتة!

وهذا واقع يؤيده واقع آخر. وهو أن كثيراً من تذييلاته اللطيفة الخلابة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا توجد بينها وبين سياقها أية مناسبة، وإنْ وجدت فلا تكون إلا ضعيفة واهية لا يُعتدُّ بها. ولا يدل ذلك إلا على أنها أُضيفت حرصاً على سَجْعٍ خاص كان يريده القرآن».

Thus the Qur'an often gives the impression of having been produced by a rather haphazard method of composition, an impression that is further heightened by the fact that certain favourite phrases such as "but God is forgiving compassionate". "God is knowing, wise" "most of them know nothing" often have little or no connection with the immediate context and seem to have been added in order to produce a needed rhyme(1)

والآن أسائل نفسي، بعدما انتهيت من حديثي عن نظام هذه السور الثلاث، وعن مناسبات آياتها فيما بينها:

هل وُفِّقتُ في تفنيد هذه الدعوى، التي أطلقها المستشرقون قديماً وحديثاً؟

وهل استطعت أن أقدم شيئاً رصيناً محكماً يُظهر سخافةَ ما يتفوه به أعداء القرآن ضد القرآن؟

وهل استطعتُ أن أمسح عنه شيئاً مما يتّهمه به هؤلاء القوم؟

---

(١) موسوعة برتانيكا الحديثة: ١٥/٣٤٢.

لا أدري، بماذا يجيب المجيبون على هذا السؤال.

فقد يجيبون بـ«نعم» وقد يجيبون بـ«لا».

وعلى كلا الاحتمالين أقول: إن كان هذا العمل على غير ما يرام، وكان الناس يرون فيه ضعفاً أو خللاً، فلنرم به عرض الحائط، ولا حرج، ثم لنبحث جميعاً عن منهج آخر يسعفنا بالمقصود، ويساعدنا في إعداد شيء يشفي صدورنا، ويذهب غيظ قلوبنا، ويفنّد ذلك الطعن الذي طالما توجّه به أعداؤنا إلى قرآننا.

وإن كان الأمر غير ذلك، وكان هذا المنهج يتسم بالاستقامة والرصانة والمتانة، وكان جديراً بأن يُفحِمَ الأعداء ويُخزيهم، ويرد طعنهم إلى نحورهم فلنكن من ورائه، ولتكن منا طائفة تتبناه وتسهر عليه، وتُسخِّر له أفضل جهودها وطاقاتها، حتى يتحول هذا النبت الصغير، الذي بين أيدينا الآن، إلى درجة كبيرة غلباء، يكون أصلها ثابتاً، وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ذلك لأن هذا العمل العظيم الجليل يتطلّب منا جهوداً جبّارة عملاقة، ويتطلب أعماراً فتية نشيطة متوافرة!

وليس في استطاعة شخص واحد أن يقوم بحق هذا العمل، ولو بذل فيه من الجهد ما بذل.

وهنا قد يختلج في بعض الأذهان سؤال: إذا كان النظام في القرآن حقيقة ثابتة، وكان في ذات الوقت بتلك الخطورة والأهمية، فلماذا جُعلَ هكذا عزيزَ المنال، بحيث لا يبلغه كل من تطلع إليه، ومدّ إليه يديه. وإن بلغه أحد، فلا يبلغ إلا جزءاً يسيراً منه. حتى كان من الضروري - إن أردنا أن نقوم بحق هذا العمل أو ببعضه - أن تتفرغ له منا طائفة يسهرون عليه ويستفرغون له الجهد؟

إن هذا سؤال وجيه جداً.

ومن حسن حظنا أنه إن اختلج اليوم في أذهاننا، فقد اختلج قبل ذلك في ذهن الفراهي، فتناوله - رحمه الله - بالردّ والإيضاح، وجاء بكلام في غاية الروعة والدقة، حيث يقول:

«إن الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب لواجبات العقائد والشرائع فكذلك أنزله لتعليم

الحكمة، وجعل ذلك من أخص صفات نبينا ﷺ وبذلك جعله خير المعلمين، وأعطاه من الآيات ما يكون أكثر اتباعاً وأكمل تعليماً.

ولا يخفى أن تعليم الحكمة لا يتأتى بإلقاء المعارف، وإنما يتأتى باستعمال الفكر والعقل، وحثِّهِ وتنبيهه على النظر، حتى تبرز قواه الكامنة، كما هو الأصل في كل تربية.

فعلى هذا كما جُعل جانب من القرآن ظاهراً بيناً، فكذلك جعل جانب منه باطناً مكنوناً.

ولكي يهتدوا إلى بطونه، جعل الباطن على مدارج، لكي يترقى المجتهد في درجاته من الأقرب إلى الأبعد، فإن التربية لا تتم بدون ذلك.

والكلام إذا كان منظماً من جهته الظاهرة لم يحتج فيه الناظر إلى تأمل، ولكن إذا كان اتصاله تارة ظاهراً، وتارة خفياً، توقف الناظر وتأمل فيه. فإنه كيف يرضى بالخلل الفاحش في كلام الحكيم العليم، ولذلك آمن من آمن بالنظام.

ثم جعل الله تعالى ما أخفى من النظام على مراتب، فجعل أكثره على غاية البطون.

وإذ جعل النظام من أكبر ما يحثُّ به على النظر والتأمل، أخفى العمود، ولو صرح بالعمود لم يبق كبير مشقة في فهم النظام، وصار غير محتاج إلى النظر، وبطلت الحكمة.

وإذ أخفاه الله ليمتحن به العقول، لا بد أن يكون صعبَ المطلع، فكأنه وضعه مناط الثريا»(١).

وقال - رحمه الله - في موضع آخر: «الكلام لا يلتئم بعضه ببعض إلا بجامع يشتمل على أشتات المطالب. والجامع يكون أعلى وأوسع...

فمن طلب النظم لا بد أن ينظر فوق ما يراه حتى يجد جامعاً عاماً. وهذا الطلب هو سلم الحكمة. ولا يتعاطى ذلك إلا ذو بصيرة وذكاء.

ولولا ذلك لما جعل الله نظام كلامه محل التدبر والتفكر.

فأما كونه محل التدبر والتفكر فمبسوط في موضعه، وإنما المقصود هنا أن الله تعالى

---

(١) دلائل النظام: ٧٨-٧٩.

راعى ذلك ليعلّمهم الحكمة، ويرشحهم لملكة هي أصل العلم والمعرفة، لا نفس المعلومات، فإنها منحصرة محدودة. ثم العلم بها ليس من الملكة المقصودة في شيء.

قد أشار إلى كون القرآن عليّاً لاشتماله على الحكمة، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف][1].

فهذه النكتة التي أشار إليها الفراهي قيّمة وهامة جداً. وهي تفسّر لنا خير تفسير ما أُثِرَ عن الصحابة - رضي الله عنهم - من طريقتهم في تلقي القرآن، حيث قال أبو عبدالرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوهنّ حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً[2].

فهم ما كانوا يقيمون هذه الإقامة الطويلة المتأنيّة على عشر آيات من القرآن إلا لأنهم كانوا يدركون جيداً أن هذا القرآن ما جاءهم ليلقي عليهم جملةً من الأحكام والأنظمة فحسب، وإنما جاءهم لغاية أكبر من ذلك.

إنه جاءهم ليربي قلوبهم وعقولهم، ويربي مشاعرهم وأفكارهم، ويغيّر مقاييسهم وموازينهم حتى ينشئهم خلقاً آخر.

وهكذا كان. فقد أنشأهم القرآن خلقاً آخر، وجعل منهم أمة فريدة تفيض بالعلم والحكمة، وقد كانوا قبل ذلك يتيهون في الجاهلية والعمى!

ولم يحصل ما حصل من هذا الانقلاب العظيم في معنوياتهم ومواهبهم إلا بفضل ذلك الأسلوب الحكيم، الذي أنزل عليه القرآن.

ولو كان القرآن واضحاً كل الوضوح، ولم يكن نَظْمهُ بعيد القعر، عزيز المنال، ولم تكن فيه تلك المعضلات التي لا تُحَلُّ إلا بعد تدبر طويل وطويل، لما استطاع أبداً أن يشحذ تلك العقول ويلقّح تلك القرائح، ولما استطاع أبداً أن يبني من مثل هؤلاء القوم جيلاً فريداً يفيض بالعلم والحكمة، ويكون غنياً بتلك المؤهّلات، التي قلّما اجتمعت في أمة!

---

(١) المرجع السابق: ٣٣.

(٢) تفسير الطبري: ١/ ٢٧.

وبالجملة فهذه النكتة التي أشار إليه الفراهي قيّمة وهامة جداً.

ولقد غابت عنا فلم نعد نقيم تلك الإقامة الطويلة المتأنية على آيات القرآن.

وقلنا: مالنا نرهق أنفسنا في شيء قد كُفِيناه؟

فقد كفانا سلفنا الصالحون مؤونة التأمل في آيات القرآن، حيث إنهم وقفوا أعمارهم لدراسته، ثم استنبطوا لنا الأحكام وخرّجوا لنا المسائل، وجمعوا لنا الفوائد.

فهذه المجلدات الضخام في تفسيره كفيلة بكل ما نريده ونحتاج إليه.

ثم ليس هذا فحسب، بل هناك مكتبة كبيرة حافلة تشتمل على جميع ما يتضمنه القرآن من أصناف العلوم.

فهناك قسم كبير لكتب العقائد، وهي كفيلة بأن تبين لنا كل ما ورد في القرآن مما له صلة بقضايا العقيدة.

وهناك قسم كبير لكتب الفقه، وهي كفيلة بأن تبيّن لنا كل ما ورد في القرآن مما له صلة بالأنظمة والأحكام.

وهناك قسم كبير لكتب الفرائض، وهي كفيلة بأن تبين لنا كل ما ورد في القرآن مما له صلة بالفرائض والمواريث.

وهناك قسم كبير لكتب الفرائض، وهي كفيلة بأن تبين لنا كل ما ورد في القرآن مما له صلة بعلم الأخلاق.

و... و... و...

ثم هناك كتب الحديث فيها تفصيل لكل شيء.

فلم يبق لنا بعد ذلك إلا أن نستفيد من تلك الجهود المباركة الجبارة التي بذلها عمالقة الرجال في سبيل خدمة القرآن.

وأما القرآن نفسه فيكفينا منه أن نحفظه ونحفّظه أبناءنا حتى نستزيد من الأجر ونستكثر من البركة.

هكذا قال الناس ويقولون!

ومن لم يقله بلسان المقال، قاله بلسان الحال.

فليعلم هؤلاء جميعاً أن هذه الكتب قد تمدّنا بكل شيء، ولكنها لن تمدنا بتلك الحكمة التي بُعث لأجل تعليمها النبيُّ ﷺ ولن تمدنا بتلك الحكمة التي جعلت من رعاء الشاء والبعير أساتذة العالم وقدوة الأمم!

فهذه الحكمة لا يُلقّاها إلا من يعيش هذا القرآن ويعكف عليه، ويتذوّقه ويتدبّره، ويحيي به ليله ونهاره، ويحرص عليه كما حرص عليه صحابة رسول الله ﷺ.

وأما الكتب الأخرى فهي لا تزيد على أن تكون وسائل إليه، وما كان لها أبداً أن تغني غناءه.

إذاً فلنعد إلى قرآننا العزيز الحبيب من جديد!

ولنعد إليه لنتدبر آياته، ونكتشف حسن نظامه، ونبحث عما أودع في نظمه البديع الرصين من نفائس المعاني وفرائد الحكم.

حتى ندفع عنه ذلك الطعن الذي طالما وجّه إليه من أعدائه!

وحتى ننعم بذلك العزّ والمجد والسؤدد الذي لا ينعم به إلا من أحسن صلته به، واستفرغ مجهوده للفوز بحكمته.

وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام - وهو الصادق المصدوق -: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)(١).

هذا ما أردنا أن نبوح به في هذا الختام.

وخير ما نختتم به هذا الختام ذلك الدعاء الجميل الذي كان يدعو به سيدنا عمر بن الخطاب، وهو قوله - رضي الله عنه -: (اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت. إنك على كل شيء قدير)(٢).

---

(١) صحيح مسلم، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه: ١/٥٥٩، رقم الحديث (٨١٧).

(٢) العقد الفريد: ٢/١٣٣.

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، القائل: (خيركم مَنْ تعلم القرآن وعلمه)[1].

فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وبارك وسلم تسليماً كثيراً كثيراً.

* * *

(١) مختصر سنن أبي داود، باب في ثواب قراءة القرآن: ٢/ ١٣٣، رقم الحديث (١٤٠٢).

مراجع البحث

- أحكام القرآن للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص - دار الكتاب العربي - بيروت.

- أحكام القرآن للإمام أبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ت: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

- الأربعون الصغرى للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت: محمد نور بن محمد أمين المراغي، إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة، قطر.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- أساس البلاغة للزمخشري - ت: الأستاذ عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

- أسرار ترتيب القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق: عبدالقادر أحمد عطا - دار الاعتصام، ط ثانية ١٣٩٨هـ.

- الأصمعيات، ت: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون - دار المعارف - القاهرة.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، ١٣٨٦هـ.

- إمعان النظر في نظام الآي والسور لمحمد عناية الله أسد سبحاني، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض - دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن.

- البرهان في ترتيب سور القرآن، للعلامة أبي جعفر بن الزبير (مخطوط) وتوجد نسخة منه في الخزانة الشرقية العمومية بمدينة عظيم آباد، الهند، وهي التي تحت أيدينا الآن.

- تاريخ الطبري للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بالقاهرة، ط ثانية.

- تبصير الرحمن وتيسير المنان للعلامة علي بن أحمد إبراهيم المهايمي، عالم الكتب - بيروت.

- تدبر قرآن لسماحة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، مكتبة فاران، باكستان.

- تفسير ابن أبي حاتم، دراسة وتحقيق: عبد الله علي أحمد الغامدي - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في جامعة أم القرى، مكة المكرمة، سنة ١٤٠٧هـ.

- تفسير البحر المحيط للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الفكر - بيروت - ط ثانية ١٤٠٣هـ.

- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن للإمام أبي محمد الحسن الفراء البغوي، دار الفكر - بيروت.

- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن، دار الفكر - بيروت.

- تفسير سورة الفاتحة للإمام عبد الحميد الفراهي، مطبعة إصلاح - الهند.

- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، المطبوع على هامش تفسير الإمام الطبري.

- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة الدينوري، ت: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر.

- التفسير القيم للإمام ابن القيم، ت: محمد حامد الفقي - لجنة التراث العربي - بيروت.

- التفسير الكبير للإمام فخر الرازي، دار الكتب العلمية - طهران.

- تفسير النسفي للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتب العربي - بيروت.

- تفسير النهر الماد من البحر للإمام أبي حيان المطبوع على هامش تفسير البحر المحيط.

- تفهيم القرآن للأستاذ الإمام أبي الأعلى المودودي، مكتبة ترجمان القرآن، باكستان.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ثالثة: ١٣٨٨هـ.

- الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، ت: الدكتور محمد علي الهاشمي، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

- الحماسة لأبي تمام، ت: الدكتور عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

- دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب - دار الشروق، بيروت، ط ثالثة، ١٤٠٢هـ.

- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي برواية ابن أبي الفرج الأردستاني، ط رابعة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ.

- الدر المنثور في التفسير المأثور للإمام عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- دقائق التفسير للإمام ابن تيمية، جمع وتحقيق: د. محمد السيد الجليند، دار الأنصار بالقاهرة.

- دلائل النظام للإمام عبد الحميد الفراهي الدائرة الحميدية، الهند.

- ديوان امرىء القيس، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت.

- دار جرير بشرح: محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

- ديوان الخنساء، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

- ديوان ذي الرمة، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر لصاحبه محمد زهير الشاويش.

- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

- ديوان عبيد بن الأبرص، دار صادر، بيروت.

- ديوان عمرو بن قميئة، ت: خليل إبراهيم عطية، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٣٩٢هـ.

- ديوان كعب بن زهير، بشرح السكري، دار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٥هـ.

- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، للإمام عبد الحميد الفراهي، مطبعة معارف، الهند.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط أولى، ١٣٨٤هـ.

- زاد المعاد للإمام ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأرنؤوط، عبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ثانية، ١٤٠٥هـ.

- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت: إبراهيم عطوة عوض ومحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

- سنن الدارقطني، تحقيق وتصحيح: السيد عبدالله هاشم، دار المحاسن للطباعة - القاهرة.

- سنن الدارمي للإمام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، طبعة استنابول، تركيا.

- السنن الكبرى للبيهقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، لعلي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

- سيرة النبي لابن هشام، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر.

- الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، طبعة استانبول، تركيا.

- الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ١٤٠٢هـ.

- صحيح ابن خزيمة، تحقيق وتعليق: د. محمد مصطفى الأعظمي، ط ثانية، ١٤٠١هـ.

- الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وتعليق، محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة استانبول.

- العقد الفريد للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ت: محمد سيد العريان، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٧٢هـ.

- العهد القديم والعهد الجديد المسمى (الكتاب المقدس).

- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي، ١٣٥٣هـ.

- فتح القدير للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٨٣هـ.

- في ظلال القرآن للأستاذ الإمام سيد قطب، دار الشروق، بيروت.

- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الجيل.

- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩م.

- كتاب الأشربة لابن قتيبة الدينوري، ت: محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٦هـ.

- كتاب الأمالي، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتاب

العربي، بيروت.

- كتاب المصباح المنير لابن المقري، بيروت.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت.

- لسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، مكتبة القدسي بالقاهرة، ١٣٥٢هـ.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس. مديرية الشؤون الإسلامية ١٣٩٧هـ.

- مختصر تفسير المنار للأستاذ العلامة محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي، بيروت، ط أولى، ١٤٠٤هـ.

- مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، ت: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

- مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للإمام زين الدين الزبيدي، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٥هـ.

- مذكرات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي (مخطوط).

- المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل، ت: د. محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

- المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ثانية، ١٣٩٧هـ.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، طبعة استانبول، تركيا، ١٤٠٢هـ.

- المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة، ت: مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، بومباي، الهند.

- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

- مفردات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، مطبعة إصلاح، الهند.

- ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي الغرناطي، ت: د. محمد كامل أحمد.

- مؤسسة برتانيكا الحديثة، ١٩٨٢م.

- موطأ الإمام مالك:

(١) بشرح الزرقاني، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط أولى، ١٣٨١هـ.

(٢) طبعة استانبول، بدون شرح الزرقاني.

- النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط ثانية، ١٣٩٠هـ.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٨٩هـ.

- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، لنور الدين علي بن أحمد السمهودي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة